ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة
وبيع منها ما يزيد على مليون نسخة

رواية

الحب المحرِّر

الطبعة الرابعة



فرنسين ريفرز

رواية

الحب المحرر

رواية

الحب المحرِّر

فرنسين ريفرز

ترجمة: سعيد باز

ophir

Originally published in English under the title:

Redeeming Love

Arabic Edition Published by arrangement with Browne & Miller Literary Associates, LLC.
410 South Michigan Avenue., Suite 460, Chicago, Illinois 60605 U.S.A.

Second print 2007
Third print 2013
Fourth print 2014

الحب المحرِّر

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٧
الطبعة العربية الثانية ٢٠٠٧
الطبعة العربية الثالثة ٢٠١٣
الطبعة العربية الرابعة ٢٠١٤

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢ ، عمان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+
فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+
Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٥/١٤٦٥
ISBN: 978-90-5950-187-4

إلى أولئك الذين يُعانُون ويَتوقُون...

شكر وعرفان

كلُّ الشكر لكارين بول (Karen Ball)، محرِّرة كتابي هذا، لإيمانها بهذا الكتاب ومساعدتها في تحريره وإخراجه إلى القارئ الحبيب

مَن كان منكم بلا خطيَّة، فليرمِها أوَّلًا بحجر.

(المسيح، إنجيل يوحنًّا ٨: ٧)

الفهرس

بنت الظلام

توطئة

سُلطانُ الظلام يبدو فتىً ماجِدًا.

(شكسبير)

نيو إنغلَند، ١٨٣٥م

كان أليكس ستافُورد كما قالت عنه ماما تمامًا. طويل القامة، أسمر البشرة، لم ترَ سارة أجمل منه. حتَّى إنَّه، في ثياب ركوب الخيل المغبَّرة وشعرُه مبلولٌ بالعَرَق، بدا شبيهًا بالأُمراء في القصص التي قرأتها ماما. وقد خفق قلب سارة بفرحٍ غامر وفخرٍ نادر. فليس بين الآباء الآخرين الذين شاهدتهم في الكنيسة مَن يُشبِهُهُ.

نظر إليها بعينيه القاتمتَين، فارتقص قلبها. كانت لابسةً أفضل فستان أزرق لديها، ومئزرًا أبيض، وقد ضفرت ماما شعرها وربطته بشريطتين، قرنفليَّة وزرقاء. هل أعجب منظرُها بابا؟ قالت ماما إنَّ الأزرق هو لونه المفضَّل، ولكنْ لماذا لم يبتسم؟ أهي مُمِلَّة؟ كذلك قالت ماما إنَّ عليها أن تقف مستقيمة وساكنة وتتصرَّف كأنَّها سيِّدة. وقالت ماما إنَّ ذلك سيُعجِبه. إلَّا أنَّه لم يبدُ مسرورًا قطّ.

بادرت ماما قائلةً بصوتٍ بدا غريبًا ومشدودًا كما لو كانت تختنق: "أليست جميلةً يا ألكس؟ أليست أجمل بنتٍ صغيرة رأيتَها يومًا؟"

ولاحظت سارة العبوس باديًا في عينَي بابا السوداوين. لقد بدا غاضبًا، كما تبدو ماما أحيانًا عندما تُكثِر سارة من الكلام، أو تسأل أسئلة فوق الحدّ.

وتكلَّمت ماما بسرعة، بسرعة زائدة. أكانت خائفة؟ ولكنْ لماذا؟ قالت: "دقائق قليلة فقط. هذا كلُّ ما أطلبه يا أليكس. رجاءً. ذلك سيعني لها الكثير".

حدَّق أليكس ستافُورد إلى سارة من فوق. كان فمه مزمومًا فيما راح يتفحَّصها صامتًا، وهي واقفة بلا حراك قدرَ استطاعتها. لقد تأمَّلت صورتها في المرآة صباح اليوم، وهي تعرف ماذا سيراه. كان لها ذقنُ أبيها وأنفُه، وشعرُ أمِّها الأشقرُ وبشرتُها البيضاء. وكانت عيناها أيضًا كعينَي أُمِّها، مع أنَّهما كانتا أكثر زُرقةً. وقد أرادت أن يعتبرها بابا جميلة، فحدَّقت إليه رافعةً رأسها بأمَل. غير أنَّ نظرات عينيه لم تكُن مُطَمئنة.

"هلِ اخترتِ اللَّون الأزرق قصدًا يا مَيّ؟... لأنَّه يُبرِز لون عينيها؟"

أجفلت سارة من كلمات بابا هذه التي تميَّزت بالبرودة والغضب، ولم تستطع تحمُّل الأمر، فنظرت إلى أمِّها وقد غاص قلبُها، فإذا بوجه أمِّها ينضح ألَمًا.

ألقى أليكس نظرةً على البهو، وتساءل: "أين كلِيو؟"

فقالت ماما بهدوء، مُبقيةً رأسها عاليًا: "ليست هنا. لقد أعطيتُها اليوم عطلة".

بدت عينا بابا أكثر قتامًا بعدُ وهو يقول: "صحيح؟ من شأن ذلك أن يُخليَ لكِ الساحة. أليس كذلك يا عزيزتي؟"

جمدت ماما قليلًا، ثمَّ عضَّت شفتها وأومأت بعينَيها إلى سارة. تُرى، ما الخطب؟ ساءلت سارة نفسها بحزن. ألم يكن بابا مسرورًا برؤيتها؟ لقد تشوَّقَت كثيرًا أن تقابله أخيرًا، ولَو هُنيهة...

وجَّهت ماما كلامها إلى بابا: "ماذا تريد منِّي أن أفعل؟" فظلَّت سارة صامتة، إلَّا أنَّها لم تفقد الأمل.

"ابعثيها وراء كلِيو، فهي تعرف أين تجدها، على ما أعتقد". فتورَّد خدَّا ماما، وقالت: "ماذا تقصد يا أليكس؟ أنِّي أستقبل غيرك في غيابك؟"

ضاعت بسمة سارة وسط ارتباكها. كانا يتكلَّمان بمنتهى البرودة أحدُهما مع الآخر. ولم ينظر إليها أيٌّ منهما. هل نسيا أنَّها هناك؟ ما المشكلة؟ لقد سيطر الذهول على ماما. فلماذا غضب بابا بسبب غياب كلِيو عن البيت؟

نظرت سارة إلى كليهما وقد عضعضت شفتها. ثمَّ اقتربت، وشدَّت معطف أبيها. "بابا..."

"لا تناديني بهذا".

طرفت عيناها، خائفةً ومرتبكةً من تصرُّفه. لقد كان هو أباها. هكذا قالت ماما. حتَّى إنَّه كان يُحضِر لها هدايا كلَّما جاء. وماما أعطتها إيَّاها. لعلَّه غضبان لأنَّها لم تشكُره قطّ. "أودُّ أن أشكرك على الهدايا التي ..."

قالت ماما فورًا: "سكوتًا يا سارة. ليس الآن يا حبيبتي!"

فرمق بابا ماما بنظرةٍ راعدة: "دعيها تتكلَّم. أليس هذا ما أردتِه؟ لماذا تُسكِّتينها الآن يا ميّ؟"

تقدَّمت ماما أكثر، ووضعت يدها على كتف سارة. وكان في وسع سارة أن تحسَّ أصابع ماما ترتجف. إلَّا أنَّ بابا انحنى صوبها مبتسمًا، وقال: "أيَّة هدايا؟"

بدا لها وسيمًا جدًّا، كما قالت ماما تمامًا. وشعرت بالفخر لأنَّ لها أبًا مثله.

"قولي لي، يا صغيرة!"

فقالت سارة، شاعرةً بالدفء والفخار حيال عطفه واهتمامه: "تعجبني دائمًا السكاكر التي تجلبها لي. هي طيِّبة جدًّا. ولكنْ أكثرَ الكلِّ تعجبني الوزَّة البلَّوريَّة؟"

ابتسمت من جديد وهي تتألَّق فرحًا لإصغاء بابا إليها بكلِّ انتباه. بل إنَّه ابتسم أيضًا، وإن لم تتأكَّد سارة من إعجابها بابتسامته. فقد كانت ضيِّقة ومشدودة.

ثمَّ اعتدل وقال، ناظرًا إلى ماما: "صحيح؟ يسرُّني جدًّا أن أعلم كم تعني هداياي".

فرفعت سارة نظرها إلى أبيها، مبتهجةً باستحسانه، وقالت: "وضعتُها على حافة شُبّاكي. الشمس تبعث أشعَّتها من خلالها وتجعل الألوان تتراقص على الحائط. أتحبُّ أن تأتي معي لترى؟" ثمَّ أمسكت بيده. لكنَّه انتفض مبتعدًا، فطرفت عيناها وقد شعرت بالألم، غيرَ فاهمةٍ شيئًا.

عضَّت ماما شفتها ومدَّت يدها نحو بابا، ثمَّ توقَّفت فجأةً. وظهر عليها الخوف من جديد. وقلَّبت سارة نظرها بين والِدَيها، عسى أن تفهم. فيمَ أخطأت؟ ألم يسرّ بابا أنَّها أُعجِبت بهداياه؟

"هكذا إذًا، تُعطينَ البنت هداياي! جيِّد أن أعرف قيمتها في نظرك".

عضَّت سارة شفتها حيال البرودة في صوت بابا. ولكنْ قبل أن يُتاح لها أن تتكلَّم، مسَّت ماما كتفها برفق، وقالت: "حبيبتي، كوني بنتًا عاقلة، واخرجي خارجًا والعبي الآن".

رفعت سارة نظرها متضايقة. هل أخطأت في أيِّ تصرُّف؟ "ألا يمكنني أن أبقى؟ سأكون هادئة جدًّا". ولم يبدُ أنَّ ماما تقدر أن تقول أكثر من ذلك. فقد اغرورقت عيناها، شاخصةً إلى بابا.

انحنى أليكس نحو سارة وقال بهدوء: "أُريد منك أن تخرجي خارجًا وتلعبي. أودُّ أن أتحدَّث مع أُمِّك وحدنا". ثمَّ ابتسم وربَّت خدَّها.

ابتسمت سارة، مفتونةً تمامًا. لقد لمسها بابا، ولم يكن غاضبًا قطّ. إنَّه يحبُّها! تمامًا كما قالت ماما. "هل يمكن أن أرجع عندما تُنهيان حديثكما؟"

فاعتدل بابا بتصلُّب، وقال "ستخرج أُمُّكِ وتأتي بكِ عندما تصير جاهزةً. والآنَ اركُضي إلى الخارج كما قلتُ لكِ".

"نعم بابا". ودَّت سارة لو تبقى، ولكنَّها أرادت أن تسرَّ أباها أكثر. فخرجت من

غرفة الاستقبال، وسارعت الخطو عبر المطبخ نحو الباب الخلفيّ. ثمّ قطفت شيئًا من زهر الأُقحوان من مرجة الحديقة بقرب الباب، وبعدئذٍ توجّهت إلى تعريشة الورد. وأخذت تنتف وريقات الزّهر قائلةً: "يحبّني... لا يحبّني... يحبّني... لا يحبّني". وسكتت إذْ دارت حول الزاوية. لم تُرِد أن تزعج ماما وبابا. أرادت فقط أن تكون قريبةً منهما.

راحت سارة تحلم راضيةً. وربّما يحملها بابا على كتفيه. وتساءلت هل يصحبها في جولةٍ على ظهر حصانه الأسود الكبير. سيكون عليها طبعًا أن تغيّر فستانها. فهو لن يريد أن تُوسّخه. وودّت لو سمح لها بالجلوس في حضنه وهو يُحدّث ماما. كان من شأن ذلك أن يروقها كثيرًا، وما كانت لتُزعج بابا طبعًا.

كان شبّاك غرفة الاستقبال مفتوحًا، فاستطاعت أن تسمع صوتيهما. كان يروق ماما أن تعبق رائحة الزهور في الرّدهة. وأرادت سارة أن تقعد وتُصغي إلى حديث أبويها. بتلك الطريقة تعرف تمامًا متى يريد بابا أن ترجع إلى الداخل. وإذا قعدت صامتةً، فلن تزعجهما، وكلّ ما ينبغي أن تفعله ماما هو أن تطلّ برأسها وتُناديَها باسمها.

"ماذا كان عليّ أن أعمل يا أليكس؟ لم تقضِ معها قطُّ ولو دقيقةً واحدة. ماذا كان عليّ أن أقول لها؟ أنّ أباها لا يعنيه أمرُها؟ أنّه يتمنّى لو لم تولَد أصلًا؟"

انفرجت شفتا سارة. أنكِر الأمر يا بابا، أنكِره!

"لقد جلبتُ لكِ أنتِ الوزّة من أوروبا، فرميتِها إلى بنتٍ لا تُقدّر قيمتها أبدًا. هل أعطيتِها اللآلئ أيضًا؟ وماذا بشأن الصندوق الموسيقيّ؟ أعتقد أنّها حصلت عليه أيضًا!"

سقطت الأُقحوانات من يد سارة. وقعدت على الأرض غيرَ آبِهةٍ بفستانها الجميل. وقد تباطأت دقّات قلبها بعد فرحٍ غامرٍ ولّى. وبدَا أنّ كلّ ما بداخلها يغور هبوطًا مع كلّ كلمة.

"أليكس، رجاءً! لم أرَ ضررًا في ذلك. لقد سهّل الأمور. فهذا الصباح سألَتني هل كبرَت كفاية حتّى تقابلك. وهي تسألُني كلّما علمَت أنّك آتٍ. فكيف يمكنني أن أقول لها 'لا' مرّةً أُخرى؟ لم يطاوِعني قلبي. إنّها لا تفهم إهمالك، ولا أنا أفهمه".

"أنتِ تعرفين حقيقة شعوري تجاهها".

"كيف يمكنك أن تعبّر عن شعورك هذا؟ إنّك لم تعرفها بعد! هي بنتٌ رائعة يا أليكس. هي نشيطة وفاتنة ولا تخاف شيئًا. إنّها مثلُك من نواحٍ كثيرة. إنّها شخصيّة ذات شأن يا أليكس! لا يمكنك أن تتجاهل وجودها إلى الأبد. إنّها ابنتُك..."

"عندي ما يكفي من الأولاد من زوجتي. أولاد شرعيُّون. قلتُ لكِ إنَّني لم أُرِد ولدًا آخر".

"كيف يمكنك أن تقول هذا؟ كيف تقدر ألَّا تحبَّ لحمك ودمك؟"

"قلتُ لكِ كيف شعرتُ من البداية. لكنّكِ لم تُصغي. ما كان يجب أن تُولَد قطعًا، ولكنّكِ يا ميّ أصررتِ على تنفيذ رأيِك".

"هل تعتقد أنَّني أردتُ أن أحبل؟ هل تعتقد أنَّني نويتُ أن أُنجِبها؟"

"غالبًا ما تساءلتُ عن هذا. خصوصًا عندما رتَّبتُ لكِ طريقةً للخروج من الورطة، فرفضتِ. كان في وسع الطبيب الذي أرسلتُه إليكِ أن يحلَّ المشكلة من أساسها. كان يمكنه أن يتخلَّص من..."

"لم أستطع القيام بذلك. كيف كان في وسعك أن تتوقَّع منِّي قتل جنيني؟ ألا تعي؟ هذه خطيئة مُميتة!"

فقال ساخرًا: "لقد قضيتِ في الكنيسة أوقاتًا أطول من اللازم. هل خطر في بالكِ مرَّةً أنّكِ لو تخلَّصتِ منها كما رتَّبتُ لك ما واجهتِ هذه المشاكل. غير أنّكِ هربتِ!"

وقالت ماما بانكسار: "لقد أردتُها! كانت جزءًا منك يا أليكس، وجزءًا منّي. وقد أردتُها حتَّى رُغمَ رفضكَ لها..."

"أذلك هو السبب الحقيقيّ؟"

"إنَّك تؤذيني يا أليكس!"

وأجفلت سارة لمَّا تحطَّم شيءٌ ما. "أذلك هو السبب الحقيقيُّ يا ميّ؟ أمِ احتفظتِ بها لأنّكِ حسبتِ أنَّ حَمْلكِ بطفلي يُمكِّنكِ منِّي بطريقةٍ لا تتأتَّى لكِ لولاه؟"

آنذاك أخذت ماما تبكي. "لا يمكنك أن تصدِّق ذلك! ألستَ تُصدِّقه؟ أنت غبيٌّ يا أليكس. آه، ماذا فعلتُ؟ لقد تخلَّيتُ عن كلِّ شيء لأجلك! عائلتي، أصدقائي، احترامي لذاتي، كلّ ما آمنتُ به، كلّ أملٍ داخلني يومًا..."

"اشتريتُ لكِ هذا البيتَ الريفيَّ، وأنا أُعطيكِ كلَّ ما يمكن أن تحتاجي إليه من المال".

علا صوت ماما بنبرة غريبة. "أتعرف ماذا يعني لي سَيري في شوارع هذه البلدة؟ أنتَ تأتي وتمضي متى أردتَ وكيفما شئت. وهم يعرفون مَن أنت وما أنا. لا أحد ينظر إليَّ، ولا أحد يتكلم إليَّ. وسارة أيضًا تشعر بذلك. وقد قلتُ لها إنَّنا نختلف عن الآخرين. ولستُ أدري ماذا أقول لها بعد". ثُمَّ تهدَّج صوتها وأضافت: "على الأرجح أنَّني سأذهب إلى جهنّم بسبب ما آلت إليه حالي".

"سئمتُ شعورك بالذنْب، وسئمتُ سماع حديثك عن تلك البنت. إنَّها تُفسِد كلَّ ما بيننا. هل تذكرين كم كُنَّا سعيدَين؟ لم نكن نتشاجر قطّ. وما كنتُ أحتمل الانتظار حتَّى آتيَ إليك وأكونَ معك!"

"لا داعيَ..."

"وكم بقي لي من الوقت معكَ اليوم؟ ما يكفي؟ لقد بدَّدتِه عليها. قلتُ لكِ ما سيحدث... ألم أقُل؟ يا ليتها لم تولَد بتاتًا!"

تفوَّهت ماما بشتيمة ثقيلة، ثُمَّ سُمع صوتُ تحطُّم. وإذِ ارتاعت سارة، قامت وركضت مبتعدةً تُسارِع الخطو بين ورود ماما وعبر المرجة نحو الممرِّ المؤدِّي إلى المبنى الصغير فوق النَّبع. ركضَت حتَّى لم تعُد تقدر أن تركض بعد. ثمَّ تهاوت لاهثةً وجنباها في حُرقة، وسط العشب الطويل، وأخذت كتفاها تجيشان مع تنهُّداتها وتأوُّهاتها والدموع تنهمر على وجهها. وسمعت حصانًا يعدو صوبها. فاندفعت مذعورةً لتختبئ في مكانٍ أفضل بين دوالي العنب قرب الجدول، واسترقَت النظر فرأت أباها يجتاز راكبًا على حصانه الأسود الكبير. فلبدت وتكوَّمت في مكانها باكيةً، تنتظر مجيء ماما لاصطحابها.

ولكنَّ ماما لم تأتِ، وهي لم تُنادِها. وبعد قليل، عادت بخُطى متثاقلة إلى مبنى النبع وقعدت قرب الدوالي المُزهِرة، حيث طال انتظارها. وحين جاءت ماما، كانت سارة قد كفكفت دموعها ونفضت الغبار عن فستانها الجميل. إلَّا أنَّها كانت ما تزال ترتجف مرتعدةً ممَّا سمعتْه.

كان وجه ماما شاحبًا جدًّا، وعيناها غائرتين وحمراوَي الجفون. وكان على وجهها كدمةٌ زرقاء قد حاولت إخفاءها بالبودرة الزهريَّة. وابتسمت، إلَّا أنَّ ابتسامتها لم تكن تلك الابتسامة المعهودة.

"أين كنتِ يا حبيبتي؟ لقد فتَّشتُ عنكِ كثيرًا". وعرفت سارة أنَّها لم تفعل ذلك، بل كانت تنتظر رجوعها. ثمَّ بلَّلت ماما بريقِها طرف منديلها المخرَّم ومسحت لطخةً عن خدِّ سارة. "استُدعيَ أبوكِ على عجَل في شأنٍ من شؤون العمل".

سألت سارة خائفةً: "أهو راجع؟" فهي لم تُرِد قطُّ أن يرجع، بعدما آذى ماما وأبكاها.

"ربَّما يطول غيابه هذه المرَّة. ما علينا إلَّا الانتظار حتَّى نعرف. إنَّه رجل كثير الأشغال وعالي الشأن".

لم تقُل سارة كلمة واحدة، فأنهضتها أمُّها وضمَّتها إلى صدرها بشدّة، قائلةً: "لا بأس يا حبيبة قلبي. أتعرفين ما سنفعله؟ سنرجع إلى البيت ونغيِّر ثيابنا. ثمَّ نعدُّ زادًا

ونقوم بنزهةٍ إلى ضفَّة الجدول. أيروقُكِ ذلك؟"
أومأت سارة برأسها إيجابًا، وطوَّقت عنق ماما بذراعيها. ارتجف فمها وحاولت ألّا تبكي. فلو بكت، لربَّما عرفت ماما أنَّها كانت تتسمَّع خلسةً فغضبت هي أيضًا.
احتضنتها ماما بقوَّة ووجهها مدسوسٌ في شعر الصغيرة. "سنجتاز هذه الأزمة. سترَين ذلك يا حبيبة قلبي. نعم، سنجتازها، سنجتازها!"

لم يرجع أليكس، وازدادت ماما نحولًا وشحوبًا. كانت تتأخَّر كثيرًا في مغادرة السرير. وعند نهوضها، لم تعُد ترغب في التنزُّه مشيًا وقتًا طويلًا كسابق العادة. وإذا ابتسمت، لم تكن عيناها تتألَّقان. وقالت كلِيو إنَّ عليها أن تأكل أكثر. وما أكثر ما قالته كلِيو بلامبالاة وسارة قريبةٌ منها بحيث تسمع!
"ما زال يبعث إليكِ بالمال، يا ستُّ ميّ. وهذا مهمٌّ جدًّا".
اغرورقت عينا ميّ. "لا يهمُّني المال، وما همَّني يومًا".
"كان يهمُّكِ لو لم يكُن عندك شيءٌ منه".
حاولت سارة تعزية ماما بإحضار باقات زهر كبيرة لها. وكانت تجد حجارةً جميلة فتغسلها وتُقدِّمها إليها هدايا، فتبتسم ماما دائمًا وتشكرها، ولكنْ لم يكُن في عينيها أيُّ بريق. وكانت سارة تُغنِّي أغانيَ علَّمتها إيّاها ماما، أغانيَ إرلندية ريفيَّة حزينة وتراتيل لاتينيَّة قليلة ممّا يُرتَّل في القُدّاس.
صعدت سارة إلى السرير بجانب ماما، ووضعت دُميَتها على الأغطية المغضَّنة، ثمَّ سألتها: "ماما، لماذا لم تعودي تُغنِّين. ستشعرين بتحسُّن إذا غنَّيتِ".
مرَّرت ماما الفرشاة ببطء في شعرها الأشقر الطويل. "لا أشعر بميلٍ قويّ إلى الغناء يا حبيبتي. فِكر ماما مشغولٌ الآن بهمومٍ كثيرة".
شعرت سارة بغمامة ثقيلة تتلبَّد داخل صدرها. لقد كانت الغلطة غلطتها هي، غلطتها هي كليًّا. فلو لم تُولَد، لكانت ماما سعيدة. "أراجعٌ أليكس يا ماما؟"
نظرت ماما إلى سارة، ولكنَّ سارة لم يهمَّها شيء. لن تدعوه بابا بعد. لقد آذى ماما وأحزنها. ومنذ رحيله، قلَّما أعارتها ماما انتباهًا. حتَّى إنَّها سمعت ماما تقول لكلِيو إنَّ الحبَّ ليس نعمة، بل نقمة.
ألقت سارة نظرةً على وجه ماما، فغاص قلبها. كان منظر ماما كئيبًا جدًّا، وأفكارها

سارحة من جديد. فعرفت سارة أنّها كانت تُفكِّر فيه. لقد أرادت ماما له أن يعود، وكانت تبكي في الليالي لأنَّه لم يعُد. كانت تدسُّ وجهها في الوسادة، ولكنَّ سارة كانت تسمع نشيجها وتأوُّهَها.

عضعضت سارة شفتها وخفضت رأسها، وقالت وهي تلعب بدُميتها ساهيةً: "ماذا لو مرضتُ ومتُّ يا ماما؟"

قالت ماما ناظرةً إليها: "لن تمرضي". ثمَّ ابتسمت وأضافت: "وأنتِ أصغر سنًّا وأوفر صحّةً من أن تموتي".

راقبت سارة أُمَّها وهي تُفَرشي شعرها، فبدا لها كأشعَّة الشمس تنساب على كتفيها الهزيلتين. ما أجمل ماما! كيف استطاع أليكس ألَّا يحبَّها؟ "ولكنْ يا ماما، إذا مرضتُ ومتُّ فهل يرجع ويبقى معك؟"

ظلَّت ماما صامتة. ثمَّ التفتت ونظرت إلى سارة، فروَّعتها نظرات عينيها المذعورة. ما كان يجب أن تقول ذلك. فالآن قد تحزر ماما أنّها سمعتهما يتشاجران...

"إيَّاكِ أن تُفكِّري في ذلك يا سارة!"

"ولكن..."

"لا! لا تسألي هذا السؤال مرَّة أُخرى أبدًا. هل فهمتِ؟" لم يسبق أن رفعت ماما صوتها قطّ، فأحسَّت سارة رجفةً في ذقنها. "نعم ماما!"

وأضافت ماما بأكثر رقّة: "إيَّاكِ أن تفعلي ذلك بعد. عِديني. لا شيء من هذا يتعلَّق بكِ أنتِ يا سارة". ثمَّ مدَّت يديها لتضمَّها بذراعيها وتربِّتها برفق، قائلةً: "أنا أحبُّك يا سارة. أحبُّكِ كثيرًا. أحبُّك أكثر من أيِّ شخصٍ أو أيِّ شيء في الدنيا".

ما عداه، فكَّرت سارة. ما عدا أليكس ستافُورد. ماذا لو رجع؟ ماذا لو طلب من ماما أن تختار؟ ماذا تفعل ماما عندئذٍ؟

التصقت سارة بأمِّها خائفةً، وصلَّت أن يظَّل بعيدًا.

جاء شابٌّ لمقابلة ماما.

راقبت سارة أُمَّها تتحدَّث معه فيما كانت هي تلعب بدُميتها قرب الموقد. كان الشخصان الوحيدان اللذان يقصدان ذلك البيت الريفيَّ هما السيِّد پَنِيرُد، الذي يُحضِر حطب الوقود، وبوب. وكان هذا الأخير يحبُّ كلِيو. كان يشتغل في السوق،

ويُناكِد كلِيو بشأن لحم الكَفَل المشويّ وأفخاذ الغنم القاطرة دسمًا. وكانت كلِيو تضحك له، إلّا أنّ سارة لم تحسبه مُضحِكًا كثيرًا، ولا سيّما بوزرته البيضاء الوسخة الملطّخة بالدّم.

سلّم الشابُّ ماما رسالة، ولكنّها لم تفتحها. قدّمت له الشاي، وشكرها. ولم يقُلِ الكثير بعد ذلك، غير التكلُّم عن الطقس ومدى جمال حديقة زهور ماما. وقال إنّ المسافة التي قطعها من المدينة راكبًا كانت طويلة. وقدّمت له ماما بسكويتًا، ناسيةً أمر سارة تمامًا.

علمت سارة أنّ هنالك خَطبًا ما. فقد جلست ماما مستقيمةً تمامًا وتكلّمت بكلّ هدوء.

قال الرجل مبتسمًا لسارة: "إنّها بنتٌ صغيرة جميلة". وخفضت سارة رأسها من جديد، مرتبكةً ومتحيّرة، خشية أن تُخرِجها ماما من الغرفة لأنّ الشابّ تنبّه إليها.

"نعم، هي كذلك. شُكرًا لك".

"إنّها تشبهكِ. هي جميلة كالشمس عند شروقها".

ابتسمت ماما لها وقالت: "سارة، هلّا تخرجين وتقطعين بعض الأزهار للمائدة!"

حملت سارة دميتها، وخرجت بغير كلمةِ احتجاج. كانت تريد أن تسرّ ماما. وأخذت سكّينًا حادّة من جارور المطبخ، ثمّ خرجت إلى حديقة الزهور. كانت ماما تحبُّ الورد أكثر الكلّ. وأضافت سارة شيئًا من زهر العايق والقرنفل الأحمر والحَوْذان والمرغريتا والأُقحوان، حتّى امتلأت سلّة القشّ التي على ذراعها.

لمّا رجعت سارة إلى الداخل، كان الشابُّ قد ذهب. وكانت الرسالة مفتوحة في حضن ماما. كانت عيناها تتألّقان وخدّاها يشعّان لونًا نابضًا. وابتسمت وهي تطوي الرسالة وتدسُّها داخل كُمّها. ثمّ وقفت وتقدّمت إلى سارة، فرفعتها ورجّحَتْها دائريًّا بمرح. "شكرًا لكِ على إحضار الأزهار يا حبيبتي". وقبّلتها. ولمّا أنزلتها ماما، وضعت السلّة على الطاولة.

قالت ماما: "كم أُحِبُّ الأزهار! إنّها جميلة جدًّا. أليس كذلك؟ لماذا لم ترتّبيها هذه المرّة؟ ينبغي أن أجد شيئًا في المطبخ. أُوه يا سارة! إنّه يومٌ جميل رائع. أليس هكذا؟"

فيما راقبت سارة أُمّها تمضي، قالت لنفسها: إنّه يومٌ تعِس! وقد أسقمها الفزع. ثمّ أنزلت الزهريّة الكبيرة عن الطاولة وحملتها خارجًا، حيث رمت الأزهار الذابلة على كومة السّماد. وضخّت ماءً عذبًا سكبَته في الزهريّة، فطرطشت على فستانها وهي تعود بها وتُزلّقها على الطاولة من جديد. لم تشذّب سُوق الأزهار ولا أزالت أوراقها. فلم

يهمّها منظر الأزهار، وقد علمت أنَّ ماما لن تنتبه إليها أيضًا.

كان أليكس ستافُّورد سيرجع.

رجعت ماما إلى غرفة الاستقبال بصحبة كلِيو. "حبيبتي، عندي أروع خبر لكِ. لقد رتَّبت كلِيو مشوارًا إلى شاطئ البحر هذا الأُسبوع، وهي تريد أن تصطحبكِ. أليس هذا رائعًا؟"

خفق قلب سارة بشدَّة وبسرعة. ومضت ماما تقول بابتهاج: "أليس ذلك جميلًا منها؟ لها صديق يُدير فُندقًا، وهو يحبُّ البنات الصغيرات".

كانت ابتسامة كلِيو جامدة وباردة.

نظرت سارة إلى أُمِّها. "لا أُريد أن أذهب يا ماما. أُريد أن أبقى معك". لقد عرفت ما كان يجري. فماما تنوي إبعادها لأنَّ أباها لا يريدها. وربَّما ماما أيضًا لا تريدها الآن.

ضحكت ماما قائلة: "هُراء! لم تذهبي إلى أيِّ مكانٍ غير هذا المكان، وينبغي أن تَري شيئًا من العالم. سيروقُكِ البحر يا سارة. إنَّه رائع جدًّا. يمكنكِ أن تقعدي على الرمل وتُصغي إلى الموج. يمكنكِ أن تبني قصورًا وتجمعي أصدافًا. إنَّما انتظري حتَّى يُدغدغ الزبَد أصابع قدميك!"

دبَّت الحياة في ماما من جديد على ما يبدو. وعلمت سارة أنَّ ذلك بفضل الرسالة. فلا بدَّ أنَّ أليكس كتب أنَّه سيأتي لمقابلة ماما. وهي لا تُريد تكرار المشهد الماضي. لذلك عمدت إلى إزاحة سارة من الطريق. وتأمَّلت سارة وجه أُمِّها المشرق، وقلبُها يغوص.

"تعالَي الآن، يا حبيبتي، حتَّى نُعدَّكِ للذهاب".

شاهدت سارة أغراضها تُطوى وتُدسُّ داخل كيس سَفَر. لم تُطِق ماما اصطبارًا حتَّى تتخلَّص منها.

أجالت ماما نظرها في أنحاء الغرفة قائلةً: "أين دُميتُكِ؟ لا بدَّ أنَّكِ تُريدين اصطحابها".

"لا!"

"لِمَ لا؟ أنتِ لا تُفارِقينها أبدًا".

"إنَّها تُريد أن تبقى هنا معكِ".

عبَّست ماما، إلَّا أنَّها كفَّت عن العبوس، وهي لم تُغيِّر رأيها.

عادت كلِيو لاصطحاب سارة، وسارتا مسافة الميل إلى المدينة مشيًا. واشترت كلِيو بطاقتَي سفر فيما العربة باشرت التحرُّك. وتولَّى السائق أمر كيسَي السفَر، ورفعت

كلِيو سارة إلى العربة. ولمَّا صعدت الخادمة، قعدت قبالتها وابتسمت، وكانت عيناها البُنيَّتان متألِّقتين جدًّا.

"سنخوض مغامرة يا سارة!"

ودَّت سارة لو تقفز من العربة وتركض راجعةً إلى ماما في البيت. ولكنَّ ماما كانت ستُبعِدها من جديد. وإذِ انطلقت الأحصنة، التصقت سارة بالنافذة، محدِّقةً إلى الخارج فيما البيوت المألوفة تتوارى. وقرقعتِ العربة على الجسر ثمَّ سارت على طريقٍ تحفُّ بها الأشجار. وسرعان ما تلاشى عن النظر كلُّ شيءٍ ألِفَته سارة، فألقت ظهرها على المقعد المترجرج. وكلَّما ابتعدت العربة، ازداد شعورها بالوحشة.

قالت كلِيو: "سننزل في فُندق الرياح الأربع"، وقد كان واضحًا أنَّها مسرورة بإبداء سارة رضاها بأن تكون هادئة. وكانت قد توقَّعت منها أن تضطرب وتضجَّ على الأرجح. ولو حسبت أنَّ ذلك قد يُغيِّر رأي ماما، لربَّما لجأت إليه. وهي لم تبتعد عن أمِّها سابقًا أكثر من بضع ساعات. غير أنَّها علمت أنَّ ذلك لن يُغيِّر الأمور. فأليكس ستافُورد آتٍ، وعليها هي أنْ تذهب. وهكذا لبثت هادئةً ورزينة.

قالت لها كلِيو: "عندهم طعام طيِّب وغُرَف مرتَّبة. وسنكون بقرب البحر. يمكنكِ ان تمشي على ممرٍّ مُعشوشِب قصير فتَصِلي إلى جروف البحر، حيث يتكسَّر الموج على الصخور. إنَّه صوتٌ عجيب، ورائحة هواء الملح أحسن من أيِّ شيء".

أحسن من أيِّ شيء...

كانت سارة تحبُّ البيت وحديقة الزهور خلفَه، وتحبُّ الجلوس بقرب مبنى النَّبع مع ماما وأقدامُهما مُدلَّاة في مياه الجدول.

نظرت من خلال النافذة مجدَّدًا وهي تُدافعُ الدموع. آلمتها عيناها وجفَّ حلقها من غبار الطريق. ومرَّت الساعات ببطء، وقد أوجع رأسَها وقْعُ حوافر الأحصنة وخبطُها الشديدان، حتَّى استولى عليها التعب الشديد بحيث لم تكد تقوى على إبقاء عينَيها مفتوحتين. ولكنَّها كلَّما أغمضتهما، كانت العربة تترنَّح أو تترجَّح بحدَّة وشدَّة، فتظلُّ مُستيقظةً والخوفُ مستبدٌّ بها.

أوقف السائق العربة مرَّةً كي يُبدِّل الأحصنة ويُجري بعض التصليحات البسيطة. فاصطحبت كلِيو سارة إلى المُستراح. ولمَّا خرجت سارة، لم ترَ كلِيو هناك. فركضت إلى العربة، ثمَّ إلى الإسطبلات، وأخيرًا إلى الطريق، مُناديةً كلِيو باسمها.

ثمَّ برزت كلِيو مُسرِعةً نحوها تقول: "كُفِّي عن الصُّراخ! بحقِّ السماء، فيمَ هذه

الضجَّةُ كلُّها؟ مِن شأن الناس أن يحسبوك فرُّوجًا فقد رأسه توًّا، من جرّاء طريقة ركضك هنا وهناك".

فسألتها سارة والدموع تسيل على خدَّيها: "أينَ كنتِ أنتِ؟ قالت ماما إنَّ علينا أن نبقى معًا!"

قوّست سارة حاجبها قائلةً: "حسنًا، سامحيني يا ستّ. كنتُ أشربُ كوزَ بيرة!" ثمَّ مدَّت يدها وخطفت يد سارة، وعادت بها صوب مبنى محطَّة العربات.

كانت زوجة مدير المحطَّة واقفة في المدخل تُنشِّف يديها، فقالت مبتسمةً لسارة: "يا لها من بنتٍ صغيرة جميلة! أأنتِ جائعة يا حبيبة قلبي؟ الوقتُ متَّسع لطاسةٍ من يخنة الرعيان".

خفضت سارة عينيها، متخوِّفةً من نظرات المرأة المتفحِّصة، وقالت: "لا يا سيِّدتي، شكرًا!"

فقالت المرأة: "ومُهذَّبة أيضًا".

وقالت كلِيو: "هيّا يا سارة"، دافعةً إيّاها إلى الداخل دفعةً خفيفة.

ربَّتت المرأة كتف سارة وهي ترشدها إلى إحدى الطاولات. "أنتِ بحاجة إلى إضافة اللَّحم إلى عظامك، يا حبيبتي. جرِّبي يخنتي. يُقال إنِّي واحدة من أفضل الطبّاخات على خطِّ العربات هذا".

جلست كلِيو ورفعت بيدها كوز بيرتها من جديد. "يجب أن تأكلي شيئًا قبل أن نغادر".

"لست جائعة".

فانحنت كلِيو صوبها وقالت بصوتٍ منخفض: "لا يَعنيني كونُك جائعة أو غير جائعة. ستعملين بما قيلَ لك. قال السائق إنَّنا سنغادر بعد نصف ساعة، ولن نصل إلى الشاطئ قبل ثلاث ساعات أو أربع. فلا أُريد أن أسمعكِ تئنِّين بأنَّكِ جائعة آنذاك. هذه فرصتكِ الأخيرة لتأكلي شيئًا حتَّى وصولنا إلى الرياح الأربع".

حدَّقت سارة إلى كلِيو، مجاهدةً كيلا تبكي. وتنهَّدت كلِيو بشدَّة، ثمَّ مدَّت يدها لتربِّت وجه سارة بسماجة، قائلةً: "كُلي قليلًا، يا سارة". فأذعنت سارة، وأمسكت بملعقتها، وبدأت تأكل. كانت ماما قد قالت إنَّ هذه الرحلة رُتِّبت لها، ولكنْ حتَّى كلِيو تصرَّفت كما لو كانت رفيقة طريقٍ فقط. لقد بدا واضحًا لها أنَّ ماما أبعدتها حتَّى تتخلَّص منها.

لمّا انطلقت بهما العربة من جديد، لزمت سارة الهدوء. قعدت قرب النافذة محدّقة إلى الخارج، ويداها الصغيرتان مشبوكتا الأصابع في حضنها وظهرُها مستقيم. وبدت كلِيو ممتنّةً من أجل الصمت، حتّى غطغط عليها النوم أخيرًا. ولمّا استيقظت، ابتسمت لسارة، وسألتها: "أشممتِ رائحة البحر؟"

كانت سارة ما تزال جالسة في الوضع الذي كانت عليه لمّا نامت كلِيو، ولكنّها علمت أنّ على خدّيها خطوطًا بيضًا من جرّاء الدموع التي لم تستطع حبسها. فحدّقت إليها كلِيو بحزن، ثمّ التفتت كي تُحدّق خارج النافذة.

وصلت العربة إلى فندق الرياح الأربع بُعيدَ الغروب. والتصقت سارة بكلِيو فيما السائق يحلّ أربطة كيسَي سفرهما. وسمعت سارة هديرًا شديدًا كما من وحش فخافت وقالت: "ما هذا الضجيج يا كلِيو؟"

"صوت البحر يُلاطِم الصخور. رائع، أليس كذلك؟"

إلّا أنّ سارة حسبت أنّه أرهب صوتٍ سمعته يومًا. وقد ولولتِ الرياح بين الأشجار كأنّها وحش مفترس يفتّش عن فريسةٍ ثابتة الحرارة. ولمّا انفتح باب الرياح الأربع، سمعت ضحكًا عاليًا وصُراخَ رجال. فتراجعت سارة بحدّة، غيرَ راغبةٍ في الدخول.

وقالت كلِيو، دافعةً إيّاها إلى الأمام: "خذي حذركِ، واحملي حقيبتكِ. فعندي حقيبتي أحملها".

جرّت سارة حقيبتها حتّى عتبة الباب. وفتحت كلِيو الباب دافعةً إيّاه بكتفها، ثمّ دخلت وسارةُ تتبعُها وراءَها تمامًا. وأجالت كلِيو نظرها في الغرفة، ثمّ تبسّمت. وتابعت سارة نظراتها، فرأت رجُلًا عند البار يُكابِش بحّارًا مفتول العضل. وكان رجلٌ ضخم يصبُّ البيرة، فوقع نظره على كلِيو حالًا. فانحنى كي يَكِز الرجل المُكابِش، ومال إلى أُذن كلِيو بكلمةٍ رقيقة. وأدار الرجل رأسه قليلًا، فانتهز البحّار فرصة قلّة انتباهه، ولوى له ذراعَه فهوى بها على البار وأطلق هتاف انتصار. وعلى مرأى سارة الخائفة، هبَّ الرجل المغلوب واقفًا، ولكم البحّار على عينه اليُمنى فأوقعه أرضًا بخبطةٍ قويّة.

قهقهت كلِيو، وقد بدا أنّها نسيت سارة التي كانت اختبأت وراء أذيال ثوبها. ونشجت سارة على مهل عندما شقّ رجُل البار طريقه نحو كلِيو وقبّلها قبلةً قويّة، وسط صرخات الرجال الآخرين في القاعة. ولمّا جاوز ببصره كلِيو ليُحدّق إلى سارة، خُيّل إليها أنّه سيُغمى عليها من الفزع. ثمّ قطّب حاجبيه قائلًا: "ابنةٌ غير شرعيّة؟ لا بدّ أنّكِ واقعتِ فتىً وسيمًا، كما تنمُّ ملامحُها".

مضت لحظةٌ قبل أن تستردَّ كلِيو نفَسها وتفهم مقصده، لتقول: "أتقصد هذه البنت؟ كلَّا، يا مَرِّك، ليست هي لي. إنَّها ابنة السيِّدة التي أشتغل عندها".

"ماذا تفعل معك هنا؟"

"هي قصَّة طويلة ومُحزِنة أتمنَّى نسيانها الآن".

فأومأ مَرِّك برأسه، وربَّت خدَّ كلِيو سائلًا: "هل تعجبكِ حياة الريف؟" ثمَّ ابتسم، إلَّا أنَّ سارة لم تحسبِ ابتسامته طيِّبة.

ورفعت كلِيو رأسها فجأة قائلةً: "إنَّها كلُّ ما كنتُ أتمنَّاه وأطلبه".

فقهقه وأخذ كيس سفرها. "لهذا رجعتِ إلى الرياح الأربع، إه؟"

وأخذ أيضًا كيس سَفَر سارة، متكلِّفًا ابتسامةً عريضةً وقحة، ثمَّ ضاحكًا لمَّا انكمشت متوجِّسةً منه كما لو كان إبليس بعينه.

لم يسبق أن رأت سارة قطُّ أحدًا مثل مَرِّك. كان ضخمًا جدًّا، ذا شعر أسود ولحيةٍ مقصوصة. وقد ذكَّرها بقصص القراصنة التي حكتها لها ماما. وكان صوته عاليًا وعميقًا، وقد نظر إلى كلِيو كما لو كان ينوي أن يلتهمها. ولم يبدُ أنَّ كلِيو يهمُّها ذلك. فهي لم تُعِر سارة اهتمامًا، ومشت تعبر الغرفة الكبيرة، تتبعها سارة وخوفُها الشديد يمنعها من البقاء وحدها؛ إذ كان الجميع يحدِّقون إليها.

نادى مَرِّك الخمَّار الشائب الذي رحَّب بكلِيو بغمزةٍ وبسمة، قائلًا: "هاي، اصطمپ، أعطِ كلِيو كوز بيرة!" ثمَّ أمسك بسارة من خصرها ورفعها عاليًا، وأقعدها على البار، قائلًا: "وبعضَ النبيذ المخفَّف بالماء لهذه الفتاة الشاحبة". وتحسَّس سترتها المخمليَّة قائلًا: "لا بدَّ أنَّ أمَّك غنيَّة، إه؟"

فقالت كلِيو: "أبوها غنيّ، وهو أيضًا متزوِّج".

وابتسم مَرِّك لكلِيو ابتسامةً ساحرة، قائلًا: "أُوه! إذًا هذا هو الواقع. كنتُ أظنُّ أنَّك تقومين بعمل محترم".

"إنَّه محترم. فلا أحد يرمقني شزرًا".

"أيعرفون أنَّكِ اشتغلتِ في خمَّارة خمس سنين قبل أن تقرِّري تحسين وضعك في الحياة؟" ثمَّ مسَّد ذراعها بيده نزولًا قبل أن يُضيف: "ناهيكِ ببعضِ الشُّغل اليسير جانبيًّا..."

ألقت كلِيو نظرةً على سارة، ثمَّ أزاحت يده قائلة: "ميّ تعرف. فهي ليست ممَّن ينظرون شزرًا إلى الآخرين. وأنا أُحبُّها".

"هل تُشبهها هذه المخلوقة الصغيرة في شيء؟"

"صورة طبق الأصل!"

ربَّت مَرّك ذقن سارة وقرص خدَّها برفق. "عينان زرقاوان كالبنفسج وشعرٌ كالملاك. لا بدَّ أنَّ أمكِ جميلة جدًّا إذا كانت مثلَكِ قليلًا. أتمنَّى أن أراها".

تيبَّست كلِيو، وحسبت سارة أنَّها غاضبة، وودَّت لو يتركها مَرّك وشأنَها، إلَّا أنَّه ظلَّ يُربِّت خدَّها. وأرادت أن تبتعد بقدر إمكانها عن ذلك الرجل المُخيف ذي الشعر الأسود والعينين القاتمتَين والابتسامة الدنيئة.

"دعْها وشأنَها يا مَرّك. هي خائفة جدًّا بغير أن تُناكِدها. هذه أوَّل مرَّة تبتعد فيها عن أمِّها".

فقهقه وقال وهو يدفع كوز النبيذ الممزوج بالماء نحوها: "إنَّها تبدو شاحبةً قليلًا أسفل ذقنها. هيًّا يا صغيرة. أنا غير مؤذٍ. اشربي! صدِّقيني، قليلًا من هذا فلا تخافي شيئًا بعد". ثمَّ قهقه أيضًا لمَّا كشَّرت سارة بِنُفور، وأضاف: "أهي معتادةٌ شرابًا أفضل؟"

قالت كلِيو: "ليست معتادةً شيئًا". فتأكَّد لسارة أكثر أنَّها غاضبة إذ ذاك. لم يَرُق كلِيو أن يُعيرَ مَرّك سارة انتباهًا بذاك المقدار. ونظرت إلى سارة، منزعجةً كما يبدو واضحًا من طريقة تجاوبها مع مَرّك، قائلةً: "لا تكوني جبانة إلى هذا الحدّ. لقد داخ بكِ، وأصابه شيءٌ بسيط آخر". عندئذٍ قهقه اصْطمپ العجوز وجميع الذين حولَه في الحانة، بمن فيهم مَرّك نفسُه.

أرادت سارة أن تقفز نازلةً وتفرَّ راكضةً من الأصوات العالية والقهقهة المُريبة والعيون المحدِّقة. وتنهَّدت بلطفٍ من انفراجها إذ مدَّت كلِيو يديها لتُنزِلها، ثمَّ تمسك بيدها، مصطحبةً إيّاها إلى إحدى الطاولات. وإذ لحق مَرّك بهما، عضَّت شفتها توجُّسًا. ثمَّ سحب كرسيًّا وجلس. وكلَّما فرغ الكوزان، طلب لهما المزيد. كان يُنكِّت وكلِيو تضحك كثيرًا. ومرَّةً مدَّ يده من تحت الطاولة، فدفعته كلِيو بعيدًا. غير أنَّها كانت تتبسَّم وتتكلَّم أكثر فأكثر. وقد بدا صوتُها مُضحِكًا كما لو أنَّ كلماتها كانت تتدفَّق كلُّها معًا.

كان المطر يتساقط خارجًا، والأغصان تُخربِش على زجاج النافذة، وقد نال التعب من سارة فثقلت أجفانها حتَّى صعب عليها جدًّا إبقاؤها مفتوحة.

رفع مَرّك كوزه ثانيةً، قائلًا: "الصغيرة تكاد تَهوي!"

مسَّت كلِيو رأس سارة قائلةً: "صالِبي ذراعيك على الطاولة ونامي قليلًا". ففعلت

سارة ما طلبته كلِيو، متمنيّةً لو تُغادِران المكان. وكان واضحًا أنَّ كلِيو لم تكن مستعدَّة للمغادرة. فقد بدا أنَّها تقضي وقتًا ممتعًا. وظلَّت تُحدِّق إلى مَرْك وتتبسَّم بطريقة لم يسبق أن رأتْ كلِيو قطُّ تتبسَّم بها.

قال مَرْك: "لماذا كان عليكِ إحضارُها إلى الرياح الأربع؟"

أبقت سارة عينيها مُغمَضتين وتظاهرت بأنَّها نائمة، فيما قالت كلِيو ببرودة: "لأنَّ أُمَّها تستضيف أباها الوسيم، وكلاهما يريدان إبعادها من طريقهما... لا تفعل ذلك!"

فقال ضاحكًا: "لا أفعله؟ أنتِ تعرفين أنَّكِ لأجله جئتِ. ما حال شُبّان الريف أولئك؟"

"لا شيء. أحدهم يلاحقني طالبًا يدي".

"لنصعد إلى الطابق العُلويّ ونتحدَّثْ عن سبب رجوعك إلى هنا".

"ماذا ينبغي لي أن أفعل بها؟ لقد ساءني جدًّا أن تُلصِقها ميُّ بي".

وخزَت الدموع عينَي سارة، واعترضَت في حلقها غصَّةٌ شديدة. أهُنالك مَن يُريدها بعد؟

"يبدو لي أنَّ من السَّهل تسويقَ هذه المخلوقة الصغيرة الجميلة. لا بدَّ أنَّ أحدًا ما يريدها".

"ذلك ما قلتُه لميّ، ولكنَّها تقول 'لا'. إنَّها تثق بي. فالشيءُ الوحيد الذي لديها حين لا يكون رجُلها موجودًا للاختلاء بها هو هذه البنت. وكلُّ ما تتولّى ميُّ أمره تقريبًا هو التجمُّل والاعتناء بالزهور".

"حسبتُ أنَّكِ قُلتِ إنَّكِ تُحبّينها".

"أُحِبُّها كفايةً، ولكنْ كلَّما نوى جلالتُه أن يُشرِّف، قُل لي مَن يُبتلى بابنتها غير الشرعيّة. فمن المُتعِب أن تجرَّ معك ولدًا أينما ذهبتَ، ولا سيَّما ولدًا ليس لكَ أصلًا".

إذ ذاك قهقه مَرْك وقال: "حسنًا، لماذا لا تتخلَّينَ عنها فحسْب فتُزيحيها منَ الدَّرب؟ لعلَّ أمَّها وأباها يعتبران ذلك معروفًا تُشكرين عليه. بل إنَّهما قد يُعطيانك علاوة!"

عندئذٍ خبط قلب سارة خبطًا شديدًا. وتنهَّدت كلِيو تنهُّدةً ثقيلة تنمُّ عنِ انزعاج، قائلةً: "ليس الأمر مضحكًا يا مَرْك. أفضلُ لي أن أُوقِظها وأضعها في السرير لتنام. لقد كان يومها طويلًا ومُتعِبًا". ثمَّ وكزت سارة، فرفعت نظرها مسرورةً بالفرَج. وأمسكتها كلِيو بيدها قائلةً: "هيّا بنا. سنصعد كي نأوي إلى السرير الآن. قولي للسيِّد مَرْك: تُصبح على خير".

إذ ذاك تبسَّم مَرِّك قائلًا: "أراكُما بسلامةٍ فوقُ يا سيِّدتَيّ!"

ولمَّا فتحت كلِيو باب غرفتها القديمة، أبقاه مَرِّك مفتوحًا قليلًا، ودخل هو أيضًا، فنظرت سارة إلى كلِيو مُرتابةً.

وهمست كلِيو بشراسة: "ماذا تفعل؟ لا يمكنك أن تدخل معي إلى هنا. ستقول لأُمِّها فأفقد وظيفتي".

فانحنى مَرِّك وقرص ذقن سارة قائلًا: "سأُدبِّر الأمر. إذا قُلتِ لأحدٍ شيئًا عن وجودي في هذه الغرفة مع كلِيو، أقطع لسانك القرنفليَّ الصغير. فهمتِ؟"

صدَّقته سارة، وهزَّت رأسها إيجابًا. فابتسم ابتسامةً خفيفة وأفلتها. فاندفعت كالسهم إلى الزاوية، وتكوَّمت هناك مرتجفةً وشاعرةً بالغثيان، فيما قال مَرِّك بلهجة المنتصر: "أرأيتِ؟ ليس ما يُقلِق. لن تقولَ لأحدٍ كلمةً واحدة عنّا!"

حدَّقت إليه كلِيو بعينين واسعتين وقد ظهر عليها الاستياء. وأمِلَت سارة أن تطلب منه الرحيل. ثمَّ نظرت كلِيو إلى سارة وقالت: "كان ذلك قاسيًا جدًّا. إنَّه لم يقصد ما قاله، يا حبيبة قلبي. فهو إنَّما كان يمزح. لا تصدِّقي كلمة واحدة مما قاله!"

فشدَّ مَرِّك بكلِيو إليه وقال: "بل صدِّقي يا صغيرة! فأنا ما كنتُ أمزح قطّ. أكان ذلك قاسيًا؟ قاسيًا يكون إبعادُك لي في حين تعلمين أنَّني لا أُريد سوى البقاء معكِ!"

دفعته كلِيو بعيدًا. فمدَّ يديه للإمساك بها من جديد، وراوغته... ولكنْ حتّى سارة كان في وسعها أن تقول إنَّ تلك المحاولة كانت فاترة. تُرى، كيف يُعقَل أن تسمح كلِيو لهذا الرجل بالاقتراب منها؟

ابتسم مَرِّك ابتسامةً فاترة وقد ومضت عيناه: "أنا أعرفكِ يا كلِيو. لماذا عُدتِ إلى الرياح الأربع قاطعةً مسافة الطريق الطويلة؟ فقط كي تتأمَّلي البحر مرَّةً أُخرى؟"

"ذلك في دمي بمقدار ما هو بدمك..."

أمسك مَرِّك بها وقبَّلها، فجاهدت محاولةً أن تُفلِت منه، إلَّا أنَّه تشبَّث بها. ولمَّا تراخَت عليه، تراجع مسافةً كافيةً ليقول: "في دمكِ أكثرُ من ذلك أيضًا".

"مَرِّك، حذارِ إنَّها ترانا..."

"وماذا في ذلك؟"

ثمَّ قبَّلها مجدَّدًا، فقاومته هذه المرَّة. وقد قعدت سارة متجمِّدةً خوفًا. ربَّما يعمد إلى قتلهما كليهما!

وقالت كلِيو غاضبةً: "كلَّا! اخرج من هنا. لا أقدر أن أفعل ذلك. يُفترَض أن أكون

عاكفةً على الاهتمام بها!"

فقهقه قائلًا: "ما كنتُ أدري أنَّ الواجب مهمٌّ عندكِ هكذا". ثمَّ أفلتها. ولكنَّ سارة لم تحسب أنَّ كلِيو بدت مسرورةً قطعًا. فقد بدت كما لو أنَّها تكاد تبكي. ثمَّ تبسَّم مرِّك وأدار ظهره لسارة، قائلًا: "هيّا يا صغيرة!"

"ماذا تفعل يا مَرِّك؟" كان سؤال كلِيو فيما حاولت سارة مذعورةً أن تفلِت منه.

"أخرِجها خارجًا. لن يؤذيَها أن تقعد في الرواق قليلًا. ولا تقولي لي 'لا' فأنا أعرفك جيِّدًا. ثُمَّ إنَّها ستكون خارج الباب تمامًا، ولن يزعجها أحد". ثمَّ سحب بطانيَّةً ومخدَّة من السرير وأومأ لسارة قائلًا: "لا تدَعيني أجري وراءك!"

ولم تجرؤ سارة على عدم الإذعان. فتبعت مَرِّك إلى الرواق، وراقبته فيما ألقى البطانيَّة والمخدَّة في الممرِّ المعتم. وركض عبر الرواق شيءٌ ضخم ثمَّ اختبأ في الظلام. فحدَّقت إليه بعينين واسعتين.

"اقعدي هنا ولا تتحرَّكي. وإن لم تبقَي هنا، فسأجدكِ وآخذك إلى البحر، حيثُ أُلقيكِ طعامًا للسلاطعين. فهمتِ؟"

جفَّ حلق سارة، ولم تقدر أن تنبس بكلمة. فاكتفت بأن أومأت برأسها موافقةً.

خرجت كلِيو إلى الرواق. "مَرِّك، لا يسعني أن أتركها خارجًا هناك. لقد رأيتُ جُرَذًا!"

فربَّت خدَّ سارة قائلًا: "إنَّها أصغر من أن تُعنى بها الجرذان. ستكون بخير. أليس كذلك؟ ابقَي هنا خارجًا إلى أن تأتي كلِيو لتأخذكِ. إيَّاك أن تتحرَّكي من هنا قبل رجوعها".

قالت: "نا... نَعَم يا سيِّدي"، متلعثمةً وصوتُها عالقٌ في حلقومها.

فاعتدل والتفت مُديرًا كلِيو ودافعًا إيَّاها للعودة إلى الغرفة، قائلًا: "أرأيتِ؟" ثمَّ أغلق الباب وأقفله بإحكام خلفهما.

سمعت سارة مَرِّك يتكلَّم وكلِيو تقهقه. ثمَّ سمعت أصواتًا أُخرى أيضًا، فخافت. وأرادت أن تهرب من الأصوات التي أطلقاها، غير أنَّها تذكَّرت ما توعَّدها مَرِّك به إذا تحرَّكت. فغطَّت رأسها مذعورةً بالبطَّانيَّة الوسخة، وسدَّت أُذنَيها بيديها.

تثاقل الصمت الذي أعقب ذلك. ووصوصت سارة عبر الرواق المعتم، فأحسَّت عيونًا تراقبها. ماذا لو رجع الجُرَذ؟ وأخذ قلبها يخبط كالطَّبل وجسمُها كلُّه يرتجُّ مع دقَّاته. وسمعت خربشةً ضئيلة، فضمَّت رجلَيها إلى جسمها بشدَّة، محدِّقةً إلى قلب الظلام وقد روَّعها ما توارى فيه.

رُفعت سقّاطة الباب فانفتح. فقفزت سارة. ثمّ خرج مَرّك، فانكفأت وانكمشت على أمل ألّا يلاحظها. ولم يلاحظها. فقد نسي أنّها موجودة. حتّى إنّه لم يُلقِ عليها ولو نظرةً واحدة وهو يهبط من الرواق وعلى الدَرَج. ستأتي كلِيو لأخذها الآن. ستُخرِجها كلِيو من هذا الممرّ المُظلِم.

ثمّ مرّت الدقائق، وأعقبتها ساعة، ثمّ أُخرى.

لم تخرج كلَيو لأخذها، فيما تكوّمت ملتحفةً بالبطانيّة وملتصقةً بالحائط، وراحت تنتظر... مثلما انتظرت مجيء ماما يومَ زارها أليكس.

آلم كلِيو رأسُها لمّا استيقظت وأشعّةُ الشمس على وجهها. لقد أسرفت في شرب البيرة البارحة، فأحسّت لسانها متورّمًا. ومدّت يدها، فلم تجد مَرّك. كان ذلك من عاداته. فلَن تقلق بشأن الأمر الآن. وكيف يمكنه بعد الليلةِ الفائتة أن ينكر أنّه يحبُّها؟ كانت بحاجة إلى شيء من القهوة. فنهضت وغسلت وجهها ولبست ثيابها. وإذ فتحتِ الباب، رأتِ البنتَ الصغيرة متكوّمةً في الرواق البارد وعيناها الزرقاوان تُغلّفهما ظلالٌ قاتمة.

إذ ذاك قالت كلِيو واهنةً: "آه!" لقد نسِيَت مهمّتها الموكلة إليّ تمامًا. وهاجمها الخوف والشعور بالذنب. ماذا لو عرفت ميُ أنّها تركتِ ابنتها في رواقٍ مظلم ليلةً بكاملها؟ ثمّ أنهضت سارة وحملتها إلى داخل الغرفة. وقد كانت يداها الصغيرتان باردتين كالجليد ووجهها يعتريه الشحوب الشديد.

قالت كلِيو وعيناها مغرورقتان: "لا تخبري ماما. ستكون الغلطة غلطتكِ إذا طردتني". وقد أغضبها أن تُلفيَ نفسها في وضع خَطِر كهذا، حيث تتعلّق وظيفتها بسُكوتِ بنتٍ صغيرة. ثمّ أضافت: "لماذا لم تأوي إلى السرير البارحةَ كما كان مُفترَضًا؟ لقد قال لكِ مَرّك أن تدخُلي عند مغادرته".

فهمست سارة ببؤس، وقد شرعت تبكي لغضب كلِيو: "لا، لم يقُل لي. بل قال ألّا أتحرّك حتّى تأتي أنتِ وتأخذيني".

"لا تكذبي ! لقد سمعتُه! لم يقُل ذلك قطّ!"

اشتدّ بكاء سارة، وبدا عليها الارتباك والذُعر. "أنا آسفة يا كلِيو، آسفة، آسفة!" قالت ذلك وعيناها مُتّسعتان ومُحمرّتا الأجفان، وأضافت: "رجاءً، لا تقولي لمَرّك. لا تدعيه يرميني من أعلى الجُرف أو يطعمني للسلاطعين كما قال إنّه سيفعل".

فقالت كلِيو، وقد هدأ روعها: "صه! كُفِّي عن البكاء. إنَّ البكاء لا ينفع أبدًا. هل نفع أُمَّكِ شيئًا؟" ثمَّ استولى عليها تأنيب الضمير، فطوَّقت سارة بذراعيها واحتضنتها قائلةً: "لن نقول لأحد. سنُبقي الأمر سرًّا بيننا".

لم يرجع مَرِّك إلى الرياح الأربع، وسكرت كلِيو تلك الليلة. وضعت سارة في السرير باكرًا، ونزلت راجعةً إلى الحانة، على أمل أن يرجع لاحقًا. إلَّا أنَّه لم يرجع. فلبثت هناك قليلًا، وتضاحكت مع رجال آخرين، متظاهرة بأنَّ ذلك لا يهمُّها. ثمَّ حملت قِنِّينة رَمّ إلى غرفتها فوق. وكانت سارة جالسةً في السرير مستيقظةً تمامًا وعيناها مفتوحتان على وسعهما.

أرادت كلِيو أن تتكلَّم. أرادت أن تصبَّ جام غضبها على مَرِّك. فقد كرهته لأنَّه فطر قلبها من جديد. وكانت قد سمحت له بأن يفعل ذلك مرارًا كثيرة من قبل. متى تتعلَّم أن تقول له: «لا»؟ ولماذا عادت؟ كان ينبغي لها أن تعرف ما سيحدث... إنه ما حدث دائمًا.

"سأقول لك حقَّ الله، يا بنتًا صغيرة. فأصغي إليَّ جيِّدًا".ثمَّ تناولت شربةً طويلة، وأغرقت دموعها وشقاءها، وتركت المرارة والغضب يطلعان ويفيضان، وأردفت: "كلُّ ما يريد أن يفعله الرجال هو أن يستغلُّوكِ. فعندما تُعطينَهم قلبَكِ يُمزِّقونه أشلاءً". ثمَّ شربَتِ المزيد، فتهدَّج صوتها وقالت متلعثمةً: "لا أحدَ منهم يكترث. خُذي أباكِ الأنيق مثلًا. هل يحرص على أُمِّك أو يهتم لأمرها؟ كلّا!"

اندسَّت سارة مسعورةً تحت الأغطية، وسدَّت أُذنيها. إذًا الأميرة الصغيرة لم تُرِد سماع الحقيقة المروِّعة؟ حسنًا، لقد كان ذلك سيِّئًا جدًّا. فثار غضب كلِيو وسحبتِ البطَّانيَّة عنها. ولمَّا انكفأت سارة مذعورةً، أمسكتها بقدميها وجرَّتها صوبها قائلةً: "اجلسي وأصغي إليَّ!" ثمَّ أمسكت بها من كتفيها وهزَّتها هزًّا. فأطبقت سارة عينيها بإحكام وأدارت وجهها بعيدًا. فقالت كلِيو ساخطةً: "انظري إليَّ!" ولم يهدأ روعُها حتَّى أطاعتها سارة.

حدَّقت إليها سارة بعينَين مذعورتين واسعتين، وهي ترتجف بشدَّة. فأرخت كلِيو قبضتها قائلةً: "أوصتني ماما بأن أعتني بكِ جيِّدًا. حسنًا، سأعتني بكِ فعلًا. سأقول لكِ حقَّ الله. فأصغي إليَّ وتعلَّمي". ثمَّ أفلتتها فجلست هادئةً تمامًا.

تهالكت كلِيو على الكرسيِّ القريب من النافذة، محملقةً إلى سارة، ثمَّ تناولت جرعةً كبيرة أُخرى من الرَّم. وأشارت بيدها محاولةً إبقاء يدها ثابتة. ومضت تقول:

"أبوكِ الأنيق لا يعنيه أمر أحد، ولا سيّما أمركِ أنتِ. وكلُّ ما يعنيه من أمر أُمّكِ هو ما ترغب في إعطائه إيّاه. وهي تُعطيه كلَّ شيء. فهو يأتي لزيارتها ساعةَ يشاء، ويستغلُّها، ثُمَّ يمتطي حصانه ويمضي إلى بيته الفاخر في المدينة، حيث زوجتُه الأرستقراطيّة وأولاده الأصيلون. أمّا والدتكِ فتعيش لأجل تالي مرّة تراه فيها".

راقبت كلِيو سارة تنكفئ ببطء إلى أن لاصقت الجدار المقشَّر، وكأنَّ من شأن ذلك أن يحميَها. إنّما لم يَحمِ امرأةً أيُّ شيء من الحقائق القاسية الباردة. ثمَّ أطلقت كلِيو ضحكةً حزينة وهزَّت رأسها.

"يا لها من حمقاء غبيَّة طيِّبة القلب! فهي تنتظره وتخرُّ على وجهها لتُقبِّل قدمَيه حين يعود. أتعرفين لماذا كان يغيب طويلًا؟ بسببكِ أنتِ! إنَّه لا يُطيق رؤية جرثومته الخاصَّة. وأمُّكِ تبكي وتترجّى... فأيَّ نفعٍ نفعها ذلك؟ عاجلًا أو آجلًا سيملُّ منها ويرميها في القُمامة. وأنتِ معها. هذا هو الأمر الوحيد الذي تستطيعين أن تتأكَّدي منه".

آنذاك كانت سارة قد استرسلت في البكاء، فمدَّت يدها لتمسح الدموع عن خدَّيها.

ثمَّ قالت، وهي تشعر بمزيد من الأسى والنكد كلَّ ثانية: "لا أحد يعنيه أمرُ أحد في هذه الدُّنيا. فنحن كلُّنا نستغلُّ بعضُنا بعضًا بطريقةٍ أو بأُخرى. كي نشعر بالرضى. كي نشعر بالاستياء. كيلا نشعر بشيء أبدًا. والمحظوظون بارعون في ذلك حقًّا. مثل مَرِّك. مثل أبوكِ الغنيّ. أمّا نحنُ الباقين فنكتفي بأخذ ما نقدر عليه".

لقيت كلِيو صعوبة في أن تُفكِّر تفكيرًا سليمًا قويًّا. أرادت أن تظلَّ تتكلَّم، ولكنَّ أجفانها كانت أثقل من أن تقوى على إبقائها مفتوحة. فغاصت في كرسيِّها أكثر، وأرخت ذقنها على صدرها.

كان كلُّ ما احتاجت إليه كلِيو هو أن تستريح دقيقةً واحدة. ذلك كلُّ ما في الأمر. وبعدئذٍ يتحسَّن كلُّ شيء...

راقبت سارة كلِيو وهي تتمتم وتبربر وتتراخى على الكرسيّ، حتى سطا عليها النوم. ثمَّ أخذت تشخر واللُّعاب يسيل من زاوية فمها المرتخي.

أمّا سارة فجلست في السرير المتغضِّن، ترتجف وتتساءل عن صحَّة ما قالته كلِيو. ولكنَّ شيئًا في قرارة نفسها قال لها إنَّ كلِيو على حقّ. فإن كان أبوها يهتمّ، فهل كان يريد لها الموت؟ وإن كانت أُمُّها تهتمّ، فهل كانت تُبعِدها بعيدًا؟

وحقُّ الله... ماذا كان حقُّ الله؟

صباحَ اليوم التالي غادرتا المكان. ولم تُلقِ سارة على البحر قطُّ نظرةً واحدة.

لمَّا وصلتا إلى البيت، تظاهرت ماما بأنَّ كلَّ شيء على ما يُرام. ولكنَّ سارة علمت أنَّ شيئًا ما كان على غير ما يُرام بشكلٍ رهيب. فقد كان في الخارج صناديق، وكانت ماما تحزم أمتعتها.

قالت ماما بمرح، فيما بدت عيناها جامدتَين وقاتمتين: "سنذهب لزيارة جدَّتكِ وجدِّك. إنَّهما لم يرياكِ قطّ". وقالت لكلِيو إنَّها آسفة لاضطرارها إلى صرفها، فقالت كلِيو إنَّه لا بأس في ذلك. ذلك أنَّها عقدت عزمها أخيرًا على التزوُّج بِبوب، اللحّام. وتمنَّت ماما لها التوفيق والسعادة، فمضت في سبيلها.

استيقظت سارة في نصف الليلِ. لم تكن ماما في السرير، ولكن سارة استطاعت أن تسمع حسَّها. فلحقت صوت أمِّها الساخط، ودخلتِ البهو. كان الشبّاك مفتوحًا، فتقدَّمت لتنظر إلى الخارج. تُرى، ماذا كانت ماما تفعل خارجًا في نصف الليل؟

كان ضوء القمر يترامى على حديقة الزهور، فرأت سارة أمَّها راكعةً بمنامتها البيضاء الرقيقة، تقتلع الزهور اليانعة كلَّها. كانت تقتلع النباتات، قبضةً بعد قبضة، وهي تزعق وتطوِّحها في كلِّ اتِّجاه، باكيةً ومحدِّثةً نفسها في أثناء ذلك. ثمَّ التقطت سكِّينًا وهبَّت واقفةً. وجثَت على ركبتها من جديد قرب أجمات الورد العزيزة، حيث قطعت سُوقها نبتةً بعد نبتة، حتى أتت عليها جميعًا.

بعدئذٍ انحنت وهي راكعة وأخذت تنشج، مترجِّحةً إلى الأمام والوراء مرارًا وتكرارًا والسكّينُ ما تزال في يدها.

تهاوت سارة على الأرض في الداخل، ولبدت في ظلام البهو، ويداها تُغطِّيان رأسها.

ركبتا في عربة طيلة النهار التالي وباتتا الليل في فندق. كان كلام ماما قليلًا، وضمَّت سارة دميتها إلى صدرها بشدّة. كان في الغرفة سرير واحد، فنامت سارة راضيةً وأُمُّها تطوِّقها بذراعيها. ولمَّا استيقظت صباحًا، كانت ماما جالسةً قرب النافذة تكركر حبّات المسبحة بين أصابعها، وهي تُصلِّي. وأصغت سارة فيما كرّرت أُمُّها العبارات عينيها مرارًا، غيرَ فاهمةٍ شيئًا:

"سامِحني يا يسوع. أنا فعلتُ ذلك بنفسي. إنِّي نادمة، إنِّي نادمة..." ثمَّ ركبتا نهارًا آخر في عربة أُخرى، ووصلتا إحدى المدن. وكانت ماما متوتِّرة وشاحبة. وقد فَرْشت شعر سارة وعدَّلت قُبَّعتها. ثمَّ أمسكت بيد سارة ومَشَتا وقتًا طويلًا جدًّا حتّى

بلغتا شارعًا تحفُّ به الأشجار.

توقَّفت ماما أمام سياج أبيض، ووقفت عند الباب. وقالت همسًا: "يا ربّ، رجاءً، رجاءً، دعهما يُسامحاني. يا الله، رجاءً".

تأمّلت سارة البيت القائم أمامها. لم يكن أكبر بكثير من البيت الريفيّ، ولكنْ كان له مدخلٌ مسقوف جميل وظهرت على حافات نوافذه أواني زهور، كما تدلّت ستائر مخرّمة وراء جميع النوافذ. وقد أعجبها كثيرًا جدًّا.

لمَّا بلغتا الباب، سحبت ماما نَفسًا عميقًا، وقرعت. فأقبلت تفتح امرأةٌ قصيرة القامة وشائبة الشعر، لابسة ثوبًا مُزهَّرًا من قماش الجِنهام القطني فوقَه مئزرٌ أبيض. وحدَّقت إلى ماما طويلًا، وعيناها الزرقاوان مُغرورِقتان، ثمَّ قالت: "أوه...أُوه... أُوه!"

قالت ماما: "لقد رجعتُ إلى البيت يا أُمّاه. رجاءً، اسمحا لي بالبقاء".

"ليس الأمر بهذه السهولة".

"ما عندي مكان آخر أذهب إليه".

نظرتِ المرأة إلى سارة وقالت ببسمةٍ كئيبة: "لا ضرورة للسؤال عن كونها ابنتَكِ. إنَّها جميلة جدًّا".

"رجاءً، ماما!"

فتحتِ المرأة الباب وأدخلتهما. ثمَّ تقدَّمتهما إلى غرفةٍ صغيرة فيها كثيرٌ من الكُتب، وقالت قبل أن تذهب: "انتظري هنا ريثما أُكلِّم أباكِ!" وأخذت ماما تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهي تفرك يدَيها. وتوقَّفت مرّة، ثمّ أغمضت عينيها وشفتاها تتحرَّكان. ولمَّا عادت المرأة، بدا وجهُها عابسًا وشاحبًا وخدّاها مبلَّلين، وقالت "لا!" كلمة واحدة دون غيرها: لا!

خطَت ماما خطوةً نحو الباب، فأوقفتها المرأة قائلةً: "لن يقول لكِ إلَّا أشياءَ تؤذيكِ أكثر".

"تؤذيني؟ كيف يمكن أن أُؤذَى أكثرَ بعدُ يا ماما؟"

"ميّ، رجاءً، لا تفعلي هذا..."

"سأتوسَّل. سأجثو على ركبتيَّ. سأقول له إنّه على حقّ. كان على حقّ!"

"لن ينفعكِ هذا شيئًا. لقد قال إنَّ ابنته مَيْتة في نظره".

فجاوزَتها ميُّ بسرعةٍ وهي تقول: "لستُ مَيْتة!" وأومأتِ المرأة لسارة بأن تبقى في الغرفة، ثمَّ أسرعت تتبع ماما، مُغلِقةً الباب وراءهما. فأخذت سارة تنتظر وهي

تسمع أصواتًا بعيدة.

رجعت ماما بعد قليل شاحبة الوجه، ولكنّها كانت قد كفَّت عن البكاء. وقالت بنبرةٍ فاترة: "هيا بنا، يا حبيبتي؛ سنُغادِر!"

وقالت المرأة: "ميّ... آه يا ميّ!" ثمَّ دسَّت في يدها شيئًا، قائلةً: "هذا كلُّ ما لديَّ".

لم تقُل ماما كلمةً واحدة. وسُمِع من الغرفة الأُخرى صوتُ رجُل، غاضِبٍ آمِر. فقالت المرأة: "عليَّ أن أذهب إليه". فأومأت ماما برأسها وخرجت مُولِّيةً.

لمّا وصلنا إلى آخر الشارع الذي تحفُّ به الأشجار، فتحت ميُّ يدها ونظرت إلى قطعة النقد التي دسَّتها أُمُّها فيها. ثمَّ ضحكت ضحكةً خفيفة متهدِّجة. وبعد هُنَيهة، أمسكت بيد سارة، وواصلت السير فيما الدموع تنهمر على خدَّيها.

باعت ماما خاتمها الياقوتيَّ ولآلئَها. وأقامت هي وسارة في فندق حتَّى نَفِد المال. ثمَّ باعت صندوقها الموسيقيَّ، وأقامتا مدَّةً قصيرة في خان رخيص وفَّر لهما راحة معقولة. أخيرًا طلبَت من سارة إعطاءها الوزَّة البلّوريَّة، وبالمال الذي باعتها به أقامتا مدَّةً طويلة في فندقٍ مُنهار، قبل أن تعثر ماما على كوخٍ قريبٍ من أرصفة ميناء نيويورك استقرَّتا فيه دائمًا.

أخيرًا شاهدت سارة البحر. وقد كانت نُفايات تطفو فيه. إلّا أنّها رُغم ذلك أُعجبت به كثيرًا.

كانت سارة تنزل أحيانًا وتقعد على رصيف التحميل والتفريغ. وقد راقتها رائحةُ البحر والسُّفنُ المُقبِلة محمَّلةً بالبضائع، وأصواتُ المياه تُلاطِم الأعمدة تحتَها وطيور النورس فوق رأسها.

كانت الأرصفة تغصُّ برجالٍ أجلاف وبَحّارةٍ آتين من جميع أنحاء العالم. وكان بعضهم يأتون زائرين، فتطلب ماما من سارة البقاء خارجًا حتّى يغادروا. ولم يكونوا يلبثون طويلًا قطّ. ومِنهم من كانوا يقرصون خدَّها، ويقولون إنّهم سيرجعون حين تكبر قليلًا. وقال بعضهم إنّها أجمل من ماما. غير أنّها عرفت أنَّ ذلك غير صحيح.

لم تحبَّ سارة أولئك الرجال. كانت ماما تضحك حين يأتون وتتصرَّف كما لو كانت مسرورة برؤيتهم. ولكنْ بعد مغادرتهم كانت تبكي وتشرب الوِسكي حتى يسطو عليها النوم في السرير المتغضِّن تحت النافذة.

وفي سنِّ السابعة، تساءلت سارة عمَّا قالته كلِيو عن حقِّ الله: ألم يكن ما قالته صحيحًا إلى حدٍّ ما؟

بعدئذٍ انتقل العمُّ راب ليُقيم معهما، فتحسَّنت الأحوال. قلَّ عدد الرجال الذين يُقبِلون زائرين، وإن كانوا ما يزالون يأتون حين لا يكون في جيوب العمِّ راب نقودٌ تُخشخِش. وقد كان راب ضخمًا وبليدًا، وعاملته ماما بمودَّة. وكانا ينامان معًا في السرير تحت النافذة، فيما ترقد سارة في فِراشٍ يُبسَط على الأرض.

وقالت لها ماما: "إنَّه ليس ذكيًّا جدًّا، ولكنَّ له قلبًا رقيقًا، وهو يحاول إعالتنا. الأحوال معسورة، يا حبيبتي، وهو لا يقدر على ذلك أحيانًا. إنَّه يحتاج إلى مساعدة ماما له".

أحيانًا كان راب يكتفي بالجلوس خارجَ الباب ليسكر ويُغنِّي أغانيَّ عن النساء.

وحين يكون الطقس ماطرًا، كان ينزل إلى الحانة في أسفل الطريق ليقضيَ الوقت مع أصدقائه، فتشرب ماما وتنام. ولتقطيع الوقت، كانت سارة تجمع بعض العُلَب المعدنيَّة المَرميَّة وتغسلها حتَّى تبرق كالفضَّة، ثمَّ تضعها تحت أماكنِ وَكْف السَّقف لالتقاط الماء الراشح. ومن ثَمَّ تقعد في الكوخ الساكن، والمطرُ يهطل مُطرطِقًا، لتُصغيَ إلى وقع نُقَط الماء في العُلَب.

كانت كلِيو أيضًا على حقٍّ في ما قالته عن البكاء. فالبكاء لا يُجدي نفعًا. فكم بكَت ماما حتَّى أرادت سارة أن تسدَّ أُذنَيها لئلَّا تسمعها أبدًا! وكلُّ بُكاء ماما لم يُبدِّل شيئًا قطّ.

وحين كان باقي الأولاد يستهزئون بسارة ويُلقِّبون أُمَّها ألقابًا مُهينة، كانت تنظر إليهم ولا تقول شيئًا. فما يقولونه صحيح، ولا يمكن إنكاره. وكلَّما أحسَّتِ الدموع صاعدةً ومتراكمةً كثقلٍ ضخمٍ قاسٍ داخل كِيانها، حارَّةً جدًّا بحيث تصوَّرت أنَّها ستحرقها، كانت تحبسها وتدفعها نزولًا أعمق فأعمق حتَّى تغدو حجرًا صُلبًا صغيرًا في صدرها. وقد تعلَّمت أن تُبادِل مُعذِّبيها النظر وتبتسم بشموخٍ بارد وإزدراء شديد. وتعلَّمت أن تتظاهر بأنَّ أيَّ شيء ممَّا يقولونه لا يمكن أن يؤثِّر فيها. وأقنعت نفسها أحيانًا بأنَّ ذلك هو الواقع.

في الشتاء الذي فيه بلغت سارة سنَّ الثامنة، مرضت ماما، ولم تُرِد إحضار طبيب، قائلةً إنَّ كلَّ ما تحتاج إليه هو الراحة. غير أنَّ صحَّتها ظلَّت تتدهور، وقد غدا تنفُّسها أكثر إجهادًا. ومرَّةً قالت: "راب، اهتمَّ ببنتي الصغيرة!" مبتسمةً كما كانت تبتسم منذ عهدٍ بعيد.

ثُمَّ في الصباح ماتت ميُّ وأوّلُ أشعَّة شمس الربيع على وجهها، ومسبحتُها في يديها اللتين اعتراهما شحوب الموت. فبكى راب بكاءً مُرًّا وشديدًا، إلَّا أنَّ دموع سارة جفَّت. لقد بدا الثِّقلُ داخلَ صدرها أثقل من أن يُحتمَل. ولمَّا خرج راب قليلًا، استلقت بجانب ماما وطوّقتها بذراعيها.

كانت ماما باردة وجامدة تمامًا. أرادت سارة أن تُدفئها. وأحسَّت عينيها خشنتين وحارَّتين، فأغمضتهما وهمست مرارًا: "قومي يا ماما. قومي. رجاءً، قومي!" ولمَّا لم تقُم ماما، لم تستطع سارة وقْف دموعها، ومضت تقول: "أُريد أن أذهب معكِ. خُذني أنا أيضًا... رجاءً، يا الله، أُريد أن أذهب مع ماما". وظلَّت تبكي حتَّى غلبها التعب الشديد، ولم تستيقظ إلَّا بعدما حملها راب مُبعِدًا إيّاها عنِ السرير. وكان معه بعضُ الرجال.

أدركت سارة أنَّهم ينوون الإمساك بماما، فصرخت عليهم كي يَدَعوها وشأنها. وأمسكها راب بشدَّة حتَّى كاد يخنقها برائحة قميصه الفاسدة، فيما شرع الآخرون يلفُّون ماما بمُلاءة. وصمتت سارة لمَّا رأت ما فعلوه. ثمَّ أفلتها راب، فقعدت حالًا على الأرض جامدةً لا تتحرَّك.

أخذ الرجال يتحادثون وكأنَّها غير موجودة. ولعلَّها لم تعُد موجودةً فعلًا. لعلَّها مختلفة، بالطريقة التي ذكرَتها ماما مرَّة.

قال أحدُهم إذ بدأ يخيط الكفن لإخفاء وجه ماما: "يقينًا أنَّ ميَّ كانت جميلةً جدًّا في ما مضى".

فقال راب باكيًا من جديد: "إنَّها أفضل حالًا وهي ميّتة. على الأقلّ، إنَّها ليست غير سعيدة الآن. فقد تحرَّرت!"

وفكَّرت سارة: تحرَّرَت؟ تحرَّرَت منِّي أنا. لو لم أولَد، لكانت ماما مُقيمة في بيت ريفيٍّ جميل تحفُّ به الزهور، لكانت ماما سعيدة، لكانت ما تزال حيَّة!

قال الرجال: "مهلًا!" ثمَّ انتشل المسبحة من بين أصابع ماما وألقاها في حضن سارة قائلًا: "يقينًا أنَّها كانت تريد لكِ أن تحتفظي بهذه، يا عزيزتي!" وأنهى تخييط الكفن فيما سارة تُكرِكر حبّات المسبحة بين أصابعها الباردة محدِّقةً إلى الفراغ.

ثمَّ ذهبوا جميعًا، وماما معهم. وجلست سارة وحدها وقتًا طويلًا، متسائلةً هل يفي راب بوعده أن يهتمَّ بها. ولمَّا حلَّ اللَّيل وراب لم يعُد، نزلت سارة إلى أرصفة الميناء، وطوَّحت المسبحة على كومة قُمامة. ثمَّ جأرت إلى السماء قائلةً: "أيُّ خيرٍ فيكِ؟"

فلم يكن جواب.

وتذكرَّت حين ذهبت أُمُّها إلى الكنيسة الكبيرة وتحدّثت إلى الرجل اللابس الثياب السوداء. آنذاك تكلَّم وقتًا طويلًا وماما تُصغي إليه، مُطرِقةً والدموع تنهمر على خدَّيها. بعد ذلك لم ترجع ماما إلى الكنيسة قطّ، بل ظلّت أحيانًا تُكركِر المسبحة بأصابعها النحيلة فيما المطر يسيل على زجاج النافذة.

وصرخت سارة ثانيةً: "أيُّ خيرٍ فيكِ؟ قولي لي!" فيما رمقها بحّارٌ عابر بنظرةِ استغراب.

لم يرجع راب إلَّا بعد يومين. ولمَّا رجع، كان شديد السُّكر بحيث لم يتذكَّر مَن هي. قعدت مُتربِّعة وظهرُها صوب الموقد، ناظرةً إليه. كان بالغ التأثُّر، والدموعُ القذرة تسيل على خدَّيه الأشعرَين. وكلَّما رفع القِنّينة نصف الفارغة بعنقها، لاحظت عقدة حنجرته تنتأ. بعد قليلٍ ارتمى وأخذ يشخر، فيما جرى ما بقي من الوِسكي عبر شقوق الأرضيَّة. فغطَّته سارة بالبطّانيَّة وقعدت قربَه. "لا بأس، يا راب. أنا سأهتمُّ بكَ الآن!" لم يكُن في وسعها أن تقوم بذلك كما قامت به ماما، ولكنْ لا بدَّ أن تجد سبيلًا ما.

كان المطر ينقر على النافذة. فنشرت عُلَبها المعدنيَّة وصرفت ذهنها عن كلِّ شيء ما عدا وقْع نقاط الماء فيها مُصدِرةً نغمًا شجيًّا في الغرفة الباردة الموحِشة.

قالت لنفسها إنَّها مسرورة، مسرورة فعلًا. فلن يأتيَ أحدٌ ليقرع الباب. ولن يُزعِجَها أحدٌ بعد.

استبدَّ براب في الصباح شعورُه بالذنْب، فبكى من جديد. "عليَّ أن أفيَ بوعدي لميّ، وإلَّا فلن تستريح في رقادها". ثمَّ وضع رأسه في يديه ونظر إليها بعينيَن حزينتين مُحمرَّتين. "ماذا أفعل بكِ يا صغيرة؟ أحتاجُ إلى شيء من الشراب احتياجًا شديدًا". وفتَّش في الخزائن، فلم يجد سوى علبة فاصوليا. ففتحها وأكلٍ نصفها، تاركًا الباقي لها. "سأخرج مدَّةً قصيرة لأفكِّر في ترتيب الأمور. عليَّ أن أُكلِّم بعض الأصدقاء، لعلَّهم يُساعِدونني".

تمدَّدت سارة على السرير وضغطت وسادة أُمِّها على وجهها، معزِّيةً نفسها برائحة عطر ماما الباقي. وانتظرت ريثما يعود راب. وإذ مرَّت الساعات، جاش الارتعاد في أعماقها.

كان الطقس باردًا، والثلج يتساقط. فأوقدت النار وأكلت الفاصوليا. ثمَّ سحبت، وهي ترتجف، بطّانيَّة عن السرير تلفَّفت بها، جالسةً أقرب ما يمكن من الباب.

مالت الشمس إلى الغروب، وقد ساد سكونٌ قاتل. تباطأ كلُّ شيءٍ في داخلها، وفكَّرت أنَّها إذا أغمضت عينيها واسترخَت يمكنها أن تتوقَّف عن التنفُّس فتموت. وحاولت التركيز على ذلك، إلَّا أنَّها سمعت صوت رجُل يتكلَّم متأثِّرًا. كان ذلك راب.

"ستكون راضيًا. أُقسِم لك. إنَّها بنتٌ طيِّبة، تُشبِه ميّ. جميلة، جميلة جدًّا. وذكيَّة أيضًا".

تنفسَّتِ الصُّعَداء لمَّا فتح راب الباب. لم يكن سكران كثيرًا، بل كان البريق والمَرَح بادِيَين في عينيه إلى حدٍّ بعيد. وكان مبتسمًا أوّل مرَّة منذ أسابيع. قال: "كلُّ شيء سيكون على ما يُرام الآن، يا صغيرة"، ثمَّ أدخل معه إلى الكوخ رجُلًا آخر.

كانت بنية الغريب كبنية عمَّال الشحن على الأرصفة، ونظراته حادَّة. فما إن رمقها حتَّى انكفأت، فيما مضى راب يقول وهو يساعدها: "قفي! لقد جاء هذا السيِّد لمقابلتك. إنَّه يشتغل عند رجل يريد أن يتبنَّى بنتًا صغيرة".

لم تدرِ سارة ما كان راب يتكلَّم عنه، غير أنَّها تيقَّنت أنَّ الرجُل الذي صحبه لم يرُقها. فقد تقدَّم نحوها، فحاولت أن تختبئ وراء راب. ولكنَّ راب أمسكها وأبقاها أمامه. أمسك الغريب ذقنها براحة يده، ورفع وجهها مُديرًا إيّاه من جهةٍ إلى جهة تفحُّصًا. ولمَّا أفلتها، أمسك بخصلة من شعرها الأشقر وأخذ يفركها بين أصابعه. ثمَّ قال مبتسمًا: "حلوة، حلوة حقًّا. ستعجبه هذه!"

خبط قلبها بضراوة. ورفعت نظرها نحو راب، إلَّا أنَّه لم يحسَّ أنَّ في الأمر أيَّ إشكال، بل قال بصوتٍ مُتهدِّج: "إنَّها تشبه أُمَّها".

"إنَّها نحيلة وقذرة".

فقال راب باستعطاف: "نحن فقراء".

أخرج الرجل من جيبه بعض الأوراق النقديَّة، ثمَّ سحب منها اثنتين أعطاهما لراب قائلًا: "نظِّفها ورتِّبها، واشترِ لها ثيابًا لائقة. ثمَّ خذها إلى هذا العنوان". وغادر بعدما أعطى راب عنوانًا محدَّدًا.

شهق راب وقال مبتسمًا كالمُكشِّر: "لقد بدأ الدهر يبتسم لكِ يا صغيرة. أما وعدتُ ماما بأن أهتمَّ بكِ جيِّدًا؟" ثمَّ أمسك بيدها ومشى مسرعًا إلى كوخٍ آخر غير بعيدٍ كثيرًا، حيثُ فتحتِ البابَ بعدما قرعه امرأةٌ لابسةٌ إزارًا رقيقًا، شعرُها الكستنائيُّ الجَعْد مُرخًى على كتفَيها الشاحبَين وتحت عينيها العسليَّتين خطوطٌ دائريَّة.

"أحتاج إلى مساعدة منك يا ستِلَّا".

وبعدما شرح لها كلَّ شيء، قطَّبت وأخذت تلوك شفتها السُّفلى.

"أأنت متأكد من هذا يا راب؟ ألم تكن سكران؟ لا يبدو الأمر حميدًا بطريقةٍ ما. ألَم يذكر أيَّ اسم أو أيَّ شيء آخر؟"

"لم أسأله، ولكنّني أعرف عند مَن يشتغل. فإنَّ رادلي قال لي. السيِّد الذي يريد أن يتبنّاها غنيٌّ مثل قارون وذو منصب حكوميّ رفيع".

"إذًا لماذا يبحث عن ابنةٍ على أرصفة الميناء؟"

أجابها بصوتٍ مرتجف وعينين دامعتين: "هذا لا يهمّ، أليس كذلك؟ هذه أحسن فرصة سنحت لها، وأنا قد وعدتُ ميّ".

نظرت إليه ستِلّا بأسى: "لا تبكِ، يا راب. سأُرتِّب البنت أحسن ترتيب. اذهب واشترِ لك شرابًا، ثمَّ ارجع في ما بعد، فأكونَ قد جهَّزتُها لك تمامًا". ثمَّ غادر، فنقَّبت ستِلّا في خزانة ثيابها حتَّى عثرت على قطعة قرنفليّة ناعمة. وقالت: "سأرجع حالًا"، حاملةً دلوًا لإحضار بعض الماء. ولمَّا رجعت، سخَّنت قليلًا في قِدْر. "والآن استحمّي جيِّدًا. فما من رجُل يريد بنتًا قذرة". ففعلت سارة ما طلبته ستِلّا منها، والخوفُ يتعاظم في أحشائها.

غسلت ستِلّا شعرها بما تبقّى من الماء، قائلةً: "عندكِ أجمل شعر رأته عيناي يومًا. إنَّه كالشمس عند شروقها تمامًا. ولكِ عينان زرقاوان جميلتانِ أيضًا".

بدَّلت المرأة البلوزة القرنفليّة، وضفرت شعر سارة بأشرطة زرقاء. وتذكَّرت سارة قيام ماما بالأمر عينه حين كانتا تُقيمان في البيت الريفيّ. أم هل كانت تحلم تلك المرّة؟ ثمَّ وضعت ستلّا بعضَ الطلاء الأحمر على شفتَي سارة وخدَّيها الباردين، وفركته برفق، قائلةً: "كم أنتِ شاحبة! لا ترتاعي يا حلوتي! مَن يؤذي ملاكًا صغيرًا جميلًا مثلك؟"

رجع راب اليوم التالي، سكرانَ ولا نقودَ تُخشخِش في جيبه. كانت عيناه واسعتين، فاترتين، ناضحتَين ألمًا يمازجه الارتباك. "مرحبا يا صغيرة. أظنُّ أنَّ الفَرَج يقترب، هُه؟"

وعانقته بشدَّة. "لا تتخلَّ عنّي يا راب. أبقِني معك. كُن أنت أبًا لي!"

"هاه؟ وماذا يمكنني أن أفعل ببنتٍ صغيرة، هُه؟"

ثمَّ أبعدها عنه، ورمقها بنظرةٍ كئيبة، قائلًا: "مشاكلي تكفيني".

"لن تُضطرَّ إلى فعل شيء. يمكنني أن أعتني بنفسي. يمكنني أن أعتني بك أيضًا".

"كيف ستفعلين ذلك؟ أنتِ أصغر سنًّا من أن تؤدّي أيَّ عمل يمكن أن تقبضي مالًا عنه. هل تعمدين إلى السرقة مثلي؟ كلّا! انتقلي إلى ديار ذوي الجيوب المليئة، وعيشي حياةً سعيدة. هيّا الآن!"

سارا وقتًا طويلًا، وكان الظلام قد بدأ يُخيِّم. فخافت سارة من الظِّلال وتشبَّثت

يد راب. وعبرا حاناتٍ تصدح فيها الموسيقى العالية وتضجُّ بالصراخ والغناء. وهبطا شوارع تحفُّ بها البيوت، البيوت الكبيرة الفاخرة التي لم تَرَ لها مثيلًا من قبل. وبدت النوافذ المُضاءة أشبه بعيون كبيرة متألِّقة تتتبَّع كلَّ حركةٍ من حركاتها. فهي لا تنتمي إلى ذلك المكان، وتلك العيون عرفت ذلك وأرادت لها أن تمضي. وكانت تلتصق مرتجفةً بجانب راب وهو يسأل الرجال عن العنوان فيما يُريهم قُصاصة الورق الصغيرة المغضَّنة.

آلمت سارة رِجلاها، وقرقر بطنُها. وتوقَّف راب ونظر إلى البيت الكبير الذي تحفُّ به بيوتٌ أُخرى مثله، فقال محدِّقًا برهبة: "أليس هذا رائعًا؟!"

لا زهور، بل مجرَّد حجارة باردة قاتمة. وكانت سارة مُنهَكة جدًّا، فلَم يهمَّها شيء من ذلك، بل قعدت على الدرجة السُّفلى ببؤس وتعس، متمنِّيةً لو كانت قد بقيت في الكوخ بقرب الأرصفة حيث رائحة البحر تهبُّ مع مدِّ الموج.

قال راب: "هيّا يا صغيرة. بضعَ خطواتٍ بعدُ فتَصِلي إلى بيتك"، ساحبًا إيّاها وهي تُحدِّق بفزع إلى رأس الأسد النُّحاسيّ الضَّخم المُثبَّت على الباب. وأمسك راب بالحلقة المُدلّاة من أنياب الأسد البارزة، ثمَّ قرع بها الباب قائلًا: "روعة!"

فتح البابَ رجلٌ لابسٌ بدلةً سوداء، وألقى على راب نظرة ازدراء فاحصة. فناوله راب الورقة قبل أن يُتاح له إغلاق الباب في وجهه. وتفحَّص الرجل الورقة، ثمَّ فتح الباب بمقدارٍ يكفي لدخولهما منه، قائلًا ببرودة: "من هُنا".

كان الداخل دافئًا وطيِّب الرائحة. وانبسطت أمام سارة غرفةٌ واسعة مُدَّت فيها سجّادة فخمة مُزهَّرة على أرضيَّة خشبيَّة لمّاعة. وشعَّت من فوقُ أنوارٌ دُرِّيَّة متألِّقة. ولم تكن سارة قد شاهدت شيئًا رائعًا مثل ذلك ففكَّرت مُتعجِّبة: لا بدَّ أن تكون السماء شيئًا يشبه هذا!

أقبلت تُرحِّب بهما امرأةٌ حمراء الشَّعر، قاتمة العينَين، ذاتُ فَمٍ مكتنز أحمر. كانت لابسةً فستانًا أسود جميلًا، تبرق على كتفيها وصدرها الممتلئ خرزاتُ الكهرمان. فألقت على سارة نظرةً من علٍ وعبست قليلًا. وبعدما نظرت إلى راب نظرةً سريعة، التقت عيناها عينَي سارة بمزيدٍ من الرقَّة. ثمَّ انحنت ومدَّت يدها. "اسمي سالي. ما اسمُكِ يا عزيزتي؟"

فما كان من سارة إلّا أن نظرت إليها وانكفأت خلف راب.

وقال راب بلهجة اعتذار: "إنَّها خجِلة. لا تؤاخِذيها!"

فاعتدلت سالي ورمقته بنظرةٍ حادَّة. "أأنت على يقين ممّا تفعله يا سيِّد؟"
"طبعًا! لديكم هنا مكانٌ جميل يا سيِّدتي، لا يُشبِه في شيءٍ الجُحر الذي كنّا نُقيم فيه".
فقالت سالي بصوتٍ خاوٍ: "صعودًا على الدرج إلى يمينك، أوّل باب إلى اليسار". ثمّ مدَّت يدها قبل أن يخطو راب خطوتَين وأوقفته مُردِفةً: "إلّا إذا كنت ذكيًّا وقبلتَ نصيحتي بالمغادرة الآن مصطحبًا إيّاها إلى البيت!"
"ولماذا أرغب أن أفعل ذلك؟"
"لن تراها ثانيةً بعد هذه الليلة".
فهزَّ كتفيه بلامبالاةٍ قائلًا: "ليست لي على كلِّ حال. أهو هنا؟ أقصد الريِّس".
"سيأتي سريعًا. وستُبقي فمك مُقفلًا إن كان في رأسك عقل".
توجَّه راب حالًا نحو الدَرَج. وأرادت سارة أن تركض خارج الباب هاربةً، إلّا أنَّه كان ممسكًا بيدها بكلِّ شدَّة. وألقت نظرة إلى الوراء فرأتِ المرأة الغاطسة في السواد تراقبها، وعلى وجهها ملامحُ أسى.
كان كلُّ شيء في الغرفة العُلويَّة كبيرًا: الخزانة العالية الفاخرة، الموقد القرميديُّ الأحمر، المنضدة المصنوعة من خشب الساج، السرير النحاسيّ. وقامت في الزاوية مغسلة من الرخام الأبيض، بقربها منصَبُ مناشف نحاسيٌّ مصقول جيدًا بحيث بدا كأنَّه من ذهب خالص. وكان لجميع المصابيح شُرّاباتٌ مُرصَّعة بالجواهر، كما كانت الستائر على النوافذ حمراء قانية، وهي مُغلَقة بإحكامٍ حتَّى لا يرى أحدٌ ما في الداخل، ولا ما في الخارج.
قال راب: "اجلسي هناك واستريحي يا صغيرة"، مربّتًا ظهرَها ومُشيرًا إلى كُرسيٍّ مُجنَّح. كان الكرسيُّ تمامًا مثل الذي اعتادت ماما أن تجلس عليه في البيت الريفيّ. فتسارعت دقَّات قلب سارة فجأةً. أيمكن أن يكون الكرسيّ نفسه؟
ماذا لو أنَّ أباها قد ندم؟ ماذا لو أنّه كان يبحث عن ماما وعنها طوال ذلك الوقت فتبيّن له أين هي وماذا جرى؟ ماذا لو أنّه ندم من جرّاء جميع الأشياء الرهيبة التي قالها، وأصبح يريدها أخيرًا؟ وراح قلبها يخفق أسرع فأسرع فيما غمرها الأمل والأحلام المنبعثة من يأسها.
مضى راب إلى طاولة قرب النافذة. "أما تَرى هذا؟" ومرَّر أصابعه في إعجابٍ على تشكيلة من القناني البلّوريَّة. ثمَّ رفع السِدادة عن إحداها وتنشَّق السائل الكهرمانيَّ

الذي فيها. "أوه، يا..." ثمَّ تنهَّد وأدناها من شفتيه، وأمالها. وبعدما تجرَّع نصف ما فيها، مسح فمه بقفا كُمِّه. "سأقتربُ إلى السماء أكثرَ ممّا اقتربتُ يومًا!" ثمَّ نزع سِدادة قِنّينة أخرى، وسكب قليلًا منها في تلك التي أفرغ في جوفه نصف ما فيها. ورفعها عاليًا ليتحقَّق من استوائهما مجدَّدًا، ثمَّ وضعهما حيث كانتا بكلِّ حرص، وأرجع السِدادتين إلى مكانهما.

بعد ذلك فتح الخزانة الكبيرة وتفحَّصها، ثمَّ دسَّ في جيبه شيئًا. ومن ثمَّ توجَّه إلى المنضدة وتفحَّصها أيضًا، ودسَّ في جيوبه مزيدًا من الأشياء.

سمعت سارة ضحكًا خافتًا. كانت عيناها ثقيلتين، وقد أسندت رأسها إلى جناح الكرسيّ. متى يأتي أبوها؟ وعاد راب إلى قنانيِّ الزجاج حيث شرب من اثنتيَن أخريَين.

إذ ذاك سُمع صوتٌ خفيفٌ خفيض قائلًا: "هل أعجبك شرابي؟"

ورفعت سارة عينيها إذ فوجئت، فحدَّقت وغاص قلبها. لم يكن ذلك أباها قطعًا، بل كان غريبًا طويل القامة أسمر البشرة. وإذ برقت عيناه، خُيِّل إلى سارة أنَّها لم ترَ قطُّ وجهًا بذلك الجفاء ولا بذلك الجمال. وقد كان لابسًا ثيابًا سوداء ومعتمرًا قُبَّعة لمّاعة.

دفع راب سِدادةً إلى مكانها داخل عُنق الإناء الزجاجيّ، وأعاده إلى الصينيَّة الفضيَّة قائلًا: "لم أتناول شيئًا فاخرًا كهذا منذ عهدٍ بعيد". ولاحظت سارة وجهه يشحب فيما حدَّق إليه الرجل بتَينك العينين الغريبتين. فتنحنح راب مُسلِّكًا حنجرته، ثمَّ ابتعد عن الطاولة، وقد بدا عليه التوتُّر.

نزع الرجل قُبَّعته ووضعها على الطاولة. ثمَّ خلع قُفّازيه وألقاهما فيها.

خلب ذلك الرجل لبَّ سارة بحيث فاتها أوَّلًا أن تلاحظ الرجل الآخر الواقف وراءه تمامًا. وطرفت عيناها من المفاجأة. لقد كان هو ذلك الرجل الذي جاء إلى رصيف الميناء وتفحَّصها بنظره. فانكمشت في الكرسيّ. كان الرجل الثاني يراقب راب، وقد ذكَّرتها عيناه بالفئران في الممشى وراء الكوخ. ونظرت إلى السيِّد الأنيق فوجدته ينظر إليها بابتسامةٍ واهية. ولكنَّ تلك الابتسامة، بطريقةٍ ما، لم تجعلها تشعر بأيِّ تحسُّن، بل جعلت أحشاءها ترتعد. تُرى، لماذا كان ينظر إليها هكذا، كما لو كان جائعًا وكانت هي شيئًا يريد أن يأكله؟

وسأل بغير أن يُزيح نظره عنها: "ما اسمُها؟"

فانفتح فم راب قليلًا وبدا مشدوهًا، وقال: "لا أدري!" ثم أطلق ضحكةً مضطربة مُخبَّلة، وقد بدا واضحًا أنَّه سكران.

فقال الرجل بجفاء: "ماذا كانت أُمُّها تُناديها؟"

"«حبيبتي» ... ولكنْ يمكنك أن تُناديَها بأيِّ اسمٍ تريده".

ضحك الرجل ضحكةً قصيرة غير مَرِحة، وصرف راب بنظرةِ احتقار. ثمَّ تفحَّص سارة بدقَّة. فاعتراها الفزع والذعر الشديدان حتَّى عجزت عن الحراك لمَّا مشى نحوها. ثمَّ ابتسم ثانيةً عندما توقَّف، وعيناه تبرقان بريقًا غريبًا. وسحب من جيب بنطلونه لفيفة أوراقٍ ماليَّة أزال عنها مشبكًا ذهبيًّا، ثمَّ عدَّ بعضًا منها وناول راب إيَّاها بغير أن ينظر إليه ولو نظرةً واحدة.

تناولها راب بلهفة، وعدَّها ثانيةً قبل أن يدسَّها في جيبه. "شكرًا لك يا سيِّد. أُوه، عجبًا، لمَّا قال لي رادلي العجوز إنَّك أنت كنت تبحث عنِ ابنة، لم أستطع تصديق حظِّ الصغيرة. ويمكنني أن أقول لك إنَّها لم تحظَ في حياتها بالكثير". كان يُثرثِر، وذكر اسم الرجل مرَّتين، وقد حال سكره وغباؤه الشديدان دون أن يرى التغيُّر في وجه الرجُل.

غير أنَّ سارة رأت ذلك.

كان ساخطًا، ولكنْ أكثر من ذلك. فقد بدا... وارتعدت سارة ثانيةً. لم تكن مُتيقِّنة كيف بدا، ولكنَّ منظره لم يكن حسنًا. فألقت نظرةً على راب، والذُّعر يتعاظم في أحشائها من جديد. إذ إنَّه مضى يثرثر ويبربر، محاولًا أن يسترضي ويتملَّق الرجل الواقف أمامها، بغير أن يُلاحِظ الإشارة الماكرة التي أومأ بها السيِّد للرجل الواقف وراء راب. فاندفعت صرخةٌ إلى حنجرة سارة، إلَّا أنَّها لم تطلع إلى الخارج، إذ لم تستطع ذلك. فقد تجمَّد صوتُها من الرعب كما تجمَّد جسمُها كلُّه. ومضت تراقب مرعوبةً، فيما واصل راب الكلام. ولم يتوقَّف حتَّى التفَّت مَرَسة سوداء حول عنقه. فجحظت عيناه. وبينما هو يختنق، مدَّ أصابعه ليحكَّ عُنقه ويُسيلَ دمَه بأظفاره الوسخة.

قفزت سارة عن كرسيِّها وركضت نحو الباب. أدارت المسكة وشدَّتها محاولةً الفرار. إلَّا أنَّ الباب لم ينفتح. وسمعت راب يختنق، وقدماه ترفسان وتخربشان فيما هو يُقاوِم. فضربت خشب الباب بقبضتيها وأخذت تصرخ.

أطبقت على فمها يدٌ قويَّة، وأبعدتها عنِ الباب بقوَّة. فراحت تركل وتعضُّ وتُقاوِم، بغير أن يجديها ذلك أيَّ نفع. إذ كان جسم الرجل كالصخر، وقد أمسك بذراعيها وثبَّتهما معًا بإحكامٍ بيدٍ واحدة، فيما الأُخرى تسدُّ فمها بمزيدٍ من الإحكام.

أمَّا راب فأصبح بلا حراك.

ثمَّ قال الرجل الممسِك بها: "أبعِده من هنا". ولمحت سارة راب على الأرض والمَرَسةُ السوداء ما تزال ملفوفةً حول عنقه، وقد تشوَّه وجهه كثيرًا. ثمَّ حلَّ الرجل الذي كان قد جاء إلى الكوخ المَرَسة وأعادها إلى جيبه، قبل أن يجرَّ راب ويُلقيه على كتفه.

"سوف يحسب الجميع أنَّه قضى من السُّكر".

ثمَّ قال الصوت البارد من فوقها: "قبل أن ترميه في النهر، فتِّش جيوبه ورُدَّ ما سرقه منِّي!"

"نعم سيِّدي".

وسمعت سارة الباب ينفتح وينغلق.

لمَّا أفلتها الرجُل، ركضت إلى الزاوية القُصوى في الغرفة، حيث انكمشت مرتعدةً. ووقف الرجل في وسط الغرفة ينظر إليها طويلًا. ثمَّ ذهب إلى المغسلة الرخاميَّة، وصبَّ ماءً في حوض البورسِلان، حيث بلَّل خرقةً بيضاء ثمَّ عصرها ومشى نحو سارة، فانكمشت بأقصى قوَّتها، فيما انحنى هو متثاقلًا وأمسك بذقنها.

قال: "أنت أجمل جدًّا من أن تحتاجي إلى طلاء!" وشرع يغسل لها وجهها.

ارتعدَت ارتعادًا شديدًا مِن مَسِّه لها. ونظَرت إلى حيث كان راب ممدَّدًا. فأمال الرجل ذقنها نحوه.

"لا أعتقد أنَّ ذلك الجلف السكران أبوكِ. إنَّك لا تُشبهينه في شيء، وفي عينيكِ ذكاء!"

ولمَّا أنهى غسل الحُمرة عن خدَّيها وفمها، طرح الخرقة جانبًا، وقال: "انظري إليَّ، يا صغيرتي!"

وما إن نظرت سارة إليه، حتَّى شرع قلبها يخبط حتَّى أخذ جسمُها كلُّه يرتجف رعبًا.

ثمَّ أمسك بوجهها حتَّى لم تعُد تستطيع أن تُزيح نظرها بعيدًا، وقال: "ما دُمتِ تعملين تمامًا ما أقول لكِ أن تعمليه، تسير أُمورُنا حسنًا". وابتسم بفتور، مُربِّتًا خدَّها وعيناه تبرقان بريقًا غريبًا، سائلًا: "ما اسمكِ؟"

إلَّا أنَّ سارة لم تستطع أن تُجيب.

وبعدما مسَّ شعرها وحنجرتها وذراعها، قال: "لا يهمّ. أعتقد أنَّني سأدعوكِ آنجِل" (أي ملاكًا). ثمَّ اعتدل وأمسك بيدها قائلًا: "تعاليَ الآن يا آنجِل. عندي أُمور أُعلِّمُكِ إيَّاها!" ومن ثَمَّ أقامها وأجلسها على السرير الكبير، قائلًا: "يمكنكِ

أن تُناديني «دوك»، عندما تنحلُّ عقدة لسانك". ثمّ خلع سترته الحريريّة السوداء وأردف: "وهذا ما سيحصل سريعًا". وابتسم مرّةً أخرى إذ حلّ ربطة عُنقه، وبدأ يفكُّ أزرار قميصه ببطء.

ولمّا طلع الصباح، علمت سارة أنّ كِليو قد أطلعتها على حقّ الله بشأن كلّ شيء.

التحدّي

الفصل
الأوّل

إنّما القوّة وحدها، ولو كانت وليدة الإلهات الغناء،
تُشبِه ملاكًا ساقطًا: تسرُّه الأشجار المقتلعة
والظُّلمة والديدان والأكفان والقبور،
لأنّها تقتات بأشواك الحياة وثمارها الشائكة،
ناسيةً غاية الشِّعر العظيمة: أنّه ينبغي
أن يكون صديقًا يُخفِّف أثقال الهموم،
ويسمو بأفكارِ البشر.

(كيتس)

كاليفورنيا، ١٨٥٠م

أزاحت آنجِل شقّة الخَيش عن باب الخيمة قليلًا كي تنظر إلى الشارع الموحل خارجًا. وسرَت في بدنها قُشَعريرة من جرّاء الهواء البارد الذي هبَّ بعد ظُهر ذلك اليوم حاملًا رائحة النتانة المُصاحِبة لزوال السَّحر.

كانت پيرأدايس قائمةً في الشريان الرئيس بمدينة كاليفورنيا. وكانت أسوأ مكان أمكن أن تتصوَّره آنجِل يومًا: مدينة أكواخ من الأحلام الذهبيّة بُنِيت من أشرعة الخيش البالية المأخوذة من السفن المهجورة؛ مُخيِّمًا يقطنه المُشرَّدون والأرستقراطيّون، المُرحَّلون والمطرودون، المُدلَّلون ماضيًا والمُدنَّسون حاضرًا. وقد حفَّتِ الحانات المسقوفة بالخَيش وبيوتُ المقامرة بشوارعَ حقيرة يسودها الحرمان والجشع المكشوفان، والوحشةُ والأوهام الكبيرة. فكانت پيرأدايس مهرجانًا غريبًا، اقترن فيه اليأسُ الحالك بالخوف ورائحةِ الفشل الفاسدة.

ارتسمت على وجه آنجل ابتسامةٌ ساخرة إذ رأت في إحدى الزوايا رجُلًا يُبشِّر بالخلاص، فيما كان أخوه في زاوية أُخرى- وقُبّعته مقلوبةٌ في يده- يسلب المنكودين. وحيثما نظرَت، رأت رجالًا يائسين، مَنفيِّين عن ديارهم وعيالهم، طالبين النجاة من الجحيم الذي صنعَته آمالُهم الخائبة بمستقبل زاهر.

هؤلاء الأغبياء أنفسُهم دعَوها مُومِسًا والتمسوا السُلوان حيث كانوا على يقينٍ بأنَّهم لن يجدوا شيئًا منه عندها. وكانوا يُلقون قُرعة للظفَر بها: أربع أونصات من الذهب تُدفع سلفًا إلى الدُوقة، سيِّدة القصر، أي ماخور الخيام التي كانت تُقيم فيه. وكان أيُّ وافدٍ يحوز آنجِل مدَّة نصف ساعة. وكانت النسبة المئويَّة الضئيلة العائدة لها تُحفَظ في خزنة مقفلة يحرسها مارد كارهٌ للنساء اسمُه مَغوان. أمَّا الباقون، أولئك التُعساء الذين يفتقرون إلى ثمن اختبار قُدراتها، فكانوا يقفون غائصين حتّى الرُكَب في بحرٍ من الوحل اسمُه شارع ماين، بانتظار لمحة عابرة يُلقونها على آنجِل "الملاك". وكان الوقت يمر ببطءٍ شديدٍ، وكأن الشهر سنة، في ذلك المكان غير المُناسب إلّا للشُّغل. متى ينتهي ذلك؟ كيف أوصلتها جميع خُطَطها اليائسة إلى هنا، إلى هذا المكان المُروِّع القذر الحافل بالأحلام المنهارة.

مضت الدُوقة تقول وهي تصرف بضعة رجال: "لا مزيدَ الآن. أعرف أنّكم كنتم تنتظرون، ولكنَّ آنجِل مُتعَبة، وأنتم تريدونها على أفضل حال، أليس كذلك؟" فتشكّى الرجال وتوعَّدوا، وتوسَّلوا وساوموا، إلّا أنَّ الدُوقة كانت تعرف متى تصل آنجِل إلى حدِّ احتمالها الأقصى. "إنها تحتاج إلى قليلٍ من الراحة. ارجعوا هذا المساء. المشروب على حسابنا!"

تنفّست آنجِل الصُعداء لانصرافهم، وأفلتت شقَّة باب الخيمة، ثمَّ عادت لتستلقيَ في السرير المُغضَّن، وتُحدِّق بفتورٍ إلى سقف الخيش. كانت الدوقة قد أعلنت عند الفطور صباحًا أنَّ المبنى الجديد كاد يكتمل وأنَّ الصبايا سينتقلن إليه غدًا. وكانت آنجِل مستعدَّةً للإقامة داخل جدرانٍ أربعة من جديد. على الأقلِّ عندئذٍ لن تهبَّ عليها رياح الليل الباردة من خلال شقوق الخيش البالي. ولم تكن قد فكَّرت كم تعني لها الجدران الأربعة لمّا دفعت أُجرة السَّفر في سفينةٍ ذات ثلاثة صَوارٍ متوجِّهة إلى كاليفورنيا. آنذاك، كان كلُّ ما شغل فكرها هو الفرار. فكلُّ ما رأته كان فرصة الحرِّيَّة السانحة لها. وسرعان ما تبدَّد السراب تقريبًا لمَّا وصلت إلى المعبر الخشبيِّ وعلمت أنَّها كانت واحدةً من ثلاث نساء على متن سفينة فيها مئة وعشرون شابًّا قويًّا ليس في أذهانهم شيءٌ غير المغامرة. وباشرت المومِسان السليطتان الشُّغل حالًا، إلّا أنَّ آنجِل حاولت أن تبقى داخل حجرتها. وفي غضون أُسبوعين، تبيَّن لها بوضوح أنَّ لديها خيارًا واحدًا بسيطًا: إمَّا العودة إلى البغاء، وإمّا التعرُّض للاغتصاب. وماذا يهمُّ ذلك حقًّا على أيّةِ حال؟ أيُّ شيءٍ آخر تعرفه؟ لعلَّها أيضًا تملأ جيوبها ذهبًا، شأنها

شأن الأُخريَين. فربّما عندئذٍ... ربّما... يتأتّى لها أن تشتري حرّيّتها بما في حوزتها من مالٍ كافٍ.

وصمدت وسط الأمواج العاتية والأنواء، محتملةً طعام السفينة الكريه المصنوع من لحم وخضر وما شابه، والازدحامَ الخانق، وقلّة اللياقة والاحترام، على أمل أن يكون في حوزتها مالٌ كافٍ عند وصولها ساحل كاليفورنيا، فتبدأ خياةً جديدة. عندئذٍ، وسط الهرج والمرج اللذين صحبا دفع السفينة إلى الحوض، حلّت بها الضربةُ القاضية. ذلك أنّ المومسَين الأخريَين هاجمتاها بعنفٍ في حجرتها. ولمّا استعادت وعيها، كانتا قد نزلتا إلى الشاطئ ومعهما كلّ مالها وكلُّ ما كان في حوزتها، ولم تتركا لها شيئًا سوى الثياب التي كانت على جسمها. وأسوأ من ذلك أنّه لم يبقَ في السفينة حتّى بحّارٌ واحد ليجذّف بها إلى الشاطئ.

وبعدما أضناها الضّرب، تكوّمت فاقدةً الحسّ ومرتبكةً في مقدّم السفينة، حيث لبثت يومين حتّى جاء الكنّاسون. ولمّا فرغوا من أخذ ما شاؤوا من السفينة المهجورة، ومنها هي، ذهبوا بها إلى رصيف المرفأ. وبينما هم يتشاجرون ويتقاسمون غنائمهم، مَشَت مبتعدةً عنهم.

هامت على وجهها بضعة أيّام، مُغطيّةً وجهها وشعرها بحرامٍ قَذِر أعطاها إيّاه أحد الرجال. وقد كانت جائعة، ومقرورة، ومقهورة. فالحرّيّة كانت حلمًا بعيد المنال.

ثمّ دبّرت معيشتها بالشُّغل في ميدان پورتسماوث، حتّى التقتها الدُّوقة وأقنعتها بالتوجُّه إلى بلد الذهب. وقد كانت الدوقة امرأةً جاوزت سنّ الشباب منذ زمن بعيد، ولكنْ تملّكها ذكاءٌ شديد في مجال المال والأعمال.

"عندي أربع صبايا أُخَر: فرنسيّة من باريس، وصينيّة باعتني إيّاها آه طُوي، وصبيّتان تبدوان كما لو كانتا قد جاءتا من إرلنده في قارب بطاطا فارغ، إنّما قليلٌ من الطعام سوف يُسمّنهما. آ، أمّا الآن، فأنتِ... أوّلَ مرّة رأيتُك فيها فكّرت: ها هنا صبيّة يمكن أن تصير غنيّة إذ توفّرت لها الإدارة الصحيحة. إنّ صبيّةً بجمالك يمكنها أن تجمع ثروة هائلة هناك في مخيّمات الذهب. فأولئك المُعدّنون الشباب سيستخرجون الذهب من النّهر ويتقاتلون لوضعه في يدك فورًا".

وبموجب اتّفاقٍ يقضي بأن تُعطي اَلجِل الدُوقة أكثر من ثمانين بالمئة من مدخولها، وعدتها الدوقة بأن تتولّى أمر حمايتها من الأذى البدنيّ، وأردفت: "سأُعنى أيضًا بأن تحظَي بأفضلِ ما يتوافر من كساء وغذاء وإيواء".

وَجَدت آنجِل هذه السخرية مُضحِكة. فقد هربت من دوك (الدوق) لتقع في يد الدُّوقة. حظُّها ونصيبُها!

كانت الدوقة، رغم إحسانها البادي، طاغيةً جشعة. فقد علمت آنجِل أنَّها كانت ترتشي للتلاعُب بالقُرعة، في حين لا تصل ذرَّة واحدة من غبار الذهب إلى جيوب الصبايا.

أمَّا الحلاوين التي كان الزُّبُن يُقدِّمونها بعد الخدمات الجيِّدة التي تؤدَّى لهم، فكان يتمُّ تقاسُمها بموجب الاتِّفاق الأصليّ. وقد حاولَت ماي لِنغ، جاريةُ آه طُوي الصينيَّةُ، أن تُخبِّئ ذهبها مرَّة، فأُرسِل مَغوان، ذو الابتسامة الفظَّة واليدَين الضخمتين، حتَّى "يكلِّمها كلمتَين!"

كرهت آنجِل حياتها، وكرهت الدوقة، وكرهت مَغوان، وكرهت عجزها البئس. وأكثرَ كلِّ شيء، كرهت الرجال لِنشدانهم اللذَّة بلا كلل ولا ملل. فكانت تُعطيهم جسدها، ولكنْ لا ذرَّةً أُخرى. وربَّما لم يكن لديها شيءٌ آخر. إنَّها لا تدري. ولم يبدُ أنَّ ذلك يهمُّ أيًّا منهم. فكلُّ ما رأوه كان جمالها، حجابًا بلا عيب يُغلِّف قلبًا من جليد، وقد فُتِنوا. إذ نَظروا في عينيها الملائكيَّتين وهاموا.

إنَّما لم تنخدع آنجِل ببوحهم الدائم بحبِّهم لها. فقد كانوا يريدونها مثلما يريدون الذهب في الجداول. كانوا يشتهونها، ويتقاتلون لأجل فرصة للاختلاء بها. فقد تدافعوا وتماسكوا وقامروا وتنازعوا، وصرفوا كلَّ ما لديهم بلا تفكُّر ولا تدبُّر. كانوا يدفعون مالهم كي يصيروا مستعبَدين. وقد أعطتهم ما حسبوا أنَّه النعيم، في حين كانت ترسلهم إلى الجحيم.

وما همَّها ذلك؟ لم يبقَ عندها شيء، ولم تُبالِ. بل إنَّ قوَّةً أقوى من البغض الذي نهشها ظهرت في الإعياء الذي استهلك حيويَّة نفسِها. ففي الثامنة عشرة من عمرها، كانت قد سئمت الحياة واستسلمت للواقع الذي أكَّد لها أنْ لا شيء سيتغيَّر أبدًا. حتَّى إنَّها تساءلت لماذا وُلِدت أصلًا. وافترضت هذا السبب: لأجلِ حقِّ الله، تتقبَّله أو ترفضه. وقد كان السبيل الوحيد لرفضه أن تقتل نفسها. وكلَّما واجهت هذا الواقع، وكلما أُتيحت لها الفرصة، خانتها شجاعتُها.

كانت صديقتُها الوحيدة مومسًا هَرِمة مُتعَبة اسمُها لاكي، وقد كانت تميل إلى البدانة بسبب تعطُّشها إلى المُسكِرات. ومع ذلك، فحتَّى لاكي لم تعرف شيئًا عن مكان ولادة آنجِل أو محلِّ إقامتها السابقة، ولا عمَّا حدث حتَّى صارت على الحال التي آلت إليها. أمَّا المومسات الأُخريات فقد اعتبرنها منيعةً تمامًا. وقد تساءلن جميعًا

عنها، غير أنهنَّ لم يطرحن عليها قطُّ أيَّة أسئلة. فإنَّ آنجِل أوضحت جليًّا من البداية أنَّ للماضي حُرمةً لا ينبغي لأحدٍ أن يخرقها، ما عدا لاكي، لاكي السكّيرة الكتوم التي تكنُّ لها مودَّةً خاصَّة.

كانت لاكي تقضي وقتها سكرانةً. "ينبغي أن تكون عندكِ خُطَط، يا آنجِل. ينبغي أن تأملي بشيءٍ ما في هذه الدنيا".

"آمل بأيِّ شيء؟"

"لا يمكنكِ أن تعيشي بأيَّة طريقة أُخرى".

"إنَّني أعيش عيشةً لا بأس بها".

"كيف؟"

"لا أنظر إلى الوراء، ولا أنظر إلى الأمام".

"ماذا بشأن الآن؟ عليك أن تفكّري في الآن، يا آنجِل".

فابتسمت آنجِل بفتور، ومسّدت شعرها الذهبيَّ الطويل، قائلةً: "الآن غير موجود!"

الفصل

الثاني

إنّها تمشي مُجلّلةً بالجَمال،
كلَيلة صافية تشعُّ في سمائها النجوم،
ولا تتلبّد فيها أيّةُ غيوم؛
وكلُّ ما هو الأفضلُ في الظّلماء وفي الضياء
يتلاقى في طلعتها وعينيها.

(بَيرُن)

كان مايكل هوُشَع يُفرِغ عربته ذات العجلات الأربع من أقفاص الخُضَر حين رأى صبيَّةً جميلة تسير في الشارع. كانت غاطسةً في السواد كأنَّها أرملة، وإلى جانبها رجل خشن الملامح يتدلَّى مسدَّسُه من خصره. وعلى طول شارع ماين، كفَّ الرجال عمّا كانوا يفعلونه، ونزعوا قبّعاتهم، وأخذوا يتأمّلونها. ولم تقل هي كلمة واحدة لأيّ شخص، ولا نظَرت يمنةً أو يسرةً، بل كانت تسير برشاقةٍ بادية وحُسنٍ غامر، مُقوَّمة الكتفين، رافعةَ الرأس.

لم يستطع مايكل أن يُزيح عينيه عنها. وكلَّما اقتربت صوبه، تسارعت دقَّات قلبه. فأراد منها أن تنظر إليه، إلَّا أنَّها لم تنظر. وبعد عبورها أطلق نَفَسه المحبوس، بغير أن يدري حتَّى كونَه حابسًا له.

هذه هي، يا عزيزي!

أحسَّ مايكل دفقًا من الأدرينالين يُمازجه الفرح. يا ربّ، يا ربّ!

قال جوزف هُكشايلد، صاحبُ الدُكّان الضخم البنية: "رائعة، أليس كذلك؟" مُتبسِّمًا وهو يحمل على كتفيه كيس بطاطا. ثمَّ أضاف: "تلك آنجِل، أجملُ الصبايا غربيّ جبال روكي، وأجملُهنَّ على الأرجح جدًّا شرقيَّها أيضًا". ثمَّ صعد الدرج ودخل دُكّانه.

كان على كتف مايكل صندوقُ تُفّاحٍ كبيرٌ. "ماذا تعرف عنها؟"

"ليس أكثر ممّا يعرفه الجميع، كما أظنّ. إنَّها تقوم بنزهاتٍ طويلة مشيًا. هذه عادةٌ من

عاداتها. وهي تفعل ذلك عصر كلّ اثنين وأربعاء وجمعة، في الوقت نفسه تقريبًا". ثمّ أومأ برأسه نحو الرجال الواقفين على طول الشارع، مضيفًا: "إنّهم جميعًا يأتون لرؤيتها".

وخطرت لمايكل فكرةٌ قابضة للصدر: "مَن ذلك الرجل الذي يرافقها؟ زوجُها؟"

أجابه ضاحكًا: "زوجها؟ إنّه أشبه بحارس شخصيّ. اسمُه مَغوان. وهو يحميها من إزعاج أيّ مُتطفّل. فلا أحد يقترب منها أكثر من مسافة قدم واحدة إلّا بعد دفع ما يتوجّب عليه".

تجهّم وجه مايكل قليلًا، ثمّ رجع إلى الخارج، حيث وقف في مؤخّر عربته مُحدِّقًا إليها وهي تتوارى. لقد مسّت وترًا عميقًا في داخل كيانه، إذ أحاطت بها كرامةٌ مأساويّة جليلة. وفيما صاحب الدُكّان يرفع صندوقًا آخر، سأله مايكل السؤال الذي كان يضطرم في داخله: "كيف يمكنني أن أُقابلها، يا جوزف؟"

ابتسم هُكشايلد ابتسامةً كئيبة قائلًا: "عليك أن تقف في الصف حتّى يحين دورك. إنّ الدوقة تُجري قُرعةً منتظمة لترى من يحظى بشرَف لقاء آنجِل".

"أيّة دوقة؟"

"الدُوقة التي هناك في الأسفل". وأومأ برأسه نحو الجهة المقابِلة في آخِر الشارع، مضيفًا: "صاحبةُ القصر، أكبر ماخور في پيرأدايس".

أحسّ مايكل كمن تلقّى رفسةً شديدة مؤلمة جدًّا. وحدّق إلى هُكشايلد، إلّا أنّ الرجل لم يُعِره أدنى اكتراث وهو يحمل إلى الداخل صندوق جزر ليُفرِغه في برميل، فيما حمل هو على كتفه صندوق تُفّاح آخر.

يا ربّ! هل أسأتُ الفهم؟ لا بدّ أنّ ذلك ما حصل. فلا يمكن أن تكون هذه هي التي عيّنتها لي.

وقال جوزف له من فوق كتفه: "لقد دفعتُ أُونصة الذهب مرّةً أو مرّتين لوضع اسمي داخل القُبّعة. وكان ذلك قبل أن يتبيّن لي أنّ الأمر يتطلّب أكثر من مجرّد وضع اسمك في القُبّعة الصحيحة".

أنزل جوزف الصندوق على الأرض بخبطةٍ شديدة. "أهي حمامةٌ مُدنّسة؟ صبيّةٌ مثلُها؟" لقد أبى أن يصدّق ذلك.

"ليست أيّة حمامةٍ مُدنّسة بالية، يا مايكل. إنّ آنجِل بضاعةٌ نادرة حقًّا، على ما أسمع. فقد تلقّت تدريبًا خاصًّا. ولكنّ يدي غير طائلة لأتحقّق من ذلك بنفسي. فعندما يكون عندي وَطَر ورغبة، أُقابِل پرِس. إنّها نظيفة تقضي الأمور ببساطة

وصـراحـة، ولا تُكلِّف كثيرًا من الذهب المكسوب بعَرَق الجبين".

شعر مايكل بحاجة إلى استنشاق بعض الهواء. فرجع إلى الخارج. ولم يتمالك عن إلقاء نظرة إلى الشارع على الصبيَّة الهيفاء المجلَّلة بالسَّواد. كانت عائدةً من طرف الشارع الآخر، وعبرت أمامه ثانيةً، فكانت ردَّة فعله أسوأ هذه المرَّة وأصعب تقبُّلًا.

أفرغ هُكشايلد صندوقًا آخر من اللِّفت، وابتسم مُعَجَّبًا وجهه. "تبدو مثلَ ثورٍ تلقَّى للتوِّ ضربة هراوة على رأسه. أو لعلَّك احتجبتَ طويلًا في مزرعتك!"

فقال مايكل بحزم: "لنُسَوِّ حسابنا!" ودلف إلى الداخل حاملًا آخِر صندوق. لقد أراد أن يصرف ذهنه عنها إلى شغله من جديد.

قال هُكشايلد: "سيكون في حوزتك ما يكفي من الذهب بعد سداد الحساب... بل أكثرُ ممّا يكفي". وأفرغ الصندوق، ثمَّ وضعه جانبًا قبل أن ينصب ميزانَه على النُّضُد، مُضيفًا: "الخُضَر الطازجة تساوي ثروةً هنا. فهؤلاء الشبّان يقصدون الجداول ويقتاتون بقليلٍ غير الطحين والماء واللحم المقدَّد. ثمَّ يرجعون إلى المدينة ولِثَةُ كلٍّ منهم متورِّمةٌ نازفة ورِجلاه منتفختان، من داء الحَفَر[1]، مُعتقدين أنَّهم يحتاجون إلى طبيب. ولكنَّ كلَّ ما يحتاجون إليه هو وجبات طعامٍ صحّيَّة وشيءٌ من الفِطرة السليمة. فلنرَ ما لدينا هنا! صندوقا تُفّاح كبيران، صندوقان من اللِّفت وصندوقان من الجزر، ستَّة صناديق من القرع، وعشرة كيلوغرامات من لحم الغزلان المقدَّد".

وحدَّد له مايكل ما يطلبه أُجرةً للبضاعة مع شحنها.

"ماذا؟! إنَّك تسلبني".

ابتسم مايكل ابتسامةً خفيفة. فهو لم يكن ساذجًا، وقد أمضى مدَّةً طويلة عامَي ٤٨ و ٤٩ غاسلًا التُّراب والحصى في إناء بحثًا عن الذهب، فكان يعرف ما يحتاج إليه الرجال. صحيحٌ أنَّ الطعام كان مجرَّد جزءٍ ممّا يحتاجون إليه، ولكنَّه كان جزءًا يستطيع هو توفيره.

"ستكسب ضعفَي المبلغ!"

فتح هُكشايلد خزانة الفولاذ وراء النُّضُد، وأخرج منها كيسَين من غُبار الذهب. ثمَّ دفع بأحدهما إلى مايكل فوق النُّضُد، ووزن قسطًا من الكيس الآخر أفرغه في كيسٍ جلديٍّ صغير. وإذ قذف بالكيس الأكبر إلى الخزانة مجدَّدًا، أغلقها برفسةٍ

---

١) داء الحَفَر: داء ناتجٌ عن نقص فيتامين ج وسوء التغذية، يؤدي إلى إفساد الدم. من عوارضِه الحمَّى والتهاب المعدة والأمعاء.

وتحقَّق من انغلاقها بواسطة المَسكة.

أفرغ مايكل الذهب في حزامٍ كان قد لفَّه على وسطه، فيما هُكشايلد يراقبه فاغرًا فمه. "لديكَ ما يكفي لقضاء وقتٍ طيِّب هناك. أتودُّ رؤية آنجِل؟ ما عليك إلَّا أن تذهب وتُكلِّم الدوقة ومعك شيءٌ منه، فتُدخِلك إلى الطابق العلويِّ حالًا".

آنجِل! إنَّ مجرَّد ذِكر اسمها أثَّر فيه. لكنَّه قال: "ليس هذه المرَّة".

ورأى جوزف إطباق حنكه، فأومأ برأسه. كان مايكل هوشع رجلًا هادئًا، ولكنْ لم يكُن يُبدي أيَّ لين. وقد كان في منظره ما حمل الرجال على معاملته باحترام. لم يكن ذلك مجرَّد طول قامته أو قوَّة بدنه، وقد كانا كلاهما لافتَين للنظر، بل كان الثبات الجليّ في حملقته. وكان على يقينٍ بما فعله، حتَّى لو ارتاب العالم كلُّه. وقد أُعجب جوزف به، كما رأى بجلاءٍ تامّ تأثير آنجِل فيه. ولكن إذا كان لا يريد مناقشة الموضوع، فهو يحترم رأيه.

"ماذا تنوي أن تفعل بذلك الذهب كلِّه؟"

"سأشتري به عِجلَي بَقَر".

فقال هُكشايلد مبديًا استحسانه: "جيِّد. ربُّهما سريعًا. فلحم البقر أثمن من الخُضَر".

عبر مايكل بعربته أمام الماخور وهو خارجٌ من المدينة. كان كبيرًا وفاخرًا. وكان المكان يعجُّ بالرجال– معظمهم من الشبّان بين حليق الوجه وطليق اللحية والشاربَين– وكلُّهم سكارى أو يكادون. وقد كان أحدهم يعزف الكمنجة وبعضُهم يُردِّدون أبياتًا بذيئة على النَغَم، كلٌّ منها أثقلُ من سابقه.

فكَّر مايكل: وهي تُقيم هنا! فوقُ في إحدى تلك الغُرَف، حيث سريرٌ وأشياء أُخرى قليلة. ثمَّ أرخى العِنان لحصانَيه، ومضى في سبيله، متجهِّمَ الوجه كثيرًا.

لم يستطع صرف ذهنه عنها، طوال ما بقي من ذلك النهار، وهو راجعٌ من قصبة المدينة إلى واديه. وظلَّت تتراءى له ماشيةً في ذلك الشارع الموحل، فتاةٌ هيفاء غاطسة في السواد، ذاتَ وجه من حجر، شاحبٍ جميل. تُرى مِن أين هي؟

"آنجِل"، قالها مجرِّبًا اسمها على لسانه... مجرَّد تجريب. إلَّا أنَّه تيقَّنَ، حتَّى فيما هو ينطق باسمها، أنَّ زمن انتظاره قد انتهى.

فقال متثاقلًا: "يا ربّ، يا ربّ! ليس هذا تمامًا ما كان في فكري".

غير أنَّه علم أنَّه سيتزوَّج بتلك الصبيَّة على كلِّ حال.

الفصل
الثالث

أستطيع أن أتحمّل يأسي الخاص،
أمّا رجاءَ شخصٍ آخر فلا.

(وليم والش)

اغتسلت آنجِل ولبست روبًا حريريًّا أزرق نظيفًا، ثمّ قعدت على الجانب السُفليّ من السرير بانتظار قرعة بابها التالية. زبونان آخران بعد، وتنتهي ليلتُها. وقد كان في وسعها أن تسمع ضحك لاكي في الغرفة المجاورة. وكانت لاكي تسترسل في الضحك والمرح حين تسكر، الأمرُ الذي غالبًا ما كانت تفعله. وكان في وسع تلك المرأة أن تنسى كلَّ همومها بقنّينة وسكي واحدة.

وقد حاولت آنجِل مرّةً أن تشاركها في الشرب لعلّها تنسى همومها أيضًا. فأخذت لاكي تصبُّ كأسًا بعد أُخرى، وآنجِل تحاول أن تُجاريَها. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتّى داخ رأسها وجاشت معدتها. فأمسكت لها لاكي نونية المهجع وهي تضحك إشفاقًا عليها. وقالت إنَّ بعض الناس يستطيعون إبقاء الوسكي في جوفهم، وبعضهم لا يستطيعون، وإنّها تحسب أنَّ آنجِل ممّن لا يستطيعون. ثمّ اصطحبتها إلى غرفتها وطلبت منها أن تنام.

تلك الليلة، عندما جاء أوّل رجُل يقرع الباب، قالت له آنجِل بألفاظ قليلة التهذيب أن ينصرف. فمضى غاضبًا إلى الدُوقة وقال لها إنّه يريد أن يسترجع ذَهَبه. فصعدت الدُوقة، وألقت على آنجِل نظرة واحدة، ثمّ استدعت مَغوان.

لم تكن آنجِل تُطيق مَغوان، ولكنها لم تخف منه مرّة. فهو لم يزعجها قطّ، إنّما كان يرافقها في نزهاتها، بغير أن يقول كلمة واحدة، أو يفعَل شيئًا واحدًا. وقد اقتصر عمله على التيقُّن بألّا يقترب منها أحد خارج القصر. وهي علمت أنَّ ذلك لم يكن لأجل حمايتها بمقدار ما كان للحفاظ على مصالح الدُوقة. فقد كان يرافقها للتحقُّق من رجوعها إلى القصر.

لم تُطلع ماي لِنغ أحدًا قطُّ على ما فعله مَغوان بها لمّا أُرسِل إلى غرفتها. ولكنَّ آنجِل

رأت نظرات الخوف في عينَي الصينيَّة السوداوين كلَّما بدا مَغوان قريبًا. فكان كلُّ ما يحتاج لأنْ يفعله هو أن يبتسم لها حتَّى يشحب وجهُها وتتصبَّب عرقًا. وسخرت منها آنجِل في سرِّها. فإخافتُها تحتاج لأنْ يعمد أيُّ رجُل إلى ما يُجاوز الكلام.

وتلك الليلة، لمَّا دخل مغوان، تنبهَّت آنجِل فقط إلى شكل رجل قاتم واقفٍ فوقها، فقالت: "لن تحصل على ما دفعتَ مالك لأجله". ثمَّ ركَّزت مضيفةً: "أُوه، أهذا أنت؟ اذهب عنّي. لن أذهب اليوم في نُزهة".

أمر بأن يُملأ حوض اغتسالها ماءً. وما إن غادرت الخادمتان، حتَّى انحنى فوقها أيضًا، مبتسمًا بمكر. "علمتُ أنَّني سأُضطرُّ عاجلًا أم آجلًا إلى أن أُكلِّمكِ كلمتين". ثم أمسك بها جيِّدًا. وإذ صحت، أخذت تكافح، غير أنَّه رفعها وغطَّسها في المياه القارسة. فأخذت تلهث محاولة أن تخرج، إلَّا أنَّه أمسك برأسها ودفعها تحت الماء. وإذ روّعها ثقل يده الحديديُّ، أخذت تقاوم. ولمَّا تحرَّقت رئتاها طلبًا للهواء وكادت تفقد وعيها، سحبها إلى فوقُ وسأل: "أهذا يكفي؟"

فقالت: " يكفي"، بنبراتٍ مُهاجة وهي تشهق الهواء.

ودفعها إلى تحتُ ثانيةً. فانتفضت ورفست وخمَّشت سعيًا إلى الإفلات. ولمَّا رفعها ثانيةً، اختنقت بالماء وتقيّأت. فضحك، وعلمَت أنَّه يستمتع بذلك. ثمَّ وقف أمامها، مُباعِدًا رجلَيه، ومدَّ يده ليمسك برأسها أيضًا. فثار فيها سخطٌ خبّلها، وسدَّدت إليه لكمةً مباشرةً وثابتة. ولمَّا خرَّ على ركبتيه وهو يئنّ، فرَّت مذعورةً من متناول يده.

وإذ لحق بها من جديد، زعقت. وأمسك بها بشدَّة، فأخذت ترفس وتخمش لاهثةً من الجهد. وقد كانت يده على حنجرتها حين انفتح الباب على وسعه وتهادت الدَّوقة إلى الداخل. ثمَّ سفقت الباب خلفها، وصرخت على كليهما كي يكفّا.

امتثل مغوان لأمرها، إلَّا أنَّه رمق آنجِل بنظرةِ سوء، قائلًا: "سوف أقتلُكِ. أُقسِم على ذلك".

فقالت الدوقة وقد ثار سخطها: "كفى! لقد سمعت الصُّراخ وأنا على الدَرَج. إذا سمع الرجال، فماذا تعتقد أنَّهم سيفعلون؟"

قالت آنجِل: "سيشنقونه"، واضعةً رجلًا فوق رجل، وضاحكةً عليه. فصفعتها الدوقة، فانكفأت مصعوقة. وقالت الدوقة مُنذِرةً: "ولا كلمةَ بعدُ يا آنجِل!" ثمَّ اعتدلت ونظرت إلى مغوان مجدِّدًا، قائلةً: "قلتُ لك أن تُصحِّحها يا ابْرَت ، وتُكلِّمها كلامًا. ذلك كلُّ ما أُريد منك أن تفعله. مفهوم؟" ومن ثَمَّ شدَّت حبل الجرس بقوَّة.

انتظر الثلاثة بصمتٍ متذبذب. لقد أخرستِ الصفعة آنجِل. وقد علمَت أنَّ الدوقة بالكاد لجمت شيطانها. وعلمَت أيضًا، بعد نظرةٍ واحدة إليه، أنَّ ثورةً حمقاء أُخرى من جانبها قد تُطلِق له العنان.

ولمَّا سُمع قرعٌ حَذِر على الباب، فتحته الدوقة فتحةً كافية لتطلب لها قهوة ساخنة وخبزًا. ثمَّ أغلقت الباب وعبرت الغرفة وقعدت على الكرسيّ المستقيم الظهر، وقالت: "لقد أرسلتُكَ، يا ابْرَت، لتقوم بأمر بسيط جدًّا. فافعل فقط ما أقوله لك، لا أكثر. آنجِل على حقّ. فمن شأنهم أن يشنقوك!"

أجاب مغوان: "تحتاج لأنْ تتعلَّم درسًا"، ناظرًا إلى آنجِل نظرة غضب وتوعُّد. إذ ذاك تبخَّر كلُّ تبجُّحها بالشجاعة، بعدما رأت بكلِّ وضوح أنَّ شيئًا أسود وشرّيرًا ومض في عينيه. وقد أدركت تلك النظرة، إذ كانت قد رأتها على وجه رجُل آخر من حينٍ إلى آخر. لم تكن قد أخذت ابْرَت على محمل الجدّ من قبل، غير أنَّه كان جادًّا بالفعل. وعلمت أيضًا أنَّ الخوف كان آخِر شيء يمكنها أن تُظهِره. فمن شأن خوفها أن يُغذّي تعطُّشه للدماء إلى أن تعجز حتَّى الدوقة عن إيقافه. ومن ثمَّ باتت ساكتة وساكنة، كفأرةٍ في جُحرها.

نظرت إليها الدوقة طويلًا وقالت: "ستُحسِنين التصرُّف الآن. أليس كذلك يا آنجِل؟"

اعتدلت آنجِل في جلستها على مهل وبادلتها النظر من عينَين رزينتَين ساخرتَين، وقالت: "نعم سيدتي!" وهي ترتعش بردًا.

"أعطها مُلاءةً قبل أن تأخذها القُشَعريرة".

فانتزع مغوان مُلاءة عن السرير ورماها إليها. فلفَّت الساتان حول جسمها كأنَّه رداء ملوكيّ، ولم تستجرئ أن تنظر إلى مغوان، وقد استبدَّ بها سخطٌ وخوف بائسان.

ثمَّ قالت الدوقة: "تعاليَ إلى هنا، يا آنجِل".

فرفعت آنجِل رأسها ونظرت إليها. ولمَّا لم تتحرَّك بسرعة كافية، أمسك مغوان بقبضةٍ من شعرها الأشقر ونترها لتقف. فصرَّت بأسنانها، رافضة إمتاعه بصراخها، فيما جأر وهو يدفعها دفعًا: "عندما تقول لكِ أن تفعلي شيئًا فافعليه!"

وخرَّت آنجِل على ركبتيها قدَّام الدوقة. فربَّتت المرأة شعرها. وإذا باللُّطف المقصود بعد وحشيَّة مغوان يُبدِّد تحدّي آنجِل.

"آنجِل، عندما تصل الصينيَّة، كُلي الخبز واشربي القهوة كلَّها. سيبقى ابْرَت حتَّى يتأكَّد من ذلك. وحالمًا تنتهين سيُغادِر. أُريد منكِ أن تكوني جاهزة للشُّغل

في غضون ساعتين".

وقفت الدوقة وتوجّهت إلى الباب، وتطلّعت إلى الوراء قائلةً: " ابْرَت، لا أُريد كدمةً أُخرى واحدة عليها. إنّها أفضل صبيّة عندنا".

فردَّ ببرودة: "ولا كدمة!"

وكان عند كلمته. فلم يمسَّها، بل تكلَّم فقط... وما قاله جمَّد الدم في عروقها. فغصبَت نفسها على تناول الخبز والقهوة، عالمةً أنّه كلمّا أسرعت في الإتيان عليهما يُسرِع هو في المغادرة.

"ستكونين لي، يا آنجِل. في غضون أُسبوعٍ أو شهر، ستُبالِغين في دفعك للدوقة بعيدًا أو كثرة طلباتك منها. وعندئذٍ ستقدِّمك لي على طبقٍ من فضة".

ظلَّت آنجِل بخير منذ ذلك المساء، ولم يزعجها مغوان. غير أنّها كانت تنتظر وهي عالمةٌ بذلك. وقد رفضت إعطاءه الرضى الذي كانت ماي لِنغ تعطيه إيّاه. فكانت دائمًا تبتسم له بسخرية لدى دخوله الغرفة. وما دامت تفعل ما يُقال لها، كانت الدوقة سعيدة ولم يقدر ابْرَت مغوان أن يفعل بها شيئًا.

غير أن الجدران كانت تُطبِق عليها من جديد، أكثرَ كلَّ يوم. وكان الضغط في داخلها يتراكم، والجهدُ للحفاظ على المظهر الهادئ الزائف يستنزف قوّتها.

فكّرت: زبون واحد بعدُ الليلة، ثمَّ يُمكنني أن أنام! ثمَّ مدَّت يديها ونظرت إليهما، فإذا بهما ترتجفان. كانت ترتجف كلُّها، فعلمت أنّها تفقد السيطرة. تظاهرٌ أكثر من أن يُحتمَل مُدَّةً أطولَ من أن تُعقَل! هزَّت رأسها: كلُّ ما تحتاج إليه كان أن تنام جيِّدًا ليلةً واحدة فتكونَ على ما يُرام في الغد. فقط واحدٌ بعد: هكذا فكَّرت، آمِلةً أن يقضي وَطَره بسُرعة.

ثمَّ قُرِع الباب فنهضت تُجيب. وإذ فتحَت، أدخلتِ الرجُل الواقف خارجًا. كان أطول قامةً وأكبر سنًّا من مُعظَم الزُّبُن، ومفتولَ العضل. غيرَ ذلك، لم تُلاحِظ فيه أيَّ شيء خاصّ. إلّا أنّها شعرت... بماذا؟ بارتباكٍ مُستغرَب. بازديادٍ في ارتجافها. كانت أعصابها تتحفَّز وتتوفَّز بحيث لا تكاد تقوى على ضبطها. فحنَت رأسها وتنفَّست ببطء، دافعةً ردَّة فعلها الغريبة إلى الأعماق بكلِّ ما تبقّى لديها من إرادة ضئيلة.

زبونٌ واحدٌ بعد، وأكون حرَّةً الليلة؟

شعر مايكل، رغم سنيه الستِّ والعشرين، كما لو كان فتًى غِرًّا، وهو واقفٌ خارج باب آنجِل المفتوح في ضوء المصباح الباهت المعلَّق في بهو الماخور. لم يكَد يقوى على التنفُّس، وبات قلبه يخفق بشدَّة.

فقد ألفاها أجملَ بعدُ ممّا تذكَّر، وأصغر سنًّا. كانت خطوط جسمها النحيف تظهر بوضوحٍ من خلال الرُّوب الساتانيِّ الأزرق. وحاول ألَّا ينظر إلى ما دون كتفيها.

أفسحت له حتَّى يتمكَّن من دخول غرفتها. وكلُّ ما رآه كان سريرها، وقد كان مُسوًّى. إلَّا أنَّ رؤىً خطرت له تلقائيًّا، فنظر إليها من جديد فاقدًا رباطة جأشه. فابتسمت له بفتورٍ ابتسامةً دُنيويَّةً مُغرية. لقد عرفت كلَّ ما خطر في باله، حتَّى ما لم يُرِد وجوده هناك.

"ما متعتك المفضَّلة يا سيِّد؟"

كان صوتُها خفيضًا وناعمًا، ومؤدَّبًا على نحوٍ مفاجئ، غير أنَّها كانت صريحة جدًّا حتَّى أُخذ على حين غِرَّة. ولم يكن ضروريًّا أنْ تقول أيَّ شيء لتجعله أكثر وعيًا لما تفعله في سبيل معيشتها، ولا لانجذابه الجسديِّ الشديد إليها.

ما إن دخل الغرفة، حتَّى أغلقت آنجِل الباب وأسندت ظهرها إليه. انتظرت أن يجيبها فيما أجرت له تقييمًا سريعًا. وتضاءل ارتباكُها. لم يكن مختلفًا جدًّا عن الآخرين، ما عدا كونه أكبر سنًّا بقليلٍ من معظمهم وذا كتفين أعرض قليلًا. لم يكن صبيًّا، غير أنَّه بدا مضطربًا، مضطربًا جدًّا. لعلَّ له زوجةً في مكانٍ ما وهو يشعر بالذنْب. لعلَّ أُمَّه مؤمنةٌ تقيَّة، وهو يتساءل عمَّا تفكِّر فيه بشأن مجيئِه إلى مومسٍ. إذًا، هذا الزبون لن يقضيَ عندها وقتًا طويلًا. جيِّد! فكلَّما قصر الوقت، كان أفضل.

لم يدرِ مايكل ماذا يقول. استمرَّ طول النهار يُفكِّر بلقائها، وإذ بات الآن هنا في غرفة نومها، وقف مُبكَمًا وقلبه يخفق بشدَّة حتَّى يكاد يقفز إلى حنجرته. كانت فائقة الجمال، وقد بَدَت لاهية. يا ربّ، ماذا الآن؟ إنَّني لا أستطيع تخطِّي مشاعري حتَّى بأفكاري! ثمَّ تقدَّمت نحوه، وكلُّ حركةٍ من حركاتها تجذب انتباهه إلى جسدها.

لامست آنجِل صدره، وسمعته يكبت نَفَسه. فدارت حوله قائلةً وهي تبتسم: "لا داعيَ لأن تستحي منِّي يا سيِّد. قل لي ماذا تطلب".

فرنا إليها قائلًا: "أنتِ!"

"أنا لك بجملتي".

وراقبها مايكل تعبر الغرفة إلى المغسلة. آنجِل (ملاك): اسمٌ على مُسمًّى، إذ بدت

دُميةً من الخَزَف الأبيض بلا عيب، زرقاء العينَين، باهتة البشرة، ذهبيّة الشعر. لعلّ المرمر وصفٌ أفضل. فالخزف يتكسّر، وهي بَدَت أصلبَ من أن يُصيبَها ذلك... صلبةً جدًّا بحيث آلَمه النظر إليها. عجبًا! إنّه لم يتوقعْ أن يشعر بذلك. وما أكثر ما أقلقه تخطّي الرغبة لديه التي علم أنّها ستُثيرها فيه. اللهمّ، أعطني القوّة كي أُقاوِم إغواءَها!

سكبَت ماءً في إناء خزفيّ، وتناولت صابونة. كلُّ ما فعلته كان رشيقًا ومُثيرًا. "هلا تأتي إلى هُنا فأغسلك!"

استطاع أن يحسَّ الحرارة تشبُّ في أجزاء جسده ومعظمُها يصبُّ في وجهه. فسعل وهو يشعر كما لو أنَّ ياقته تخنقه.

وضحكت ضحكةً خفيفة، قائلةً: "أعِدُكَ بأنَّ الأمر لن يؤذيَك".

"لا ضرورة يا سيّدتي. لستُ هنا لأجل الجنس".

"لا، أنت هنا لدرس الكتاب المقدَّس".

"جئتُ إلى هنا كي أتكلَّم إليكِ".

صرَّت أنجِل بأسنانها. ثمَّ كتمت استياءها، وجعلت حملقتها تندفع بجسارة. فتحرَّك بارتباك تحت تلك النظرة، فابتسمَت وسألته: "أأنت على يقين بأنّك تريد التحدُّث؟"

"أنا على يقين".

لقد بدا متأكّدًا تمامًا. فتنهّدت والتفتت لتنشّف يديها. "ليكن ما تريد، يا سيّد". ثمَّ جلست على حافة السرير مُصالِبةً رجلَيها.

علم مايكل ما كانت تفعله. فقاوم الرغبة الجامحة لتقبُّل الرسالة الواضحة التي ما انفكَّت ترسلها إليه. وكلَّما طال وقوفه صامتًا، أكثر ذهنُه من رسم الصُوَر، وهي عرفت ذلك كما كشفت نظرة عينيها. أكانت تسخر به؟ لا شكَّ في ذلك.

"هل تُقيمين في هذه الغرفة عندما لا تكونين في شُغلكِ؟"

فأمالت رأسها قائلةً: "نعم. أين كنت تحسبني أُقيم؟ في كوخ صغير أبيض بآخِر طريقٍ في مكانٍ ما؟" ثمَّ ابتسمَت لتخفيف حدة كلماتها. فهي كانت تكره الرجال الذين يطرحون الأسئلة ويتحرَّون.

تفحَّص مايكل محيطها. لا أشياء شخصيَّة معروضة، لا صُوَر على الحائط، لا حُلى زينة على الطاولة الصغيرة المغطّاة بشرشف مخرَّم في الزاوية، لا ملابس نسوية مرميَّة هنا وهناك. كان كلُّ شيء مرتّبًا ونظيفًا وطفيفًا. فأثاث غرفتها خزانةٌ كبيرة متوسّطة الجودة، ومنضدة جانبيّة، ومصباح كاز، ومغسلة رخاميَّة عليها إبريق ماءٍ من الخزف

الصينيّ الأصفر، وكرسيٌّ مستقيم الظَّهر، والسرير الذي كانت تجلس عليه.

سحب مايكل الكرسيَّ من الزاوية، ووضعه قدَّامها، وقعد. كان روبُها الساتانيُّ قد انفرج قليلًا. فعلم إنَّها كانت تُلاعِبه. وقد أخذت تُرجِّح قدمها ببطء كرقّاص الساعة، ستِّين ثانيةً في الدقيقة، ثلاثين دقيقة في نصف الساعة، أي كامل الوقت المُحدَّد له.

يا ربّ، سأحتاج إلى مليون سنة حتَّى أصل إلى هذه المرأة! أأنتَ مُتيقّن بأنَّ هذه هي التي عيَّنتها لي؟

كانت عيناها زرقاوين لا يُسبَر غورُهما. فلم يستطع أن يقرأ فيهما شيئًا. كانت سُورًا، ومحيطًا لا نهاية له، وسماء ليل ملبَّدة بالغيوم وشديدة الظلام تمنعه أن يرى يده أمام وجهه. فرأى فقط ما أرادت له أن يراه.

"قلتَ إنَّك تريد أن تتكلَّم يا سيِّد، فتكلَّم!"

استولى الحُزن على مايكل. "ما كان ينبغي لي أن آتيَ إليكِ هكذا. كان يجب أن أُدبِّر طريقة أُخرى".

"وهل من طريقةٍ أُخرى".

كيف يمكنه أن يُفهِمها أنّه مختلفٌ عن الرجال الآخرين الذين يأتون إليها، وهو قد أتى بالطريقة عينِها، ألا وهي الذهب؟ فقد سمع لجوزف وذهب إلى الدوقة، ثمَّ سمع تلك المرأة تقول إنَّ آنجِل هي سلعة، سلعة فاخرة ثمينة محروسة بإحكام. ادفَع أوَّلًا، ثمَّ تكلَّم. لقد بدا الدَّفع الطريقة الأكثر سهولةً ومباشرةً. ولم يهمّه السِّعر. وها قد تبيَّن الآن أن الطريقة السُّهلى لم تكنِ الطريقة الفُضلى.

كان ينبغي أن يُدبِّر طريقة أُخرى ومكانًا آخر. فهي مستعدَّة جدًّا للشُّغل، وليست مستعدَّة أبدًا للإصغاء. وهو كان يُلفي نفسه ينصرف عن مُبتغاه بسهولة فائقة.

"كم عُمرُكِ؟"

فابتسمت قليلًا وقالت: "أنا كبيرة. كبيرةٌ حقًّا".

وقد أحسن تصوُّر ذلك. فهي لم تكن تتكلَّم عن السنين. وهو شكَّ بأن الكثير قد يُفاجئُها. وقد بدت مستعدَّة لأيِّ شيء. إلَّا أنَّه أحسّ شيئًا آخر أيضًا مّما يتعلَّق بها، مثلما حصل له أوَّل مرَّة رآها فيها. فقد كان تحت الطبقة التي تُبديها الآن طبقةٌ أُخرى. يا ربّ، كيف يمكن أن أبلغها؟

وسألته: "كم عمرُكَ أنت؟" رادَّةً سؤاله عليه.

"ستٌّ وعشرون".

"أكبرُ سنًّا من أن تكون مُعدِّن ذهب. فمعظمهم في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. لم أرَ مؤخَّرًا أيَّ رجالٍ حقيقيّين".

أوقفه افتقارُها إلى الدهاء على أرضيَّة أصلب: "لِماذا الاسمُ آنجِل (أي ملاك)؟ أبسبب منظرِكِ؟ أم هو اسمُكِ أصلًا؟"

انطبق فمها قليلًا. إنَّ الشيء الوحيد الذي بقي لها كان اسمها، وهي لم تقُلِ اسمها قطُّ لأحد، ولا حتَّى لدوك. فالشخص الوحيد الذي ناداها باسمها كان ماما، وماما ماتت.

"ناديني بأيِّ اسمٍ أردتَه يا سيِّد. فالأمر لا يهمّ". فمجرَّد كونه لا يريد ما دفع مالًا لقاءه لا يعني أنَّها ستُعطيه أيَّ شيء آخر. وتفحَّصها ثم قال: "أعتقد أنَّ اسم «مارة» يناسبكِ".

"اسمُ فتاةٍ تعرفها في ديارك؟"

"لا. إنَّه يعني «مُرَّة»".

عندئذٍ تفرَّسَت فيه، ثمَّ صمتت تمامًا. أيَّة لعبةٍ هذه؟ وما لبثت أن رفعت إحدى كتفيها بتراخٍ، قائلةً: "أهذا ما تعتقده؟ حسنًا، أحسبُ أنَّ «مارة» اسمٌ جيِّد شأنه شأن أيِّ اسمٍ سواه". وأخذت تُرجِّح قدمها جيئةً وذهابًا من جديد، معلنةً مرور الوقت ثانيةً فثانية. كم من الوقت مضى على وجوده هنا؟ وكم يبغي لها أن تحتمله بعد؟

ومضى قائلًا: "من أين أنتِ؟"

"من هنا وهناك".

فابتسم يسيرًا حيال تكتُّمها المؤدَّب والموحي: "هل من «هنا وهناك» على وجه التحديد؟"

قالت: "هنا وهناك فحسب". وتوقَّفت قدمُها، ومالت هي إلى الأمام، ثمَّ أردفَت: "وماذا بشأنك أنت يا سيِّد؟ ما اسمُك؟ أأنت من مكانٍ ما على وجه التحديد؟ ألك زوجة في موضعٍ ما؟ أوأنت خائف أن تفعل ما تريده حقًّا؟"

ها قد وجَّهت إلَيه سِهامًا كثيرة في آنٍ واحد، ولكنَّه بدل أن يؤخذ على حين غِرَّة شعر بانفراجٍ في نفسه. فهذه الصبيَّة كانت حقيقيَّةً أكثر من تلك التي استقبلته عند الباب.

قال: "مايكل هُوشَع. وأُقيم في وادٍ إلى الجنوب الغربيِّ من هنا، ولستُ متزوِّجًا، غير أنَّني سأتزوَّج قريبًا".

فعبست منزعجةً. بسبب طريقةِ تفرُّسه بها. فحدَّةُ نظره أثارت أعصابها. إلَّا أنَّها

سألته: "أيُّ نوعٍ من الأسماء اسمُ هُوشَع؟"

انفرجَت زاوية ابتسامته وقال: "هو اسمُ نبيّ".

ألعلَّه يستغلُّها لإطلاق نكتة؟ "هل تنوي أن تكشف لي مستقبلي؟"

"سوف تتزوَّجين بي، وسوف أُخرِجُكِ من هنا".

ضحكت. "حسنًا، هذه ثالث مرَّة تُطلَب فيها يدي اليوم. يا له من إطراء زائد!" ثمَّ مالت إلى الأمام ثانيةً وقد هزَّت رأسها، وابتسمت ابتسامةً باردة وساخرة. هل اعتقد أنَّ هذه طريقة جديدة للتعامل معها؟ أيحسبها ضروريَّة؟ "متى تودُّ أن أبدأ بتأدية دوري يا سيِّد؟"

"بعد أن يُطوِّق الخاتم إصبعَكِ. أمّا الآن، فينبغي لي أن أعرفك أفضل قليلًا".

لقد كرهته لاسترساله في اللعبة. يا لإضاعة الوقت، والنفاق، والكذب الذي لا حدود له! لقد كانت الليلة طويلة، ولم يسعفها مزاجها لمسايَرته: "ماذا أقول؟ ما أفعله هو ما أنا عليه. كلُّ ما آل إليه الأمر هو أن تقول لي أنت كيف تريد لي أن أكون. إنَّما كُن سريعًا. كاد وقتك ينتهي".

تبيَّن لمايكل أنَّه أفسد القسم الأكبر من هذا اللقاء الأوَّل. ماذا توقَّع؟ أن يدخل إلى هنا، ويتكلَّم بصراحة، ثمَّ يخرج متأبِّطًا ذراعها؟ لقد بدت كأنَّها أرادت صرفه حالًا. وغضب على نفسه لكونه غبيًّا ساذجًا إلى هذا الحدّ. "إنَّكِ لا تتكلَّمين كلام الحُبّ، يا مارة، وأنا ما جئتُ إلى هنا كي أستغلَّكِ".

أثار غضبَها بعدُ عمقُ كلماته الثابتُ وذلك الاسم: مارة. فأمالت ذقنها قائلة؟ "طيِّب! أظنُّ أنّي فهمتُ". ثمَّ وقفت. وكان هو قاعدًا فاقتربت إليه كثيرًا وراحت تمرِّر يديها الناعمتين في شعره. وقد استطاعت أن تحسَّ توتُّره، وقد أعجبها ذلك.

"دعني أحزر يا سيِّد. أنت تريد أن تتعرَّف بي. تريد أن تكتشف كيف أفكِّر وبما أشعر. وأكثر الكلّ، تريد أن تعرف كيف وصلت صبيَّة حسناء مثلي إلى امتهان شُغلٍ كهذا؟"

أغمض مايكل عينيه، وأطبق أسنانه، محاولًا سدَّ الطريق على تأثير ملامستها له.

"افعل ما تُفكِّر في فعله، يا سيِّد".

أبعدها مايكل عنه بحزم. "جئتُ حتَّى أتحدَّث معك".

تفحَّصته بعينينِ مُقلَّصتَين، ثمَّ أقفلت فتحة رُوبها نترًا، وربطت شرائط الساتان. إلّا أنَّها ظلَّت تشعر بالانكشاف أمام تفحُّصه. "لقد قصدتَ الصبيَّة غير الصحيحة. أتريد أن ترى ماذا يمكنك أن تحوز؟ سأكشف لك". وفعلت ذلك، بلا تحفُّظ. إلّا أنَّه لم يتورَّد

خجلًا هذه المرّة. حتّى إنّه لم يُبدِ أيّة ردّة فعل. إنّما قال بخشونة:
"أُريد أن أتعرّف إليك أنت، لا بما يمكنك أن تعمليه".
"إذا أردتَ المحادثة، فانزل إلى الحانة".
إذ ذاك هبّ واقفًا، وقال: "امضي معي وكوني لي زوجة!"
فأطلقت ضحكة فظّة. "إن أردتَ زوجة، فاطلب واحدةً بالبريد، أوِ انتظر قافلة العربات المقبلة حتّى تعبر الجبال".
واقترب نحوها: "يمكنني أن أوفّر لك حياةً جيّدة. لا يهمّني كيف وصلتِ إلى هنا، ولا أين كنتِ من قبل. تعالَي معي الآن".
فابتسمت بسخرية. "لأجل ماذا؟ مزيدٍ من الأمر عينه؟ انظر! لقد سمعت مثل هذا الكلام كلّه من مئةٍ غيرك. رأيتَني فأُغرمتَ بي، والآن لا يمكنك أن تعيش من دوني. يمكنك أن توفّر لي حياةً جيّدة. يا له من عَرْض!"
"يمكنني ذلك".
"الأمر كلّه يؤول إلى النهاية عينها".
"لا، لا يؤول!"
"من وجهة نظري، يؤول. نصفُ ساعة وقتٌ أكثر من كافٍ لأنْ يحوزني أيُّ شخص، يا سيّد".
"أتقولين لي إنّ هذه هي الحياة التي تريدينها؟"
"ما دخل ما أريده في أيّ شيء؟ هذه هي حياتي!"
"لا داعي لأن تكون هذه حياتك. لو كان لك الخيار، فماذا كنتِ تريدين؟"
"منكَ أنت؟ لا شيء".
"من العيشة".
استقرّت داخلَها كآبةٌ. العيشة؟ عمّ كان يتكلّم؟ شعرَت بأنّ أسئلته هاجمتها بعنف، ودافعت عن نفسها بابتسامة تعالٍ باردة. ثمّ مدّت يديها واستعرضت غرفتها البسيطة بأثاثها القليل. "عندي هنا كلّ ما أحتاج إليه".
"لديكِ سقف وطعام وثياب أنيقة".
قالت باقتضاب: "وشُغل. أُوه، لا تنسَ شغلي. أنا بارعة فيه حقًّا".
"أنتِ تكرهينه".
صمتت هنيهةً، باحتراس. "لقد جلبتَ عليّ واحدةً من لياليَّ السيّئة!"

وتوجهّت نحو النافذة، حيث أطبقت عينيها وجاهدت لإحراز السيطرة، متظاهرةً بأنّها تنظر خارجًا. ما خطبُها هذه الليلة؟ ما شأن هذا الرجُل الذي قصد إليها؟ كانت تُفضِّل الخَدَر على جيشان العاطفة هذا. الأملُ كان عذابًا؛ الرجاء كان عدوًّا. وهذا الرجُل كان شوكةً في خاصرتها.

لحق بها مايكل، ووضع يديه على كتفيها. فأحسَّ انقباضها عند لمسه لها. وقال برقّة: "تعالي معي إلى بيتي، وكوني زوجتي".

أزاحت آنجِل يديه عنها هازّةً كتفيها بشدّة وابتعدت عنه غاضبةً. "لا... شكرًا!"

"ولمَ لا؟"

"لأنّي لا أُريد أن أُغادِر. هذا هو السبب. أهو سببٌ وجيه كفايةً في نظرك".

"إذا كنتِ لا تريدين أن تذهبي معي، فعلى الأقلّ دعيني أقترب منك أكثر قليلًا".

أخيرًا، ها نحن هنا. "ستُّ خطوات يجب أن تكفي لذلك، يا سيّد. كلُّ ما ينبغي لك هو أن تُقدِّم قدمًا على أُخرى!"

"لستُ أتكلّم بالأقدام والبُوصات، يا مارة".

تباطأت جميع الأحاسيس في داخلها وهبطت مُدوِّمةً كما لو كانت تنصرف عبر ثقبٍ أسود تحت قدميها. وقالت: "آنجِل، اسمي آنجِل. هل فهمتَ؟ آنجِل! ثمَّ إنَّك تُبدِّد وقتك ونقودك".

"لستُ أُبدِّد شيئًا".

وعادت فجلست على حافة السرير، وزفرت نَفَسها. ثمَّ أمالت رأسها جانبًا، ورفعت نظرها إليه مُجدِّدًا. "أنت تعرف، يا سيِّد، أنَّ معظم الرجال يكونون صادقين عندما يأتونني. فهم يدفعون مالًا، ويأخذون ما يريدون، ثمَّ يُغادِرون. ثمَّ إنَّ هنالك أقلّاء آخرين، أمثالك، لا يروقهم أن يكونوا مثل الباقين. ولذلك يقولون لي كم يهمُّهم أمري، وأين الخطأ في حياتي، وكيف يمكنهم إصلاحُها". ثمَّ لَوَت فمها ساخرةً وتابعت: "ولكنْ في نهاية المطاف يتجاوزون كلُّهم ذلك ويكتفون بما يَنشدونه حقًّا".

شهق مايكل نَفَسًا. إنَّها لم تتصنَّع في كلامها. لا بأس. فهو يستطيع أن يتكلَّم بصراحة. "لا يُعوِزني إلّا أن أنظر إليكِ فأتنبّه إلى جسدي. فأنت تُتقِنين تمامًا كيف تُوقِظين الرغبات. نعم، إنّني لأُريدُكِ، ولكنَّك مخطئة بشأن مدى ذلك ومُدَّته".

فازدادتِ اضطرابًا بعدُ. "لا ينبغي أن تستاء هكذا. فهكذا همُ الرجال".

"هُراء!"

"أتودُّ إخباري الآن عن أحوال الرجال؟ ذلك شيء أعرف كلَّ ما يتعلّق به، يا سيِّد. الرجال!"

"إنَّك لا تعرفين شيئًا عنّي".

فربَّتتِ السرير قائلةً: "كلُّ رجُل يحبُّ أن يعتقد أنَّه مختلف عن سابقِه. يحبُّ أن يحسب نفسه أفضل. تعالَ إلى هنا، فأُريك تمامًا إلى أيِّ مدىً أنت مثلُهم. أم تخشى أن أكون على حقّ؟"

فابتسم برقَّة. "ستكونين أكثر ارتياحًا معي في ذلك السرير، أليس هكذا؟" ثمَّ تقدم وقعد على الكرسيّ، بغير أدنى ارتباك، ومال نحوها ويداه متشابكتان بتَراخٍ بين ركبتيه. "لستُ أقول إنّي أفضل بتاتًا من أيِّ رجُلٍ آخر يأتي إليكِ، بل إنَّما أُريد المزيد".

"مِثلَ...؟"

"أُريد منك كلَّ شيء. أُريد حتَّى ما لا تعرفين مجرَّد معرفة أنَّ عليكِ إعطاءه".

"بعض الرجال يتوقَّعون الحصول على الكثير لقاء أونصتَين من غبار الذهب".

"أصغي إلى ما يمكنني تقديمه لكِ".

"لا أرى أنَّ ما تعرضه عليَّ يختلف في شيءٍ عمَّا لديَّ".

إذ ذاك طرق أحدهم الباب مرَّتين.

فاجتاح الفَرَج كِيان آنجِل، ولم يَعنِها أن تُخفي ذلك. فتكلَّفتِ ابتسامةً وهزَّت كتفيها بلامبلاة. "حسنًا، لقدِ انتهى نصفُ الساعة الذي أردتَه للتحدُّث، أليس كذلك؟" ثمَّ وقفت ومشت مُجاوِزةً إيّاه. وتناولت قُبَّعته من على الكُلّاب قرب الباب وناولته إيّاها. "حان وقت الانصراف".

بَدَت عليه أمارات الخيبة، إلَّا أنَّه لم يستسلم مدحورًا. "سوف أعود".

"افعل أيَّ شيء يسرُّك!"

ثمَّ مسَّ مايكل وجهها. "غيِّري فكرَكِ! تعالَي معي الآن. ينبغي أن تكوني أحسن حالًا من هذا".

تسارعت دقَّاتُ قلبها. لقد بدا كمن يقصد ذلك فعلًا. ولكنْ، ألَم يبدُ جوني مُخلِصًا أيضًا؟ جوني، بسحره وسلاسة كلامه. وبعد كلِّ ما قال وفعل، تبيَّن أنَّ كلَّ ما أراده كان أن يمضي بشيء ينتزعه من دُوك ليستعمله هو. وقد كان الفرار هو كلَّ ما أرادته. إلَّا أنَّهما أخفقا كلاهما، وكان الثمن الرهيب الذي ترتَّب على ذلك أبهظَ بكثيرٍ جدًّا.

أرادت أنجِل إبعاد هذا الفلّاح من هناك. "أفضلُ لك أن تصرف نقودك الذهبيَّة في غير هذا المكان. ليس عندي ما تبحث عنه، مهما كان ذلك. جرِّب ماغي. فهي الفيلسوفة". ثمَّ شرعت تفتح الباب.

وضع مايكل راحة يده على الباب. "عندَكِ كلُّ ما أبحث عنه. وإلّاَ فما كنتُ قد شعرتُ بما شعرتُ به لمّا رأيتُكِ أوّلَ مرّة، وما كنتُ لأشعر بذلك يقينًا الآن".

"نَفِدَ نصف الساعة المُخَصّص لك".

تبيَّن لمايكل أنَّها لا تنوي الإصغاء... هذه المرَّةَ على الأقل. "سأعود. وكلُّ ما سأطلبه هو نصفُ ساعةِ صدقٍ من وقتك".

إلّا أنَّها فتحتِ البابَ له قائلة: "يا سيِّد، خمسَ دقائق بعدُ فتُضطَرَّ إلى الفرار وأنت تركض ركضَ إبليس!"

الفصل
الرابع

لستُ أفعل الصالحَ الذي أُريده؛
بل الشرَّ الذي لستُ أُريد، فإيّاه أفعل!

(رسالة رومية ٧: ١٩)

وعاد هُوشَع فعلًا، في الليلة التالية وفي التي بعدها. وكلَّما شاهدَته آنجل، تضاعف اضطرابها. فإذ تكلَّم، شعرت باليأس يثور. وقد حال ما تعرفه جيِّدًا دون تصديقها لأحدٍ في أيِّ شيء. أولم تتعلَّم ذلك بالطريقة الصعبة؟ فالأمل كان حلمًا، ومحاولة بلوغه أحالت حياتها كابوسًا لا يُطاق. لن تدعَ الكلمات والوعود تتملَّقها وتُقنعها من جديد. لن تدعَ رجُلًا يُقنِعها بوجود شيء أفضل ممّا كان لديها.

ومع ذلك لم يمكنها أن تُبدِّد التوتُّر الذي كان يثور فيها كلَّما فتحتِ الباب ووجدت ذلك الرجل واقفًا أمامه. وهو لم يمسَّها بيده قطّ، بل كان فقط يرسم صُوَرًا كلاميَّة عن الحرِّيَّة أيقظت توقها المُضني القديم الذي طالما شعرت به في صِغَرها. وقد كان ذلك توقًا لم يتلاشَ قطّ. إلَّا أنَّها كلَّما هربت كي تُلبِّيَه، كانت البليَّة تحلُّ بها. ومع ذلك ظلَّت تحاول. وآخِر مرَّة، دفعها التَّوق إلى الفرار من دُوك وحطَّ بها في هذا المكان الفاسد الآسِن.

وفي الواقع أنَّها تعلَّمت درسها أخيرًا. فلا شيءَ تحسَّن بتاتًا، بل إنَّما سارت الأمور من سيِّئ إلى أسوأ. وكان من الحكمة أن تتكيَّف وتتقبَّل وتعيش.

لماذا لم يقبل هذا الرجل أن يُدخِل رأسه الغليظ فكرة أنَّها لن تمضيَ إلى أيِّ مكان، لا معه ولا مع أيِّ شخص سواه؟ لماذا لا يستسلم ويدعها وشأنها؟

ظلَّ يعود مرارًا وتكرارًا، فيُثير جنونَها. لم يكُن رقيقًا ووسيمًا مثل جوني. ولم يستخدم القوَّة مثل دُوك. ولم يكُن مثل المئات غيره ممَّن دفعوا وتمتَّعوا. بل إنَّه بالحقيقة لم يكُن مثل أيِّ شخص عرفَته يومًا. وذلك كان ما لم يُرقها أكثرَ كلِّ شيء. فهي لم تستطع أن تضع مايكل هُوشَع في أيِّ قالبٍ عرفَته.

كلَّ مرَّة، حالَ مغادرته، حاولت طرده من ذهنها، غير أنَّ شيئًا ممّا يتعلَّق به كان

ينهشُها نهشًا. وألفَت نفسها مُفكِّرةً فيه في أغرب الأوقات، وكان عليها أن تُلزِم نفسها التفكيرَ في شيءٍ ما سواه. حتّى إذا تيسّر لها ذلك، كانتِ الأُخرَيات يوقظنه من جديد.

سألتها رَبيكا عند العشاء: "مَن كان الرجُل الذي جاءك البارحة؟"

كبتت آنجل توتُّرها ومسحت الزُّبدة على خبزتها، وقالت: "أيُّ واحد؟" ناظرةً إلى الصهباء الممتلئة الجسم مقابلَها.

"الكبيرُ الوسيم... مَن عداه؟"

قضمت آنجل الخبزة، مؤثِرةً أن تستمتع في سلامٍ بوجبتها المؤلَّفة من خبز العجين المختمر ويخنة لحم الغزال المقدَّد، ولا تُستجوب بشأن مَن دخلوا وخرجوا من غرفتها. مَن يعنيه منظرُ أيٍّ منهم؟ فبعد حينٍ يظهرون كلُّهم على الصورة عينها بأيّة حال.

قالت رَبيكا بنفاد صبر: "كُفّي عن التكتُّم يا آنجل. لا يبدو الأمر كما لو أنّه لا يعنيكِ. لقد كان عندك البارحة، وكان آخِر مَن خرج من بابك. أنا رأيتُه في البهو إذ كنتُ صاعدةً الدرج، بكامل قامته التي تكاد تبلغ مترين، وشعره الداكن، وعينيه الزرقاوين، وكتفيه العريضتين. وقد بدا كلُّ سنتيمترٍ منه قليل الشَّحم صُلبَ التكوين. وكان يمشي مشيةَ العسكريّ. ولمّا ابتسم لي، تغلغلت ابتسامته في كِياني كلِّه".

مرَّرت لاكي اليخنة إفساحًا لقِنيّنة النبيذ الأحمر، قائلةً: "لو ابتسم لك قزم مجدور الوجه من نانطِكت، لتغلغلت ابتسامته في كيانك كلِّه!"

أجابت رَبيكا بازدراء: "اشربي نبيذَكِ. لم أكن أُكلِّمكِ". لم تكُن تُطيق إهانات لاكي المَرِحة، فصرفت انتباهها عنها إلى آنجل من جديد، وتابعت: "لا يَسعُكِ أن تتظاهري بأنّكِ لا تعرفين الرجُل الذي أقصده. فأنتِ إنّما لا تريدين أن تقولي لي شيئًا".

حدّقت إليها آنجل. "لستُ أعرف أيَّ شيء. إنّما أودُّ أن أستمتع بوجبتي، إذا لم يسؤكِ ذلك".

وضحكت طُوري قائلةً بلهجتها البريطانيّة الثقيلة: "لماذا لا يحقُّ لها أن تحتفظ به لنفسها. لعلَّ آنجل التقت أخيرًا رجُلًا استهواها فعلًا". فضحكت الأُخرَيان.

وقالت لاكي: "لعلّها لا تودُّ أن يُزعِجها أحد كما تقول".

وتنهَّدت رَبيكا: "آنجل، قليلًا من الشفقة. طالما التقيتُ فتًى غِرًّا بعدَ آخر طيلة الشهر الفائت، ومن شأني أن أرحِّب برجُلٍ على سبيل التغيير".

فدفعت طُوري صحنها بعيدًا قائلة: "لو دخل غرفتي رجلٌ مثله، لأقفلتُ الباب وراءه وأبقيتُه عندي!"

وسكبت آنجِل لنفسها كوب حليب، متمنِّيةً لو يدعنها كلُّهنَّ وشأنها.
ونادتها رينِه من آخِر الطاولة: "آنجِل، هذا ثاني كوبٍ تتناولينه. لقد قالت الدوقة أن تكتفي كلُّ واحدة منَّا بكوب واحد لأنَّ الحليب غالٍ جدًّا، وها أنت تشربين الثاني!"
فتكلَّفت لاكي ابتسامةً وقالت: "أنا قلتُ لها قبل العشاء إنَّ في وسعها أن تأخذ حصَّتي من الحليب إذا أعطتني حصَّتها من النبيذ".
وأنَّت رينِه قائلةً: "هذا ظُلم! إنَّني أُحبُّ الحليب بقدر ما تحبُّه آنجل! إنَّها دائمًا تحصل على ما تريده".
فكشَّرت لاكي وقالت: "لو تناولتِ كأس حليبٍ أُخرى، لتحوَّلت فقط إلى مزيدٍ من الشحم حول وسطكِ".
وإذ شرعنَ يتشاجرن، أرادت آنجل أن تزعق وتغادر الطاولة. فإنَّ رأسها كان ينبض ضيقًا. حتَّى إنَّ طلب لاكي الدائم للشراب أثار استياءها، في حين أنَّ رَبيكا ما كانت لتكفَّ عن التحدُّث عن ذلك الرجل التَّعس.
"لا بدَّ أنَّه ميسور الحال حتَّى دفع كثيرًا كي يشقَّ طريقه إلى غرفتك ثلاث مرَّات في ثلاث ليالٍ. ما اسمُه؟ لا تتظاهري أنَّ أمره لا يعنيكِ".
إنَّما كلُّ ما أرادته آنجل هو أن يَدعنها وشأنها. "ليس مُنقِّبًا عن الذهب. إنَّه فلَّاح".
فضحكت طُوري: "فلَّاح؟ مَن تحاولين أن تخدعي، يا عزيزتي؟ إنَّه ليس فلَّاحًا. فالفلَّاحون يبدون أغبياء مثل التُّربة التي يحرثونها".
"هو قال إنَّه فلَّاح. وهذا لا يعني أنَّه كذلك".
وسألت رَبيكا ثانيةً: "ما اسمُه؟"
"لا أتذكَّره". أمِن شأن ذلك الرجل أن ينغِّص عيشها حتَّى في أثناء غيابه.
فقالت رَبيكا مُغضَبةً: "لا بل تتذكَّرين!"
ألقت آنجل فوطتها جانبًا. "انظُري! أنا لا أسأل عن الأسماء. ولا يهمُّني مَن يكونون. فأنا أُعطيهم ما يريدون، ومن ثَمَّ ينصرفون. هذا هو كلُّ شيء".
"إذًا لماذا يظلُّ يعود؟"
"لا أدري، ولا يهمُّني الأمر".
سكبَت لاكي كأس نبيذ أُخرى. "رَبيكا، ما أنت إلَّا غَيرى لأنَّه لا يأتي إلى غرفتك".
حدَّقت رَبيكا إليها. "هلَّا تُطبِقين فاكِ! ظلِّي اشربي كما تفعلين، حتَّى ترميَكِ الدوقة خارجًا على مؤخَّرتِك!"

لبثت لاكي هادئةً، وقالت ضاحكةً: "ما تزال مؤخّرةً حُلوةً جدًّا!"

فقالت طُوري هازئةً: "لو لم تكُنِ النساء قليلاتٍ جدًّا، ما كان أحدٌ يُكلّف نفسه قرعَ بابك!"

وكانت لاكي تتأهّب للقتال، فقالت: "أنا في سُكْري أفضلُ منكما كلتيكما صاحيتَين".

تجاهلت آنجل الإهانات التي جرى التراشُق بها، وقد أفرجها أن تُترَك وشأنها. غير أنّه آنذاك عاد هو لِيمثُل في ذهنها من جديد.

كانت ماغي جالسةً بجانب آنجل، ولم تكن قد قالت كلمةً واحدة في ما سبق من تبادُل الحديث. إلّا أنّها الآن نظرت إلى آنجل وهي تُحرِّك ملعقةً من السكّر الثمين في قهوتها السوداء، قائلةً: "إذًا، كيف هو هذا الرجل اللذيذ يا آنجل؟ أفي رأسه عقل؟"

رمقتها آنجل بنظرةٍ سوداء. "ادعيهِ إلى غرفتك واعرفي بنفسك".

قوّست ماغي حاجبيها ومالت إلى الوراء. "صحيح؟ يمكن أن أفعل ذلك تمامًا ما دام قد أثار اهتمام صديقاتنا هنا". ثمّ تفحّصتها سائلةً: "أحقًّا أنّ الأمر لا يزعجك؟"

"ولماذا يزعجني؟"

فقالت رَبيكا: "أنا رأيتُه قبلَكِ!"

وضحكت لاكي. "عليكِ أوّلًا أن تصرعيه، ومن ثَمّ تُحضرين من يجرّه إلى غرفتك".

فقالت رينِه ناظرةً شزرًا: "لن يروقَ ذلك الدوقة. فأنت تعرفين أنّ الرجال يدفعون أكثر لأجل آنجل، مع أنّي لا أدري لماذا".

وزعقت لاكي: "لأنّها وهي مُنهكةٌ جدًّا تبدو أجمل منك وأنتِ في أفضل حالاتك!"

فقذفتها رينِه بشوكةٍ تفادَت منها بسهولة، وأصابت الحائط رانّةً.

وقالت آنجِل: "رجاءً، اهدَئي يا لاكي"، متيقّنةً أنّ مغوان لا بدّ أن يحضر. فإنّ لاكي لم تكن تتريّث كي تُفكّر متى تعاطَت المُسكِر.

أمّا رينه فقالت: "إذًا لا يهمُّكِ الأمر فعلًا!"

وردّت آنجل: "يمكنكِ أن تستقبليه مع مباركتي". فهي لم تُرِد أن يُزعِجها بعد. وهو يريدها حقًّا. وقد أحسّت ذلك يشعُّ من جسده، غير أنّه لم يفعلْ شيئًا قطُّ لتحقيق ذلك، بل كان يتكلّم فحسب، طارحًا الأسئلة، ثمّ ينتظر ما لا تعرفه. وقد سئمت محاولة التفكير بأكاذيبَ كي تجعله مسرورًا. إلّا أنّه ظلّ يطرح السؤال عينه بطرق مختلفة. وما كان ليستسلم. وكلّما عاد، كان يبدو أكثر تصميمًا. وكان مغوان آخِر مرّة قد توجّه إلى الباب مرّتين حتّى صاحَ به من الخارج بأنّه خيرٌ له أن يلبس ثيابه ويخرج

خارجًا إن كان لا يُريد مشاكل. غير أنَّ هُوشَع لم يكن قد فكَّ حتَّى أزرار قميصه.

ثُمَّ إنَّه كان دائمًا يقول القول نفسه قُبيلَ مغادرته: "تعالَي معي... تزوَّجيني".

"سبق أن قلتُ «لا»، ثلاثَ مرَّات. ألَم تفهم الرسالة؟ لا، لا، لا!"

"لستِ سعيدةً هنا".

"لن أكونَ أسعد أبدًا معك".

"كيف عرفتِ؟"

"أنا أعرف".

"البسي ثوبًا يمكنك أن تُسافري فيه، وتعالَي معي. الآنَ الآن. لا تُفكِّري في الأمر كثيرًا جدًّا، بلِ افعليهِ فحسْب".

"لعلَّ لدى مغوان ما يقوله في هذا الشأن". ولكنَّها رأت بوضوح أنَّ مغوان لم يُزعِجه قطّ. ثمَّ تساءلت كيف يمكن أن تكون حال العيشة مع رجُل كهذا لم يبدُ أنَّه خائف من أيِّ شيء. ولكنْ، ألم يكن دُوك غير خائفٍ من أيِّ شيء أيضًا، وهي قد علمت كيف كانت حال العيشة معه؟

ثمَّ قالت بحزم: "للمرَّة الأخيرة، لا!" ومدَّت يدها نحو مسكة الباب. فأمسك بمعصمها قائلًا: "ما الذي يُبقيكِ هنا؟"

وسحبت معصمها بنترةٍ قويَّة: "يروقُني ذلك!" ثمَّ فتحت الباب على وسعه، قائلةً: "هيّا انصرفِ الآن!"

فقال: "أراكِ غدًا"، ثمَّ خرج.

لقد سفقت آنجل الباب وأسندت ظهرها عليه. كان يعتريها دائمًا صداعٌ شديد عند مغادرة هُوشَع. وتلك الليلة جلست على طرف سريرها وضغطت بأصابعها على صُدغَيها محاوِلةً تسكين الألم.

انتابها آنذاك الألم عينُه. ألمٌ ما ازداد إلَّا سوءًا إذ تردَّدت في ذهنها أصداءُ سؤال هُوشَع. ما الذي كان يُبقيها هنا؟ لماذا لم تُبادر إلى الخروج من الباب توًّا؟

تكوَّرت راحتا يديها قبضتين. سيكون عليها أن تأخذ ذهبها من الدوقة أوَّلًا، وقد علمَت أنْ لا سبيلَ إلى مبادرة المرأة بإعطائها إيّاه كلّه حالًا. كان في وسعها أن تأخذ قسطًا منه بعد قسط، ما يكفيها لبعضِ أسباب التَرَف، إنَّما ليس لأنْ تعيش به. فما كانتِ الدوقة لتسخو إلى هذا الحدّ.

وماذا لو استطاعت آنجل أن تحوز من الذهب ما يكفيها للمغادرة؟ قد يؤول الأمر

إلى مثل ما آل إليه على ظهر السفينة أو في نهاية الرحلة، حين ضُربت وتُركت ليعثر عليها أولئك الكنّاسون. فتلك الأيّام القليلة التي قضتها وحيدةً في سان فرنسيسكو كانت أقرب شيء إلى الجحيم الذي عاشته يومًا. فقد عانَتِ البرد والجوع والخوف على حياتها، حتّى حنّت إلى حياتها في الماضي مع دوك حنينًا فعليًّا... نعم، مع دُوك من بين الناس أجمعين!

استبدَّ بها اليأس تمامًا. لا يمكنني أن أُغادر. فبغير شخصٍ مثل مغوان، أو حتّى الدوقة، سوف يُمزّقونني إرْبًا إرْبًا.

لم تُرِد أن تُغامِر بالذهاب مع مايكل هُوشَع. فإنّه كان غريبًا أكثر غموضًا إلى حدٍّ بعيد.

أخذ مايكل يُنفِق ذهبه ووقته حتّى النفاد. لم يعرف كيف يصل إلى تلك المرأة. وقد استطاع أن يراها تنسلُّ مبتعدةً عنه لحظةَ تفتح له الباب. فكان يتكلّم وهي تنظر إليه مباشرةً ومتظاهرةً بالإصغاء. غير أنّه كان يعلم أنّها لم تكن تسمع شيئًا. إنّما كانت تنتظر فقط أن يمضيَ نصفُ الساعة حتّى تحوز لذّةَ الإيعاز إليه بأن ينصرف.

يا ربّ، لديَّ من الذهب فقط ما يكفي لمحاولةٍ واحدة بعد. فدَعها تُصغِ إليَّ!

وبينما هو صاعدٌ الدرج، كان يُراجع في ذهنه ما يوشك أن يقوله لها هذه المرّة، فإذا به يصطدم بامرأةٍ صهباء. فانكفأ باعتذارٍ مرتبك. إلّا أنّها وضعت يدها على ذراعه وابتسمت له. "لا تكلّف نفسك مقابلة آنجل الليلة. لقد قالت إنّني أنا سأروقُكَ أكثر".

فرمقها مُحدِّقًا وقال: "وماذا قالت آنجِل أيضًا؟"

"إنّها ستَعدُّ إبعادك عنها معروفًا لطيفًا".

فصرَّ بأسنانه وأزاح عنه يدها قائلًا: "شُكرًا على إخباري". ثمّ تابع سيره في البهو. وإذ وقف أمام بابِ آنجل، حاول أن يكظم غيظه. ربّي يسوع، أسمعتَ ما قيل؟ ماذا أنا فاعلٌ هُنا أيضًا؟ لقد حاولتُ. وأنت تعرف أنّني حاولت. إنّها لا تُريد ما أعرضه عليها. ماذا تُراني فاعلًا؟ أأسحبُها بشعرها خارجًا بها من هُنا؟

قرع الباب مرّتين، وتردَّد في الرُّواق المُعتِم صدى قرعه عاليًا. ففتحتِ الباب، ورمقته بنظرةٍ خاطفة، وقالت: "أُوه، هذا أنتَ مرّةً أُخرى".

"نعم، هذا أنا مرّةً أُخرى". ثمّ دلف داخلًا وسفق الباب خلفه.

قطّبت حاجبيها. إنّ رجلًا غاضبًا قد يكون متعذِّرًا التنبُّؤ بتصرُّفه وخطرًا. وفي وسع

هذا الرجل أن يُنزِل بها أذىً بالغًا بغير جهدٍ يُذكَر.

"لن أصِلَ معك إلى أيِّ قرار، أليس هكذا؟"

قالت بهدوء: "ليست الغلطة غلطتي في تبديد ذهبك. لقد حذَّرتُك أوَّلَ ليلةٍ. أتذكُر؟" ثمّ جلست على حافة السرير مُردِفةً: "إنّني لم أخدعْك".

"عليَّ أن أعود إلى الوادي وأُنجز بعض العمل".

"أنا لا أُعوِّقك".

بدا وجهه شاحبًا وصارمًا. "لا أُريد أن أتركَكِ في هذا المكان المَوبوء!"

طرفت عيناها إزاء جَيَشانه. "ليس هذا شأنَك".

"صار شأني لحظة رأيتُكِ".

أخذت قدمها تترجَّح برشاقةٍ جيئةً وذهابًا، جيئةً وذهابًا، معلنةً مرور الوقت ثانيةً فثانية. كانت نائمة وعيناها مفتوحتان. وبدا أنّها متحفِّظةٌ جدًّا. ولم يلُح في عينيها الزرقاوين شيء.

"أتودُّ أن تتكلَّم أيضًا؟" ثمّ سترت فمها إذ تثاءبت، وتنهَّدت قائلةً: "هيّا، تكلَّم. كُلّي آذانٌ صاغية".

"أيُهدهِدكِ كلامي لتنامي؟"

سمعت تهدُّج صوته، وعلمت أنّها تكاد تقوى عليه. جيّد! لعلَّ قليلًا بعدُ يجعله يمضي في سبيله. "لقد كان يومي طويلًا وصعبًا". ثمّ دلكت أعلى ظهرها. "وهذا الحديث كلُّه يغدو قديمًا بالفعل بعد حين".

لقد أشعلت فتيله. "سيُعجبكِ أكثر إذا انضممتُ إليكِ في السرير، أليس كذلك؟"

"على الأقلّ ستمضي شاعرًا بأنّك أخيرًا حصلتَ على شيءٍ ما لقاء ذهبك".

خفق قلب مايكل بشدّة وسرعة. تقدَّم إلى النافذة وهو يرتعش غضبًا ورغبةً جسديَّة، حيث أزاح الستارة ونظر إلى الخارج قائلًا: "أيُعجبكِ المنظر من هنا في الأعلى يا آنجل؟ وُحولٌ، مبانٍ فاخرةٌ وخيام، رجال سكارى يغنُّون أغاني الحانات، الجميع يكافحون لأجل البقاء".

آنجل. كانت تلك أوّل مرّة فيها ناداها باسمها. ولسببٍ ما، آذاها ذلك. لقد علمت أنّها تكاد تتمكّن منه أخيرًا. فانتظرت ما تبقّى. سيُلقي كلمته، وينال بُغيته، ويمضي. وسيكون ذلك ختام الأمر كلّه. إنّما كلُّ ما ينبغي لها أن تتحقّق منه هو ألّا يأخذ معه جزءًا منها خارجَ الباب.

ثمَّ أردف ساخرًا: "أوِ انظُري إلى الطابق السُّفليّ. فلعلَّكِ تُعجبين بذلك إعجابًا أفضل". وبعدما أرخى الستارة أدار وجهه صوبَها وقال: "أيُعطيكِ شعورًا بالقوَّة أن أُزايِد كلَّ ليلة لأحظى بك؟"

"لستُ أطلب منك القيام بذلك".

"لا، لستِ تطلبين، أمَا هكذا؟ إنّك لا تطلبين شيئًا البتَّة. لستِ تحتاجين إلى شيء. لستِ تشعرين بشيء. لماذا لا أُتابع سيري في الرُّواق إلى غرفة تلك الصهباء؟ أليست هي هناك؟ تلك التي قُلتِ إنَّها تستطيع إبعادي عنك".

هكذا إذًا. لقد انجرحت كبرياؤه: "ما أردتُ لك سوى أن تُغادِر المدينة وعلى وجهك بسمة".

"أتُريدين أن تَريني أبتسم؟ تلفَّظي باسمي!"

"ما اسمُك؟ لقد نَسِيت".

أقامها عن السرير بنترةٍ واحدة. "مايكل. مايكل هُوشَع".

ثمَّ فقد السيطرة على نفسه، وأخذ وجهها بين يديه.

مايكل!

أنساه ملمسُ بشرتِها سببَ وجوده هناك، فقبَّلها.

"آنَ الأوان". تقدَّمَت إليه أكثر، مُلهِبةً إيَّاه. وتحرَّكت يداها، فعلم أنَّه إن لم يُوقِفها يخسر، لا المعركةَ وحدها بلِ الحربَ كلَّها.

ولمَّا فكَّت أزرار قميصه ودسَّت يدها داخلًا، انتفض متراجعًا عنها، قائلًا: "ربَّاه، يا يسوع!"

نظرت إليه مصعوقةً، وقد تبيَّن لها الأمرُ بصدمة إدراك جليّ. "كيف تأتّى لك أن تصل إلى السادسة والعشرين، هذه السنِّ المتقدِّمة، بغير أن تختليَ بامرأةٍ مجرَّدَ اختلاء؟"

ففتح عينيه قائلًا: "لقد عقدتُ عزمي على انتظار المرأة الصحيحة".

ضحكت عليه: "أوتعتقد حقًّا أنَّني أنا هي؟ يا لك من غبيٍّ جاهل مسكين!"

لقد نالت منه أخيرًا.

ربِّي يسوع، لقد فهمتُ. لا يُعقَل أن تكون هذه هي التي أرسلتَها لي!

قد يقضي ما بقي من عُمره محاولًا إفهامَها. وهمَّ بأن يمسك بها ويهزَّها ويُلقِّبها بكلِّ ألقاب الغباوة. وكلُّ ما تفعله أن تنظر إليه بدورها والبسمة تعلو ثغرها، كما لو كانت قدِ اكتشفَته على حقيقته. لقد وُضِعت على صدره بطاقةُ تعريف ووُضع في فئةٍ خاصَّة.

فقدَ مايكل السيطرة على أعصابه. "إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي تُريدينها، فلتكن!" ثم خرج وسفق الباب خلفه وعبر البهو بخُطىً واسعة. وهبط الدرج توًّا إلى صالة القمار، حيث دفع البابَين المتحرِّكين بشدَّة ليندفَع خارجًا. ثمَّ واصل المشيَ لعلَّ هواء الليل يُبرِّد شبوب الحرارة فيه.

مايكل...

انسَ الأمر! انسَ أنَّني طلبتُ منك زوجة! لستُ أحتاج إلى واحدة احتياجًا ماسًّا هكذا.

مايكل...

سأظلُّ عازب.

مايكل، حبيبي!

واصل المشي. يا ربّ، لماذا هي؟ قُل لي! لماذا ليس فتاة حسنة التربية والتهذيب لم يمسَّها رجلٌ قبل ليلة عُرسها؟ لماذا ليس أرملة تتَّقي الله؟ ربّ، أرسل إليَّ امرأةً صادقةً، لطيفةً وصبورةً، امرأة تشتغل معي في الحقول، حرثًا وغرسًا وحصدًا! امرأةً تتَّسخ أظفارُها من التُّربة ولا يكون الوسخ ماكثًا في قلبها! امرأةً تُعطيني أولادًا، أو يكون لها أولادٌ إن لم تشأ مشيئتك أن يكون لي أولادٌ من لحمي ودمي. لماذا تطلب منِّي أن أتزوَّج بومس؟

هذه هي المرأة التي اخترتُها لك.

توقَّف مايكل، ساخطًا. وزعق بالفضاء المُظلِم: "لستُ نبيًّا! لستُ واحدًا من قدّيسيك. ما أنا إلَّا رجلٌ عاديّ!"

ارجع وأحضِر آنجِل.

"لن ينفع الأمر! أنت مُخطئ هذه المرَّة".

ارجع!

"هي ماهرة في الجنس؛ هذا أمر يقيني. وستُعطيني ذلك، إنَّما لا أكثر. أتُريد منِّي أن أرجع لأجل ذلك؟ لن أحصل منها يومًا على ما يتعدَّى نصف ساعة تافهًا من وقتها. إنَّني أصعد إلى تلك الغرفة مُفعمًا بالرجاء وأخرج منها مدحورًا. أين نُصرتك في هذا؟ لن تكترث لي إذا رأتني ثانيةً. إنَّها تحاول الإلقاء بي إلى الأُخَر مثلَ... مثلَ- لا، يا ربّ. لا! ما أنا إلَّا رجلٌ آخر بِلا وجه في صفٍّ طويل من الرجال البِلا وجوه في حياتها. لا يُعقَل أن يكون هذا ما قصدتَه لي!" ثم أردف رافعًا قبضته: "ويقينيٌّ أنْ ليس هذا ما طلبتُه منك!"

مرّر أصابع يديه في شعره كمن يُمشّط. "لقد عبَّرَتْ عن فكرها بمنتهى الوضوح. يمكنني أن أحوزها بأيِّ طريقةٍ شئتُ. من عُنقِها فنازلًا. ما عدا القلب. ما أنا إلَّا إنسانٌ يا ربّ! أتعلم بما تجعلني أشعر؟"

أخذ المطر ينهمر. وكان مطرًا غزيرًا باردًا.

وقف مايكل على قارعة الطريق الموحِل المُظلم، على بُعدِ ميلٍ خارج المدينة، والمطرُ يجري على وجهه. وأطبق عينيه قائلًا بخشونة: "شكرًا، شكرًا جزيلًا!" وفيما الدَمُ الساخط الساخن يتدفّق سريعًا في عروقه، قال: "إذا كانت هذه هي طريقتك في تبريدي، فهي غير نافعة كثيرًا!"

اعملْ بمشيئتي يا محبوب. لقد رفعتُك من الهاوية الموحشة، من طينِ الحمأة في جُبِّ الهلاك، وأقمتُ على صخرةٍ قدمَيك. فارجع وأحضر آنجل!

إلَّا أنَّ مايكل حمل غضبه قريبًا كتُرس. "لا شيء ينفع. آخِرُ شيء أُريده أنا هو امرأةٌ لا تشعر بشيء". ثم شرع يمشي من جديد، متوجِّهًا هذه المرَّة نحو إسطبل الإيواء، حيث عربتُه وحصاناه.

قال صاحب الإسطبل: "ليس الوقت مؤاتيًا للسفر، يا سيِّد. ستهبُّ عاصفة".

"هو مؤاتٍ كأيِّ وقتٍ آخر. وأنا سئمتُ هذا المكان فعلًا".

"أنتَ وألفٌ آخرون".

كان على مايكل أنْ يُجاوِز القصر لمغادرة المدينة. تضايق من ضحك السكارى وعزف البيانو. لم يُلقِ ولو نظرةً واحدة على نافذة غرفتها في الأعلى إذ مرَّ تحتها بعربته. ولماذا يفعل؟ الأرجح أنَّها تشتغل. ما إن يرجع إلى واديه وينسى أمر هذه المرأة الواقعة في أسْر الجحيم، حتَّى تتحسَّن حالهُ فعلًا.

وإذا صلَّى ثانيةً إلى الله طالبًا أن يرسل إليه امرأةً تشاركه في حياته، فسيكون أكثر دقّةً بكثير في تحديد نوع المرأة الذي يريده.

كانت آنجِل واقفةً عند نافذتها إذ شاهدت هُوشَع مجتازًا. وقد علمَت أنَّه هو رُغم كونه حانيًا كتفيه مُقابِل انهمار المطر. انتظرت أن يرفع نظره صوبها، إلَّا أنَّه لم يفعل ذلك. وراقبته حتَّى توارى عن نظرها.

حسنًا، لقد نجحت أخيرًا في طرده بعيدًا. وكان ذلك هو ما أرادته منذ البداية.

لماذا إذًا تشعر بهذا الحرمان الشديد؟ ألم تكن مسرورة لأنَّها تخلَّصت منه أخيرًا؟ لن يأتي ليجلس في غرفتها من جديد، متكِّلمًا ومتكلِّمًا ومتكلِّمًا حتَّى يُخيَّل إليها أنها ستفقد صوابها.

لقد ناداها أخيرًا أَنجِل. أَنجل! رفعت يدًا مرتعشةً وبسطتها على زجاج النافذة. تسرَّب البرد إلى راحتها وارتفع عبر ذراعها. ضغطت بوجهها على الزجاج تُصغي إلى طرطقة المطر. ذكَّرها وقْع المطر بالكوخ في الميناء وأُمِّها مبتسمةً وهي ميتة.

آه، يا إلهي. ها أنا أختنق. ها أنا أموت!

ابتدأت ترتعد، فأرختِ الستارة لتُغطِّيَ النافذة من جديد. لعلَّ تلك هي الطريقة الوحيدة للنجاة. الموت! فإن ماتت، لا يستطيع أحدٌ استغلالها ثانيةً.

جلست على السرير وشدَّت ركبتيها على صدرها. ثمَّ ضغطت برأسها على ركبتَيها، وراحت تترجَّح. لماذا اضطُرَّ إلى المجيء إليها؟ كانت قد تعوَّدت قبول الأُمور كما هي عليه. وكان كلُّ شيء يجري مجراه. لماذا كان عليه أن يبدِّد هدوءها الداخليّ؟ كوَّرت يديها قبضتين. لم تستطع أن تتخلَّص من تصوُّر مايكل هوشع مبتعدًا في عربته تحت المطر.

ثمَّ اعترضت في حلقها غصَّةٌ خانقة لأنَّها أفلتت من يدها فرصتها الأخيرة.

الفصل

الخامس

ها هو الموتُ أمامي اليوم، وأنا أشعر
شعورَ مَن يتوق إلى رؤية بيته بعد قضائه
في الأسر سنين طويلة.

(بردية من مصر القديمة)

دامت العاصفة أيّامًا. كان المطر يرسم على الزجاج خطوطًا طويلة كأنّها دموعٌ غزيرة، غاسِلًا الغبار ومُشكِّلًا صُوَرًا مُموَّهة للعالم الخارجيّ. وكانت آنجِل تشتغل وتنام مُلقيةً نظرها خارجًا على الأكواخ والمباني الخشبيّة وخيام الخيش الغائرة، تُضيئُها مئاتُ المصابيح حتّى الفجر. لم تبدُ خُضرةٌ في أيّ مكان، بل ساد اللونان الرماديُّ والبُنّيّ.

لا بدّ أنّ هنري يُقدّم الفَطور الآن، ولكنّها غير جائعة، ولا يروقُها أن تجلس مع الأُخريات لتسمع ثرثرتهنّ وتذمُّراتهنّ.

هطل المطر بغزارةٍ أشدّ وأسرع، وثارت معه الذكريات. كانت قديمًا تلعب لعبةً مع أُمّها عصرَ الأيّام الماطرة. فكلّما أمطرت، عمّ البردُ الكوخ على نحوٍ شديدٍ لا يحتمله غيرُ المُضطرّ إلى البقاء فيه. كان الرجال يمكثون بعيدًا في خانٍ مريح، ومعهم راب، فتعمد ماما إلى إجلاس سارة في حضنها وتلفُّ حِرامًا حول كلتيهما. وصارت سارة تحبُّ العواصف، لأنّ ماما حينذاك تكون لها وحدها. وكانتا تُراقِبان نُقَط الماء الكبيرة تضرب زجاج النافذة وتنفلش ثمّ تنزلق أخيرًا جدولًا على الإطار، فيما تُحدِّثها ماما عن طفولتها، مُركِّزةً فقط على الأمور السعيدة، الأُمور الطيّبة. لم تتكلّم ماما قطُّ عن نفور أبيها منها ونبذه لها. ولم تتكلّم قطُّ عن أليكس ستافُورد. ولكنْ كلّما كانت ماما تصمت، كانت سارة تعرف أنّها تتذكّر وتتألّم مُجدّدًا. ثمّ تضمُّها ماما إلى صدرها بشدّة وتُهزهِزها مُهمهِمةً وهي تُقبِّلُها: "ستكون أحوالُكِ مختلفةً يا حبيبتي؛ ستكون أحوالكِ مختلفة... سترَين".

ولقد رأت آنجِل.

صرفت تفكيرها عن الماضي، وأرختِ الستارة فتهدّلت، ثمّ قعدت إلى الطاولة

الصغيرة ذات الغطاء المخرَّم. وعادت فأخمدَتِ الذكريات، مؤثِرةً الفراغ الخاوي على الألم المُمِضّ.

لن يرجع هُوشَع. لن يعود هذه المرّة. أغمضت عينيها بإحكامٍ ويدُها الصغيرة قبضةٌ في حضنها. لماذا فكَّرت فيه أصلًا؟ "تعالي معي وكوني زوجتي". طبعًا، إلى أن يملّها ويعطيها لرجُلٍ آخر. كما فعل دُوك. وكما فعل جوني. فالحياة لا تتغيرَّ أبدًا.

استلقَت على سريرها وغطَّت وجهها بمُلاءة ساتان رقيقة. تذكَّرت الرجال يُخيطون الكَفَن على وجه أُمِّها الباسم البارد، وشعرت بفراغٍ داخليّ. لقد غارَ كلُّ أملٍ غمر داخلها يومًا، ولم يبقَ شيءٌ يُبقيها متماسكة. كانت مقاومتها آخذةً في الانهيار.

قالت في قلب السكون المُخيِّم حولها: "سأقومُ بالأمر وحدي". وكادت تتمكَّن من سماع دُوك ضاحكًا: "طبعًا، تستطيعين ذلك يا آنجل. كما حصل تمامًا آخِر مرَّة!"

إذ ذاك قرع أحدُهم الباب، ممّا انتشلها ثانيةً من لُجَّة ذكرياتها السوداء. "هل لي أن أدخل، يا آنجل؟"

رحَّبت آنجِل بلاكي. كانت تُذكِّرها بماما، ما عدا أنَّها تشرب كي تسعد. أمّا ماما فكانت تشرب لتنسى. لم تكن لاكي آنذاك سكرانة، بل كانت تحمل قِنّينةً وكأسين.

جلست لاكي على السرير معها قائلةً: "ما برحتِ مُنطويةً على نفسك مؤخَّرًا. أأنتِ بخير؟ لستِ مريضةً ولا منزعجة، أأنتِ كذلك؟"

قالت آنجِل: "أنا على ما يُرام".

وضعت لاكي القنِّينة والكأسين على الطاولة الجانبيَّة. "لم تتناولي الفَطور معنا".

"لم أكُن جائعة".

ربَّتت لاكي شعر آنجل برفق ممسِّدة إيّاه إلى الوراء. "ولا تنامين جيِّدًا أيضًا. تحتَ عينيكِ ظِلال. إنَّما أنت حزينة، يا آنجل، أليس كذلك؟ حسنًا، مثلُ هذا يحدث للفُضلى بينَنا، ولو لمومسٍ كبيرة مثلي". كانت لاكي تحبُّ آنجل وتقلق عليها. وآنجِل كانت في عزِّ صباها، كما كانت صعبة المراس. ويعوزها أن تتعلَّم الضحك قليلًا إزاء حظوظها في الحياة. فقد كانت جميلة، ومن شأن ذلك أن يصبَّ دائمًا في مصلحة تلك المهنة. وكان يروق لاكي أن تتأمَّلها. فآنجِل كانت زهرةً نادرة في تلك المرجة الطحلبيَّة، زهرةً مميَّزة رائعة. إنَّما لم تكُن الأُخريات يُحبِبنها بسبب ذلك، ومن أجل أنَّها لم تكن تُخالِطُهنّ. وقد كانت رابطة الجأش.

كانت لاكي الوحيدة المسموح لها بالاقتراب، إنَّما وفقًا لبعض القوانين. فلها أن

تتكلّم عن أيِّ شيء، ما عدا الرجال والله. ولم تتوقّف قطُّ كي تتساءل أو تسأل عنِ الأسباب. فكانت شكورًا لأنَّ آنجل سمحت لها فحسبُ بأن تكون صديقةً لها.

ألفَت لاكي آنجل يومئذٍ صامتة، ووجهَها الجميل شاحبًا ومكفهرًّا.

"لقد أحضرتُ قِنّينةً وكأسَين. أتودّين تجريب الشرب ثانيةً؟ لعلّه لا يكون رديئًا هذه المرّة. سنشرب على مهلٍ أكثر".

هزَّت آنجل كتفيها. "لا".

"أأنتِ على يقين بأنّكِ لستِ مريضة؟"

"نوعًا ما، كما أعتقد. كنتُ أُفكرّ في ماما". وفي الواقع أنَّ العيشة كانت قد أمرضتها.

كان ذلك أوّلَ ذكرٍ من آنجل لشيءٍ من ماضيها، وقد أُكرمت لاكي باستئمانها ولو على نبإٍ يسير. فقد كان المكان الذي جاءت منه آنجل سرًّا عظيمًا في نظر جميع النساء هناك. "ما كنتُ أعرف أنّه كانت لديك أُمّ".

ابتسمت آنجل بسخرية. "ربّما لم تكُن لديَّ فعلًا. ربّما أوحى إليَّ خيالي بذلك فحسب".

"تعرفين أنّني لا أعني هذا".

"أعرِف". وحدّقت إلى السقف. "إنّني إنّما أتساءل أحيانًا بالفعل". أكان هنالك يومًا بيتٌ ريفيٌّ تحفُّ به الزهور من كلِّ جهة، حيث يهبُّ عطر الورد داخلًا من شبّاكِ غُرفةِ استقبال؟ أحقًّا غنَّت أُمُّها معها وضحكت وركضت عبر المروج؟

مسَّت لاكي جبينها. "أنتِ محرورة!"

"بي وجعُ رأس. سيزول سريعًا".

"منذ متى تشعرين به؟"

"منذ بدأ ذلك الفلّاح يُضايقني".

"هل رجع؟"

"لا".

"أعتقد أنّه كان مُغرَمًا بك. أأنتِ نادمة على عدم ذهابك معه؟"

توتّرت آنجل في داخلها. "لا. ما هو إلّا رجُلٌ كالباقين جميعًا".

"أتُريدين منّي أن أتركك وحدَكِ؟"

أمسكت آنجل يد لاكي وتشبّثت بها. "لا!" لم تشأ أن تبقى وحدها، ولا سيّما حين تكون مُفكّرةً بماضيها وغير قادرة على دفعه بعيدًا، والموتُ هو كلُّ ما يدور في خلَدها. أُفٍّ من ذلك المطر، ذلك المطر المتواصل المُطرطِق! إنّه يكاد يُسبّب لها الجنون.

لبثتا صامتتَين لحظاتٍ طويلة. وسكبت لاكي لنفسها شربةً. فعصف التوتُّر بكيان أنجل إذ تذكَّرت معاقرة أُمِّها للشراب طلبًا للنسيان. وتذكَّرت حزن ماما وشعورها بالذنْب وبكاءها الدائم. وتذكَّرت كلِيو سكرانةً في مرارة وثائرةً على الحياة إذ أطلعتها على حقِّ الله في شأنِ الرجال.

لاكي لم تكن ماما ولا كلِيو. كانت مَرِحة وخفيفة الظلّ وتحبُّ التحدُّث. وقد كانت كلماتها المألوفة تفيض كالبلسم الشافي. ولو تسنّى لأنجل أن تُصغيَ فحسبُ إلى قصّة حياة لاكي، لربمّا استطاعت أن تنسى قصَّتها هي.

قالت لاكي: "فرَّت أُمّي من البيت وأنا في الخامسة. هل سبق أن أخبرتُكِ بهذا كلِّه؟"

"أخبِريني بعدُ".

"ربَّتني خالتي. كانت سيِّدة مُتأنِّقة. كان اسمها الآنسة پريسكِلّا لانتْري. وقد تخلَّت عن الزواج من شابٍّ وسيم لأنَّ أباها كان مريضًا ومحتاجًا إلى رعايتها له. واعتنت بالعجوز البخيل خمس عشرة سنة حتّى مات. ولم يكن قد برد في قبره بعد لمَّا رمتني أُمّي الحنون عند عتبة بيتها، مع بطاقةٍ مكتوبٍ عليها: "هذه «بُونّي» ومُذيَّلة بتوقيع «شارون»". ثمَّ ضحكت.

"لم ترُق خالتي پِرس فكرةُ تربية طفلة، ولا سيَّما منبوذة من أُختِها الرديئة. وحَسِبها الجيران جميعًا قدِّيسة لأنَّها استقبلتني". ثمَّ صبَّت كأس وِسكي أُخرى، وأردفت: "وقالت إنَّها ستحرص على أن أتربَّى تربيةً صالحة وألَّا أصير مثل أُمّي. وإنْ لم تنهَل عليَّ بالعصا مرَّتين في اليوم، ما كانت تشعر بأنَّها تؤدِّي واجبها. وكم قالت: «وفِّرِ العصا تُفسِدِ الولد»!"

خبطت لاكي القِنّينة على الطاولة الجانبيَّة، ورفعت شعرها الأسود عن وجهها المتورِّد. "كانت تشرب، لا كما أشربُ أنا. فإنَّها كانت تفعل كلَّ شيء باعتدال، فاعتادت أن ترشف رشفًا، لا الوِسكي كما أتذكَّر، بلِ الماديرا، الماديرا الفاخرة. كانت تبدأ صباحًا، رشفةً هنا ورشفةً هناك. وقد بدا الشراب كالذهب المُذاب في كأسها البلَّوريّة المزخرفة. وكانت تُبدي اللُّطف والترحاب حين يأتي الجيران زائرين". ثمَّ قهقهت وأردفت: "كانوا يحسبون أنَّ لديها لُثغةً محبَّبة جدًّا".

تنهَّدت ولوَّحتِ السائل الكهرمانيَّ في كأسها. "هي أحطُّ امرأةٍ عرفتُها يومًا. أحطُّ من الدوقة. فحالما يغادر الجيران في عرباتهم الفاخرة، تنهال عليَّ مُعنِّفةً". وهنا كانت تُقلِّد لُكنةً جنوبيَّة متأنِّقة. "لم تنحني باحترامٍ عند دخول الستّ أبِرناثي. أخذتِ عن

الصينيَّة قطعتي بسكويت فيما قلتُ لك أن تأخذي واحدةً فقط. قال ناظر المدرسة إنّكِ لم تُنجِزي فرض الحساب أمس".

شربت لاكي نصف كأسها. "وعندئذٍ تجعلني أجلس منتظرةً حتّى تعثر على القضيب المناسب، لتقطعَه من شجرة الصفصاف. وكان ينبغي أن يكون بثخانة سبّابتها".

قرّبت كأسَها من ضوء المصباح، ونظرت من خلالها قبل أن تُفرِغَها. "تناولت الشاي عصرَ ذات يوم عند زوجة القسّيس. وكانتا تنويان مناقشة أمر تسجيلي في معهد للشابّات. وبينما هي غائبة، قطعتُ الشجرة بالفأس، فهوَت على السطح ودمَّرت السقف، وسقطت في وسط صالونها الفخم تمامًا، وحطَّمت كلَّ أواني البلّور الفاخرة لديها. فما كان منّي إلّا أن هربتُ قبل رجوعها".

وضحكت ضحكةً خفيفة. "أتمنّى أحيانًا لو أنّي بقيتُ وقتًا كافيًا حتّى أرى ملامح وجهها عند عودتها". ثمّ رفعتِ الكأس الفارغة وحدّقت إليها. "وأتمنّى أحيانًا لو استطعتُ الرجوع لإبداء أسفي". ثمّ أخذت قِنّينتَها ووقفت، وعيناها جامدتان كأنّهما من زجاج. "خيرٌ لي أن أمضيَ الآن وأنام نوم الحُسن قبل أن ينتصف الليل".

ولكنَّ آنجل أمسكت بيدها قائلةً: "لاكي، حاولي ألّا تشربي بهذه الكثرة. لقد تحدَّثتِ الدوقة عن طردك إن كنتِ لا تُخفِّفين من إسرافك في الشُّرب".

فقالت لاكي مبتسمةً بفتور: "لا تقلقي عليَّ، يا آنجِل. آخِر ما سمعتُه أنّه ما تزال هنا امرأةٌ واحدة مقابل عشرين رجُلٍ هناك خارجًا. فكفَّة الظروف راجحة لمصلحتي. انتبهي أنتِ لنفسك. إنَّ مَغوان يكرهكِ".

"مَغوان قطعة تافهة من رَوث الخيل".

"صحيح، ولكنَّ الدوقة تعتبره ذا قيمة، وهو ما انفكَّ يقول لها إنّك كسلانة ووقحة. فخُذي حذرك منه. رجاءً!"

لم يهمَّ ذلك آنجل. وأيُّ فرقٍ في الأمر؟ سيظلُّ الرجال يأتون ويدفعون ليستمتعوا، إلى أن تأتي النساء المحترمات. عندئذٍ يعاملونها كما عوملت ماما. سيتظاهرون بأنّهم لا يعرفونها، عند مرورهم بها في الشارع. وستُحوِّل النساء الصالحاتُ وجوههنَّ بعيدًا عنها فيما الأولاد يُحدِّقون إليها ببَلَه سائلين مَن تكون، فتُكمُّ أفواههم ليسكتوا. وسيظلُّ لديها شغل، بعد حلول الليل طبعًا، إلى أن تفقد جمالها أو يحول مرضُها الشديد دون إعجاب الرجال بها.

يا ليتها تستطيع أن تكون كواحدٍ من سكّان الجبال الذين يخرجون إلى البراري ويُقيمون فيها، حيث يصطادون ما يأكلونه، ويبنون مأويَهم الخاصّة، ولا يُضطرّون البتّة أن يجاوبوا أيّة نفسٍ بشريّة أُخرى عن أيّ شيء. فقط حبّذا لو تعيش في البرّيّة وحدها، فلا بدّ أن يكون ذلك نعيمًا لها.

نهضت وسارت إلى المغسلة. ثمّ صبّت ماءً في الإناء، وغسلت وجهها. إلّا أنّ برودة الماء لم تُفرِجها قطّ. فأبقت المنشفة على عينيها طويلًا. ثمّ جلست إلى الطاولة الصغيرة قرب النافذة، ونظرت إلى الخارج عبر الستارة، فرأت عربةً فارغة ذات أربع عجلات في الشارع تحتُ، وفكّرت بهوشع. لماذا عليها أن تفكّر فيه الآن؟

ماذا لو ذهبتُ معه؟ هل كانت الأمور تغيّرت على نحوٍ ما؟

ذكّرت نفسها بتلك المرّة الوحيدة التي فيها هربت مع رجل. ففي سنّ الرابعة عشرة، كانت ما تزال قليلة الخبرة جدًّا لتدرك طموحات جوني. كان هو يبحث عن بطاقة وجبات، وقد أرادت هي أن تهرب من دُوك. وكما آل إليه أمرهُما، لم يحصلا كِلاهما على ما طلبا. ثمّ أغمضت عينها بإحكام إذ لاح لها هولُ ما فعله دُوك لمّا أُرجعا إليه. مسكينٌ جوني!

كان لا بأس بحياتها قبل قدوم ذلك الفلّاح. وكانَ مثل جوني تمامًا. مدَّ إليها يده حاملًا طُعم الأمل. رسم لها صُوَر الحُرّيّة، ووعدها بها. حقًّا إنّها قد كفّت عن تصديق الأكاذيب، وقد كفّت عن الإيمان بالحرّيّة... كفّت عن أن تحلم بها، إلى أن جاء هُوشَع. وها هي الآن لا تستطيع إخراجها من فكرها.

تشبّثت بستارة النافذة. "عليّ أن أخرج من هنا". ولم يَعنِها إلى أين حقًّا. فأيّ شيء آخر كان أفضل.

كانت قد كسبت آنذاك من الذهب ما يكفي لبناء بيتٍ صغير خاصّ بها وللتوقّف عنِ الشُغل حينًا. وكلُّ ما احتاجت إليه كان الجرأة للنزول ومطالبة الدوقة به. إنّها تدرك المخاطرة، ولكنْ لم يبدُ أنّها تهمُّها بعد.

وجدت بِت، ساقيَ الحانة، يُلمّع الكؤوس الصغيرة ويرصفها، لدى نزولها الدرج. "صباح الخير، آنسة آنجل. أتُريدين أن تمضي في نزهتكِ المعتادة؟ أتُريدين منّي أن أبحث لكِ عنِ ابْرَت لأجل ذلك؟"

ترنّحت شجاعتها. "لا".

"أجائعةٌ أنت؟ لقد أعدَّ هنري لتوّه شيئًا للدوقة".

لعلَّ الطعام يُوقِف الغثيان. أومأت برأسها، فترك الكؤوس، وخرج من الباب في طرف الحانة. وما إن عاد حتَّى قال: "سيأتيكِ هنري بشيء في ظرفِ دقيقة، آنِسة آنجِل".

أحضر الفرنسيُّ الأسمر القصير صينيَّة، وكشف صحن بطاطا مقليَّة وبعض قديد اللحم المطهوّ. وكانت القهوة فاترة. فقدَّم اعتذاره وقال إنَّ المؤَن قليلة. غير أنَّ آنجل لم تستطع أن تأكل على كلِّ حال. حاولت، ولكنَّ الطعام علق في حنجرتها. فاستعاضت بارتشاف القهوة، وحاولت تبديد خوفها، غير أنَّه لبث داخل صدرها كعقدةٍ مُحكَمة.

لاحظها بِت. "هل مِن خطبٍ يا آنجل؟"

"لا، ليس من خَطب". يحسن بها إنهاء الأمر. وهكذا دفعت صحنها بعيدًا ونهضت.

كان مركز الدوقة في الطابق الأوَّل خلف صالة القمار. وقفت آنجل أمام باب السنديان الثقيل، ويداها تتعرَّقان. مسحت يديها على تنُّورتها، وسحبت نَفَسًا عميقًا، ثمَّ قرعت.

"مَن بالباب؟"

"آنجِل".

"ادخُلي".

كانت الدوقة تمسح فمها برفق، ورأت آنجِل ما بقي في صحنها الفاخر من عجَّة بيض بالجبن. كان سعر البيضة دولارين، ومن الصعب الإتيان بالجبن بأيِّ سعر. حتَّى إنَّ آنجل لم تتذكَّر آخِر مرَّة أكلت فيها بيضة. أُفٍّ من تلك البقرة المخادعة! لقد تضاءل خوفُها إذ تفاقم استياؤها.

ابتسمت الدوقة. "لماذا لستِ نائمة؟ إنَّ منظركِ مخيف. أأنتِ منزعجة من شيء ما؟"

"ما برحتِ تُثقلين كاهلي بالشُّغل".

"هُراء. إنَّما عاد يُسيطر عليكِ سوءُ المزاج". ومسَّدتِ الحرير الأحمر المُتماوِج في ثوب استراحتها. إلَّا أنَّ ذلك ما كان ليُخفيَ ولو قليلًا لفائف اللحم المتجمِّع حول خصرها. كان خدَّاها منفوخَين، ويكاد يبرز تحت ذقنها ذقنٌ آخر، وقد رفعت شعرها الشائب إلى فوق بشريط قرنفليّ. لقد كانت بدينة.

"اقعدي، يا حبيبتي. يمكنني أن أرى فكرك مُثقلًا بأمرٍ مزعج. قال لي ابْرَت إنَّكِ لم تنزلي لتناول الفَطور. أتُريدين أكل شيء الآن". ومدَّت بشهامةٍ يدًا متراخية نحو

سلّةٍ من الفطائر المحلاة.

"أُريد ما لي عندك من ذهب".

لم تبدُ على الدوقة أدنى مفاجأة. بل ضحكت وانحنت لتسكب لنفسها مزيدًا من القهوة. ثمَّ أضافت شيئًا من القشدة. وتساءلت آنجل من أين جاءت بالقشدة وكم ثمنُها، فيما رفعت الدوقة الفُنجان الفاخر ورشفت منه وهي تتفحَّصها من فوق حافته، قبل أن تسألها: "لماذا تُريدينه؟" كما مِن باب الفُضول فحسب.

"لأنّه لي".

رمقتها الدوقة بنظرة تسامُح أُموميٍّ رقيقةٍ باسمةً. "اسكبي لك قليلًا من القهوة، ولنتحدَّث بالأمر".

"لا أُريد أيَّ قهوة، ولا أُريد التحدُّث بالأمر. أريد ذهبي، وأُريده الآن".

أمالت الدوقة رأسها قليلًا. "لك أن تطلبي علاوةً بسيطة بمزيدٍ من التهذيب. أكان لديكِ البارحة زبونٌ مزعج؟" ولمَّا لم تُجِبها آنجل، زمَّت عينيها، وردَّت الفنجان إلى صحنه. "لماذا تُريدين ذهبكِ، يا آنجل؟ ماذا يمكنك أن تشتري هُنا؟ مزيدًا من الملابس والحلى الرخيصة المبهرجة؟" كان تعبير وجهها مُنبَسِطًا وباسمًا من جديد، ولكنَّ عينيها أرسلتا إنذارًا. "قولي لي ما تريدين، وسأُعنى بأن تحوزيه. إلَّا إذا كان شيئًا غير واردٍ وممكن أصلًا بالطَّبع".

كالبيض والقشدة. كالحريَّة. قالت آنجل: "أُريد بيتًا صغيرًا خاصًّا بي".

تغيَّرت ملامح وجه الدوقة، واكفهرَّت. "حتَّى يتسنَّى لكِ عندئذٍ أن تشتغلي على حسابك؟ هل لعب الطموح برأسك، يا عزيزتي؟"

"لَن أُنافِسَكِ أبدًا. أؤكِّد لك هذا. سأكون على بُعد مئة ميلٍ من هنا. إنَّما أُريد الاختلاء. أُريد أن أكون وحدي".

تنهَّدت الدوقة ورمقتها بنظرة إشفاق: "آنجل، نحنُ جميعًا نمرُّ في مثل هذه النَّزوات السخيفة. صدِّقيني، لا يمكنُكِ الإقلاع عمّا تعملين. لقد فات الأوان". ثمَّ مالت إلى الأمام وحطَّت فنجانها وصحنها ثانيةً.

"إنَّني أعتني بكِ جيِّدًا، أليس كذلك؟ إن كان لديك شكاوى معقولة، أُصغي إليك طبعًا. ولكنْ لا يسعُني أن أدعَكِ تمشين مبتعدةً من هنا هكذا. هذا ريفٌ بَرِّيّ لا ضوابط فيهِ. ولن تكوني بأمانٍ هناك خارجًا وحدَكِ. ما أكثر الأمور الرهيبة التي يمكن أن تحدث لصبيَّةٍ حسناء تعيش وحدها!" ثمَّ برقت عيناها. "تحتاجين إلى شخصٍ يرعاكِ ويحميك".

نقرت آنجِل ذقنها نقرًا خفيفًا. "يمكنني دائمًا أن أستأجر حارسًا شخصيًّا".

إذ ذاك ضحكت الدوقة ضحكةً خافتة. "شخصًا مثل ابْرَت؟ لا أعتقد أنَّكِ تحبِّينه كما أُحبُّه أنا".

"يُحتمَل أن أتزوَّج".

ضحكت الدوقة. "تتزوَّجين؟ أنتِ؟ أُوه، ذلك مُسَلٍّ!"

"لقد طُلِبت يدي".

"أُوه، أنا على يقين بأنَّكِ قد طُلِبتِ. حتَّى صديقتُك الضئيلة السكِّيرة لاكي طُلِبت يدُها. ولكنَّها ذكيَّة كفايةً حتَّى تعرف أنَّ الأمر لن ينجح أبدًا. ليس من رجُل يريد مومسًا زوجةً له. فالرجال يقولون مختلف الأمور الخرقاء حين يكونون شاعرين بالوحدة ومتلهِّفين لامرأةٍ وليس في متناولهم أيَّةُ امرأةٍ أُخرى. آه، إلَّا أنَّهم يعودون إلى رشدهم بسرعة غير قليلة. ثمَّ إنَّ الزواج لن يَروقَكِ".

"على الأقلّ أكون مشتغلةً عند رجُل واحد".

تبسَّمت الدوقة. "كيف سيروقكِ أن تغسلي ثياب الرجل الداخليَّة الوسخة، وتطبخي له طعامه، وتُنظِّفي نونيَّة مهجعه؟ كيف سيروقك أن تفعلي ذلك كلَّه ثُمَّ يكون عليك أن تعطيه مهما طلب فضلًا عن ذلك؟ كيف سيروقُكِ ذلك؟ أم لعلَّ عندك فكرةً ما بأنَّه سيسمح لكِ بالاستلقاء طوال اليوم فيما خُدَّامُك يتولَّون القيام بجميع الأمور الأُخرى؟ كان يمكن أن تُدبِّري الأمر في مكانٍ غير هذا. إنَّما ليس هنا في كاليفورنيا، ويقينًا ليس الآن. من شأنِ بقائكِ حيثُ أنتِ أن يكون تصرُّفًا أحكم وأكثر ذكاءً".

لم تقُل آنجِل كلمةً واحدة.

تقوَّس فمُ الدوقة. "مصدر المشكلة أنَّكِ تفكِّرين كثيرًا في نفسكِ، يا آنجِل". ثمَّ هزَّت رأسها. "أحيانًا تجعلنَني، أنتُنَّ الصبايا، أحسب أنَّني أتعامل مع فتياتٍ أفسدهنَّ الدلال. حسنًا يا عزيزتي. لنصل إلى بيت القصيد من زيارتكِ هذه، إيه؟ كم تُريدين بعد؟ ثلاثين بالمئة؟"

"ما كسبتُه فحسْب. الآن".

تنهَّدت الدوقة تنهُّدةً ثقيلة. "أنا موافقة، إذا كان لا بدَّ من هذا. ولكنْ ينبغي لكِ أن تنتظري. فأنا وظَّفتُ لكِ مالكِ".

قعدت آنجِل ساكنةً ساكتة، فيما الخيبة والسخط يتراكمان داخلها، ويداها مشبوكتان.

"ألغي توظيفه. أنا أعرف أنَّ في خزانتك الآن ذهبًا كافيًا لتسوية حسابي". ثمَّ أشارت نحو الصحن الكبير. "لديكِ ما يكفي لشراء البيض والجبن والقشدة لنفسك". وقعَّرت راحتيها مشيرةً إلى حجمٍ معيَّن. "كيسٌ بهذا الحجم هو كلُّ ما أتوقعَّه. كان أحد الرجال الذين أرسلتِهم إليَّ البارحة مُحاسِبًا، وقد أجرى لي بعض الحسابات".

حملقتِ الدوقة بها. "عزيزتي، تتكلَّمينَ كغبيَّة ناكرة للجميل". ثمَّ وقفت جريحة الكرامة. "إنَّكِ تنسَين كلَّ ما أقوم به لأجلك. لم تعُد الأسعار كما كانت لمَّا باشرنا هذه المصلحة الصغيرة. لقد ارتفع ثمن كلِّ شيء. إنَّ ثيابكِ تُكلِّف ثروة. فالحرير والمُطرَّز ليسا متوافِرَين في مدينةِ تَعدين، كما تعلمين. بل إنَّ طعامكِ يُكلِّف أكثرَ بَعد. وهذه البناية الجميلة لم تُعمَّر مجّانًا!"

كان الاستياء والمرارة قد بدَّدا منذ وقتٍ غير قصير خوف آنجِل وتفكيرها المنطقيّ. "هلِ اسمي على سند الملكيَّة؟"

هبَّت الدوقة واقفةً: "ماذا قُلتِ؟"

ووقفت آنجِل أيضًا فاقدةً السيطرة: "لقد سمعتِني. هلِ اسمي على سند الملكيَّة؟ عندكِ قشدة لقهوتك، وبيضٌ وجبن لفطورك. وأنتِ تلبسين الساتان والمُخرَّم. بل إنَّكِ أيضًا تشربين بآنية الخزف الصينيّ الفاخر". ثمَّ تناولت فنجانًا وحطَّمته على الحائط. "كم من الرجال خدمتُ حتَّى يُتاح لكِ أن تعلفي نفسكِ كالخنزيرة وترتدي ثيابًا مُبهرَجة كما لو كنتِ تُمثِّلين دور شخصيَّةٍ ملوكيَّة رفيعة المقام؟ دوقةُ مِن أين؟ دوقةُ ماذا؟ ما أنتِ إلَّا عاهرةٌ عجوز بدينة لم يعُد يرغب فيها أيُّ رجُل".

علا الشحوبُ وجه الدوقة من شدَّةِ الغيظ.

وتسارعت دقَّات قلب آنجِل أكثر فأكثر. كانت تكرهها. "ما عُدتِ تطلبين أربع أُونصاتٍ من الذهب لزيارتي. كم ضريبةُ العبور في هذه الأيام؟ ستُّ أونصات؟ ثمانٍ؟ لا بدَّ أنَّني حتَّى الآن قد كسبتُ ما يكفي لأخرج حرة من هذا المكان."

فقالت الدوقة بسرعة: "وإن لم تكوني قد كسبتِ؟"

نترَت آنجل ذقنها إلى فوق. "حسنًا، إنَّ صبيَّةً ذكيَّة تستطيع أن تكسب كثيرًا وحدها".

تمالكت الدوقة نفسها تمامًا. "إنَّ صبيَّةً ذكيَّة ما كانت لتُفكِّر مجرَّد تفكير في مُكالمتي بهذه الطريقة".

سمعت آنجِل الخطر، وتبيَّن لها ما قد فعلت. فتهالكت على المقعد والفزعُ الشديد مُستَولٍ عليها.

تقدَّمت الدوقة إليها ومسَّت شعرها. وقالت بأسىً: "بعدَ كلِّ ما فعلتُه لأجلكِ! إنَّكِ لا تذكرين أسابيعك الأولى في سان فرنسيسكو، أم تذكرين؟" ثمَّ احتَوت ذقن آنجل بأصابعها ورفعت لها وجهها. "لمَّا رأيتُك أوَّلَ مرَّة، كانت ما تزال على جسمكِ كدمات الضرب المُبرِّح. كنتِ تعيشين في كوخٍ قذر وأنتِ تكادين تموتين جوعًا". وأحكمت أصابعها على نحوٍ مؤلم. "انتشلتُكِ من الوحل، وجعلتُ منك شخصيَّةً ذات شأن. فأنتِ أميرةٌ هنا". ثمَّ أَفلتتها.

قالت آنجِل باكتئاب: "أميرةُ ماذا؟"

"يا لكِ من ناكرة للجميل. أعتقد أنَّ ابْرَت على حقٍّ بشأنكِ. لقد أفسدتك المعاملةُ الخاصَّة".

كانت أحشاء آنجِل ترتعد، وقد تبخَّر سخطُها الشديد. فأمسكت بيد الدوقة وضغطت بها على خدِّها البارد. "رجاءً، لا يمكنني أن أحتمل بعدُ أيَّ شيء من هذا. ينبغي أن أخرج من هنا".

مسَّدت الدوقة شعر آنجل قائلةً: "لعلَّكِ تحتاجين إلى شيءٍ من التغيير. فلأُفكِّرْ في ذلك. اصعدي الآن واستريحي. سنتحدَّث لاحقًا".

امتثلت آنجل لِما قالته الدوقة. وقعدت على حافة سريرها تنتظر. ولمَّا دخل مَغوان بغير استئذان، عرفَتِ الجواب. فنهضت وانكفأت مبتعدةً عنه إذ أقفل الباب بهدوء.

"قالتِ الدوقة إنَّكِ قلتِ لها الكثير منذ هُنيهة. حسنًا، يا حمامةً صغيرة، الآنَ دَوري لأُكلِّمَكِ كلمتين. وعندما أنتهي، ستكونين طائعة مثل ماي لِنغ. وسأستمتع بالأمر. فلطالما انتظرتهُ طويلًا، طويلًا جدًّا. ثمَّ إنَّكِ تعرفين، أليس كذلك؟"

نظرت آنجل إلى نافذة الطابق الثاني المُغلقة، ثُمَّ إلى الباب المقفل.

"لن يمكنكِ الإفلاتُ منِّي". وخلع سترته السوداء.

استرجع ذهن آنجِل صورة رجُلٍ طويل أسمر في بدلةِ سهرة سوداء. حضرت تلك الصورة بحتميَّةٍ مفاجئة حتَّى لم يكن من سبيلٍ للفرار منها بالنسبة إليها. ما كان من سبيلٍ لذلك قطُّ، ولن يكون أبدًا. فحيثما توجَّهَت، وكلَّما حاولَت، كان الشَرَك يُطبِق عليها على نحوٍ أسوأ بكثيرٍ من ذي قبل.

"لا تقلقي. لَن أُخلِّف أيَّة كدمات ظاهرة. ثمَّ إنَّك ستشتغلين الليلة، أراقكِ ذلك أم لم يرُق".

غمرها غضبٌ يائس. تذكَّرت في هذه الغرفة كلَّ ما فُعل بها من حين كانت بنتًا

صغيرة في كوخٍ على أرصفة الميناء حتّى الآن. وما كانتِ الحال لتتحسّن ولو قليلًا. فهذا كلُّ ما يمكنها أن تتوقّعه من الحياة. إذ كان العالم مليئًا بأمثال دُوك والدوقة ومَغوان، وبرجالٍ يصطفُّون خارج بابها. فلا بدَّ أن يكون هنالك دائمًا شخصٌ يستعبدها ويستغلُّها، شخصٌ يستفيد من لحمها ودمها.

كان أمامها سبيلٌ واحد للانعتاق.

لعلَّها كانت تعلم دائمًا أنَّ ذلك هو السبيل الوحيد. وقدِ استطاعت أن تُحِسَّه حضورًا حيًّا في الغرفة، قوّةً واقفةً بجانبها، مُظلِمةً تُومئ لها. وباتت أخيرًا على استعدادٍ للإمساك بها. كلماتٌ قليلة جيّدة التصويب فيُنهي مَغوان حياتها. إذ ذاك تتحرَّر أخيرًا، تتحرَّر إلى الأبد.

عبَّس مَغوان حيال الملامح المرتسمة على وجهها. غير أنَّ ذلك لم يهمَّها. فهي لم تعُد خائفة. وقد كانت مُكشِّرةً له باستهزاء. "ما خطبُكَ؟" وتألَّقت عيناها ببريقٍ شديد ووحشيّ، ثمَّ شرعت تضحك.

"علامَ تضحكين؟"

"عليكَ أنت، أيُّها الرجُل الكبير، كلبُ الدوقة الأليف". وضحكت ضحكًا أشدَّ على تعابير الذهول المرتسمة على وجهه. ثمَّ علا ضحكها، وكان غريب الوقْع ومُبهِجًا في أذنيها. كان الأمر كلُّه مُضحِكًا جدًّا، مُضحِكًا على نحوٍ لا يُصدَّق. لماذا لم تُلاحِظ ذلك من قبل؟ لقد كانت حياتُها بكاملها نُكتةً كبيرةً ضخمة. حتَّى عندما انهال عليها مغوان، لم تستطع أن تكفَّ عنِ الضحك على حياتها. لا بعد الضربة الأولى، ولا الثانية. ولا حتَّى الثالثة.

وبعد الضربة الرابعة، كان كلُّ ما سمعَته آنجِل جُؤَار الوحش يهدر في أُذنَيها.

الفصل السادس

أتعهّد بأن أُحِبّكِ وأرعاكِ،
وأن أكون أمينًا لكِ في السرّاء والضرّاء، في الصحّة والمرض،
في الغنى والفقر، وأن أكون مخلصًا لكِ وحدكِ
حتّى يفرّق الموتُ بيننا.

(عهد الزواج)

لم يستطع مايكل صرف ذهنه عن آنجِل. حاول التركيز على عمله، فألفى نفسه مفكّرًا فيها بالأحرى. لماذا تظلُّ تنهشه؟ لماذا لديه هذا الشعور الداخليّ بأنَّ ثمّة خطبًا ما؟ كان يشتغل كلَّ يوم إلى ما بعد هبوط الظلام، ثمَّ يجلس قبالة الموقد، تُعذّبه أفكارُه المنشغلة بها. رأى وجهها في اللهيب، يُومئ له... إلى جهنّم بعينها دون شكّ. أم كان يتذوّق بُلغةً من تلك فعلًا؟

تذكّر الجوّ المأساويّ المحيط بها إذ عبرت أمامه في ذلك اليوم الأوّل. ثمّ ذكّر نفسه كم كانت قاسية القلب. وتعهّد ألّا يرجع إليها، ثمّ كرّر ذلك كلَّ ليلةٍ عند رقاده، إلّا أنَّ آنجِل انتابت أحلامه. لم يستطع الإفلات منها. كانت ترقص أمامه كما رقصت سالومي أمام الملك هيرودُس. فكان يمدُّ يده إليها، فترتدُّ إلى الوراء، مُعذّبةً إيّاه. أنت تريدني، أليس كذلك يا مايكل؟ إذًا عُد إليّ، عُد!

بعد بضعة أيّام، تحوّلت أحلامه كوابيس. كانت تهرب من شيءٍ ما، فيركض وراءها مناديًا إيّاها كي تقف، ولكنّها تظلُّ تركض حتّى تصل إلى جُرفٍ عالٍ. وعندئذٍ تلتفت فتنظر إليه والريح تُثير شعرها الذهبيّ حول وجهها الشاحب.

مارة، مهلًا!

ثمّ تدير وجهها عنه وتفتح ذراعيها وتهوي.

"لا!" استيقظ مايكل مُجفلًا وجسمُه يتصبّب عرقًا، وصدره يجيش، وقلبه يخفق بشدّة حتّى يرتعد جسمُه كلُّه معه. فمرّر في شعره يدَين مرتجفتين هامسًا في قلب الظلام: "يسوع، ربّي يسوع، أنقِذني من هذا". تُرى، لماذا انتابته هكذا؟

نهض وفتح الباب، واتّكأ على إطاره متثاقلًا. ها هي تُمطِر من جديد. أغمض عينيه واهنًا. لم يُصلِّ منذ أيّام. قال بصوتٍ عالٍ: " أكون غبيًّا إذا رجعتُ، غبيًّا". ونظر خارجًا إلى السماء المظلمة الباكية ثانيةً. "إلّا أنَّ ذلك هو ما تريده، يا ربّ، أليس هكذا؟ ولن تُعطيَني أيَّ سلامٍ حتّى أرجع".

تنهّد بثقل، وفرك قفا رقبته. "لا أرى أيَّ خيرٍ سيطلع من هذا، ولكنّني سأرجع، يا ربّ. لا يروقني الأمر كثيرًا، ولكنّني سأفعل ما تريد". ولمّا عاد إلى السرير أخيرًا، نام نومًا عميقًا بغير أن يحلم أوّلَ مرّة في غضون أيّام.

كانت السماء صافية في الصباح. حمّل مايكل العربة وشدَّ إليها الحصانين.

عندما دخل بالعربة بيرأدايس في عصر ذلك النهار، رفع نظره إلى نافذة آنجل. كانتِ الستارة مُسدَلة. فاهتزَّت عضلةٌ في حنكه، واستحكم ببطنه وجع شديد. على الأرجح أنّها كانت تشتغل.

يا ربّ، قلتَ لي أن أعمل بمشيئتك، وها أنا أُحاوِل جاهدًا. أينبغي أن يؤلمني الأمر إلى هذا الحدّ؟ أنا أحتاج إلى امرأة، وقدِ انتظرتُ خِيارك. فلماذا أعطيتني هذه؟ لماذا أنا هنا من جديد في هذا المُخيَّم، ناظرًا إلى نافذتها وقلبي مفطور؟ إنّها لا تريد أن يكون لي معها أيُّ شأن.

ثمَّ توجّه حانيَ الكتفين على طول شارع ماين ليهتمَّ بأمر عمله في المركز التجاريّ. كان بحاجة إلى الذهب كي يصعد إلى الطبقة العلويّة في القصر. ولمّا توقّف أمام مخزن هُكشايلد، ترجّل من عربته قافزًا وصعد الدرج بخُطىً واسعة. فوجد بطاقة مُلصَقة على الواجهة. مُقفل. غير أنّه قرع قرعًا شديدًا. ومن الداخل زعق هُكشايلد بسلسلة شتائم من شأنها أن تصعق بحّارًا مُسرَّحًا. ولكنْ لمّا فتح الباب على وسعه، تلاشى غضبه.

"مايكل! أين كنت؟ لقد نَفِد كلُّ ما عندي منذ أسابيع ولم أرَ وجهك". ثمَّ خرج جوزف ليُلقي نظرة على العربة، وهو غيرُ حليق الوجه ونصفُ سكران، وذيلُ قميصه مُدلًّى. "شحنة كاملة! حمدًا للسماء. لا يهمُّني إن كانت مهترئة ومُسوَّسة. سأشتري منك كلَّ ما لديك".

قال مايكل مبتسمًا ابتسامةً خفيفة: "أنت من الرجال الذين يروقني التعامُل معهم". ثمَّ كدَّس الصناديق وحملها إلى الداخل اثنين اثنين. "هيئتُك رهيبة. أكنتَ مريضًا؟"

ضحك جوزف. "إفراطٌ في الشُّرب. أأنت مستعجل أو شيءٌ من هذا القبيل؟ هل يمكنك أن تتريَّث قليلًا لنتحدَّث؟"

"ليس هذه المرَّة".

"أتنوي أن تُنفِق كلَّ ما أُعطيك في القصر من جديد؟ هذه إحدى بلايا الرجُل، أليس كذلك؟ الحاجةُ إلى امرأة".

تصلَّب حنك مايكل. "كيف توصَّلتَ إلى معرفة هذا المقدار عن شؤوني الشخصيَّة؟"

"لم يصعب عليَّ ذلك حين كنتَ ما تزال في المدينة بعد أربعة أيّام آخِر مرَّة".

وألقى هُكشايلد نظرةً واحدة على مايكل، وصفر صفرةً صامتة، ثمَّ غيَّر الموضوع. "حصلت ضربة موفَّقة على بُعد نحو ثلاثة أميال أعلى النهر". وفصَّل قليلًا ثمَّ أضاف: "باستخراج غبار الذهب ذلك كلِّه، يُمكنني رفع أسعاري".

خبط مايكل آخِر صندوق على النُّضُد خبطًا. ربَّما ارتفع سعر آنجل أيضًا!

دفع هُكشايلد إليه حقَّه. وحكَّ خدَّه الأشيب. كان من عادة مايكل أن يُبدي المودَّة، ولكنَّه اليوم بدا كئيبًا تمامًا. "أحصلتَ على ماشيَتِك؟"

"لا، حتّى الآن". لقد أنفق كلَّ ذهبه المكسوب بعرَق الجبين على مقابلة آنجِل آخِر سَفرة.

أفرغ مايكل ماله في حِزامه. ثمَّ طرقت أُذنيه كلمات جوزف قائلًا:

"سرت شائعة بأنَّ آنجل انقطعت عن الشغل منذ مدَّة".

كان ذِكر اسمها كافيًا. شعر مايكل كما لو كان قد تلقَّى لكمةً على صدره. "هل حظيَت بفترة راحة؟"

ارتفع حاجبا جوزف. لم يكن ذلك التعليق ممّا يسرُّ مايكل. فلا بدَّ أنَّه سقط سقطةً قويَّة وتأذّى أذىً شديدًا. ومن ثمَّ قال عابسًا، هازًّا رأسه: "انسَ أنّي ذكرتُها".

لحق بمايكل إلى الخارج وراقبه وهو يقفز صاعدًا إلى عربته. "جاء إلى المدينة واعظٌ يوم الأربعاء الماضي. إذا كان في فكرك أن تسمعه، فهو يعظ أمام حانة شذرة الذهب".

كان مايكل يفكِّر في آنجِل، إذ أمسك بالزمام قائلًا: "أراك في غضون أُسبوعين".

"عليك إراحة هذين الحصانين قليلًا. يبدو أنَّك أجهدتهما جدًّا في صعودك إلى هنا".

"أنا متوجِّه إلى إسطبل الإيواء الآن". ومسَّ قبَّعته مودِّعًا، ثمَّ ساق عربته نازلًا شارع ماين. لا بدَّ من رشوة وحديث سريع لمقابلة آنجل الليلة. وإذ ترك حصانَي الجرّ والعربة عند مكفرسُن، هبط إلى مركز المدينة ليستأجر له غرفةً في الفندق المقابل للقصر.

أراد مايكل، أوَّل مرَّة في حياته، أن يسكر سكرةً صاخبة. إلَّا أنَّه بدلًا من ذلك انطلق يتمشَّى مسافةً طويلة. كان يحتاج إلى وقت كي يضع مشاعره تحت السيطرة

ويفكِّر مليًّا في ما ينوي أن يقوله لها.

عاد عند الغَسَق، وفكرُه ليس أكثر ارتياحًا. كان جمهور من الناس مجتمعين خارج حانة شذرة الذهب يصغون إلى الواعظ الجديد مناديًا بأنَّ تلك هي أزمنة الآخرة الموصوفة في سِفر الرؤيا. فوقف مايكل في الصفِّ الأخير من الحشد، يُصغي إلى الواعظ. ورفع نظره مرَّةً نحو نافذة أنجل، فإذا بشخصٍ ينكفئ ويتوارى في الظلال.

ينبغي له أن يمضي الآن ويُجري ترتيباتٍ مع الدوقة. تسارعت دقّات قلبه، وتصبَّب منه العرَق، لمجرَّد التفكير في ذلك. سينتظر قليلًا بعد.

مسَّ أحدهم ظهره، فالتفت ورأى امرأةً كبيرة السنّ تنظر إليه بعينين مُحمرَّتين. كان شعرها أسود وجَعْدًا، وهي تلبس فستانًا أخضر مبهرجًا مُقوَّر الذراعين والصدر.

قالت: "أنا لاكي، صديقة آنجل". كانت سكرانةً تتلعثم بكلامها. "لقد شاهدتك من جانب الشارع المقابل". وأومأت برأسها نحو القصر. "أنت هوَ الرجُل، أليس هكذا؟ الرجُل الذي ألحَّ على آنجل بطلب المُضيّ معه؟"

اضطرم فيه الغضب كنارٍ في هشيم. "وماذا قالت لكِ أيضًا؟"

"لا تسخط، يا سيِّدي. بلِ اذهب واطلب ذلك منها من جديد".

"هل قالت لكِ أن تنزلي إلى هنا؟" أكانت هي هناك فوقُ ضاحكةً عليه خلف الستارة؟

هزَّت رأسها بحدَّة. "لا! آنجِل لا تطلب شيئًا أبدًا". واغرورقت عينا المرأة، فمسحت أنفها بوشاحها. "حتّى إنّها لا تعرف أنَّني هنا أُكلِّمك".

"طيِّب، شكرًا يا لاكي. ولكنْ آخِر مرَّة رأيتُها، لم تُطِق صبرًا حتَّى خرجتُ من بابها. وكان واضحًا تمامًا أنَّها تتمنَّى ألَّا أرجع أبدًا".

رفعت لاكي نظرها إليه: "أخرِجها من هناك، يا سيِّدي. حتَّى لو لم يعُد الأمر يهمُّك، حتَّى لو كانت هي لا تريد. إنَّما أخرِجها من هناك!"

تنبَّه مايكل فجأةً إلى خطرٍ ما، فأمسك بذراعها إذ دارت لتمضي: "ما حالُها يا لاكي؟ ماذا تحاولين أن تقولي لي؟"

مسحت لاكي أنفها ثانيةً. "لا أستطيع مواصلة الكلام. عليَّ أن أرجع قبل أن تفتقدني الدوقة". ثمَّ عبرت الشارع، ولكنْ بدلًا من ولوج المدخل الأماميّ، تسلَّلت إلى المدخل الخلفيّ.

رفع مايكل عينيه إلى نافذة آنجل. كان ثمَّة خَطبٌ ما. خطبٌ شديد. فعبر الشارع بخُطيً واسعة، ومرَّ من الباب المتحرِّك. كان المكان شبه خالٍ، ما عدا رجُلَين يلعبان الورق

ويشربان. ولم يكن الحارس عند أسفل الدرج ليمنعه أن يصعد. وكان الرواق مظلمًا وهادئًا. هادئًا جدًّا. ثمَّ خرج رجل من غرفة آنجل، تصحبه الدوقة. وهي رأت مايكل أوّلًا.

"ماذا تفعل هنا فوق؟ غير مسموح لأحد بأن يصعد إلى هنا قبل ترتيب الأمر معي!"

"أُريد أن أرى آنجل".

"إنّها لا تشتغل اليوم".

نظر إلى الحقيبة السوداء في يد الرجُل. "ما خطبُها؟"

أجابت الدوقة بحدَّة: "لا شيء. إنَّ آنجل آخِذةٌ عطلة بضعة أيَّام كي تستريح. فاخرجْ من هنا الآن". وحاولت اعتراض طريق مايكل، إلَّا أنَّه أزاحها ودخل الغرفة.

تشبَّثت الدوقة بذراعه. "ابتعدْ من هنا! دكتور، أوقِفْه!"

رمقها الطبيب بحملقةٍ باردة: "لا، يا ستّ، لن أُوقِفَه".

وصل مايكل إلى السرير ورآها: "آه، لُطفَك يا ربّ..."

قال الطبيب بهدوء من خلف مايكل: "مَغوان فعل ذلك".

فقالت الدوقة منكمشةً خوفًا من هيئة وجه مايكل: "لم تكن الغلطة غلطتي! لم تكن!"

قال الطبيب: "هي على حقّ. لو لم تدخُلِ الدوقة عندما دخلَت، لكان قتلها على الأرجح".

وقالت الدوقة: "والآن، هلَّا تخرج من هنا وتدعها وشأنها!"

أجاب مايكل: "سأمضي، هذا صحيح. إنَّما سآخذها معي".

استيقظت آنجل استجابةً لِلَمسةِ أحدهم. وباتتِ الدوقة صاخبةً من جديد. أرادت آنجل البقاء في قلب الظُّلمة. لم تُرِد أن تشعر بأيِّ شيء بعدُ البتَّة. ولكنَّ شخصًا ما كان هناك، قريبًا منها جدًّا بحيث استطاعت أن تُحِسَّ دفءَ نفَسه. وقال لها الصوتُ اللطيف: "سآخُذكِ معي إلى البيت".

فقالت الدوقة: "تُريد أن تأخذها إلى بيتك، حسنًا سأُعطيها دِثارًا بلا مقابل. ولكنْ ينبغي أن تدفع أوّلًا".

وسُمِع صوت رجُلٍ آخر: "يا امرأة، أليس لديك لياقة؟ ستكون الصبيَّة سعيدة الحظِّ إذا عاشت..."

"أوه، ستعيش. ثمَّ لا تنظر إليَّ باستعلاء! أنا أعرف آنجل. ستعيش. ولا يمكنه أن يأخذها بلا مقابل. ويمكنني أن أقول لك شيئًا آخر. هي جلبت هذا على نفسها. هذه الساحرة الصغيرة علمَت تمامًا ما كانت تفعله. لقد دفعَتِ ابْرَت من على الحافة. لم تجلب عليَّ سوى المتاعب من يومَ انتشلتُها من الوحول في سان فرنسيسكو".

"لكِ أن تأخُذي ذهبَكِ"، قالها الصوت الذي سحبها من الظلام. ولكنَّه كان الآن شديدًا، متَّسمًا بالغضب. هل تصرَّفَتْ تصرُّفًا خطأً من جديد؟ "ولكنِ اخرجي من هنا قبل أن أفعل شيئًا أندم عليه".

انسفق الباب. وتفجَّر الألم في رأس آنجل، فأخذت تئنّ. واستطاعت أن تسمع رجُلين يتكلمّان. ثمَّ خاطبها أحدُهما. "أُريد أن أتزوَّج بكِ قبل أن نمضيَ من هنا معًا".

يتزوَّج بها؟ أطلقت ضحكةً يُداخِلها الأنين.

أمسك شخصٌ بيدها. ظنَّت أوَّلَ وهلة أنَّها يد لاكي، ولكنَّ يد لاكي ناعمة وصغيرة. أمَّا هذه اليد فكانت كبيرة وقاسية، خشنة الجلد ذات جَواسِئ. "هلَّا تقولين نعم!"

كانت تقبل أن تتزوَّج من الشيطان بعينه إذا كان من شأن ذلك أن يُخرِجها من القصر. فتأتَّى لها أن تقول: "لِمَ لا؟"

جرفها بحرٌ من الألم والأصوات الهادئة التي كانتِ الغرفة تعجُّ بها. كان هنالك، عدا لاكي، الطبيب والرجل الآخر الذي كان صوته مألوفًا لديها، إلَّا أنَّها كانت ما تزال غيرَ مدركةٍ لِمَن هو. وأحسَّت أنَّ أحدهم دسَّ خاتمًا في إصبعها. ثُمَّ رُفع رأسها برفق وأُعطيت شيئًا مُرًّا لتشربه.

أمسكت لاكي بيدها. "إنَّهم يُجهِّزون عربته بغطاء حتَّى يتيسَّر له أن يأخذكِ معه إلى بيته. ستنامين طول الطريق بفضل المُنوِّم الذي شربتِه. لن تشعري بشيء". وأحسَّت لمسة لاكي على شعرها. "أنتِ سيدة متزوِّجة شرعيًا الآن، يا آنجل. كان له خاتم زواج في سلسلة حول رقبته، قال إنَّه كان لأُمِّه، أُمِّه يا آنجل. لقد وضع في إصبعك خاتم الزواج الذي كان لأُمِّه. أيمكنكِ أن تسمعيني يا عزيزتي؟"

أرادت آنجل أن تسأل بمن تزوَّجت، ولكن ما همَّ؟ أخذ الألم يسكن تدريجيًا، وكانت هي مُتعَبة جدًّا. عسى أن تموت أخيرًا، فينتهيَ كلُّ شيء عندئذٍ.

سمعَت رنين قِنّينة على كأس. كانت لاكي قد عادت تشرب. وقد استطاعت آنجِل أن تسمعها باكيةً. فضغطت آنجل يدَ لاكي بوهن. وكبست لاكي على يد آنجل ردًّا وهي تنشج برقَّة، فيما قالت وهي تمسِّد لها شعرها: "آنجل، ماذا قُلتِ حتَّى فعل ابْرَت

هذا بكِ؟ هل أردتِ منه أن يقتلكِ؟ أتكونُ الحياة حقًّا بهذا السوء؟" ثمَّ واصلت تمسيد شعرها، مُضيفةً: "تماسكي وتمالكي، يا آنجل. لا تستسلمي!"

دخلت آنجل ثانيةً قلب الظلْمة المريحة، فيما مضت لاكي تقول على نحوٍ مُتفكّك: "سأفتقدُكِ، يا آنجِل. عندما تُقيمين هناك خارجًا في كوخكِ الريفيّ، والورودُ مُعترِشةٌ حوالَيكِ، فكّري فيَّ بين حينٍ وآخر، إه؟ اذكري صديقتكِ القديمة... لاكي".

الفصل

السابع

إنّني أموت عطشًا
بقرب النّبع.

(شارل دورليان)

استيقظَت آنجل ببطء على رائحة طهوٍ طيّب. حاولت أن تجلس، ثمّ تأوهّت وأنّت من الألم. وسمعت صوتَ رجُل يقول: "على مهل"، كما أحسّت ذراعًا قويّةً تندسُّ تحت كتفيها وترفعها برفق. وشعرت بشيء يُوضع وراءها لإسناد كتفيّها ورأسها. "ستزول الدوخة".

كانت عيناها متورّمتَين حتّى كادتا تنطبقان. وبالكادِ استطاعت تَبيُّن هيئة رجُل لابسٍ بنطلونًا قطنيًّا خشنًا وحذاءً عالي الساق وقميصًا أحمر. كان مُنحنيًا فوق الموقد، يُحرِّك ما في قدرٍ حديديّة كبيرة.

كان ضوء الصباح يتدفّق داخلًا من نافذةٍ قُدّامها. فآذى النور عينيها. كانت في حُجرةٍ ليست أكبر بكثير من غرفتها في القصر. وكانت أرضيّة الكوخ من الألواح الخشبيّة، والموقد من الحجارة المتعدّدة الألوان. وفضلًا عن السرير، استطاعت تبيُّن الأشكال المُشوّشة التالية: طاولة، أربعة رفوف ملأى، كرسيّ من خشب الصفصاف، خزانة ذات جوارير، صندوق أسود كبير وُضِعت عليه بِضع بطّانيّات مطوية.

عاد الرجل وقعد على حافة السرير: "أترغبين في تناول شيءٍ من الطعام، يا مارة؟" مارة!

جمد الدم في عروقها. وعاودتها نُتَف أشياء... ضرب مَغوان، أصواتٌ حوالَيها، شخصٌ يسألها...

خبّط قلبها داخل صدرها. تحسّست أصابعها، فإذا في إحداها خاتم. تفاقم نبْض الألم في رأسها. سبّت في سرّها. من بين جميع الرجال في العالم، أكان ينبغي أن يكون هو دون سواه؟

"هذه يخنةُ قديد الغزلان، لا بدّ أن تكوني جائعة".

فتحت فمها لتقول له أين يضعها، فإذا بالألم يبرق في حنكها ويُخرِسها. نهض هوشع وعاد إلى الموقد. ولمَّا عاد ليقعد ثانيةً، كان في يده صحن عميق القعر وملعقة. عرفت أنَّه ينوي إطعامها. فقالت كلامًا بذيئًا ودنيئًا وحاولت أن تُدير رأسها بعيدًا، ولكنْ حتَّى هذه الحركة البسيطة اقتضت جهدًا مُضنيًا.

قال بجفاف: "يسرُّني أنَّكِ تحسَّنتِ". إلَّا أنَّها أطبقت شفتيها، رافضةً أن تأكل. ولكنَّ معدتها الخائنة جأرت. "أطعمي الذئب في بطنكِ، يا مارة. ومن ثَمَّ يمكنكِ أن تُجرِّبي مقاتلة ذاك الذي تحسبينه عند بابك".

استسلمت. كان الجوع ينهشها. وكان ثريد اللحم والخُضَر الذي أدخله فمَها بالملعقة أطيبَ من أيِّ شيءٍ طهاه هنري يومًا. فتضاءل نبْض الألم في رأسها، فيما كان حنكها يؤلمها ألمًا مبرِّحًا، وقد وُضِعت ذراعها في مِعلاقٍ من قُماش.

قال مايكل: "لقدِ انخلعت كتفكِ، وكُسِرت أربعٌ من أضلاعكِ، وشُعِرت تَرقُوَتكِ، وارتجَّ مُخُّكِ. ولم يتحقّقِ الطبيب من إصابتكِ بأيِّ أذىً داخليّ".

كان رشح العرق يتقطَّر على خدَّيها من جرّاء جهد الجلوس المضني. وتكلَّمت ببطءٍ وتشنُّج. "إذًا حصلتَ عليَّ أخيرًا. ما أسعدَ حظَّك! أهذا هو البيت؟"

"نعم".

"كيف وصلتُ إلى هنا؟"

"في عربتي. ساعدني جوزف على نصب أرجوحة شبكيَّة حتَّى استطعتُ نقلكِ من القصر".

نظرت إلى الخاتم الذهبيِّ البسيط في إصبعها. أطبقت يدها. "كم أبعُد عن پيرأدايس؟"

"عُمرًا بطولِه!"

"بالكيلومترات".

"خمسةً وأربعين. نحن إلى الشمال الغربيِّ من نيوهلڤيشا". وناولها الملعقة من جديد. "حاولي أن تأكلي قليلًا بعد. ينبغي أن تكسبي بعض الوزن".

"أليس على عظامي من اللحم ما يكفي لإرضائك؟"

لم يُجِب مايكل بشيء.

ولم تستطع آنجل أن تجزم بوصول تهكُّمها إليه. ثمَّ خطر في بالها قُبيلَ فوات الأوان أنَّها قد تُغضِبه، وأنَّ ذلك لم يكن الوقت الأنسب لإغضابه. فابتلعت مزيدًا من الحساء، وحاولت ألَّا تُبدي خوفها. ورجع مايكل إلى القِدر، حيث ملأ الصحن من

جديد، وقعد إلى طاولةٍ صغيرة، وشرع يأكل.

"منذ متى أنا هنا؟"

"ثلاثة أيّام".

"ثلاثة أيّام؟"

"كُنتِ مبطوحةً ومحرورة وتهذين معظم هذه الأيام. خفَّت عنك الحرارة عصر أمس. هل يمكنكِ أن تتذكَّري أيَّ شيء؟"

"لا". لم تحاوِل، بل قالت بمرارة: "أعتقد أنَّ من واجبي شُكرَك على إنقاذ حياتي". وظلَّ هو يأكل صامتًا. "إذًا، ماذا سيكون يا سيّد؟"

"ماذا تقصدين؟"

"ماذا تريد منّي؟"

"لا شيء، إلى حين".

"مجرَّد التحدُّث. صحيح؟"

عندئذٍ نظر إليها، فشعرت باضطراب حيال هدوئه. ولمَّا وقف وأقبل نحوها، أخذ قلبها يخفق بشدّة وسرعة. فقال برقَّة: "لن أؤذيَكِ، يا مارة. أنا أُحبُّكِ".

لم تكن تلك أوَّل مرَّة فيها يقول لها رجُل إنَّه يحبُّها. فقالت بجفاف: "لقد أشبعتَ غروري!" ولمَّا لم يزِد على ما قاله شيئًا، كمشت الحِرام بقبضتها. "على فكرة، ليس اسمي مارة، بل هو آنجِل. ينبغي لك أن تحفظ اسمي جيِّدًا إن كنتَ تنوي وضع الخاتم في إصبعي".

"أنتِ قُلتِ إنَّ لي أن أُناديَكِ بأيِّ اسمٍ شئتُ".

كان الرجال قد دعَوها بأسماء أُخرى غير آنجِل، منها ما كان جميلًا، ومنها ما لم يكن جميلًا جدًّا. ولكنَّها لم تُرِد أن يدعوها هذا الرجل بأيِّ اسمٍ عدا آنجل. فتلك هي التي تزوَّج بها: آنجل. وآنجل هي كلُّ ما سيحصل عليه.

قال: "الاسم مارة واردٌ أصلًا في الكتاب المقدَّس. إنَّه مذكور في سفر راعوث".

"ولكونكَ رجلًا يقرأ الكتاب المقدَّس، فأنت تحسب أنَّ آنجل اسمٌ أطهر من أن يصلح لي".

"لا دخلَ للطُّهر في الأمر. فآنجل ليس اسمَكِ الحقيقيّ".

"آنجِل هو مَن أنا".

تصلَّب وجهه. "آنجل كانت بنتَ هوى في پيرأدايس. وهي لم تعُد موجودة".

"لا شيء يختلف الآن أبدًا عمّا كان عليه دائمًا، مهما شئتَ أن تدعوني".

قعد مايكل على حافة السرير، وقال: "الأمرُ مختلفٌ كثيرًا جدًّا. أنتِ الآن زوجتي".

كانت ترتجف من الضعف، ولكنّها ردّت الضربة: "أتعتقد حقًّا أنَّ ذلك يُحدِث فرقًا؟ كيف؟ لقد دفعتَ من أجلي، كما فعلتَ دائمًا".

"بدا الدَّفع إلى الدوقة أسرعَ سبيل للتخلُّص منها. لم أحسب أنَّ ذلك يُقلِقكِ".

قالت ورأسُها ينبض ألمًا: "أوه، لا بأس في ذلك".

"أفضلُ لك أن تستلقي من جديد".

لم يكن لها من القوّة ما يحملها على المُمانعة لمّا وضع ذراعه حولها، وأزاح المسند من وراء ظهرها. وأحسَّت يده، خشنةً ذاتَ جواسئ ودافئةً، على بشرتها المجرَّدة إذ سوَّى ظهرها. وفيما هو يُغطّيها بالحِرام من جديد، قال: "لا تدفعيهِ عنكِ".

حاولت إلقاء نظرة مليّة على وجهه، فلم تستطع. "آمل ألّا تستاء من الانتظار. لا يمكنني أن أُبديَ أيَّ امتنانٍ الآن".

وسمعتِ الابتسامة في جوابه: "أنا رجل صبور".

مرّر أصابعه برفقٍ على جبينها المُندّى الرطب. "ما كان ينبغي أن أترككِ جالسةً هذا الوقت الطويل. لن تحتملي أكثر من بضع دقائق دفعةً واحدة". وهمّت بأن تُجادِل، إلّا أنّها عرفت أنْ لا جدوى من ذلك. وكان لا بدَّ أن يعلم أنّها تعاني آلامًا مبرِّحة. "ماذا يؤلِمكِ أكثر الكلّ؟"

"لا شيءَ أُريد منك أن تلمسه". وأطبقت عينيها، متمنّيةً لو تموت فينتهي الألم. ثمّ لمّا مسَّ صُدغَيها، سحبت نفَسها.

"استرخي". لم يكن تربيتُه مُتفحِّصًا ولا حميمًا، فهدأتْ. وقال: "على فكرة، اسمي مايكل. مايكل هوشع. إذا كنتِ لا تتذكَّرين".

قالت كاذبةً: "لا أتذكَّر".

"مايكل. تذكُّره غير صعبٍ جدًّا".

"إذا أردتَ ذلك".

ضحك برقَّة. كانت تعلم أنّها تهجَّمت عليه تلك الليلةَ الأخيرة في الماخور. فلماذا اصطحبها بعيدًا عن بيرأدايس؟ بعدما خرج من الباب، لم تتوقَّع قطّ أن تراه ثانيةً. إذًا لماذا عاد؟ وأيُّ نفع له منها على تلك الحال؟

قال: "إنَّكِ تتوتَّرين من جديد. أرخي عضل جبهتك. هيّا، يا مارة. فكِّري في ذلك

إن كان ينبغي أن تُفكِّري في أيِّ شيء".

"لماذا رجعت؟"

"لقد أرسلني الله".

إنَّه مجنون. ذلك كلُّ ما في الأمر. لطالما كان مجنونًا تمامًا.

"حاولي ألَّا تفكِّري كثيرًا هكذا. خارجَ النافذة عصفورٌ مُحاكٍ. أصغي إليه".

كانت يداه بالغتَي الرقَّة. فعلَت ما طلبه منها، فخفَّ الألم. وكلَّمها بهدوء، فسيطر عليها النعاس. سبق أن سمعت كلَّ نوعٍ من أصوات الرجال، إنَّما لم تسمع قطُّ صوتًا كهذا، عميقًا هادئًا مُريحًا.

كانت مُرهَقة جدًّا حتَّى رغبت أن تموت وترقد إلى الأبد، ولم تكد تقوى على إبقاء عينيها مفتوحتين. فغمغمت: "أفضلُ ألَّا تتوقَّعا الكثير، أنت والله كِلاكما".

"أنا أُريد كلَّ شيء".

"ذاك ابتهالُك ودعاؤك!" لهُ أن يرجو كلَّ ما أراد، وله أن يطلب أيضًا. ولكنَّ كلَّ ما سيحظى به هو ما تبقَّى: لا شيء، لا شيءَ على الإطلاق.

الفصل

الثامن

المستهزئ يطلب الحكمة
ولا يجدها.

(سِفر الأمثال ١٤: ٦)

لم يهمَّ آنجل أن تتعافى من جديد بأيِّ طريق من الطُرق. لقد أطبقت عليها ظُلمةٌ صامتةٌ ثقيلة الوطأة. فبعدما لاحت لها طريقةٌ لوضع حدٍّ لحياتها التعسة ومدَّت يدها إليها في لحظة يأس، أخفقت مرَّةً أُخرى. فبدلًا من العثور على السلام الذي طالما تاقت إليه، أصابها الألم. وبدلًا من أن تنعم بالحرِّيَّة، وقعت أسيرة العبوديَّة لرجُلٍ آخر.

لماذا لم تتمكَّن من إنجاز أيِّ شيء بالطريقة الصحيحة؟ لماذا أخفقت كلُّ خُطَطها؟

كان هُوشَع هو الرجل المُحدَّد الذي أرادت بكلِّ جوارحها أن تتجنَّبه. وها هو الآن يمتلكها. ولا قوَّة لها لتُقاوِمه. والأسوأ أنَّها مُضطرَّة للاعتماد عليه لأجل الطعام والماء والمأوى... لأجل كلِّ شيء. فاعتمادها الكلِّيُّ عليه آذاها وأصابها بمرارة شديدة، إذ جعلها تشعر بأنَّها قليلة التجربة. حتَّى إنَّها كرهت هوشَع أكثرَ من أجل ذلك.

لو كان رجُلًا عاديًّا، لعرفَت كيف تقاومه. غير أنَّه لم يكن كذلك. فلا شيء مِمَّا تقوله كان يزعجه. لقد كان جبلًا من الصوَّان. لم تقوَ على جرحه. ووتَّر أعصابَها عزمُه الهادئ. وقد أحاط به الآن جوٌّ غامض لا تستطيع وصفه. قال مرَّةً إنَّه تعلَّم الكثير عنها في أثناء ارتفاع حرارتها وهذيانها، إلَّا أنَّه لم يحدِّد شيئًا. وأقلقها "كلُّ شيء" يريده. فكلَّما استيقظَت، كانت تجده حاضرًا. وهي إنَّما أرادت أن يتركها وحدها.

شعرت آنجل بفخٍّ يُطبِق عليها. لم تكن هذه المرَّة في بيتٍ ريفيٍّ فاخر من الحجر البُنِّي النادر. ولم تكن في خيمة بالية مصنوعة من أشرعة السفن العتيقة، ولا في ماخور من طابقيَن. ولكنَّها كانت رغم ذلك عالقةً في فخّ، وذلك المعتوه يمسك بالمفتاح.

ماذا كان يريد منها؟ ولماذا أحسَّت أنَّه أخطر من جميع الرجال الآخرين الذين عرفتهم يومًا؟

بعد أُسبوع، تركها مايكل في الكوخ وحدَها بضع ساعات متواصلة فيما خرج

إلى عمله. لم تعرف ماذا فعل، ولا سألَته. لم يعنِها الأمر. وشعرت بالفرَج لأنَّه لم يكن يحوم حولها ماسحًا جبينها أو مُدخِلًا الحساء إلى فمها بالملعقة. أرادت أن تكون وحدها. أرادت أن تفكّر، ولم تستطع ذلك وهو يتسكّع حولها.

تحوّلت الوحدة التي الْتمستْها إلى وحشة، وكان التفكير كلَّ ما أرادته. ثمَّ هطل المطر، فأصغَت إلى الطرطقة على السطح... وصحبت تلك الطرطقة رؤى الكوخ على أرصفة الميناء، وماما وراب. وأدّى التفكير براب إلى دوك، وأفضى دوك إلى الباقي، حتّى خُيِّلَ إليها أنّها ستُجَنّ. لعلّها تشرع في التكلُّم إلى الله، هي أيضًا، مثلَ ذلك الرجل المعتوه الذي وضع في إصبعها خاتم زواج أُمّه.

لماذا فعل ذلك؟ لماذا تزوَّج بها؟

إذا ذاك ظهر في المدخل، كبيرًا قويًّا هادئًا، ينظر إليها بطريقته المألوفة. أرادت أن تتجاهله، ولكنّه ملأ الكوخ بحضورة. حتّى وهو جالسٌ قبالة الموقد صامتًا، يقرأ الكتاب العتيق المُهلهَل نفسه، كان يشغل المكان كُلَّه، ويجتاحُها هي أيضًا. حتّى وعيناها مُطبَقتان، كانت تراه هناك. فقد كان قاعدًا على كرسيٍّ قبالة الموقد، داخلَ رأسها تمامًا.

لم تفهمه الآن أكثر ممّا فهمَته في الماخور. ولكنّه كان قد تغيَّر نوعًا ما. فقد بات مختلفًا، في ناحيةٍ محدَّدة، إذ لم يكن يتكلّم كثيرًا. بل إنّه في الواقع قلّما كان يتكلّم، إذ دأب أن يبتسم لها ويسألها عن حالها، أو عن احتياجها إلى أيِّ شيء، ثمّ ينصرف إلى شؤونه الخاصّة، مهما كانت. ويومًا بعد يوم، كانت تراقبه يعتمر قبّعته فتعرف أنّه يوشك أن يتركها وحدها مرَّةً أُخرى.

قالت، وهي ناويةٌ ألّا تُناديَه باسمه أبدًا: "يا سيِّد، لماذا جئتَ بي إلى هنا إذا كان كلُّ ما ستفعله هو تَركي وحدي في هذا الكوخ؟"

"إنّني أُتيح لكِ فرصةً كي تُفكّري".

"أفكّر في أيِّ شيء؟"

"في أيِّ أمرٍ يُعوزكِ أن تُفكّري فيه. سوف تُغادرين السرير حالما تصبحين مستعدَّة لذلك". ثمَّ تناول قُبّعته من على المشجب قرب الباب، ومضى.

تدفّق ضوء الشمس صباحًا من نافذة مفتوحة. كانت النار تضطرم في الموقد. كان بطن أنجل ملآن، وهي دافئة. ينبغي أن تكون راضية. ينبغي أن تتمكّن من الاسترخاء والاستلقاء وعدم التفكير في شيء. ينبغي أن تكون العزلة كافية.

تُرى، ماذا كان خَطبُها؟

لعلَّه السكون. فقد تعوَّدت أصواتًا تهاجمها من كلِّ جهة. رجالٌ يقرعون الأبواب، رجالٌ يقولون لها ما يريدون، رجالٌ يقولون لها ما تفعل، رجالٌ يصرخون، رجالٌ يغنُّون، رجالٌ يتشاتمون في الحانة. أحيانًا كانت الكراسيُّ تتحطَّم على الجدران والكؤوس تتكسَّر، ودائمًا كانت الدوقة حاضرةً لتقول لها كم ينبغي أن تكون مُمتنَّة، أو مغوان قائلًا لرجُلٍ ما إنَّ وقته قدِ انتهى وإنَّه سيندم إذا لم يرتدِ بنطلونه ويخرجْ حالًا.

غير أنَّها لم تختبر قطُّ هذا السكون، هذا الهدوء المُدوِّي في أذنَيها.

وإذ تشكَّت، قال لها هُوشَع: "ثمَّة مقدار كبير من الصَّوت. ما عليكِ إلَّا الإصغاء إليه".

ولمَّا لم يكن أيُّ شيء آخر يشغلها، فعلت ذلك. وقد كان هُوشَع على حقّ. فإذ تَبدَّل السكون، سمعَت أصواتًا تخترق جدار الصمت. وكانت مثل وقْع المطر قديمًا لمَّا كانت آنجِل توزِّع عُلَب المعدن اللمَّاعة في الكوخ المعتم الصغير. وبدأت تلتقط أصواتًا من الجوقة القائمة حواليها. كان صرَّار مُغَنٍّ يُقيم تحت السرير، وضفدع كبيرٌ خارجَ النافذة تمامًا، وحشدٌ من الرِّفقةِ ذات الأجنحة: عصافيرُ أبي حِنَّاء ودوريّ، وطيرُ أبي زُريق زعَّاق.

أخيرًا، وقفت آنجِل على قدميها وحدَها.

ولمَّا فتَّشت عن شيءٍ تلبسه، لم تجد شيئًا. لم يكن قد خطر في بالها حتَّى ذلك الحين أنَّه ليس في الكوخ ما تملكه هي. لا شيء من أشيائها الخاصَّة كان هناك. أين كانت أشياؤها؟ ألم يُفكِّر في إحضارها معه؟ ماذا ينبغي لها أن تلبس؟ كيسَ خيشٍ واخزًا؟

بدا لها أنَّ ما لديه قليلٌ جدًّا. وجدت في خزانة صغيرة ذات أدارج قميصين إضافيَّين طويلَي الأكمام باليين، وبنطلونين من القطن الخشن، وبعضَ الجوارب الثقيلة- كلُّها فضفاضةٌ عليها كثيرًا. وكان في الزاوية صندوقٌ أسود عتيق مُخلخَل. غير أنَّها كانت مُتعَبةً جدًّا بحيث يتعذَّر عليها أن تفتحه وتُنقِّب فيه. ولمَّا كانت عاريةً وأضعفَ من أن تسحب حِرامًا عنِ السرير وتلفَّه عليها، اتَّكأت كذلك على حافة النافذة تتنشَّق النسيم البارد المُنعِش.

كانت بضعة عصافير تطير بخفَّةٍ من غصن إلى غصن في شجرة كبيرة. وكان عصفور أكبر يُثرثِر وينقر الأرض على بعدٍ لا يتجاوز المترين من الكوخ. وقد بدا مغرورًا جدًّا، فتبسَّمت. وهبَّت نسمةٌ رقيقة حملت إلى الداخل عبقًا زكيًّا جدًّا حتَّى كادت أن تتذوَّقه. قديمًا كانت المروج بقرب بيت ماما الريفيّ تنشر عطرًا كهذا تمامًا. فأغمضت عينيها واستمتعت بالأريج الفوَّاح.

فتَحت عينيها ثانيةً وحدَّقت إلى الأراضي المنبسطة، فهمست: "أُوه، ماما!" وحنجرتُها تتصلَّب. دبَّ الوهن من أسفل عمودها الفِقريّ إلى أعلاه، وبدأت ضلوعها تؤلمها من جديد، وعَرَتها القُشَعريرة والارتعاش، فيما أصابها دُوار.

دخل مايكل الكوخ، وإذ رآها واقفةً قرب النافذة عاريةً، توجَّه نحو السرير ليأخذ لِحافًا، بغير أن يقول كلمةً واحدة. ثمَّ طرح اللحاف عليها، فتهاوت تحت ثقله، فانتشلها عن الأرض برفق.

"منذُ متى غادرتِ السرير؟"

"ليس منذ وقتٍ طويل يَضطرُّني للعودة إليه". وإذ حملها على ذراعيه، تسرَّب إليها الدفءُ منه، وقد فاحت منه رائحة التراب وحرارةُ الشمس. "يمكنك أن تُلقيَني الآن، إنَّما ليس في السرير. لقد قضيتُ في السرير عمري كلَّه، وقد سئمتُه".

ابتسم مايكل. إنَّها لن تفعل أيَّ شيء بفتور، ولا حتَّى الوقوف على قدميها من جديد. فأقعدها على الكرسيِّ قبالة الموقد، وألقى فيه حطبةً أُخرى.

ما انفكَّ الألم يعصف بجنبَيها. تشبَّثت بذراعَي الكرسيّ، شاعرةً بكلِّ نقطةٍ نالها مَغوان بحذائه وقبضته. ولم يكن قد وفَّر الكثير. ثمَّ تحسَّست وجهها بحذر شديد، وتجهَّمت. "أعندكَ مرآة؟"

تناول مايكل الصفيحة اللمّاعة التي كان يتمرَّى بها عند الحلاقة، وناولها إيَّاها. حملقت مذهولةً. وبعد حين، ناولته الصفيحة، فردَّها إلى مكانها على الرفّ.

"كم دفعتَ نظيري؟"

"كلَّ ما كان في حوزتي".

ضحكت بوَهن. "يا سيِّد، أنتَ مُغفَّل". كيف يُعقَل أن يُلقيَ عليها ولو نظرةً واحدةً في حالها تلك؟

"ليس من أذىً دائم".

"صحيح؟ حسنًا، سَلِمت أسناني على الأقلّ. وهذا عظيم".

"لم أتزوَّج بكِ من أجل منظرِك".

"طبعًا لم تفعل ذلك. لقد تزوَّجتني من أجل طبيعتي الآسِرة. أم قال لك الله أن تفعل ذلك؟"

"لعلَّه تصوَّر أنَّ القرنَين اللذين في رأسكِ يُناسِبان تمامًا الثقبين اللذين في رأسي".

أسندت آنجل رأسها على ظهر الكرسيّ. "عرفتُ أنَّكِ مجنون أوَّلَ مرَّةٍ وقعَت فيها

عيناي عليك". كان إعياؤها أثقل من أن يُحتمَل، وفكّرت كم يكون أكثر إراحةً لها بكثير أن تستلقي على فِراش القشّ ذاك من جديد. قد تتمكّن من السير على قدمَيها، إنّما خطوةً واحدةً فقط، ومن ثَمّ تُحطِّم أنفها ثانيةً، على الأرضيَّة الخشبيَّة رأسًا.

تقدَّم إليها مايكل، ورفعها برفق، متجاهلًا اعتراضاتها.

"يا سيِّد، قلتُ لك إنّي لا أودُّ الاستلقاء الآن".

"لا بأس. اجلسي في السرير".

"ماذا حلَّ بأشيائي الخاصَّة كلِّها؟"

"لقد نسيتُها. ثُمّ إنَّ ما لديكِ لن يناسبَكِ على كلِّ حال. فزوجة الفلّاح لا تلبس الساتان والمُخرَّم".

"لا، بل أظنُّ أنَّها تُهَروِل عاريةً ذهابًا وإيابًا بين أتلام الفاصوليا والجزر في حقلك".

إذ ذاك ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ يسيرة، وقد برقت عيناه ظرفًا. "قد يكون ذلك مشوِّقًا بعضَ الشيء".

استطاعت آنجل أن تعيَ سبب افتتان رَبيكا الشديد به. غير أنَّ المنظر الحسن لم يُحدِث أيَّ فرقٍ عندها هي. فإنَّ دُوك كان رجُلًا وسيمًا؛ فاتِنًا جذّابًا.

وقالت بحزم: "انظر! أُريد أن أبدأ بالنهوض والتجوُّل وحدي، وعلى جسمي شيءٌ ما".

"سأُدبِّر لك ما تحتاجين إليه عندما تحتاجين إليه".

"إنّي أحتاج إلى ذلك الآن".

ففغر فمه وقال بهدوء مُمِضّ: "أعتقد ذلك". ثمَّ توجَّه إلى الصندوق العتيق المخلخل وفتحه، وأخرج صُرَّةً حملها إليها قائلًا: "ستفي هذه بالحاجة حينًا".

فتحتِ الصُرَّة بفُضول. انفلش النسيج الصوفيُّ الرماديّ، فتبيَّن لها أنَّه كاپ[٢] بالٍ. كان في الداخل تنُّورتان من الكَتْصوف[٣] الخشن، إحداهما بُنيَّة باهتة، والأُخرى سوداء؛ وبلوزتان- ربَّما كانت إحداهما بيضاء قديمًا ولكنَّها الآن صفراء تقريبًا- والأُخرى مُزهرَّة بنقوش زرقاء وقرنفليَّة باهتة. كانت كلتاهما تُزرَّران حتَّى ذقنها، وكُمَّا كلتيهما طويلان جدًّا بحيث يُجاوِزان مِعصَميها. وكان في الصُرَّة قلنسوتان تُضاهيان البلوزتين، كما طُوِي

٢) الكاپ: رداء خارجي بلا كمين.
٣) الكتصوف: قماش خشن متين من الكتان والصوف.

داخلًا بترتيب قميصولان[٤] بسيطان وبضعة سراويل تحتانيّة وجوارب صوفيّة صفيقة مرتوقة. أخيرًا، وجدت زوجَي أحذية سوداء خفيضة الكعبين عالية الساقين ذات أزرار.

رفعت نظرها إليه بنظراتِ إنكار ساخرة: "سأكون ممتنّة لك إلى الأبد على هذه الغنيمة".

"أعرف أنّها ليست تمامًا كالتي تعوّدتِها. ولكنّني أعتقد أنّكِ ستجدين هذه الثياب أكثر إراحةً لك من أيّ شيءٍ لبستِه يومًا".

"سأُجرّب، على أساسِ كلامك". وتحسّست بأصابعها نسيج الكَتْصوف.

فابتسم لها ابتسامةً خفيفة، قائلًا: "في غضون أُسبوعٍ أو اثنين بعد، ستتمكّنين من النهوض وتأدية بعض الأشغال".

وعلا رأسُها، إلّا أنّ مايكل كان قد توجّه نحو الباب توًّا وخرج. أشغال؟ أيّة أشغال في فكره؟ حَلْبُ بَقَرة؟ طبخ؟ لعلّه يتوقّع منها أن تُقطّع حطب الوقود وتنقله، وأن تستقي الماء من الجدول. وماذا عن ثيابه؟ سيطلب منها أن تغسلها وتكويَها. يا للسخرية! إنّها كانت تُتقِن أمرًا واحدًا، ولا شيء سواه. سيشهد نهضة حقيقيّة عندما تُباشِر تأدية الأشغال!

رجع مايكل حاملًا على ذراعيه ما استطاع من حطب النار.

"يا سيّد، لا أعرف حتّى أبسطَ ما تؤدّيه زوجةُ الفلّاح".

كدّس الحطب بترتيب. "ما كنتُ أتوقّع منكِ أن تعرفي".

"إذًا، أيّة أشغال كانت في فكرك؟"

"الطّبخ، الغسل، الكيّ، الحديقة".

"قلتُ لك من توّي..."

"أنتِ ذكيّة". دسّ في النار حطبة أُخرى. "لن تقومي بأيّ شيءٍ مُتعِب حقًّا حتّى تصيري قادرة، الأمرُ الذي لن يحصل قبل مرور شهرٍ آخر على الأقلّ".

مُتعِب حقًّا؟ ماذا يعني ذلك؟ ثمّ قرّرَت بالأحرى سلوك سبيلٍ آخر. فاصطنعت ابتسامةً طالمًا مارسَتها. "وماذا عن واجباتِ الزوجة الباقية؟"

ردَّ مايكل بنظرةٍ رمقها بها. "عندما يعني لك الأمر شيئًا يتعدّى الشُّغل، عندئذٍ نُتِمُّ الزواج".

فاجأتْها صراحتُه. أينَ ذهب الفلّاح الذي كان ينفر ويتورّد خدّاه حين تلمسه؟ انكفأت غاضبةً وقد تبدّدت رباطة جأشها. "جيّد يا سيّد. سأفعل مهما كان في فكرك.

---

٤) القميصول: سترة نسائية قصيرة داخلية.

سأُباريكَ ساعةً بساعة ويومًا بيوم منذُ بدأتَ تعتني بي".

"وعندما تتصوَّرين أنَّنا تعادلنا، تُغادِرين. أليس كذلك؟"

"سأرجع إلى بيرأدايس وأستوفي ما لي من دَينٍ بذمَّة الدوقة".

فقال بهدوء: "لا، لن ترجعي!"

"بلى، سأرجع". ستُحصِّل مالها من الدوقة، ولو اضطُرَّت إلى سَلخ جلد العجوز الشمطاء. ثُمَّ تستأجر مَن يبني لها كوخًا مثل هذا تمامًا، بعيدًا عن المدينة بحيث لا تسمع ضجيجها ولا تشمّ نتانتها، لكنْ قريبًا منها بحيث تتمكّن من الحصول على المؤن التي تحتاج إليها. وسوف تشتري بندقيَّة، بندقيَّة كبيرة، وكثيرًا من الرصاص، وإذا قصد أيُّ رجُل إليها وطرق بابها، تستعمل البندقيّة، إلّا إذا كانت بحاجة إلى بعض المال. عندئذٍ تُدخِله كي تؤدّي شغلها أوّلًا. ولكنْ إذا كانت حريصة وذكيّة، يمكنها أن تعيش مدَّةً طويلة بما سبق أن كسبته. كانت بصعوبةٍ تُطيق الانتظار. فلم يسبق لها قطُّ أن عاشت وحيدةً، وسيكون ذلك نعيمًا لها.

إذ ذاك خاطبها صوتٌ من قرارة نفسها متهكِّمًا: تُرِكتِ وحيدةً أُسبوعًا بكامله، وعانيتِ الشقاوة المُرّة، ألا تذكرين؟ اعترفي بأنَّ بقاءكِ وحيدةً ليس نعيمًا البتَّة. ولا سيَّما حيث يكون في رِفقتكِ شياطينُ كثيرو العدد.

"ربَّما تكون قد دفعتَ فيَّ كثيرًا من غبار الذهب، يا سيِّد، غير أنَّني لستُ مِلكًا لك".

تأمَّلها مايكل بصبرٍ وتأنٍّ. كانت ضئيلة وضعيفة، ولكنَّ إرادتها حديديَّة، وقد شعَّت من خلال عينيها الزرقاوين الخافقتين بالتحدّي وتماسُكها وتمالكها النادرَين. واعتقدت أنَّ لديها ما يكفي للتغلُّب عليه. إلّا أنَّها كانت مُخطئة. فهو كان يعمل بمشيئة الله، وله خُططٌ خاصَّة به، خُططٌ ما انفكّت تتنامى. غير أنَّه قال كلَّ ما نوى أن يقوله حينًا. فلتُفكِّرْ في الأمر.

وما لبث أن قال: "أنتِ على حقّ. لستِ مِلكًا لي، ولكنَّك لن تهربي من هذا".

تناولا الطعام في طرفَي الغرفة المتقابلَين، هي على السرير وصحنُها في حضنها، وهو إلى الطاولة. أمَّا الصوت الوحيد في الغرفة فكان فرقعة النار.

وضعت آنجل الصحن على الطاولة الجانبيَّة. كانت ترتجف بشدَّة، ولكنَّها ما تزال عاقدةً عزمها على عدم الاستلقاء. ثمَّ تفحَّصت مايكل. عاجلًا أو آجلًا، ستتصوَّره كما هو. فهو رجُل، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون معقَّدًا جدًّا. وستُشرِّحه جزءًا فجزءًا. مرَّةً قالت لها سالي: "لديهم جميعًا عيوبٌ، يا عزيزتي. ما عليكِ سوى تصنيف

رسائلهم لتعرفي ما يريدون منكِ. وما دُمتِ تُسعِدينهم، تسير أُمورُكِ حسنًا. وإلّا، عادوا أدنياء".

مِثلَ دُوك إذا لقيَ اعتراضًا. فآنجِل عرفت كلَّ شيء يتعلّق بدُوك بعد الليلة الأولى. لقد كان يحبُّ السُّلطة، ويطلب الطاعة الفوريّة. لم يكن عليها أن تحبَّ ما أراد فعله، ما دامت تفعله... بابتسامة. فكان التردُّد يُكسِبها تلك النظرة السوداء الباردة، والاحتجاجُ صفعةً، والتحدِّي عنفًا وحشيًّا؛ أمَّا الهرب، فعقبَ سيكاره المشتعل. وفي حين أنهكها استثارُه بها، كانت قد تعلَّمت درسًا أساسيًّا واحدًا: أن تتظاهر. فمهما كان شعورها، ومهما كانت مُروَّعة ومُنفَّرة ومُغضَبة، تظاهرت بأن تحبَّ ما أراده الرجال ودفعوا للحصول عليه. وإن أعياها أن تتظاهر بأنّها تحبُّ ذلك، كان عليها التظاهُر بأنّها لا تكترث. وكانت قد صارت بارعةً في ذلك فعلًا.

كانت سالِي فهيمة، ولكنْ كانت لديها قوانينُها الخاصَّة.

"لقد كُسِرتِ كسرةً سيّئة حين جاء بك إلى هنا ذلك الغبيُّ السكّير. وبعد ذلك، لم يشقَّ عليكِ الأمر. فإذ أدركتِ كيف كانت أمكِ مومسًا أيضًا، علمتِ أنْ لا أحد من أهل البلد قد يرغب فيكِ، بصرف النظر عن جمالك الباهر. ومهما كان ممكنًا أن يحدث، فهاكِ ما هو حادثٌ الآن يا آنجل. وههُنا سوف تبقَين".

كانت سالي قد أمسكت ذقن آنجل براحة يدها واضطرَّتها لأن تنظر إليها. "ثُمَّ لا أُريد أبدًا أن أرى هيئة وجهك على هذه الصورة بعد اليوم. فمهما كان شعورك، ينبغي أن تتعلَّمي الاحتفاظ به لنفسك. مفهوم؟ نحنُ الباقيات عندنا قِصصُنا الحزينة نرويها، وبعضُها أسوأ من قصَّتك. فتعلَّمي أن تعرفي ما يريدُه الرجل، وأعطِهِ ما يدفع لأجله، وشيِّعيه في سبيله والبسمةُ مرتسمةٌ على وجهه. قومي بهذا، فأُعاملَكِ كما عاملتكِ أمُّك التي فقدتِها. وإن لم تفعلي ذلك، فستحسبين أنَّ المدَّة التي قَضيتِها عند دُوك كانت نعيمًا بالفعل".

وقد تبيَّن أنَّ سالي كانت تفعل ما تقول، وتعلَّمت آنجل كلَّ ما شاءت تعلُّمه عن الرجال. فمنهم مَن كانوا يعرفون ما يريدون، ومِنهم مَن كانوا يعتقدون ذلك فحسب. ومِنهم مَن كان يقول شيئًا فيما يقصد غيرَه. وكان بعضُهم ذوي جُرأة، فيما كان أكثرهم ذوي وقاحة. إلَّا أنَّ كلَّ شيء، مهما كان وكيفما، آل إلى الأمر عينه. ذلك أنَّهم كانوا يبذلون نقودهم للحصول على شيءٍ منها: في البداية، قطعة بعد قطعة دامية؛ وبعد حينٍ قطرة بعد قطرة. إنَّما كان الفرق الوحيد في كونهم إمَّا يدسُّون المال بهدوء تحت الثياب الداخليَّة المطروحة

على أسفل سريرها، وإمّا يضعونه في راحة يدها ناظرين إلى عينيها مباشرةً.

نظرت إلى مايكِل هُوشَع. من أيِّ صنفِ رجالٍ هو؟

تلمَّستِ الرداء البالي بأصابعها، وعضّت شفتها. لعلَّه طلب أن يُلَفَّ ما اشتراه في نسيج الكَتْصوف حتَّى لا يُضطرَّ إلى إمعان النظر فيه. لعلَّه لم يُرِد أن يرى ذلك على حقيقته. رجاءً، لا مصباح، وأبقي الخاتم في إصبعكِ حتَّى نتظاهر بأنَّ الأمر سليم. عندئذٍ لا يكون عليَّ أن أحسب ما أنا فاعلُه أمرًا يُنافي الأخلاق. في وسعها أن تؤدِّي له دور فتاةٍ عذراء. بل في وسعها أيضًا أن تتظاهر بأنَّها مُمتنَّة إذا حصل ذلك. أُوه، شكرًا جزيلًا على إنقاذك لي. في وسعها أن تتظاهر بأيِّ شيء ما دامت تعرف أنَّه سيدوم مدَّةً قصيرةً فحسب.

يا يسوع، يا إلهي. سئمتُ التظاهُر. سئمتُ هذه العيشة. لماذا لا يمكنني أن أُغمِض عينيَّ فحسبُ وأموت؟

ثمَّ قالت: "كفى!" واضعةً صحنها على الطاولة الجانبيَّة. كفى، وأكثر.

وكان مايكل يراقبها. "لن أُعطيَكِ أيَّ شيءٍ يفوق طاقتكِ".

نظرت إليه آنجل شزرًا، عالمةً أنَّه لا يقصد الأشغال المألوفة. "وما حالُك أنت يا سيِّد؟ هل تعتقد أنَّ في طاقتك قبول ما سأُعطيك؟"

"جرِّبيني!"

راقبته آنجل وهو يأكل عشاءه. لم يكن قلِقًا على أيِّ شيء. وقد قالت لها كلُّ بوصةٍ فيه إنَّه يعرف مَن هو وماذا ينويه، ولو لم تعلمْ هي ذلك. وتأكَّد لها أنَّها إن لم تتعافَ وتفرَّ سريعًا، فسيؤول به الأمر إلى أخذها شيئًا فشيئًا، قطعةً بعد قطعة.

صباحَ اليوم التالي، لبست آنجل ثيابها حالَ خروج هوشع من الباب. ألقت عليها القميصول وربطت الأشرطة المُنسَلة. كان القماش ثخينًا وغير كاشف، وقد سترها كليًّا. ولم تكن قطُّ قد لبست أيَّ شيء بمثل تلك البساطة والحلاوة... والرُّخص.

تُرى، مَن لبسَت تلك الأشياء قبلها؟ وماذا حلَّ بها؟ على أساس تلك الثياب، لا بدَّ أنَّ تلك المرأة كانت محتشمة ومجتهدةً في عملها، مثلَ أولئك النسوة اللواتي كُنَّ يُدِرن ظهورهنَّ عند مرور ماما.

ثمَّ عثرت آنجل على كُلَّابة التزرير داخل فردة الحذاء اليُسرى فانتعلتِ الحذاء

وزرَّرته، فإذا به مُناسِبٌ لها إلى حدٍّ يمكِّنها من السير حسنًا. ولمَّا جاء مايكل، رفعت نظرها إليه مُقوِّسةً أحد حاجبيها. "حسبتُ أنَّك قلتَ إنّك لم تتزوَّج قطّ!"

"هذه الأشياء كانت لأُختي، تَسّي. هي وزوجها پول جاءا معي إلى الغرب. وقد ماتت بالحُمَّى على النهر الأخضر". وقد آلمه أن يتذكّر دفن تَسّي في منتصف الطريق غربًا، حيث مرّت كلُّ عربة في القافلة فوق قبرها فلم يبقَ أثرٌ منه. ولم يُرِد هو وپول لها أن ينبشها الهنود أو الحيوانات.

كان ما يزال غير قادر على تخطّي دفنه لأُخته الصغيرة الحبيبة كذلك، بلا حجر ولا صليب يُشير إلى الموقع؛ وتسّي تستحقُّ أفضل من ذلك.

"ماذا حلَّ بزوجها؟ أمات هو أيضًا؟"

خلع مايكل سترته وهو يتلوّى. "أرضُه مُراحةٌ تحتُ في آخِر الوادي. وهو يستخرج الذهب من نهر يوبا. إنَّ پول لم يتمكّن قطُّ من المثابرة على أيِّ شيء زمنًا طويلًا". وكان حبُّه لتَسّي قد أبقاه على الطريق القويم حينًا، ولكنْ لمّا ماتت عاد إلى شروده.

ابتسمت آنجِل بِلا مَرَح. "إذًا صهرُك واحدٌ من أولئك الكثيرين الذين يغتصبون أنهار كاليفورنيا... وأيَّ شيء آخر يجدونه".

التفت مايكل ونظر إليها.

أحسَّت آنجل تلك النظرة، وعلمت عمَّا كان يتساءل. "إذا كان رجلًا، وكان على ضفاف اليُوبا، فرُبَّما قصد إلى القصر". ورأت أنَّ تخمينها كان صحيحًا، فعمَّقت طعنتها بهزَّة كتفين لامبالية. "لا يمكنني أن أجزم لك هل أَمَّ غُرفتي. صِفه لي، فلعلّي أتذكّر".

كانت كلماتها قاسية وباردة، غير أنَّ مايكل لم ينخدع. فقد كانت تبذل أقصى جهدها لإبعاده عنها. وتساءل عنِ السبب.

أثار سكوته أعصابها. "لا داعيَ للتساؤل عن معرفته لي أو عدمها. سأكون قد رحلتُ قبل أن يعود".

"سوف تكونين تمامًا معي هنا، حيثُ تنتمين".

ابتسمت ببرودة. "عاجلًا أو آجلًا، ستصل قافلة عربات ملأى بالعذارى المحترمات جميعًا في أردية الكتصوف المغبّرة البالية. عندئذٍ تعود إلى رشدك. وسيكون عليك آنذاك أن تقول: هذه زوجتي، وقد اشتريتُها من ماخور في پيرأدايس عام ٥١".

"لن يهمَّني مَن يأتي. لقد تزوَّجتُ بكِ".

"حسنًا، من السهل تمامًا تصحيح الوضع". ثمَّ زلَّقت خاتم الزواج من إصبعها.

"هل ترى؟ لم نعُد متزوِّجَين!" ومدَّت يدها والخاتمُ في كفِّها. "الأمرُ بهذه السهولة".

تفحَّص مايكل وجهها. هل تعتقد حقًّا أنَّ الأمر بتلك السهولة؟ يُنزَع الخاتم من الإصبع، فيصير الزواج مُلغًى وباطلًا، ويعود كلُّ شيء إلى ما كان عليه؟ "في هذا أنتِ على خطإٍ يا مارة. فنحن نظلُّ متزوِّجَين سواءٌ لبستِ الخاتم أم نزعتِه. غير أنَّني أُريد منك على كلِّ حال أن تُبقيه في إصبعكِ".

فقطَّبت قليلًا، وفعلت كما قال. وبرمت الخاتم على إصبعها. "قالت لاكي إنَّه كان لأُمِّك".

"صحيح".

أسبلت يديها إلى جنبَيها. "فقط قُل لي متى تريد منِّي أن أردَّه لك".

"لن أستردَّه".

أرخت يديها في حضنها ونظرت إليه بفتور. "ليكن ما تريده، يا سيِّد".

نال منه ذلك. "أكره هذه العبارة: ليكن ما تريد. كأنَّك تقدِّمين لي القهوة". ليكن ما تريد. بهذه الطريقة عينها كانت تقدِّم جسدها. "خيرٌ لنا أن نضع الأمر في نصابه. لقد تزوَّجتُ بكِ في السّراء والضرّاء، ما دُمنا على قيد الحياة. لقد قطعتُ عهدًا أمام الله لمَّا تزوَّجتُ بكِ، ولن أنقضه البتَّة".

كانت آنجل تعرف كلَّ شيء عنِ الله. قُم بكلِّ شيءٍ بالطريقة الصحيحة، وإلَّا سحقك كما لو كنت صرَّارًا. ذلك هو الله. ولاحت لها الظُّلمة في عيني هُوشَع، فلم تقُل شيئًا.

كانت أمُّها مؤمنةً بالله. كان لأمِّها إيمان. ولطالما فتحت قلبها للسماء على أوسع ما يكون. إنَّ أبانا الذي في السماوات كان في العالم عينه الذي كان فيه أليكس ستافُورد. ولم تكن آنجل مُغفَّلةً إلى حدٍّ يجعلها تفتح قلبها لأيِّ شخصٍ كان، ولا سيمَّا له. وإنْ كان هذا الرجل يتصوَّر أنَّه يستطيع أن يجعلها... لقد سبق أن تعلَّمت باكرًا أنَّ ما لا تؤمن أنت به لا يمكن أن يؤذيك.

قال مايكل على نحوٍ مفاجئ قطع عليها أفكارها الكالحة: "هل تتذكَّرين شيئًا عن زواجنا؟"

"أتذكَّر رجُلًا مرتديًا ثوبًا أسود، مُتكلِّمًا فوقي بصوتٍ أحبَّ من صوت يسوع".

"لقد قُلتِ نعم. هل تذكرين ذلك؟"

"لم أقُل نعم. قلتُ: لِمَ لا؟"

"هذا كافٍ!"

الفصل

التاسع

احملوا نيري عليكم وتعلّموا منّي،
لأنّي وديع ومتواضع القلب،
فتجدوا راحةً لنفوسكم.

(المسيح، متّى ١١: ٢٩)

كان ارتداء الثياب هو كلّ ما استطاعت آنجل أن تعمله في الأيّام القليلة الأولى من مغادرتها السرير. وبعد أسبوعٍ من وقوفها على قدميها، خاطرت بالخروج من الكوخ. وكلّما شاهدها مايكل في ثياب تَسّي، أحسّ غُصّةً غريبة. فما من امرأتَين أُخرَيين كان يمكن أن تكونا أكثر اختلافًا: إذ كانت تَسّي رقيقة وحنونًا وصريحة وغير معقّدة، فيما كانت مارة باردة ولامبالية ومعقّدة ومنغلقة؛ كما كانت تسّي سمراء وقويّة، في حين كانت مارة شقراء ونحيلة.

لم يخدع مايكل نفسه بحسبانها قد خرجت خارجًا لأنّها تشعر بالوحدة وتريد رفقته. فهي إنّما سئمتِ البقاء محبوسةً في الكوخ، حتّى اضطرّها الضجر إلى الخروج.

وإذ كانت آنجل موحَشة وتشعر بالوحدة، فمِن ثَمّ أبدتِ انفعالًا وموقفًا دفاعيًّا عند اقتراب مايكل. فمهما يكن، فإنّها لم تُرِد له أن يحوز أيّة أفكار خاطئة.

قالت بجفاف: "متى أبدأ حراثة الحقول؟"

"في الخريف".

فرمقته بنظرةٍ حادّة.

ضحك مايكل رادًّا بيده شعرَها على كتفيها: "أيروقُكِ أن نتمشّى قليلًا؟"

"إلى أيّة مسافة؟"

"حتّى تقولي: كفى". ثمّ أمسك بيدها، محاولًا ألّا ينزعج من انطراحها في يده كسمكة ميتة. مُقاوَمة سلبيّة! وأراها مخزن عرانيس الذرَة وسَقيفة العُدّة. واصطحبها إلى الجسر الخشبيّ فوق الجدول، حيثُ كان ينوي إنشاء مبنىً صغير فوق النبع لخزن اللحم والألبان والأجبان... حين يتيسّر له شراء بقرة. ثمّ مشى بها على طول الممرّ إلى

الزريبة وأراها حصانَي الجرّ. وأشار بيده إلى الحقول التي فلحها وزرعها، ثمّ خرج بها إلى المروج المكشوفة، قائلًا: "انطلقتُ نحو الغرب بثمانية ثيران، ولم يبقَ لي إلّا الثوران اللذان تريانهما هناك".

"ماذا جرى للبقيّة؟"

"سرق الهنود واحدًا، ومات خمسة من الإجهاد. كانت المسيرة شاقّة. ولم تكن الحيوانات وحدها تموت على طول غَور هَمبولدْت".

ثمّ نظر مايكل إليها فرأى مدى شحوبها. ومسحت عرقها عن جبينها بقفا يدها. فسألها هل تُريد الرجوع، وقالت: لا. غير أنّه دار للرجوع على كلّ حال. كانت مُرهقةً وأعند من أن تعترف بذلك.

يا ربّ، هل تبقى عنيدةً هكذا بشأن كلّ شيء؟

في طريق العودة إلى الكوخ، أراها مايكل المكان الذي ينوي أن يُقيم فيه تعريشه عنب، قائلًا: "سنقعد تحتها في أيّام الحرّ. ليس أطيب من رائحة العنب ناضجًا تحت الشمس. سنُضيف غرفة نوم ومطبخًا ونُقيم رواقًا في الجهة الغربيّة، فيتسنّى لنا أن نجلس في المساء لنراقب غروب الشمس وطلوع النجوم. وفي عصر اليوم الصيفيّ الحارّ، نرتشف عصير التفّاح ونشهد حنطتنا تكبر. وكذلك أولادنا أيضًا، ذات يوم، إن شاء الله".

فانكمشت معدتها، وقالت: "لقد خطّطتَ لأعمالٍ كثيرة تدوم مدّة طويلة".

فأمسك مايكل بذقنها بأصابعه، ونظر إلى عينيها مباشرةً. "إنّها ستدوم عُمرًا بكامله، يا مارة".

وأبعدَت ذقنها بنخعة، قائلةً: "لا تتمادَ في تعليق آمالك عليّ يا سيّد. لديّ خُططي الخاصّة، وليس لك فيها مكان". ثمّ مشت باقي الطريق وحدها.

كانت النزهة نافعةً لها، إلّا أنّها أرهقتها. ومع ذلك لم تُرِد أن تدخل حالًا. فجرّت كُرسيّه خارجَ الباب كي تتمكّن من الجلوس في الهواء الطّلق. أرادت أن تشعر بدفء الشمس على وجهها. أرادت أن تتنشّق الهواء العليل. ثمّ عبثَت بشعرها نسمةُ عصرٍ رقيقةٌ، وتيسّر لها أن تشتمّ رائحة الأرض قويّةً وغنيّة. فارتخت عضلاتُها، وأغمضت عينيها.

رجع مايكل من عمله فوجدها نائمة. حتّى الكدمات التي سوّدت عينيها وحنكها لم تُعكّر منظرَ السكونِ الباديَ عليها. أمسك خُصلة من شعرها وفركها بين أصابعه، فإذا بها كالحرير. تحرّكت قليلًا. نظر إلى العمود النحيف المُحتضِن لحنجرتها البيضاء، وراقب

النبْض الثابت هناك. تشوّق أن ينحني ويضغط عليه بفمه. أراد أن يتنشّق عطرها.

يا ربّ، إنّني أُحبُّها. ولكنْ أيكون هذا شعوري دائمًا؟ فكأنَّ في داخلي ألمًا لن أتغلّب عليه أبدًا!

أفاقت آنجل. فتحَت عينيها ونظرت، فإذا مايكل واقفٌ فوقها. كانتِ الشمس وراءه، فلم تستطع رؤيةَ وجهه، ولا تخمينَ ما يدور في فكره. دفعَت شعرها إلى الوراء، ونظرت إلى البعيد. "منذُ متى أنا جالسةٌ هنا؟"

"لقد بدا عليكِ السكون. آسِفٌ إذا أيقظتُك. اكتسبَ خدَّاك بعض التورُّد".

مسَّت خدَّيها، فأحسَّتِ الدفء. "أضِفِ اللون الأحمر إلى الأسود والأزرق!"

"أأنتِ جائعة؟"

كانت كذلك. "لعلّك أيضًا تودُّ مباشرة تعليمي الطَّبخ". وأجفلت من الألم إذ نهضت ولحقت به إلى الداخل. لا بدَّ أن تُضطرَّ إلى تعلُّم الطبخ لنفسها حين يكون لها مسكنٌ خاصٌّ بها.

"أوّل أمرٍ يجب القيام بهِ أن تُشعلي نارًا جيّدة". حرَّكَ الجمر وسوَّى مهدًا من نار، ثمَّ أضاف مزيدًا من الحطب. وخرج حاملًا الدلو، ثمَّ عاد بقطعة من لحم الغزلان المُملَّح، فقطَّعها وأسقطها في قِدر الغلي. وكان في وسع آنجل أن تشمَّ رائحة الأعشاب الحرِّيفة[٥] وهو يفركها بين راحتيه ثمَّ يُلقيها في المياه المُبقبِقة.

"سنترك الطبخ إلى حين. تعالَي معي إلى الخارج". ثمَّ أخذ سلَّة، وتبعَته آنجل إلى بُستانِ خُضَر، حيث قرفص وعلَّمها كيف تعرف الجزرات والبصلات الجاهزة للقلع. واقتلع نبتة بطاطا ناضجة. فلم تُرِد آنجل أن تعترف بأنّها دُهشت. فلو سألَها أحدٌ، لكانت تقول إنَّ البطاطا تأتي من إرلندا. وقد نتج من النبتة التي اقتلعها رؤوس بطاطا تكفي لبضعة أيّام.

لمّا اعتدلت آنجل، رأت هوشع مقرفصًا على بعد بضع أقدامٍ منها، يقتلع نباتًا ويرميه جانبًا. فجمَّدتها ذكرى مُوجِعة لاحت فيها ماما في حديقتها تحت ضوء القمر. "لماذا تقتلع حديقتك؟"

رفع مايكل نظرَه إليها، وقد لفتته لهجتُها؛ فإذا وجهُها شاحب ومكفهرّ. فاعتدل ومسح يديه على بنطلونه. "إنّني أقتلع الأعشاب الضارَّة، فهي تخنق كلَّ شيء سواها.

٥) الحرِّيفة: أي الحادة اللاذعة.

لم يُتَح لي وقتٌ للعمل هنا. من الأشياء التي سأطلبُها منك أن تعتني بالحديقة، متى صرتِ مستعدَّةً".

ثمَّ التقط السلَّة، وأومأ برأسه نحو التلال، قائلًا: "هنالك أيضًا بعض البقول والثمار البرِّيّة، معظمُها من الهندباء والخردل والخسّ البرّيّ. سأُعلّمكِ عمّا تبحثين. في أسفل الجدول، على بُعد نصفِ ميل، عُلَّيق مُثمِر. وثمار العُلّيق تنضج أواخرَ الصَّيف. وعلى بُعدِ نصف ميل، في أعلى التلّ، عِنبيّة[٦]. ولدينا أيضًا تُفّاح وجَوز". ثمَّ ناولها السلَّة قائلًا: "يمكنكِ أن تغسلي هذه الخُضَر في الجدول".

عملَت آنجِل بما قاله مايكل، ثمَّ رجعت إلى الكوخ. فعلَّمها مايكل كيف تقشرها وتبشرها، وتركها لتفعل ذلك. وكان اللحم يغلي في القدر على النار، فحمل كُلَّابة حديد وسحب القِدر إلى طرف النار الآخر. "حرِّكيها بين حينٍ وآخر. أنا ذاهبٌ لأعتني بالماشية".

لم يبدُ أنَّ اليخنة تغلي بالسرعة الكافية. فأعادت آنجِل القدر إلى وسط النار. وعندئذٍ غلَت بسرعة زائدة، فزلَّقتها إلى الطرف. وظلَّت آنجل منشغلةً بالقِدر، مُحرِّكة لها ومُزلِّقة، ثُمَّ مزلِّقةً ومُحرِّكة، وقد أجهدَتها الحرارةُ والعمل. فردَّت عن جبينها خُصَل شعرها المُبلَّلة، وعيناها تؤلمانها بشدَّة من الدخان.

دخل مايكل حاملًا دلوَ ماء، ما لبث أن حطَّه أرضًا والماءُ يُطرطِش منه. "انتبهي!" وأمسك بذراعها مُبعِدًا إيَّاها عن النار خطفًا.

"ماذا تفعل؟"

"تنُّورتُك تُدخِّن. دقيقةً واحدةً بعد، فيتصاعدَ منك اللهيب!"

"اضطُرِرتُ إلى الاقتراب قربًا كافيًا لأُحرِّك اليخنة!" كان غطاء القدر يُطرطِق، والطبخة تغلي من فوق الحافة وتهسُّ على الجمر الأحمر. وبغير تفكير، أمسكت بالمسكة. فزعقت، وسبَّت سُبابًا ثقيلًا، وأنزلتِ الكُلَّاب من جديد.

"على مهل!" نبَّهها مايكل، ولكنَّ مزاجها لم يُمكِّنها من الإصغاء. وجذبَت جذبًا عنيفًا فأزاحتِ القضيب الحديديَّ، فرنَّ، وسقطتِ القدر، فانسكب ما فيها. وطشَّت النار وفرقعت بشدَّة. وانتشرت سحابةٌ من الدُخان ملأتِ الكوخ برائحةٍ نتنة رهيبة منبعثة من اليخنة المحروقة. حتّى ذلك الأمر البسيط لم تتمكَّن من القيام به حسنًا!

٦) عنبيّة: شجيرات عُلّيق التوت البري.

من ثَمَّ طرحَتِ الكُلّاب في الموقد مع الخبيص[٧]، وقعدت على كرسيِّ الصفصاف. وأمسكت بضلوعها المُوجَعة، منحنيةً إلى الأمام.

فتح مايكل النافذتين والباب، فبدأ الدخان ينقشع.

راقبَت آنجل، وهي مُطبِقةٌ أسنانَها بإحكام، قطعةً من لحم الغزلان تحترق مشتعلةً. "غداؤك جاهز يا سيِّد!"

حاول ألّا يبتسم. "سيكون أداؤكِ أفضل في المرَّة التالية".

حملقت به مُغضَبةً. "لا أعرف شيئًا عن الطبخ. لا أعرف العُشبة الضارَّة من الجزرة. وإن أوقفتَني وراء محراثك، فلن تحصل على تلمٍ مستقيم يصلح للزَّرع". ثمَّ وقفَت وقالت مشيرةً إلى السرير: "تُريد منِّي أن أشتغلَ. حسنًا. سأشتغل. بالطريقة الوحيدة التي أُتقِنها. هناك تمامًا. الآن حالًا، إن شئتَ يا سيِّد. وإن كان السرير لا يوافق هواك، فما قولك في تجريب الأرض، أو إسطبلك، أو أيِّ مكانٍ آخر تشاؤه؟ مهما أردتَ، إنَّما أعلِمني".

فزفر نفَسًا وقال: "لم تكن سوى قدر يخنة، يا مارة".

وتوقَّدت خيبةَ أمل. "كيف انتقاني قدّيسٌ مثلك؟ أتمتحن إيمانك؟ أهذا هو الواقع؟" ثمَّ نفرت وجاوزته خارجةً من الكوخ.

أرادت أن تهرب، ولكنَّها لم تقدر. فكلُّ خطوة رافقها ألمٌ شديد. ولم تكَد تصل إلى الحقل حتَّى اضطُرَّت إلى التوقُّف لاسترداد نفَسِها. كان قد خضَّها لَمَّا سحبها بعيدًا عن النار، وآلمها جسمُها كلُّه. غير أنَّ ألم جسدها لم يكن شيئًا بالنسبة إلى اشمئزازها وذُلِّها. فهي غبيَّة! لا تعرف شيئًا! كيف كانت تنوي أن تدبِّر أحوالها وحدَها وهي لا تستطيع أن تطهوَ ولو طبخةً بسيطة؟ حتَّى إنَّها لا تعرف كيف تُشعِل نارًا. إنَّها لا تعرف أيَّ أمرٍ ضروريٍّ للبقاء.

سوف تتعلَّمين.

"أوه، لا، لن أتعلَّم! لستُ أطلب مساعدةً منه. لن أكون مديونةً له بشيء". ثمَّ شكَّلت يدها المحروقة قبضةً. "لم أطلب منه أن يرجع. لم أطلب أيَّ شيءٍ من هذا".

ونزلت إلى الجدول كي تُبرِّد يدها وتُداوي مظالمها.

---

٧) الخبيص: الناتج من اليخنة التي اختلطت بحطب الموقد ورماده.

الفصل

العاشر

لكن هأنذا أتملّقها، وأذهب بها إلى البرّيّة،
وألاطِفها، وأُعطيها كرومها من هناك، ووادي
عخور بابًا للرجاء.

(هوشع ٢: ١٤ و١٥)

كانت خبيصة الموقد قد نُظِّفت لمّا رجعت آنجل، ولكنَّ هوشع كان قد مضى. توقَّعت أن تشعر بالارتياح من جرّاء غيابه، غير أنَّ ذلك لم يحصل، بل عمَّ داخلَها بالأحرى فراغٌ جعلها تشعر بأنَّها تنجرف في فضاءٍ خاوٍ. أكان في مكانٍ ما خارجًا يُفكِّر مليًّا في عقابٍ يُناسِب انفجار غيظها؟

لا بدَّ أن يحسبها حمقاء للغاية. فهي مُتيقّنة بأنَّ أُخته كانت تُحسِن إشعال نار، وطهوَ طبخة طيّبة، وحراثة حقل، والقيامَ بأيِّ أمرٍ آخر تدعو إليه الحاجة. والأرجح أنَّها كانت تعرف كلَّ نبتة برّيَّة تؤكل، من الأطلسيِّ إلى الپاسيفيكيّ، عن بُعدِ مئة قَدَم. والأرجح أيضًا أنَّها كانت قادرة على استِرواح الطرائد البرّيَّة من بعيد وإطلاق النار عليها بدقَّة، ثمَّ إعدادها بيديها.

قعدت خائبةً خائرةً على الأرض قبالة الموقد تنظر إلى النار الخامدة. حياتي هكذا تمامًا: ثغرةٌ في جدار، عقيمةٌ باردة عديمة النفع. كانت حمقاء خرقاء. صحيح، ولكنَّها حسناء. ثمَّ مسَّت وجهها، فقالت إنَّها كانت ذات حُسنٍ في ما مضى.

نهضت. عليها أن تعمل شيئًا ما، أيَّ شيءٍ كان. كانت في حاجة إلى النور والدفء. وقد سبق لها أن شاهدت هوشع يُشعِل نارًا أحيانًا كافية. لعلَّها تستطيع فِعْل ذلك بنفسها. فأتت برقائق حطب وكوَّمتها، ثمَّ وضعت عليها ضَرَمًا[٨] وقُضبانًا صغيرة. وتناولت الصوّانة والقدّاحة عن الرفّ. وحاولت وحاولت جاهدةً، فلم تكد تقدح شرارةً واحدة.

---

٨) الضرَم: مادة ملتهبة تُضرَم بالنار.

وقف مايكل بالباب يُراقِبها. كان قد خرج يبحث عنها في وقتٍ أبكر فوجدها جالسةً قربَ الجدول، مكتئبةً جدًّا حتَّى فاتها أن تلحظ وجوده. ووقف جانبًا يحرسُها حتَّى رجعت إلى البيت مُتثاقِلةً. لقد بدا كما لو كان غير مرئيّ. إذ كانت مُكتنِفةً ذاتها بذاتها، بشقائها وأفكارها السوداء، حتَّى عَمِهَت عن رؤية كلِّ شيءٍ آخر... ولا سيَّما هو.

وضعت قبضتَيها على عينيها شاتمةً جهرًا.

مسَّ مايكل بيده شعرَها برفق، فأحسَّ إجفالها. "دعيني أُرِكِ كيف تفعلين هذا". ثمَّ قرفص قربها ومدَّ يده، فناولته العُدَّة. "أوَّلَ كلِّ شيء، لا يمكنكِ أن تتوقَّعي إشعالها تمامًا من أوَّل محاولة. فالأمر يحتاج إلى تمرُّس". وهمَّ أن يقول: مثل طبخ اليخنة... مثل عيش حياةٍ مختلفة.

راقبته آنجل وهو يرتِّب الوقدة ويقدح الصوّانة، حتَّى علقت شرارةٌ فنفخ عليها برفق إلى أنَّ دخَّنت الرقائق وبدأت تشتعل. ثمَّ أضاف ضَرَمًا قليلًا، وبعده قضبانًا أكبر. وما هي إلَّا دقائق حتَّى كانت النار مشتعلة.

اعتدل مايكل وقعد، مُسنِدًا ساعِدَيه على ركبتيه المرفوعتين. كان ناويًا أن يستمتع بالنار وبقرب مارة، ولكنْ كانت لديها هي أفكار أُخرى. إذ تناولت المِسعَر[9] وخبطت القضبان وبدَّدت الضَّرَم والحطب، وسحقت حتَّى آخِرَ جمرة.

ثمَّ ركعت أقربَ إلى الموقد، ورتَّبتِ الوقدة مثلما فعل هو تمامًا. فعلت ذلك على نحوٍ صحيح ودقيق. وبعدئذٍ قدحت الصوّانة بالقدَّاحة، فأحدثت شرارة، لكنَّها لم تعلق. وحاولت ثانيةً، بعزمٍ أوفى، فأخفقت. آلَمتها يدُها المحروقة على نحوٍ بغيض، ولكنَّها تشبَّثت بالعُدَّة بتصميمٍ مُطلق حتَّى بدأ العرق يتصبَّب من كفَّيها. ولدى كلِّ إخفاق، ازداد وجع صدرها، حتَّى تغلغل الألم في جميع أوصالها، عميقًا ومُوهِنًا للغاية بحيث ارتدَّت قاعدةً على عَقِبَيها.

"لا أستطيع!" أيُّ نَفعٍ في ذلك؟

انفطر قلبُ مايكل لها. لم تكُن قد بكَت مرَّةً واحدة، حتَّى حين كانت فاقدةَ الوعي من جرّاء الحُمَّى. والله عليمٌ بأنَّها كانت تحتاج إلى البكاء. "خلِّي عنكِ، يا مارة!"

"لا بأس". وضعَت آنجل الصوّانة والقدَّاحة بينهما. "قُم أنت بالأمر".

"ليس هذا ما أعنيه. إنَّكِ تبذلين جهدًا يفوق طاقتكِ. وأنتِ تتوقَّعين القيام بكلِّ

٩) المِسعَر: قضيب معدني يُستخدم لإذكاء النار بتحريكها.

شيءٍ حسنًا. إنّما هذا غير ممكن".

"لستُ أدري عمّا تتكلّم. كلُّ ما أُريده هو أن أُشعِل نارًا".

"حتّى إنّنا لا نتكلّم اللغةَ عينها"، قالها على نحوٍ مفاجئ. لعلّه كان كمن يتكلّم بلغةٍ غريبة لا يفهم السامع منها شيئًا. "كأنّكِ تُقاتلينَني، في ما لا داعيَ إلى ذلك".

أبَت أن تنظر إليه. "أشعِلْها من جديد فأعرف في ما أخطأتُ".

ففعل كما طلبت، وهي تراقب عن كثب، فأدركت أنّها لم تُخطئ في شيء. لماذا لم تشتعل نارُها؟ ها هو الموقد مليءٌ بالنار المتأجّجة المتوهّجة، وقد أنجز الأمر كلّه في لُحَيظات. إنَّ نارها لم تنطلق قط؛ أمّا نارُه فيمكن أن تدوم الليلَ بطوله.

هبَّت آنجِل واقفةً، وخطَت مبتعِدةً. لقد كرهَت كفاءته، كما احتقرت هدوءه. وأرادت تدمير كِلَيهما، وليس بيدها إلّا سلاحٌ واحد تُحسِن استخدامه.

تمدّدَت مُتلوّيةً، مُدرِكةً تحديقه إليها، وقالت وهي تقعد على السرير: "أعتقد أنّني سأنال مأربي أخيرًا. في كتفيَّ وجعٌ شديد. هلّا تُمسّجهما لي كما فعلتَ سابقًا!"

فعل مايكل ما طلبت. فبدّد بتمسيده تشنُّج عضلها، فيما ضاعف تشنُّج عضله. وقالت بلهجةٍ مُثيرة جعلت نبضاته تتسارع:

"خيّ، ما أحسن هذا الإحساس!" فيما انزلق شعرُها إلى الوراء وكان حريريَّ الملمس على يديه. ولمّا أسند إحدى رُكبتيه على السرير، وضعت يدها على فخذه.

راح يُفكّر باكتئاب: هكذا إذًا! لقد تصوّرَت أنّها لم تستطع إشعال نارٍ في الموقد، فلذلك ابتغَت أن تُضرِم أُخرى في داخله عوضًا عن تلك. ولم يستغرق ذلك أيَّ وقتٍ قطّ. فانكفأ مُتراجِعًا.

لاحظت آنجل انكفاءه، فلحقت به. ودسّت ذراعها حول خصره، ضاغطةً بصدرها على ظهره المستقيم. "أعرِف أنّني بحاجةٍ إلى من يعتني بي، وأنا مسرورة لأنّك رجعتَ لأجلي".

يا يسوع، أعطِني القوّة! أغمض مايكل عينيه. ولمّا تحرّكت يداه، أمسك بمِعصَميها وتحرّر تمامًا من معانقتها.

عندما أدار وجهه، كانت آنجِل مستعدّة، فهي تعرف كيف تُمثّل دورها، وتعلم كلَّ الكلمات غيبًا. كلمات رقيقة فاترة... كلمات محسوبة لتُمزّق قلبه، لتُشعِره بأنَّ رفضه آذاها. لتبعث فيه الشعور بالذنب مع دمه الحرّان المُبقبِق. لتوفّر له أسبابًا وأعذارًا كي يستسلم. فذلك المساء الأخير في الماخور كان قد أضعفه فعلًا. وها هو... حملًا جاهزًا للذبح!

تقدَّمت إليه آنجل من جديد، مُخمِدةً عواطفها ومُستخدِمة عقلها بالحريّ. ثمَّ جذبت رأسه العاليَ نحوها، وقبَّلته. فغرز مايكل أصابعه في شعرها وبادلها القُبلة.

استخدمت ما تُحسِنه لتشنَّ عليه حربًا. لم تكن تعرف شيئًا عن إشعال النار أو طبخ اليخنة، غير أنَّها كانت تعرف كلَّ ما يتعلَّق بهذا الأمر.

أفلت منها، وتشبَّث بكتفيها قائلًا: "أنتِ لا تلينين أبدًا"، غيرَ راغبٍ في الاستسلام.

حدَّقت إليه آنجل فعلمت أنَّه لم ينخدع. فقد عرف تمامًا ماذا كانت تفعل ولماذا. وحاولت أن تُفلِت منه، إلَّا أنَّه لم يدَعها. "لا داعيَ لإتمام الأمر بالطريقة التي تعرفين".

"أفلِتني!" وجاهدت مسعورةً. فتبيَّن لمايكل أنَّها تؤذي نفسها، فأرخى قبضتيه عنها. وابتعدت عنه مسافةً لا بأس بها.

"هل جعلكِ ذلك كلُّه تشعرين بأيِّ تحسُّن؟"

قالت كذبًا: "نعم!" مُهَسهِسةً من بين أسنانها.

"ساعدني يا ربّ".

أرادت له أن يشعر بما يتعدَّى الانزعاج البدنيّ. أرادت أن تمحقه. أرادت أن تراه يتلوَّى كدودةٍ على صنّارةِ صيد. فتهالكت على كرسيِّ الصفصاف، مُتصلِّبةَ العنق، وحدَّقت إليه مباشرةً.

نظر إليها مايكل بفتور، فإذا صمتُها يجأر بالدَّنس في وجهه. حسبَت أنَّها خسرت، ولكن هل تظنُّ أنَّه كسب؟

خرج مايكل خارجًا. يا ربّ، أَفي جسد هذه المرأة عظمَةُ تَسوِية؟ أم هذا هو ما ينبغي لي أن أتوقَّعه منها طول عمري؟! يا يسوع، إنَّها لا تلتزم أُصول القتال.

إنَّها تقاتلك بالطريقة الوحيدة التي تُحسِنها.

نزل مايكل إلى الجدول وجثا على ركبتيه، ونضح وجهه بالماء. وقد بقي على ركبتيه طويلًا. ثمَّ ذهب إلى مخزن الحبوب لإحضار حوض الغسيل المعدنيّ.

لمَّا دخل، ظلَّت آنجل مُديرةً ظهرها له. ووضع الحوض قبالة الموقد. فأجالت نظرها من الحوض إلى مايكل ثمَّ إلى البعيد، بغير أن تقول كلمةً واحدة. هل جعلَته يشعر بأنَّه مُتَّسِخ؟ أم يحتاج إلى حمَّام الآن ليغسل أثرها عنه؟ ثمَّ قضى الساعة التالية ناقلًا الماء من البئر ومسخِّنًا إيّاه في القدر السوداء الكبيرة المُدلّاة فوق النار. وألقى صابونةً في الماء، ثمَّ قال مغادرًا: "أنا ذاهب في نُزهة".

توجَّهَت إلى الباب تحت وطأة المفاجأة، وفتحته. فإذا بمايكل يواصل المشي إلى

أن توارى بين الشجر. فأغلقت الباب مُقطّبةً، وخلعت ثيابها، وقعدت في المغطس. ثمّ فركت شعرها وجسمها بشدّة، ساكبةً الماء الساخن عليها للشّطف، وخرجت من المغطس. أرادت أن تنتهي قبل أن يرجع. وكان قد ترك منشفةً مطروحة على ظهر الكرسيّ، فنشّفت جسمها ولفّت شعرها، ثمّ لبست بسرعة. وقعدت قبالة النار من جديد، وحلّت المنشفة، فإذا شعرُها كتلة متداخلة، فحاولت تمرير أصابعها عبر العُقَد.

مضى أكثر من ساعة ومايكل لم يرجع.

لّما انفتح الباب وراءها أخيرًا، رفعت نظرها إلى مايكل. كان شعره الأسود مبلّلًا. فافترضَت أنّه استحمّ في الجدول البارد جدًّا، وأحسَّت وخزة شعور بالذنْب وشكّ. وبينما جال في أنحاء الكوخ مُتململًا، ظلّت تُسرّح شعرها بأصابعها، متنبّهةً إلى كلّ حركة من حركاته. ثمّ فتح الصندوق وأغلقه بسفقة. وإذ مرّ مُتجاوزًا إيّاها، رمى بفرشاةٍ في حضنها. فالتقطتها وتفحّصتها، مُطبقةً حلقها. وبعدما رفعت نظرها إليه، أخذت تُفرشي شعرها ببطء، فيما وقف هو مُسندًا وَرِكَه إلى الطاولة ومراقبًا لها. لم تدرِ أنّه كان يفكّر. ولم تدرِ ماذا تقول.

قال: "إيّاكِ أن تفعلي بي ذلك مرّةً أُخرى!"

كان شاحب الوجه، فشعرت بشيءٍ يتحرّك في داخلها مُنفتلًا بشدّة وغائرًا إلى الأعماق، وإذ ذاك قالت: "لَن أفعل"، وهي تعني ما تقول.

قعد مايكل على كرسيّ الصفصاف قبالة النار، ويداه مَرخيّتان بين ركبتيه. حدّق إلى ألسنة اللهب طويلًا. "أعتقد أنّي تذوّقتُ تمامًا ما كانت عليه حالُكِ".

رمقته بنظرةٍ مفاجأة. "ماذا تعني؟"

نظر إليها. "ليس الشعور بالاستغلال حسنًا. مهما كان السبب".

تلوّى في داخلها شيء، فيما ألقتِ الفرشاة في حضنها وأخذت تحدّق إليها ببؤس. "لستُ أدري ما أنا فاعلةٌ هنا مع رجُلٍ نظيرك".

"عرفتُ لحظةَ رأيتُكِ أنّني سأتزوّج بكِ".

أمالت رأسها. "قلتَ لي هذا. اسمع يا سيّد! دعني أشرحْ لك بعض حقائق الحياة. فلّاحٌ يُقيم وحيدًا طيلة أسابيع بعيدًا عن المدينة ثمّ يتوجّه إليها... كان ممكنًا أن تنظر إلى الجانب الجنوبيّ من فَرَسٍ متوجّهةٍ غربًا، فتعرف أنّها المُناسِبةُ لك".

فابتسم مايكل ابتسامةً كئيبة، قائلًا: "لقد لفتني وجهُكِ الفتيّ الجامد البارد. ثُمّ ما بقي منكِ". وتردّدت حَملقتُه عليها من فوقُ إلى تحت. "كنتِ غاطسةً في السواد

كالأرملة، وكان مَغوان يرافقك. يُخيَّل إليَّ أنَّه كان يُعنى بألَّا تهربي".

لم تقل شيئًا وقتًا طويلًا. أطبقت عينيها وحاولت ألَّا تُفكِّر في أيِّ جزء من تلك النتانة التي خُيِّل إليها أنَّها تملأ الغرفة وتلبث فيها. لم تستطع أن تتخلَّص منها، إذ كانت قابعةً هناك تحت رائحة النظافة المنبعثة من الصابونة التي أعطاها إيَّاها لتستعملها. لقد كان النَتَن داخِلَها، ساريًا في دمها.

"هل تذكرين لمَّا سألتِني عن اسم هُوشَع أيُّ نوعٍ من الأسماء هو، فقلتُ لكِ إنَّه كان اسمَ نبيّ؟"

شرعت تُفَرشي شعرها من جديد ببطء، ولكنَّ مايكل علم أنَّها تُصغي إليه هذه المرَّة. "كان هوشع نبيًّا، طلب إليه الله أن يتزوَّج بمومس".

رمقته بنظرةٍ ساخرة: "هل قال لك الله أن تتزوَّج بي؟"

"نعم، قال لي".

ازداد هزؤها. "أيُكلِّمكَ شخصيًّا؟"

"إنَّه يُكلِّم كلَّ إنسان شخصيًّا. إنَّما معظم الناس لا يُكلِّفون أنفسهم الإصغاءَ إليه".

خيرٌ أن تتهكَّم به. "آسِفةٌ لمقاطعتك. كنتَ تحكي لي قصَّة. ماذا جرى تاليًا؟ هل تزوَّج ذلك النبيُّ بالمومس؟"

"نعم. تصوَّر أنَّ الله كان لديه سببٌ حتمًا... سببٌ وجيه".

لعلَّه السببُ عينُه الذي دفعه هو. "وهل تمكَّن هُوشع هذا منِ استئصال الخطيئة من زوجته؟ أعتقد أنَّها زحفت نحوه على وجهها وقبَّلت قدميه لأنَّه خلَّص نفسها".

"لا، بل رجعت إلى البغاء".

انكمشت معدتها. رفعت إليه نظرها وتأمَّلت وجهه. فاكتفى بأن بادلها النظر في وقارٍ وتحفُّظ وإبهام، فيما قالت بهدوء: "إذًا ليس الله قديرًا على كلِّ شيء في نهاية المطاف، أهو كذلك؟"

"قال له الله أن يذهب ويستردَّها من جديد".

فعبست قليلًا. "وهل فعل ذلك؟"

"نعم".

"فقط لأنَّ الله طلب منه ذلك؟" ما مِن رجُلٍ يقبل أن يفعل ذلك.

"نعم، ولأنَّه يحبُّها".

نهضت ومضت لتنظر من النافذة إلى السماء المُعتِمة. "الحبّ؟ لا، لستُ أعتقد

أنَّ هذا كان السبب الذي حرَّكه. لقد كانت كبرياؤه السبب. فالنبيُّ الجليل أبى أن يعترف بأنَّه لم يستطع أن يبقى ملتصقًا بها من تلقاء ذاته".

"الكبرياء تُنفِّر الرجُل، يا مارة. فهي نفَّرتني منكِ تلكَ الليلة الأخيرة في بيرأدايس".

وكان ينبغي له أن يُصغي إلى الربِّ ويرجع. كان ينبغي له أن يسحبها خارجًا من هناك مهما رفست وزعقت.

نظرت آنجل إليه من فوق كتفها مُديرةً رأسها قليلًا. "إذًا لازمتِ النبيَّ بعد ذلك؟"

"لا، بل غادرته مرَّةً أخرى. وكان لا بدَّ أن يشتريَها ويفتدِيَها من العبوديَّة ثانيةً".

لم تعجبها قصَّتُه كثيرًا. "ثُمَّ بقيَت عنده؟"

"لا، بل ظلَّت تهرب. حتَّى إنَّها ولدت أولادًا مِن سواه".

أحسَّت ثقلًا على صدرها. وتهكَّمت به مُدافِعةً، إذ قالت هازئةً والسخريةُ تتقطَّر تقطُّرًا: "وأخيرًا رجمها بالحجارة حتَّى الموت. أليس كذلك؟ لقد بعث بها أخيرًا إلى حيثُ تنتمي".

لم يُجبها، فأولَته ظهرها مجدَّدًا. "ما مقصدك، يا سيِّد. هلَّا تقوله لي!"

"سيكون عليك ذات يوم أن تتَّخذي قرارًا".

لم يَزِد على ذلك كلمة، وتساءلَت هي هل كانت تلك نهاية الحديث. لكنَّها أطبقت أسنانها بإحكام. فهي لن تسأله عنِ البغيِّ هل لازمَتِ النبيَّ دائمًا، أم هل تخلَّى النبيُّ أخيرًا عن محاولات إبقائها.

نهض مايكل، وفتح علبَتي فاصوليا، وأفرغهما في قدر. وما هي إلَّا لُحَيظات حتَّى سخنت الفاصوليا، فقدَّمها قائلًا: "اقعدي وكُلي معي، يا مارة".

فقعدت معه إلى الطاولة. ولمَّا حنى رأسه وصلَّى، عصف بها الغضب مجدَّدًا من الداخل. وإذ حاولت تجاهُلَه، شرعت تأكل. حتَّى إذا نظر إليها ابتسمت له ابتسامةً تحدٍّ مشدودةً، وقالت: "هل تعرف ما أفكِّر فيه؟ أعتقد أنَّ الله دفعك إلى التزوُّج بي ليعاقبك على خطيئةٍ كبيرةٍ ارتكبتَها في ماضيك. هلِ اشتهيتَ نساءً كثيراتٍ، يا سيِّد؟"

قال: "أُبتَلى بذلك أحيانًا"، رامقًا إيَّاها بنظرةٍ حزينة. ثمَّ أكل باقيَ وجبتِه في صمت.

حسدته على سلامه وانضباطه. ولمَّا انتهى، أخذت صحنه ووضعته على صحنها، قائلةً. "بما أنَّك قمتَ بالطبخ، فسأغسل أنا الصحون". لم تكن تحبُّ الظلام خارجًا، ولكنَّه كان أفضل من البقاء في الكوخ معه. فقد يبدأ بإخبارها قصَّةً أُخرى من قصصه البغيضة، قصَّةً حلوةً حقًّا هذه المرَّة، شيئًا ما عن أبرص (مجذوم) أو ذي قروح نزّازة.

عندما فرغت من غسل الصحون، قعدت قرب الجدول حينًا. كان الألم يسري في جميع أنحاء جسمها، فعلمت أنَّها أجهدت نفسها كثيرًا اليوم. غير أنَّ مجرَّد الإصغاء إلى خرير الماء سكَّن أعصابها المتوتِّرة.

وقالت لنفسها: "ماذا أنا فاعلةٌ هنا؟ ماذا أنا فاعلةٌ هنا معه؟"

هبَّت نسمةٌ لطيفة أصدرت حفيفًا في أوراق شجر الحور القطنيّ. وكان في وسعها أن تُقسِم أنَّها سمعت صوتًا رقيقًا. فالتفتت، إلَّا أنَّها لم تجد أحدًا هناك. فأخذتها رعدة، ومشت راجعةً بسرعة، فرأت هوشع مُتَّكئًا على إطار الباب ينتظرها. كانت يداه مدسوستين في جيبيه. فدارت حوله ودخلت الكوخ، ثمَّ وضعتِ الصحون بعيدًا. كانت مُتعبةً، وأرادت أن تأوي إلى السرير.

تجرَّدت من ثيابها، واندسَّت تحت اللحاف بسرعة. ثمَّ استلقت هناك مُفكِّرةً في عودة تلك المرأة إلى البغاء. ربَّما كانت لديها هي أيضًا دوقةٌ تحتفظ بمالها. ربَّما دفعها النبيُّ إلى ما يُشبِه الجنون، مثلما كان هذا الفلَّاحُ يُثير جنونها. ربَّما أرادت فقط أن تُترَك وحدها. فهل فكَّر النبيُّ في ذلك فعلًا؟

تصلَّبت آنجل لمَّا اندسَّ مايكل في السرير بجانبها. ما كان عليها أن تلوم إلَّا نفسها. دعيهم يتذوَّقوا طعم قُبلة، فيطلبوا الوجبةَ كاملةً. حسنًا، كلَّما تمَّ الأمر على نحوٍ أسرع، تيسَّر لها أن تخلد إلى النوم بسرعةٍ أكثر.

جلست، وردَّت شعرها بنفاد صبر على كتفها، ونظرت إليه شزرًا بعزم مقيت.

"كلّا!"

فاجأتها نظرة التلهُّف التي رمقها بها. "كلّا؟"

"انظر، يا سيِّد. لا يمكنني أن أقرأ أفكارك. عليك أن تقول لي ما تريده".

"أُريد أن أنام في سريري الخاصّ وزوجتي بجانبي". ثمَّ أمسك بخُصلة من شعرها وجذبها برفق، مُضيفًا: "ذلك كلُّ ما أريده!"

وعادت فاستلقت متحيِّرةً. وانتظرته حتَّى يُغيِّر فكره. إنَّما بعد وقتٍ طويل، ثقُل تنفُّسه. فأدارت رأسها بحذر ونظرت إليه في ضوء النار. لقد كان نائمًا. وتأمَّلت صورته الجانبيَّة المسترخية وقتًا طويلًا، ثمَّ أدارت وجهها بعيدًا عنه.

حاولت آنجل أن تُبقيَ مسافةً بين جسميهما. غير أنَّ مايكل هوشع كان يملأ السرير مثلما كان يملأ الكوخ... بل مثلما كان قد بدأ يملأ حياتها.

الفصل
الحادي عشر

في منتصف رحلة حياتنا،
عدتُ إلى سبيل الرشاد في غابةٍ مُظلِمة.

(دانتي)

أَنّت آنجِل فيما انحنى دوك فوقها، وضحك ضحكًا خفيضًا. وناداها شخصٌ من مسافةٍ بعيدة جدًّا قائلًا: "هل ظننتِ أنّكِ تقدرين أن تهربي من الألِف والياء؟" ولكنَّ صوت دوك ظلَّ يطغي على الصوت الرقيق الهادئ: "ظننتِ أنَّ أربعة آلاف ميل تكفي، ولكنْ ها أنا هنا".

ونفرت مبتعدةً عن دُوك، محاولةً أن تسمع مَن كان يناديها، إلَّا أنَّ دوك جذبها إليه ثانيةً. "أنتِ لي. نعم، أنتِ لي دائمًا، وأنتِ تعرفين ذلك. أنا الشخص الوحيد الذي ستظلّين له أبدًا". وكانت تفوح من أنفاسه رائحة كبوش القرنفل التي اعتاد مضغها بعد تدخين سيكار الشيروت. " أنا أعرف ما تفكّرين فيه، يا آنجل. إنّني قادر على قراءة أفكارك. ألم تكن هذه حالي دائمًا؟ ترجّي كلَّ ما تتمنّين، ولكنّني لن أموت أبدًا. حتّى حين تزولين من الوجود، سأبقى أنا حيًّا. فلا يحدُّني زمان".

قاومَته، إلَّا أنّه لم يكن مادّةً يمكن دفعُها بعيدًا، بل كان ظلًّا يُخيِّم عليها ويشدُّها نزولًا في قلب حفرة سوداء عميقة. وأحسَّت جسمها يمتصُّه وهي تَهوي إلى القعر، فيما أخذ يتغلغل في جميع مَسامّها حتّى بات السواد داخِل كيانها، وشرعت تنهش لحمها بيدها. "لا، لا!"

"مارة، مارة!"

استيقظت فجأةً، وقدِ انفغر فمُها بصرخةٍ صامتة. فقال مايكل بلطف، جالسًا على حافة سريرها: "مارة". وحاولت تسكين رجفتها وهو يُزيح شعرها عن وجهها. "أنتِ تَرَين كوابيسَ كثيرة. فعمَّ هي؟"

أراحها قليلًا صوته ولمسته الرقيقان. لكنّها أزاحت يده، قائلةً كذبًا: "لا أتذكَّر"، ودوك منطبعٌ في ذهنها. أما زال يفتّش عنها بعد مرور ذلك الزمن كلّه؟ لقد عرفَت

الجواب فشعرَت بالبرد. كانت ما تزال تُشاهِد وجهه، كما لو أنَّها هربت منه أمس، لا منذ سنة. فسيعثر عليها ذات يوم، وعندئذٍ...

لم تقدر أن تتحمَّل التفكير في ذلك. ولم تجرؤ على العودة إلى النوم. فمن شأن الكابوس أن ينتابها مجدَّدًا ويجريَ مجراه المعتاد.

"مارة، قولي لي ممَّا أنت خائفة".

قالت بحزم: "لا شيء. إنَّما دعني وشأني".

وضع مايكل يده على صدرها، فانقبض عضلها. "إذا ازداد خفقان قلبك، فسيخرج خارجَ صدرك".

"هل تأمل أن تصرف ذهني إلى شيءٍ آخر؟"

أبعد مايكل يده. "بيننا ما يتعدَّى الجنس".

فأدارت ظهرها نحوه قائلةً: "لا شيء بيننا على الإطلاق".

نزع مايكل اللحاف عنها. "سأُريكِ ما بيننا غير ذلك".

"قلتُ لكَ: دعني وشأني!" ثمَّ نترَتِ اللحاف وردَّته عليها، وهي ما تزال منزعجةً من الكابوس ومن وجودها معه.

جذب مايكل أغطية السرير، ولفَّها معًا، ثمَّ رماها على الصندوق في الرُّكن. "انهضي. قومي الآن. سنذهب، شئتِ أم أبيتِ".

ذُعِرت أنجِل منه إذ لاح فوقها ضخمًا مخيفًا. واستطاعت أن تُحِسَّه محاولًا كبح جماح انفعاله.

قال: "سنتمشَّى في نُزهة قصيرة".

"الآن؟ في نصف الليل؟" كان البرد قارسًا والظلام دامسًا. ولهثت إذ حملها مايكل بذراعيه وأوقفها على قدميها.

ثمَّ لبس بنطلونه بسرعة، قائلًا: "يمكنكِ أن تذهبي لابسةً أو عارية. لا فرقَ عندي".

لم ترُقها الظِّلال في الكوخ، ونوَت ألَّا تخرج من ذلك الباب إلى قلب الظلام. "لن أذهب إلى أيِّ مكان. سأبقى ها هنا".

توجَّهت لإحضار اللحاف، ولكنَّه أمسك بذراعها وأدارها نحوه. ولمَّا انكمشت ورفعت يدها لتتفادى من صفعة، تبخَّر غضب مايكل. أكان ذلك ما توقَّعته منه، ولو بعد تلك المدَّة كلِّها؟ "لن أؤذيَكِ أبدًا". ثمَّ أخذ اللحاف ولفَّه عليها. وأحضر حذاءها وناولها إيّاه، فلم تأخذه. "يمكنكِ أن تنتعلي حذاءك أو تمشي حافية. فالخِيار لكِ. إلَّا أنَّكِ ذاهبةٌ معي".

أخذت آنجل الحذاء.

"ممَّ أنتِ خائفةٌ يا مارة؟ لماذا لا نُركِّز تفكيرنا على ذلك؟"

طرَحَت كُلّابة تزرير حذائها جانبًا وانتصبت. "لستُ خائفةً من أيِّ شيء، ولا سيَّما من فلّاح تُربةٍ مثلك".

فتح مايكل الباب. "هيّا بنا إذًا، ما دُمتِ بهذه الشجاعة".

استطاعت أن تميِّز الحظيرة، غير أنَّه أمسك بيدها بإحكام وتوجَّه نحو الغابة. "إلى أين تأخذُني؟" احتقرَتِ الرَّجفة في صوتها.

"ستعرفين عندما نصل إلى المكان". وظلَّ يمشي، ساحبًا إيّاها معه.

لم تكد آنجل ترى شيئًا غير الأشكال التي بدت مخيفةً ومظلمة، ومنها ما يتحرَّك. فتذكرَّت راب يستعجلها في ظلمة ليل حالك منذ زمن بعيد، وتملَّكها الخوف، كما ازداد خفقان قلبها. "أُريد أن أرجع". وتعثَّرت وكادت تسقط.

أمسك بها مايكل وثبَّت قدميَها. "مرَّةً واحدةً فقط، حاولي أن تثقي بي. هلا تفعلين! هل فعلتُ شيئًا لإيذائك؟"

"أثق بك؟ لماذا ينبغي لي ذلك؟ إنَّك مجنونٌ إذ تأتي بي خارجًا هكذا في نصف الليل. ارجعْ بي!" كانت ترتجف ولا يمكنها التوقُّف.

"لن نرجع قبل أن ترَي ما أودُّ أن تُشاهديه".

"حتَّى لوِ اضطُرِرتَ إلى جرِّي جرًّا؟"

"إلّا إذا فضَّلتِ امتطاء كتفي".

سحبت يدها من يده بشدَّة. "امضِ قُدمًا!"

قال: "طيِّب!" ودارت آنجل مسرعةً لترجع، إلّا أنَّها لم تستطع أن ترى الكوخ أو الحظيرة من خلال الشجر. ولمّا التفتَت، لم تستطع أيضًا أن ترى هوشع، فارتعبت، وصاحت: "مهلًا، مهلًا!"

أمسك بها مايكل. "أنا هُنا". أحسَّ ارتجافها وجذبها إلى ما بين ذراعيه. "لن أتركَكِ في الظلام". ثمَّ رفع وجهها بأصابعه، وقبَّلها برفق. "متى تفهمين أنِّي أُحبُّكِ؟"

طوَّقته آنجل بذراعيها والتصقت به. "إن كنتَ تحبُّني، فارجع بي. يمكننا أن نستدفئ ونستريح في السرير. سأفعل ما تريده".

"لا"، قالها بخشونة، مقاومًا استجابتَه لها. "تعالَي معي".

أرادت أن تُوقِفه. "مهلًا، رجاءً. حسنًا، أنا خائفة من الظلام. وجودي هنا خارجًا

يذكّرني بـ...» وتوقّفت.

"بماذا؟"

"بشيءٍ حدث لمّا كنتُ صغيرة". انتظر، ولكنّها عضّت شفتها. لم تُرِد أن تتكلّم عن راب أو عمّا جرى له. لم تُرِد أن تُفكّر في أهوال تلك الليلة. "رجاءً، ارجعْ فحسب".

مشّط مايكل شعرها بأصابعه، وأمال رأسها إلى الوراء حتّى يتمكّن من رؤية وجهها في ضوء القمر. كانت خائفة، خائفة جدًّا بحيث تعذّر عليها إخفاء خوفها.

"أنا أيضًا خائف، يا مارة. لا من الظلام، ولا من الماضي، بل منكِ وممّا تجعلينني أشعر به عندما ألمسكِ. أنت تستعملين رغبتي فيكِ سلاحًا. ما أشعر به هو عطيّة. أنا أعرف ما أُريد، ولكنْ عندما تلتصقين بي، لا أُحِسُّ إلّا جسدكِ وحاجتي. إنّكِ تجعلينني أرتجف".

"إذًا عُد بي إلى الكوخ..."

"أنتِ لا تسمعينني. أنتِ لا تفهمين شيئًا. لا أستطيع أن أرجع بكِ. لن يكون لكِ الأمرُ على طريقتكِ. فإمّا يكون على طريقتي، وإلّا فلا".

ثمّ أمسك بيدها. "هيّا بنا الآن". ومشى في الغابة المظلمة. كانت كفّاها تتعرّقان، ولكنْ لم تعُد يدها مُلقاةً في يده كسمكة ميتة، بل تشبّثت به كما لو كانت حياتها معتمدةً عليه.

سمعَت آنجل أصواتًا في كلّ مكان، رنينًا وطنينًا دائمَين آتيَين من كلّ جهة ومخترقَين رأسها. وقد كان سكونًا ساكنًا للغاية بحيث بات صارخًا. فأرادت آنجل أن تعود إلى الكوخ لتبتعد عن الأشياء السوداء المتحرّكة حولها. شياطين مجنّحة، تراقب مكشّرةً. كان ذلك عالم دُوك.

قرسها البرد وأضناها الإجهاد. "كم يبعد المكان بعد؟"

رفعها مايكل بذراعيه وحملها. "كدنا نصل". باتت الغابة وراءهما، والقمر فوقهما يُحيل السفوح بحرًا رماديًّا فضيًّا غامضًا. "على رأس تلك التلّة تمامًا".

ولمّا بلغا القمّة، أوقفها على قدميها مجدّدًا، فنظرت حواليّها مرتبكةً. لم يكن هنالك شيء، غير مزيدٍ من التلال، ثمّ الجبال في البعيد.

راقب مايكل نسيم الليل يُرقّص شعرها الباهت تحت ضوء القمر، فيما انكمشت داخل اللحاف وراحت تُحدّق إليه. "لا شيءَ هنا".

"كلُّ شيء مهمّ موجود هنا".

"هذه الطريق بطولها لأجلِ لا شيء!" لم تدرِ ما توقَّعت. نُصبًا تذكاريًا. شيئًا ما. قعدت مُنهَكةً ترتجف من هواء الليل القارس. لم يكن اللحاف كافيًا. وما كانت عشرة لُحف لتكفي. فقد كانت القُشَعريرة في داخلها. ماذا فكَّر أنَّه فاعلٌ إذ جرَّها صاعدًا بها هذه التلَّة في نصف الليل؟ "أيُّ أمرٍ مُميَّز في هذا؟"

قعد مايكل وراءها، واضعًا ساقَيه القويَّتين على كِلا جنبيها، جاذبًا إيَّاها إليه. "انتظري قليلًا!"

أرادت أن تُقاوِم احتضانه لها، ولكنَّ البرد الشديد منعها من مقاتلته. "ماذا؟"

طوَّقها بذراعيه. "طلوع الصباح".

"كان في وسعي أن أنتظر ذلك في الكوخ".

ضحك وفمُه يكاد يلامس شعرها. ثمَّ رفعه وقبَّل قفا عنقها. "لا يمكنك أن تُدرِكي قبل أن تَرَي طلوعه من هنا". ومسَّ بأنفه البشرة الناعمة تحت أُذنها. فارتعشت بعض الشيء. "نامي قليلًا إذا شئتِ". وشدَّها نحوه بمزيدٍ من الضغط. "سأُوقِظكِ متى آن الأوان".

لم تعُد نعسانة بعد تلك النُّزهة الطويلة. "هل تقوم بهذا الأمر كثيرًا؟"

"ليس كثيرًا".

ثمَّ صمتا من جديد، غير أنَّها لم تكن منزعجة من ذلك. فإنَّ دفء جسمه أخذ يتسرَّب إليها. وشعرَت بثقل ذراعه حولها وثبات إحاطته بظهرها. ونظرت إلى النجوم، فإذا بها جواهر صغيرة منثورة على مُخمَل أسود. وما كانت قد رأتها كذلك قبل ذلك الحين، قريبةً جدًّا بحيثُ خُيِّل إليها أنَّها تستطيع أن تمدَّ يدها وتلمس كلَّ ذرَّة نورٍ متألِّقة. كانت سماء الليل فاتنة. ولم تكن قد بدت كذلك قطُّ من أيَّة نافذة. كذلك كانت رائحة التراب كثيفة ونديَّة. حتَّى الأصواتُ حواليها صارت كأنَّها موسيقى، مثل غناء الطيور والحشرات، مثل وقع نقاط المطر في عُلَب القصدير داخل كوخٍ حقير على أرصفة الميناء. ثمَّ اخترق النور أستار الظلام.

بدأ ذلك على مهل حتَّى لم يكَد يُلاحَظ. أخذَتِ النجوم تصغر وتصغر، والسواد يخفّ. ووقفت آنجل متلفِّعةً باللحاف تتأمَّل المنظر. كان الظلام ما يزال منتشرًا وراءها، ولكنْ كان أمامها نور: أصفر باهت راح يتوهَّج، تتخلَّله خطوط ذهبيّة على أحمرَ وبُرتقاليّ. سبق لها أن شاهدت شروق الشمس مرارًا من داخل الجدران ووراء الزجاج، إنَّما ليس هكذا قطعًا، حيث النسيم البارد يهبُّ على وجهها والبراري منتشرةٌ في كلِّ مكان. فلم يسبق لها قطُّ أن شاهدت أيَّ شيءٍ بمثل ذاك الجمال.

انسكب نور الصباح على كلِّ جبل، عبرَ الوادي، إلى الكوخ والغابة من وراء، فعلى السفح صعودًا. وأحسَّت يدَي هوشع القويَّتين على كتفيها.

"مارة، هذه هي الحياة التي أُريد أن أُعطيَكِ".

كان ضوء الشمس الصباحيِّ باهرًا جدًّا حتَّى آذى عينيها، وقد أعماها أكثر ممَّا سبق أن أعمتها الظُّلمة يومًا. وأحسَّت شفتيه على شعرها. "هذا هو ما أنا مُقدِّمُه إليكِ". وقد شعرت بحرارة نَفَسه على بشرتها. "أُريد أن أملأ حياتكِ لونًا ودفئًا. أُريد أن أملأها نورًا". ثمَّ طوَّقها بذراعيه وشدَّها إلى صدره مجدَّدًا. "أتيحي لي فرصة!"

أحسَّت آنجل ثقلًا يتعاظم في داخلها. كانت لديه كلماتٌ حلوة لها، ولكنَّ الكلمات ليستِ الحياة. فما كانت الحياة بتلك البساطة، بتلك الصراحة. بل كانت مشتبكة ومعوَّجة وملتوية منذ الولادة. لم يتأتَّ لها أن تمحو السنين العشر الأخيرة، ولا حتَّى الثماني السابقة لاقتياد راب إيَّاها في الشوارع إلى الماخور، حيث تركها ليُدمِّرها دوك إلى الأبد. فقد بدأت محنتُها قبل ذلك بزمانٍ طويل.

لقد كانت مُذنِبةً بكونها قد وُلدت.

فإنَّ أباها أراد أن تُسلَخ من رَحِم أُمِّها وتُرمى كالقُمامة، أباها بالذات. وكان من شأن ماما أن تفعل ذلك لو علمتْ أنَّها ستفقد أباها من جرّاء تحدِّيها اليسير له. ذلك ما قالته لآنجِل كلَّ تلك السنين الحافلة بالبكاء غير المنقطع.

لا، لا مئة فجر كهذا، ولا حتَّى ألف، يمكن أن تُغيِّر ما سبق. فقد كانتِ الحقيقة هناك إلى الأبد، تمامًا كما قال لها دوُك في الحلم: لن تستطيعي الإفلات منها. مهما حاولتِ جاهدةً، فلن تستطيعي الهروب من الحقيقة.

ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ كئيبة، وابتأست نفسُها وَتألَّمت. ربَّما كان هذا الرجل كلَّ ما بدا عليه. ربَّما كان يعني كلَّ كلمة قالها، غير أنَّها كانت تعرف شيئًا لا يعرفه هو: أنَّ الأمر لن يتمَّ أبدًا بالطريقة التي يريدها. فلا يمكن أن يتمَّ، وكفى. لقد كان حلَّامًا، إذ أراد منها المستحيل. وسيبزغ عليه الفجر أيضًا، فيستيقظ.

لم تشأ آنجل أن تكون في أيِّ مكان يكون هو فيه.

الفصل

الثاني عشر

حتَّى لو أقنعتَني، فإنَّك لن تُقنِعني.

(أريستوفان)

لمس مايكل التغيير في آنجِل بعد تلك الليلة، ولكنَّه لم يكن تغييرًا أسعده. فقد تراجعت وتباعدت. ومع أنَّ رضوضها زالت وأضلاعها شُفيَت، فقد كانت ما تزال تمشي جريحةً. ولم تسمح له بالاقتراب منها. واستردَّت الوزن الذي فقدته بعد ضرب مغوان المشؤوم لها. فصارت قويَّة بدنيًّا، ولكنَّ مايكل أحسَّ انجراحًا أعمق في داخلها. وكان يُكلِّفها بعض الأعمال كي يوفِّر لها مقصدًا وهدفًا، فتلاشى شحوب الماخور والكوخ. ولكنَّ بريق الحياة خمد في عينيها.

من شأن معظم الرجال أن يقنعوا بحيازة زوجةٍ كهذه، طيِّعة مجتهدة. أمَّا مايكل فلم يقنع بذلك. فهو لم يتزوَّج بها ليحصل على عاملة كادحة، بل أراد امرأةً تكون جزءًا من حياته... جزءًا من ذاته.

كانت كلُّ ليلة محنة. يستلقي بقربها ويتنشَّق عطرها حتَّى يدوخ رأسُه. وقد أوضحت له أنَّه يستطيع أن يستعمل جسدها متى شاء وكيفما أراد. إذ كانت تنظر إليه كلَّ ليلة وهي تخلع ثيابها، فيجفُّ حلقه من جرّاء السؤال في عينيها، ولكنَّه لم يستسلم، بل مضى ينتظر مصلِّيًا أن يلين قلبها.

استمرَّت كوابيسُها على حدَّتها وشدَّتها. فغالبًا ما كانت تستيقظ مرتجفةً وجسمُها ينضح عرقًا. وفي أعقاب ذلك لا تسمح له أن يلمسها مجرَّد لمس. إنَّما بعد إخلادها إلى النوم من جديد، كان يتسنَّى له أن يُلقي ذراعيه حولها ويشدَّها إليه. إذ ذاك كانت تسترخي، وقد علم أنَّها على مستوىً أعمق عرفت أنَّها في أمانٍ معه.

كان ذلك إشباعًا يسيرًا حين أخذت حاجات جسده الطبيعيَّة تعصف به أكثر كلَّما طال بقاؤهما معًا. فكان ذهنه يبتكر صورًا لكليهما وهما يتبادلان الحبَّ كما كُتب في سفر نشيد الأنشاد، فيكاد يشعر بذراعيها تطوِّقانه ويتذوَّق قبلاتها الطيِّبة. ومن ثَمَّ

يستيقظ من أحلام يقظته، فتزداد وطأة شعوره بالخيبة والحرمان.

طبعًا، كان في وسعه أن يحوزها الآن لو شاء. فلا بدَّ أن تؤاتيه. ولا بدَّ أن تستخدم خبرتها. ولا بدَّ أن يعلم- طالما سكب رجاءه في كيانها- أنَّها تعدُّ عوارض السقف، أو تستعرض أشغال الغد، أو أيَّ شيءٍ آخر يبعدها عنه. وما كانت لتنظر إلى عينيه، ولا لتكترث بأنَّ حبَّه لها يقتله قتلًا.

قامت في ذهن مايكل ذكرى مماثلة: أنجل جالسة على حافة السرير في القصر، تُرجِّح قدمها جيئةً وذهوبًا كرقَّاص الساعة. فسيكون الأمر مماثلًا الآن إن هو استسلم لرغبته الجسديَّة. ستكون أنجل، لا مارة، منتظرةً إيّاه فحسبُ كي ينتهي حتَّى يتسنَّى لها أن تعهد به إلى النسيان مع سائر الرجال الذين استخدموا جسدها يومًا.

إلهي، ماذا أفعل؟ أكاد أجَنّ. إنَّك تتوقَّع منيِّ ما يفوق طاقتي. أم تراني أتوقَّع منها ما يفوق الحدّ؟

بقي الجواب هو إيَّاه: **انتظر!**

وأكثر من أيِّ شيء آخر، نهشت مايكل رغبته في سماعها تلفظ اسمه. مرَّة واحدة فقط، يا يسوع. ربّاه، رجاءً! مرّة واحدة فقط. مايكل! اعترافٌ بوجوده. أغلبَ الأوقات، كانت تنظر من خلاله تمامًا. وقد أراد أن يكون أكثر من مجرَّد شخصٍ يمشي على محيط نفسها، شخصٍ كانت على يقين بأنَّه سيدوسها ويستغلُّها. فإنَّ الحبَّ لأنجل كان كلمةً كريهة من حرفَين.

كيف يُرجى منِّي أن أُعلِّمها حقيقة الحُبّ فيما تعترض غرائزي في السبيل؟ ربِّ، أيَّ خطإٍ أقترف؟ إنَّها الآن أبعد مّا كانت في بيرأدايس؟

صبرًا، يا محبوب!

تراكمت خيبات مايكل، وشرع يُفكِّر في أبيه الذي زعم أنَّ كلَّ امرأةٍ ترغب في أن يُسيطَر عليها.

لم يُصدِّق مايكل ذلك آنذاك، وما صدَّق ذلك الآن؛ غير أنَّه كاد يتمنَّى لو يستطيع تصديقه. فإنَّ تصديق هذه الكذبة قد يجعل حياته مع أنجِل أسهل. وكلَّما نظرت إلى البعيد من خلاله، فكَّر في أبيه. وكلَّما ازدادت قربًا منه عند النوم، علم ما كان من شأن أبيه أن يقوله عن تبتُّله المفروض ذاتيًّا.

وسمع صوتًا آخر، قاتمًا وقويًّا وقديمًا قِدَم الزمان.

متى ستتصرَّف تصرُّف الرجال؟ هيّا، خُذها. لماذا تتردَّد؟ خذها. إنَّها لك،

أليس هكذا؟ تصرَّف كرجُل. استمتع بجسدها إذا لم تستطع أن تحصل منها على أيِّ شيء آخر. ماذا تنتظر؟

صارع مايكل ذلك الصوت داخل رأسه. لم يشأ أن يسمعه بتاتًا. غير أنَّه كان يخطر هناك، يلحُّ ويلحُّ عليه كلَّما كان أكثر ضعفًا.

حتَّى حين يكون جاثيًا على ركبتيه يُصلِّي، كان يسمع ذلك الصوت شامتًا ساخرًا.

ازداد اضطراب آنجل على مرِّ الزمن. كان ناشطًا في داخلها شيءٌ ما، شيءٌ بطيء وغادر ومُنذِر بالسوء. لقد راقتها الإقامة في ذلك الكوخ. شعرت بالراحة والأمان في ما عدا مايكل هوشع. فهي لم تحبَّ المشاعر التي بدأ يثيرها فيها، المشاعر التي تفتُّ عزيمتها شيئًا فشيئًا. ولم يعجبها أنها لم تناسب أي قالب عرفَته، ووفاؤه بكلامه، وعدمُ استغلاله لها، ومعاملتُه إيَّاها على نحوٍ مختلف عن كلِّ ما عُومِلت به من قبل.

لم يكُن يغضب قطُّ عندما تغلط في شيء. وكان يُثني عليها ويشجِّعها، ويخبرها بحظوظه العاثرة بشيءٍ من الدُعابة جعلها أقلَّ انزعاجًا من إخفاقاتها. وأمدَّها بأملٍ في قدرتها على التعلُّم، كما أشعرها بالفخر عند تحقيق ذلك. فقد بات في وسعها الآن أن تُشعِل نارًا، وأن تطهو طبخة، وأن تميِّز البقول التي تؤكل من الأعشاب الضارَّة. حتَّى إنَّها بدأت تُصغي إلى القصص التي كان يقرأها كلَّ مساء، وإن كانت لم تصدِّق أيَّة واحدة منها.

كلَّما أسرعتُ في الإفلات منه، كان أفضل.

كان لديها عمل غير مُنجَز تهتمُّ به في پيرأدايس. ثُمَّ يغدو في وسعها أن تمتلك كوخها الصغير الخاصَّ الشبيه بهذا، بعد حصولها على حصَّتها من الذهب الذي كسبته. ولن تُضطرَّ إلى العيش مع أيِّ رجل.

وحسبت في فكرها كم أنفق هوشع من الوقت والمال في الاعتناء بها حتى عادت إليها صحَّتها، وفي تدريبها على الاستقلال بشؤونها، ناويةً أن تُعوِّض عليه عن كلِّ ساعةٍ وأُونصة قبل مغادرتها.

كانت تعتني بالحديقة، وتطبخ، وتكنس، وتغسل، وتكوي، وتُصلح الثياب. وعند تنظيف مايكل القَذَر من إسطبلٍ ما، تُحضِر رفشًا لتساعده. وعند تشقيقه حطب النار لأجل الشتاء، كانت تحمل منه على ذراعيها وتكدِّسه بترتيبٍ إلى جدار الحظيرة.

حتَّى إذا مرَّت أربعة أشهر، كانت بشرتها قد اسمرَّت، وظهرُها قد اشتدَّ، ويداها قدِ اخشوشنتا. ونظرت في علبة القصدير اللمّاعة من جديد، فإذا وجهها قد عاد إلى طبيعته. حتَّى أنفُها شُفيَ وكان مستقيمًا. لقد آن أوان التخطيط للرجوع.

وذات مساء سألَته على العشاء: "هل تظنُّ أنَّ هذه الخُضَر التي داومتُ على الاعتناء بها لك تُباع بكيسٍ من الذهب في پيرأدايس؟"

فرفع نظره وقال: "ربَّما أكثر. ستُباع بما يكفي لشراء رأسَي ماشية".

وأومأت برأسها، مُبديةً سرورًا زائدًا بتلك الفكرة. لعلَّه يشتري بقرة، فيكون لديهما حليب. ولعلَّه يُعلِّمها كيف تصنع الجبن. ثم عبَّست. فيمَ كانت تفكِّر؟ ماذا يهمُّها لوِ اشترى اثنتي عشرة بقرة؟ عليها أن ترجع إلى پيرأدايس وتُسوِّي حسابها. ثمَّ خفضت عينيها ومضت تأكل على مهل. سيأتي اليوم الذي فيه يمكنها أن تنزع من إصبعها خاتم أمِّها وتنسى أمره تمامًا.

كانت آنجِل تغسل الأواني وتكوي الثياب فيما مايكل يقرأ الكتاب المقدَّس بصوتٍ عالٍ. ولم تكن تُصغي إليه وهي تدفع المكواة الثقيلة على الثياب، إلى أن بردت ولم تعُد تنفع. فأعادت المكواة إلى مُصبَّع[١٠] الموقد. لقد أقامت هنا مع هذا الرجل بضعة أشهر. اشتغلت كأنَّها عبدة، ولم تكن قطُّ قد اشتغلت على هذا النحو الشاقِّ هناك في القصر. ونظرت إلى يديها، فإذا أظفارها مُكسَّرة وقصيرة وفي كفَّيها جواسئ أو كَلاكِل. ما عسى أن تقول الدوقة عن ذلك؟ ثمَّ التقطتِ المكواة من جديد.

حاولت أن ترسم خططًا، غير أنَّ ذهنها شرد إلى الحديقة، إلى صغار العصافير في عُشٍّ خارج نافذة غرفة النوم، إلى الصفاء الساكن العميق في صوت مايكل هوشع وهو يقرأ. أيُّ خَطبٍ دهاني؟ لماذا أشعر بهذا الثقل في داخلي من جديد؟ حسبتُ أنَّه قد زال!

لن يزول حتَّى ترجعي إلى پيرأدايس وتُحصِّلي ما لكِ من دَينٍ عند الدوقة.

نعم، لا بدَّ أن يحصل ذلك. فحتَّى ترجع إلى پيرأدايس، سيُترك كلُّ شيء معلَّقًا. لقد خدعتها العجوز المُشاكِسة المُخاصِمة. فلا يمكن أن تدعها آنجل تنجو بفعلتها.

وفكَّرت آنجل أيضًا في أنَّ مدَّة إقامتها مع هذا الفلَّاح كادت تنتهي، فينبغي أن يُفرِجها ذلك. غير أنَّ الفرَج كان بعيد المنال. فقد أحسَّت مثل ذلك الإحساس الذي غمرها ليلة راقبَته يغادر پيرأدايس في عربته، كأنَّ حُفرةً حُفِرت في داخلها وحياتها

١٠) المصبَّع: حاجز من قضبان حديدية متصالبة.

آخذةٌ في النفاد، لا بسرعة، بل في مجرى رقيق بطيء أحمر ينشر القذر عند قدميها.

ينبغي أن ترجعي يا آنجل. يجب عليك ذلك. لن تتحرَّري أبدًا إن لم ترجعي. ستحصلين على مالك. سيكون لكِ كثيرٌ منه، وستتحرَّرين. سيغدو في وسعك دائمًا أن تبني كوخًا آخر كهذا، وسيكون كلُّه لك. لن يُشاركك فيه رجلٌ يتوقَّع منكِ الكثير. إنَّه يتوقَّع حتَّى ما لا تملكينه، بل ما لم تملكيه قطُّ. ثمَّ إنَّه مجنونٌ إذ يُصلِّي إلى إلهٍ غير موجود ولا مهتمّ، ويقرأ كتاب أساطير كما لو كان الحلَّ لكلِّ شيء.

عضعضت شفتها وهي تشتغل. وردَّت المكواة إلى مُصبَّع الموقد كي تَحمى. "متى سترجع إلى پيرأدايس لإحضار المُؤَن؟" فإنَّ ثلاثين ميلًا مسافةٌ طويلة للماشي على قدميه.

توقَّف مايكل عنِ القراءة، ورفع نظره إليها قائلًا: "لن أرجع إلى پيرأدايس".

"بتاتًا؟ ولكنْ لماذا؟ أعتقد أنّك كنت تبيع محصولك لذلك اليهوديّ في شارع ماين؟"

"جوزف. اسمُه جوزف هُكشايلد. ونعم، كنتُ أبيعُه له. إنَّما قرَّرت أنَّ عدم رجوعي إلى هناك أفضل. وهو على علمٍ بذلك. فهناك أماكن أُخرى: ماريزڤِيّ، سكرامنتو..."

"عليك أن ترجع وتستردَّ مالك على الأقلّ".

"أيُّ مال؟"

"الذهب الذي دفعتَه فيَّ".

انقبض فمه. "هذا الأمر لا يهمُّني".

حدَّقت إليه. "ينبغي أن يهمَّك. أما تُبالي بكونك قد غُشِشت؟" ثمَّ استأنفَت كيَّ الثياب.

وراقبها مايكل، فأيقن أنَّها تريد الرجوع. حتَّى بعد هذه المدَّة الطويلة معه، كانت تتوق بشدَّة إلى حياتها في پيرأدايس. فدبَّت الحرارة والتوتُّر في جسمه، فيما مضت هي تكوي وكأنْ لا مُشكِلة، عمياءَ كما يبدو عن مشاعرها. وأراد أن يمسك بها ويهزَّها لعلَّها تكسب شيئًا من الإحساس.

أعندها شيء من ذلك، يا ربّ؟ ربّاه، ألم أمسَّها قطّ؟ هل أجهدتُها في العمل؟ أم هي ملَّت هذه الحياة الهادئة فحسب؟ يا يسوع، ماذا أفعل؟ أأُقيِّدها بسلسلةِ تقييدَ الكلاب؟

وفكَّر في شيء يصرف ذهنها عن پيرأدايس حينًا. كانت حيلةً حقيرة دنيئة، ولكنَّ نتيجتها كانت إبقاءها في المنزل وما حوله أُسبوعين آخرين. فلعلَّها في تلك الأثناء تعود إلى رشدها.

قال لها: "عندي لكِ عملٌ تقومين به غدًا، إذا شئتِ".

لطالما فكّرَتْ في المغادرة غدًا. ولكنَّ المسيرة طويلة، وهي لا تدري أيَّ طريق تسلك. وقد شكَّت في استعداده لإرشادها إلى الاتّجاه الصحيح. فماذا عساها تفعل؟ هل تسأل إلهه؟ من ثَمَّ قالت بتأدُّب: "ما هو؟"

"في طرف المرجة شجرة جوز سوداء، تساقطت عنها ثمارُها. أُريد منكِ أن تمضي وتلتقطيها. لديَّ في الحظيرة كيسُ خيش. يمكنك إفراغ الجوز في الفناء حتى يجفّ".

قالت: "حسنًا، ليكُن ما تريد".

أطبق أسنانه بإحكام. أتعود إلى ذلك مرّةً أُخرى. ليكُن ما تريد. إذا قالت كلمة أُخرى بعد، فسيضع نظريّة أبيه قيد الامتحان. "أنا ماضٍ لتفقُّد الماشية". ثمَّ خرج كي يُبرِّد سخونته.

مشى شامخًا نحو الزريبة، قائلًا من بين أسنانه: "كيف أصل إلى هذه المرأة؟ ماذا تُريد منّي يا ربّ؟ أكان يُنتَظر منّي فقط أن أُحضِرها إلى هنا وأُتيح لها وقتًا كي تتعافى وتستريح قبل أن تعود؟ إرادةُ مَن تقوم هُنا؟"

لم يبدُ أنّه ما زال قادرًا على سماع الصوت الهادئ الخفيف.

تلك الليلة، كانت حالةُ أسوأ منها في أيِّ وقتٍ مضى. وكاد يُلبّي رغبات جسده بدلًا من قلبه وعقله، غير أنّه كان يعرف ما يُتوقَّع منه. فنهض ونزل إلى الجدول، حيث أسعفته المياه الباردة، إلَّا أنَّها لم تكن علاجًا لعلَّته.

لماذا تفعل بي هذا يا ربّ؟ لماذا أعطيتَني هذه المرأة العنيدة المثيرة للجنون؟ إنَّها تُفقِدني صوابي.

تنبَّهت آنجل إليه عند مغادرته السرير، وتساءلت عن المكان الذي يقصده. افتقدت دِفأه. ولمَّا رجع، تظاهرت بالنوم. ولكنَّه بدلًا من العودة إلى السرير بجانبها، قعد على كرسيِّ الصفصاف قُبالةَ النار. فيمَ كان يُفكِّر مليًّا؟ الماشية؟ محاصيله؟

لمَّا استيقظت صباحًا، وجدته نائمًا على الكرسيّ. خلعت قميصه العتيق متلوّيةً، وجمعت ثيابها. ولمّا التفتت قليلًا ورأته يحدِّق إليها، عرفت مكمن الخطأ. كانت قد شاهدت تلك النظرة على وجوه الرجال مرارًا تكفي لأنْ تعرف معناها. أكان ذلك ما يُوجِعه؟ حسنًا، لماذا لم يُفصِح عن ذلك؟

استقامت مُنزِلةً ذراعيها ببطء بحيث يمكنه أن ينظر إليها. ورسمت له على وجهها ابتسامتها القديمة.

انتفضت عضلةٌ في خدِّه. ثمَّ نهض وأخذ قُبَّعته عنِ المشجب قرب الباب، وخرج خارجًا. قطَّبت وجهها مرتبكةً متحيِّرة.

أعدَّت آنجِل فَطوره، وانتظرَت دخوله. ولمَّا دخل، أكل بغير أن ينطق ولو بكلمة واحدة. لم يسبق لها أن رأته مكتئبًا هكذا من قبل. ثمَّ نظر إليها نظرةً قاتمة، وسألها: "هل قرَّرتِ أن تذهبي لتلتقطي ثمار الجوز؟"

ارتفع حاجباها فجأةً. "سوف ألتقطها. لم أكن أدري أنَّك مستعجل هكذا". ثمَّ دفعت كرسيَّها إلى الوراء، وخرجت إلى الحظيرة لإحضار كيس الخيش. واستغرق ملؤه بضع ساعات. ثمَّ جرَّت حِملها إلى الفناء، حيث أفرغت الجوز. ونفضت الكيس، فخورةً بعملها.

كان مايكل يُشقِّق حطبًا. فتوقَّف، ومسح جبينه بقفا يده، وأومأ برأسه نحو كومة الجوز. "أهذا هو الجوز كلُّه؟"

تبخَّرتِ ابتسامتها. "أليس هذا المقدار كافيًا؟"

"حسبتُ أنَّ هناك المزيد".

فتصلَّبت قائلةً: "أتقصد أنَّك تريد كلَّ ما هناك؟"

"نعم".

عادتِ معقودة اللسان، وتمتمت همسًا: "لعلَّ أصلَه سنجاب!" ربَّما فكَّر في بيع الجوز مع الخُضر وقديد الغزلان المُدخَّن. وفي عنادها وغضبها، عكفت على جمع الجوز حتَّى فات وقت الغداء. ليُعِدَّ بنفسه شيئًا يأكله. ما دام يريد جوزًا، فسيحصل على جوز.

كان ظلام الليل قد بدأ يهبط حين أفرغت آخر كيس في فناء الحظيرة، وقد بات ظهرها كتلةً من الألم.

قالت له: "فتَّشتُ بين الأعشاب والأوراق فلم أجِدِ المزيد". وكانت متشوِّقة إلى حمَّام ساخن طويل، غير أنَّ فكرة نقل دلوٍ واحد من الماء صرفتها عن تلك الفكرة.

ابتسم قائلًا: "لدينا هناك ما يكفي لمشاركة جيراننا فيه".

مشاركة؟ قالت بغضب وهي تُخرج من فمها خُصلةً ضالَّة من الشعر الأشقر: "لم أكن أدري أنَّ لدينا أيَّ جيران". إنَّها لم تقُم بذلك العمل كلِّه لأجل حفنة من الغرباء. فليجمعوا جوزهم بأيديهم.

ماذا يَعنيكِ، يا آنجِل؟ لن تكوني هنا.

ثمَّ قالت: "أنا ذاهبة لأغتسل، ومن ثَمَّ أُعِدُّ العشاء". وتوجَّهت إلى الجدول.

"افعلي ذلك"، قالها مبتسمًا قليلًا، وغرز المذراة في كومة القشّ من جديد. ثمَّ شرع يصفر.

بعد نصف ساعة، رجعت آنجل مُسرِعة. "انظر هذا!" وقد مدَّت يديها أمامه كي يرى كُفيها وأصابعها المسوَّدة. "استعملتُ الصابون. استعملتُ الشحم. بل فركتُ يديَّ بالرَّمل أيضًا".

"كيف تُزيل هذا؟"

"إنَّه الصَّبغة من قِشر الجوز".

"أتعني أنَّها ستبقى على يديَّ هكذا؟"

"نحو أُسبوعين".

ضاقت عيناها الزرقاوان. "هل كنت تعرف أنَّ هذا سيحصل؟"

فابتسم ابتسامةً خفيفة ورمى القشَّ في مِذوَد.

"لماذا لم تقُل لي؟"

اتّكأ مايكل على عصا المذراة. "لم تسأليني". تكوَّرت يداها الملطَّختان قبضتين وعبق وجهها بلون الغضب. لم تعُد تبدو لامباليةً أو متعاليةً. ثمَّ أضاف حطبًا إلى النار المتأجِّجة، قائلًا: "ما زال الجوز بحاجة إلى تقشير وتجفيف قبل تعبئته في أكياسٍ من جديد. ومن ثَمَّ يكون عندَكِ وعندي الشتاءُ بطوله كي نكسره".

لاحت له الحرارةُ صاعدةً إلى وجهها، وهي تكاد تنفجر. "لقد فعلتَ ذلك قصدًا!" وكان انفعالُه وشيكًا تقريبًا، فلزم الصمت.

"كيف يُعقَل أن أعود الآن ويداي بهذا المنظر؟" واستطاعت أن تسمع الدوقة ضاحكةً على يديها الملوَّثتين بالقَذَر، كما استطاعت أن تتصوَّر التعليقات الساخرة.

الْتوى فمُ مايكل تهكُّمًا واشمئزازًا. "أنتِ تعرفين، يا مارة، أنَّكِ لو كنتِ عاقدةً عزمَكِ تمامًا على الرجوع إلى پيرأدايس، لكنتِ انطلقتِ إلى هناك قبل أسابيع".

تورَّد خدَّاها، وما زادها ذلك إلَّا سخطًا. ولم يكُن وجهها قدِ احمرَّ كذلك منذ سنين. وسألت بحدَّة: "لماذا هذا؟ لقد حصَّلتَ قِيمة مالِكَ منِّي!"

فشكَّ المذراة في كدس القشّ، وقال: "لم أُحصِّل منكِ شيئًا بعد، يا ستّ. لا شيء قيمتُه شيءٌ يُذكر".

عقد الغضب أمامها غمامةً حمراء. "لعلّكَ تفتقر إلى الرجولة الكافية لأخذ ذلك بالطريقة المعتادة!" ثمّ دارت مسرعةً وخرجت من الحظيرة، شاتمةً إيّاه همسًا بلقبٍ بذيء.

وانفجر غيظ مايكل أيضًا، فلحق بها وأدارها نحوه قائلًا: " لا تُتمتِمي بهذا همسًا، يا مارة. هيّا! قوليه لي بوجهي. عبّري بصراحة عن حقيقة مشاعرك تجاهي".

أفلتت منه نخعًا ونترًا، وزعقت فيه بشتائم شتّى. وما أكثر ما كانت تعرفه منها! ولاح لها غضبُه، فرفعت ذقنها خطفًا، وتحدّته بجرأة: "هيّا، اضربني! لعلّ ذلك يجعلك رجُلًا!"

"أمرٌ غير مُرجَّح، ولكنّ ذلك هو ما تُريدينه، أليس كذلك؟ وقعة ضربٍ أُخرى. ضربات أقسى". وقد تخوّف من مشاعره الثائرة، من دمه الجائش الحارّ الذي كاد يحمله على الاستجابة لتحدّيها، وأخذ يرتجف من شدّة انفعاله. "ذلك هو الأمر الوحيد الذي تعرفينه، وقد عصفت بكِ فوق كلّ حدٍّ كبرياؤكِ المعاندة فمنعتكِ أن تتبيّني وجود أيّ شيءٍ آخر في الدُّنيا!"

"لا تجعلْني أضحك! أتحسب أنّك مختلفٌ عن الآخرين في أيّ شيء؟ أنا راحلة عن هذا المكان. لقد كافأتُكَ ساعةً بساعة. إنّك حصّلت منّي قيمةَ ذهبِكَ عملًا".

"هُراء. فأنتِ إنّما تهربين لأنّك مرتعبة، لأنّك بدأتِ تحبّين هذا المكان". وأهوَت عليه بيدها، إلّا أنّه صدّها. ثمّ أهوت ثانيةً، فأمسك بمِعصَمها. "ها قد أحرزتُ كامل انتباهكِ أخيرًا!" وتركها تدور وتُفلِت. "على الأقلّ صرتِ تنظرين إليّ بدل أن تنظري من خلالي".

دارت آنجل ومضت مسرعةً عبر الفناء. دخلت الكوخ وسفقت الباب. وتوقّع مايكل أن يرى شيئًا يخرج من النافذة ويتحطّم، إلّا أنّ شيئًا من ذلك لم يحصل.

راح قلبُه يخبط كمحرّك قطار. ثمّ زفر نَفَسه خارجًا ودسّ أصابعه في شعره، مُرجِعًا إيّاه إلى الوراء. ستكون حربٌ مفتوحة منذئذٍ فصاعدًا. حسنًا، فلتكن هكذا. فأيُّ شيءٍ سيكون أفضل من لامبالاتها. ثمّ عاد إلى عمله.

عند دخوله، بدت مارة هادئةً إلى حدٍّ بعيد. فقد رمقته بنظرة، وابتسمت له ابتسامةً عذبة وهي تسكب اليخنة في صحنٍ كبير ثمّ تضعه له على الطاولة. وما إن تذوّق قليلًا بحَذَر، حتّى عرف أنّ في الطعام ملحًا زائدًا كافيًا لأنْ يكويه. كذلك كان في البسكويت رمل. وحين نظر في كوز قهوته، رأى ستّ ذُباباتٍ طافيةً على وجه القهوة المُبخّر. فضحك ورمى القهوة من الباب. تُرى، ماذا "طبخت" له أيضًا؟ "لماذا لا نبحث في ما يزعجكِ حقًّا؟"

طَوَت آنجل يديها على الطاولة. "عندي فقط شيءٌ واحد أقوله. لن أبقى هنا معك إلى الأبد". فاكتفى بأن رمقها بنظره، وقد ارتسمت على وجهه تلك النظرة الغامضة الفاترة التي جعلتها ترغب في ضربه بهراوة، فيما قالت ثانيةً: "لن أبقى".

"سنعيش كلَّ يوم بيوم، يا عزيزتي". وتناول علبة فاصوليا من على الرفّ، ثُمَّ فتحها. وقد كانت عيناها شديدتَي الحرارة بحيث يمكن أن تقليا شريحة لحم. ثمَّ أسند وَرِكه إلى المنضدة وتناول وجبته الباردة.

رفعت نظرها إليه محدِّقةً. "أنا لا أنتمي إلى هذا المكان، وأنت تعرف هذا".

"إلى أين تحسبين أنَّك تنتمين؟ أَإلى ذلك الماخور؟"

"ذلك خِياري، أليس كذلك؟"

"إنَّكِ لا تعلمين حتَّى بوجود خيارٍ بعد. أنتِ تحسبين أنَّ ثمَّة طريقًا واحدًا تسلكين فيه، وهو ينحدر مباشرةً إلى الجحيم".

"أنا أعرف ما أُريد".

"أفلا تقولين لي إذًا؟"

"أُريد أن أخرج من ههُنا!" ثمَّ نهضت وخرجت خارجًا، وقد حال غضبها وخيبتها الشديدان دون أن تنظر إليه.

وضع مايكل العلبة جانبًا، وذهب ليتّكئ على إطار الباب. "أنا لا أصدِّقكِ".

"أعرف، ولكنَّني لا أعتقد أنَّ ما أريده هو شأنٌ من شؤونك". وضحك، إنَّما ليس عن تفكُّه. فبادلته نظرة حملقة وعيناها تتألَّقان تحت ضوء القمر. "ما كلُّ ما كان في فكرك عندما أتيت بي إلى هنا".

مضت لحظات قبل أن يجيب مايكل. لقد تساءل عن قدرته على إفهامها. كما تساءل عن قدرته على التعبير عن مقصده بالكلمات. ثمَّ قال، ملاحظًا السخرية على وجهها: "أُريد منكِ أن تحبِّيني. أريد منكِ أن تثقي بي ثقةً تجعلكِ تسمحين لي بأن أُحبَّكِ. وأُريد منكِ أن تبقَي معي هنا حتَّى يتسنَّى لنا أن نبتني حياةً معًا. ذلك هو ما أُريده".

تلاشى غضبُها أمام صراحته وإخلاصه. "يا سيِّد، هلَّا تفهم أنَّ ذلك مستحيل؟"

"كلُّ شيء ممكن".

"ليس لديك أدنى فكرة عمَّن أنا وما أنا، سوى ما كوَّنته في ذهنك".

"صارحيني إذًا".

هيا، يا آنجل، صارحيه! ما كان في وسعه حتّى أن يحزر حزرًا الأُمور التي فُعِلت بها، أو تلك التي فعلَتها هي. أُوه، في وسعها أن تُصارِحه. سوّي البندقيّة. كلتا الماسورتين. سدِّدي نحو الهدف مباشرةً. صوِّبي نحو قلبه. إبادةٌ تامّة. من شأن ذلك أن يضع بسرعة حدًّا نهائيًّا لكل شيء. لماذا تتردَّد؟

خرج مايكل خارجًا، وقال: "مارة". فكان صوته الرقيق كملحٍ على جراحها.

"ليس اسمي مارة. إنَّه آنجِل. آنجل!"

"لا، ليس هو ذلك. ثمَّ إنَّني سأناديك بأيِّ اسمٍ أراه. مارة، مَن مرَّرتها الحياة؛ تِرصة، محبوبتي التي تُثير فيَّ نارًا حتى أشعر كما لو كنت أذوب". ثمَّ تقدَّم نحوها. "لا يمكنكِ أن تواصلي الهرب. ألا تدركين ذلك؟" ووقف قدَّامها تمامًا. "ابقَي هنا. ابقَي معي. سنُرتِّب الأمور معًا". ثمَّ مسَّها برفق. "أنا أُحبُّكِ".

"أتدري كم مرَّة سمعت هذا الكلام من قبل؟ أنا أُحبُّكِ، يا آنجل. يا لكِ من فتاةٍ صغيرة حسناء! أنا أُحبُّكِ، يا حبيبتي. يا طفلتي، أنا أُحبُّكِ عندما تفعلين ذلك. قولي إنَّكِ تحبِّينني، يا آنجِل. قولي ذلك كي أُصدِّقكِ. ما دمتِ تفعلين ما أطلبُه منك، فسأظلُّ أُحِبُّكِ يا آنجل. أنا أُحبُّكِ... أُحِبُّكِ... أُحبُّكِ. سئمتُ حتّى الموت من سماع ذلك!"

حدَّقت إليه غاضبةً، ولكنَّ ملامح وجهه هزمتها. وانكمشت على ذاتها بشدّة. لا تفكِّري. لا تشعري بأيِّ شيء. سيُدمِّركِ إن فعلتِ ذلك. ثمَّ حاولت أن تركِّز على شيءٍ آخر.

كانت سماء الليل صافية جدًّا. نجومٌ في كلِّ مكان وقمرٌ كبير جدًّا بحيث بدا أنَّه عينٌ فضيَّة مفردة تحدِّق إلى أسفل. وما زال عقلها وقلبها يغليان. ثمَّ حاولت أن تستنفر دفاعاتها، ولكنَّها تبدَّدت كلُّها. وأرادت أن تكون على قمَّة تلك التلَّة، مشاهِدةً شروق الشمس ثانيةً. وتذكَّرت كلماته: "مارة، تلك هي الحياة التي أُريد أن أُعطيكِ إيّاها". مَن كان يخدع؟ لقد علِمَتْ أنَّ ذلك لن يحصل أبدًا، وإن كان هو لم يعلم ذلك بعد.

آلَمَتها عيناها المحرورتان. "أُريد أن أعود إلى پيرأدايس بأسرع ما يمكن".

"أأقتربُ إليكِ أكثر من اللازم؟"

دارت مسرعةً. "لن أبقى هنا معك!" ثمَّ حاولت أن تهدأ وتُقنِعه بالمنطق. "اسمع، يا سيِّد، لو عرفتَ نصفَ ما فعلتُه، لكنتَ تصرفني إلى پيرأدايس بأقصى سرعة..."

"جرِّبيني. هيّا تكلَّمي، وانظري هل يُحدِث ذلك فرقًا".

صَعقت آنجل هذه الفكرة. لقد فتحت باب الجحيم وليس في وسعها أن تُغلِقه بعد.

فالذكريات المروِّعة البشعة الهائلة قامت من الموت. أبوها. أمُّها ميتة، ومسبحتُها بيدها. راب والحبل حول رقبته لأنَّه عرف أنَّ دُوك لم يكن ذلك المواطن الشريف المستقيم، صاحبَ الأخلاق الرفيعة، كما كان الناس يحسبونه. دُوك مغتصبًا إيّاها مرارًا وتكرارًا. عشرات الرجال في السنين اللاحقة. ثمَّ الجوع، ذلك الجوع المؤجع الدائم في داخلها.

استطاع مايكل أن يرى شحوب وجهها في ضوء القمر. لم يدرِ في ما كانت تفكِّر، لكنَّه تيقَّن أنَّ ماضيها يُعذِّبها. ومدَّ يده ليمسَّ خدَّها. "يا ليتني أستطيع فتح ذهنكِ والغوص معك في أعماقه". فربَّما تمكَّنا كلاهما من دحر الظلمة التي كانت تحاول أن تبتلعها بجملتها. وأراد أن يمسك بها، إلَّا أنَّها كانت قد تباعدت عنه فعلًا. إلهي، كيف أُنقِذها؟

رفعت أنجل نظرها إليه فرأت بريق البَلَل في عينيه، فسرت فيها صدمة، وقالت بوَهن: "أتبكِي؟ من أجلي؟"

"ألا تعتقدين أنّكِ تستحقّين؟"

تصدَّع في داخلها شيء. وتلوَّت من الداخل للفرار من ذلك الشعور، إلَّا أنَّه بقي راسخًا رغم ذلك، وقد تعاظم بلمسة يده الرقيقة على كتفها، وبكلِّ كلمةٍ ناعمةٍ قالها. وباتت على يقين بأنَّها لو وضعت يديها على قلبها لعادت كفَّاها مضرَّجتين بدمها. أكان ذلك ما أراده هذا الرجل؟ أن تنزِف لأجله؟

ثمَّ همس: "تكلَّمي إليَّ، يا أماندا، تكلَّمي إليَّ".

"أماندا؟ ما عسى أن يعني هذا الاسم؟"

ابتسم ابتسامةً رقيقة. "لستُ أدري، ولكنَّه يبدو اسمًا ظريفًا محبَّبًا. ظننتُ أنّكِ قد تُفضِّلينه على مارة".

لقد كان رجلًا غريبًا، يسلك سُبلًا غريبة. ماذا جرى لدفاعاتها؟ أين غدا تحدِّيها وغضبُها؟ وعزيمتها؟

"ماذا تريد أن تسمع، يا سيِّد؟" قالتها متقصِّدةً أن تبدو لاهيةً وخائبة. ماذا يسعها أن تقول لرجُلٍ مثله من كلامٍ يمكن أن يفهمه مجرَّد فهم؟

"أيَّ شيء. كلَّ شيء؟"

هزَّت رأسها. "لا شيء، إطلاقًا".

أخذ مايكل وجهها بين كفَّيه برفق. "إذًا قولي لي فقط ما تشعرين به الآن".

فقالت قبل أن تفكِّر في الأمر ولو قليلًا: "الألم". ثمَّ دفعت يديه عنها ورجعت إلى داخل الكوخ.

كانت تشعر بالبرد، ومُتلهِّفة أن تستدفئ. فركعت قُبالة الموقد. ولكنْ حتَّى دفؤه لم يقوَ على اختراق بشرتها. ولئنِ استلقت على الجمر، فما كان ليُذيب الصقيع الذي اعتراها.

اهربي منه، يا آنجل. اهربي الآن...

ابقَي، يا محبوبة!

تصارعت أصواتٌ في رأسها، مُتجاذبةً نفْسها بالذات.

دخل مايكل داخلًا وقعد قربها على الأرضيَّة، مراقبًا إيَّاها بهدوء وهي تسحب ركبتيها وتضمُّهما إلى صدرها. فعلم أنَّها كانت تحاول صدَّه من جديد، ونوى ألَّا يساعدها على النجاح هذه المرَّة، فقال: "أعطيني ألمكِ".

نظرت إليه آنجل مدهوشة. لقد كانت في برِّيَّة مع هذا الرجل. وهي متلهِّفة للاهتداء إلى طريقٍ مألوف، إلى مَعلَمٍ ما يَهديها السبيل. ولم تستطع أن تتذكَّر آخِر مرَّة كادت تبكي فيها. ثمَّ إنَّ الدموع قد جفَّت في مآقيها، وما بقي لديها دموعٌ بعد. لقد حيَّرها هوشع وأربكها.

"لقد فعلتُ لك كلَّ شيء ما عدا الشيء الوحيد الذي أُتقِنه تمامًا". وتفحَّصَت عينيه. "لِمَ لا؟" فتغيَّرت ملامح وجهه، وشعرت بلينِ تجاهه. لقد كان منكشفًا، ومن المستغربَ أنَّها لم تشعر برغبةٍ في مهاجمة حصونه. "أأنت خائف؟ أذلك هو ما يُبعِدك عنيّ؟ هل تحسب أنَّني سأسخر منك لأنَّك لم تختلِ بامرأةٍ من قبل؟"

أمسك مايكل بخُصلة من شعرها وفركها بين أصابعه. أين غدت الآن جميع أجوبته المنطقيَّة؟ أعتقد أنَّ الأمر قد دخل فكري. ولكنْ فضلًا عن ذلك، أودُّ أن أعرف لماذا؟

فسألته غيرَ فاهمة: "ماذا؟"

"لماذا تبتغين إقامة علاقة الحبّ معي؟"

"لماذا؟" لن تفهم هذا الرجل أبدًا. جميع الرجال الذين عرفتهم يومًا كانوا يتوقَّعون منها أن "تشكرهم" إن أعطوها ولو علبة سكاكر أو باقة زهر. وهذا الرجُل أبقاها على قيد الحياة ومرَّضها حتَّى تعافت. وقد علَّمها أشياءَ تساعدها على العيش وحدها. وها هو الآن يريد أن يعرف لماذا تُقدِّم له جسدها. "أيكون عرفان الجميل سببًا كافيًا؟"

"لا. لم يكن في يدي أن تعيشي أو تموتي. فذلك شأن الربّ".

أدارت آنجل رأسها بعيدًا. "لا تُكلِّمني عن إلهك. إنَّه لم يرجع لأجلي. فأنت فعلتَ ذلك". ثمَّ ألقت جبينها على ركبتيها المرفوعتين، ولم تقُل كلمةً أُخرى.

وهمَّ مايكل بأن يتكلَّم، إلَّا أنَّ الصوت منعه.

مايكل، لكلِّ شيء وقت.

فكبت تنهُّدةً، مُمتثِلًا للرسالة. لم تكن مستعدَّة للإصغاء إلى التعليل والتفسير، بل كان من شأن ذلك أن يكون أسيدًا لا مرهمًا. ومن ثَمَّ لزم الصمت.

ربِّ، رجاءً... أرشِدني!

ثمَّ فرقعتِ النار، وبدأت آنجِل تسترخي من مجرَّد الإصغاء إلى الأصوات المهدِّئة. فقالت: "أردتُ أن أموت. لم أقدر أن أصبر. وحين تصوَّرتُ أنّي مُتُّ، حينئذٍ ظهرتَ أنت هناك".

"أما زلتِ تُريدين أن تموتي؟"

"لا، ولكنّي أيضًا لا أعرف لماذا أُريد أن أعيش". وسقط حصار العاطفة، فأدارت رأسها قليلًا ونظرت إليه ثانيةً. "ربمّا كان لك دخلٌ في الأمر. لستُ أعرف شيئًا غير ذلك".

طفرت البهجة داخل مايكل، إنّما هُنيهةً فقط. فقد بدت متألِّمة، لا سعيدة؛ مرتبكة، لا أكيدة. وأراد أن يلمسها، لكنّه خشي إذا فعل ذلك أن تفهمه بالطريقة المغلوطة.

عَزِّ حَمَلي!

إذا لمستُها الآن، يا ربّ...

عزِّ زوجتك!

أمسك مايكل بيدها، فتشنَّجت ذراعُها، إلَّا أنَّه لم يُفلِتها. وقلب يدها على يده ومرَّر أصابعه برفقٍ على راحتها وأصابعها المسوَّدة حتَّى غطَّت يده الكبيرةُ يدها. "نحنُ في هذا معًا، يا أماندا".

"لستُ أفهم ما تعنيه".

"أعرِف، إنّما أمهليني بعض الوقت فتفهمي".

"لا، لستُ أعتقد أنَّني سأفهم أبدًا. لا أدري ما تريد منّي. إنّك تقول كلَّ شيء، ولا تأخذ شيئًا. أنا أرى طريقة نظرك إليَّ، ولكنّك لم تعاملني قطُّ معاملة الزوجة".

أدار مايكل خاتم الذهب في إصبعها. لقد كانت زوجته. آن الأوان للقيام بشيء في شأن ذلك. إن كانت لا تعرف الفرق بين ممارسة الجنس وإقامة علاقة الحبّ، فسيكون عليه أن يُبيِّن لها ذلك. ربّاه، إنَّني خائف، خائفٌ من حدَّة رغبتي الجسديَّة. وكان أكثر ما خشيه ألَّا يعرف كيف يسرُّها.

ربِّ، ساعدني!

راقبته آنجل يتأمَّل الخاتم في إصبعها. "أتريد أن تستردَّه؟"

"كلّا!" شبك أصابعه بأصابعها وابتسم لها. "إنّما أنا جديدٌ في الزواج، مثلي مثلكِ". وخيّم عليه سكون، فأيقن أنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام".

حوّلت آنجل نظرها بعيدًا. فكثيرًا ما وافاها رجالٌ متزوّجون، وقد علمت ما يبتغون قوله في ذلك. إنّ زوجاتهم لا يتفهّمنهم. وقد تزوّجوا كي يستريحوا ويُنجِبوا. وقد سئموا ملازمة المرأة عينها، وباتوا يحتاجون إلى شيء من التغيير، كمن يطلب لغدائه شرائح لحم بدل اليخنة، وسمكًا بدل الدجاج. وقد قال أغلبهم إنّ زوجاتهم لا يستمتعن بالجنس. فهل ظنّوا أنّها هي كانت تستمتع؟

"سيّدي، إنّ ما أعرفه عن الزواج ليس مُشجّعًا".

"قد يكون". وقبّل يدها. "إنّما أومن بأنّ الزواج عهدٌ بين رجل وامرأة بأن يبنيا حياةً معًا. إنّه وعدٌ بأن يحبّ أحدهما الآخر بصرف النظر عمّا يكون ويحدث".

"أنت تعرف ما أنا. فلماذا تقطع لي وعدًا كذاك؟"

"أنا أعرف ما كُنتِ".

أحسّت وجعًا في داخلها. "لن تتعلّم أبدًا. هل ستتعلّم؟"

انحنى مايكل وأمال بيده وجهها نحوه، وقبّلها. لم تنفر، إلّا أنّها لم تتأثّر أيضًا. يا ربّ، في وسعي أن أستخدم عونًا يسيرًا منك هنا. وارتعش إذ مرّر أصابعه في شعرها وقبّلها ثانيةً.

كان متردّدًا جدًّا، بحيثُ استرخت آنجل. يمكنها أن تتولّى ذلك. يمكنها أن تتولّى أمره حسنًا تمامًا. بل يمكنها أيضًا أن تساعده في أثناء ذلك.

وتراجع مايكل. لم يكن ينوي أن يدع رغبته تجمح، ولا أن يلمّ بالجنس ويزوغ نظره عن الحبّ، مهما كانت هي أكثر ارتياحًا في ذلك.

ثم هبّ واقفًا. "على طريقتي، لا طريقتكِ. هل تذكرين؟"

فتأمّلته آنجل مرتبكةً: "ماذا تعرف عن الأمر؟"

"سيكون علينا أن ننتظر ونرى".

"لماذا تُصعّب الأمور على نفسك؟ الأمر كلّه يؤول إلى نقطة واحدة. فلن يكون ذلك بطريقتي أو بطريقتك، بل سيكون بالطريقة التي هو عليها".

كان ما تعنيه هو الفعل الجنسيّ. وهو لم يدرِ كيف يُبيّن لها أنّه مقصودٌ به أن يكون احتفالًا بالحبّ.

كلُّ ما رأته آنجل كان عزمه الوطيد. فوقفت على مهل وانضمّت إليه. "إن كان لا

بدَّ أن يكون على طريقتك، فلا بأس. سيكون على طريقتك". في البداية.

نظر مايكل في عينيها، فلم يرَ قساوة . غير أنَّه لم يرَ تفهُّمًا أيضًا. ولم يعُد على يقينٍ إلى أيِّ جزءٍ من ذاته يُصغي في ما بعد. فقد كان تحت ضغط شديد من طبيعته الجسديَّة، وبدت آنجل في عينيه فائقة الجمال.

قالت له: "فَلأُساعِدْك"، وأمسكت بيده.

قعد مايكل على كرسيِّ الصفصاف وقلبُه في حلقه، فيما ركعت هي أمامَه ونزعت حذاءه. وأخذ يفقد السيطرة بسرعة. فهبَّ واقفًا، وابتعد عنها. ثمَّ فكَّ أزرار قميصه وخلعه مُتلوِّيًا. وبينما هو يخلع ثيابه، ظلَّ يُفكِّر في آدم بجنَّة عدن. بِمَ شعر أوَّلَ مرَّة جاءت فيها حوّاءُ إليه؟ أكان خائفًا حتَّى الموت تقريبًا، ومع ذلك فائضًا بالحياة؟

لمَّا التفت مايكل، كانت زوجته واقفةً قُبالة النار عاريةً، تنتظر أن يُوافيَها. وكانت مثيرةً جدًّا، كما كانت حوَّاءُ حتمًا. ووافاها مايكل مندهشًا.

يا ربّ، إنَّها كاملة تمامًا، لا تُشبِهها خليقةٌ أُخرى في العالم. زوجتي! ثمَّ طوَّقها بذراعيه حالًا وقبَّلها.

وإذ تمدَّد بجانبها في سريرهما الزوجيِّ، أدهشه كيف كانت ملائمةً له، جسدًا لجسد، وكأنَّما سُكبت في قالبٍ لأجله. وهمس: "شكرًا، ربِّي يسوع!" ممتلئًا رهبةً وروعةً حيال تلك العطيَّة السنيَّة.

شعرت آنجل به يرتعش بشدَّة، وعلمت أنَّ سبب ذلك تبتُّله الطويل المفروض ذاتيًّا. والغريب في الأمر أنَّها لم تنفر منه، بل شعرت بدلًا من ذلك بشعور عطفٍ لم تعهده. فدفعت المشاعر بعيدًا، طاردةً إيّاه خارج ذهنها... وفوجئت حين انكفأ عنها وأخذ يتأمَّل عينيها، وعيناه مملوءتان بكثير من الألغاز بحيث اضطُرَّت إلى إشاحة وجهها عنه.

فكِّري في مالك في پيرأدايس، آنجل. فكِّري في الرجوع وفي تحصيله من الدوقة. فكِّري في امتلاكِ شيء ما لنفسك. فكِّري في كونك حُرَّة. لا تفكِّري في هذا الرجل. لقد نفعها ذلك في الماضي، فلماذا لا ينفعها الآن؟ هيّا يا آنجل. أتذكرينَ كيف تعوَّدت أن تُقفِلي ذهنك؟ لقد فعلت هذا من قبل. فافعليه من جديد. لا تفكِّري. لا تشعري. إنَّما أدِّي دورك فحسب. فهو لن يلاحظ أبدًا.

غير أنَّ مايكل لم يكن كباقي الرجال، وقد لاحظ ذلك فعلًا. فلم يكن عليه أن يموت كي يُدرِك أنَّها أوصلته إلى عتبات النعيم وسفقت بوجهه الأبواب.

ثمَّ قال لها، مُديرًا وجهها نحوه: "حبيبتي، لماذا لا تدعينني أقترب إليك؟"

حاولت أن تضحك. "ما مقدار القُرب الذي تبتغيه؟" وقدِ استطاعت أن تلمس الفرق في هذا الرجل من خلال مسامّها تمامًا، فسعت إلى حماية نفسها منه.

لمح مايكل الفتور في عينيها الزرقاوين، ففطر ذلك قلبه. "ما زلتِ تصدّينني. تِرصَة، ابقَي معي".

"أصار اسمي ترصة الآن؟"

ربّي يسوع، عونك! "كُفّي عن الهرب منّي".

همّت بأن تصرخ: "ليس منك أنت! بل من هذا. من مفهوم المتعة الغبيّ الأنانيّ. مفهومِهم ومفهومك، الذي لم يكن مفهومي على الإطلاق". غير أنّها لم تقُل شيئًا، بل تحدَّته غاضبةً بدلًا من ذلك.

"لماذا ينبغي لك أن تتكلّم؟" جاهدت، ولكنّه لم يستسلم. لماذا كان عليه أن يظلّ يتطفّل ويتدخّل في أفكارها مُقاطِعًا تركيزها؟ فما برح يشوّش مشاعرها مُثيرًا ومُحيلًا إيّاها إلى خبيصةٍ تغلي. ثمّ أمسك بها ونظر في عينيها ووعى حضورها، إلّا أنّ شيئًا ما في أعماقها تبدّل.

وتعاظم ذعرُها، فأغمضت عينيها.

"انظُري إليّ، يا حبيبتي".

"إيّاك!"

"إيّاي ماذا؟ إيّاي أن أُحبّكِ؟ إيّاي أن أصير جزءًا منكِ؟ إنّني جزءٌ منكِ".

"بهذه الطريقة؟"

"بكلّ طريقة".

قالت مجاهدةً: "لا!"

ردّ بلطف: "نعم! يمكن أن يكون هذا جميلًا. إنّه لا يعني ما قد عُلِّمتِه. هُوَ بركة! آه، يا حبيبتي، تلفَّظي باسمي..."

كيف يُعقَل أن يعتقد أنّ ذلك قد يكون أيَّ شيءٍ ما خلا كونَه قذرًا وتافهًا؟ لقد عرفت كلّ أمرٍ ممّا يتعلّق بهذا الأمر. ألم يُعلّمها دُوك؟ ألم يُعلّمها الباقون؟ فهذا الفلّاح إذًا أراد أن يعرفه على حقيقته. حسنًا، سوف تُريه.

"إيّاكِ!" أربكها أمرُه الخشن هذا.

"ألا تريد منّي أن أمتّعك؟"

"أتريدين أن تُمتّعيني؟ تلفّظي باسمي". وامتزج نفَسُه بنفَسها. "قُلتِ إنّك لن ترفضي

القيام بأيِّ شيءٍ أطلبه منك. هل تذكرين؟ أُريد منكِ أن تلفظي اسمي. قلتِ إنّك تفعلين أيَّ شيء. ألا يمكنك أن تفي بوعدك؟" ثم فارقه هدوؤه إذ أضاف: "الفظيه!"

فقالت من بين أسنانها: "مايكل".

وأمسك وجهها بكفَّيه قائلًا: "انظري إليّ. الفظيهِ مرَّةً ثانية".

"مايكل". هل رضي الآن؟ وانتظرت بسمة انتصاره، إلَّا أنَّها رأت بدلًا منها عينيه المُحِبَّتين وقلبه الحنون وصوته الرقيق.

"الفظيه مرارًا وتكرارًا..."

ولمَّا انتهى ذلك، شدَّها مايكل إليه، قائلًا لها كم يحبُّها ومُعبِّرًا عن البهجة التي وجدها فيها. لم يعُد متردِّدًا، ولا غيرَ متيقِّنٍ ولو بأدنى حدّ؛ ومع يقينه المتنامي تعاظمت شكوكها.

انبثقت في أعماق آنجل عاطفةٌ غير مألوفة وغير مرحَّب بها. وأخذ شيءٌ قاسٍ ومُعقَّد يلين وينحلّ. إذ ذاك علا الصوتُ القاتم.

اهربي من هذا الرجل، يا آنجل. عليكِ الفرارُ من هنا! أنقذي نفسك واهرُبي. اهربي!

الفصل

الثالث عشر

ولكن إن كنّا نرجو ما لسنا ننظره،
فإنّا نتوقّعه بالصّبر.

(رسالة رومية ٨: ٢٥)

لمّا خرج مايكل للقيام بأشغاله الصباحيّة، توجّهت آنجل صاعدةً التلّة نحو الطريق. وكان من الصعب تتبُّع الممرّ الواهي الذي كان مايكل قد شقّه بعربته في أثناء رحلاته إلى أسواق المخيّمات. فعلى طريقٍ قلّ مرورُ المسافرين عليها، سرعان ما تاهت آنجل. وقد بدا لها كلُّ شيء غيرَ مألوف، حتّى ارتبكت. أكانت ما تزال تمشي في الاتّجاه الصحيح، أم دارت دورةً كاملة وعادت إلى مكانٍ قريب من منزل هوشع، إلى حيثُ سبق أن انطلقت؟

كانت السماء آخذةً في التجهُّم، وغيومٌ ثقيلة داكنة تتجمّع. فلفّت آنجل الشال حولها بمزيدٍ من الإحكام، ولكنّ الوشاح الرقيق قلّما نفع في درء صقيع الهواء.

توجّهَت نحو الجبال، مُعلِّلةً ذلك بوجود پيرأدايس في مكانٍ ما على الأعالي، وبأنّ سلوكها تلك الطريق وفّر لها فرصةً فُضلى لبلوغها. ثمّ إنّ الذهاب شرقًا سيُبعِدها عن مايكل هوشع. فكلّما تباعدَت عنه، كان أفضل.

لقد تغيّرت الأُمور بينهما. ليس أنّه واقَعها جنسيًّا في نهاية المطاف. بل كان ثمّة شيءٌ آخر، شيءٌ أكثر عمقًا وجوهريّةً، شيءٌ خارج نطاق فهمها. ولم تكُن آنجل على يقين بماهيّة ذلك الشيء، لكنّها علمت أنّها إذا شاءت أن تدعو حياتها مِلكًا لها فعليها أن تهرب من ذلك الرجل، الآن!

ولكنْ أين كانت الطريق إلى الحرّيّة؟ عبثًا فتّشت.

ثمّ لاح لها جدول، وإذ كانت عطشى توجّهت إليه، حيثُ جثَت على ركبتيها واغترفتِ الماء براحتيها وروَت غليلها. وإذ تطلّعت حوالَيها، تساءلت عن ذلك الجدول: أهو بعينه ذاك الذي يخترق أرض مايكل. فإنْ كان كذلك، فلا بدّ أنّ عبورها له وصعودها ذلك التلّ يُعيدانِها إلى الطريق من جديد.

بدا الجدول ضحلًا والتيّارُ هادئًا. لقد نسيَت إحضار كُلّابة التزرير، فعالجت حذاءها منزعجةً حتّى تمكّنت من خلعه. ثمّ رفعَت ذيل تنوّرتها، ولفّته من قُدّام، ودسّت في طيّاته حذاءها للحفاظ عليه قبل أن تخوض مجرى الجدول.

وخزتِ الحجارة باطن قدميها الرقيقتين، وكانت المياه شديدة البرودة حتّى آلَمتها. ومع أنّها تخيّرت طريقها بحرص، فقد زلّت على حجر مُطحلَب، وأسقطَت فردةً من الحذاء. فمدّت يدها لالتقاطها شاتمةً، فزلّت من جديد ووقعت في الماء. وجاهدت بسرعة حتّى وقفت على قدمَيها، غير أنّها كانت قد تبلّلت توًّا. وأسوأ من ذلك أنّ كِلتا الفردتَين عامتا على الماء مع مجرى النهر. فنزعت شالها ورمته إلى الضفّة المقابلة.

امتلأت إحدى الفردتينِ ماءً وغرقت. فاستردّتها آنجل بسهولة ودسّتها في مأمنٍ داخل بلوزتها. أمّا الفردة الأُخرى فعلقت بين أغصان شجرة ساقطة. فمشت آنجل في الماء على مهلٍ باتّجاهها.

بات المجرى المتدفّق أعمق، والتيّارُ قويَّ الشدّ، إلّا أنّها كانت تعرف أنّها لا تستطيع أن تمشي طول الطريق إلى بيرأدايس حافيةً. فكان عليها إحضارُ تلك الفردة. وإذ عقدت عزمها على انتشالها، رفعَت تنُّورتها أكثر، وخوّضت مقتربةً إليها.

وحين غدا القعر منحدرًا بشدّة، تمسّكَت بغُصنٍ ومدّت يدها منحنيةً حتّى تبلغ فردة الحذاء. وقد مسّتها أصابعُها مرّةً، إلّا أنّ الغصن انقصف. فصرخت، وغاصت بسرعة، فغمر الماء البارد رأسها.

جذبها التيّار بسرعة إلى الغَور القاتم تحت الشجرة. فتشبّثت بجذع الشجرة، ودفعت نفسها إلى فوق وشهقت بعض الهواء. إلّا أنّ تنُّورتها علقت، فتمسّكت بالشجرة الساقطة بكلّ قوّتها، ورفست التنُّورة فحرّرتها. وأمسكت بعُلّيقة قريبة، فجرّحت أشواكُها كفّيها، غير أنّها مكّنت قبضتيها ودفعت نفسها إلى أمان الضفّة، مُنهارةً هناك، وهي ترتجف بشدّة من الرعب والبرد.

وفي غضبها، أخذت ترمي حجارةً على فردة الحذاء حتّى تحرّرت وجرفها التيّار، ثمّ استقرّت بين القصب في مكانٍ قريب، حيث لم تصعب عليها أن تستعيدها.

وفيما استولى عليها البرد والإجهاد والبؤس، انتعلَتِ الحذاء المُبلّل، وصعدت التلّ، واثقةً بأنّها ستهتدي إلى الطريق.

غير أنّها لم تهتدِ.

ثمّ أخذ المطر يتساقط، نُقاطًا قليلة أوّلًا، ثُمّ أغزر، مُلصِقًا شعرها برأسها ومُبلِّلًا

جسمها من خلال بلوزتها. ولمَّا أخذ منها البردُ والتصلُّب والإرهاق الذي يتخطَّى الألم كلَّ مأخذ، قعدت أرضًا ووضعت رأسها في يديها.

أيُّ نفع كان في ذلك؟ فماذا يكون لونجحت في الوصول إلى الطريق؟ لن تتمكَّن من قطع تلك الأميال كلِّها مشيًا. لن تُفلِح في ذلك أبدًا. فها هي مُنهَكةٌ فعلًا ومتألِّمة وجائعة، ولا يمكنها حتَّى الاهتداءُ إلى طريقها.

ومَن يمكن أن يكون هناك ليُقِلَّها رجوعًا إلى پيرأدايس؟ ثمَّ ماذا يكون لو أنَّه كان شخصًا مثل مَغوان؟

انتابتها وعذَّبتها أفكارٌ بموقد مايكل الدافئ، ولحافٍ ثقيل، وطعامٍ ساخن. لقد سَهَتْ عن إحضار شيءٍ من الطعام معها. وكان الجوع قد نهش أحشاءها فعلًا.

ثمَّ نهضت مُكتئبةً، لكنْ مُصمِّمةً، وواصلت سيرها. حتَّى إذا قطعت ميلًا آخر، آلَمَتها قدماها إيلامًا شديدًا، فخلعت حذاءها ودسَّت فردةً في كلِّ جيب من جيبَي تنُّورتها، ولم تنتبه حين سقطا على الطريق.

لمَّا دخل مايكل لتناوُل الفَطور، وتبيَّن له أنَّ أنجل قد ذهبت، أسرج حصانة وذهب يبحث عنها. وقد لام نفسه لعدم توقُّعه ذلك. وكان قد شاهد النظرة الغريبة في عينيها لمَّا جعلها تتلفَّظ باسمه البارحة. فإنَّه اخترق حصونها هُنيهةً، وهي لم يرُقها ذلك.

سار في الطريق إلى حيثُ غادرَتها، وتبع آثارها حتَّى الجدول. وعثر على شال تَسّي. ثمَّ لمح آثار حذاء على الضفَّة، فتتبَّعها صاعدًا التلّ.

بدأ المطر يهطل، فقلق مايكل، إذ لا بدَّ أن تتبلَّل أنجل وتبرد، وربَّما تخاف. فقد كان واضحًا أنَّها لم تكن تدري أين هي وإلى أين تتوجَّه.

ثمَّ عثر على حذائها. "ربَّاه، إنَّها تتوجَّه بعيدًا عن الطريق". وعدا بالحصان إلى قمَّة الهضبة، حيث أجال نظره مفتِّشًا عنها. فاستطاع أن يلمحها في مكانٍ بعيد، تمشي في حقلِ عُشب. فقعَّر راحتَيه حول فمه مُناديًا: "مارة!"

توقَّفت ودارت. واستطاع أن يُميِّز رغم بُعد المسافة أنَّها عقدت عزمها على مغادرته، وذلك من اعتدال كتفيها وإمالة رأسها. فوجَّه الحصان نحوها وسار به على مهل. ولمَّا وصل إلى مسافة ثلاثين مترًا منها، ترجَّل ومشى صوبها. كان وجهها متَّسخًا، وبلوزتها ممزَّقة. ورأى لطخاتِ دمٍ على تنُّورتها. وقد دفعته نظرة عينيها إلى لزوم الصمت.

قالت: "أنا راحلة".

"حافيةً؟"

"إذا اقتضى الأمر".

"لنتحدَّثْ بذلك". وإذ وضع يده تحت مرفقها، انكمشت بحدَّة وصفعته على وجهه.

تعثَّر مايكل متراجعًا خُطوةً واحدة، وقدِ استولت عليه الدهشة. ثمَّ مسح الدم عن فمه وحدَّق إليها. "لماذا فعلتِ هذا؟"

"قلتُ لك إنِّي راحلة. يمكنك أن تُعيدَني جرًّا، فأرحل من جديد. مهما استغرق ذلك من وقتٍ لدخول ذهنك الغليظ".

وقف مايكل صامتًا، وغضبه يتوقَّد أكثر من خدِّه، ولكنَّه علم أنَّ أيَّ شيء يقوله الآن سيندم عليه في ما بعد.

"هل تسمعني يا مايكل؟ هذا بلد حُرّ. لا يمكنك إجباري على البقاء". وأيضًا لم يقل شيئًا. "أنا لستُ مِلكًا لك، مهما دفعتَ للدوقة!"

صبرًا، قال الله. ولكنَّ حاشية الصبر كانت ترقّ. ثمَّ مسح مايكل الدم عن شفته وقال: "سأُقِلُّكِ إلى الطريق". ومشى نحو حصانه.

وقفت آنجل فاغرةً فمها. وألقى مايكل نظرةً عليها. فرفعت ذقنها، ولكنَّها لم تتحرَّك. فسألها: "أتُريدين أن أُقِلَّكِ أم لا؟"

تقدَّمت إليه. "هكذا إذًا، عدتَ إلى رُشدك أخيرًا".

ورفعها إلى السَّرج، ثمَّ وثب وقعد وراءها. ولمَّا وصل إلى الطريق، أمسك بيدها وأنزلها عن الحصان. فوقفت رافعةً نظرها إليه في ذُهول. وحلَّ المَطَرة ورماها إليها، فتلقَّفتها على صدرها. ثمَّ أخرج الحذاء من جيب سترته وأسقطه عند قدميها، قائلًا:

"تلك الطريق تؤدِّي إلى بيرأدايس. إنَّها تبعد ثلاثين ميلًا، صعودًا طول الطريق. وستجدين مَغوان والدُّوقة بانتظاركِ في نهايتها".

ثمَّ أومأ برأسه نحو الاتِّجاه المعاكس، قائلًا: "وتلك الطريق تؤدِّي إلى البيت، على بُعد ميلٍ واحد نزولًا، حيث الموقد والطعام وأنا. إن رجعتِ، نستأنف المسيرة حيث توقَّفنا البارحة، وما زلنا نلعب لعبتنا بموجبِ قواعدي".

وتركها واقفةً وسط الطريق.

كان الظلام قد حلَّ حين فتحت مارة باب الكوخ. فرفع مايكل نظرة عن الكتاب المقدَّس الذي كان يقرأ فيه، وألقى عليها نظرةً بغير أن يقول كلمةً واحدة. ووقفت هي بالباب هُنيهةً، شاحبةَ الوجه، مُجَهدةً، يُغطِّيها الدم وغبار الطريق. ثمَّ دخلت مُطبِقةً فمها.

قالت بمرارة: "سأنتظر حتَّى الربيع"، وألقت بمطرته الفارغة على الطاولة. ثمَّ تهالكت على كرسيٍّ بِلا ظهر كما لو أنَّ كلَّ عضلة في جسمها تؤلمها، ولكنَّها بقيت أعند من أن تلتمس دفء الموقد.

نمَّتِ النظرة المرتسمة على وجهها أنَّها تنتظر منه أن يهزأ بها.

ولكنَّه نهض واغترف بعض اليخنة من القِدر المعدنيَّة، وتناول قطعة بسكويت من المقلاة. ثمَّ وضع اليخنة والبسكويتة أمامها، مبتسمًا ابتسامةً كئيبة. فلاحت على جبينها تقطيبةٌ خفيفة إذ نظرت إليه.

ولمَّا كان الجوع قد نهشها طبعًا، شرعت تأكل. وسكب لها قهوة، فرشفتها وهي تراقبه يملأ طستًا بالماء الساخن. وحين أسند مرفقه على رفِّ الموقد ونظر إليها، حنَت رأسها وعادت تأكل عشاءها.

حتَّى إذا فرغَت، قال لها: "اقعُدي ها هنا". وكاد تعبها الشديد يحول دون نهوضها، إلَّا أنَّها امتثلت لقوله. فركع ووضع طست الماء عند قدميها، وحلَّ سيور حذائها ونزعه.

كانت طوال طريق العودة قد تصوَّرته شامتًا موبِّخًا ساخرًا، مُمرِّغًا وجهها في كبريائها الجريح. ولكنَّه بدلًا من ذلك جثا أمامها وغسل قدميها الوسختين المُقرَّحتين. فنظرت نزولًا، والحرقةُ في حنجرتها، إلى رأسه الداكن وصارعت المشاعر التي ثارت في داخلها. وقد انتظرت أن تتلاشى تلك المشاعر، إلَّا أنَّها أبَتِ التلاشي، بل بقيت وقويت وجعلتها تتألَّم أكثرَ بَعد.

كانت يداه لطيفتين حانيتين، وقد بذل كلَّ اعتناء. ولمَّا نظفت قدماها، دلَّك بطَّتَي ساقيها الموجَعتَين، ثمَّ كبَّ الماء الوسخ خارجًا، وسكب مزيدًا من الماء التنظيف، واضعًا الطست في حضنها. كذلك أخذ يديها وغسلهما أيضًا. وقبَّل كفَّيها الملطَّختين المُجرَّحتين، ودهنهما بالمرهم. ثمَّ لفَّهما بضمادتين دافئتين.

وأنا قد ضربتُه، وأسَلتُ دَمَه!...

انكمشت آنجل خجلًا. ولمَّا رفع رأسه، نظرَت في عينيه، فإذا بهما زرقاوان كسماء الربيع الصافية. ولم تكن بالحقيقة قد لاحظت ذلك من قبل. فقالت بصوتٍ أجشّ:

"لماذا تفعل بي هذا؟ لماذا؟"

"لأنَّ ميلًا واحدًا عند بعضٍ منَّا قد يكون قطعُه مشيًا أبعد من ثلاثين ميلًا". وأزال الغُبار والعُشب عن شعرها، ثمَّ نزع عنها ملابسها وأنامها في السرير. وبعدما خلع هو ثيابه، تمدَّد بقربها. لم يقُل كلمةً واحدة، ولا طرح سؤالًا واحدًا.

أرادت أن تُعطيه شرحًا. أرادت أن تقدِّم عذرًا. إلَّا أنَّ الكلمات أبَت أن تأتي، بل علقت في صدرها كصخور تُثقِل كاهلها وتحني ظهرها أكثر فأكثر.

لا أُريد أن أشعر بهذا. لا يمكن أن أسمح لنفسي بالشعور على هذا النحو. لا أُطيق العيش به!

انقلب مايكل إلى جنبه، وأسند رأسه على يده. ومسَّد شعرها رادًّا إيّاه عن صدغيها. ها هي قد عادت إلى كوخه الصغير، وبَدَت أضيَع منها في أيِّ وقتٍ مضى. وقد كان جسمها كالجليد، فشدَّها إليه ليتسرَّب دِفؤه إليها.

لم تتحرَّك آنجل لمّاً قبَّلها. إذا كان يُريد الجنس، فليكُن له ذلك. ليكُن له كلُّ ما أراد، مهما كان. هذه الليلة، على كلِّ حال.

وقال لها: "حاولي أن تنامي. ها أنتِ في البيت، سالمةً آمنة".

في البيت! شهقت نفَسًا طويلًا يصحبه ارتعاد، وأغمضت عينيها. ليس عندها بيت. لقد استقرَّ رأسُها على صدره، فسكَّنتها دقَّات قلبه الثابتة. وظلَّت على تلك الحال وقتًا طويلًا، إلَّا أنَّ النعاس جافاها. فانكفأت واستلقت على ظهرها تُحدِّق إلى السقف.

قال مايكل: "أتودِّين التحدُّث عن الأمر؟"

"عن أيِّ أمر؟"

"عن سبب رحيلك".

"لا أعرف".

تلمَّس مايكل صفحة خدِّها. "بلى، تعرفين".

فابتلعت ريقها بصعوبة، مقاوِمةً مشاعر لم تستطع حتَّى تحديدَها. "لا أقدر أن أُعبِّر عن ذلك بالكلام".

لفَّ على إصبعه خُصلةً من شعرها الباهت، وشدَّها برفق. "لماَّ حملتُكِ على لفظ اسمي، لم تستطيعي التظاهُر بعدم كون شيءٍ ما يحصل بيننا، هلِ استطعتِ؟ ألم يكُن كذلك؟ لقد أردتُ النفاذَ إلى داخلك، إلى داخل قلبك". ثمَّ أضاف بصوته الأجشّ: "فهل نفذتُ؟"

"قليلًا".

"حسنًا". وتلمّس وجهها بإصبع واحدةٍ من جديد. "حبيبتي، المرأةُ إمّا سورٌ وإمّا باب".

ضحكت ضحكةً كئيبة ونظرت إليه. "إذًا أعتقد أنّني بابٌ دخله ألفُ رجُل".

"لا، بل أنتِ سور، سورٌ من حجر، عرضُه متر وارتفاعه ثلاثون. فلا أستطيع أن أتسلّقك وحدي تمامًا، إلّا أنّني أستمرّ في المحاولة". وقبّلها. "أحتاج إلى معونة، يا تِرصَة!" فلانت شفتاها، ومسّت شعره. وإذ أُثير، انكمش وانكفأ، علمًا منه بمدى إرهاقها البالغ.

قال برقّة: "انقلبي!" ففعلت ذلك. وألصق جسمه بجسمها وطوّقها بذراعه. ومسَّ شعرها بشفتيه مسًّا رقيقًا، قائلًا: "نامي". فتنفّستِ الصُّعَداء. ولم يستغرقِ استيلاء الإرهاق عليها سوى تُحَيظات.

اضطجعت في أمانٍ بين ذراعَي مايكل، وحلمت بسورٍ عريضٍ عالٍ. رأته هنالك تحتها، يغرس كروم عِنَب. وما إن تُلامِس الغروس التُّربة، حتّى تنمو وتكبر ناشرةً الحياة الخضراء على جانبَي السور، وغارزةً مَحاليقها[١١] بين الحجارة، فيما ملاطُ السُّور يتفتّت.

استلقى مايكل في قلب الظُّلمة، مستيقظًا تمامًا. سيكونُ عليه أن يتخلّى عن الأمل في اختراق حواجزها. **ولكنْ يا ربّ، كيف أصِل إليها؟ قُل لي: كيف؟**

ثمَّ أغمض عينيه ونام في سلام، ناسيًا العدوَّ الذي كان طليقًا في العالم. فالمعركة لم تُكسَب بعد.

لقد كان پول عائدًا إلى الديار.

(١١) المحلاق: جزء لولبي رفيع من النبتة المعترشة يساعدها على التعلق بما تستند إليه.

الفصل

الرابع عشر

لا تدينوا، لكي لا تُدانوا؛ لأنّكم بالدينونة
التي تدينون تُدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم.

(المسيح، إنجيل متّى ٧: ١)

ألقى پول عُدَّته الضئيلة ووقف على مُنحَدر التلّ، فرأى مايكل يعمل في الحقل، وقعَّر راحتيه حول فمه مناديًا. فترك مايكل المجرفة، وتوجَّه ليُلاقيَه في منتصف المنحدر. وتعانقا، وكاد پول يبكي عندما مسَّته تانِك الذراعان القويَّتان المتينتان.

قال پول بصوتٍ أربكه التعب والتأثُّر: "أُوه، يسعدني أن ألقاكَ يا مايكل". وقد كان انفراجُه عظيمًا حتَّى اضطُرَّ إلى حبس دموعه التي لا تليق بالرجال. فانكفأ يفرك وجهه خجلًا. لم يكن قد حلق منذ بضعة أسابيع، كما كان شعره قد طال، وما بدَّل ثيابه منذ شهر. وقال ضاحكًا ضحكةً واهية: "لا بدَّ أنَّ منظري... لقد كانت الأحوال مُروِّعة". ذلك أنَّه كان يعمل عملًا شاقًّا ليُحصِّل قليلًا أو لاشيئًا، ويشرب الخمرة كي ينسى، ويطلب النساء كي يتذكَّر، ويكافح للبقاء على قيد الحياة.

ألقى مايكل يده على كتف پول. "سيتحسَّن منظرك كثيرًا بعد أن تستحمَّ وتتناول وجبةً جيِّدة". وقد حال إجهاد پول الشديد دون اعتراضه عندما صعد مايكل التلَّ وحمل على كتفيه عُدَّته وأشياءه "كيف كانتِ الحال على ضفاف اليُوبا؟"

فكشَّر پول قائلًا: "كئيبة وباردة جدًّا".

"هل وجدتَ ما كنت تبحث عنه؟"

"إن كان في تلك التلال ذهب، فأنا لم أرَ منه كثيرًا. وما وجدتُه كان بالكادّ كافيًا للبقاء على قيد الحياة". ثمَّ نظر نحو طرَفه من الوادي وفكَّر في تَسّي. وكانت الأيَّام الأخيرة القليلة قد حفلت بالذكريات المتعلِّقة بها، وكيف كانا يحلمان بالقُدوم إلى كاليفورنيا وبناء قصرٍ خاصٍّ بهما. وفقدُه لها كان ما دفعه إلى الانطلاق نحو بلاد الذهب. فكلَّما فكَّر في تَسّي، انتابه الألم من جديد.

آه، يا تَسّي! لماذا وجب أن تموتي؟

اعترت الحرقة عينيه، فاغرورقتا رغم إرادته. لقد كان محتاجًا إليها أشدَّ الاحتياج. ولم يعُد يدري ما هو فاعل. فحياتُه فقدت معناها لمَّا فقد زوجته.

وسأله مايكل: "هل رجعت إلى الديار نهائيًّا؟"

وإذ خشي بول الوثوق بصوته، تنحنح مُنظِّفًا حنجرته واعترف صراحةً: "لا أدري حتَّى الآن. فأنا مُرهَق تمامًا". وقد كان الإعياء مستوليًا عليه كلِّيًّا حتَّى منعه من التفكير في ما ينوي فعله غدًا. "شقَّ عليَّ البقاءُ حيًّا على الجبال في الشتاء. حتَّى إنَّني لم أكن واثقًا من إمكانية وصولي سالمًا إلى الديار". ولمَّا وصل سالمًا الآن، أحسَّ الوجع القديم من جديد. فشُكرًا لله على إمكانيَّة قضاء الشتاء عند مايكل. ولطالما تشوَّق إلى ساعاتٍ طويلة من الحديث العقلانيّ. فكلُّ ما تحدَّث عنه الرجال على السواقي كان الذهب والنساء. أمَّا مايكل فكان يتحدَّث عن أمور كثيرة، أمورٍ كبيرة تملأ رأس الإنسان وتؤتيه الرجاء.

كان بول قد قصد سواقي الأنهار لاصطناع ثروةٍ له بالطريقة السريعة. وسبق أن صحبه مايكل، غير أنَّه لم يبقَ سوى بضعة أشهر. وقد قال: "ليس هذا ما أُريده من الحياة"، وحاول إقناع بول بالرجوع إلى الأرض. فدفعت الكبرياء بول إلى البقاء. ولكنَّ البرد وخيبة الأمل والجوعَ حملته على العودة. ليس الجوع إلى الطعام، ولا إلى الغنى أيضًا، بل جوعٌ روحيٌّ أعمق.

ألقى مايكل يده على كتف بول. "أنا مسرورٌ برجوعك إلى الديار". ثمَّ ابتسم ابتسامةً عريضة قائلًا: "الحقول الجاهزة للزرع كثيرةٌ، يا أخي، ولكنَّ الفَعَلة قليلون".

كان من دأب مايكل أن يُيسِّر الأمور دائمًا. فابتسم بول ابتسامةً ساخرةً. "شكرًا لك!" وجاراه في مشيته. "لم تكُنِ الحال هنالك كما توقَّعتُ في أيِّ شيء".

"أَلم يكن كنزٌ عند طَرَف قوس القُزَح؟"

"لم يكُن حتَّى قوسُ قُزَح!" وكان قد بدأ يشعر بتحسُّن حاله فعلًا. فسيبقى. إذ خيرٌ لك أن تشقَّ التُّربة من أن تشقَّ ظهرك. وخيرٌ لك أن تُزيل أوساخ إسطبل من أن تقف في المياه المجلَّدة محاولًا العثور على هباءاتٍ يسيرة من الذهب في مقلاةٍ صدئة. إنَّ حياة الفلَّاح الهادئة البسيطة كانت ما يحتاج إليه الآن بالذات. الرتابة والروتين كلَّ يوم. أنْ يراقب شيئًا ما يطلع من الأرض بدل أن ينتزع منها شيئًا ما.

"هل حدث شيء ما هَهُنا في أثناء غيابي؟" وقد لفت نظرَه أنَّ مايكل أنجز شيئًا من البناء ونظَّف قطعةً أخرى من الأرض.

"لقد تزوَّجتُ".

جمد بول في مكانه وحدَّق إليه. ثمَّ أقسم وقال: "لا، لم تتزوَّج!" وما لبث أن أدرك كم بدت كلماتُه سيِّئة الوقْع حالما تفوَّه بها، فأضاف: "آسف، غير أنَّني لم أرَ أيَّة امرأةٍ شريفة منذ انتقلنا إلى هنا". وقد رأى على وجه مايكل ملامح غريبة فحاول إصلاح الأمر. "لا بدَّ أن تكون ممتازةً ما دمتَ قد تزوَّجتَ بها". فإنَّ مايكل طالما كرَّر القول إنَّه ينتظر الزوجة الصحيحة المناسبة تمامًا.

حاول بول أن يفرح له، إلَّا أنَّه لم يستطع. لقد شعر بالغَيرة. فطوال الوقت الذي قضاه على طريق العودة إلى الديار كان يتشوَّق إلى الجلوس قبالة الموقد ومحادثة مايكل، وها هو مايكل صاحبُ زوجةٍ الآن. فيا لحظِّ بول التَّعِس!

كان محتاجًا إلى نُصح مايكل. كان محتاجًا إلى صداقته. فقد كانت لصهره طريقةٌ مُميَّزة في الإصغاء وفي فهم الأمور يصعبُ حتَّى وصفُها. وكان في وسعه أن يُدخِل خفَّةً على أثقل الأوقات، شعورًا بأنَّ كلَّ شيءٍ سيؤول إلى ما قُصِد له، وذلك بصورةٍ نهائيَّة. كان مايكل يرفع مستوى الأمل إلى أعلاه، والله أعلمُ بمدى احتياجه إلى الأمل الآن. وقد توقَّع أن يرجع فيجد كلَّ شيءٍ كما كان.

استمرّت النساء يُلاحِقن مايكل من حينَ استطاع بول أن يتذكَّر. فلماذا تمكَّنت منه إحداهُنَّ الآن؟ وتمتم بول: "تزوَّجتَ؟"

"نعم، تزوَّجت".

"تهانيَّ".

"شكرًا. يبدو أنَّك مسرورٌ حقًّا بهذا".

أجفل بول. "آه، يا مايكل. أنت تعرف أنِّي أنانيّ". ثمَّ استأنفا السَّير. "كيف جرى أن عثرتَ عليها على كلِّ حال؟"

"مُجرَّد سَعْد".

"إذًا خبِّرني عنها. كيف هي؟"

فأومأ مايكل برأسه نحو الكوخ. "هيّا، تعرَّفْ إليها".

وقال بول: "أوه، لا. ليس بهذه الهيئة. نظرةٌ واحدة منها إليَّ ستؤكِّد لها أنَّ جميع الجيران قد شاخوا. ما اسمُها على كلِّ حال؟"

"أماندا".

"أماندا. اسمٌ حلو". وابتسم بخُبث. "أهي حلوة، يا مايكل؟"

"إنّها جميلة".

يمكن أن تكون أبسط النساء. ولكن ما دام مايكل يحبُّها، فلا بدَّ أن يراها جميلة. لذا لم ينوِ پول أن يُصدِر أيَّ حُكم قبل أن يراها بنفسه. "دعني أبِت في الحظيرة الليلة. أكاد أموت من الوقوف والمشي، وأُريد مقابلة زوجتك بعد أن أغتسل وأتهندم".

أحضر له مايكل حِرامًا وصابونةً وغِيار ثياب. وكان إجهاده الشديد يحول حتّى دون وقوفه على قدمَيه. فكلُّ ما استطاع القيام به الآن كان أن يسند ظهره إلى الحائط ويمدَّ رجليه. ثمَّ عاد إليه مايكل بوجبةٍ ساخنة، قائلًا: "يجب أن تأكل شيئًا ما، أيُّها العجوز. فما أنت إلّا جلدٌ وعظام".

ابتسم پول بفتور. "هل قلتَ لها إنَّ في الحظيرة مُتسوِّلًا قذرًا؟"

فردَّ مايكل وهو يطرح القشَّ أرضًا: "لم تسألْني. اندسَّ في هذا متدثّرًا بالحِرام، وستشعر بدفءٍ كافٍ الليلة".

"سيكون هذا مثل النعيم بعد الأرض الصُّلبة شهورًا عديدة". فقد كان ذلك أوّل سقفٍ فوق رأسه منذ أسابيع. ثمَّ ذاق اليخنة ورفع حاجبَيه. "لقد ظفرتَ بطبّاخةٍ ماهرة. هلّا تشكُرها عنّي!" وبعدما التهم الباقي، تهالك على فرشة القشّ. أنا مُنهك. لا أظنُّ أنّني أُنهِكتُ هكذا في أيِّ يومٍ مضى". ولم يعُد يقوى على إبقاء عينيه مفتوحتين. وكان آخِر ما رآه هو مايكل مُنحنيًا فوقه ليُغطّيَه بحِرامٍ ثخين. فقد فارقه كلُّ التوتُّر الذي لازمه أشهُرًا.

استيقظ پول على صهيل حصان. وكان متيبسًا وموجعًا لمّا نهض. فتمطّى، ومضى لينظر إلى الخارج من باب الحظيرة، فرأى مايكل يحفر حفرة لوضع عمودٍ من أعمدة السياج. فأسند ظهره إلى الحائط، وراح يراقبه فترةً طويلة. ثمَّ عاد إلى كدس القش وأحضر الثياب المُعارة.

استحمَّ بعيدًا في الجدول حتّى لا يُحرِج زوجة مايكل. ثمَّ حلق لحيته، وارتدى قميص مايكل الصوفيَّ الأحمر، وذهب كي يساعده.

توقَّف مايكل عن العمل واتّكأ على رفشه. "تساءلتُ متى تستيقظ من نومك. لقد نمتَ يومين دُفعةً واحدة".

ابتسم پول ملءَ فمه. "هذه الصَّدفة تُبيِّن لك أنَّ غسل الذهب من الأتربة في

الأنهار عملٌ أصعب من إقامة السياجات".

فضحك مايكل. "هيّا بنا نرجع إلى البيت. لا بدَّ أن تعدَّ أماندا الفطور".

كان پول قد بدأ ينتظر مقابلة امرأة في المنزل أو حوله. وتوقَّع امرأةً مثل تَسّي عند الموقد، امرأةً هادئة وسلسة، مُستبشرة وتقيّة. فدخل وراء مايكل، متشوّقًا لملاقاتها. وإذا صبيّةٌ نحيلة واقفة قبالة الموقد وظهرُها نحوهما. وقد كانت لابسةً تنُّورة تُشبِه تمامًا تلك التي لبستها تَسّي في أثناء اجتياز طريق أُريغون مشيًا. والبلوزة نفسها أيضًا. غريب! وعبس قليلًا. كانت مُنحنيةً فوق قِدر الطَّبخ، فلاحظ بسرعة أنَّ لها كَفَلًا جميلًا. ولمَّا استقامت، لاحظ خصرها النحيف وضفيرة شعر ذهبيّة كثيفة طويلة تصل إليه. حتَّى الآن، كلُّ شيء على ما يُرام.

"أماندا، پول هنا".

لمَّا دارت، أحسَّ پول معدته تسقط في حذائه البالي. وحدَّق غير مُصدِّق. غير أنَّها كانت هناك محدِّقةً إليه بدورها... تلك المومسُ الغالية السّعر من پيرأديس. وألقى نظرة على مايكل فرآه يضحك كما لو كانت هي الشمسَ والقمر ونجوم السماوات جميعًا.

"پول، هذه زوجتي، أماندا".

حملق پول إليها، ولم يدرِ ماذا يقول أو يفعل. وكان مايكل واقفًا بقربه ينتظر، فعلم أنَّه إن لم يقُل كلامًا جميلًا على وجه السرعة تتحوَّل الأُمور من السيّئ إلى الأسوأ. فتكلَّف ابتسامةً جامدة. "آسف إذا حدَّقتُ إليكِ مدهوشًا، يا سيّدتي. لقد قال لي مايكل إنّكِ جميلة". وقد كانت كذلك فعلًا... تمامًا مثل سالومي ودليلة وإيزابل.

ماذا فعل مايكل بزواجه مِن امرأةٍ كهذه؟ هل علم أنَّها كانت مومسًا؟ أمرٌ لا يُعقَل. فالرجُل لم يضع قدمًا قطُّ في ماخورٍ طوال حياته، ولا عاشر امرأةً من قبل. ليس أنَّ الفُرَص لم تسنح له مرارًا كافية. إنَّما على نقيض المنطق المألوف والرغبات الطبيعيَّة، عقد مايكل عزمه على أن ينتظر المرأة الصحيحة. وهاكَ الآن ما حصل عليه رغم كلِّ طهارته: آنجِل!

أيَّةَ قصَّة لفَّقتِ الساحرة؟ وماذا ينبغي له أن يفعل بشأن هذا الأمر؟ أيقول لمايكل الآن؟

رمقه مايكل بنظرة استغراب.

وابتسمت آنجل، إنَّما ليس ابتسامةَ مودَّة. كانت عيناها زُرقةً رائعة، ولكنَّهما غدتا صقيعًا قاتلًا. فقد علمَت أنَّه عرفها، وبيَّنت له أنَّها لا تكترث. وما دامت لا تكترث،

فمن الواضح أنَّها لم تتزوَّج بمايكل عن حُبّ.

وردَّ لها پول الابتسامة بأبردَ منها. كيف أنشبتِ أظفارَكِ فيه؟

رأت آنجل العالَم في عينَي رجُل واحد، وأحسَّت كلَّ حَجَر رُشقت به. ومالتِ ابتسامتُها أكثرَ قليلًا إلى جهة واحدة. فهذا الرجُل فهِمَته. ربّما لم يَحُز قطُّ ما يكفي من الذهب لصعود درج القصر. "أتريدان القهوة يا سيِّديَّ".

أجال مايكل نظره بينهما، وعبس. "اقعد، يا پول!"

فقعد پول، وحاول تحويل عينيه عنها. ودام الصمتُ واشتدّ. تُرى، ماذا يقول؟

أمال مايكل ظهره إلى الوراء قليلًا. "ما دمتَ قدِ استرحتَ الآن، ففي وسعك إخبارنا عن اليُوبا".

وتكلَّم پول، مِن يأسٍ. وقدَّمت له آنجل صحن عصيدة، وكوز قهوة. فشكرها بجمود. لقد كانت جميلة، جميلةً فوق كلِّ حدّ... معبودةً فاتنةً من المرمر، باردةً مُدنَّسة.

لم تجلس معهما، ولا تكلَّمت. وخُيِّل إلى پول أنَّها تعرف عن اليوبا أكثر ممَّا عرفه هو. فالرجال الذين حالفهم الحظُّ في استخراج الذهب، وحدهم تمكَّنوا من تأدية ثمن خدماتها. تُرى، ماذا تفعل هنا؟ أيَّة أكاذيب صغيرة عذبة همست في أُذن مايكل؟ وماذا سيجري عندما يعرف الحقيقة؟ هل يطردها؟ سيكون ذلك خير جزاءٍ لها.

وسأل پول عن الزراعة، تاركًا لمايكل أن يتولَّى الكلام حينًا. لقد كان يحتاج إلى أن يُفكِّر، أو على الأقلّ يحاول التفكير. واختلس بضع نظراتٍ إلى آنجل. كيف يُعقَل ألَّا يعرف مايكل؟ كيف يُعقل ألَّا يشكّ؟ ماذا يمكن أن تكون صبيّةٌ جميلة مثلها فاعلةً في أرياف الذهب؟ ذلك أمرٌ ليس من شأنه أن يعني شيئًا معقولًا لرجُلٍ ذي عقل!

ولكنَّ نظرةً واحدة إلى عينين زرقاوين صافيتين كعينيها كفيلةٌ بأن تفتن أيَّ رجُل. ولم يكُن مايكل مُغازِلًا عابثًا، بل كان صادقًا وعطوفًا. ففي وسعها أن تقول له أيَّ شيء، فيصدِّقها. وفي وسع امرأةٍ مثلها أن تجعله لحمًا مفرومًا. عليَّ أن أقول له الحقيقة. ولكنْ كيف؟ ومتى؟

نهض مايكل ليسكب لنفسه مزيدًا من القهوة، فنظر پول إلى آنجل. فبادلته النظر مُميلةً ذقنها قليلًا، والسخرية باديةٌ في عينيها الزرقاوين. بدت شديدة الثقة بنفسها، حتَّى كاد يُفشي الحقيقة حالًا، ولكنَّ الكلمات علقت في حنجرته حين نظر إلى وجه مايكل.

أخذت آنجل شالها عن مشجبٍ[١٢] قرب الباب، وحملتِ الدلو قائلةً: "أنا ذاهبة لإحضار بعض الماء. لا بدَّ أنَّ لديكما مواضيع كثيرة تتحدَّثان فيها". ونظرت إلى پول مباشرةً قبل خروجها من الباب.

وقع نظرُها كصفعةٍ على وجهه. يبدو أنَّها لا تبالي أبدًا إذا قلتُ له.

نظر إليه مايكل برزانة: "فيمَ تُفكِّر، يا پول؟"

فلم يستطع إخراج الكلمات، وأطلق ضحكةً خشنة محاولًا استرجاع أُسلوب إغاظته القديم. غير أنَّه لم يستطع فعل ذلك أيضًا. "آسف، ولكنَّها بهرتني وأخمدت أنفاسي. كيف قابلتها؟"

"بتدخُّل إلهيّ".

إلهيّ؟ لقد كان مايكل في أعماق الهاوية السوداء وهو لا يدري أبدًا. لقد تُيِّم بحبِّ شيطانةٍ ذات عينين زرقاوين وشعرٍ أشقر حتَّى الخصر، وجسدٍ يُغري الرجل بالوقوع في الخطيئة والموت.

ثمَّ وقف مايكل قائلًا: "هيّا بنا خارجًا فأُريكَ ما فعلتُه منذ رحيلك للبحث عن ثروتك".

شاهد پول آنجل تغسل ثيابه. يا لها من لمساتٍ رقيقة! هل حسِبَتْ أنَّ إسداء معروفٍ إليه يُسكِته؟ غير أنَّها لم تنظر صوبهما. ربَّما لا يتمكَّن من مصارحة مايكل بحقيقتها، ولكنَّه يقينًا لن يُفلِتها بسهولة.

"اسمحْ لي بدقيقة واحدة مع زوجتك، يا مايكل. هلّا تسمح! لقد أحدثتُ لديها انطباعًا سيِّئًا بتحديقي إليها بتلك الطريقة. وأودُّ أن أشكرها على الفطور وعلى غسلها لثيابي".

"لكَ ذلك. ثُمَّ وافِني إلى الجدول. فأنا أبني غرفةً عند النبع، ويمكنك أن تساعدني".

"سأُوافيك بعد دقيقة". ثمَّ توجَّه إلى آنجل، ونظر إليها ثانيةً من فوقُ إلى تحت، فتأكَّدت له الحقيقة هذه المرَّة بلا لَبس: لقد كانت لابسة ثياب تَسّي. فعصف به الغضبُ الشديد. كيف يُعقَل أن يُعطيها مايكل ثياب تَسّي؟ ووصل إليها إذ فرغت توًّا من هزِّ بنطلونه البالي. وتوقَّع منها أن تلتفت نحوه، إلَّا أنها لم تفعل ذلك. لقد علمَت أنَّه هناك، وهو مُتيقِّن بذلك. ولكنَّها إنَّما كانت تتجاهله.

قال: "مرحبا، آنجل"، وهو يحسب أنَّ ذلك سيُفاجئها ويُصحِّيها بمنتهى السرعة.

---

١٢) مشجب: كُلّاب تُعلَّق عليه الثياب.

فالتفتت، ولكنَّ تعابير وجهها كانت باردة وهادئة تمامًا. فقال ثانيةً: "آنجل! ذلك اسمُكِ الحقيقيّ، أليس كذلك؟ ليس أماندا. صحّحي لي إن كنتُ مخطئًا".

"يُخيَّل إليَّ أنَّ أمري قد انكشف، أليس كذلك؟" وعلَّقت بنطلونه على الحبل الذي كان مايكل قد نصبه لها. "أينبغي لي أن أتذكّرك؟"

فاجرة وقحة. "أعتقد أنَّ جميع الوجوه تبدأ تتشابه لديكِ في مهنتك!"

"كذلك كلُّ شيءٍ آخر". ورمقته بنظرها ضاحكةً. "هل خانك الحظُّ في النهر، يا سيِّد؟"

كانت أسوأ ممّا توقَّع. "أيعرف مَن أنتِ وما أنت؟"

"لماذا لا تسأله؟"

"ألا يهمُّكِ أبدًا ما سيُسبِّب له ذلك إذا عرف؟"

"هل تظنُّ أنَّه سينهار؟"

"كيف استطاعت امرأةٌ مثلكِ أن تُغرز كُلّابتها فيه؟"

"كتَّفني كالوزَّة وأتى بي إلى هُنا في عربته".

"قصّة معقولة". أخنقَته نظرات الضجر البادية عليها. "ماذا تظنِّين أنَّه يفعل إذا قلتُ له إنِّي رأيتُكِ من قبل، بماخورٍ في پيرأدايس؟"

"لستُ أدري. ماذا تظنُّ أنَّه يفعل؟ يرجمُني بالحجارة؟"

"يبدو أنَّكِ متأكِّدةٌ تمامًا مِن استيلائك عليه، أليس كذلك؟"

التقطت سلَّة الغسيل الفارغة وأسندتها على وَرِكها. "قُل له ما شئتَ، يا سيِّد. لا يُحدِث ذلك كثيرَ فرقٍ عندي". ثمَّ مضت في سبيلها.

فيما پول مُتوجِّهٌ إلى مُلاقاة مايكل، عقد عزمه على إخباره. ولكنْ لمَّا وصل إليه، لم يستطع تنفيذ ذلك. وقضى النهار بطوله يشتغل على مقربة من مايكل دون أن يقدر على استجماع الشجاعة لإخباره. ثمَّ لمَّا رجعا، أبى پول أن يتعشَّى، قائلًا إنَّ تعبه الشديد يحول دون تناولِه الطعام. غير أنَّه مضى إلى الحظيرة وأكل آخِر قطعةٍ لديه من اللحم المقدَّد. لم يُرِد أن يقعد قُبالتها إلى الطاولة، إذ لم يقدر أن يواصل تظاهُرَه بأنَّه مسرورٌ لِتزوُّج صديقه الأفضل بومسٍ مُخادعة. ثُمَّ دسَّ أشياءه في كيسه، وطرحه على كتفه، وتوجَّه إلى مكانه الخاصّ في الطرف الآخر من الوادي.

وبينما مايكل واقفٌ في باب الكوخ المفتوح، شاهد پول يرحل. فحكَّ قفا رقبته وأشاح وجهه.

نظرت آنجل إلى مايكل وأحسَّتِ التوتُّر يتعاظم في داخلها مجدَّدًا. جلست على كرسيِّ الصفصاف الذي سبق أن صنعه لها، وراقبَته يُغلِق الباب ويتوجَّه ليجلس قُبالة الموقد. ثمَّ التقط حذاءه وبدأ يدهنه بشمع النحل ليجعله صامدًا للماء. ولم ينظر إليها، إذ لم يكن لديه الكثير تلك الليلة كي يتحدَّث عنه، ولا أنزل الكتاب المقدَّس كي يقرأ فيه. من الواضح أنَّ الليلة السابقة تمَّ نسيانُها.

قالت له: "إنَّك تتساءل، أليس كذلك؟ فلماذا لا تسأل حالًا؟"

"لا أُريد ذلك".

فقالت بجفافٍ وحلقُها يابس ومُوجَع: "طبعًا، لا تُريد. ولكنَّني سأقول لك على كلِّ حال، فقط لتنقية الجوّ. إنَّني لا أذكره، إلَّا أنَّ ذلك من ثَمّ لا يعني شيئًا في شغلي، أفيَعني؟ وأنا لم أذكرك أنت أيضًا ولَو بعد زيارتين". ثمَّ أشاحت وجهها.

علم مايكل أنَّ ذلك لم يكُن الحقّ كلَّه، ولكنَّه آلمه مع ذلك. "لا تكذبي، يا أماندا. ألا يمكنكِ أن تُدخِلي في رأسكِ أنَّني أُحِبُّكِ؟ أنتِ زوجتي الآن. مهما حدث في الماضي، فقد مضى. فاتركيهِ هناك".

انتهى الهدوء الموقَّت، وباتَتِ العاصفة تهبُّ عليهما بضراوة.

"منذُ أُسبوعين، أردتَ أن تسمع كلَّ شيءٍ عنّي. أما زلتَ راغبًا في معرفة كلِّ شيء؟"

"لا شأنَ لنا في ذلك!"

هبَّت واقفةً، وأبقت ظهرَها نحوه، وأجرَت يدها المرتجفة على طول رفِّ الموقد. "ما زلتَ غير فاهم، أليس كذلك؟ حتَّى لو أردتُ للأُمور أن تجري حسنًا، فإنَّ آخرين خارجًا لن يدَعوا ذلك يحدث، مثل صهرك الأديب الشريف". ثمَّ ابتسمت بجفاف ونظرت إلى أعلى الحائط. "هل رأيتَ وجهه لمَّا عرفني؟"

"آسِفٌ لأنَّه آذاكِ".

فدارت بسرعة، وحدَّقت إليه. "أذلك ما تعتقده؟" وأطلقت ضحكةً قصيرة. "لا يمكن أن يؤذيني. وكذلك لا يمكنك أنت ذلك". فهي لن تُتيحَ الفرصة لكليهما.

قضى پول يومًا وهو يُنظِّف كوخه ويُفكِّر في ما يفعله بشأن آنجل. عليه أن يرجع ويُكلِّم مايكل بشأنها. لا يمكن أن يبقى صامتًا. فمن حقِّ مايكل تمامًا أن يعرف أمر خداعها. وحالما يعلم جميعَ الحقائق، فإنَّه سيفعل الأمر الصائب ويرميها خارجًا، كأنَّها قطَّة،

فتهبط على أقدامها.

قد يُبطِل الزواج. بل ربّما لم يوثّقه رجُل دينٍ مرسومٌ، فلا يقوم على كلّ حال. وفي وسع مايكل أن يضع ذلك الاختبار السيّئ وراء ظهره. وبقدوم سيلٍ من قوافل العربات إلى كاليفورنيا، لا بدَّ أن يُوفَّق إلى امرأةٍ أُخرى، امرأةٍ تُنسيه أنجل.

وافاه مايكل وساعده في تشقيق الحطب. وتحادثا، إلّا أنَّ حديثهما لم يكُن كسابق العهد. فقد كان ذهن پول مشغولًا بأُمور كثيرة، وكان مايكل مستغرقًا في التفكير على نحوٍ مستغرب. وقبل أن يغادر مايكل قال: "تعالَ تعشَّ معنا". إلّا أنَّ پول لم يُطِق فكرة تناوُل الطعام وأنجل جالسةٌ قُبالته إلى الطاولة.

بدا مايكل منزعجًا منه. "لقد جرحتَ مشاعر أماندا".

كاد پول يضحك. جرحت؟ تلك العاهرةَ المتحجِّرة القلب؟ أمرٌ غير مُرجَّح، ولكنَّه علم تمامًا ما كانت تفعله. لقد كانت تدقُّ إسفينًا بينه وبين مايكل. لقد هدفت إلى تدمير صداقتهما. حسنًا، إذا شاءت المواجهة... "سأكون عندكَ غدًا".

كانت أنجل خارجًا تخبط الحِرامات على حبلٍ منصوب عندما وصل پول. فتوقَّفت ونظرت إليه مباشرةً. ولم تتوانَ عن مبادرته بالتحدّي حالًا. "إنّه يشتغل تحتُ عند الجدول ببناء غرفةِ التبريد. فلماذا لا تَمضي وتُفضي إليه بما في صدرك قبل أن يلتهمك ذلك حيًّا؟"

"أنتِ تُراهِنين على أنّني لن أفعل هذا، أليس كذلك؟"

"آه، أعتقد أنّك ستفعل ذلك. فإنّك لا تُطيق الاصطبار".

فقال ساخرًا: "هل تحبّينه؟ أتعتقدين أنَّ بإمكانك إسعادَه؟ عاجلًا أو آجلًا، سوف يراكِ على حقيقتك".

ابيضَّت يدُها حول عصا الخبط. ثمَّ أشاحت وجهها هازَّةً كتفيَها بلامبالاة.

"يبدو أنّكِ لا تهتمّين بأيِّ شيء. أليس كذلك؟"

"أينبغي لي أن أهتمّ؟" وعادت تخبط الحِرام.

ودَّ پول لو يمسك بها ويُديرها بحيث يتسنّى له أن يلكم بقبضته وجهها المتعجرف. "إنّكِ تدفعينني إلى ذلك دفعًا". ثمَّ توجّه مباشرةً نحو الجدول.

فارقت أنجِلَ كلُّ صلابتها وهي تُراقِبه يمضي. فقعدت مُتعَبةً على جذع شجرة، رافضةً الإقرار بالمشاعر التي تجتاح كيانها.

قال مايكل: "جئتَ في وقتك!" معتدلًا وماسحًا العرق عن جبينه بقفا ذراعه، "ساعدني في هذه العوارض، لو سمحت".

فساعده پول في تركيب زَنْد الخشب[١٣] المثلوم، والمُسطَّح ناعمًا من جهةٍ واحدة. وقال بجأرةٍ صاحبَت نزول العارضة في مكانها: "مايكل، أودُّ أن أُكلِّمك في أمر". فنظر إليه مايكل نظرةً قاتمة لم يستطع فهم معناها. وقد جعله حموُّ غضبه يدخل الموضوع مباشرةً. "ليس ذلك شيئًا يتعلَّق بما حدث على ضفاف اليوبا، ولا بما يمنعني أن أُصمِّم على البقاء أو الذهاب. إنَّه يتعلَّق بشيءٍ آخر. إنَّه يتعلَّق بزوجتك".

اعتدل مايكل على مهل وحدَّق إليه. "لماذا تشعر بأنَّ عليك أن تقول شيئًا ما؟"

"لأنَّه يجب أن تعلم". ما زال يستطيع أن يرى وجهها المتعجرف. "مايكل، ليست هي مَن تظنُّها".

"هي تمامًا مَن أظنُّها، وهي زوجتي". ثمَّ انحنى على عمله ثانيةً.

لا بدَّ أنَّها تعمَّدت أن تفتن عقله أمس. وفي غمرة الانفعال الشديد، ركَّز پول الزَّند التالي في مكانه بخبطةٍ قويَّة. ثمَّ أدار وجهه لينظر إليها عبر المروج، وقد كانت واقفةً في مدخل كوخ مايكل، مرتديةً ثياب تَسَّي. فأراد أن يذهب إلى هناك وينزعها عنها. أراد أن يضربها ويطردها حالًا من الوادي كلِّه. أيُخدَع مايكل، دون سائر الناس؟ مايكل صاحب المُثُل العُليا والخُلق المتين، مايكل الطاهر. أمرٌ لا يمكن تصوُّره. أمرٌ قَذِر جدًّا.

"لَن أصرف نظري عن الأمر، لا يمكنني هذا". ولم يكن مايكل ينظر إليه مجرَّد نظر، فأمسك بذراعه. "اسمعني! قبل أن تصير زوجتك، كانت مومسًا. واسمُها آنجل، لا أماندا. كانت تشتغل بماخور في پيرأدايس. كانت أغلى الحمائم الملوَّثة سعرًا في البلدة كلِّها".

"ارفع يدك عن ذراعي، يا پول".

ففعل پول ذلك. "أَلَن تقول شيئًا؟" وما كان قد رأى مايكلَ قطُّ غاضبًا هكذا.

"أعرفُ حقيقة الأمر كلِّه".

حدَّق إليه پول. "تعرف؟"

فقال مايكل وهو ينحني لالتقاط زَندٍ آخر: "نعم! أمسِك بالطرف الآخر لو سمحتَ!" وفعل پول ذلك بغير أدنى تفكير. ثمَّ سأل متهكِّمًا: "أَقَبلَ وضع الخاتم في إصبعها

١٣) زند الخشب: جزء من جذع الشجرة.

عرفتَ ذلك أم بعدَه؟"

"قبلَه".

أنزل پول العارضة في موضعها خبطًا. "ومع ذلك تزوَّجتَ بها؟"

فاعتدل مايكل قائلًا: "تزوَّجتُ بها مع ذلك، وسأتزوَّج بها مرَّةً ثانية إنْ كان ينبغي تكرارُ الأمر". عبارةٌ بسيطة صريحة، تفوَّه بها بهدوء وسكون، ولكنَّ عينيه كانتا تتوقَّدان غضبًا.

أحسَّ مايكل كمَن تلقَّى لكمةً قويَّة جدًّا. "لقد سلبَتك عقلك. مايكل، لقد تمكَّنت من خداعك". وكان لا بدَّ أن يعتمد المنطق في كلامه إليه. "هذا أمرٌ يحصل. مرَّت شهور دون أن ترى امرأةً، ثمَّ رأيتَها، ذات عينَين زرقاوين خلَّابتين وجسم جميل، فأفقدتك صوابك. فتمتَّعْ بها حينًا، ولكن لا تحاول إقناع نفسك بأنَّها ستَصلُح زوجةً لائقة شريفة. إذ إنَّ من كانت مُومِسًا ذات مرَّة، تبقى مومسًا على الدوام".

أطبق مايكل حنكه إطباقًا. تكاد تلك أن تكون كلمات أنجل نفسها عن ذاتها.

"كُفَّ عنِ الإدانة!"

"لا تكن مُغفَّلًا!"

"سكوتًا، يا پول. إنَّك لا تعرفها".

أضحكه ذلك. "أُوه، لا ضرورة. يكفي ما أعرفه. أنت هو مَن لا يعرف. ما مدى اختبارك لنساءٍ مثلها؟ إنَّك ترى كلَّ شيء وكلَّ شخص من خلال مجموعة مبادئك الخاصَّة، ولكنَّ العالَم ليس هكذا. فهي لا تستحقُّ منك الألم الذي ستُسبِّبه لك. أصغِ إليَّ، يا مايكل! أتريد أمرأةً خلا بها مئةُ رجُلٍ أُمًّا لأولادك؟"

حملق مايكل إليه. أهذا كلُّ ما تحمَّلتْه أنجل طولَ عُمرِها؟ الإدانة والإهانة والضغينة العمياء؟ ثمَّ قال بحزم: "يُخيَّل إليَّ أنَّه خيرٌ لك أن تُنهيَ الموضوع هنا".

لكنَّ پول لم يكفَّ عن الكلام. "ماذا سيقول أهلُك إذا علموا بأمرها؟ أيُوافِقون؟ وماذا عنِ الجيران حين يبدأون بالوصول؟ القوم الصالحون. القوم الشُّرَفاء. ماذا سيفتكرون حين يتبيَّن لهم أنَّ زوجتك الحسناء الصغيرة كانت مومسًا غالية السعر؟"

أظلمت عينا مايكل على نحوٍ يُنذِر بالشؤم. "إنَّني أعرف ما أفتكره أنا وما يفتكره الله، وذلك هو كلُّ ما يهمّ. ربَّما كان عليك أن ترتِّب حياتك وتُسوِّيها قبل أن تتفحَّص حياتها".

حملق إليه پول، مُتحسِّرًا. لم يسبق أنِ استخدم مايكل معه لهجة التوبيخ تلك، فآذاه ذلك. ألا يمكنه أن يرى أنَّه كان يحاول أن يُساعِد فحسْب. فهو إنَّما كان يحاول

أن يحول دون تدمير تلك المرأة الحقيرة لمايكل. ومن ثَمّ قال بصوتٍ أجشّ: "أنت مثلُ أخي. وقد ساعدتني على اجتياز أسوأ الأوقات في حياتي. لا أُريد أن أراك تُدمَّر على يد ساحرةٍ مُخادِعة لفَّت قلبك بمنتهى الشدَّة حول خنصرها بحيثُ لا تدري أبدًا أنَّك مُتوجِّه نحو الكارثة رأسًا".

ارتعشت عضلةٌ في حنك مايكل. "يكفي ما قلتَه!"

ولكنَّ كلَّ ما استطاع بول أن يراه كان عاهرةً في ثياب محبوبته تَسّي. "مايكل، ما هي إلَّا نُفاية!" حتّى إنَّه لم يرَ القبضةَ آتيةً عليه. بل إنَّه لم يدرِ ما جرى أيضًا. وعمَّ الألم حنكَه، فيما هو منطرحٌ على ظهره ومايكل واقفٌ فوقه وقبضتاه مُكوَّرتان ووجهه شاحب.

ثمَّ أمسك به مايكل من صدر قميصه وأوقفه على قدميه بنترةٍ شديده، وراح يهزُّه كأنَّه دميةٌ من خِرَق. "إن كنتَ تحبُّني كما تدَّعي، فعليك أن تحبَّها هي أيضًا. إنَّها جزءٌ منّي. هل تفهم؟ إنَّها جزء من جسدي وحياتي. فحين تقول عنها أُمورًا كهذه، تقولُها عنّي. وحين تجرحها، تجرحني أنا. هل فهمت؟"

"مايكل..."

"هل فهمت؟"

كانت تلك أوَّلَ مرَّة في حياة بول فيها يخاف منِ ابنِ حَميه. "فهمت".

فقال مايكل: "جيِّد"، وأفلته. ثمَّ مضى مبتعدًا، مُوليًا بول ظهره، يحاول أن يكبح جماح غضبه.

تحسَّس بول ذقنه المرضوضة. كانت هي سبب هذا الخلاف بينهما. الغلطة غلطتها. أُوه أنا أفهم جيِّدًا، يا مايكل... أفضل ممَّا تفهم أنت.

حكَّ مايكل قفا رقبته ونظر إلى بول. "آسِفٌ لضربي إيَّاك". ثمَّ زفر نَفَسه ورجع. "أحتاج إلى إعانة، لا إعاقة. إنَّها تُعاني ألمًا لا يمكنك حتَّى الشروعُ في تفهمِّه". وهزَّ قبضته، والعذابُ مرتسمٌ على وجهه وعيناه مُغرورِقتان. "ثُمَّ إنَّني أُحبُّها. أُحبُّها حبًّا يجعلني أموت لأجلها".

"آسِف".

"لا تكُن آسِفًا، بل كُن صامتًا!"

وصمت بول فعلًا، فيما تابعا العمل، غير أنَّ عقله كان يصرخ طوال تلك الأثناء. سوف يساعد مايكل بأحسن طريقة يعرفها. سوف يقوم بطردها، بطريقةٍ من الطُرق. وخيرُ البرِّ عاجله. سيهتدي إلى طريقةٍ ما.

ثمَّ خرق مايكل جدار التوتُّر. "سيكون عليك أن تمضي إلى المدينة كي تخزن مؤونة الشتاء. ليس عندي ما يكفي لإمدادك".

"ليس لديَّ شيءٌ من غُبار الذهب".

"لقد ادَّخرتُ قليلًا. فهو لك. ويمكنك استخدام حصانيَّ وعربتي".

شعر پول بالخجل. ولكنْ ما الداعي إلى ذلك؟ فهو إنَّما كان يسعى لدفع الأذى عن مايكل. وقد كان مايكل رجُلًا مُفكِّرًا. فلا بدَّ أن يعود إليه رُشده. إنَّ مشكلته الكُبرى هي أنَّه يتغاضى عن العيوب الخُلقيَّة في الآخرين. لقد نظر إلى عاهرة فرأى فيها شخصًا جديرًا بأن يُحَبّ.

غلا پول غيظًا. ها هي قد بدأت تعترض بينهما. ها هي قد بدأت تُثير بينهما الخلاف. عليه أن يُفكِّر بطريقةٍ ما لإخراج آنجل من جُحرها المُريح وردِّها إلى حيث تنتمي. وعليه أن يفعل ذلك قبل أن تُحطِّم قلب مايكل شظايا صغيرةً.

ثبَّتا العارضة الأخيرة في مكانها. وكانت الجدران الداخليَّة قد أُقيمت. وقال مايكل إنَّه يستطيع إنشاء السقف وحده. فوضع يده على كتف پول وشكره على مساعدته. إلَّا أنَّ التوتُّر بينهما كان شديدًا.

"خيرٌ لك أن تتوجَّه إلى پيرأدايس غدًا. قُل لجوزف إنَّني سأُسوِّي حسابي معه في غضون أسابيع قليلة. وهو سيُعنى بأن تحصل على كلِّ ما تحتاج إليه".

"شكرًا!" پيرأدايس؟ لعلَّه يستطيع أن يكتشف بعض أحوال آنجل الأُخرى ونقاط ضعفها حين يصل إلى هناك. فلا بدَّ أنَّ الدُّوقة سترغب في استرجاع أفضل بناتها، وفي وسعها دائمًا أن تبعث ذلك العملاقَ الضخم الذي كان يحرسها كما لو كانت جواهر التاج، فيحُضِرها لها.

دخل مايكل عند هبوط الظلام، ولم تسأله آنجل عمَّا ابتغى پول أن يقوله. ثمَّ مدَّت العشاء على الطاولة وجلست معه، مستقيمةَ الظهر رافعةَ الرأس. ومع ذلك لم يقُل مايكل شيئًا. لعلَّه يُعيد النظر في الموضوع من أساسه، متفحِّصًا ومتفكِّرًا. فليفعل ذلك إذًا.

عاد الثِّقل ينتشر في داخلها، وتظاهرت بأنْ لا بأسَ في ذلك، إذ لا يهمّها. بل هو لا يهمّ. ولَّما نظر مايكل إليها، أمالت ذقنها وبادلته النظر حالًا. هيّا، قُل ما يدور في فكرك، يا سيّد. أنا لا أُبالي.

ألقى مايكل يده على يدها.

تشبَّث الوجَع بقلبها، فانتشلت يدها من تحت يده. ولم تستطع أن تنظر إليه. ثمَّ أخذت منديلها عن الطاولة ونفضته برفقٍ قبل أن تضعه على حضنها بتأنٍّ وتأنُّق. ولمَّا رفعت رأسها من جديد، ألفَته ينظر إليها. عيناه، آهٍ من عينيه!

"لا تنظر إليَّ هكذا. قلتُ لك من قبل إنَّني لا أُبالي بما يعتقده فيَّ، وله أن يقول ما شاء. هذا هو الحقُّ كلُّه. وأنت تعرفه. والأمرُ لا يهمُّ. فهو ليس أوَّل رجُل نظر إليَّ من فوقِ أنفه، ولن يكون الأخير". وتذكَّرت ماما ماشيةً في الشارع والرجالَ الذين كانوا يقصدون إليها في الكوخ يواصلون سيرهم ويُجاوزونها كما لو لم يكونوا يعرفونها بتاتًا.

"كان يمكن أن أُصدِّقك، لو لم تكوني غاضبةً هكذا".

رفعت آنجل ذقنها. "لستُ غاضبة. ولماذا أغضب؟" لم تكُن لها قابليَّة للطعام، ولكنَّها أرغمت نفسها على الأكل رُغم ذلك، فقط حتَّى لا يعمل من الحبَّة قبَّة. ثمَّ رفعتِ الصحون، فيما ألقى مايكل حطبةً أُخرى في النار.

"سيتغيَّب يول يومين. إنَّه بحاجة إلى مؤونة. سيمرُّ صباحَ غدٍ لأخذ الحصانين والعربة".

رفعت آنجل رأسها قليلًا وهي تفكِّر. ثمَّ صبَّت ماءً في الحوض وغسلت الصحون. إنَّ مايكل لن يُعيدها إلى حيث تنتمي، ولكنَّها علمت أنَّ يول يفعل ذلك، فقط إنقاذًا لمايكل المسكين من نفسه.

انقبض في داخلها شيءٌ انقباضًا شديدًا عندما راودتها فكرةُ مغادرة مايكل. إلَّا أنَّها أرغمت نفسها على التفكير بدلًا من ذلك في الرضى الذي ستشعر به عند مواجهة الدوقة من جديد ومطالبتها إيَّاها بمالها. وفي وسعها دائمًا أن تطلب معونة ساقي الحانة إذا لزم الأمر. فهو ضخمٌ مثل مغوان وقد تمرَّس كثيرًا باستخدام قبضتَيه. وما إن يغدو ذهبُها في يدها بأمان، حتَّى تتحرَّر فعلًا، تتحرَّر حقًّا!

آلَمها صدرُها، فضغطت عليه بيدها.

شدَّها مايكل إليه تلك الليلة أيضًا، ولم تُقاوِم. وبعد بضع دقائق، ابتعد عنها مرتجفًا وقد غسَّله العَرَق. ولم يكد يقوى على سحب نَفَسه. "ماذا تحاولين أن تفعلي؟"

قالت: "أن أُعاملَك بالحُسنى"، واستخدمَت كلَّ ما تعرفه لإيتائه المتعةَ التي يستحقُّها.

جاء يول فجرًا لأجل العربة والحصانين، وعاونه مايكل على شدِّهما إليها. وأعطاه بعض الذهب ورسالةً إلى جوزف هُكشايلد. "سأنتظر رجوعك في غضون أربعة أيَّام أو خمسة".

"عاينتُ غزالًا ذكرًا في طريقي إلى هُنا، وعلًا كبيرًا".

فقال مايكل: "شكرًا!" وما إن مضى پول في سبيله، حتَّى عاد مايكل فدخل الكوخ وأنزل البندقيَّة عن منصبها فوق رفِّ الموقد، قائلًا: "عاين پول وعلًا، في طريقه إلى هنا. وأنا ذاهب لأرى هل يمكنني الحصول على مزيدٍ من اللحم للشتاء".

كانت آنجل قد ساءلت نفسها طول الليل عن كيفيَّة تدبير أمر فرارها بغير علم مايكل. وها هو الجواب يأتيها الآن. فانتظرت حتَّى توارى مايكل عن نظرها، ثمَّ زلَّقت الخاتم من إصبعها، ووضعته فوق كتابه المقدَّس حيث علمَت أنَّه سيجده. ثمَّ خطفت الشال ولفَّته حول كتفيها، وخرجت مُسرِعةً.

لا يُعقَل أن تكون العَرَبة قدِ ابتعدت كثيرًا. وهكذا رفعَت آنجِل أذيال تنُّورتها وأخذت تركض كي تلحق بها.

وسمع پول نداءها، فشدَّ الزِّمام وانتظرها، متسائلًا عمَّا تريده. لعلَّها تودُّ أن تطلب منه إحضار شيءٍ لها بذَهَب مايكل. أو ربما تنوي أن تتوسَّل إليه كي يدعَها وشأنها. حسنًا، فلتفعل ذلك. إنَّ ذلك سيعود عليها بكثيرٍ من الخير.

لمَّا وصلت آنجل إليه، كانت متورِّدة الخدَّين مقطوعة النَّفَس.

"أُريد أن تُقِلَّني إلى پيرأدايس".

فستر دهشته بضحكةٍ قصيرة فظَّة. "إذًا، قد نويتِ أن تهربي منه فعلًا!"

ابتسمت ابتسامةً ساخرة. "أكُنتَ ترجو أن أبقى؟"

ثمَّ قال لها: "اصعدي!" بغير أن يمدَّ إليها يدًا لمساعدتها. فقالت بجفاف: "شكرًا"، وصعدت إلى مقعد العَربة بقربه.

كان پول قد قضى مُعظم الليلة الماضية متسائلًا عمَّا يفعله بشأن عروس مايكل المُدنَّسة، وها هي قد حلَّت له المسألة. ولم يكن قد فكَّر أنَّها يمكن أن ترحل بهذه السهولة: لا رشوة، ولا تهديدات. فهي ماضيةٌ من تلقاء ذاتها. ثمَّ فرقع بالزمام، فانطلقت العربة.

رمقها پول شزرًا وهي تربِّت وجهها بحاشية شال تَسِّي. وكان ذلك كلَّ ما استطاع فعله كيلا يُمزِّقه عنها. "كيف سيكون شعور مايكل، في اعتقادك، عندما يتبيَّن له أنَّكِ فرَرتِ؟"

نظرت إلى الأمام مباشرةً: "سيتخطَّى الأمر".

"لا تعنيكِ مشاعرُه كثيرًا؛ أليس كذلك؟" إلَّا أنَّها لم تقُل كلمةً واحدة. فنظر أمامه مباشرةً ثمَّ إليها من جديد، وقال: "أنتِ على حقّ. سيتخطَّاكِ. ففي غضون

سنوات قليلة، سيكون في كاليفورنيا كثير من الصبايا المُناسِبات لأنْ يختار إحداهُنَّ. فلطالما لاحقتِ النساءُ مايكل".

أشاحت بنظرها نحو الغابة وكأنَّها لا تهتم. لقد أراد پول أن يجرحها جرحًا عميقًا حتَّى يسيل دمُها، مثلما لا بدَّ لمايكل أن يفعل حين يتبيَّن له أنَّها هجرته بغير أن تُلقي إلى الوراء ولو نظرةً واحدة. ألم يُحذِّره؟ ولكنْ ينبغي أن تشعر بشيء ما. وما كان ذلك إلَّا صائبًا.

وإذ ثار فضولُه، قال: "ماذا دفعكِ إلى التصميم على الرحيل؟"

"لا سببَ محدَّدًا".

"يُخيَّل إليَّ أنَّكِ سئمتِ الحياة الهادئة التي يعيشها مايكل. أمِ السببُ حيازتُكِ الرجلَ عينه كلَّ الوقت؟" فلم تردّ. سيتأكَّد لمايكل الآن أنَّه هو كان على حقٍّ في ما قاله عنها. وبمرور الأيَّام سيُدرِك أيَّةُ غلطةٍ قد ارتكبها. النساء يُحبِبن مايكل. ففضلًا عن وسامته، كان له مزيجٌ من القوَّة والرقَّة يجتذبهنَّ كالذباب. وسيتزوَّج ثانيةً إن كان في غاية الاستعداد، ولن يُضطرَّ إلى الانتظار طويلًا. والتالية ستكون بكلِّ يقين أفضل من هذه.

"ستُسَرُّ الدوقة برجوعكِ إليها. سمعتُ أنَّكِ كنتِ تجلبين ثروةً إلى خزينتها. ولن تقول البتَّة أين ذهبتِ".

رفعت آنجل رأسها قليلًا، وابتسمت له ابتسامة مُتخَمة. "لا تشعرْ بأنَّ عليك أن تُجريَ حديثًا مهذَّبًا".

فابتسم ببرودة. ها هو قد شقَّ إليها طريقًا. ومن ثَمَّ توغَّل قليلًا. "أعتقد أنَّ الكلام ليس بالغَ الأهميَّة في شغلك؛ أم هو كذلك؟"

أحسَّت آنجل الغضب الشديد يثور في داخلها. تبًّا له من خنزيرٍ مُتظاهر بالتقوى! لو لم تكن الطريق إلى پيرأدايس تبعد أميالًا كثيرة صعودًا، لترجَّلت من هذه العربة حالًا ومشت، ولكنها لم تكن شديدة الغباوة بحيث تظنُّ أنَّها تستطيع اجتيازها على قدميها. ليُوبِّخْها بقدر ما يشاء. يمكنها تحمُّل سَفَرِ نهار على مقعد عربةٍ عالٍ بصحبة مُنافِقٍ قليل العقل. ستُفكِّر في ذَهَبها. ستُفكِّر في كوخها الصغير الخاصِّ في الغابة. ستُفكِّر في عدم اضطرارها أبدًا لأنْ تنظر ثانيةً إلى أيِّ رجُلٍ مثله.

لم يرُق پول أن يتجاهله أحد، ولا سيَّما شخص مثلها. مَن تحسب نفسَها على كلِّ حال؟ ثمَّ فرقع بالزِّمام وضاعف السرعة، حتَّى أصاب كلَّ حفرة في الطريق، وجعل

آنجل تثب وترتجّ. وكان عليها أن تتشبَّث جيِّدًا كي تحافظ على توازنها ولا تُقذَف خارجًا. فاستمتع بانزعاجها. وزمَّت هي شفتيها، إلَّا أنَّها لم تتشكَّ. وظلَّ على تلك السرعة الزائدة حتَّى تعب الحصانان فاضطُرَّ إلى التمهُّل مجدَّدًا.

فسألته هازئةً به: "هل تشعر بأنَّك أحسنُ حالًا الآن؟"

وازداد مَقتُه لها مع كلِّ مِيل.

وحين بلغت الشمس كبد السماء، تنكَّب عن الطريق وترجَّل قفزًا. وفكَّ أربطة الحصانين، وجعلهما يرعيان. ثمَّ مضى بخُطىً واسعة إلى قلبِ الغابة. ولمَّا رجع، رآها متوجِّهةً نحو الأشجار في الجانب المقابل. وقد كانت تمشي مُتلويَّةً وكأنها تتألَّم.

كان خِرجُه تحت المقعد الأماميّ، وفيه تُفَّاحة وقديدُ بقر وعلبة فاصوليا. فشرع يأكل باستمتاع. ولمَّا رجعت ألقت عليه نظرةً واحدة، ثمَّ مضت لتقعد في ظلِّ شجرة صنوبر. ونتش بأسنانه قطعةً من قديد البقر، ثمَّ راحَ يمضغها متأمِّلًا آنجل. وقد بدَت له مُتعبةً ومحرورة. وربمَّا كانت جائعة أيضًا. ما أسوأ حظِّها! كان ينبغي أن تُفكِّر في جلب شيءٍ معها.

فتح پول المَطَرة وشرب شربًا متواصلًا، ثمَّ سدَّها بالفلّينة مجدَّدًا عند انتهائه. ونظر إلى آنجل، وعبَّس بتجهُّم. ثمَّ نهض منزعجًا وسار إليها. وأخذ يُلوِّح بالمُطرة ذهابًا وإيابًا قُدّام وجهها، ثمَّ قال: "أتُريدين شربة ماء؟ قولي «رجاءً» إن أردتِ أن تشربي".

فقالت: "رجاءً!"

ورمى المَطَرة في حِضنها. فنزعت عنها الفلِّينة، ومسحت فوَّهتها، وشربت. ولمَّا انتهت، مسحت الفوّهة ثانية، وسدَّت المَطَرة بالفلّينة وناولته إيَّاها، قائلةً: "شُكرًا"، دون أن يظهر شيءٌ في تينك العينين الزرقاوين.

رجع پول وقعد تحت الشجرة، وأتى على قديد البقر. ثمَّ باشر أكل التفّاحة غاضبًا. حتَّى إذا أكل نصفها، نظر صوب آنجل سائلًا: "جائعة؟"

فقالت ببساطة: "نعم"، دون أن تنظر إليه هذه المرَّة.

ورمى إليها بما بقي. ثمَّ نهض وأتى بالحصانين، وشدَّهما إلى العربة. وإذ ألقى نظرة وراءه، رأى آنجل تُزيل إبَر الصنوبر اليابسة والتُّراب عن التَّفاحة المأكولِ نصفُها قبل أن تقضم قضمةً. فأزعجه وقارُها الصامتُ البارد.

"هيَّا نذهب!" وقعد ينتظرها بنفادِ صبر.

وإذ صعدَت إلى مقعد العربة معه، أجفلت. وفيما فرقع بالزمام لتنطلق بهما العربة من جديد، سألها: "كيف قابلتِ مايكل؟"

"جاء إلى القصر".

"لا تُضحِكيني! ما كان مايكل ليطأ بقدمه ذلك الجُحرَ الفاسد. فهو لا يشرب المُسكِر، ولا يلعب القمار، ويقينًا أنّه لم يُعاشر البغايا قطّ".

ابتسمت مُناكِدةً. "إذًا كيف تعتقد أنَّ الأمر جرى، يا سيِّد؟"

"يُخيَّل إليَّ أنَّ امرأةً لها مواهبُكِ يمكنها أن تفكِّر بشيءٍ ما. من المحتمل أنَّكِ قابلته في المركز التجاريّ وأخبرتهِ أنَّ أهلك ماتوا في طريقهم نحو الجنوب وأنّك وحيدةٌ في هذه الدنيا".

فضحكت عليه. "حسنًا، يا سيِّد، لا داعيَ لأن تتساءل بعد. فإذ رحلتُ الآن، يمكنك أن تنعم وحدك بصحبة مايكل طول الشتاء".

ابيضّت مفاصل أصابع پول حول الزمام. أكانت تُلمِّح تلميحًا خبيثًا؟ هل تشكّ في رجوليَّته؟ فجذب الزمام وخرج بالعربة عن الطريق وتوقَّف.

تشنَّجت آنجل متوجِّسةً. "لماذا توقَّفت؟"

"أنتِ مَدينةٌ لي بشيء لقاء هذه الرحلة".

استولى عليها السُّكون التام. "ماذا كان في فكرك؟"

"ماذا لديكِ؟" أراد أن يتناولها كلقمةٍ سائغة. "اعتقد أنَّكِ تتصوّرين أنّه حين يُسدي إليكِ أحدُهم معروفًا، لا تكونين مدينةً له بأيِّ شيء. صحيح؟"

أشاحت بوجهها بعيدًا. وأمسك بذراعها بإحكام، فنظرت إليه من جديد شاحبةَ الوجه. وحملق بعينيها الزرقاوين الساخرتين. "حسنًا، أنتِ مدينةٌ لي فعلًا. أنت مدينة لي بأُجرة هذه الرحلة". ثمَّ أفلتها فجأةً.

غير أنَّها لم تُشِح بنظرها هذه المرَّة، بل ظلَّت تُحدِّق إليه على المقعد دون أن تلوح على وجهها المنبسط أيَّة تعابير.

وقال متوغِّلًا: " تعلمين أنِّي لم أصعد قطُّ إلى علِّيّة القصر". ثمَّ حلَّ سَير الجلد الرقيق عن شعرها، وقال إذ شدَّ بطرفه لينسدل الشعرُ الذهبيّ المُرخى: "لم يكن لديَّ من غبار الذهب ما يكفي لوضع اسمي في قُبَّعة القُرعة. ولطالما تساءلتُ عمَّا تكون عليه الحال عند الوصول إلى مُختَلى آنجل الداخليّ".

"والآن تريد أن تكتشف ذلك بنفسك".

وأراد پول أن يُربِكها ويُخجِلها، فقال: "ربَّما".

أحسَّت آنجل الدُّوَّامة في داخلها، هابطةً كالمياه في بالوعة. كانت قد نسيت أنَّ كلَّ

شيء يُكلِّف شيئًا ما. فزفرت نَفَسها وأمالت رأسها قليلًا. "حسنًا، يمكننا أن نفعل ذلك أيضًا". وترجّلت من على مقعد العربة.

حدّق پول قليلًا، ثمّ ترجّل قافزًا من الجانب الآخر، ودار كي يقف قدّامها. وقد كانت شاحبة ومُتعَبة، فيما لم يكُن هو على يقين من جهة مخادعتها أو عدمها. هل تحسب أنّها قادرة على اجتياز ثلاثين ميلًا مشيًا؟ ولم يكن ينوي أن يُتيح لها الفرصة كي تُغيِّر رأيها وترجع. "ماذا تتصوّرين أنّه يمكن أن نفعل".

"مهما أردتَ، يا سيِّد". ثمّ نزعتِ الشال وعلّقته على جانب العربة. "جيِّد؟" وابتسامتُها تسخرُ منه.

هل حسبت أنّه غير قادر؟ عصف به الغضب، فأمسك بذراعها ودفعها نحو ثلاثين مترًا بعيدًا عن الطريق، إلى ظلالِ دَغَل. وقد كان فظًّا وسريعًا، ورغبتُه الوحيدة أن يؤذيها ويُهينَها ولم تُصدِر أيَّ صوت، ولا واحدًا.

"لم يطُل بكِ الزمانُ حتّى تعودي إلى طُرقكِ القديمة؛ أم طال؟" ونظر إليها شزرًا باشمئزاز.

وقفت آنجل على مهل، ونفّضت أوراق النبات عن تنّورتها، كما نزعتها من شعرها.

ملأ الكُره كيان پول. "لم يُزعجكِ الأمر ولو قليلًا؛ أم أزعجكِ؟ إنَّ لديكِ أخلاقَ أفعى".

رفعت رأسها ببطء وتكلّفت ابتسامةً جامدةً باردة.

ومشى پول باضطراب، عائدًا إلى العربة بسرعة. لم يُطِق اصطبارًا حتّى تنتهي تلك الرحلة.

استطاعت آنجل أن تحسّ ابتداء القُشَعريرة. فشدّت أربطة قميصولها وزرّرت بلوزتها، ثمّ دسّتها تحت كَمَر التنّورة. وازداد الارتجاف سوءًا. فمضت إلى داخل الأشجار، حيث لا يستطيع پول أن يراها، وخرّت على ركبتيها. وتدفّق العرق البارد الدِّبق من جبينها، فشعرت بالبرد يسري في جسمها كلّه. ثمّ أغمضت عينيها، وقاومت الغثيان. لا تفكّري في الأمر، يا آنجل. لن يهمّك إن لم تَدَعيه يستولي عليك. تظاهري بأنّه لم يحدث.

انغرزت أظافرها على نحوٍ مؤلم في جذع الشجرة، وتقيأت. وإذ وقفت، زالت البرودة وتوقّف الارتجاف. ثمّ لبثت واقفةً لحظاتٍ طويلةً، منتظرةً أن يعاودها الهدوء.

صاح بها بول: "عجّلي! اريد الوصول قبل الظلام". فسارت راجعةً إلى الطريق، رافعةً ذقنها.

حدَّق بول إليها من فوق مقعد العربة. "أتعرفين، يا أنجل؟ تقديُركِ مُبالَغٌ فيه. فأنتِ لا تُساوين أكثر من قطعتَي ذهب صغيرتين".

وتفجَّر في داخلها شيءٌ ما. "وأنت، كم تساوي؟"

فضاقت عيناه. "ماذا تعنين؟"

اقتربت أكثر وانتزعت الشال عن جانب العربة. "أنا أعرف ما أنا. ولم أتظاهْر قطُّ بأنَّني أيُّ شيء سوى ذلك. لا مرَّةً واحدة، ولا يومًا من الأيّام". ثمَّ ألقت يدها على طرف مقعد العربة. "وها أنت هنا، مستعيرًا عربة مايكل وحصانيه وذهبه، مستغلًّا زوجته". وضحكت عليه. "ماذا تُسمّي نفسك؟ أخاه!"

تحوَّل وجهه من البياض إلى الحُمرة، ثمَّ عاد إلى البياض. ثمَّ كوّر قبضته وظهر كمن يريد أن يقتلها. "ينبغي أن أتركَكِ هنا. ينبغي أن أدعكِ تمشين باقي الطريق مشيًا".

ولكنْ إذ كان الهدوء قد عاد إلى أنجل وباتت مالكة السيطرة، صعدت إلى العربة وجلست على مقعدها بقربه. ثمَّ ابتسمت ومسَّدت تنُّورتها، قائلةً: "لا تقدر على ذلك الآن؛ أم تقدر؟ لقد دفعت لك الأُجرة!"

ثمَّ لم تتفوَّه بكلمةٍ أُخرى طوال ما بقي من الطريق.

الخوف

الفصل

الخامس عشر

حينئذٍ تقدَّم إليه بطرس وقال: "يا ربّ، كم مرّة
يُخطئ إليَّ أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرّات؟"
قال له يسوع: "لا أقول لك إلى سبع مرّات، بل إلى سبعين
مرّة سبع مرّات".

(إنجيل متّى ١٨: ٢١ و٢٢)

لم يعُد القصر موجودًا.

وقفت آنجل ترتجف تحت الثلج المتساقط، والوحلُ يصل إلى كاحلَيها، محدِّقة إلى الرُّكام الأسود المتبقّي. وتطلَّعت حواليها فرأت الشوارع هادئة وشبه مهجورة. وكانت بضع بنايات نصفَ مهدَّمة، وقد حُمِّلت العوارض والألواح على العربات. فماذا كان يجري؟

كانت عبر الشارع حانةٌ مفتوحة. على الأقلّ، ما زالت حانة "الدولار الذهبيّ" تشتغل. فتذكَّرت آنجل مالكها، مورفي، ذاك الذي كان يصعد على الدرج الخلفيّ دائمًا. ولمَّا دخلت الأبواب المتحرِّكة، كفَّ الرجال القليلون في الداخل عن الكلام وحدَّقوا إليها. وقد كان مورفي وراء نُضُد المَشرَب.

ابتسم مورفي ابتسامة عريضة. "عجبًا، مَن هناك؟ أليست هذه آنجل؟! لم أعرِفكِ في هذه الخِرَق. ماكس! أحضر للسيِّدة بطّانيّة. إنَّها مبلَّلة وشبه متجمِّدة. هاي، يا سادة، انظروا مَن هنا! أيُّها السِّتُّ الصغيرة، أنت منظرٌ يُبلسِم العيون المُقرَّحة. أين كنتِ، يا حلوة؟ سمعنا أنَّك تزوجتِ من فلّاحٍ ما". ثمَّ ضحك كما لو أنَّ ذلك كان نُكتةً عظيمة.

كان صوت مورفي عاليًا، ووَدَّت آنجل لو تقولُ له أن يسكت. فسألت بهدوء: "ماذا جرى للقصر؟" محاوِلةً تسكين القُشَعريرة السارية فيها.

"احترق وانهار".

"أرى ذلك. متى؟"

"منذ أُسبوعين. لقد كان آخِر موقع إثارة صغير تمتَّعنا به في هذه النواحي. إنَّ البلدة تموت، في حالِ لم تُلاحِظي ذلك. فالذهب المتبقِّي في هذه النواحي يكاد يتعذَّر

استخراجُه. وبعد شهر أو شهرين تغدو پيرأدايس أرض أشباح عديمة الحياة. فسيكون عليَّ إمَّا الانتقال إلى ناحيةٍ ينشط فيها استخراج الذهب، وإمَّا الإفلاس كما حلَّ ببعضهم. وقد رأى هُكشايلد ما كان آتيًا، وهدم متجره منذ بضعة أسابيع. وها هو في سَكرامنتو الآن، يجرف التراب جرفًا مفتِّشًا عن الذهب".

حاولت أن تُسكِّن نفاد صبرها وتُعزِّز أملها الواهي. "أين الدوقة؟"

"الدوقة؟ أُوه، لقد رحلت. إنَّها غادرت بُعيَد الحريق، إلى سكرامنتو أو سان فرنسيسكو، لا أعرف تمامًا إلى أين. ولا بدَّ أنَّها الآن في مكانٍ أكبر من هذا".

غاص قلب آنجل إذ تبدَّدت كلُّ خُططِها. وقد أعطاها ماكس حِرامًا، فتلفَّفت به لدرء القشعريرة المتفاقمة. وظلَّ مورفي يتكلَّم. "لم يبقَ لديها حتَّى كُشتُبانٌ تبصق فيه بعدما أحرق مغوان المكان حواليها. وقد قتلتِ النار اثنتين من فَتياتها".

فرفعت نظرها بحدَّة، سائلةً: "أيَّ فتاتين؟"

"ماي لِنغ، تلك الزهرة الصينيَّة الصغيرة. سوف أفتقدها".

"ومَن كانت الأُخرى؟"

"السكِّيرة. ماذا كان اسمُها؟ لا أذكر. على كُلٍّ، علقت في الطابق الأعلى عند شبوب النار. لم يستطع أحد إخراجهما. كان يمكنكِ أن تسمعي صراخهما. وقد سبَّب لي ذلك كوابيس على مدى أيَّامٍ بعد وقوعه".

آه، يا لاكي! ماذا سأفعل من دونكِ؟

ومضى مورفي يقول: "حاول مغوان أن يهرب. وقدِ ابتعد نحو خمسة أميال قبل أن نلحق به. ثمَّ جئنا به إلى هُنا وشنقناه هناك على قارعة شارع ماين. رفعناه كأنَّه عَلَم، ولم يمُت إلَّا بعد وقتٍ طويل. لقد كان أحقرَ المـ..."

غادرت آنجل نُضُد المَشرَب وجلست إلى طاولة. كانت بحاجة لأن تختلي بنفسها وتستعيد السيطرة على عواطفها.

ثمَّ ذهب إليها مورفي حاملًا قِنِّينةً وكأسين. وبعد أن قعد، سكب لها كأس وسكي. "أنتِ تزدرينَ حظَّكِ، يا حُلوة". ثمَّ سكب له كأسًا أُخرى. وقد تراوح القتام والبريق في عينيه إذ نظر إليها. "ليس لديك شيءٌ يُقلِقُكِ، يا آنجل. عندي غرفة شاغرة فوق". وأجال نظره في الرجال. "يمكنكِ أن تستأنفي الشغل في غضون خمس دقائق، بعد موافقةٍ بسيطة منكِ". وانحنى مقتربًا إليها أكثر. "كلُّ ما علينا أن نتَّفق عليه هو حصَّةُ كلٍّ منَّا. ما قولُكِ في ستِّين بالمئة لي، وأربعين لكِ؟ وسيكون لكِ إيواء وغذاء وكساء،

بقدر ما تشائين. كما أنّي سأعتني بكِ خيرَ عناية".

بدأ الارتجاف في داخلها من جديد. فأحاطت بكأسِ الوسكي بكِلتا يديها وراحت تحدِّق في السائل الكَهرمانيّ بفتور. ها قد تبدَّدت كلُّ مشاريعها. وليس لديها أيُّ ذهب، ولا ثيابٌ غير التي على بَدَنها، ولا طعام، ولا مأوى. وها هي من جديد حيثُ انطلقت في سان فرنسيسكو، ما عدا كونَ الفصل شتاءً الآن والثلجُ يتساقط.

لن يكون لي أبدًا كوخٌ خاصّ.

انحنى مورفي نحوها. "ماذا قُلتِ، يا آنجل؟"

رفعت نظرها إليه وابتسمت بمرارة. لقد علم أنّها لا يمكن أن تقول: "لا".

لن أصير حُرَّةً أبدًا.

"حسنًا، ماذا قُلتِ؟" وأجرى إصبعه على ذراعها ذهابًا وإيابًا.

قالت: "خمسون بالمئة لك وخمسون لي، ويدفعون لي. وإلّا، فلا شُغلَ بيننا".

مال مورفي إلى الوراء، وتقوّس حاجباه. وتفحّصها لحظاتٍ طويلةً، ومُوافِقًا. "هذا منصف. على أن تُعطيني ما أُريد مجّانًا. وبعد، أفليس هذا مكاني؟" ثمّ انتظر، ولمّا لم تُبدِ أيَّ احتجاجٍ تبسّم. "الآنَ الآن، يا حلوتي". ووقف. "هاي، ماكس! تولَّ الأمر عنّي. أنا ذاهب لإطلاع آنجل على مقرّها الجديد".

قال أحدُ الرجال بصوتٍ عالٍ: "أهي باقيةٌ هنا؟" ومنظره كمنظر من يستقبل عيد الميلاد بعد طولِ انتظار.

فتبسّم مورفي. "هي باقية!"

"أنا التالي! كم السّعر؟"

فذكر مورفي سعرًا غاليًا.

شربت آنجل كأس الوِسكي. ثمّ وقفت ترتجف إذ سحب مورفي كرسيّها إلى الوراء. لن يتغير شيءُ البتّة. وتباطأت دقّات قلبها فيما صعدت الدرَج. حتّى إذا بلغتِ العلّيّة، لم تعُد تستطيع أن تحسّ قلبها خافقًا، بل لم تستطع أن تحسّ أيَّ شيء.

كان ينبغي أن أبقى عند مايكل. لماذا لم أبقَ عند مايكل؟

ما كان الأمر ليجريَ حسنًا، يا آنجل. ولو في غضون مليون سنة.

لقد جرى حسنًا إلى حين.

إلى أن تدخّل العالَمُ منتقدًا مُضايقًا. ليس لدى العالَمَ رحمة، يا آنجل. أنت تعرفين ذلك. كان ذلك حُلمَ صحراء. وقد رحلتِ قُبيلَ انتهائه منِ استغلالك.

والآنَ قد عُدتِ إلى حيثُ تنتمين، لتفعلي ما وُلِدتِ كي تفعليه.

وماذا همَّ أيُّ شيء من ذلك؟ فاتَ أوان التفكير في الاحتمالات. فات أوان التفكير في الأسباب. فات أوان التفكير في أيِّ شيء.

أراد مورفي أن تؤدّي له خدماتها.

ولمَّا مضى، نهضت آنجل من السرير. ثمَّ أطفأتِ المصباح، وقعدت في الزاوية المظلمة، حيث ضغطت بركبتيها على صدرها وترجّحت. فالألم الذي ابتدأ لمَّا ظهر پول في الوادي، أزهر وانتشر والتهمها. كانت مُطبِقةً عينيها بإحكام، ولم تُصدِر أيَّ صوت، غير أنَّ الغرفة امتلأت بالصُّراخ الصامت.

مضت الأيّام مُسرعةً، ولا شيءَ تغيَّر كثيرًا. فبدلًا من الدوقة، بات لدى آنجل الآن مورفي؛ وبدلًا من مغوان، كان ماكس الأسهلُ انقيادًا. وغدَت غرفتها أصغر، ولباسُها أقلَّ فخامةً. وكان الطعام جيِّد النوعيَّة ووفيرًا. أمَّا الرجال فلم يتغيَّروا.

قعدت آنجل على حافة السرير، واضعةً رجلًا على رجل، ومُرجِّحةً العُليا جيئةً وذهوبًا، فيما كان مُعَدِّنٌ شابٌّ يخلع ثيابه. كان شعره ما يزال رطبًا ومُملَّسًا إلى الوراء، ورائحة الصابون الجافي تفوحُ منه. لم يكُن لديه كثيرٌ يقوله، الأمرُ الذي استساغته آنجل، لأنَّها لم تُرِد أن تُصغي. فهذا الزبون لن يقضيَ عندها وقتًا طويلًا. وإذ أقفلت الباب على عواطفها، وسدَّت منافذ ذهنها، انصرفت إلى الشُّغل.

انفتح الباب بشدَّة، وأبعد أحدُهم الشابَّ خطفًا. وشهقت آنجل نفَسًا حادًّا إذ عرفت وجه الرجل المُنحني فوقها. فدفعت نفسها إلى الجلوس. "مايكل! أُوه، مايكل..."

خُبِط الشابُّ على الأرض، ثمَّ هبَّ واقفًا. "ماذا تفعل؟" وهجم شاتمًا. فتلقّاه مايكل بضربةٍ ردَّته حتَّى ارتطم بالحائط. ثمَّ جذبه وأوقفه وضربه ثانيةً، وردَّه طائرًا عبر الباب المفتوح ليرتطم بالجدار الخارجيّ ويرتمي عليه واهنًا. واختطف مايكل أشياء المُعدِّن وطرحها فوقه في الخارج. ثمَّ رفس الباب فأغلقه، ودار.

تنفَّست آنجل عند رؤية مايكل حتَّى همَّت بأن تخرَّ على قدميه، ولكنَّ نظرةً واحدة إلى وجهه جعلتها تنكمش وتنكفئ.

"البسي ثيابك!" ولم ينتظرها حتَّى تتحرَّك، بلِ التقط ثيابها المُلقاة جانبًا ورماها عليها. "الآن!"

أخذ قلبها يخفق بقوّة، فيما راحت تتحسّس الثياب بارتباك، محاولةً في ذُعرها أن تفكّر بطريقةٍ للإفلات منه. وقبل أن تلبس كامل ثيابها، انتشلها عن السرير، وفتح الباب، ودفعها إلى الرّواق. حتّى إنّه لم يدَعها تنتعل حذاءها.

أقبل نحوه مورفي. "ماذا تحسب أنّك فاعل؟ قلتُ لك أن تنتظر تحتُ. لقد دفع الرجل الأجرة. يمكنك انتظارُ دورك".

"زِح من طريقي!"

ثبّت مورفي قدميه، وكوّر قبضتَيه. "هل تظنُّ أنّك تستطيع أن تتخطّاني؟"

كانت آنجل قد رأت مورفي يُنازِل، وأيقنت بأنَّ مايكل ليس كفوءًا لمواجهته. "مايكل، رجاءً..." فدفعها مايكل جانبًا بشدَّة، وتقدّمها.

هجم مورفي عليه. ولكنَّ مايكل تحرّك بسرعة زائدة، حتّى سقط مورفي أرضًا قبل أن يدري ما ضربه. وأمسك مايكل بمعصم آنجل وسار بها جرًّا. وقبل أن يبلغا رأس الدرج، نهض مورفي. وتشبّث بذراعها ونخعها إلى الوراء بشدَّة، حتّى صرخت من الألم. فأفلتها مايكل، فوقعت على الحائط. وهاجم مورفي مايكل ثانيةً، فطوّحه مايكل على الدرج نزولًا دفعةً واحدة.

انحنى مايكل فوق آنجل، فانكمشت منه. فجأر بها: "قومي!" ولم تجرؤ على العصيان. فأمسك بذراعها ودفعها قدّامه، قائلًا: "واصلي السير ولا تتوقّفي!"

لمّا وصلا إلى أسفل الدرج، هاجم ماكس مايكل. فاستخدم مايكل زخم الرجل ليرفعه ويدفعه على طاولة پوكر. وهجم عليه رجلان آخران، فأزاحها من طريقهما قُبيل أن يصطدما به، وإذا بالثلاثة يندفعون ليسقطوا على طاولةِ قِمار، فتطايرت الرقائق وأوراق اللعب وتفرّق الرجال. وشارك في الشجار رجُلان آخران.

زعقت آنجل: "توقّفوا!" مُتيقّنةً بأنّهم سيقتلونه. وبحثَت مسعورة عن شيءٍ تتسلّح به، ولكنَّ مايكل لم يبقَ على الأرض طويلًا. إذ رفس رجُلًا رفسةً أبعدته عنه، وهبَّ واقفًا. وراحت آنجل تراقبه فاغرةً فمها وهو يقاتل. فصمد في مكانه مُكيلًا اللكمات الشديدة والسريعة فيما أقبل الآخرون عليه. وترجّح مستديرًا، رافسًا وجه أحد الرجال بقدمه مباشرةً. لم يسبق لها قطّ أن رأت شخصًا يُقاتِل بهذه الطريقة. فقد بدا كمن قضى حياته كلّها في ذلك، لا في شقّ الأتلام وزراعة الحبوب. إذ كان يضرب بشدَّة ضرباتٍ مُسدَّدة تمامًا، فيسقط الذين يضربهم ولا يقومون. وبعد بضع دقائق، لم يعُد الرجال متحمسّين لمهاجمته.

وقف مايكل متأهّبًا وعيناه تقدحان شررًا، واستنفر الرجال متحدّيًا: "هلمّوا! هيّا! مَن بعدُ يريدُ أن يعترض بيني وبين زوجتي؟ هيّا!"

فلم يتحرّك أحد.

وتقدّم مايكل بخُطًى واسعة نحو آنجل، رافسًا طاولة مقلوبةً من طريقه. لم يبدُ شبيهًا في شيء بذلك الرجل الذي تعرّفت به في الوادي. "قلتُ لكِ أن تواصلي السير!" وأمسك بذراعها، ودفعها نحو الأبواب المتحرّكة.

كانت عربته في الخارج عند الباب تمامًا. فحمل آنجل بذراعيه وطرحها على المقعد العالي. ولم يتّسعِ الوقتُ لها كي تُفكّر بالفرار قبل أن يغدو إلى جنبها. ثمّ أمسك بالزمام ونخعه، فكان عليها أن تتشبّث جيّدًا للحفاظ على حياتها العزيزة. وكانت السرعة التي سار بها مُضنية. ولم يُبطئ قبل أن يبتعدا عن پيرأدايس بضعة أميال، وقد فعل ذلك إشفاقًا على الحصانين، لا عليها هي.

خافت آنجل أن تنظر إليه مجرّد نظر. وخافت أن تنطق بكلمة واحدة. لم يسبق قطُّ أن رأته على تلك الحال، ولو تلك المرّة التي فيها فقد السيطرة على طبعه في الحظيرة. فلم يكن ذلك هو الرجُلَ الصبور الهادئ الذي حسبَت أنّها تعرفه، بل كان رجلًا غريبًا عازمًا على الانتقام. فتذكّرت دوك مُشعلًا سيكار الشيروت، فشرع العَرَق البارد يتصبّب منها.

مسح مايكل الدم عن شفته، قائلًا: "أفهِميني، يا آنجل. قولي لي: لماذا؟"

آنجل! كان في ذلك الاسم نَعِيُّ موت. "أنزِلني من هذه العربة".

"سوف ترجعين معي إلى البيت".

"حتّى يتسنّى لكَ أن تقتلني؟"

"ربّي يسوع، أتسمعها؟ لماذا أعطيتَني هذه الزوجة الجاهلة العنيدة؟"

"أنزِلني!"

"لا مجال. لَن تَفرّي من هذا. لدينا أُمورٌ نُسوّيها".

كانت نظرة عينيه زاخرةً بكثير من العنف، فقفزت. وارتطمت بالأرض بشدّة، وتدحرجت. وما إنِ استعادت نَفَسها، حتّى هبّت واقفةً وركضت.

جذب مايكل الزّمام بشدّة، ومال بالعربة إلى خارج الطريق. ثمّ قفز وانطلق خلفها. "آنجل!" كان في وسعه أن يسمع وقع قدميها وهي هاربةٌ في قلب الغابة. "الظلامُ يشتدّ. توقّفي عن الركض قبل أن تكسري عنقكِ!"

غير أنَّها لم تتوقَّف. وتعثَّرت بأحد الجذور، فسقطت سقطةً قويَّة قطعت أنفاسها، وانطرحت على الأرض لاهثةً، وقد أمكنها أن تسمع حسَّ مايكل على مقربة منها وراءها، حيث كان يمشي مسرعًا، مُزيحًا الأغصان من طريقه، إلى أن عرف مكانها.

هبَّت آنجل واقفةً، وهربت منه مرعوبةً، غيرَ عابئةٍ بالأغصان التي لاطمت وجهها. لكنَّ مايكل قاطعها وأمسك بكتفيها، فتعثَّرت وأوقعته معها. فأدار جسمه وسقط قبلها، وحاول أن يلفَّها. فأخذت ترفس وتتلوَّى، مجاهدةً للتحرُّر منه. لكنَّه طرحها على ظهرها، وثبَّتها أرضًا. وإذ حاولت أن تخمش وجهه، أمسك بمعصميها وجمَّدها على الأرض.

"كفى، كفى!"

انطرحت لاهثةً، وقد جحظت عيناها. فاستردَّ نَفَسه، وأوقفها على قدميها نترًا. ولحظة أرخى قبضته، حاولت أن تهرب أيضًا. فجذبها إلى الوراء، ووجَّه ضربةً كادت تُصيب ظهرها. ولكنَّه علم أنَّه لو ضربها مرَّةً لَمَا استطاع أن يتوقَّف. فأفلتها، ولكنْ كلَّما حاولتِ الفرار شدَّها إلى الوراء. أخيرًا، هاجمته صفعًا وضربًا ورفسًا. فكان يتَّقي ضرباتها، بغير أن يردَّ لها ضربةً واحدة.

ولمَّا تراخت، جذبها مايكل بين ذراعيه وضمَّها بشدَّة. وقد كان جسمُها كلُّه يرتجف ارتجافًا عنيفًا، حتَّى استطاع أن يحسَّ الخوف يشعُّ منها. وكانت على حقٍّ في ذلك. فإنَّ سخطه روَّعه. إذ لو أصاب ظهرها بضربةٍ واحدة لقتلها.

كان قد فقد صوابه تقريبًا لمَّا رحلت.

بحث مشيًا على قدميه حتَّى عثر على آثار العربة، فأدرك ما حدث: أنَّها غادرته بصحبة پول، وأنَّها في طريقها إلى پيرأدايس. ومن ثَمَّ رجع إلى البيت مُستاءً منها وساخطًا عليهما كليهما. وقد كان انتظاره الطويل لعودة پول من المدينة أقرب شيء إلى الجحيم بين كلِّ ما اختبره في حياته. لماذا فعل پول ذلك؟ لماذا لم يردَّها إلى البيت بدل أن يصطحبها؟

ولكنَّ مايكل عرف الحقيقة.

فقد أعاد پول الحصانين والعربة. وقال إنَّ هُكشايلْد قد انتقل إلى سكرامنتو، ولذلك غاب تلك المدَّة الطويلة. وكان واضحًا أنَّه لا ينوي تزويده مختارًا بأيَّة معلومات عن أماندا. فسأله مايكل صراحةً. ولكنَّه لم يكَد يزيد شيئًا على قوله لمايكل إنَّه قد أقلَّها إلى پيرأدايس.

قال پول، شاحبًا ومذعورًا: "كان الرحيل فكرتها هي. فأنا لم أُقنِعها به". وما آلم

مايكل أشدَّ الإيلام كان الذنب المحفور عميقًا في وجهه الحزين. فلم يُضطرَّ إلى طرح مزيدٍ من الأسئلة، إذ علم ما حصل أيضًا على الطريق، أو في پيرأدايس.

"مايكل، أنا آسف. أقسِم إنَّ الغلطة لم تكن غلطتي. لقد حاولتُ أن أقول لك ما كانت..."

"اغربْ عن وجهي، يا پول. عُد إلى بيتك وأقِم هناك". ففعل پول ذلك.

وكاد مايكل ألَّا يذهب ويُعيدها بعد ذلك. فهي تستحقُّ ما نالته. لقد مضت تبحث عن ذلك، أليس كذلك؟ وقد بكى، ولعنها. فهو أحبَّها، ولكنَّها خانته. لَكأنها غرزت في أحشائه سكِّينًا وفتلتها!

ولكنْ ليلًا، في الظلام، تذكَّر تلك الأيَّام التي فيها كانت شديدة المرض وأُتيح له أنْ يُلقي نظرةً على نفسها. فقد قالت الكثير في أثناء بُطاحها، هاذيةً وراسمةً صورًا لبؤس حياتها. إنَّما هل تعرف أصلًا أفضل من ذلك؟ وتذكَّر ردَّة فعل پول حيالها، وغضبَها هي. فقد شاهدها تتألَّم، مع أنَّها أنكرت ذلك بشدَّة. ومن ثَمَّ كان ينبغي له أن ينطلق ويُعيدها. فهي زوجته.

ما دام كِلانا على قيد الحياة!

كان قد هيَّأ نفسه لأيِّ شيءٍ في طريقه إلى پيرأدايس. ولكنْ لمَّا دخل تلك الغرفة ورأى بعينيه ما كانت تفعل، كاد يفقد عقله كلَّه. ولو لم يكن قد رأى عينيها، أو سمع طريقة تلفُّظها باسمه لكان قتلهما كليهما. غير أنَّه رأى وسمع... في هُنيهةٍ واحدة مكشوفة، علم حقيقة شعورها: الفرَج، فَرَجًا شاملًا جدًّا بحيث برَّده وجمَّده.

ولكنَّ ذلك لم يعنِ أنَّ السخط الغريزيَّ عليها بسبب خيانتها لم يبق هُناك، مُبقبِقًا تحت السطح تمامًا.

ارتعد مايكل وابتعد عنها قليلًا، قائلًا بحزم: "تعالي! نحن ذاهبان إلى البيت". ثمَّ أمسك بيدها وانطلق عائدًا بها بين أشجار الغابة.

أرادت آنجل أن تقاوم، ولكنَّها خافت. ماذا ينوي أن يفعل بها الآن؟ في حدَّة طبعه هذه، أيمكن أن يكون وحشيًّا مثل دُوك؟ "لِماذا جئتَ لأخذي؟"

"أنتِ زوجتي".

"تركتُ الخاتم على الطاولة! لم أسرقه".

"هذا لم يُغيِّر شيئًا. فنحن ما زلنا متزوِّجين".

"كان في وسعك أن تنسى ذلك تمامًا".

فتوقَّف ونظر إليها. "إنَّه التزامٌ مدى العمر في كتابي، يا ستّ. وليس هو ترتيبًا يمكن إبطاله عندما تغدو الأمور أصعب قليلًا من أن تُطاق".

تأمَّلَت وجهه بارتباك. "حتَّى بعدما وجدتني..." فاستأنف السير، ساحبًا إيَّاها معه. إنَّها لم تفهمه. لم تفهمه قطّ. "لماذا؟"

"لأنَّني أُحبُّكِ"، قالها بغِلَظ. ثمَّ أدارها أمامه، وعيناه معذَّبتان. "بهذه البساطة، يا أماندا. أنا أُحبُّكِ. متَّى ستفهمين ما يعنيه هذا؟"

فاخشوشنت حنجرتُها، وحَنَت رأسها.

ومشيا باقي الطريق صامتَين. ثمَّ رفعها إلى مقعد العربة. ولمَّا صعد هو وقعد بقربها، زاحت جانبًا. ثمَّ نظرت إليه بفتور. "إنَّ نوع حُبّك لا يمكن أن يبدو جيِّدًا".

"وهل يبدو نوعُ حبّكِ أجود قليلًا؟" فأشاحت بنظرها. وحلَّ الزِّمام قائلًا بأسى: "الآنَ لا يتعلَّق الحبُّ بالمشاعر كثيرًا. لا تُسيئي الفهم. فأنا بشريٌّ مثلي مثل الرجل التالي. إنَّني أشعر. والآن أشعر بكثيرٍ ممَّا أودُّ لو لم أشعر به". ثمَّ هزَّ رأسه، وملامحُ الوجع والغضب تلوح على وجهه المُجهَد. "شعرتُ بميلٍ إلى قتلك عندما دخلتُ تلك الغرفة، ولكنَّني أحجمتُ. وأشعر بميلٍ إلى ضربكِ لإقحام الإدراك داخلَ رأسكِ الآن، ولكنَّني لن أفعل ذلك". ونظر إليها بعينين قاتمَتين. "ومهما آذاني الأمر، ومهما شعرتُ بميلٍ إلى مبادلتكِ الأذى بالأذى، فلن أفعل ذلك". ثمَّ نخع الزِّمام واستأنف السير.

حاولت آنجل دفع مشاعرها نزولًا، إلَّا أنَّها ظلَّت تتصاعد وتُشدِّد عليها الخناق. فكوَّرت قبضتيها كمن يبتغي القتال. "لقد عرفتَ ما كنتُ. لقد عرفتَ". وأرادت له أن يفهم. "مايكل، ذلك كلُّ ما كُنتُه يومًا. وذلك كلُّ ما سأكونه دومًا".

"ذلكَ سمادُ أحصنةٍ نقيٌّ غير مغشوش. فمتى تكفّين عن التمرُّغ فيه؟"

أشاحت بنظرها بعيدًا، وكتفاها مَرخيَّتان. "أنت لا تفهم فحسْب. لن يكون الأمر أبدًا كما تريد له أن يكون. فذلك غير ممكن! حتَّى لو وُجِدت فرصةٌ ذاتَ مرَّة، فإنَّها قد تبدَّدتِ الآن. ألا تعي؟"

اخترقت عيناه عينيها. "هل تتكلَّمين عن پول؟"

"أقال لك؟"

"لم يكُن من داعٍ. كان ذلك مكتوبًا على وجهه كلِّه".

لم تُقدِّم آنجل أيَّ دفاع، ولا قدَّمت أيَّة أعذار، بل مضت تُحدِّق أمامها تمامًا، وكتفاها هابطتان.

تبيَّن لمايكل أنَّها تُلقي اللوم كلَّه على نفسها، ولكنْ هي وپول كلاهما سيُضطرَّان إلى معالجة الأمر. وكذلك هو أيضًا. ثمَّ ثبَّت وجهه على الطريق من جديد ولبث صامتًا مدَّةً طويلة. "لماذا رجعتِ إلى هناك؟ يصعب عليَّ فهمُ ذلك حقًّا".

أغمضت عينيها، مفتِّشةً عن سببٍ وجيه إلى حدٍّ ما. فلم تعثر على أيِّ سبب، وبلعت ريقها بصعوبة. ثمَّ قالت بفتور: "كي أُحصِّل ذهبي". وقد جعلَها إقرارُها بذلك جهرًا تشعر بالصغارة والحقارة.

"لأجلِ ماذا؟"

"أُريد كوخًا صغيرًا لي في الغابة".

"لديكِ كوخٌ بالفعل".

لم تكَد تستطيع أن تتكلَّم عبرَ غصَّة الألم في صدرها. فضغطت عليه بيدها، وقالت بصوتٍ متهدِّج: "أُريد أن أكون حُرَّة، يا مايكل. مرَّةً واحدة فقط في حياتي كلِّها... حُرَّة!" ثمَّ عضَّت شفتها، وتشبَّثت بطرف مقعد العربة بشدَّة حتَّى انغرز الخشب في كفَّيها.

لانت قسمات وجه مايكل، وتلاشى الغضب، دون الأذى ودون الأسى. "أنت حُرَّة. إنَّما لا تعرفين ذلك بعد". وكانت رحلة العودة إلى الوادي طويلةً وهادئة.

الفصل

السادس عشر

للعقل مكانته الفريدة،
وهو في ذاته يستطيع أن يجعل من الجحيم نعيمًا،
ومن النعيم جحيمًا.

(مِلتُن)

لم يستطع مايكل طرد الموضوع من رأسه. ولم تقدّم آنجل أيَّ اعتذار، ولا تقدَّمت بأيِّ أعذار، بل اكتفت بالجلوس صامتةً، مستقيمَة الظهر، رافعة الرأس، ويداها مشبوكتان في حضنها كما لو كانت ذاهبةً إلى القتال، لا عائدةً إلى البيت. أتؤثِر رفض عطيّته والعيشَ في ظلمةٍ أبديَّة على فتح عقلها وقلبها له؟ أتكون كبرياؤها هي الأمرَ الوحيد ذا الأهميَّة؟

وهو لم يفهم.

قبعَت آنجل في عذابٍ صامت، تصارع العواطف التي تنهشها، من عذابِ ضمير وشعورٍ بالذنْب وارتباك. وقد صارت كلُّ هذه العواطف كتلةً جامدة، كُدرةً صُلبةً ترتفع في حلقها وصدرها، كسرطانٍ ينشر الألم في كلِّ أوصال الجسم ومفاصله. لقد كانت خائفة. فالأمل الذي حسِبتَه ميتًا منذ زمن بعيدٍ انبعث فيها. لقد نسِيَت النور الضئيل الذي كان يخفق في داخلها أحيانًا وهي صغيرة. وكانت قد انتظرت أن يُضرِم شرارته يومًا شيءٌ ما فيتوهَّج... حتَّى سحقه دُوك سحقًا.

وحاولتِ الآن أن تسحقه بالمنطق.

لا يمكن أن يكون شيءٌ كما كان. فمهما نشأ بينها وبين مايكل، فإنَّه قدِ انهار. وهي علمت ذلك. فلحظةَ استغلَّها پول، طوّحت بعيدًا آخر فُرصةٍ لديها.

أنا فعلتُ ذلك لنفسي. أنا فعلتُ ذلك بنفسي. إنِّي نادمة، إنِّي نادمة.

انتابتها كلماتُ أُمِّها، ومعها ذكرياتٌ لا تُطاق عن حياةٍ مهجورة. فلماذا تشعر بهذا النور الضئيل من جديد وهي تعلم بأنّه سيتبدَّد حتمًا في الأخير؟ تمامًا كما كانتِ الحال دائمًا. وما أقسى ما كان الأمل! فقط رائحةَ الغذاء أمام طفلٍ جائع، لا حليبًا ولا خُبزًا.

أوّاه، يا الله، لا يمكنني أن آمل أيَّ شيء. لا يمكنني. لن أعيشَ إذا فعلتُ ذلك.

غير أنَّ ذلك القَبَس كان هناك، شرارةً صغيرة تتألّق في الظلام.

وحين بلغا الوادي عند بزوغ الصباح، شعرت آنجل بدفءِ الشمس المُتزايِد على كتفيها وتذكَّرت كيف سحبها مايكل مرَّةً في قلب الليل لتُعاين شروق الشمس. "تلك هي الحياة التي أُريد أن أُعطيَكِ إيَّاها". آنذاك لم تفهم ما عرضه عليها. لم تُدرِك ذلك قبلًا حتَّى صعدت الدرج في حانة الدولار الذهبيّ وباعت نفسها للعبوديَّة من جديد.

فات الأوان، يا آنجل.

إذًا لماذا يُرجِعني؟ لماذا لم يتركني في پيرأدايس فحسْب؟

لقد أرجعكِ دُوك أيضًا، أمَا أرجعكِ؟ بضعَ مرَّات.

كانت قد رأتِ العِقاب دائمًا في عيني دُوك الداكنتين. وقد جعلها تُعاني. ومع ذلك كان أسهل عليها أن تتقبَّل ما فعله بها من أن تُعاين الألم الذي أنزله بالآخرين ممَّن تجرَّأوا أن يساعدوها. مثل جوني... قبل أن يتخلَّص منه دوك إلى الأبد.

ولكنَّ مايكل لم يكن مثل دُوك. فهي ما رأت في عينيه قطُّ بريقَ القسوة المحسوبةِ ذاك، ولا أحسَّتها قطُّ في يديه.

لكلِّ شيء ثمن، يا آنجل. أنت تعرفين هذا. ولطالما كنتِ تعرفينه.

تُرى، أيُّ ثمن سيطلبه لقاء إرجاعها من الجحيم؟ أيُّ ثمنٍ لقاء إنقاذها من حماقتها؟

سَرَتِ القشعريرة في بدنها.

دار مايكل بالعربة وأوقفها نترًا في الفناء أمام الكوخ، وربط الزِّمام بإحكامٍ ربطًا آمنًا. وهمَّت آنجل بالترجُّل، إلَّا أنَّ يده أمسكت بمعصمها بقوَّة. "ابقَي قاعدة!" وكان صوته ثقيلًا، فبقيت قاعدةً في صمت تنتظر أمره. ولمَّا دار كي يُنزلها، أغمضت عينيها، خشيةَ أن تنظر في عينيه. ثمَّ أوقفها على الأرض برفق، وقال لها:

"ادخُلي البيت. سأُعنى بأمر الحصانَين".

دفعت آنجل باب الكوخ، فانفتح على وسعه، وأحسَّت شيئًا من الفَرَج يتغلغل في كيانها كلِّه. ها أنا في البيت!

حتَّى متى، يا آنجل؟ مُدَّةً تكفي أن يجعلك تتألَّمين ق بل أن يطردك ثانيةً؟

لم تستطع أن تحمل نفسها على التفكير في ذلك الآن. فدخلت وأجالت نظرها بحثًا عن أيِّ تغيير. فإذا كلُّ شيءٍ في غاية المألوفيَّة والبساطة والعذوبة: الطاولة الخشنة، كُرسيَّا الصفصاف قُبالة الموقد، السرير المصنوع من قعرِ عَرَبة، اللُّحف البالية التي

عملتها أُختُه. وبادرت آنجل إلى إشعال النار وتسوية السرير المُشعَّث.

التقطت قميص صوفٍ أحمر، وأخفت وجهها فيه، وتنشَّقت رائحة جسد مايكل. وإذا به الأرضُ والسماء والريح، فانحبس نَفَسُها.

ماذا فعلتُ؟ لماذا تخلَّيتُ عن هذا كلِّه؟

وعاودتها كلمات پول: "إنّكِ لا تساوين حتَّى قطعتَي ذهب صغيرتين". صحيح! فهي مومس، وذلك كلُّ ما ستكونُه دائمًا أبدًا. فإنَّ رجوعها إلى سُبلها القديمة لم يستغرق حتَّى يومًا واحدًا.

طَوَتِ القميص باعتناء وهي ترتجف، ودسَّته في عُمق جارورِه. عليها أن تكفَّ عن التفكير. عليها أن تُدبِّر الأمر، كما كان من عادتها أن تفعل من قبل. ولكنْ كيف يمكنها أن تفعل ذلك الآن؟ كيف؟

شغلت عقلها اليائس بحثًا عن أجوبة، فلم تهتدِ إلى جوابٍ واحد. سأعمل مهما أراده، ما دام يريده، إن سمح لي بالبقاء. إن هو سمح لي فقط.

ومع أنَّها كانت معدومة القابليَّة للطعام، فقد علمت أنَّ مايكل سيكون جائعًا حين يأتي. فاعتنت اعتناءً جيدًا بإعداد الفطور. وبينما العصيدة تنضج، مسحت الغبار وكنست. ومضت ساعة، ثُمَّ أُخرى، ومايكل لم يعُد بعد.

فيمَ كان يفكِّر؟ أكان غضبه يتعاظم؟ وهل غيَّر رأيه فعلًا بشأن إرجاعها إلى هنا؟ أويطردها الآن؟ وأين تمضي إذا طردها؟

جعلت ذكرياتُها عن دُوك معدتها تنقلب وتجيش.

إنَّه ليس مثل دُوك.

كلُّ رجُل هو دُوك حين يُخان.

حوَّم ذهنُها كطائر يبحث عن جيفة. وارتفعت حصون دفاعها الذاتيَّة، حاملةً السلاح في وجه مايكل. لا أحد أرغمه على اللحاق بها. وإن آذاه ما رآه، فليس له إلَّا نفسُه يلومها. لم تكن الغلطة غلطتها لدخوله الغرفة حين دخلها. ولم تكن غلطتها في مجيئه أصلًا. لماذا لم يدَعها وشأنها من أوَّل الطريق؟ إنَّها لم تحاول قطُّ أن تخدعه. فماذا توقَّع؟ لقد علم من البداية النصيبَ الذي ناله. لقد علم ما كانت.

وصرخ عقلُها: ماذا أنا؟ مَن أنا؟ ليس لي بعدُ اسمٌ خاصٌّ بي. وهل بقي من سارة حتَّى قطعةٌ صغيرة؟

وظلَّت ترى عينيه، فكان الثقلُ المحرور في قلبها لا يُطاق.

أخيرًا، لم تعُد تحتمل، فخرجت تبحث عنه. لم تجده في الحقل، مع أنَّ الحصانين كانا يرعيان. ولم ترَه في أيِّ مكان. أخيرًا، دخلتِ الحظيرة بهدوء، فوجدته هناك. كان قاعدًا يبكي ورأسُه في يديه. فغاص قلبها إذ شاهدته هكذا، وإذا بالراحة التي طلبتها تستحيل عبئًا أكثر ثقلًا أكثر.

لقد جرحتُه. لَكأنَّني أخذت سكينًا وطعنتُ بها قلبه. كان خيرًا لو قتلني مغوان. كان خيرًا لو لم أُولَد قط.

ثمَّ عادت إلى الكوخ مكتوفةَ اليدين، وخرَّت على ركبتيها قبالة الموقد.

لقد كانت الغلطة غلطتها. وانهال عليها كلُّ افتراض: لو أنَّها لم تترك دُوك قطّ... لو أنَّها لم تصعد قطُّ إلى ذلك المركب الشراعيّ... لو أنَّها لم تبع نفسها لأيِّ عابر سبيل في شوارع سان فرنسيسكو الموحلة، ولم تصحبِ الدوقة... لو أنَّها تجاهلت بول... لو أنَّها بقِيت هُنا ولم ترحل قطّ... لو أنَّها لم ترجع إلى بيرأدايس، ولم تصعد ذلك الدَرَج مع مورفي. لو، لو، لو... يا له من دَرَج لَولبيٍّ هابطٍ لا نهاية له!

غير أنّي فعلتُ ذلك كلَّه. نعم، فعلتُه. والآن، فات الأوان، وها هو مايكل قاعدٌ يبكي فيما لا أذرف دمعةً واحدة على أيِّ شيء.

ثمَّ تماسكَت وترجَّحت جيئةً وذُهوبًا. "لماذا وُلِدتُ أصلًا؟ لماذا؟" وحدَّقت إلى يديها نزولًا. "ألِهذا؟" فقد استطاعت أن تشعر بدَنس مهنتها يلوِّثهما. وكان جسمُها كلُّه فاسدًا، داخلًا وخارجًا. لقدِ انتشلها مايكل من الهاوية رأسًا ويسَّر لها فرصةً... وهي طوَّحتها بعيدًا. ثمَّ جاء ثانيةً وأخذها حالًا من سريرها الملوَّث إلى بيته، ووفاءً منها لحماقتها قضَتِ الصباح كلَّه تُنظِّف الكوخ ولم تُفكِّر مرَّةً واحدة في تنظيف نفسها.

فتَّشت مسعورةً حتَّى وجدت صابونة، وركضت قاصدةً إلى الجدول، حيث خلعت ثيابها وطرحتها جانبًا بإهمال، وخاضتِ الماء. ونهش الهواء والماء الجليديّان بَدَنها، إلَّا أنَّها لم تكترث. فكلُّ ما أرادته كان أن تغدو نظيفة، أن تغسل عنها دَنَسها كلَّه، كلَّ شيءٍ من الماضي منذ أبعدِ ما يمكنُها أن تتذكَّر.

ربَّما منذُ لحظةِ الحبل بها بالذات.

نهض مايكل وعلَّق عُدَّة الحصانين. ثمَّ خرج من الحظيرة، ومشى على مهل عائدًا إلى الكوخ. إلى ماذا سيؤول زواجٌ دنَّسته الخيانة الجنسيَّة هكذا؟

لم تُحبّني قطُّ من الأساس. فلماذا ينبغي أن أتوقَّع منها الولاء والوفاء؟ إنَّها لم تعِد بهما قطّ؟ لقدِ اضطررتُها إلى التفوُّه بالتعهُّدات. وهي لم تقُل كلمةً واحدة عن كونها آسِفة، يا ربّ. ولا كلمةً واحدة مسافةَ ثلاثين ميلًا. هلِ ارتكبتُ غلطةً؟ أكان صوتك ما سمعتُه، أم نداءَ جسدي أنا؟ لماذا أنت فاعلٌ بي هذا؟

كان ينبغي له أن يتركها في پيرأدايس.

إنَّها زوجتُك!

نعم، ولكنِّي لا أدري هل أستطيع أن أُسامحها؟

لقدِ انطبعت في ذهنه صورةُ اختلائها في السرير برجُل آخر. ولم يتمكَّن من إخراج تلك الصورة خارجَ رأسه.

أحببتُها، يا ربّ. أحببتُها حبًّا كافيًا لأنْ أموت من أجلها. وهي فعلت هذا بي. لعلَّها جاوزت نقطة الافتداء. كيف تغفر لشخصٍ لا يهتمُّ أدنى اهتمامٍ يجعله يرغب في المغفرة؟

ماذا تُريدُ هي، يا مايكل؟

"الحريَّة. إنَّها تريد الحرِّيَّة".

كان الكوخ مرتَّبًا، ونارٌ مؤنسة تتوهَّج. وكانت السُّفرة ممدودة، والفَطور جاهزًا. إلَّا أنَّ آنجل لم تكُن هناك. فسبَّ مايكل أوَّلَ مرَّة منذ سنين، وقال: "فلترجع! لا يهمُّني ذلك. لقد سئمتُ الصِّراع". ثمَّ رفس المقلاة فسقطت عنِ القضيب المعدنيّ. "كم مرَّةً يُتوقَّع منِّي أن ألحق بها وأُرجِعها؟"

قعد هُنيهةً على كرسيِّ الصفصاف، ولكنَّ غضبه بقي يتفاقم تمامًا. سيذهب ويجدها ثانيةً، وهذه المرَّة سيريها ما سيفعله. سيقول لها إنَّه إذا كانت راغبةً في الرحيل رغبةً شديدة فهو سيُقِلُّها بعربته أيضًا. ثمَّ خرج من الكوخ صافقًا الباب، ووقف خارجًا ويداه على خاصرتيه، سائلًا نفسه عن الاتِّجاه الذي هربت فيه هذه المرَّة. ثمَّ أجال نظره في الأراضي المحيطة، ففوجئ بعضَ الشيء إذ لمحها واقفةً في الجدول عارية.

هرول هابطًا الضفَّة. "ماذا تفعلين؟ إذا أردتِ ان تستحمِّي، فلماذا لم تنقلي ماءً إلى البيت وتُسخِّنيه؟"

وفي فعل احتشامٍ مُفاجئ غير متوقَّع، أدارت له ظهرها، محاولةً التستُّر. "اذهبْ من هنا".

فخلع سترته قائلًا: "هيًّا اخرُجي من هناك. ستُصابين بذات الرئة. إن كنتِ تُريدين الاستحمام بإلحاح، فأنا أنقل لكِ الماء".

"اذهب من هنا!" صرخت، راكعةً على ركبتيها وحانيةً ظهرها.

"لا تتحامقي!" ثمَّ خاض الماء، وأمسك بها، وأوقفها على قدميها نَترًا. كانت قبضتاها مليئتين بالحصى، وصدرُها وبطنها مُحمرَّينِ من الفرك. "ماذا تفعلين بنفسك؟"

"عليَّ أن أغتسل. إنَّك لم تُتح لي الفُرصة..."

"اغتسلتِ كفاية". وحاول أن يطرح سترته عليها، إلَّا أنَّها نفرت.

"لم أنظف بعدُ، يا مايكل. لو تتركُني وحدي وتمضي!"

تشبَّث بها مايكل بقوَّة. "هل تنتهين بعد أن تسلخي جلدَكِ؟ بعد أن يسيل دمُكِ؟ أذلكَ ما تبتغين؟ هل تعتقدين أنَّ فِعْل ذلك بنفسك سيجعلُكِ نظيفة؟" ثمَّ أفلتها خشيةَ أن يُنزل بها أذىً بدنيًا. وقال من بين أسنانه الصارَّة: "هذه الطريقة لا تنفع!"

نظرت إليه بعينين طارفتين، وقعدت على مهل، والماء الجليديُّ يَدوِّم حول خصرها. وقالت برقَّة: "لا، لستُ أعتقد ذلك"، فيما شعرُها المبلَّل المتداخل مُنسدِلٌ حول وجهها الشاحب وكتفيها البيضاوَين.

فقال: "لنعُد إلى الداخل!" وساعدها على الخروج من الماء. فأقبلت بلا مقاومة هذه المرَّة، وتعثَّرت لدى بلوغها الضفَّة. وإذِ انحنت لتلتقط ثيابها، سحبها وسار بها عاريةً، حتَّى أدخلها الكوخ في ما يُشبِه الدَّفع، ثمَّ سفق الباب.

انتشل حِرامًا عن السرير، وطرحه عليها، قائلًا: "اقعدي قرب النار". أسدلت آنجل الحِرام على كتفيها، وقعدت بغير أن ترفع رأسها. ألقى عليها مايكل نظرة عجلى من فوق كتفه، فيما سكب لها فنجان قهوة. "اشربي هذا". ففعلت كما قال لها. "ستكونين سعيدة الحظّ إن لم تمرضي. ماذا تحاولين أن تفعلي؟ أن تجعليني أنا أشعر بالذنْب لأنَّكِ رجعتِ إلى البُغاء؟ أن تجعليني أنا أشعر بالذنْب لجرّي إيّاك إلى خارج الماخور ثانية؟"

قالت بهدوء: "لا".

لم يرد أن يُشفِق عليها. أراد أن يهزَّها حتَّى تَسقط أسنانُها. أراد أن يقتلها.

يمكنني ذلك. اللهمَّ، يمكنني أن أقتلها وأكون مسرورًا بذلك!

سبعين مرَّةً سبعَ مرّات.

لا أريد أن أُصغي إليك. سئمتُ الإصغاء. إنّك تطلب ما يفوق الطاقة. حاشاكَ ألَّا تفهم! أمَّا تعلم ما فعلَت بي؟

سبعين مرَّةً سبع مرّات.

احمرَّت عيناه من الدَّمع السخين، وراح قلبه يدقُّ كطبلِ حرب. وبدت هي مثل ولد مُمرَّغ في الوحل، وقد ارتسمت ظلال داكنة تحت عينيها الزرقاوين. فلتُعانِ! إنَّها تستحقُّ ذلك. كانت على عنقها كَدمةٌ أصابته بالغثيان. فوضعت يدها عليها وأشاحت وجهها عنه. حتَّى إنه كاد يراها تنكمش. لعلَّ لديها بقيَّةً من ضمير. لعلَّها شعرت حقًّا بشيءٍ من الخجل. آه، إنَّما سيتلاشى ذلك على وجه السرعة، وستكون مُتأهّبةً لتمزيقه شرَّ تمزيقٍ مرَّةً أُخرى.

لا يمكنني احتمالُ ما أشعر به، يا ربّ. لو حسبتُ أنَّها يمكن أن تحبّني، لَربَّما...

مثلما أحببتني أنت؟

الأمران مختلفان. فأنت الله! وما أنا إلَّا إنسان.

ثمَّ قالت آنجل بفتور: "ما كان ينبغي أن تأتي لأخذي. ما كان ينبغي قطُّ أن تقترب منِّي أوَّلَ الطريق".

"صحيح! عليَّ اللَّوم". لعلَّها على حقّ. ثمَّ شعر بالغثيان، فكوَّر يده، ورمقها شزرًا. "لقد تفوَّهتُ بتعهُّدات الزواج، وسألتزمها مهما كانت خانقةً لي الآن".

نظرَت إليه بعينين فاترتين: "أنت غير مُضطرٍّ إلى ذلك". وهزَّت رأسها.

"سينجح الأمر. سأجعلُه ينجح". أما وعدتَني، يا ربّ؟ أم كنتُ أتصوَّر ذلك تصوّرًا؟ أكانت عل حقٍّ كلَّ حين، وكان ذلك مجرَّد انجذابٍ جنسيّ؟

فقالت آنجل: "إنَّك تخدع نفسك فحسْب. إنَّك غيرُ فاهمٍ فحسْب. ما كان ينبغي أن أُولَد قطّ".

وضحك مايكل ساخرًا. "هذا هو رثاء الذات، وأنتِ تغرفين فيه، أليس كذلك؟ إنَّكِ حمقاء عمياء، يا آنجل. لا يمكنك أن تري ما هو قُدَّام وجهك تمامًا".

وأنتَ كذلك!

حدَّقَتْ إلى قلب النار. "لستُ عمياء. طالما كانت عيناي مفتوحتين طوال حياتي. ألا تعتقد أنَّني أعلم ما أقول؟ ألا تعتقد أنَّه صحيح؟ لقد سمعتُ أبي بنفسه يقول إنَّه كان من المفروض أن تُجهِضني أُمّي". وتهدَّج صوتها. ثمَّ استعادت رباطة جأشها ومضت تقول بمزيد من الهدوء: "كيف يمكن لرجُلٍ مثلك أن يفهم؟ لقد كان أبي متزوِّجًا، وله ما يكفي من الأولاد. وقال لماما إنَّها أرادت أن تُعلِّقه بها فحسْب. ولم أعلم قطُّ هل كان ذلك صحيحًا. وهو قد طردها، إذ لم يعُد يريدها. وأنا السبب. لقد كفَّ عن حُبِّها. وأنا السبب".

ثمَّ أردفت بصوتٍ هادئ ينضح ألمًا: "كان أهلُ أمي قومًا شرفاء في حيٍّ صالح. فرفضوا استقبالها، لأنَّ عندها ابنةً غير شرعيَّة. حتَّى كنيستُها طردتها". وارتخى الحِزام منفتحًا، فحدَّق مايكل إلى الكدمات المُحمرَّة على جلد آنجل، وقد بدت حُزوزٌ حُمر حيثُ مزَّقت لحمها بيدها.

يا يسوع، لماذا تفعلُ هذا بي؟

كان الانكفاء إلى الغضب أسهل من النظر إلى أعماق نفسها المعذَّبة.

ثمَّ قالت بانعدام تأثُّر: "انتهى بنا الأمر إلى أرصفة الميناء، وقد أصبحت ماما مومسًا. وعندما يغادر الرجال، كانت تشرب وحدها كي تنام، فيما يمضي راب إلى الحانة ليشرب بمالها. ولم تعُد جميلةً كما كانت. وقد ماتت وأنا في الثامنة من العمر". ورفعت نظرها إليه، مُضيفةً: "ماتت مبتسمة". ثمَّ لَوَت فمها قليلًا. "أنت ترى إذًا أنَّ الأمر صحيحٌ فعلًا. ما كان ينبغي أن أُولد. كان ذلك كلُّه غلطةً رهيبة منذ البداية".

جلس مايكل مُتثاقِلًا، والدموع تكاد تطفر من عينيه، إنَّما ليس رثاءً لحاله هذه المرَّة. "ماذا جرى لك بعد ذلك؟"

حَنَت رأسها وشبكت يديها بإحكام. ولم تنظر إليه. وساد صمتٌ ثقيل طويل قبل أن تتكلَّم بهدوء بالغ: "باعني راب إلى ماخور. وكان دوك يهوى البنات الصغيرات".

أغمض مايكل عينيه.

ورفعت آنجل نظرها إليه. لقد صُدَّ طبعًا. فأيُّ رجل لا يشمئزُّ من التفكير بفتاة قاصر تزني مع رجُل راشد؟ ثمَّ خفضت رأسها عاجزةً عن النظر إليه، وقالت: "لم تكن تلك إلَّا البداية. فلا يمكنك حتَّى تصوُّر ما حدث منذ ذلك الحين: "ما فُعل بي من أُمور، وما فعلتُه أنا". ولم تقل له إنَّها كانت مسألة بقاء. فما همَّ ذلك؟ لقد اختارت هي أن تُطيع.

رمقها من خلال دموعه. "تعتقدين أنَّ اللوم يقع عليكِ أنتِ في ذلك كلِّه، أليس كذلك؟"

"على مَن غيري؟ أَعلى ماما؟ لقد كانت تحبُّ والدي، وتحبُّني أنا، وتحبُّ الله. وقد بذلَتْ كثيرًا من الحُبِّ الخيِّر. فكيف يُعقَل أن ألومها على أيِّ شيء، يا مايكل؟ أعليَّ أن ألوم راب؟ لقد كان مجرَّد سكِّير مسكين قليل العقل اعتقد أنَّه يعمل أصلحَ شيءٍ لي. وقد قتلوه. هناك، في الغرفة، أمامي مباشرةً، لأنَّه عرف أكثر ممَّا يجوز". وهزَّت رأسها. ما كان ينبغي أن يعرف كلَّ شيء.

"اللَّوم لا يقع عليكِ، يا أماندا".

أماندا. آه، يا الله! "كيف يمكنك أن تدعوني بهذا الاسم بعد؟"
"لأنَّه هو مَن أنتِ الآن".

فصاحت مُحبَطةً: "مَتى ستفهم؟ لا يهمُّ مَن يفعل الأمور بك. فليس بمقدورك أن تتظاهر بأنَّها لم تحدث". وشدَّت الحِرام على جسمها منكمشةً على ذاتها، وأردفت: "إنَّك تُدخِل ذلك كلَّه إلى قرارة نفسك. فما حدث لي هو ما أنا عليه. أنتَ قلت ذلك بلسانك، وأنتَ على حقّ. لا يمكنني أن أغسله عنّي. يمكن أن أسلخ جلدي كلَّه، وأن أسفك دمي كلَّه. فليس من شأن ذلك أن يُغيِّر شيئًا. إنَّه يشبه نتانةً فاسدة لا أستطيع التخلُّصَ منها مهما حاولت جاهدةً. ولقد حاولتُ، يا مايكل. نعم، حاولتُ. أُقسِم لك. وقد قاومتُ، وهربتُ. لقد أردتُ أن أموت. وكدتُ أنجح مع مغوان... كدتُ. ألا ترى؟ لا شيء يهمّ. لا شيءَ على الإطلاق أحدث أيَّ فرق. فأنا مومس، وذلك ما كُتب لي أن أكونه".

"هذه كذبة!"

"لا، ليست كذبة. ليست أبدًا".

انحنى نحوها، ولكنَّها انكمشت، وتكوَّمت على ذاتها أكثَر، مُشيحةً بنظرها. فقال لها: "أماندا، سنجتاز هذا الظَّرف. سنجتازه. إنّي أُعاهدكِ بذلك".

"لا، لن نجتازه. أرجِعني فحسب". ولمَّا هزَّ رأسه رفضًا، توسَّلت: "رجاءً! أنا لا أنتمي إلى هذا المكان بصحبتك. جِد لك امرأةً أُخرى!"

"هل تقصدين: أفضلَ منك؟"

بدا وجهها شاحبًا شحوب الموت، وكان أَلمُها شديدًا ومُمِضًّا.

"نعم!"

مدَّ مايكل يده ليُلقيَها على كتفها، إلَّا أنَّها نفرت منه. فعلم سبب ذلك الآن، وطعنَهُ في الصميم أنَّها حسبت نفسها دَنِسةً جدًّا بحيث لا ينبغي له حتَّى لمسُها.

فقال بصوتٍ أجشَّ: "هل تحسبينني قدِّيسًا مُميَّزًا؟" إذ كان قبل لُحيظاتٍ قد أنكر الحُبَّ والله نفسه، بل ودَّ أيضًا لو يقتلُ زوجته. فهل من فرقٍ بين القتل باليد والقتل بالفكر؟ ذلك أنَّ طبيعته الجسديَّة قدِ استساغت أفكار المعاقبة، بلِ اشتهتها اشتهاءً.

خرَّ على ركبتيه، وأمسك بكتفيها، قائلًا بصوته الأجشّ: "كان عليّ أن أركض إلى ﭙيرأدايس الطريقَ بطولها. ما كان ينبغي أن أنتظر رجوع پول إلى الديار خائبًا ذليلًا".

فرفعت رأسها ونظرت في عينيه مباشرةً، ناويةً إنهاء الموضوع حالًا، مرَّةً وإلى الأبد. "قدَّمتُ له جسدي أُجرةً لرحلة العودة".

آلمَته تلك الكلمات إيلامًا شديدًا، ولكنّه لم يستسلم أمامها. فرفع ذقنها قائلًا: "انظُري إليّ، يا أماندا. لن أُعيدَكِ إلى هناك أبدًا. كلّا البتّة! فنحن ننتمي أحدُنا إلى الآخر".

"أنت مجنون، يا مايكل هوشع. مجنون أعمى مسكين". وارتعشت ارتعاشًا شديدًا.

فنهض مايكل ليُحضِر لها حِرامًا جافًّا. ولمّا التفتَت، كانت عيناها عليه، وكانتا مملوءتين خوفًا. فقال عابسًا: "ما الأمر؟ هل تعتقدين أنّني أقصد أن أؤذيكِ؟"

أغمضت عينيها بشدّة. "إنّك تُريد ما ليس عندي. لا يمكنني أن أُحبّك. حتّى لو أمكنني ذلك، ما كنتُ لأُحبّك".

انحنى ونزع عنها الحِرام الرطب وغطّاها بالدّثار الجافّ. "ولمَ لا؟"

"لأنّي قضيت أوّل ثماني سنين من حياتي وأنا أُراقب أُمّي تُعاقِب نفسها لأنّها أحبّت رجلًا".

فأمسك بذقنها وقال بحزم: "الرجُلَ الغَلَط. أنا لستُ الرجُلَ الغلط يا أماندا". ثمّ اعتدل ودسّ يده في جيبه. وإذ ركع أمامها، مدّ يده تحت الدّثار وأمسك بيدها، ثمّ ردّ خاتم زواج أُمّه إلى إصبعها، قائلًا: "لِنُبقيَ الأمر رسميًّا فحسْب". ثمّ مسّ خدّها برقّة وابتسم.

دلّت رأسها وردّت يدها إلى تحت ثنايا الصوف الكثيفة، ثمّ كوّرتها على صدرها وأحسّت كلّ خدش ورضّ أنزلته بنفسها، ولكنّ الشعور الناشئ في داخلها كان أسوأ بكثير جدًّا.

فإنّ الشرارة كانت آخذةً في التحوّل إلى نار.

ثمّ أتى مايكل بخرقة ونشّف شعرها. ولمّا فرغ من ذلك، شدّها إليه واحتضنها بين ذراعيه، هامسًا في أُذنيها: "لحمٌ من لحمي، ودمٌ من دمي".

أغمضت آنجل عينيها بإحكام. إنّ رغبته فيها ستتناقص على مرّ الأيّام. سيكفّ عن حبّها كما كفّ والدها عن حُبّ أُمّها. وإن هي سمحت لنفسها بأن تحبّ مايكل كما أحبّت ماما أليكس ستافورد، فإنّه سيفطر قلبها ويسحقه.

لستُ أُريد أن أبكي على حالي لأجلس على سرير مُغضّن وأشرب لأبدّد حياتي.

وأحسّ مايكل ارتعاشها، فقال: "لا يمكنني أن أطردكِ بغير أن أقطع نفسي نصفين. فأنت قد صرتِ جزءًا منّي". ومرّر شفتيه على صدغها. "سنبدأ من جديد. سنضع ما جرى وراء ظهرَينا".

"أنّى لنا ذلك؟ ما جرى قد جرى. إنّه كلّه في داخلي، منقوشًا في حجر".

"إذًا، سنحفر ونُخرِجه وندفنه." فضحكت ضحكةً فاترة عديمة المرح. "سيكونُ عليك أن تدفنني أنا".

فابتهج قلبه، وقال: "حسنًا، سنُعمِّدكِ". ليس بالماء فقط، بل بالروح، إن هي سمحَت بذلك. وقبَّل شعرها، وضمَّها. فكان مدعاةً للسخرية أنَّه شعر بمدى قُربه منها الآن، بأنَّه أقربُ ممَّا كان في أيِّ وقتٍ مضى. ثمَّ مسَّد شعرها إلى الوراء، قائلًا: "تعلَّمتُ منذ زمن بعيد، يا أماندا، أنَّنا قلَّما نُسيطر على الأمور في هذه الدنيا. فهي ليست مِلكَ أيدينا. إنَّها خارج نطاق سيطرتنا. مثل ولادتك أو بيعكِ للبغاء في سنِّ الثامنة. فكلُّ ما يمكننا تغييرهُ هو طريقة تفكيرنا ونمط حياتنا".

تنهَّدت تنهُّدةً مرتعدة. "وأنت عقدتَ عزمك على إبقائي عندك زمانًا".

فقال مربِّتًا بَشَرتها برقَّة: "ليس زمانًا محدودًا، بل دائمًا. وأنا أرجو أن تعقدي عزمك على البقاء. ومهما قال لكِ أو فعل بكِ أيُّ شخصٍ آخر، فالقرار بيدكِ الآن. وفي مقدورك أن تقرِّري الوثوق بي".

تأمَّلت وجهه مُرتابةً: "بهذه البساطة؟"

"نعم، بهذه البساطة. كلَّ يوم بيومه".

فتفحَّصته بنظرها قليلًا، ثم أومأت برأسها. لطالما كانت الحياة بالطريقة الأُخرى أثقل من أن تُطاق، فلماذا لا تُجرِّب طريقة مايكل؟

ربَّت خدَّها بإبهامه، وقبَّل فمها. فلانت شفتاها تحت شفتيه، وتشبَّثت بصدر قميصه. ولمَّا رفع فمه عن فمها، ألقت خدَّها على صدره. وأحسَّ جسدها يسترخي تمامًا داخلَ جسدِه.

أغمض مايكل عينيه. يا ربّ، سامِحني، قلتَ لي: اذهبْ إليها، وسمحتُ لكبريائي بأن تعترض في طريقي. قلتَ لي إنَّها محتاجةٌ إليَّ، وأنا لم أُصدِّق. قلتَ لي: أحبِبْها، وحسبتُ أنَّ الأمر سيكون سهلًا. ساعِدني! افتحْ قلبي وعقلي حتَّى أحبَّها كما أحببتني أنت.

كانت النار تُفرقِع على مهل، وتنامى دفءٌ ثابت داخلَ مايكل وهو يضمُّ زوجته الشابَّة. وحينًا، ضمن نطاق تنهُّدةٍ مرتعدة، لم يعُد يُفكِّر بها على أنَّها آنجل- الزانية التي أحبَّها والتي قد خانته- بل رآها بالحريِّ على أنَّها تلك الفتاة الصغيرة المغمورة التي سُحِقت وما تزال مفقودة.

الفصل

السابع عشر

أنتم رسالتنا... مكتوبةً لا بحبر، بل بروح الله الحيّ،
لا في ألواحٍ حجريّة، بل في ألواح قلبٍ لحميّة.

(رسالة كورنثوس الثانية ٣: ٢ و ٣)

كانت المغفرة كلمةً غريبة، نعمةً تفوق التصوُّر. وقد أرادت آنجل أن تعوّض عمّا فعلته، وسعت إلى القيام بذلك من طريق الأعمال. فإنَّ ماما لم تنلِ المغفرة قطّ، ولا حتّى بعد تلاوة "السلام عليك يا مريم" و "أبانا الذي في السماوات" ألفَ مرّة. إذًا، كيف يمكن لآنجل أن تنال المغفرة بكلمةٍ واحدة؟

من ثَمَّ دأبت آنجل في العمل كي تُعوِّض على مايكل. فإذا فرغت من أشغالها المعتادة، فتّشت عنه وطلبت تكليفها المزيد. وإذا حرث، سارت وراءه ونزعت الحجارة الكبيرة ونقلتها إلى رجمة الحجارة القائمة سُورًا بين الحقول. وإذا قطع الأشجار، شذّبت الأغصان بفأسٍ صغيرة، وكوّمتها وربطتها حُزَمًا، وكدّستها داخل الحظيرة كي تيبس وتصلح للوقود. وإذا شقّق الحطب، كدّسته. حتّى إنّها كانت تحمل مجرفة لتُساعِده على اقتلاع جدعة كلّ شجرة يقطعها.

إنّه لم يطلب منها قطُّ أن تعمل أيَّ شيء، فكانت تطلب أشياء تعملها له.

وعند هبوط الليل، تكون مُنهكةً ولكنّها لا تقعد خاملةً. فالخمول جعلها تشعر بالذنْب. وبدل أن يُسرَّ بها، تبيَّن لها أنّه يتباعد عنها يومًا بعد يوم. وقد كان هادئًا ويَقِظًا ومستغرقًا في التفكير. أكان قد بدأ يندم على تهوُّره بإرجاعها إلى البيت؟

وذات مساء، صارعت إعياءها وهو يقرأ. كان صوته عميقًا وغنيًّا، ومن فرط إرهاقها كاد النعاس يغلبها فيما قاومت لإبقاء عينيها مفتوحتين. فأطبق الكتاب وأعاده إلى مكانه على الرفّ.

"إنّكِ تُجهِدين نفسكِ بالعمل".

دفعت نفسها لتعتدل بعض الشيء، ونظرت إلى القطعة التي ترتقُها بين يديها. فإذا يداها ترتجفان. "لم أتعوَّدْ بعدُ هذا النوع من العمل".

"لديكِ عملٌ يكفيكِ بغير أن تحسبي أنَّ عليكِ أن تتولّي نصف ما أعمله أنا أيضًا. إنَّكِ تكادين تقتلين نفسك من فرطِ الإجهاد".

"أعتقد أنَّ عِشرتي ليست مؤنسةً جدًّا".

وما إن وضع مايكل يده على كتفها حتّى أحسَّ إجفالها. "إنَّ جسمَكِ كلَّه يؤلمكِ من نقلك تلك الحجارة أمس، وهذا الصباح جرفتِ الزِّبل من المَربِط".

"احتجتُ إليه لتسميد الحديقة".

"قولي لي فأتولّى الأمر!"

"لكنّكَ قلت إنَّ الحديقة من مسؤوليّتي".

لم يكن من نفعٍ في مكالمتها، إذ كانت مصمّمةً على معاقبة نفسها. "سأخرج لأتمشّى قليلًا، فأخلِدي إلى النوم".

ثمَّ صعد إلى التلَّة وقعد مُلقيًا ساعدَيه على ركبتيه. "تُرى، ماذا أفعل الآن؟" فلا شيء بقي كما كان قبلًا، وكأنَّهما كانا يسيران جنبًا إلى جنب، بغير أن يتلامسا أو يتحادثا أبدًا. وهيَ قد جرحت نفسها جرحًا واسعًا وسكبت أحشاءها إلى الخارج أمامه ليلةَ عاد بها إلى البيت. وها هي الآن ممدَّدةٌ تنزف حتَّى الموت ولا تسمح بأن يأتيها الشفاء. وقد أمِلَت أن تسرَّه بانصرافها إلى العمل كجارية، فيما لا يبتغي هو سوى محبَّتها.

دسَّ أصابع يده في شعره وأمسك رأسه. إذًا، ماذا أفعل، يا رب؟ ماذا أفعل؟

اِرعَ حَمَلي!

"كيف؟" قالها مايكل لسماء الليل.

ولمَّا دخل الكوخ بهدوء، رآها نائمةً على الكرسيّ. فحملها برفق ووضعها على السرير. وقد بَدَت بالغةَ الحداثةِ والانكشاف. كم كانت تبعد عن الفتاة الصغيرة التي اغتُصِبت في سنِّ الثامنة؟ ليس كثيرًا. فلا عجب إن كانت لم ترَ قطُّ أيَّة علاقة بين الجنس والحبّ. وكيف يمكنها ذلك؟ لقد علم أنَّه لم يعرف نصفَ ما قاسته. وعلم أنَّ الوحيد القادر على إصلاح حياةٍ ممزَّقة هو الله، وهي لم تُرِد أيَّ دورٍ له.

كيف أُعلِّم فتاةً مجروحة أن تثق بك والأبُ الوحيد الذي عرفته كرهها وأراد لها الموت؟ كيف أُعلِّمها أنَّ العالم ليس رديئًا كلّه ورجُل الدين طرد أُمَّها؟ ربِّ، لقد بيعت عبدةً لرجُل يبدو مثل الشيطان بعينه. فكيف أُقنِعها أنَّ في العالَم ناسًا صالحين وكلُّ من تعرَّفت به قد استغلَّها ثمَّ دانها على ذلك؟

رفع مايكل خُصلةً من شعرها الباهت وفركها بين أصابعه. لم يكن قد أقام علاقة

حُبٌّ معها منذ أرجعها إلى البيت. ووَدَّ لو يفعل ذلك الآن. فقد تاق جسدُه إليها. ولكنَّه عاد فتذكَّر صوتها الخالي من الحياة حين قالت إنَّ "دُوك كان يهوى البنات الصغيرات"، فتبخَّرت رغبتُه.

فيمَ كانت تفكِّر كلَّ تلك المرَّات التي اختلينا فيها؟ أكُنتُ تمامًا مثلَ الآخرين، مُستوفيًا متعتي على حسابها؟

طالما بَدَت قويَّةً جدًّا. وقد كانت كذلك: قويَّةً قوَّةً كافية لتلقِّي ما لا يوصف من الظُّلم والعَسْف، والبقاءِ على قيد الحياة؛ قويَّةً قوَّةً كافية للتكيُّف مع أيِّ شيء؛ قويَّةً قوَّةً كافية لحبس نفسها داخل أسوارٍ حسِبَت أنَّها ستوفِّر لها الأمان. فأيُّ خيارٍ كان لها إذًا؟ بل كيف تستوعب مجرَّدَ استيعابٍ ما قدَّمه لها الآن؟

لقد كانت طفلةً فحسْب، يا ربّ. لماذا سمحتَ بحصول ذلك؟ يا يسوع، أنا لا أفهم. لماذا؟ أليس من المُفترَض أن تحميَ الضعفاء والأبرياء؟ فلماذا لم تَحمِها؟ لماذا لم تُساعِدها؟ لماذا؟

كيف كانت آنجِل مختلفةً في أيِّ شيء عن جُومَر زوجة هوشع التي باعها أبوها للنبيّ؟ طفلة بغاء، زانية! وهل تمَّ افتداء جومر بفضل حُبِّ زوجها؟ لقدِ افتدى الله شعبه غير مرَّة. لقد مات المسيح لافتداء البشر. ولكنْ ماذا بشأنِ جُومَر، يا ربّ؟ ماذا بشأنِ زوجتي؟

ارعَ حَمَلي!

ما برحتَ تقول لي هذا، ولكنّي لا أعرف كيف. لا أعرف ماذا تقصد. أنا لستُ نبيًّا، يا ربّ. أنا فلَّاح بسيط. لستُ على مستوى المهمَّة الَّتي عيَّنتَها لي. لم يكن حبِّي كافيًا يومًا. ما تزال زوجتي في الهوّة، وهي تموت. أمدُّ إليها يدي، فتأبى أن تمسك بها. وستقتل نفسها مُجاهِدةً أن تكسب حبِّي فيما هو لها فعلًا.

توكَّل عليَّ بكلِّ قلبك، وعلى فهمك لا تعتمد!

إنَّني أُحاول أيُّها الربُّ يسوع. إنَّني أُحاول.

قعد مايكل مكتئبًا على حافة السرير. وانزلقت تنُّورة تَسِّي متكوِّمةً على الأرض. فالتقطها وتأمَّل النسيج المهلهل. ثمَّ أعاد التنُّورة متجهِّمًا إلى السرير. ثمَّ التقط البلوزة البالية وتأمَّلها، وتلمَّسها بأصابعه فركًا. أوَّلَ مرَّة صعد إلى آنجِل في علِّيَّتها كانت ترتدي الساتان والمخرَّم. وها هو الآن يكسوها خِرَقًا، ليست حتَّى مِلكًا لها بل لأُخته المُتوفَّاة. لم تكن أماندا مرَّةً قد طلبت ما تستبدله بهذه الثياب، وما انفكَّ هو مُستغرِقًا

تمامًا في أفكاره وأعماله الرتيبة بحيثُ فاته تخصيصُ وقتٍ لذلك. حسنًا، لا بدَّ أن يتغيَّر الوضع. فلم يكونا بعيدَين كثيرًا جدًّا عن سكرامنتو بحيث يتعذَّر عليهما أن يقوما برحلة لرؤية جوزف هُكشايلد، ولا بدَّ أن يكون قد تموَّن جيِّدًا بكلِّ ما تحتاج إليه العائلاتُ المُتدفِّقة بكثرة، وذلك بفضل عقله الحادّ الذكاء والمتمرِّس بشؤون التجارة.

ذهب مايكل إلى پول ، وطلب منه أن يعتني بالماشية والمحصول في أثناء غيابه مع أماندا. ولدى ذِكر اسمها، شحب وجه پول.

"هل أرجعتها؟"

"نعم، لقد أعدتُها إلى البيت".

لزم پول الصمت، وتصلَّبت قَسَمات وجهه، لمَّا ذكَّره مايكل بأنَّ أماندا هي زوجته. ووافق پول أن يتولَّى الشؤون عنه.

وقال مايكل: "سأُسوِّي حسابنا مع جوزف في أثناء وجودنا في سكرامنتو".

"أشكرُكَ على كلِّ حال، ولكنَّني سأتولَّى بنفسي تسوية حسابي معه".

فتردَّد مايكل، ثمَّ أومأ برأسه موافقًا. وقد شعر بأنَّ الهوَّة بينهما آخِذةٌ في الاتِّساع، ولا سيَّما لأنَّ پول كان ذا كبرياء متصلِّبة لا تُطاق، وقدِ ارتكب ذنبًا شنيعًا بحقِّه.

حمَّل مايكل العربة بأكياس بطاطا، وصناديق بصل، وأقفاص تُفّاح شتويّ، فيما كانت أماندا واقفةً في باب الحظيرة، وقد لفَّت شالها على كتفيها. ولم تسأل أيَّة أسئلة.

وبينما مايكل يسحب غطاء العَرَبة السميك فوق المحصول، قال: "سيعتني پول بالماشية وباقي الشؤون".

"يمكنني أنا القيام بذلك. لم يكن من داعٍ لأنْ تطلب منه".

"ستذهبينَ معي". وكان واضحًا أنَّ ذلك فاجأها، فابتسم مُضيفًا: "اصنعي مزيدًا من البسكويت هذا المساء. سنأخذ بضع عُلَب فاصوليا، وننطلق صباح غد".

غادرا عند شروق الشمس. وقلَّما تكلَّمت أماندا في الطريق. وتوقَّفا عند الظهر للغداء، ثمَّ استأنفا الرحلة، وظلَّ مايكل يسوق حتَّى كاد ظلام الليل يهبط، فتنكَّب عن الطريق وهيَّأ مبيتًا على بعد نحو ثلاثين مترًا. وكان الجوُّ باردًا والسماء صافية. فأخذت أماندا تجمع حطبًا، فيما حفر مايكل حفرة واسعة ونصب فوقها غطاءً مائلًا. وبعدما تناولا العشاء، وضع جمرًا متوهّجًا في الحُفرة، ثمَّ مدَّ فوقه طبقة من التراب

غطّاها بعيدانِ صنوبر ونشر عليها شادرًا تحت الحِرامات. فاندسَّت آنجل في الفراش شاكرةً، والألمُ سارٍ في جسمها كلّه من جرّاء رجرجة العربة.

وعوى ذئبٌ صغير، فاقتربت آنجل إلى مايكل، فطوّقها بذراعه والتصقت هي به، وتناسبا كأنّهما قطعتا أُحجية رُكِّبتا في مكانهما. ثمّ انقلب صوبها وقبّلها داسًّا أصابعه في شعرها، إلّا أنّه انكفأ على ظهره بعد هُنيهة، واستلقى يتأمّل النجوم.

وابتعدَت عنه آنجل قائلةً: "إنّك لم تعُد تريدُني، أليس كذلك؟"

فتكلّم وهو لا ينظر إليها: "أريدُكِ فعلًا وحقًّا. إنّما لا يمكنني الكفُّ عن التفكير في ما ابتُليتِ به في صِغَرك".

"ما كان ينبغي أن أُخبِرَكَ بأيِّ شيء".

فأدار رأسه صوبها. "ولِمَ لا؟ أحتّى أستمرَّ في استيفاء متعتي بغير أن أفهم البتّة ما يُكلّفكِ ذلك؟"

"إنّه لا يكلّفني شيئًا، يا مايكل. لم يعُد يكلّفني شيئًا".

"إذًا لماذا كان عليّ إرغامُكِ على التلفُّظ باسمي؟"

لم تستطع أن تُجيب عن ذلك.

انقلب مايكل صوبها، وربّت وجهها برفق. "أُريد حُبّكِ، يا أماندا. أُريد أن تُحِسّي المتعة التي أُحِسُّها عند ملامستك. أُريد أن أُمتِّعكِ بمقدار ما متّعتِني".

"أنت دائمًا تطلب الكثير".

"لا أعتقد ذلك. إنّما أعتقد أنّ الأمر سيستغرق وقتًا. فإنّ تعرُّفنا الواحد بالآخر لا بدّ أن يستغرق وقته، ولا بدّ لنا من الثقة".

حدّقت أنجل إلى السماء المرصّعة بالنجوم. "أعرف حمائم مُدنّسة وقعنَ في الغرام، ولم يُفلِحن قطّ".

"لماذا؟"

"لأنهنّ صرنَ مُستحوِذاتٍ مثل ماما تمامًا، وكنّ بائساتٍ مثلها أيضًا". فقد عدّت آنجل نفسها محظوظةً لافتقارها إلى القدرة على الحبّ. وكانت تعتقد أنّها أحبّت ذات مرّة، ولكنّها إنّما كانت متوهّمة. فحتّى جوني تبيّن أنّه لم يكن سوى وسيلةٍ للهروب.

"لم تعودي مُومِسًا، يا أماندا. أنتِ زوجتي". ابتسم مايكل بكآبة مداعبًا خصلةً من شعرها الأشقر. "يمكنكِ أن تحبّيني بقْدر ما تشائين وأنتِ تشعرين بالأمان".

كان معنى الوقوع في الحبّ أن تفقد السيطرة على عواطفك وإرادتك وحياتك.

كان معناه أن تفقد ذاتك. ولم يكن في وسع آنجل أن تغامر بذلك ولو مع هذا الرجُل.

سألها: "بمَ تشعرين عندما ألمسكِ؟" ممُرِّرًا طرف إصبعه على خدِّها نزولًا.

نظرت إليه. "بمَ تريد منّي أن أشعر؟"

"انسَي ما أُريده. ماذا يجري في داخِلكِ؟"

علمت أنَّه سينتظر حتَّى تُجاوبه، وعلمت أنَّه سيعرف إذا كذبت.

"أنا لا أشعر بأيِّ شيءٍ حقًّا".

ظلَّ يمسُّ وجهها، وهو عابس. وقد راقه ملمس بشرتها الناعمة الغضَّة. "عندما ألمسكِ، ينبض جسدي كلُّه بالحياة. وأشعر بالدفء يشيع في أوصالي كلِّها. ولا يمكنني حتَّى وصفُ الروعة التي أشعر بها عندما نقيم علاقة الحبّ".

أشاحت بنظرها من جديد. أكان عليه أن يتحدَّث عن ذلك؟

وقال: "علينا أن ندبِّر طريقة لمساعدتكِ على التمتُّع بالأمر بمقدار تمتُّعي به"، ثمَّ استلقى بجانبها مجدَّدًا.

"أيهمُّ الأمرُ إلى ذلك الحدّ؟ ولماذا ينبغي أن يهمَّ أصلًا شعوري بأيِّ شيء أو عدمُه؟"

"إنَّه يهمُّني أنا. فالتمتُّع مقصودٌ به أن يكون مشتركًا". وطوَّقها بذراعه. "تعالي. دعيني أضمَّكِ فحسْب".

دارت لتُلقيَ رأسها على كتفه واسترخَت، وألقَت ذراعها على صدره العريض، فإذا به شديدُ الدفء والصلابة. وقالت: "لا أدري لماذا يَعنيكَ الأمر". فلا أحد سواه عُني قطُّ بما فكَّرت فيه أو شعرت به، ما دامت تعمل ما يُتوقَّع منها أن تعمله.

"يَعنيني لأنَّني أُحبُّكِ".

لعلَّه لم يفهم حقائق الحياة تمامًا. لعلَّه كان يتصرَّف بتأثير وهمٍ ما. "لا ينبغي للنساء أن يستمتعن بالجنس حقًّا، يا مايكل. فهو فِعلٌ صِرف".

"أقال لكِ أحدٌ ما ذلك؟"

"أقلاء".

"رجلٌ أوِ امرأة".

"كلاهما".

"حسنًا، إنَّما أعلمُ أنَّ الربَّ لم يقصد أن يكون الأمر كذلك".

فضحكت ضحكةً ساخرة: "الله؟ كم أنت ساذج! إنَّ الجنس هو الخطيئة الأصليَّة الكبيرة. فإنَّه طرد آدم وحوّاء من الجنَّةِ حالًا بسبب ذلك".

إذًا، هي تعرف شيئًا ما عن الكتاب المقدَّس. وربّما أخذته عن أُمّها. ولها أيضًا رأيُها اللاهوتيُّ غيرُ القويم. "ليس للجنس أيَّة علاقة بسبب طردهما من الجنَّة. فخطيئة حوّاء كانت في محاولتها أن تصير إلاهةً. لذلك أرادت الثمرة المحرَّمة، حتَّى تعرف كلَّ شيء وتغدو مثل الربّ. ولقدِ انخدعت. وكان آدم ضعيفًا وجاراها في ما قالت بدل أن يَمتثِل لما أوصى به الله".

ابتعدت آنجل قليلًا، وحدَّقت إلى فوقُ من جديد. وتمنَّت لو أنَّها لم تستحضر الموضوع. "صحيحٌ ما تقول. فأنت الخبير".

فابتسم. "لقد درستُ الكتابَ المقدَّس قبل أن ألتقيَكِ تلك المرَّةَ الأُولى".

فرمقته بنظرة تعجُّب. "أقال لك كتابُك ما تفعل؟"

وضحك. "لم تكن المشكلة في معرفة ما أفعل. إنَّما همَّني كيف أفعلُه. فقد قال لي سِفر نشيد الأنشاد إنَّ المقصود لتمتُّع الرجل والمرأة أن يكون متبادَلًا". ثمَّ تلاشتِ ابتسامتُه وبدا عليه الاضطراب إذ قال: "بَرَكة مُشترَكة".

انكفأت آنجل عن معانقته، ورفعت نظرها نحو النجوم. لقد أزعجها أن يتكلَّم عن الله، ذلك الكائن بذاته العظيم المهيمن على الكون والذي يراقبها. قالت ماما إنَّ الله قادر أن يرى كلَّ شيء، ولو حين يكون المصباح مُطفأً، ولو حين تكونين مع أحدهم في سرير واحد. وقالت إنَّ الله يعرف حتَّى ما تُفكِّرين فيه. فإنَّه "جاسوس السماء" العظيم يختلس السمع متنصِّتًا إلى كلِّ فكرةٍ من أفكارها.

ارتعدت آنجل. روَّعتها ظلمةُ سماء الليل المُتمادية. وبدا كلُّ صوتٍ مكبَّرًا ومُنذِرًا بالشؤم. فليس في الحقيقة أحدٌ هنالك في الأعالي؛ أم هنالك أحد؟ لقد كان ذلك كلُّه في ذهن ماما. وهو كلُّه في ذهن مايكل.

أليس كذلك؟

"أنتِ ترتجفين. هل تشعرين بالبرد؟"

"لستُ متعوِّدةً أن أنام في العراء".

جذبها مايكل إليه ودلَّها على كوكبة الجبّار والدبّ الأكبر والفَرَس الأعظم. وأصغت آنجل إلى رنين صوته العميق. لم يكن منزعجًا من الظُّلمة ولا من الأصوات؛ وبعد قليلٍ وهي بين ذراعيه، لم تعُد هي أيضًا منزعجة. وبعد نومه بوقتٍ طويل، ظلَّت مستلقيةً وهي مستيقظة تتأمَّل الصُوَر التي رسمها لها في سماء الليل. غير أنَّ ما لم تستجرئ أن تفكِّر فيه كان هو الله.

انطلقا بُعيدَ الفجر صباحَ الغد. وعندما هبطا السُفوح، وجدا العشب زاهي الاخضرار بفضل مطر الخريف. وقد رصّعت المروجَ أشجارُ سنديان ضخمة. وأقبلت مركبةٌ عموميّة صاعدةً التلَّ وأحصنتُها تعدو بأقصى سرعتها. فمال مايكل على آنجل ليحميَها فيما المركبة تمرُّ هادرةً مُطرطِشةً الوحل في طريقها.

ولمّا وصلا ضواحيَ سكرامنتو، أدهش آنجل ما شاهدَته. فقبلَ سنة واحدة سافرَت عبر مستوطنةٍ حاشدة ملأى بالخِيَم والألواح، بصحبة الدوقة وماي لِنغ ولاكي. وها هي الآن في مدينةٍ كبيرةٍ تبدو عليها مظاهر الاستقرار. فالشوارع تعجُّ بالعربات والمُشاة. وكان بعض الرجال يبدون ميسورين في بزّاتهم، فيما بدا آخرون أنّهم قد جاؤوا توًّا من أراضي التنقيب عن الذهب وأكياسُهم ورفوشُهم على ظهورهم المقوّسة. وكان هنالك أيضًا بعض النساء بفساتينهنّ الكَتصوفيّة الداكنة وكاپاتهنّ الصوفيّة، ومع قلّةٍ منهنّ أولاد.

وبينما مايكل يسوق العربة نزولًا في شارعٍ عريضٍ ، شاهدت آنجل فندقًا كبيرًا ومطعمين وستَّ حانات، ودُكّان حلّاق يقف أمامه رجالٌ في صفّ، ومكتب عقارات. وعند مُجمَّع المباني التالي ظهرت شركة بناء ومتجر خُردَوات معروضٌ فيه بنطلونات دَنيم[١٥] ومعاطف سميكة وقُبّعات عريضة الأطراف. وإلى يسار آنجل، بدا مخزن مُعدِّنين متنوِّعُ البضائع، ومسرح، ومكتبٌ لتحليل المعادن. وفي الجهة المقابلة مبنىً من طابقين يعرض دِلاءً ومسامير وشريطًا شائكًا ونِعال أحصنة. وبعد ذلك مزيدٌ من دكاكين أدوات التعدين ومخزن حبوب، يليها مخزنٌ لعجلات العربات والبراميل. وكان فوقَ عشرة رجال مُصطفّين على رصيف خشبيٍّ أمام صيدليّة عُلِّق على جدارها إعلانٌ عن مُسكّنات.

ثمّ مرّت مركبةٌ عموميّة أُخرى، مُطرطشةً مزيدًا من الوحل.

وبينما مايكل ينعطف لينزل شارعًا آخر، قال لآنجل: "لقد قال لي پول إنّ جوزف على مقربة من النهر تحتُ، ممّا يُسهّل عليه الحصول على بضائعه من السفن الآتية من سان فرنسيسكو عبرَ النهر".

ولاحظ مايكل كيف كان الرجال يتطلّعون إلى آنجل طيلة مرورهما وسط المدينة. فقد كانت جوهرة نادرة في مدينة وحول. وكانوا يتوقّفون ويحدّقون إليها، ويهمّون برفع قبّعاتهم احترامًا رغم المطر الذي بدأ يهطل، فيما هي قاعدةٌ إلى جانبه مستقيمةَ الظهر، عالية الرأس، غير مكترثةٍ بتاتًا. فمدَّ مايكل يده من فوقَ المقعد، وتناول الحِرام قائلًا:

---

١٥) الدنيم: قماش قطني متين.

"لفّي هذا حولكِ، فيُبقيَك دافئةً وجافّةً". ومع أنّها لم تلتفت كثيرًا لتتمكّن من أن تنظر إليه، فقد لمح الانزعاج في تعابير وجهها وهو يُلقي الحِرام على كتفها.

شاهدت آنجل صواريَ سُفن قُبالتَهما، وانعطف مايكل إلى شارع مُحاذٍ للنهر. وإذا بمخزن هُكشايلد في جوار حانةٍ كبيرة وحجمُه ضعفا متجره في پيرأدايس، وقد عُلِّقت فوق بابه لافتة مُفاخِرة: "عندنا كلُّ ما يوجد تحت الشمس". فأوقف مايكل العربة قبالة المخزن وشدَّ المكابح. ثمّ قفز مترجِّلًا، ودار وأنزل آنجل عن المقعد العالي حاملًا إيّاها فوق الوحل إلى الرصيف الخشبيّ.

خرج من المتجر شابّان، ما إن شاهدا آنجل حتّى سكتا عن الكلام. ثمّ رفع كلاهما قبّعته ووقفا يُحملِقان كصنمين جاحِظَي العينَين، بغير أن يلاحظا مايكل وهو يكشط الوحل عن حذائه. ولمّا رفع نظره، ابتسم وأمسك بذراعها. "لو سمحتُما، يا سيّديَّ!"

فاعتذرا مُتَلعثِمَين وأخليا المدخل.

وإذ لمحت آنجل مِدفأةً ضخمةً في مؤخَّر المخزن، قالت لمايكل إنّها ستستدفئ فيما يهتمّ هو بشؤون العمل. ورفعت نظرها إلى حيثُ كان جوزف واقفًا على سُلّم يتناول مُعلَّباتٍ عن رفٍّ عالٍ ويُسقِطها إلى مُعاوِنٍ يضعها في صندوق لأجل زبون ينتظر. ولاحظتِ الشابَّينِ يعودان إلى داخل المتجر، فيما مايكل يشقُّ طريقه بمحاذاة بضع طاولات معروضٍ عليها أدواتٌ وأوانٍ منزليّة وجاكيتات وأحذية، كي يصل إلى النُضُد.

"أيُّ بقّالٍ أنت؟ ليس في محلّك رأسُ بطاطا واحد!" نظر جوزف إلى تحتُ مُجفَلًا، ثمّ ابتسم ابتسامةً عريضةً وهو على رأس السلّم. "مايكل!" وهبط السلّم بخفّة رشيقة، ومدَّ يده مُصافِحًا. ثمّ أوصى مُعاوِنَه بتكملة الطَّلبيّة، واصطحب مايكل إلى ناحية. وألقى نظرةً صوب آنجل، ثمّ نظر ثانيةً والدهشةُ باديةٌ عليه. فالتفت مايكل ورمقها مبتسمًا، وقال لجوزف شيئًا غامزًا إيّاها بعينيه.

أشاحت آنجل وجهها، واقفةً أقربَ ما يمكنها بقرب المدفأة. وتقدَّم أحد الشابَّين ليقف بقربها. فتجاهلَته، إلّا أنّها استطاعت أن تلمحه محدِّقًا إليها. وانضمَّ الشابُّ الآخر. فشدَّت شالها عليها بمزيدٍ من الإحكام ونظرت إلى كليهما نظرةً باردة، آملةً أن يفهما من الإشارة ويدعاها وشأنها. وقد كانا نحيلين، وعلى معطفَيهما رُقَع.

قال أحدهما: "أنا پيرسي". وكان ناعم الخدَّين كالآخر، إلّا أن بشرته مُسْمَرَّة اسمرارًا شديدًا. "عَدتُ لتوّي من منطقة طُيولومْن. آسِفٌ لتحديقي، ولكنْ قد مرَّ عليَّ شهرٌ من أيّام الأحد منذ رأيتُ آخِرَ سيّدة!" وأومأ برأسه نحو رفيقه. "هذا شريكي، فِيرغَصُن".

نظرت آنجل إلى فِيرغَصُن، فتورَّد خدَّاه. وفركت ذراعها مُحاولةً أن تُلطِّف رِجفة البرد، متمنِّيةً أن يبتعدا عنها. فلم يَعنِها مَن كانا، ولا من أينَ هُما، ولا ما كانا يعملان. وقد قصدت بصمتها أن تثبِّط همَّتهما. إلَّا أن پيرسي فَهِمه تشجيعًا، فمضى يتحدَّث عن بيته في ولاية پنسلڤانيا، وعن أُختَيه، وإخوته الثلاثة الأصغر سنًّا، وأبيه وأُمّه، الذين غادرهم جميعًا.

قال: "كتبتُ إليهم مرارًا وأخبرتهم بجودة هذه الأرض البالغة. وهم يُفكِّرون في المجيء إلى هنا مُصطحِبين عائلة فِيرغَصُن".

أقبل مايكل نحوهم، وعلى وجهه تعابير غامضة. فخشِيَت آنجل أن يحسبها تعرض خدماتها. ودسَّ يده تحت ذراعها مُتملِّكًا، إلَّا أنَّه تبسَّم. وتعرَّف إليه پيرسي، ثمَّ تبعه فِيرغَصُن. "نأمل ألَّا تُؤاخِذنا على محادثة زوجتَك يا سيِّد".

"كلَّا مُطلقًا! ولكنَّني كنتُ على وشك أن أطلب منكما معروفًا بمساعدتي على إفراغ حمولة عَرَبتي". فوافقا بطيبة خاطر، وسرَّ آنجل أن تراهما يمضيان. ورمقت مايكل بنظرةٍ لتستطلع مزاجه، فابتسم قائلًا: "كانا غير مؤذيَين، ومُستوحِشَين. ولو نظرا إليك كما ينظر الجائع إلى شريحة لحم، لربَّما اجتاحني مَيلٌ إلى لَكْم رأسَيهما بعنف. ولكنَّهما لم يكونا كذلك؛ أم كانا؟"

فضحكت ضحكةً فاترة هازئة، وقالت: "لا! وقد قال أحدُهما إنَّه لم يشاهد سيِّدةً من زمان طويل".

وأومأ برأسه نحو بِضع طاولات، قائلًا: "حسنًا، أنت سيِّدة متزوِّجة. لدى جوزف بعضُ الثياب التي أُريد منكِ أن تَرَيها. انتقي منها ما شئتِ". واقتادها بين طاولاتٍ كُدِّست عليها أدوات التَعدين، ثمَّ توقَّف أمام طاولة عليها أكداس عالية من الأقمشة الملفوفة، قائلًا: "ما يكفي لتخييط ثلاثة فساتين". ثمَّ مضى لمساعدة الشابَّين على التفريغ.

وإذ فكَّرت في ما قد يروق مايكل، انتقَت لفافةَ قماش من الكتصوف الرماديِّ الداكن وأُخرى ذات لون بُنِّيّ. ولمَّا عاد مايكل، لم يبدُ مسرورًا باختيارها. "إنَّ مجرَّد كون تَسّي قد لبست البنّيِ والأسود لا يعني أنَّ عليكِ أن تحذي حذوها". ثمَّ طرح ثوبَي القماش على طاولة أُخرى، وسحب من الأسفل ثوبًا من الكَتصوف الأزرق الفاتح، قائلًا: "هذا يُناسِبكِ أكثر".

"إنَّه أغلى".

"يمكننا دفع ثمنه". وسحبَ لفافةً أُخرى بلون الصدأ الخفيف، وأُخرى من النسيج

الأصفر المربَّع النقش مناسِبةً لها. ثمَّ سحب ثوبًا أخضر زاهيًا وآخرَ من القماش القطنيّ المضلَّع المزهَّر. وأحضر جوزف ثوبَين آخرين من القطن المُزَهَّر. "عندي هذان فقط. وسيأتيني المزيد. فأنا أخزن بقدْرِ ما أستطيع. إنَّ الأزواج يُحضِرون زوجاتهم وأولادهم الآن". ثمَّ أومأ برأسه مُحيِّيًا، وابتسم لها. "مرحبًا بكِ، يا آنجل! يسرُّني أن أقابلكِ مجدَّدًا. عندي صندوق أزرار، وثوبٌ من القماش الشفَّاف، واثنان من الفلانيلَّة الحمراء أيضًا، إن شئتِ أن تُلقي نظرة".

فقال مايكل: "هات، أرِنا إيّاها. ثمَّ إنَّها تحتاج إلى جوارب صوفيَّة، وحذاء، وقفَّازات، ومعطف جيِّد". وبينما مضى جوزف للاهتمام بذلك، سحب مايكل ثوبًا من القطن السميك الأزرق والأبيض، قائلًا: "ما قولُكِ في هذا للستائر؟"

قالت: "لا بدَّ أن يكون جميلًا!" وشاهدته يضعه فوق الأثواب الأُخرى. وعاد جوزف بالأزرار، وأعطاها إيّاها لتنتقي منها. فسأله مايكل: "كم يعوزك من الوقت لإحضار مدفأةٍ لنا؟"

"ستصلني شحنة بعد مدَّة قصيرة. قُل لي ما حجم المدفأة التي تريدها، فأحجزَها لك".

وحدَّد له مايكل القياس، إلَّا أنَّ آنجل وضعت يدها على ذراعه وهمست: "مايكل، إنَّها كبيرة جدًّا. ثُمَّ إنَّ عندنا الموقد".

"المدفأة أكثر فاعليَّة ولا تستهلك حطبًا كثيرًا. وستُبقي الكوخ دافئًا في الليل".

"ولكنْ كم ثمنُها؟"

"لا تجادليه، يا آنجل. فبالسِّعر الذي يطلبه بدل ما أُحضِره من البطاطا والجزر، يستطيع أن يشتري مدفأة".

فردَّت: "ما دُمتَ لا ترفع سعر مدافئك كما ترفع سعر خُضَرِك".

وضحك الرجل، فيما قال مايكل: "ربَّما كان عليَّ أن أكلِّف زوجتي عقدَ الصفقات. ولمَّا قال لجوزف إنَّه يريد تشكيلةً من الصحون، رجعت آنجل لتقف قرب المدفأة الكبيرة. فإن كان ينوي إنفاق كلِّ فلسٍ في حسابه، فليس ذلك من شأنها.

وطلب منهما جوزف البقاء لتناول العشاء، وألحَّ عليهما أن يبيتا الليلة في دياره. فقد كان ذلك أقلَّ ما يمكن أن يفعله بعد إفراغه ما يحوزه مايكل. وقال مُشيرًا إلى الطابق الأعلى: "ليس في المنطقة كلِّها غرفة فُندق واحدة يمكن استئجارها، ولاسيَّما بنزول الرجال من الجبال لقضاء الشتاء هنا. ثُمَّ إنَّه مضى زمن طويل على آخِرِ محادثةٍ كانت بيننا نحن الاثنين". وصفعه على ظهره بمودَّة.

كانت الشقَّة العُلويَّة حسنة الأثاث ومريحة. "اشتريتُ كلَّ شيء بأرخص الأثمان. جاء رجلٌ من الشرق بسفينة مُحمَّلة أقصى حمولة بأثاث الشَّبَندال[١٦] والأرائك الفاخرة، مُتصوِّرًا أنَّه سيُزوِّد أصحاب الملايين الجدد في قصورهم. وكان لديه أيضًا طنٌّ من الناموسيّات وقُبَّعات پناميَّة تكفي أهل البَرزَخ جميعًا عقدًا من السنين". ورحَّب بهما إلى بهوٍ أنيق مُطِلٍّ على النهر. ثمَّ قدَّمت طبَّاخةٌ مكسيكيَّة وجبةً سائغة من شرائح البقر المشويَّة في صحونِ خزفٍ فاخر. وسكب لهما جوزف شايًا ممتازًا مستوردًا. حتَّى السكاكينُ والشُّوَك والملاعق كانت من الفضَّة.

تولَّى جوزف معظم الكلام. "أعتقد أنَّني نجحتُ تقريبًا في إقناع عائلتي بمغادرة نيويورك والمجيء إلى الغرب. وقالت ماما إنَّ الطريقة الوحيدة لحمْلها على الموافقة هي بأن أتَّخذ زوجةً".

فابتسم مايكل له من جانب الطاولة المقابلة: "هل قلتَ لها أن تجلب لك واحدة؟"

"لم أضطرَّ إلى ذلك. فهي قدِ اختارت لي واحدةً وأعدَّتها للمجيء إلى الغرب".

ولمَّا انتهى العشاء، صبَّ جوزف القهوة. وتحدَّث الرجُلان في السياسة والدين. ولم يتَّفق أيٌّ منهما مع الآخر في وجهة النظر، غير أنَّ المحادثة استمرَّت بمودَّة على حدَّتها. وغطغط النوم على آنجل. فلم يهمَّها كونُ كاليفورنيا قد صارت ولايةً، ولا كونُ شركات التعدين آخِذةً في الاستيلاء على أراضي الذهب، ولا إصرارُ جوزف على أنَّ يسوع كان نبيًّا وليس هو المسيحَ الذي كان ينتظر مجيئَه. ولا همَّها كونُ النهر يرتفع من جرَّاء الأمطار. ولا همَّها أن يُكلِّف الرفش ثلاث مئة دولار في حين يكلِّف المحراث الجديد سبعين دولارًا.

علَّق جوزف وهو يُلقي في بيت النار حطبة أُخرى: "لقد جعلنا آنجل تنام. غرفة النوم الثانية وراءَ ذلك الباب مباشرةً؟" وراقب جوزف مايكل يحمل زوجته برفق وينقلها إلى داخل تلك الغرفة. وحرَّك القهوة في فنجانه ثمَّ شربها كلَّها، وهو ما انفكَّ يراقب آنجل منذ عاينها قرب مدفأته الكبيرة. فقد كانت واحدةً من صاحبات الجمال النادر اللواتي يبهرن أنفاس الرجال مهما كان عدد المرَّات التي سبق أن رأوهنَّ فيها.

ولمَّا عاد مايكل إلى البهو وقعد، تبسَّم جوزف. "لَن أنسى أبدًا ملامح وجهك أوَّلَ مرَّةٍ رأيتَها فيها. وقد حسبتُك مجنونًا عندما سمعتُ أنَّك تزوَّجتَ بها". فغالبًا ما دمَّر

١٦) أثاث الشَّبَندال: طراز أثاث إنكليزي.

الرجالَ الصالحين استحواذُ الساقطات عليهم، وكان قد قلِق كثيرًا بشأن مايكل. فإنَّه ما عرف قطُّ زوجَين غيرَ متكافئين أكثر منهما: قدّيسٌ وخاطئة! "يبدو أنَّك لم تتغيَّر ولو قليلًا".

ضحك مايكل وتناول فنجانه: "هل توقَّعتَ أن أتغيَّر؟"

"توقَّعتُ منها أن تتمتَّع بقلبك في وليمةٍ سائغة".

تضاءلت ابتسامة مايكل، ناضحةً بالألم، وقال مُميلًا فنجانَه إلى فمه: "إنَّها تفعل ذلك!"

فقال جوزف: "لقد تغيَّرَت". لم يبدُ عليها ألَقُ امرأةٍ واقعةٍ في الغرام. إذ لا شرارةَ في عينيها، ولا تورُّدَ في خدَّيها، بل كان يحيط بها شيءٌ مختلف. "لا يمكنني وضعُ إصبعي على الأمر تمامًا. ولكنَّها لا تبدو قاسيةً كما أتذكَّرها".

"لم تكُن قاسيةً قطّ. فقد كان ذلك تظاهُرًا".

لم يجادل جوزف، ولكنَّه تذكَّر جيِّدًا تلك الحمامة المُدنَّسة الجميلة التي كانت تتمشَّى في شارع ماين كلَّ اثنين وأربعاء وجمعة. وكان يخرج ليُشاهِدها كالآخرين جميعًا، مبتهجًا جدًّا بجمالها الكامل الشاحب. ولكنَّها كانت قاسيةً دائمًا، قاسية كالصوّان. فإنَّما كان مايكل يراها بعينَي رجُل يحبُّها حبًّا أشدَّ بكثير جدًّا ممَّا تستحقُّ امرأةٌ نظيرها. ولكنْ من ثمَّ ربَّما كان نوع حُبِّ مايكل لها هو ما يُغيِّرها. فالله عليمٌ بأنَّ آنجل ما كانت لتلتقيَ يومًا رجُلًا مثل مايكل من قَبل. ليس في مهنتها. فلا بدَّ أنَّه كان شيئًا جديدًا بالنسبة إليها. وضحك جوزف على نفسه في سرِّه.

وقد كان مايكل أيضًا شيئًا جديدًا في نظر جوزف. إذ كان واحدًا من أولئك الرجال النادرين الذين يعيشون ما يؤمنون به، لا بين حينٍ وآخر، بل كلَّ ساعةٍ من كلِّ يوم، حتَّى لو كانت الأُمور مُعسَّرة. فلِكون مايكل هوشع رجُلًا لطيفًا جدًّا ورقيقَ القلب للغاية، لم يكُن يحيط به أيُّ أثرٍ من آثار الضَّعف. لقد كان أثبتَ الرجال رأيًا وأصلبهم موقفًا بين جميع من عَرفهم جوزف يومًا. إنَّه كان رجلًا مثل نوح، رجُلًا مثل داوُد الراعي المَلِك، رجُلًا حسب قلب الله حقًّا.

وترجَّى جوزف ألَّا تنتزع آنجل قلب مايكل وتتركه حُطامًا يعبث به باقي البشر.

الفصل
الثامن عشر

كلُّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم،
افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم.

(المسيح، إنجيل متّى ٧: ١٢)

بعد تحميل العربة بما اشتراه مايكل وآنجل، انطلقا عائدَين إلى الديار باكرًا في صباح اليوم التالي. وتوقَّف مايكل عند مخزن الحُبوب، حيث اشترى ما يحتاج إليه لمزروعات الربيع. ولدى المرور في المدينة، توقَّف ثانيةً عند مبنًى صغير. ودار حول العربة ليحمل آنجل ويُنزِلها. ولم تدرِ أنَّه ينوي دخول الكنيسة حتَّى وصل إلى بابها تقريبًا، حيث سمعت ترنيمًا. فسحبت يدها من يده وهزَّت رأسها قائلةً: "ادخل وحدك. سأنتظرك هنا في الخارج".

ابتسم مايكل. "جرِّبي مرَّةً واحدة، كُرمى لي". وأمسك بيدها من جديد. ولمَّا دخلا، أخذ قلبها يخبط خبطًا سريعًا حتَّى خُيِّل إليها أنَّها تخنقه. وقد رفع بعض الحضور أنظارهم وحدَّقوا إليها. واستطاعت أن تحسَّ الحرارة متدفِّقةً إلى وجهها فيما تنبَّه إلى دخولهما متأخِّرَين مزيدٌ من الحضور. ووجد مايكل مكانًا قعدا فيه.

شبكت آنجل يديها في حضنها وأبقت رأسها منخفضًا. ماذا كانت فاعلةً في كنيسة؟ انحنت امرأةٌ في الصفّ كي تنظر إليها، فيما ظلَّت آنجل شاخصةً إلى ما أمامَها مباشرةً. ورمقتها امرأةٌ أخرى شزرًا من الصفّ الذي أمامها. لقد بدا المكان مليئًا بالنساء... النساء البسيطات الكادحات مثل أولئك اللواتي كُنَّ يُدِرن ظهورهنَّ لماما. ومن شأنهنَّ أن يُدِرنَ ظهورهنَّ لها أيضًا إذا عرفن ماذا كانت.

أخذت سيِّدة داكنة الشعر تعتمر قلنسوة بُنِّية من جلد الغزال تتفحَّص آنجل. فجفَّ حلق آنجل. تُرى، هل علم الجميع بحالها؟ هل ظهرت على جبهتها سِمَتُها المُبينة؟

كان الواعظ ينظر إليها مباشرةً وهو يتحدَّث عن الخطيئة والدينونة. فتصبَّب منها العرق، وشعرت بالبرد. لا شكَّ أنَّها ستمرض.

ثمَّ وقف الجميع وشرعوا يُرنِّمون. ولم تكن قد سمعت مايكل يُرنِّم من قبل. وقد

كان صوته رخيمًا وعميقًا، وعرف الكلمات دون أن ينظر إلى كتاب الترنيم الذي قدَّمه إليه الرجُل الواقف بقربه. كان ينتمي إلى ذلك المكان. وهو مؤمن بكلّ ما يقال. بكلّ كلمةٍ من ذلك. وحدَّقت إلى الأمام ثانيةً ناظرةً إلى عينَي الواعظ القاتمتين. إنَّه يعرف، تمامًا كما عرف قسّيسُ ماما.

ينبغي أن تخرج خارجًا! فعندما يقعد الجميع، فالأرجح أنَّ الواعظ سيُشير إليها مباشرةً ويسألها عن سبب وجودها في كنيسته. وفي ذُعرها، شقَّت طريقها بصعوبةٍ وهي تُجاوِز جميع القاعدين في الصفّ، قائلةً: "رجاءً، دعوني أمرّ"، والاضطرابُ الشديدُ بادٍ عليها في تلهُّفها للخروج. إذ ذاك أخذ الجميع يُحدِّقون إليها. وكشَّر لها رجلٌ فيما هي مندفعةٌ نحو الباب الخلفيّ. ولم تتمكَّن من استرجاع نَفَسِها. ثمَّ اتّكأت على العربة تُدافِع الغَثَيان.

سألها مايكل: "أأنتِ بخيرٍ؟"

لم تكن قد توقَّعت أن يلحق بها. فقالت كاذبةً: "لا بأس".

"هلَّا تكتفين بالجلوس قربي؟"

فالتفتت ورمقته بنظرها، قائلةً: "لا".

"لا داعيَ لأنْ تُشارِكي في الخدمة".

"الطريقة الوحيدة التي بها تُدخِلني إلى ذلك المكان مُجدَّدًا هي بأن تجرَّني جرًّا".

تفحَّص مايكل وجهها المتوتِّر، فيما طوَّقت نفسها بذراعيها وحملقت إليه.

"أماندا، لم ادخُل كنيسة منذ أشهُر. أنا في احتياج إلى شركة المؤمنين".

"لم أقُل إنَّ عليك أن تخرج".

"أأنتِ بخير؟"

فقالت: "نعم"، ومدَّت يدها نحو مقعد العربة، فرفعها مايكل إليه.

وشعرت بمزيدٍ من الثبات لدى لمسه لها. وإذ أسِفَت لفظاظتها، أرادت أن تشرح الأمر. ولكنْ لمَّا التفتت، رأته يتوارى داخل الكنيسة، فشعرت بالخذلان والحرمان.

ها قد عادوا يُرنِّمون بصوتٍ عالٍ كفايةً حتَّى يُسمَع في الخارج واضحًا. "يا عسكرَ الرحمان مَن تجنَّدوا في موكب الربِّ العليّ مجِّدوا..." إنَّهم عسكر يخوضون حربًا. وهي في حرب... حربٍ على الله ومايكل، وعلى العالم أجمع. وقد ودَّت أحيانًا لو أنَّها لا تعود مُضطرَّة إلى القتال. ودَّت لو أنَّها عادت إلى الوادي. ودَّت لو بقي كلُّ شيء على حاله منذ البداية، إذ كانت هي ومايكل وحدهما. ودَّت لو لم يرجع پول إلى الديار وبقي في الجبال. فربَّما كانت الأمور آنذاك سارت على ما يُرام.

إنَّما ليس مدَّةً طويلة. فعاجلًا أو آجلًا، يشنُّ العالمُ الهجومَ عليها.

إنَّكِ لا تنتمين إلى هؤلاء القوم أدنى انتماء، يا آنجل. ولن تنتمي البتَّة.

ولمّا انتهتِ الخدمة أخيرًا، خرج آخرون قبل مايكل. ونظر كلٌّ منهم إليها وهي جالسةٌ هناك على مقعد العربة بانتظاره. وتوقَّفت بضع نساء ليتحادثن في حلقة صغيرة. أكُنَّ يتحدَّثن عنها؟ وظلَّت تراقب الباب منتظرةً خروج مايكل. ثمَّ لمّا ظهر، كان برفقة الواعظ. وقد تحادثا بضعَ دقائق، ثُمَّ تصافحا. ومن ثمَّ هبط مايكل الدَرَج، ونظر إليها الرجُل ذو البدلة السوداء.

شرع قلبها يخبط من جديد. واستطاعت أن تحسَّ العرق يتصبَّب من جِلدها فيما مايكل مُقبِلٌ نحوها بخُطًى واسعة. ثمَّ صعد إلى العربة، وأمسك بالزِّمام، وانطلق دون أن ينبس بكلمة.

وبينما العربة نازلةٌ على منحدر التلِّ نحو طريق النَّهر، قالت آنجل: "إنَّها لم تبدُ شبيهةً بأيَّة كنيسة حقيقيَّة. ولم يكُن فيها قسِّيس".

"الربُّ لا تحدُّه أيَّةُ طائفة".

"أمِّي كانت كاثوليكيَّة. ولم أقُل إنَّني أنا كنت كذلك".

"إذًا، لماذا تخافين هكذا من وجودكِ داخل كنيسة؟"

"لم أخَف، بل شعرتُ بالغَثَيان. كلُّ أولئك المُنافِقين!"

"كنتِ خائفةً إلى أقصى حدّ". وأمسك بيدها. "ما تزال كفَّاكِ تتعرَّقان". وحاولت أن تسحب يدها من يده، إلَّا أنَّه أحكم قبضته. "إن كنتِ مُقتنِعةً بأنَّ الله غير موجود، فمِمَّ تخافين؟"

"لا أُريد أيَّ دورٍ لِعَينٍ كبيرة في السماء تتحيَّن فرصةً لسحقي كالحشرة الصغيرة!"

"الله لا يدينُ الآن. إنَّه يغفر".

سحبت يدها من يده نترًا. "أكما غفر لأُمِّي؟"

فنظر إليها بذلك اليقين الهادئ الذي يُثير الجنون. "لعلَّها هي لم تغفر لنفسها قطّ".

نزلت عليها كلماته كصاعقة. وظلَّت تُحدِّق أمامها مباشرةً. أيُّ نفعٍ حيث يتعلَّق الأمر بمايكل؟ إنَّه لم يفهم أيَّ شيء. لَكأنَّ هذا الغبيَّ المسكين لم يَعِش قطُّ في هذا العالم.

ونوى أن يمضي قُدمًا. "أتعتقدين أنَّ ذلك ربَّما كان جزءًا من المسألة؟"

"مهما كان ما آمنت به أُمِّي، فهو لا يعني أنَّني أنتمي إلى أيَّة كنيسة أكثر ممّا انتمت هي يومًا".

"ما دامت راحاب وراعوث وبثشبع ومريم قدِ انتمَينَ، فأعتقد أنَّ لكِ أنت مكانًا على الأرجح".

"لستُ أعرف أيّة واحدة من هؤلاء النساء".

"راحابُ كانت زانية. راعوث نامت عند قدَمي رجُل لم تكن قد تزوَّجت منه، على بَيدَرٍ عامّ. وبثشبع ارتكبتِ الزِّنى قسرًا. ولَمّا تبيَّن لها أنَّها حُبلى، دبَّر عاشقها مكيدةً لقتل زوجها ونفَّذها. ومريم وُجِدَت حُبلى بمُعجزةٍ سماويَّة وتحمَّلت افتراءات ألسنة السُّوء".

حدَّقت آنجل إليه. "لم أعرف أنَّك تعوَّدتَ مباراة النساء السريعات".

ضحك مايكل. "إنهنَّ مذكورات في سلسلة نَسَب المسيح، في مستهلّ إنجيل متّى".

قالت برقَّة: "أوه!" ورمقته بنظرةِ امتعاض. "هل تحسب أنَّك تقدر أن تحشرني في الزاوية تمامًا؟ حسنًا، قُل لي شيئًا. إذا كانت تلك النُفاية كلُّها صحيحة، فلماذا لم يُكلِّمِ القسّيسُ أُمّي؟ يبدو أنَّ لها مكانًا مرموقًا بين أولئك النِّسوة الكريمات".

"لستُ أدري، يا أماندا. فالقساوسة بَشَرٌ فحسْب. إنَّهم ليسوا الله. ولهم تحامُلاتُهم وأخطاؤهم الشخصيَّة، مَثَلُهم مَثلُ غيرِهم من البشر". وفرقع بالزِّمام فرقعةً خفيفة على ظهرَي الحصانَين. "أنا مُتأسِّف على والدتكِ، ولكنَّني قلِقٌ عليكِ".

"لماذا؟ أتخشى أن أمضيَ إلى جهنَّم إن لم تُخلِّص لي نفسي؟"

كانت تتهكَّم عليه. "أعتقد أنَّكِ قد تذوَّقتِ فعلًا ما يكفي من جهنَّم". وفرقع بالزِّمام ثانيةً. "لا أنوي أن أعِظَكِ. ولكنَّني أيضًا لا أنوي أن أتخلَّى عمّا أُومِن به، لا في سبيل إراحتك، ولا في سبيل أيِّ شيءٍ آخر".

تشبَّثت أصابعُها بمسكة الأيدي. "لم أطلب منك ذلك".

"لم تقولي ذلك صراحةً. ولكنَّ ثمَّة ضغطًا ما ينصبُّ على الرجُل حين تكون زوجته جالسةً في عربة خارجًا تنتظر".

"وما قولك في رجُل يجرُّ زوجته إلى داخل الكنيسة جرًّا؟"

فنظر إليها وقال: "أحسبُ أنَّكِ على حقٍّ في هذا. أنا آسِف".

عادت تنظر أمامَها مباشرةً، وعضَّت شفتها. ثمَّ أطلقت نَفَسًا مُترجرِجًا، وقالت: "لم أستطعِ البقاء في الداخل، يا مايكل. لم أستطِع حقًّا".

"ربَّما هذه المرَّة فقط".

"بل دائمًا".

"لِمَ لا؟"

"لماذا ينبغي أن أجلس مع الأولاد الذين كانوا يُلقّبونني ألقابًا شائنة؟ إنَّهم جميعًا من طينةٍ واحدة. ولا يهمُّ أكان ذلك على أرصفة ميناء نيويورك أو في سفحٍ مُوحِلٍ بكاليفورنيا". وضحكت ضحكةً واهية. "كان هنالك صبيٌّ اعتاد أبوه أن يلمَّ بماما في الكوخ بصورة منتظمة. وكان ذلك الصبيُّ ينعتني وينعت أُمّي بألقابٍ مُهينة. فقلتُ له أين يكون أبوه في عصر كلّ أربعاء. لم يُصدِّقني طبعًا، وقالت ماما إنّني أسأتُ إليه إساءةً رهيبة. ولم استطع أن أفهم كيف تجعل الحقيقة الأمور أسوأ. ولكنْ بعد بضعة أيّام، بدافعٍ من الفضول كما أظنّ، لحق ذلك الصبيُّ بأبيه وتيقّن بصحّة قولي بنفسه. وظننتُ أنَّه بعدما عرف الحقيقة سيدعُنا أنا وماما وشأننا. ولكنْ لا، بل كرهني بعد ذلك. فكان هو وأصدقاؤه الصغار المهذّبون ينتظرونني عند نهاية الزّقاق، وحين تُكلِّفني ماما شراء شيءٍ لها من السّوق يرمون عليّ الزُّبالة. ثُمَّ إنّني كنتُ أراهم صباح كلّ أحد في القُدّاس، مُرتَّبين مُهذَّبين، جالسين قرب آبائهم وأُمَّهاتهم". ثمَّ رفعت نظرها نحو مايكل. "وكان القسّيس يُلاطِفهم. لا، يا مايكل. لن أجلس في كنيسة. لا، أبدًا".

تناول مايكل يدها ثانيةً، وشبك أصابعه بأصابعها. "ليس لله أيُّ دَخلٍ في هذا الأمر".

شعرت بحرارة حارقة في عينيها على نحوٍ غريب. "وهو لم يُوقِف ذلك أيضًا، أليس كذلك؟ أين الرحمة التي تقرأ دائمًا عنها؟ لم أرَ شيئًا منها يُغدَق على ماما".

وبقي مايكل صامتًا وقتًا طويلًا.

"أقال لكِ أحدٌ مرّةً كلامًا لطيفًا؟"

ارتسمت على فمها ابتسامةٌ مُلتوية. "كثيرٌ من الرجال قالوا إنّي حُلوة. وقالوا إنَّهم ينتظرون بفارغ الصبر أن أكبر". ثمَّ نترت ذقنها عاليًا، وأشاحت بنظرها بعيدًا.

كانت يدُها باردةً في يده. وعلى الرُّغم من كلِّ تحدّيها، أحسَّ ألَمها. "ماذا تَرَين حين تنظرين في المرآة، يا أماندا؟"

مضى وقتٌ طويل قبل أن تُجيب. ولمّا أجابت، تكلّمت بمنتهى الرقّة حتّى إنّه لم يكد يسمعُ صوتها: "أُمّي".

توقّفا بقرب غدير. وبينما مايكل ينزع عدّة الحصانَين ويُقيِّدهما، فرشت أنجل الحِرام وفتحت سلّة الزاد. وكانت طبّاخة جوزف قد زوّدتهما بخبز وجبن وقنّينة عصير تُفّاح وشيءٍ من الفاكهة المجفّفة. ولمّا فرغ مايكل من تناول الطعام، وقف ورفع يده مُمسِكًا

بغُصنٍ متدلٍّ. لم يبدُ مستعجلًا أن يُطعِم حصانَيه وينطلق بالعربة على الطريق من جديد.

راقبَته آنجل. بدا قميصه الصوفيُّ الأزرق مشدودًا على كتِفَيه، وكان خصره نحيلًا وصُلبًا. فتذكَّرت آنجل إعجاب طُوري الشديد، وقد بدأت تفهم. وراقها أن تتأمَّله. فقد كان قويًّا ووسيمًا بغير أن يكون مُخيفًا. ولمَّا بادلَها النظر، أشاحت وجهها، وتظاهرت بأنَّها منهمكة في إعادة باقي الزاد إلى السلَّة.

دسَّ مايكل يدَيه في جيبَيه وأسند ظهره إلى جذع الشجرة الضخم. "لقد لُقِّبتُ أنا أيضًا بألقابٍ مُهينة في صِغَري، يا أماندا. ومعظمُها قذفني به أبي بالذات".

رفعت إليه نظرها من جديد. "أبوك؟"

فسرَّح نظره صوب النهر، قائلًا: "كانت أُسرتي تملك أكبر مزرعة في المنطقة، وقد ورث والدي الأرض عن جدِّي. وكان عندنا عبيد. ولم أُفكِّر كثيرًا في اقتناء العبيد عندما كنت صغيرًا، إذ كانت الأمور على تلك الحال سابقًا. وقالَت لي أُمِّي إنَّهم إخوانُنا وينبغي لنا أن نعتني بهم. ولكن لمَّا كنت في العاشرة، مرَّت علينا سنة سيِّئة، وباع أبي بعضًا من العمَّال. وبينما هم يؤخذون، اختفت إحدى خادماتنا البيتيَّات، ولا أتذكَّر حتَّى اسمَها. ثمَّ ذهب أبي يفتِّش عنها. ولمَّا رجع، كان مُمدَّدًا ومُربَّطًا على ظهر أحد أحصنته جثَّتان: جثَّتُها وجثَّة عاملٍ من العُمَّال الذين باعهم. وطرح الجثَّتين أمام أكواخ العبيد ثمَّ علَّقهما حتَّى يراهما العبيد كلَّما خرجوا إلى الحقول. لقد كان منظرًا مَهولًا. وقد أفلت عليهما الكلاب!"

ثمَّ أسند رأسه من جديد إلى جذع شجرة السنديان العتيقة الضخمة، وقال: "سألتُه عن سبب اضطراره إلى فعل ذلك، فقال إنَّه أراد أن يجعلهما عبرةً لمن يعتبر".

لم يسبق أن رأته شاحبًا هكذا، فثارت في داخلها عاطفةٌ جديدة. ووَدَّت لو تذهب إليه وتطوِّقه بذراعيها: "هل كان موقف أُمِّك كموقفه؟"

"بكت أُمِّي، ولكنَّها لم تقُل كلمة سوء واحدة بحقِّ أبي. وقلتُ له إنَّ أوَّل شيءٍ سأفعله عندما يموت هو تحريرُ عبيدنا. فسبَّب لي ذلك أوَّل وقعة ضربٍ نلتُها. وقال لي إنَّني إذا كنتُ مُحِبًّا لهم إلى ذلك الحدّ أستطيع أن أعيش معهم مُدَّةً".

"وهل فعلتَ ذلك؟"

"مُدَّةَ شهر واحد. ثُمَّ أمر بإرجاعي إلى البيت. آنذاك كانت حياتي قد تغيَّرت فعلًا. فقدِ اقتادني عزرا العجوز إلى الربّ. وكان الله قبل ذلك مجرَّد تمرينٍ تُجريه أُمِّي في البهو صباح يوم الأحد. فقد أراني عزرا مدى كون الله حقيقيًّا. وكان من شأن أبي

أن يبيعه لو لم يكن عجوزًا. إلّا أنّه حرّره بدلًا من ذلك، فكان هذا مصيرًا أسوأ. إذ لم يكن لدى الشيخ مكانٌ يذهب إليه، فانتقل ليسكن في بيوت الفقراء بين المستنقعات. وكنتُ أذهب وأتفقّده كلّما سنحت لي الفرصة، حاملًا إليه ما تنالُه يدي".

"وأبوك؟"

"جرّب طُرقًا أُخرى لتغيير فكري". ثمّ زوّى فمه وأماله. "لقد أراد لي أن أعرف كامل امتيازات المِلكيّة". وحدّق إليها. "بعث إليَّ بفتاةٍ جميلة من العبيد كي تكون مِلكًا لي وأستخدمها كما أشاء. وطلبتُ إليها أن ترحل، إلّا أنّها أبَت. لقد أمرها أبي أن تُلازمني. فما كان منّي إلّا أن غادرتُ". وضحك ضحكةً رقيقة وهزّ رأسه. "لستُ صادقًا في هذا تمامًا. ففي الواقع أنّني هربت. كنتُ في الخامسة عشرة، وكانت هذه الفتاة لي تجربةً أقوى من أن أحتملها".

ثمّ أقبل مايكل وقرفص أمامها. "أماندا، لم يكن أبي رديئًا تمامًا. ولا أُريد منكِ أن تحسبيه كذلك. فقد كان يحبُّ الأرض ويعتني بقومه. وبخلاف تلك المرّة الوحيدة، كان مُنصِفًا في معاملة العبيد الذين امتلكهم. وكان يحبُّ والدتي وإخوتي وأخواتي، كما كان يحبُّني. ولكنّه إنّما أراد كلَّ شيء أن يجري على طريقته هو. وكانت بي صفةٌ خاصّة من بداية أمري... لم يُناسِبني القالب. وقد علمتُ أنّني سأُضطرُّ يومًا إلى شقّ طريقي بنفسي، ولكنْ مضى وقتٌ طويل قبل أن تكون لي الجرأة للرحيل عن جميع الذين أحببتُهم، ولا سيّما وأنا لا أعرف أين أمضي".

رفعت عينيها نحو عينيه. "هل فكّرتَ يومًا في الرجوع؟"

"لا". ولم يكن أيُّ شكٍّ في تعبيره.

"لا بدَّ أنّك كرهته".

فنظر إليها برزانة. "لا، لقد أحببتُه، وأنا شكورٌ على كونه أبي".

"شكور؟ لقد عاملك معاملة عبد، وحرمك ميراثك وأُسرتك وكلَّ شيء، وأنت شكور؟"

"لولا ذلك كلُّه ما تعرّفتُ بالربّ. وفي نهاية المطاف، زوّدتُ أبي بسبب إضافيٍّ لكرهي. فلمّا رحلتُ، رافقني پول وتَسّي. وقد كان لتَسّي مكانةٌ خاصةٌ عنده، خاصّةٌ جدًّا. وهي ميّتة الآن".

رأت أنجُل الدموع في عينيه. ولم يُحاوِل هو أن يُخفيَها.

ثمّ قال وهو يمدُّ يدَه ويمسُّ خدَّها: "كان من شأنها أن تحبَّكِ. فقد كانت قادرةً على فهم طويّة الناس".

وبغير أن تفكّر آنجل، وضعت يدها على يده، متأثّرةً بحزنه، وقد عطفت ابتسامتُه قلبَها. فقال: "آه، يا حبيبتي! إنَّ أسوارِكِ تنهار".

وسحبت يدها، قائلةً: "هُوذا يشوعٍ ينفخ في البوق!"

فضحك وقال: "إنّني أُحبُّكِ... أُحِبُّكِ كثيرًا جدًّا". ثمَّ جذبها وطوّقها بذراعيه، وارتمى معها على العشب. وإذ دحرجها حتّى صار فوقها، قبّلها برقّةٍ أوّلًا، ثمّ قُبلةً أوفى. فأحسَّت في داخلها انبعاثًا حيًّا، حركةً لولبيّة ناعمة دافئة في أحشائها، ومع ذلك لم تشعر بأنّها مُهدَّدة أو مُستغلّة. ولمّا انكفأ عنها قليلًا، رأت نظرة عينيه. آه!

قال بصوتٍ أجشّ: "أنسى أحيانًا ما أنتظره". ثُمَّ وقف، مُوقِفًا إيّاها معه. "هيّا بنا. سأشدُّ الحصانَين إلى العربة".

طَوَت آنجل الحِرام، وهي مشدوهة، وأعادت السلَّة إلى تحت المقعد. وإذ ألقت يديها على جانب العربة، راقبت مايكل وهو عائدٌ بالحصانَين. كانت طريقة تنقُّلِه تتميَّز بالقوّة. وفيما هو يُطقِم الحصانَين، تأمّلت قوّة كتفيه ويدَيه. ثمّ انتصب والتفت إليها. وبعدما رفعها إلى المقعد العالي، صعد وقعد إلى جانبها. وإذ أمسك بالزّمام، ابتسم لها. ودون أدنى تردُّد، وجدت نفسها تردُّ له الابتسامة بمِثلها.

وفيما هُما مسافران، بدأ المطر يهطل. فتوقّف مايكل ليضع غطاء العربة، فيما تلفَّفت آنجل بالحِرام. وحين عاد فجلس قربها، لفَّ حِرامًا آخر حولهما كليهما. فكنكنت وشعرت بالراحة في لصقِه.

بعد نحو ثمانية كيلومترات على الطريق، صادفا عربة مُغطّاة مُعطَّلة. وكان رجل وامرأة مُنهَكان يحاولان رفعها قليلًا لتركيب عجلة مُصلَحة. وعلى مقربةٍ منهما فتاةٌ سوداء الشعر في حِمى سنديانة ضخمة تحتضن أربعة أولاد صغار.

عطف مايكل الحصانَين، وأوقف العربة خارج الطريق. وبينما هو يترجّل، قال لآنجل: "أحضري أولئك الأولاد وأجلِسيهم في مؤخّر العربة". فتوجَّهت نحوهم. وإذا بالبنت الكُبرى تبدو أصغر منها ببضع سنواتٍ فقط. وكان شعرها الفاحم ملتصقًا حول وجهٍ شاحب تحتلُّه عينان عسليّتان واسعتان. وإذ ابتسمت، بدت جميلة.

قالت آنجل: "ستصبحون جميعًا أكثر جفافًا إذا جلستم في مؤخّر العربة. لدينا حِرامٌ آخر".

قالتِ الفتاة: "شكرًا سيّدتي"، ملبّيةً الدعوة حالًا، ومُدخِلةً الأولاد بسرعة إلى حِمى العربة. صعدت آنجل معهم إلى مؤخّر العربة وهي ترتجف. وناولت الفتاة حِرامًا،

فلفَّته حول كتفيها فيما ضمَّت الأولاد الأربعة الأصغر إلى جسمها كدجاجةٍ أُمّ.

ابتسمت الفتاة لآنجل، وقالت: "نحنُ آل ألْطمان. أنا ميريام. وهذا جاكوب..." ناظرةً إلى الولد الأطول الذي له مثلُ شعرها وعينيها، ومُضيفةً: "عمرُه عَشر. وهذا أندرو..."

فبادر الصبيُّ قائلًا بعبوس: "عُمري ثمانٍ!"

فابتسمت ميريام ثانيةً، وهي تقول: "وهذه لِيَه"، ضامَّةً إليها الفتاة الكبيرة، ثمَّ مُقبِّلةً الصُغرى: "وهذه رُوث".

نظرت آنجل إلى مجموعة الصغار المُبلَّلين الشاعرين مُكَنكِنين معًا تحت حِرام واحد، وقالت بشيءٍ من الخجل: "نحنُ آل هوشع. أنا... السيِّدة هوشع".

فقالت ميريام: "شكرًا للربِّ على مجيئكما في حينه. كان بابا يتعذَّب بتلك العجلة، وكادت ماما تنهار". ثمَّ نزعت الحِرام عنها وأرختْه على الأولاد الأربعة، قائلةً: "هلَّا تتفضَّلين بإبقاء عينكِ على الصغار، مدام هوشع؟ لقد كانت ماما مريضة آخِرَ خمس مئة كيلومتر، ولا ينبغي أن تبقى تحت المطر خارجًا".

ثمَّ قفزت مُترجِّلةً من العربة قبل أن تتمكَّن آنجل من إبداء أيَّة معارضة. ونظرت آنجل إلى الأولاد مجدَّدًا، فرأتهم جميعًا يحدِّقون إليها بأعيُن واسعة مُستطلِعة. وبعد بضع لحظات، رجعت ميريام مع أُمِّها. وقد كانت امرأةً سوداء الشعر مُرهقة، حانية الكتفَين، على عينيها ظلالٌ سوداء. وفي الحال التصق بها الأولاد طلبًا للأمان.

قالت ميريام وذراعُها حول أُمِّها: "ماما، هذه السيِّدةُ هوشع". وأضافت: "هذه ماما".

تبسّمت المرأة بحرارة، وأومأت برأسِها مُحيِّيةً، وقالت مبتسمةً: "أنا إليزابث. باركك الله، مدام هوشع". وتجمَّعت الدموع في عينيها المُتعَبتين، إلَّا أنَّها لم تدعها تجري. "لستُ أدري ماذا كنَّا سنفعل لو لم تأتي أنتِ وزوجك". ثمَّ طوَّقت بذراعيَها أولادها الأربعة، فيما أبقت ميريام عَينًا إلى الخارج، لعلَّ الرجُلين يحتاجان إلى مساعدة. "سيكون كلُّ شيء بخير. بابا والسيد هوشع يُصلِحان العربة. وسريعًا نُواصِل سفَرنا".

قالت لِيَه مُتشكِّيةً: "أنحن مُضطرُّون للذهاب إلى أُوريغون؟"

لاح الألم على وجه المرأة. "دعينا من التفكير في ذلك الآن يا عزيزتي. سنعيش كلَّ يوم بيومه".

فتَّشت آنجل في السلَّة. "أأنتِ جائعة؟ عندنا خبز وشيءٌ من الجبن".

أشرق وجه لِيَه الصغير، وقالت: "جُبن! أُوه، نعم، رجاءً!" ناسيةً الرحلة الطويلة إلى أُوريغون.

عندئذٍ طفرت الدموع، فبكت إليزابث فعلًا. فربَّتت ميريام أعلى ظهرها وتمتمت لها بشيء. وشعرت آنجل بالحَرَج، فلم تدرِ ماذا تقول أو ماذا تفعل. وبغير أن تنظر إلى المرأة الباكية، قطعت شرائح من الجبن للأولاد الأصغر. ثمَّ سعلت إليزابث ثانيةً، وكفَّت عن البكاء، وقالت همسًا: "أنا آسفة! لا أدري ما خطبي".

قالت ميريام: "أنتِ مُنهَكة". وخاطبت آنجل قائلة: "هي الحُمَّى، لم تعُد لديها قوَّة منذ أصابتها".

مدَّت آنجل يدها بقطعة جبن وكسرة خبز، فمسَّت إليزابث يدها برفقٍ قبل أن تأخذ ذلك. وغادرت رُوث الصغيرة حضن أُمِّها توًّا، ووقفت قُدّامها. وشعرت آنجل بالانزعاج، ثمَّ بالدهشة، ولمَّا مدَّت البنتُ الصغيرة يدها ولمست خصلة الشعر الذهبيَّة التي زلَّت من فوق كتفها وتدلَّت على خصرها. "آنجِل (ملاك)، ماما؟" وتدفَّقت الحرارة إلى وجه آنجِل.

ابتسمت إليزابث من وراء دموعها. وضحكت ضحكةً رقيقة ناضحة بالسرور. "نعم، يا حبيبتي، ملاكٌ من ملائكة الرحمة!"

لم تستطع آنجِل أن تنظر إليهما. ما عسى أن تقول إليزابث ألْطمان إن عرفتِ الحقيقة؟ ثمَّ نهضت وذهبت إلى مؤخَّر العربة لتنظر إلى الخارج. كان مايكل قد رفع عربة آل ألْطمان، والرجل يضع العجلة في مكانها. وأرادت أن تخرج من العربة، إلَّا أنَّ المطر كان يهطل آنذاك بغزارة... ومن شأن مايكل أن يطلب إليها العودة حالًا. وانقبضت كلُّ عضلةٍ في جسمها لمَّا ألقت نظرةً أُخرى على إليزابث وحواليها جميعُ أولادها الطيِّبين.

أمسكت ميريام بيد آنجل، فجفَّلتها. وقالت: "سيُصلحانِها في الحال". ثمَّ طرفت عيناها من الدهشة والارتباك لمَّا سحبت آنجل يدها بسرعة.

وظهر السيِّد ألْطمان عند مؤخَّر العربة، والمطرُ يسيل عن قبَّعته.

فسألَت إليزابث: "أكلُّ شيءٍ بخير، يا جان؟"

"سيكون كلُّ شيءٍ بخير من عدَّة أوجُه". ثمَّ مسَّ طرف قبَّعته تحيَّةً لآنجل فيما عرَّفتها إليزابث إليه. "نحنُ ممتنُّون لكِ ولزوجكِ، يا سيِّدتي. كان اليأسُ قد بدأ يتسرَّب إليَّ قبل مجيءِ زوجكِ". ثمَّ نظر إلى زوجته من جديد، وقال: "لقد دعانا السيِّد هوشع لقضاء الشتاء في دياره، وقبلتُ دعوته. سوف نتوجَّه إلى أُوريغون في الربيع".

قالت إليزابث: "أُوه"، وقد بدا الفَرَح على وجهها واضحًا.

وانفغر فمُ آنجل. قضاء الشتاء في ديار مايكل؟ تسعة أشخاص في كوخ لا تُجاوِز مساحته خمسة وعشرين مترًا مربّعًا؟ ومسّتها إليزابث فأجفلت. ثمَّ قعدت مشدوهةً والمرأةُ تشكرها، قبل أن يُنزِلها جان. ولحق بها الصبيّان والبنتان، ثمَّ ميريام، وقد مسَّت كتفها عَرَضًا وابتسمت لها ابتسامةً حارّةً مقترنةً بالتأثُّر البادي. وقعدت آنجل مُتكوِّمة داخِلَ حِرامها وهي تصرُّ بأسنانها في مؤخَّر العَرَبة، متسائلةً عمَّا كان مايكل يُفكِّر بأن يعمله بهؤلاء جميعًا. ثمَّ صعد وجلس على المقعد، مُبلَّلًا حتَّى جلدِه، وناولَته آنجِل الحِرام الإضافيّ إذِ استأنفا السير.

قال: "سندعهم يُقيمون في الكوخ".

"الكوخ؟ وأين ننام نحن؟"

"في الحظيرة. هناك نستريح وندفأ".

"لماذا لا ينامون هم في الحظيرة؟ أنتَ بنيتَ الكوخ". لم تُعجِبها كثيرًا فكرةُ النوم في أيِّ مكانٍ عدا ذلك السرير الحلو الدَّافئ، القريب من الموقد.

"لم يناموا في بيتٍ طيلةَ مدَّةٍ تفوق تسعة أشهر. وتلك المرأة مريضة". وأطرق ناظرًا أمامه. "خطر في بالي أنَّ في جوار أرض پول قطعة أرض صالحة. فربَّما أُقنِع آل أَلْطمان بالبقاء. إذ إنَّ وجود عائلة أُخرى في الوادي لا بدَّ أن يكون أمرًا جيِّدًا". ثمَّ نظر إليها مبتسمًا. "يمكنكِ أن تستفيدي من وجود صديقاتٍ في الجوار".

صديقات؟ "ماذا تحسب أنَّه يمكن أن يجمعني بهنَّ؟"

"لماذا لا ننتظر ونرى؟"

ثمَّ خيَّموا على مقربة من صخرة صوَّان ذات نُتوءٍ كبيرة يمكن أن يوفِّر لهم وقاءً من المطر. وبينما مايكل وجان يُقيِّدان الأحصنة وينصبان خيمة، أعدَّت آنجل وإليزابث وميريام عُدَّة التخييم. وجمع الأولاد من الحطب ما يكفي النار طوال الليل، وأتوَا ببعضه إلى ميريام، حيث كانت هي والباقون متجمِّعين تحت الخيمة. وأحدثت ميريام فتحة صغيرة في سقف الخيمة، قائلةً: "تعلَّمتُ هذا من الهنود"، ومبتسمةً وهي تُشعِل نارًا داخل حوض غسيلٍ معدنيٍّ وسط الخيمة تمامًا. فتصاعد الدُّخان وخرج من الثقب على نحوٍ مدهش.

بدت إليزابث مُنهَكةً للغاية، حتَّى ألحَّت آنجل عليها أن تستلقي. وأدخل مايكل شيئًا من مؤونتهما، فرتَّبت آنجل طبخة. وإذ لبثت إليزابث مستيقظةً، راقبَتها بصمت. فنظرت إليها آنجل باضطراب، مُتسائلةً عمَّا تُفكِّر فيه.

وقالت إليزابث مرتعشةً: "أشعر بأنّي عديمة النّفع"، فانحنت ميريام لتربّت وجهها برفق.

"باطل، يا ماما. يمكننا أن نُدبِّر الأمور". وابتسمت لها ابتسامةً فيها شَيْطنة. "عندما تتحسّنين، وندَعك تقومين بكلِّ شيءٍ وحدك". ثمَّ نظرت إلى آنجل وهمست: "إنَّها قَلِقة دائمًا من جرّاء الهنود. فإنَّ صبيًّا صغيرًا تاه عن العربات على بعد مئة ميل من فورت لارامي. ولم يظهر له أيُّ أثر. ومنذ ذلك الحين تفزع ماما كثيرًا أن يُخطَف أحدٌ منّا". ونظرت ثانيةً إلى أمّها مستريحةً على فراش القشّ. "ستتحسّن حالُها الآن ما دامت تستطيع أن تستريح".

دفّأت ميريام يديها على النار، مبتسمةً لآنجل من ورائها. "مهما كان ما تطبخينه، فرائحته طيِّبة". ومضت آنجل تُحرِّك القِدر بغير تعليق. "كم مضى على وجودك في كاليفورنيا؟"

"سنة".

"إذًا لم تتزوَّجي مايكل حتّى وصلتِ إلى هنا. لقد قال إنَّكِ جئتِ عام ٤٨. هل سافرتِ بطريق البرّ؟"

"لا، بل بالسفينة".

"أعائلتُكِ في الوادي الذي وصفه مايكل لوالدي؟"

لقد عرفت آنجل أنَّ الأسئلة ستتوالى، وأنَّ تلفيق الأكاذيب سيلفُّ عليها عُقَدًا أكثر إحكامًا. فلماذا لا تحسم الأمر الآن، وعندئذٍ تدعها الفتاة وشأنها؟ لعلَّهم إذا عرفوا الحقيقة جميعًا يقضون الشتاء في مكانٍ آخر. فمن المؤكَّد أنَّ تلك المرأة لن ترغب أن تنام في سرير سبق أن نامت فيه مومس. "جئتُ إلى كاليفورنيا وحدي. وقد قابلت مايكل في ماخور بمدينة پيرأدايس".

ضحكت ميريام. ثمَّ لمَّا تبيَّن لها إنَّ آنجل كانت تعني ما قالته، لزمت الصمت. "أأنتِ جادَّة؟"

"نعم". ومضت إليزابث ترمقها بنظرةٍ يتعذَّر تعريفُها. فخفضت نظرها، وتابعت التحريك.

لم تقل ميريام شيئًا بضعَ لحظات، وعادت إليزابث فأغمضت عينيها. أخيرًا قالت ميريام: "ما كان مِن داعٍ لأنْ تقولي أيَّ شيء. فلماذا قُلتِ؟"

أجابت آنجل بمرارة، وفي حلقها غصَّة: "حتّى لا تحدث لكم أيَّة مفاجآت صاعقة على الطريق".

قالت ميريام: "لا، بل عُدتُ إلى التطفُّل؛ ذلك هو السبب. تقول ماما إنَّ هذا

واحدٌ من عيوبي: رغبتي دائمًا في معرفة شأن كلِّ شخص آخر. آسفة!"

واصلت آنجل التحريك، وقد أزعجها اعتذار الفتاة.

وقالت ميريام: "أودُّ لو نصيرُ صديقتين؟"

فرفعت آنجل نظرها مدهوشةً: "لماذا تودِّين أن نصير صديقتين؟"

بدت الدهشة على ميريام. "لأنَّني أحببتُكِ".

وإذ أُخِذت آنجل على حين غِرَّة، حدَّقت إلى إليزابث. كانت المرأة تراقبهما وقدِ ارتسمت على وجهها ابتسامة واهنة. فتورَّد خدّا آنجل، ونظرت إلى الفتاة لتقول برقَّة: "لا تعرفين عنِّي الكثير سوى ما أخبرتُكِ توًّا". وتمنَّت آنذاك لو أنَّها لم تقلْ شيئًا.

قالت ميريام بضحكةٍ فاترة: "أنا أعرف أنَّكِ محترمة وصادقة". ثمَّ أضافت بأكثرَ جِدِّيَّةً: "على نحوٍ مُميَّز". ولاحت في عينيها نِظرةُ تَفكُّر فيما تفحَّصت آنجل.

ثمَّ دخل الوالدان، ومعهما هبَّةُ هواءٍ بارد. واستيقظت البنتان وبدأت رُوث تبكي. فجلست إليزابث وضمَّتها، وطلبت من الولدين أن يكفَّا عن ثرثرتهما الصاخبة. ودخل جان فأسكتهما بكلمة واحدة. ورأت آنجل مايكل وراءه تمامًا. فلمَّا ابتسم لها، انفرجت أساريرها. ثمَّ أقلقها التفكير في ما قد يقوله إذا علم أنَّها أفشت الحقيقة بلا رويَّة أو تفكير.

خلع الرجلان سترتيهما المبلَّلتين، ثمَّ قعدا قرب النار، فيما سكبت آنجل يخنة الفاصوليا في طاساتٍ قدَّمتها ميريام. ولمَّا حصل الجميع على حصصهم، حنى جان رأسه، وحذت عائلته حذوه. "شكرًا لك يا ربّ على إنقاذك لنا اليوم، وعلى إتيانك إلينا بمايكل وأماندا هوشع. نرجو أن تحمي حبيبينا المفقودين، دايفد والوالدة. كما نرجو أن تهب إليزابث قوَّة متجدِّدة. واحفظنا جميعًا أصحّاء وأقوياء طَوال السَّفرة المُقبِلة علينا. آمين!"

سأل جان أسئلةً عن الأرض والمحاصيل وسوق كاليفورنيا، فيما طلب جاكوب وأندرو حصَّة ثانية من الفاصوليا والبسكويت. وتساءلت آنجل عن الوقت الذي فيه يغدو مايكل على استعداد للرجوع إلى عربتهما. وأحسَّت أنَّ ميريام تراقبها إلَّا أنَّها لم تُرِد أن تعرف أيَّةُ أسئلة تدور في ذهن الفتاة بعدما أُتيح لها وقتٌ للتفكير في الأمر.

قال أندرو: "لقد وقف المطر يا بابا".

فهمست آنجل لمايكل: "ألا ينبغي أن نذهب إلى عربتنا الآن؟"

وقال جان: "بيتا هنا. لدينا مكان واسع. فما دامت النار مشتعلة، فالداخل هنا

سيكون أكثر دفئًا من مؤخَّر عربتكما".

قبِل مايكل العرض، وغاص قلب آنجل حين مضى لإحضار حِراماتهما. فاستأذنت بسرعة ولحقت به. وقالت: "مايكل"، مفتِّشةً عن كلمات لتُقنِعه بوجوب المبيت في العربة وليس في الخيمة مع آل ألْطمان. ثمَّ مدَّ يده وقرَّبها إليه، وقبَّلها قبلةً قويَّة. وبعدما أدار ظهرها نحو الخيمة، همس في أُذنها: "عاجلًا أو آجِلًا، ستعرفين أنَّ في العالم أناسًا لا يريدون استغلالكِ. فالآن استجمعي شجاعتك وعودي إلى الداخل هناك، وتعرَّفي بقليلٍ من الأمور".

شدَّت آنجل شالها حول جسمها بإحكام، ودلفت إلى الخيمة مُسرِعةً. فابتسمت لها ميريام. غير أنَّها قعدت قرب النار خَجِلةً ولم تنظر إلى أحد، منتظرةً رجوع مايكل. وترجَّى الصبيَّان من أبيهما أن يقرأ لهما من رواية "روبنسُن كروزو". فتناول جان مجلَّدًا عتيقًا من صُرَّة، وشرع يقرأ، فيما مدَّت ميريام الفُرُش. أمَّا رُوث الصغيرة، وإبهامُها بعدُ في فمها، فجرَّت حِرامها من موضِعه ووضعته بِلزق آنجِل. "أُريد أن أنام هنا. "ضحكت ميريام. "طيِّب، أظنُّ، يا روثي، أنَّه أفضلُ لكِ أن تطلبي إذنًا من السيِّد هوشع. ربَّما يريد أن ينام هو أيضًا هناك".

فقالت روثي، داعمةً طلبها بوضوح: "يمكنه أن ينام إلى الجانب الآخر".

ثمَّ أحضرت ميريام لحافَين، وناولت آنجل أحدهما. وهمست في أُذنِها مُنحنيةً صوبها: "أرأيتِ؟ هي أيضًا تُحِبُّكِ".

أجالت آنجل نظرها فيهم، وهي تشعر بألم مفاجئ في معدتها. ثمَّ دخل مايكل حاملًا مزيدًا من الحِرامات. "العاصفة آتية. وإن أسعفنا السَّعد تهدأ عند الصباح".

بينما نام الآخرون، تمدَّدت آنجل مستيقظةً بجانب مايكل، وقد عصفت الريح ولاطم المطر الخيمة. فإذا بصوت العاصفة ورائحة قماش الخيمة المبلَّل يُذكِّرها بأسابيعها الأُولى في پيرأدايس.

تُرى، أين الدوقة؟ وميغان ورَبيكا؟ ماذا جرى لهنَّ؟ وحاولت ألَّا تُفكِّر في لاكي إذ ماتت في الحريق، بل ظلَّت تتذكَّر قولها: "لا تنسَيني، يا آنجل. لا تنسَيني".

لم تستطع آنجل نسيان أيَّة واحدة منهنَّ.

ولمَّا انقطع المطر، أصغت آنجل إلى تنفُّس النائمين حواليها. ثمَّ انقلبت على مهلٍ إلى جانبها، وتأمَّلتهم. كان جان ألْطمان راقدًا قرب زوجته الضعيفة، مُطوِّقًا إيَّاها بذراعه على سبيل الحماية. وكان الصبيَّان نائمين قربهما، وأحدُهما متمدِّد على ظهره باسطًا

يديه ورجليه، فيما الآخر متكوِّم على جنبه والحِرامُ فوق رأسه. أمّا ميريام ولِيّه فكانتا ملتصقتين إحداهما بالأُخرى كأنّهما ملعقتان، وذراعُ ميريام حول أُختها.

استقرّت عينا آنجل على وجه ميريام النائمة. لقد كانت تلك الفتاة خامةً جديدة.

لم تكنْ آنجلِ قد عرفت فتيات صالحات كثيرات. فأولئك اللواتي كُنَّ في منطقة الميناء أبعدتهنَّ أُمّهاتُهنَّ عنها. وقد قالت سالي مرّة إنَّ الفتيات الصالحات غبيّات وعيّابات كثيرات الانتقاد، ولذلك عندما يكبرن ويتزوَّجن يرتاد أزواجهنَّ المواخير. أمّا ميريام فليست غبيّة ولا عيّابة. فقد مازحت أباها بأدب طيلة المساء وهي تعتني بأُمّها المريضة. ومن الواضح أنَّ أُختيها وأخويها يحبّونها ويحترمونها. إنّما جاكوب وحده عارضها عندما طلبت منه القيام بأمر ما، فكانت نظرةٌ واحدة من أبيها كفيلةً بإنهاء معارضته. ولمّا آن وقت إواء الصغار إلى الفراش، كانت ميريام هي التي أنامتهم وغطّتهم وصلّت معهم بهدوء فيما الرجُلان يتحدّثان.

"أودُّ أن نكون صديقتين".

أغمضت آنجل عينيها. آلمها رأسُها. عمَّ يمكن أن تتحدَّث هي وميريام؟ لم يكن لديها أدنى فِكرة، ولكنْ بدا أنّها ستواجه الأمر. كان الرجلان قد كوّنا في الحال علاقةَ أُلفة. فكلاهما يحبّان الأرض. وقد تحدَّث جان ألْطمان عن أُوريغون كما لو كانت امرأةً أُخرى مُشتهاة، وتحدَّث مايكل عن الوادي بالطريقة عينها. وكانت ميريام قد قالت بسخطٍ ضاحكة: "بابا، كنتَ مقتنعًا بأنَّ كاليفورنيا جنّة حتى انحدرنا من جبال سييرا".

فهزَّ رأسه. "المكان هنا أكثر ازدحامًا من أُوهايو. فالمنطقة كلُّها تغصُّ بصائدي الثروات".

قالت ميريام، وقد بدت غمّازةٌ في أحد خدَّيها: "كلُّ أولئك الشبّان الطيّبين الطالعين من عائلات صالحة، وربّما كان بينهم أيضًا أقلّاء من أوهايو..."

فعلّق جان ألْطمان عابسًا: "وقد صاروا طائشين".

ولكزت ميريام كتفه. "كان من شأنك أنت أيضًا أن تكون مُصفّيًا الذهب في إناءٍ وسط النّهر، يا بابا، لو لم نكن نحن كلُّنا عندك كي ترعانا. لقد رأيتُ وميض الجشع في عينيك حين كان ذلك الرجل يخبرك عن تلك الضَّربة الموفَّقة في مجرى نهر أميرِكان".

ثمّ شملت مايكل وآنجل في الحديث وتابعت: "يملك الرجُل الآن متجرًا كبيرًا مملوءًا بالبضائع حتّى السّقف. وقد قال إنّه جاء إلى كاليفورنيا وليس معه إلّا القليل فضلًا عن رفشه والثياب التي على جسمه".

فقال لها جان: "فرصة واحدة من مليون".

وتابعت ميريام حديثها على نحوٍ تمثيليّ، واضعةً يدًا على قلبها، وعيناها تشعّان أذى: "آه، إنّما فكّر في الأمر، يا بابا. كانَ في وسعك مع أخَويَّ أن تشتغلا في غسل التراب والحصى عن الذهب وتلقيم المدفع البحريِّ القديم، فيما نُدير أنا وماما مقهىً صغيرًا في المخيّم يؤدّي خدماته لجميع أولئك الشبّان العُزّاب الوُسَماء الأعزّاء المساكين المُعذَّبين".

إذ ذاك ضحك مايكل، وشدَّ جان بضفيرةِ ابنته.

خلب آل ألْطمان لُبَّ آنجل. فإنّهم جميعًا يحبّون بعضهم بعضًا. وقد اتَّضح أنَّ جان ألْطمان ربُّ أُسرته حقًّا، ولم يكن ليسمح بأيِّ قلّة احترام أو عدم طاعة. إنّما كان واضحًا أنَّ زوجته وأولاده لم يكونوا ينظرون إليه نِظرةَ خوف. حتّى عصيانُ جاكوب القصير الأمد عولج بحزمٍ ومَرَح. فقد قال أبوه: "كلما خالفتَ الأوامر، أدّبتكُ بالصفع على قفاك. فمنّي الصفع، ومنك القفا". عندئذٍ أذعن الصبيُّ ونفش جان له شعره بحنان.

ماذا لو قرّروا البقاء في الوادي؟ مسّجت آنجل صدغيها النابضين ألمًا. أيُّ شيءٍ مشتركٌ بينها وبينهم؟ خصوصًا عذراءَ في مقتبل العمر لها عينا غزال؟ لمّا تفوّهت دون تروٍّ بمهنتها السابقة وكيف التقاها مايكل أوّل مرّة، كانت قد توقّعت أن تُصعَق الفتاة وتدعها وشأنها. إنّما آخر شيء توقّعَته كان تلك النظرة الفاحصة المقرونة بالاهتمام، مع مدِّ يد الصداقة.

أحسّت آنجل حركةً بقربها، وفتحت عينيها رغم الألم في رأسها، فإذا بروثي تدنو منها التماسًا للدفء في نومها، وقد أفلتت إبهامها من فمها. ومسّت آنجل الخدَّ الورديَّ الناعم، فرأت فجأةً وجه دُوك الغاضب طافيًا أمام عينيها. وشعرت ثانيةً بالصفعة على خدِّها. "قلتُ لكِ أن تتّخذي الاحتياطات الواجبة!" واستطاعت أن تحسّه يجرُّها من السرير ممسكًا بها من شعرها حتّى بات وجهُه مقابل وجهها تمامًا، وقال من بين أسنانه: "كانت أوّل مرّة سهلة. لكنْ هذه المرّةَ سأتحقّق من ألّا تحبلي أبدًا".

لمّا جاء الطبيب، رفسَت وقاومَت، ولكنَّ ذلك لم ينفعها. فقد ربطها دُوك ورجلٌ آخر على السرير، وأمر الطبيب قائلًا: "قُم بعملك!" ثمَّ وقف يراقبه ليتأكّد من قيامه به. ولمّا بدأت تصرخ، وضعوا في فمها خرقة. وكان دُوك ما يزال واقفًا هناك لمّا انتهت محنتُها. وإذ نهشها الألم وأضناها نزف الدم، أشاحت بوجهها عنه.

آنذاك قال لها دُوك: "ستتحسّنين في غضون أيّام قليلة"، ولكنّها علمت أنّها لن تتحسّن البتّة. فشتمَته بأبذإ شتيمةٍ تعرفها، إلّا أنّه اكتفى بأن تبسّم، ثمَّ قال: "هذه آنجِل، ملاكي. لا دموع. مُجرّدُ بُغض. إنَّ ذلك يُدفئني، يا حلوتي. ألم تعلمي ذلك بعد".

وقبّلها بشدّة قائلًا: "سأرجع عندما تصير حالتك أحسن". ثمّ ربَّت خدها ومضى.

عذّبت هذه الذكرى السوداء آنجِل إذ حدَّقت إلى روث ألْطمان الصغيرة. وأرادت إرادةً شديدة أن تُغادِر الخيمة، لكنَّها خشيت أن توقظ الآخرين إذا نهضت. فحدَّقت إلى سقف الخيمة، وحاولت أن تُفكِّر بشيءٍ آخر. ثمّ هطل المطر من جديد، فانتابتها معه جميعُ أشباحها القديمة.

همس مايكل: "ألا يمكنكِ أن تنامي؟" فهزَّت رأسها إيجابًا.

قال: "اقلبي على جنبك". ولمَّا فعلت ذلك شدَّها صوبه، وألصق جسمه بجسمها. وتحرَّكت الطفلة، مُكنكِنةً تحت اللحاف وملتصقةً ببطن آنجل. فتمتم مايكل: "لقد حظيتِ بصديقة!" فطوَّقت آنجل رُوث بذراعها، وأغمضت عينيها. وألقى مايكل ذراعه حول كلتيهما، هامسًا في أُذن آنجل: "عسى أن نُرزق واحدةً مثلها ذات يوم!"

ثمّ حدَّقت آنجل إلى النار واليأسُ مُستَولٍ عليها.

الفصل

التاسع عشر

تحبُّ قريبك كنفسك.

(المسيح، إنجيل متّى ١٩: ١٩)

أنزل مايكل آل ألْطمان على الرحب في الكوخ، وحمل صندوقه الخاصّ على كتفه. ولحقت به آنجل إلى الحظيرة، ساكتةً عن أيِّ اعتراض. فقد تبيَّن لها أنَّ قراره نهائيّ. ماذا سيجني من هذه الصفقة يا تُرى؟ ولماذا يفعل هذا لأجل غُرباء محض.

هطلت الأمطار يومًا بعد يوم. وبعد الليالي القليلة الأولى، وجدت آنجل سلوى في أصوات البوم بين ألواح السقف، وفي حركة الفئران الخفيفة في القشّ. وقد أبقاها مايكل دافئة. وكان أحيانًا يستكشف جسدها، باعثًا فيها أحاسيسَ غريبةً وتِّرت أعصابها. حتَّى إذا باتت رغبتُه هو أشدَّ من أن تُحتمَل، كان ينكفئ عنها ويتحدَّث عن ماضيه، ولا سيَّما تلك الخادمة الحسناء التي ما زال يحبُّها. وفي تلك اللحظات الهادئة الوادعة، ألفَت آنجل نفسها مُخبِرةً إيَّاه بما علَّمتها سالي.

وبينما رأسُها مُسنَد على يده، عبث بشعرها سائلًا: "هل تعتقدين، يا أماندا، أنَّها كانت على حقٍّ بشأن كلِّ شيء؟"

"ليس بحسب مبادئك، على ما أظنّ".

"بحسب مبادئ مَن تُريدين أن تعيشي؟"

وفكَّرت قبل أن تجيب: "مبادئي أنا".

خارجَ حبس الحظيرة وذراعَي مايكل الحافظتَين، كانت آنجل هدفًا لمحادثة ميريام الودّيّة. ففي كلِّ مناسبة، قوَّضتِ الفتاة عزم آنجل على الاستمرار في التحفُّظ والتكتُّم والابتعاد. وقد أضحكتها ميريام. إذ كانت في ريعان الصِّبا، ومُفعمةً بالإزعاج البريء. أمَّا ما لم تستطع آنجل استيعابه، فكان السبب الذي دفع تلك الفتاة لأنْ تكون صديقةً لها. وقد علمت أنَّ عليها ألَّا تشجِّعها، إلَّا أنَّ الفتاة كانت تغدو أكثر انفتاحًا حيال صدودها، وظلَّت تمازحها بإزعاجات بسيطة لطيفة وتُبهِجها.

ولمّا كانت آنجل قد حُرِمت في صغرها كلَّ حياة عائليّة، فإنّها لم تدرِ ماذا كان يُتوقَّع منها حين تقضي السهرات في الكوخ مع العائلة. وكانت تقعد هادئةً تُراقِب. وقد أسرتها الصداقة الودودُ المتينة بين جان وإليزابث ألْطمان وأولادهما الخمسة. كان جان رجُلًا صُلبًا قلّما يبتسم، ولكنْ كان واضحًا أنّه يحبُّ أولاده، وأنّه يكنُّ مودّةً خاصّة لابنته الكُبرى، رغم مشاجراتهما الدائمة.

كان أندرو الأسودُ العينين وأبوه مُتشابِهَين كثيرًا في المظهر والسلوك. وكان جاكوب اجتماعيًّا ومولعًا بالمداعبة السمجة، فيما كانت لِيَه رزينة وخجولة. أمّا روث الصغيرة، وهي صريحة ومتألّقة، فكانت عزيزةَ الأُسرة كلّها. ولسببٍ لم تستطع آنجل تدبُّرَه، تعلّقت بها الطفلة تعلُّقًا شديدًا. فربّما كان شعرها الأشقر هو ما جذب إليها روثي الصغيرة وفتنها. ومهما كان السبب، فكلّما جاءت آنجل ومايكل للانضمام إلى العائلة، جلست روثي عند قدميها.

ووجدت ميريام في ذلك تسليةً لها. "يقولون إنّ الكلاب والأطفال يمكنهم دائمًا انتقاء شخصٍ طيّب القلب. وأنا لا يمكنني الآن أن أعترض على ذلك، فهل يمكنكِ أنتِ الاعتراض؟"

على مدى أُسبوع كامل، كانت إليزابث أضعف من أن تقوى على مغادرة السرير. وعكفت آنجل على الطّبخ والقيام بالشؤون المنزليّة، فيما اعتنت ميريام بأُمّها وبالأولاد. أمّا مايكل وجان فكانا يقتلعان أُصول الأشجار المقطوعة في الحقل. وحين يرجعان لتناول العشاء، يجلس جان مع زوجته ممسكًا بيدها ويُكلّمها برقّة فيما يلعب الصغار ألعابًا شعبيّة مثل انتقاء العيدان وشدّ الخيطان.

ولدى مراقبة آنجل لجان، تذكّرت كلَّ تلك الأسابيع التي فيها اعتنى بها مايكل بعدما ضربها مغوان. وتذكّرت عنايته العطوف وحُنوّه البالغ، وكيف تحمّل أسوأ إهاناتها بصبرٍ وصمت. لقد كان وسط هؤلاء القوم كطائرٍ مع سربه، أمّا هي فكانتِ الغريبة الوحيدة.

لم تستطع آنجل إلّا إقامة المقارنات. فإنّ أباها كرهها كثيرًا حتّى قبل ولادتها بحيث أراد أن تُرمى كالقُمامة. وقد كانت أُمّها مفتونةً به إلى حدٍّ كاد يُنسيها أنّ لديها طفلة. ومن عيشتها بين المومسات، تعوّدت عِشرة نساء أقلقهنّ بلا انقطاع شكلُ أجسامهنّ وكونُهنّ قد بدأن يتقدّمن في السنّ. كما تعوّدت عِشرة نساءٍ أفرطن في الاهتمام بشعرهنّ وثيابهنّ، وكنّ يتحدّثن عن الجنس بسهولةٍ كما لو كنّ يتحدّثن عن الطقس.

وهكذا كانت إليزابث وميريام جديدتين عليها ورائعتين عندها. فقد أحبّت

إحداهما الأُخرى بشدَّة. ولم تتلفَّظا بأيَّة كلمة فظَّة، وكانتا نظيفتين ومُرتَّبتين بغير أن تنشغلا بمظهرهما، وتحدَّثتا عن أيِّ شيء ما عدا الجنس. ولئن كانت إليزابث أضعف من أن تقوم بأيِّ عمل، فقد نظَّمت ودوزنت أيَّام ميريام والأولاد. فنزولًا عند إلحاحها، نصب أندرو شَرَكًا للسَّمك في النَّهر. وكانت لِيَه تُحضِر الماء، وجاكوب يزيل الأعشاب الضارَّة من حديقة الخُضَر. حتَّى رُوث الصغيرة قدَّمت المساعدة، فكانت تضع الصحون والأواني على الطاولة، وتقطف الأزهار البريَّة لوضعها في الزهريَّة. أمَّا ميريام فكانت تغسل وتكوي وتُصلِح الثياب، فيما ترعى إخوتها. وشعرت آنجل بأنَّها عديمة النَّفع.

ولمَّا غادرت إليزابث الفِراش، تسلَّمت زمام الأُمور كلِّيًّا. فقد فكَّت صُرَّة فُرنها الهولنديِّ ومقاليها، وتولَّت الطَّبخ. وكان آل ألْطمان قد تزوَّدوا بالمؤن في سَكرامنتو، فجهَّزت وجباتٍ شهيَّةً من قديد اللحم المقليّ مع المَرَق، وطبخت فاصوليا مُحلَّاة بالدِّبس، وخبزت خُبز ذُرة، وطَهَت يخنة أرانب مع زلابية. وعندما أدَّى شَرك السمك عمله، قَلَتِ السَّلمون المُرقَّط مع التوابل. وقد صنعت خبز الجونيكَيك[١٧] فيما كانت تشوي بطَّتين. كما كانت معظم الأيَّام تصنع بسكويتًا من العجين المختمر للفَطور. وإذا أرادت تقديم طبق خاصّ، نقعت التفَّاح المجفَّف وصنعت حلوى.

وذات مساء تنهَّدت إليزابث وهي تضع الطعام على الطاولة. "ستكون لدينا ذات يوم بقرةٌ أُخرى، فنحصل من جديد على حليب وزبدة".

فقالت ميريام لآنجل: "كان لدينا بقرة عندما غادرنا ديارنا، ولكنَّ الهنود أُعجبوا بها وأخذوها منَّا على مقربة من فورت لارامي".

وقال جاكوب: "إنَّني مستعدٌّ لتقديم ساعة بابا لقاء ملعقة من مربَّى الخوخ"، فأضحك أُمَّه وصفعته صفعةً خفيفة.

وقد جرت عادة آل ألطمان أن يُقيموا تأمُّلاتٍ وصلاةً بعد العشاء. وغالبًا ما كان جان يطلب من مايكل أن يقرأ فصلًا من الكتاب المقدَّس. وكان الأولاد متيقِّظين وكثيري الأسئلة. ما دام الله قد خلق آدم وحوّاء، فلماذا سمح لهما بأن يُخطئا؟ وهل أراد الله لهما حقًّا أن يجولا في جنَّة عدن عاريَين؟ حتَّى في الشتاء؟ وإنَّ لم يكن هناك غير آدم وحوّاء، فمن يتزوَّج أولادهما؟

وبينما العيون تلتمع فرحًا، يُسنِد جان ظهره ليُدخِّن غليونه فيما تحاول إليزابث أن

١٧) خبز الجونيكيك: خبزٌ يُصنَع من دقيق الذرة ودقيق القمح والبيض واللبن.

تُجيب عن الأسئلة التي لا تنتهي. وكان مايكل يُدلي بآرائه ويعرض معتقداته، حاكيًا القصص أكثر منه قارئًا لها. حتّى قال له جان: "من شأنك أن تكون واعظًا ناجحًا". وكادت آنجل تعترض، لولا أنّها تنبّهت إلى كونه قد قال ذلك من باب الإطراء.

لم تُشارك آنجل قطُّ في الحديث. حتّى إنّها، حين سألتها ميريام عن رأيها، هزّت كتفيها بلامبالاة أو ردّت السؤال على الفتاة. ثمّ دخلت روثي ذات مساء صُلب الموضوع، إذ سألتها: "هل تؤمنين بالله؟"

وإذ لم تكن آنجل متيقّنةً كيف تُجيب، قالت: "كانت أُمّي كاثوليكيّة".

فانفغر فم أندرو، وقال: "سمعتُ أنّهم يتعبّدون للتماثيل!" فتورّد خدًّا إليزابث حياءً إزاء تعليقه، وتنحنح جان، فقدّم أندرو اعتذارًا.

قالت آنجل: "لا داعي. فإنّ أُمّي لم تتعبّد لأيّ تمثالٍ أذكره، بل كانت تُصلّي كثيرًا". ولم تكن على يقينٍ بأنّ صلاة والدتها نفعتها أيَّ نفع.

وسألت روثي التي تتعذّر السيطرة عليها: "لأجلِ ماذا كانت تُصلّي؟"

"الخلاص". وإذ عقدت عزمها على عدم المشاركة في نقاشٍ دينيّ، أحضرت الموادّ التي كان مايكل قد اشتراها لتخيط منها ثيابًا جديدة. وساد في الكوخ صمتٌ مطبق جعل الوخزَ ينتاب بشرتها.

ثمّ سألت روثي: "ما معنى الخلاص؟"

فأسكتتها إليزابث قائلةً: "سنتحدّث عن هذا في ما بعد. أمّا الآن فلديكم، أنتم الأولاد، واجباتٌ مدرسيّة عليكم القيام بها". ثمّ نهضت وأحضرت كتب الأولاد المدرسيّة. وبعد هُنَيهة، رفعت آنجل نظرها فرأت حملقة مايكل الرقيقة بها، فارتعش قلبُها على نحوٍ غريب. وحنّت إلى عتمة الحظيرة الباردة الساكنة، حيث لا يلاحظها أحد، حتّى هذا الرجل الذي بات يعني لها الكثير.

ثمّ حصرت اهتمامها مجدّدًا بالقماش المُلقى على حضنها. تُرى، كيف تبدأ عملها؟ فإذ لم تصنع قبلًا ثيابها بيدها، لم تعرف كيف تبدأ. ومضت تفكّر في المبلغ الكبير الذي صرفه مايكل، متخوّفةً أن تقصّ ثوب القماش فتُفسِده.

إذ ذاك قالت ميريام مُكشِّرةً: "يبدو عليك الاكتئاب والارتباك. ألا تحبّين الخياطة؟"

استطاعت آنجل أن تحسّ تدفُّق التورُّد إلى خدَّيها. لقد أذلّها جهلُها وقلّةُ خبرتها. طبعًا، من شأن إليزابث وميريام أن تعرفا تمامًا ما ينبغي فعله. فأيّة فتاة جيدة يمكنها أن تخيط بلوزة وتنُّورة.

بدا الحزن فجأةً على وجه ميريام، وكأنَّها أدركت أنَّها لفتتِ الانتباه إلى حيثُ لا ينبغي. فابتسمت لآنجل ابتسامةً متردِّدة. "أنا لا أستمتع بالخياطة كثيرًا. فماما هي الخيَّاطة في عائلتنا".

وتطوَّعت إليزابث، قائلة: "يسرُّني أن أُساعدكِ".

فقالت آنجل بخشونة: "لديكِ عملٌ كافٍ تقومين به".

وانفرجت أسارير ميريام. "هلَّا تدعين ماما تخيط لكِ، يا أماندا! فهي تحبُّ الخياطة، ولم يكن لديها الكثير منها لتقوم به منذ سنة". وبغير انتظار جواب، أخذت الموادَّ من آنجل وأعطتها لأُمِّها.

ضحكت إليزابث، وبدت عليها البهجة. "هل يسوؤكِ ذلك يا أماندا؟"

أجابت آنجل: "لا أظنّ". وأبدت إجفالةَ مفاجأةٍ إذ صعدت روثي إلى حضنها.

وكشَّرت ميريام قائلةً: "إنَّها لا تفعل شيئًا سوى عضّ أخويها".

مسَّت آنجل الشعر الحريريَّ الفاحم، فسحرها. كانت روث الصغيرة ناعمة وطيِّبة، ذات خدَّين ورديَّين وعينين عسليَّتين لمَّاعتين. فأحسَّت آنجل غمًّا في قلبها. كيف كان من شأن مولودها أن يبدو لو أبصر النور؟ ثمَّ طردت من ذهنها الذكرى المروِّعة المتعلِّقة بدُوك والطبيب، واستمتعت بمودَّة روثي. فقد كانت الصغيرة تُثرثِر كالحسُّون، فيما آنجل حانيةً رأسها تتسمَّع. وإذ التفتت، رأت مايكل يحدِّق إليها. إنَّه يريد أولادًا، هكذا فكَّرت. ولطمَتها تلك الفكرة لطمةً شديدة في قعر معدتها. ماذا لو عرف أنَّها لا تستطيع الإنجاب؟ أيموت عندئذٍ حبُّه لها؟ لم تستطع أن تصمد أمام حملقته.

سألت ميريام: "بابا، هلَّا تعزف لنا الكمنجة! إنَّك لم تعزف منذ مدَّة طويلة".

وتوسَّل جاكوب ولِيَه: "بابا، رجاءً!"

فقال: "إنَّها مُخبَّأة في الصُّندوق هناك"، والفتورُ بادٍ في عينيه. وتوقَّعت آنجل أن ينتهي الحديث هنا، غير أنَّ ميريام كانت عنيدة.

"لا، ليست هناك. لقد أطلعتُها هذا الصباح". فرمق جان ابنته بنظرةٍ حادَّة، ولكنَّها ابتسمت فحسب، وركعت بقربه واضعةً يدها على ركبته. "رجاءً، بابا!" وكان صوتُها رقيقًا جدًّا. "لكلِّ شيءٍ أوان، ولكلِّ أمرٍ تحت الشمس إبَّان؛ هل تذكر؟ «للبكاء وقت، وللضحك وقت؛ للنوح وقت، وللرقص وقت»!"

كانت إليزابث قد لبثت صامتةً حيث وقفت، ويداها على ثوب القماش المنشور على طاولة السُّفرة. فلمَّا نظر إليها جان، بدت عيناه ناضحتين بالألم. وأمَّا عيناها فقد اغرورقتا.

"مضت مدَّة طويلة، يا جان. في يقيني أنَّ أماندا ومايكل سيَستسيغان سماع عزفك".

أومأت ميريام برأسها لِلِيّه، فأحضرت الآلة والقوس، وناولت أباها إيّاهما. وبعد حين، أمسك بهما ووضعهما في حضنه.

وبينما هو يُمرِّر أصابعه على الأوتار، أقرَّت ميريام: "لقد دوزنتُها عصرَ اليوم حين كنتَ في الحقل". ثمَّ رفعها وثبَّتها تحت ذقنه وشرع يعزف. وما إنِ انسابت أوَّل نغمات اللحن، حتَّى ترجرجت عينا ميريام بالدموع، وأخذت تُنشِد بصوتٍ صافٍ عالٍ. حتَّى إذا فرغ من العزف، وضع الكمنجة على حضنه من جديد.

ثمَّ قال والتأثُّر الشديد بادٍ عليه: "كان ذلك جميلًا". ومسَّ شعر ابنته، مُردِفًا: "لأجل دايڤد، هُمْم؟"

"نعم بابا".

رفعت إليزابث رأسها، والدموع تسيل على خدَّيها، وقالت لآنجل ومايكل: "هو ابنُنا. كان في الرابعة عشرة فقط حين..." ثمَّ تهدَّج صوتها وأشاحت بنظرها.

وقالت ميريام: "كان يُغنّي ألتو. وكان صوتُه رائعًا. كان يُفضِّل الألحان السريعة النابضة. ولكنَّ «ما أعظم النعمة» كانت ترنيمته الأثيرة. إنَّه كان مُفعَمًا للغاية بالحيوية وحبِّ المغامرة".

وجاهدت إليزابث لتقول: "لقد قُتِل بقرب جُرف الإسكوتلنديّ. فإنَّ حصانه أوقعه وهو يطارد جاموسًا، وارتطم رأسُه بالأرض الصخريَّة".

ثمَّ لم يقُل أحدٌ كلمةً وقتًا طويلًا، إلى أن قال جاكوب أخيرًا مخترقًا جدار الصمت: "ماتت جدَّتنا عند حوض هَمبولْدت".

وقعدت إليزابث على مهل. "كنَّا نحنُ آخِر من بقي من أُسرتها. ولما قرَّرنا المجيء إلى الغرب، جاءت معنا. لم تكن صحَّتها حسنةً قطّ".

فقال جان: "لم تكُن نادمة، يا ليزا".

"أعرف يا جان".

وتساءلت آنجل عن إليزابث هل كانت نادمة. لعلَّها لم تُرِد قطُّ مغادرة الديار. ربَّما كانت الفكرة كلُّها فكرة جان. وقلَّبت آنجل نظرها بينهما، متسائلةً عن جان أكان يفكِّر في الأمر عينه. ولكن لمَّا استعادت إليزابث رباطة جأشها، ونظرت إلى زوجها عبر الكوخ، لم تبدُ عليها أيَّة ملامح استياء. فرفع جان الكمنجة مجدَّدًا وعزف لحن ترنيمة أُخرى. وشارك مايكل في الترتيل هذه المرَّة. فملأ صوتُه القويُّ العميق أرجاء

الكوخ، وغمرتِ الرهبة قلوب الأولاد.

ثمَّ قالت إليزابث، مبتسمة بابتهاج: "عظيم! لقد باركك الربُّ حقًّا، يا سيِّدُ هوشع".

وأراد الصبيَّان إنشاد بعض أغاني السَّفَر، فلبَّى أبوهما الطلب. حتَّى إذا فرغا من ذخيرتهما، أخبرهم مايكل عن عزرا والعبيد الذين كانوا ينشدون في حقول القطن. وغنَّى لهم أُغنيةً تذكَّرها، وقد كانت حزينة ومؤثِّرة: "ترجَّحي ترجَّحي، يا عربةً خفيضةً جميلة، مُقبِلةً لإقلالي إلى دياري..."وقد اخترق صوت مايكل قلب آنجل.

كانت آنجل متوتِّرةً لمَّا رجعت مع مايكل أخيرًا إلى علِّيَّة الحظيرة. وقد جال في رأسها كثير من الأسئلة الافتراضيَّة. ماذا لو أنَّ ماما تزوَّجت برجُل مثل جان ألْطمان؟ ماذا لو نشأت هي في عائلةٍ مثل هذه العائلة؟ ماذا لو وصلت إلى مايكل سالمةً وطاهرة؟

لكنَّ الأمور لم تجرِ على ذلك النحو، والتمنِّي لم يُحسِّنها قطّ. ثمَّ جاهدت لممازحة مايكل، فقالت: "كان من شأنك أن تُبلي حسنًا جدًّا في حانة الدولار الفضِّيّ. فالمغنِّي هناك لم يكن جيِّدًا مثلك تقريبًا. وقد استخدم بعضًا من ألحانك". ثمَّ أضافت ساخرةً: "إلَّا أنَّ كلمات الأغاني كانت مختلفة تمامًا".

فقهقه مايكل قائلًا: "من أين تحسبين الكنيسةَ أخذت معظم ألحانها بادئ الأمر؟ لقد كان الوعَّاظ يحتاجون إلى نغماتٍ تحمل جمهورهم على مجاراتهم في الإنشاد". ثمَّ وضع ذراعيه خلف رأسه قائلًا: "ربَّما كان يمكنني اجتذاب عدد قليلٍ من المهتدين!"

لقد كان يُغيظها، وهي لم ترِد أن تلين بعدُ تجاهه. وقد أوجع قلبها بما قاله. حتَّى إذا نظرت إليه، أحسَّت أعصابها مشدودةً، فقالت: "الأغاني التي يمكنني أن أُغنِّيها لك بذيئة". وشعرت بصمته المتعمَّد إذ خلعت ثيابها واندسَّت تحت الحِرامات. وكان قلبها يدقُّ بسرعةٍ شديدة حتَّى تساءلت هل أمكنه سماعُ ذلك. وقالت: "إيَّاك أن تحاول تعليمي أناشيدك. فلن أُرنِّم تسابيح الله من أجل أيِّ شيء".

لم يتحوَّل مبتعدًا عنها كما تمنَّت، بل ضمَّها بين ذراعيه القويَّتين وقبَّلها حتَّى لم تكد تقوى أن تتنفَّس. وقال: "ليس الآن، على كلِّ حال". وقد أضرمت يداه الشرارة في داخلها حتَّى صارت لهيبًا، غير أنَّه لم يخمده. إذ وفَّر لها الفُسحة والحريَّة اللتين اعتقدت أنَّها تحتاج إليهما، وترك اللهيب يضطرم.

في غضون أيَّام قليلة، صار عند إليزابث بلوزةٌ مربَّعة القماش وتنُّورة كستنائيَّة اللون

جاهزتان للقياس. وتردّدت آنجِل في خلع ملابسها، إذ شعرت بالحَرَج بسبب ثياب تَسّي التحتانيّة البالية. وقالت ميريام: "ماما، إنّها بحاجة إلى ثنية أُخرى هنا"، طاويةً إلى الداخل نحو سنتيمترين من قماش خصر التنُّورة.

أجابت إليزابث: "نعم، وإلى مزيدٍ من الفضفضة من خلف"، مُجمّعةً القماش في الناحية الخلفيّة من التنوُّرة.

انزعجت آنجل من قيامهما بكثيرٍ من العمل لأجلها. فكلمّا قلَّ ما تعملانه، قلّت مديونيّتها لهما. "سوف اشتغل في الحديقة وأنا لابسةٌ هذه الثياب".

ردّت ميريام: "لا داعيَ لأنْ تظهري كالكادحة البئسة وأنت تقومين بذلك".

"لا أُريد أن تتعبا كثيرًا لأجلي". لقد كان الطقم جميلًا على حاله. فلا ضرورةَ لأنْ يكون القياس مثاليًا.

قالت إليزابث: "نتعب؟ هُراء! لم تكن لي مثل هذه المتعة طيلةَ شهور! يمكنك أن تخلعي الثوب الآن. احذري الدبابيس".

وإذ خلعت آنجل الطقم، وتناولت بسرعة ثياب تَسّي البالية، لاحظت نظرة إليزابث المُشفِقة إلى القميصول العتيق والسروال التحتيّ الرثّ. لو كانت قد أحضرت ملابسها من القصر، لتعجّبت هاتان السيّدتان. فربّما لم يسبق لهما أن رأتا الثياب التحتانيّة المصنوعة من الساتان والمخرّم الفرنسيّين، أو أرواب الحرير الصينيّة. وكان دُوك لا يُلبِسها إلّا أفخر الثياب. حتّى الدُّوقة، رغم دناءتها، ما كانت لتُفكِّر في إلباسها مثل تلك الثياب غير الأنيقة. ولكنْ لا، فإنّه كان عليها أن تظهر لهما في ثيابٍ تحتانيّة مصنوعة من خام أكياس الطحين المستعملة!

أرادت أن تُفسّر لهما بأنَّ تلك الثياب لم تكن لها، وأنّها كانت لأُخت مايكل. ولكنْ كان من شأن ذلك أن يُثير فقط أسئلةً تشمئزُّ من الإجابة عنها. وأسوأُ من ذلك أنَّ الأمر سينعكس على مايكل انعكاسًا سيّئًا. فهي لم تشأ لهما أن تُفكّرا فكرًا رديئًا بشأنه. ولم تدرِ لماذا همّها ذلك إلى هذا الحدّ، غير أنّه همّها فعلًا. فارتدت ثيابها بسرعة، وتلعثمت وهي تقول: "شكرًا"، ثمّ فرّت إلى الحديقة.

أين كان مايكل؟ ودّت لو يكون بقربها. فقد كانت تشعر بأنّها أكثر أمانًا في حضوره. كما كانت تشعر بأنّها أقلُّ وحدةً وغُربةً حين يكون تحت نظرها. لقد خرج مع جان إلى الحقل منذ الصباح لاقتلاع أُصول الشجر المقطوع، ولكنّها لم ترهما في أيِّ مكانٍ الآن. ولم تكن الأحصنة في الزريبة. فلعلَّ مايكل اصطحب جان إلى الصَّيد.

كانت لِيَه الفتيَّة تجمع الخسَّ البرّيَّ من حول أشجار السنديان، وأندرو وجاكوب يصيدان السمك. فانحنت آنجل تُعشِّب الحديقة، وحاولت ألَّا تُفكِّر في أيِّ شيء.

وقفت رُوث الصغيرة بباب الحديقة، قائلةً: "أيمكنني أن ألعب هنا؟ ماما تغسل وتقول إنَّني أُزعِجها".

ضحكت آنجل: "تعالَي، يا حبيبة قلبي".

قعدت روثي في الممرّ حيث كانت آنجل تشتغل، ولم تكفَّ عن الكلام وهي تقتلع النباتات التي تدلُّها آنجل عليها. "أنا لا أحبُّ الجزر. إنَّني أُحبُّ الفاصوليا الخضراء".

ثمَّ أقبلت ميريام تفتح الباب بدفعةٍ واحدة، قائلةً: "إذًا أنتِ هنا. قلتُ لماما إنَّني أعرف أين أجدكِ". وهزَّت سبَّابتها على أُختها الطفلة. ثمَّ انحنت وربَّتت ذقن روثي. "أنتِ أذكى من أن تتركيها وحدها بغير أن تقولي لها تمامًا إلى أين أنتِ ذاهبة".

"أنا مع ماندي".

قالت: "ماندي؟" ثمَّ انتصبت وعيناها ترقصان على آنجل، وأضافت: "حسنًا، إنَّ ماندي تشتغل".

فرفعت آنجل الجزرة الصغيرة من السلَّة، قائلةً: "إنَّها تساعدني".

وبعثت ميريام روثي كي تردَّ الخبر على ماما، ثمَّ ركعت تشتغل مع آنجل. وإذ باعدت نبتات الفاصوليا، قالت: "إنَّه يناسبكِ على نحوٍ أفضل". فاستفسرت آنجل: "ماذا يناسبني؟"

أجابت ميريام. "ماندي. فإنَّ أماندا لا يبدو صحيحًا بطريقةٍ ما".

"كان اسمي آنجل".

قالت ميريام: "صحيح؟" رافعةً حاجبيها بطريقةٍ مسرحيَّة مثيرة. ثمَّ هزَّت رأسها وعيناها تطرفان. "وآنجل لا يُناسِبكِ أيضًا".

"هل يناسبني «هاي يا»؟"

فقذفتها ميريام بكتلة تراب، وأخبرتها بقرارها: "أعتقد أنَّني سأُناديك «آنسة أنيسة»!" ثمَّ أضافت مُلقيةً الخُضَر في السلَّة: "على فكرة، لم تُربِكني كثيرًا حالة ثيابكِ الداخليَّة". وإذ أبدت آنجل استجابةَ إجفال، ضحكت ميريام قائلةً: "ماذا لو تَرَين ثيابي أنا؟"

بعد بضعة أيَّام، أعطت إليزابث آنجل شيئًا ملفوفًا في صُرَّة، وقالت لها ألَّا تُخرِج ذلك

أمام أحد. وإزاء نظرات آنجل المستطلعة، تورَّد خدَّاها وأسرعت عائدةً إلى الكوخ. فثار فضول آنجل، ودخلت الحظيرة، وأفرغت محتوى الصرَّة. ثمَّ أمسكت ذلك، فإذا به قميصول وسروال تحتيٌّ جميلان، أنيقا التفصيل والتطريز.

احتضنت آنجل الثياب التحتانيّة الأنيقة، وأحسَّت الحرارة متدفِّقةً إلى خدَّيها. لماذا فعلت إليزابث ذلك؟ أبداعي الشفقة؟ لا أحد سبق أن أعطاها أيَّ شيء بغير توقُّع شيء ما في المقابل. ماذا تريد إليزابث؟ إنَّ كلَّ ما لديها هو لمايكل. حتَّى إنَّها لم تعُد تنتمي إلى نفسها. ثمَّ دفعت الثياب داخل الصُرَّة من جديد، وخرجت خارجًا. وكانت ميريام تنقل الماء من النهر، فقاطعتها قائلةً:

"رُدِّي هذه الأغراض إلى أُمِّك، وقولي لها إنَّني لا أحتاج إليهنَّ".

حطَّت ميريام الدَّلوين من يديها. "خشيت ماما أن تستائي".

"لم أستأ. إنَّما لا أحتاج إليهنَّ".

"أنتِ غاضبة".

"ميريام، ما عليكِ إلَّا إعادة هذه الأشياء إلى أُمِّك. فأنا لا أحتاج إليهنَّ". وقد دفعتهنَّ آنجل إلى ميريام من جديد.

"لقد صنعت ماما هذه الأغراض لكِ بشكل خاصّ".

"ليتسنَّى لها أن تشعر بالإشفاق عليَّ؟ حسنًا، قولي لها: شكرًا جزيلًا، وفي وسعها أن تلبسهنَّ هي".

شعرت ميريام بإهانة. "لماذا أنتِ مُصمِّمةٌ هكذا على إساءة الظنِّ بنا؟ كان قصد ماما الوحيد أن تسرَّكِ. إنَّها تحاول أن تُعبِّر لكِ عن شكرها لإعطائها سقفًا يُظلِّل رأسها بعد أشهر من العيش في تلك العربة البئسة!"

"لا داعيَ لأنْ تشكرني. إن كانت تُريد أن تشكر أحدًا، فقولي لها أن تشكر مايكل. لقد كانتِ الفكرة فكرته هو". وفي الحال ندمت على كلماتها الفظَّة لمَّا اغرورقت عينا الفتاة.

"حسنًا إذًا، أعتقد أنَّه يستطيع هو أن يلبس القميصول والسروال، أليس كذلك؟" ثمَّ نشلت الدَّلوين من جديد، والدموعُ تسيل على خدَّيها الشاحبَين. "أنتِ لا تُريدين أن تحبِّينا، أتُريدين ذلك؟ لقد عقدتِ عزمكِ على مُجافاتنا!"

أجفلت آنجل حيال الألم البادي على وجه ميريام، فقالت بأكثر رقَّة: "لماذا لا تحتفظين بهنَّ لنفسك؟"

لم يهدأ روع ميريام. "إن كنتِ ناويةً أن تؤذي أُمِّي، فافعلي أنت ذلك، يا أماندا

هوشع. أنا لن أفعل ذلك نيابةً عنكِ. اذهبي أنتِ وقولي لها إنَّكِ لا تُريدين هديَّةً صنَعتها لكِ لأنَّها تحبُّكِ كما لو كنتِ واحدةً من أولادها. وذلك تمامًا هو ما أنتِ عليه، أليس هكذا؟ فأنتِ مجرَّد صبيَّة غبيَّة لا تُلاحظ أمرًا ثمينًا وهو ماثلٌ أمام وجهها!" ثمَّ تهدَّج صوتُها، ومضت في سبيلها مسرعةً.

وتوارت آنجل داخل الحظيرة من جديد، حيث تشبَّثت بالقميصول والسروال، وقعدت مُسنِدةً ظهرها إلى الحائط. لم تحسب أنَّ بضع ملاحظات عابرة من فتاةٍ ساذجة قد تؤذيها في الصميم على ذلك النحو. ثمَّ طوَّحت الثياب بعيدًا عنها، وكوَّرت قبضتيها على عينيها.

دخلت ميريام بهدوء، والتقطتِ الثياب. وانتظرت آنجل حتى تغادر الحظيرة حاملةً القميصول والسروال. إلّا أنَّها قعدت بدلًا من ذلك، وقالت بوداعة:

"آسفة لأنّي كلَّمتك بذلك الجفاء. أنا صريحة أكثر من اللازم".

"إنَّك تُفصحين عمّا تُفكِّرين فيه".

"نعم، أفعل ذلك. رجاءً، يا أماندا، اقبلي هديَّة ماما. فإنَّها ستنجرح كثيرًا إن لم تقبليها. لقد أمضت أيّامًا وهي تشتغل في هذه الأشياء، وقضت قبل ظهر اليوم بكامله تستجمع جرأتها كي تقدِّمهنَّ إليكِ. وقد قالت: "كلُّ عروسٍ شابَّة يجب أن يكون لديها أشياءُ خاصَّة، فإن رددِتهنَّ إليها، تعرف أنَّها قد أثارت استياءَكِ".

جذبت آنجل ركبتيها وشدَّتهما على صدرها، وقد شعرت بأنَّ توسُّلات ميريام أوقعتها في فخّ. "كان من شأني أن أُجاوِزكم جميعًا على الطريق في ذلك اليوم". وإذ ثار الغيظ في داخلها، تلقَّت حملقة ميريام، وتابعت: "لقد عرفتِ ذلك، أليس كذلك؟"

ابتسمت ميريام ابتسامةً خفيفة. "إنَّكِ غير منزعجة حقًّا من وجودنا هُنا الآن؛ أم أنتِ منزعجة؟ لا أعتقد أنَّكِ عرفتِ ما تفعلين بنا أوَّل الأمر. ولكنَّ ذلك قد تغيَّر؛ أليس كذلك؟ لقد نفذت روثي إلى أعماقك في الحال. فعلى عكس ما قد تحسبين، هي لا تأنس إلى كلِّ شخصٍ تلتقيه. ليس كما أنِست إليكِ أنتِ. ثمَّ إنَّني أنا أيضًا أحبُّكِ، أعجبكِ ذلك أم لم يُعجِبكِ".

ضمَّت آنجل شفتيها، ولم تنبس بكلمة.

ثمَّ أخذت ميريام القميصول والسروال، وطوتهما على حضن آنجل. "ماذا تقولين؟"

"إنَّها أشياء جميلة. ينبغي أن تحتفظي بها".

"عندي بعضٌ في "صندوق الرجاء" الخاصّ بي. فإلى أن أُصبح عروسًا جديدة، لا

بأس بخام أكياس الطحين!"

تبيَّن لأنجل أنَّها لن تصل إلى نتيجة مع هذه الفتاة.

وقالت ميريام: "أنتِ لا تعرفين ماذا تفعلين بنا؛ هل تعرفين؟ أحيانًا تنظرين إليَّ نظرةً غريبة جدًّا. أكانت حياتكِ مختلفةً كثيرًا عن حياتي؟"

أجابت أنجل بكآبة: "أكثر اختلافًا ممَّا يمكنكِ أن تتصوَّري على الإطلاق".

"قالت ماما إنَّ البَوح بما في القلب أمرٌ صالح".

قوَّست أنجل أحد حاجبَيها: "ما كان ليخطر في بالي أن أُناقش حياتي مع فتاةٍ صغيرة".

"أنا في السادسة عشرة. وأنا لا أصغركِ كثيرًا".

"ليس للعمر أيَّة علاقةٍ بالسنين في شُغلي".

"لم يعُد شغلَكِ الآن؛ أليس كذلك؟ أنت متزوِّجةٌ من مايكل. لقد انتهى ذلك الجزء من حياتك".

أشاحت أنجل بنظرها: "لم ينتهِ قطُّ، يا ميريام".

"إنَّه لا ينتهي حين تحملينه من مكان إلى آخر كأمتعة السفر الثقيلة".

نظرت إليها أنجل نظرة ذهول، وضحكت بلا مَرَح. "بينكِ وبين مايكل كثيرٌ من الأُمور المشتركة". فإنَّه كان قد قال لها القول نفسه مرَّة. وما كان في وسع أيٍّ منهما أن يفهم. فليس في وسع المرء أن يمضي في سبيله قائلًا إنَّ ما حدث لم يحدث قطّ. إنَّ ذلك كلَّه قد حدث فعلًا، وقد خلَّف جراحًا عميقة وواسعة نازفة. حتَّى لو شُفِيت الجراح، فالندوب تبقى. ثمَّ قالت ساخرةً: "ما عليكِ إلَّا المُضيُّ قدمًا ونسيان ما كان. ليس الأمر بهذه السهولة أبدًا".

عبثت ميريام بورقة قشّ، وغيَّرت الموضوع. "أتصوَّر أنَّ الامر يستلزم كثيرًا من الجهد، ولكنْ ألا يستحقُّ ذلك؟"

"إنَّه لا يلبث عالقًا في الذهن دائمًا".

"ربَّما ليست لديك بعدُ ثقةٌ كافية بمايكل".

لم تُرِد أنجل أن تتحدَّث عن مايكل، ولا سيَّما مع صبيَّة صالحة للزواج كتلك، أصلحَ له منها بكثير.

وقالت ميريام: "كنتُ أتمشَّى صباح أوَّل من أمس فرأيت كوخًا. هل تعرفين من يسكن هناك؟"

"صهرُ مايكل، پول. وقد ماتت زوجتُه وهما آتيان إلى الغرب".

برقت عينا ميريام السوداوان فضولًا. "لماذا لا يزور مايكل؟ أهُما على خلاف؟"
"لا. غير أنّه ليس ودودًا فحسب".
"أَهو أكبر من مايكل أم أصغر منه؟"
"أصغر".
ابتسمت ابتسامةً عابثة. "بكَم هو أصغر؟"
هزَّت آنجل كتفيها. "هو في أوائل عقده الثالث، على ما أظنّ".
وأحسَّت إلى أين سيُفضي ذلك، فلم يرُقها الأمر. وقد ذكَّرتها ميريام بِرَبيكا، المومس التي خلب مايكل لبَّها.
سألت ميريام بإصرار: "أَهو وسيم؟"
"أعتقد أنّه في نظر صبيّة عذراء لا بدَّ أن يكون أيُّ شابٍّ وسيمًا إذا كان بلا ثآليل وأسنان ناتئة".
ضحكت ميريام. "حسنًا، أنا في السادسة عشرة. ومعظم مَن هنَّ في عمري يكنَّ قد تزوَّجن، فيما لا يلوح في أُفق حياتي أيُّ حبيب أو خطيب. فبطبيعة الحال، يستهويني مَن يكون في المُتناوَل. عليَّ أن أجد عريسًا حتّى يُتاح لي أن ألبس جميع تلك الملابس الداخليّة الجميلة التي صنعتها لي ماما وخزنَتها في الصندوق".
حين فكَّرت آنجل بهذه الفتاة الطيّبة مع پول، انزعجت انزعاجًا شديدًا. "إنَّ الأشياء الجميلة لا تعني الكثير، يا ميريام. هي لا تعني فعلًا. انتظري شخصًا مثل مايكل". ولم تكد تُصدِّق أنّها قالت ذلك.
"هناك مايكل واحد فقط، يا أماندا، وأنت حصلتِ عليه. كيف هو پول؟"
"نقيضُ مايكل".
"ذلك يعني أنّه دنيء... بشع، ضعيف، عبوس، بذيء".
"ليس الأمر مُضحِكًا، يا ميريام".
"أنتِ اسوأ من ماما. إنّها لا تُخبِرني عن الرجال أقلَّ شيء يُذكَر".
فقالت آنجل بلا تفكير: "ليس من أُمور كثيرةٍ ينبغي أن تُعرف. فهم جميعًا يأكلون ويتغوَّطون ويُجامِعون ويموتون".
"أنتِ بالحقيقة مُتحامِلة، أليس كذلك؟"
أجفلت آنجل من داخلها. هذه الفتاة لا يمكن أن تفهم. فكيف تفهم وهي لم تختبر دُوك. كان عليها أن تحتفظ بأفكارها لنفسها بدل أن تتفوَّه بها بلا رويَّة. فماذا يمكن أن

تقول؟ "لقد اغتصبني رجل بالغ وأنا في الثامنة من عمري؟ لمّا سئم منّي، سلّمني لسالي، وهي علّمتني أن أفعل أمورًا لا يُعقل أن تتخيّلها فتاةٌ شريفة مجرّد تخيُّل؟"

ينبغي لهذه الفتاة أن تظلَّ بريئة، أن تجد شابًّا تتزوّج منه وهي عذراء وتحمل له أولاده، وتنشئ عائلة كالتي نشأت فيها تمامًا. فلا داعيَ لأنْ تُدنَّس.

"لا تسأليني شيئًا عن الرجال، يا ميريام. لن يروقكِ ما قد أُخبركِ به".

"أتمنّى أن ينظر إليَّ رجلٌ ذات يوم مثلما ينظر مايكل إليك". لم تقُل لها آنجل إنَّ الرجال طالما نظروا إليها كذلك زمانًا أطول من أن يعنيها تذكُّره. ولم يعنِ لها ذلكَ شيئًا.

وقالت ميريام: "يقول بابا إنَّني أحتاج إلى رجل قويٍّ أبقى تحت يده الحازمة. ولكنَّني أحتاج إلى رجُل يحتاج إليَّ أيضًا. أحتاج إلى شخص يمكنه أن يكون رقيقًا مثلما يكون قويًّا".

تأمّلت آنجل ميريام إذ قعدت في الإسطبل تحلم بفارس أحلامها. لربمّا كانت الأُمور على غير حالها لو أنَّ مايكل التقى ميريام أوّلًا. كيف كان يسعه إلّا أن يحبَّها؟ لقد كانت مُفعمة بالحيويّة، وغير مُدنَّسة، وورِعة. ولم يكن لديها أشباح، ولا شيطانٌ يلازمها.

وقفت ميريام ونفَّضت القشَّ عن تنُّورتها. "خيرٌ لي أن أكفَّ عن الأحلام وأُساعد أُمّي في الغسيل". ثمّ انحنت ووضعت القميصول والسروال في حضن آنجل. "لماذا لا تُجرِّبين هذه الأشياء قبل أن تُقرِّري قرارَكِ؟"

"لن أُسيء إلى أُمّك نظير أيِّ شيء، يا ميريام".

اغرورقت عينا الفتاة. "ما كنتُ أحسبُكِ تفعلين ذلك". ثمّ غادرت.

أمالت آنجل ظهرها إلى الوراء. كان دُوك من البداية قد اشترى لها ملء خزانة ثيابٍ من الأرواب المهذَّبة والمآزر المخرَّمة، وملأ جوارير خزانتها المُدرَّجة بشرائط الساتان والمطرَّزات. وكان معظم ثيابها من صنعٍ پاريسيّ.

بينما كانت سالي تُحمِّمها وتُلبِسها بمنتهى الوسوسة إعدادًا لزيارة دُوك الوشيكة، قالت لها: "كوني شاكرة. حاولي أن تتذكَّري أنّه لولا دُوك لكُنتِ جائعةً على أرصفة الميناء. قولي له شُكرًا، وأنت تعنين ذلك. كوني مسرورةً لأجله. إذا صرتِ أصعب مراسًا من أن تُحتمَلي، فإنَّ دُوك سيعثر على فتاةٍ صغيرة أُخرى تكون صالحة، وماذا تظنّين أنّه سيحصل لكِ عندئذٍ؟"

وما زال ذلك الإنذار يبعث القشعريرة في أوصالها. فإذ كانت بعدُ في الثامنة من عمرها، حسبَت أنَّ دوك يمكن أن يأمر فيرغُس بأن يخنقها بحبله الأسود الرقيق

ويرميها في الزقاق المظلم حيث تأكلها الفئران. ولذلك حاولت أن تكون شكورًا، إلَّا أنَّها لم تُفلِح في ذلك. فقد كانت تخاف من دوك وتمقته. إنَّما في ما بعد دفعها اعتمادُها الشديد على معاملته الحسنة إلى الظنّ بأنَّها باتت تحبُّه. ولكنْ لم يطُل الزمن كثيرًا حتَّى أدركتِ الحقيقة.

لقد ظلَّ دُوك ينتابها، وما زال يسيطر على نفسها.

لا، إنَّه لا يسيطر على نفسي. فأنا في كاليفورنيا. إنَّه يبعد نحو ستَّة آلاف وخمس مئة كيلومتر، ولا يمكن أن يعثر عليَّ. لقد كانت مع مايكل وآل ألْطمان، وفي وسعها أن تقرِّر تغيير حياتها؛ أليس في وسعها ذلك؟

نظرت إلى الثياب الجديدة في حضنها. إنَّ إليزابث لم تُرد منها أيَّ شيء. فعلى خلاف دُوك، أعطتها عطيَّة مجّانًا بغير أن تتوقَّع منها شيئًا في المقابل.

سخرت بها كلمات دوك من الداخل: "كلُّ امرئ يريد شيئًا، يا آنجل. لا أحد يُعطيكِ أيَّ شيء دون أن يتوقَّع شيئًا ما في المقابل".

وإذ أغمضت عينيها، رأت وجه إليزابث الحلو الكئيب. "لم أعدُ أُصدِّقك، يا دوك".

ألا تصدِّقينني؟

وفي ثورةٍ منها على صدى صوته، هبَّت واقفةً وخلعت ثيابها، ثمَّ ارتدت القميصول والسروال الجديدين، فإذا بهما مناسبان لها تمامًا. وعانقت نفسها فيهما. سترتدي ثيابها وتبحث عن إليزابث وتشكرها بكلِّ لياقة. ستتظاهر بأنَّها طاهرة وسليمة، ولن تدع كوابيس السنين العشر الأخيرة تُفسِد عليها الأُمور.

ليس هذه المرَّة. ليس إذا استطاعت إلى ذلك سبيلًا.

الفصل

العشرون

بين جميع المشاعر الوضيعة،
الخوف هو الأبغض.

(شكسپير)

أقلق مايكل تعلُّقُ أماندا المتزايد بعائلة ألْطمان. وقد ظلَّ جان يتحدَّث عن أُوريغون كما لو كانت هي الجنَّة، وكان الربيع يقترب مسرعًا. فحالما يثبت الطقس على الصحو، سيكون جان متأهِّبًا للسفر. وعلم مايكل أنَّه لا يستطيع أن يتَّكل على زوجة جان وبناته لثنيه عنِ الرحيل. فكانت الأرض الجيِّدة هي الطريقة الوحيدة لتغيير فكره.

كان واضحًا أنَّ ميريام الصبيَّة تعلَّقت بأماندا كأُختٍ لها، وقد لازمتها روث الصغيرة كظلِّها. وبينما حسبت إليزابث تعلُّق صُغرى بناتها بأماندا أمرًا محبَّبًا، رأى مايكل في ذلك خطرًا. فإنَّ أماندا كانت تفتح قلبها أكثر قليلًا كلَّ يوم. فماذا يجري لها إذا نزع آل ألْطمان أوتادهم ورحلوا؟

اعتدل مايكل متوقِّفًا عن النَّقب حول أصل شجرة مقطوعة، ونظر وراءه إلى الكوخ. كانت أماندا تنقل دلوَي ماء من الجدول، وإليزابث بقرب نار مشتعلة فوقها مرجل غسيل، وميريام تُصنِّف الثياب الموضوعة في سلِّ الغسيل. أمَّا روث الصغيرة فكانت تمشي وثبًا إلى جانب أماندا، مُثرثِرةً بمَرَح.

ما تحتاج إليه، يا ربّ، هو ولد من لحمها ودمها.

وإذ استند جان على هراوة المِعوَل، وراقب روثي وأماندا، قال: "لقد ألِفتها حقًّا؛ أليس كذلك؟"

"صحيح!"

"هل من شيءٍ يُقلقك، يا مايكل؟"

دفع الرفش بحذائه، ثمَّ رمى التراب جانبًا وقال: "إنَّك تنوي الانطلاق مع عائلتك، وستفطرون قلب زوجتي".

"ناهيك بقلب ليزا. لقد تبنَّت زوجتَك، إن لم تلاحظ ذلك بعد".

"ههنا أرضٌ جيِّدة".

"ليست بجودة أراضي أُوريغون".

"لن تجد ما تبحث عنه في أُوريغون أو في أيِّ مكان آخر".

تلك الليلة، تحدَّث مايكل إلى أماندا عن بيع جزءٍ من أرضهما لآل ألْطمان. "أردتُ بحث الموضوع معكِ قبل ذِكره له".

"لن يُحدِث ذلك أيَّ فرق؛ هل يُحدِث؟ لقد قضى السهرة كلَّها يتحدَّث عن أُوريغون. إنَّه متشوِّق للمغادرة".

"لم يرَ الطرف الغربيَّ من الوادي بعد. قد يُغيِّر فكره بعد ذلك".

جلست آنجل في الفراش، وقد اعتصر الألم قلبها إذ فكَّرت برحيل ميريام وروث إلى أُوريغون. "ما النَّفع؟ حالما يعقد الرجل عزمه على شيء، فليس من شيءٍ يُغيِّر رأيه".

"جان يبحث عن أرض زراعيَّة جيِّدة".

"جان يبحث عن سرابٍ خلَّاب في الصحراء!"

"إذًا سنُعطيهِ ذلك". ثمَّ جلس خلفها، وجذب ظهرها إليه. "إنَّه يريد أفضل شيء لعائلته. والطرف الغربيُّ هو أفضلُ ما عندنا".

"كلُّ ما يتحدَّث عنه دائمًا هو أُوريغون. إليزابث لا تريد الرحيل. وكذلك ميريام".

"إنَّه يحسب واديَ ويلَّامِتَ جنَّةَ عدن".

انتفضت آنجل من بين ذراعيه ووقفت. "إذًا كان ينبغي له أن يذهب إلى هناك في البداية بدلًا من التوقُّف هنا". ثمَّ تماسكت واستندت إلى الحائط، ناظرةً إلى الكوخ في الخارج. كان الظلام سائدًا والمصباح مُطفأ، وآل ألطمان قد أخلدوا إلى النوم. "ليتهم لم يأتوا إلى هُنا أصلًا. ليتني لم أُقابل أيًّا منهم!"

"إنَّهم لم يرحلوا بعد".

نظرت إليه من جديد، وبدا وجهها شديد الشحوب في ضوء القمر. "هل أُوريغون رائعة كذلك؟ أهي جنَّة عدن كما يعتقِد جان؟"

"لستُ أدري، يا تِرصة. أنا لم أذهب إلى هناك قطّ".

تِرصة. مثَّل هذا الاسم اشتهاءَه لها. وأحسَّت هي بدفء مُدغِدغ يخترق أحشاءها عندما تلفَّظ به. تِرصة. حاولت ألَّا تفكِّر في ما يعنيه. ولكنْ لمّا سمعت القشَّ يخشخش برقَّةٍ حال نهوضه، طفر قلبُها. ونظرت إليه إذِ اقترب منها جدًّا، وهي لا تكاد تقوى على شهق نَفَس. حتَّى إذا لمسَها، شعرت بدفقٍ من الدفء، واستولى عليها الخوف. أيُّ نوعٍ

من السُّلطان كان له عليها؟

قال: "لا تتخلَّي عنِ الأمل"، وهو يحسُّ تصلُّبها إذ أخذها بين ذراعيه. ودَّ لو يقول لها إنَّ في وسعهما أن يُنجبا ولدًا من لحمهما ودمهما، ولكنْ كان لذلك وقتُه، وهو ليس الآن. ما آن الأوان بعد.

"قد يُغيِّر جان فكره حين يعرف ما نعرضه عليه".

لم تحسب أنَّ جان قد يقبل مجرَّد النظر في الأمر. ولكنَّه قبل. ففي الصباح التالي ركب الرجلان، ومضيا بُعيدَ الفجر. ورأت آنجل ميريام راكضةً نحوها عبر الفناء وشالُها مُلقىً على كتفيها بلامبالاة. ثمَّ فتحت باب الحظيرة بسرعة وصعدت إلى منتصف السلَّم، مناديةً إيّاها.

"ماندي، أودُّ أنا أيضًا أن أرى الطرف الغربيَّ من الوادي. إنَّه يبعد بضعة أميال فقط، بحسب ما قاله مايكل".

هبطت آنجل السلَّم. "لن يُحدِث ذلك أيَّ فرق".

"أنتِ سيّئة مثل ماما. إنَّنا لم نحزم أمتعتنا ولم ننطلق بعد".

تولَّت ميريام معظم الحديث وهم في الطريق صعودًا، مقترحةً كلَّ نوعٍ من الخطط الغريبة للحيلولة دون رحيل أبيها. وقد علمت آنجل بعد تعارُفٍ دام شهرًا واحدًا أنَّ جان ألْطمان إذا قال "لنرحل!" فلن يلقى من إليزابث وميريام رفضًا.

قالت ميريام: "ها هما بابا ومايكل. ولكن مَن ذلك الرجل معهما؟"

أجابت آنجل مُتشدِّدةً: "بول". ولم تكن قد رأته منذ تلك الرحلة التعسة رجوعًا إلى پيرأدايس، وكانت غير راغبةٍ في مواجهته الآن. ولكنْ أيُّ عذر يمكنها أن تنتحله عن الانكفاء؟

إلَّا أنَّ ميريام لم تلاحظ ارتباك آنجل قطُّ وتوجُّسها، إذ أطلق الفضول أفكارها. ورآهما الرجال الثلاثة، فلوَّح مايكل بيده، وصرَّت آنجل بأسنانها. لم يكن لها خِيار في أمر الذهاب. وتساءلت: أيُّ شكل سيكون لهجوم بول هذه المرَّة؟

أقبل مايكل لملاقاتها. فتكلَّفتِ ابتسامةً وأبقت ذقنها إلى فوق.

"أرادت ميريام أن تأتي".

وقبَّل خدَّها. "أنا مسرور بكونها قد أتت بكِ".

كان الرجال ينقبون، فغرفت ميريام بعض التراب وفتَّتته في كفِّها وشمَّمته. ثمَّ برقت عيناها إذ نظرت إلى أبيها قائلة: "إنَّه خصبٌ جدًّا بحيث يكاد يؤكل".

"لا يمكن العثور على أفضل منه".
"حتَّى في أُوريغون، بابا؟"
"حتَّى في أوريغون".
فاندفعت ميريام هاتفةً إلى ما بين ذراعيه، ضاحكةً وقائلة: "انتظر حتَّى تسمع ماما!"
"لن تعرف أُمُّكِ شيئًا عن الأمر، حتَّى نكون قد بنَينا لها كوخًا. عِدِيني بهذا".
مسحت ميريام دموعها. "إذا ذكرتَ أوريغون مرَّة واحدة، يا بابا، فسأفشي السرّ!"
التفتت آنجل إلى پول. فلاقت حملقتُه حملقتَها، كانت مُفعمةً بالكراهية الصامتة المُمِضَّة. فتلفَّفت بشالها متحفِّظةً. وكانت قد أسالت منه مقدارًا من الدَّم في ذلك اليوم على الطريق، إذ طعنته بالسكِّين أعمقَ ما تستطيع. فنظر إليها ثانيةً، مُطيلًا التحديق هذه المرَّة. حيوانٌ جريح، مُغضَب وخَطِر.
فيما هما ماشيتان راجعتين، قالت ميريام: "پول وسيم. ما أجمل عينيه السوداوين الحانيَتين!"
لم تقل آنجل شيئًا. وكان، قُبيلَ رحيله راكبًا، قد مسَّ قُبَّعته محيِّيًا إيَّاها، ولم يلاحظ ذلك أحد سواها، كما لم يرَ أحدٌ آخر نظرة عينيه في تعبيرٍ أفصح عن نيَّة پول إرسالها إلى الهاوية.

باشر الرجلان العمل صباح اليوم التالي. وقد وافاهما پول بفأسه وقدُّومه. وركَّز مايكل أربعة حجارة كبيرة لإرساء الأساس، ثمَّ بدأوا يقطعون الشجر.
عرف جاكوب السرَّ ثالثَ يوم إذ لحق بمريام وهي آخذةٌ الغداء إلى الرجال. فاستُحلِف أن يظلَّ ساكتًا وكُلِّف أن يساعد في العمل. حتَّى إذا رجع مايكل وجان وهو معهما، كان التعب قد هدَّه ومنعه من الكلام.
وسألت إليزابث: "ماذا فعلتما به؟ إنَّه لا يكاد يقوى على رفع رأسه عن صحن اليخنة".
"إن تنظيف الأرض وتمهيدها عملٌ شاقّ".
ساعدت آنجل إليزابث في الأشغال المعتادة. أرادت أن تتجنَّب پول. ولكنَّها بالأحرى أرادت قضاء مزيد من الوقت مع إليزابث وروثي. وأحسَّت إليزابث ذلك، فطلبت إليها رعاية الأولاد فيما تتولَّى هي الخَبز. وتعلَّمت آنجل ألعاب الصغار كالشدّ والغُمَّيضة واللقَّيطة والنطنطة. فكانت تقف على ضفاف النهر وتقفز فوق الصخور مع

روثي وأندرو. وكان أكثر ما فكّرت فيه كم تبقّى لها من الوقت الثمين مع هؤلاء الصغار.

قالت إليزابث لجان: "الأولاد يتبعونها كالصيصان. إنّها كأختٍ كبيرة لهم".

انفردت ميريام بأنجل في ناحية. "ارتفعت الجدران". ثُمَّ: "وضِع السقف". وسمعت آنجل كلَّ خبر بقلبٍ كئيب. "صنع پول ألواحًا تكفي لتغطية السقف". ثمَّ: "مايكل وپول يشتغلان في إقامة الموقد". في غضون بضعة أيّام يكتمل الكوخ، ويغادر آل ألْطمان. لقد بدت ثلاثة كيلومترات كأنّها ثلاثة آلاف كيلومتر.

سيكون پول أقرب جارٍ لهم. فكم سيمضي من الوقت قبل أن يكدِّر مشاعرهم؟

كان الطقس صاحيًا ومُدفئًا. وقال جان: "لا داعيَ لاستغلال كرم ضيافة آل هوشع في ما بعد. آن أوان عثورنا على مسكن خاصٍّ بنا". ثمَّ طلب من إليزابث البدء بحزم الأمتعة.

بدأت إليزابث العمل، شاحبةً ومُطبِقة الشفتين.

وقالت ميريام: "ما رأيتُها يومًا غاضبةً هكذا! لم تقل لبابا كلمة واحدة منذ أن أعلمها بأنّنا سنرحل. والآن، لا يمنعه من إخبارها سوى عناده الشديد الصِّرف".

ساعدت آنجل ميريام في تحميل العربة. وملأ أندرو برميل الماء المُعلَّق إلى جانبها، وعاون جاكوب جان في شدِّ الحصانين إليها. وحين أقبلت آنجل وعانقت إليزابث، لم تستطع أن تقول كلمة واحدة.

ثمَّ همست إليزابث بصوت مُتهدِّج: "سأفتقدكِ كثيرًا، يا أماندا!" وربَّتت خدَّها كأنَّها واحدةٌ من بناتها، قائلةً: "اعتني جيِّدًا بهذا الرجل الذي عندك. فليس مثلَه كثيرون".

قالت آنجل: "نعم سيِّدتي".

واحتضنتها ميريام بشدَّة هامسةً: "يا لكِ من ممثِّلة بارعة! فأنت تبدين فعلًا كأنَّكِ تودِّعيننا آخِرَ مرَّة". أمَّا روث الصغيرة فأبَت أن تتعزَّى، وقد التصقت بآنجل حتَّى تصوَّرت أنَّ قلبها سينفطر. لماذا لا يمضون في سبيلهم ويُنهون المعاناة؟ ثمَّ أخذت ميريام روثي وهمست في أُذنيها كلامًا هدَّأها، وبعدئذٍ رفعتها إلى صندوق العربة مع لِيَه. وإذاك نظرت روث إلى آنجل بوجهٍ مشرق. لقد عرف السرَّ الآن جميعُ الأولاد.

قال جان: "سأُساعدكِ على الصعود، يا ليزا".

فلم تنظر إليه، وقالت: "شكرًا، ولكنِّي أُفكِّر أن أمشي قليلًا".

ما إنِ انطلقوا، حتَّى مضى مايكل لإسراج حصانه. ووقفت آنجل في الفناء، تراقب العربة تجري مبتعدةً. ها قد بدأت تفتقدهم، واستطاعت أن تشعر بالهوَّة تنفغر كهاويةٍ

لا تستطيع عبورها. وظلَّت تتذكَّر ماما إذ أرسلتها مع كلِيو إلى البحر. ثمَّ عادت إلى البيت وملأت سلَّةً بالبسكويت الحلو والتفَّاح الشتويّ. لن يبقى أيُّ شيء كما كان!

كان پول في الكوخ لمَّا وصلا، وكان يشوي على النار شقَّةً من لحم الغزال. وعلَّقت آنجل الستائر التي كانت إليزابث قد خاطتها لكوخ مايكل فيما الرجلان يتحدَّثان. وخرج مايكل خارجًا ليرى أيَّ أثر لآل ألْطمان. وقد أحسَّت آنجل تحديق پول البارد واقعًا على ظهرها.

"أُراهِن على أنَّهم لا يعرفون أيَّ شيء عنكِ، يا آنجل؛ هل يعرفون؟"

فالتفتت وواجهته. لن يصدِّق الحقيقة إذا قالتها له. "أنا أُحبُّهم كثيرًا، يا پول، ولستُ أُريد لهم أن ينجرحوا".

شخر ساخرًا. "تقصدين أنَّك ترجين أن أُبقيَ ماضيَكِ الشائن سرًّا".

تبيَّن لها أنْ لا نفع من مناشدته، فقالت بفتور: "تقصد أنَّك ستفعل ما تُفكِّر في ضرورة فعله". كم من الوقت قبل أن يجعلهم يرونها على ما كانت عليه حقًّا؟ لن يمضيَ طويلُ وقت قبل أن يدركوا أيَّ عداءٍ يكنُّه لها، وسيتساءلون ويسألون عن السبب. ما عساها تقول لهم؟ "لقد أراد منِّي دفع أُجرة الرحلة، فأعطيتُه العملة الوحيدة التي كانت في حوزتي؟"

لماذا سمحت لنفسها أصلًا بمخالطة هؤلاء القوم؟ لماذا سمحت لنفسها بأن تحبَّهم؟ لقد علمت أنَّها كانت غلطة من الأصل.

قديمًا قالت سالي: "الحبُّ مُذِلّ".

فسألتها آنجل: "هل وقعتِ في الغرام يومًا؟"

"مرَّة واحدة".

"من كان الحبيب؟"

أجابت بضحكةٍ مرَّة: "دُوك! ولكنَّني كنتُ دائمًا أكبر سنًّا من أن أُلائمه".

وقاطع أفكارَها صوتٌ بارد. "مذعورة، أليس كذلك؟" كانتِ ابتسامة پول باردة كالجليد. فخرجت آنجل خارجًا. لم تستطع أن تتنفَّس داخل الحُجرة. فها هو الألم قد بدأ يعاودها. وكان مثل الألم الذي انتابها يوم سمعت أباها يقول إنَّه يتمنَّى لو لم تولد، ويومَ ماتت ماما، ويومَ علمت بموت لاكي. حتَّى إنَّها شعرت بمثل الألم الذي انتابها أوَّلَ مرَّة فيها دفعها دُوك إلى رجل آخر.

كلُّ شخصٍ اقتربت إليه رحل عنها. فالجميع كانوا يمضون في سبيلهم، عاجلًا أو

آجلًا، أو يموتون، أو يملُّون. أحِبَّي أحدًا فيحدثَ ذلك، لا محالة. ماما، سالي، لاكي. والآن ميريام وروثي وإليزابث.

كيف أمكنني أن أنسى حقيقة شعوري؟

لأنَّ مايكل أمدَّكِ بالأمل، والأملُ قتّال!

مرَّةً قالت لها سالي: إنَّ عليكِ أن تكوني كالصخر لأنَّ الناس سينهالون عليكِ بمطارقهم، فينبغي أن يكون ذلك الصخر كبيرًا جدًّا بحيث لا يصلون أبدًا إلى قلبك.

شاهدت آنجل مايكل واقفًا في ضوء الشمس، قويًّا ووسيمًا. فانعصر قلبُها في داخلها. هو من بينهم جميعًا قد قطع القسم الأكبر. وعاجلًا أو آجلًا، سيُغادر ساحة حياتها ويُخلّف ثغرةً حيث كان قلبُها.

أقبل مايكل إليها، ولمّا رأى ملامح وجهها، غامت عيناه. "هل قال بول لكِ شيئًا مؤذيًا؟"

قالت بنبرة حادَّة: "لا، لا! لم يقل أيَّ شيء".

"هل أزعجكِ شيء؟"

إنَّني أقع في غرامك. آه، يا الله، لا أُريد ذلك، ولكنَّه حاصل. إنَّك تصير الهواء الذي أتنفَّسه. وأنا أفقد إليزابث وميريام وروثي. كم سيمضي من الوقت قبل أن أفقدك أنت أيضًا؟ أشاحت بوجهها. "لم يزعجني شيء. إنَّما يُقلِقني ماذا ستقول إليزابث حيال هذا كلِّه؟"

ولم يمضِ وقتٌ طويل حتَّى جاءها الجواب. فقد عبرت العربة رأس التلَّة وأخذت تقترب. وحدَّقت إليزابث غير مصدِّقة ما تراه عيناها، ناظرةً من القَمرة إلى جان إذ قفز من على مقعد العربة وعلى وجهه ابتسامةٌ عريضة. ثمَّ بكَت إليزابث وارتمت بين ذراعَي جان، تقولُ له إنَّه ماكر وإنَّها مُولَعةٌ به.

وقالت ميريام ضاحكةً: "عليكِ أن تعتذري، يا ماما. لقد كنتِ مروِّعة في معاملتكِ له منذ غادرنا آل هوشع". ثمَّ أمسك جان بيد زوجته، وتوجَّها في نُزهة كي يُشاهِدا أرضهما.

باشرت ميريام العمل في الكوخ حالًا. ولكنْ بعد وقتٍ قصير، توقَّفت ونظرت إلى آنجل. "أنتِ وبول لستُما على علاقةٍ طيِّبة؛ أليس كذلك؟"

"بيننا توتُّر".

ثمَّ جذبت روث تنُّورة آنجل، فحملتها وأقعدتها على وَرِكها.

"لا، لا، إيَّاك!" ونشَّفت ميريام يديها، ثمَّ أخذت روث وأنزلتها. "ستُساعدني

ماندي في صنع الكعك، وهي تحتاج إلى كلتا يديها للقيام بذلك. لا تُبوِّزي عليّ، يا سيّدتي الصغيرة".

ثمّ أدارت البنت الصغيرة وصفعت قفاها صفعةً خفيفة. "مايكل في الخارج. اطلبي منه أن يحملك قليلًا على ظهره". ثمّ وضعت الأواني على الطاولة، ونظرت إلى آنجل قائلةً: "والآن، قولي لي الحقيقة".

"عن أيّ شيء؟"

"عنكِ وعن پول، كما تعرفين. أكان مغرمًا بكِ قبل زواجك من مايكل؟"

ضحكت آنجل ضحكة ساخرة: "بالكادّ!"

عبست ميريام. "ألم يوافق؟"

"لا، ولأسبابٍ وجيهة".

"اذكري واحدًا".

"لا داعيَ لأن تعرفي كلّ شيء، يا ميريام. إنّك تعرفين أصلًا أكثر ممّا ينفعكِ".

قالت ميريام بتحدٍّ: "إذا سألتُه هو، فهل يخبرني؟"

عبرت وجهَ آنجل إجفالةُ ألم. "ربّما".

أزاحت ميريام عن عينيها خصلة شعر، وخلّفت على وجهها لطخة طحين. "إذًا لن أسأله".

لقد خلبت ميريام لبَّ آنجل. فقبل دقيقة كانت طفلةً كرُوث مُفعمة بالحماسة والإزعاج، والآن هي شابّةٌ ذاتُ رأي. وقالت لها: "لا تُسيئي الظنَّ به كثيرًا. كان يبحث عن مايكل". ثمّ لطمت المنخل آخرَ لطمة وألقته جانبًا. " أعرف فتاةً تلقّت مرّةً هديّة، كانت عبارةً عن قطعة من حجر الجَمَشت. وقد كانت جميلة، قِطَعًا صغيرة بلّوريّة أُرجوانيّة متألّقة. وقال لها المُهدي إنّه استخرجها من بيضةٍ حجريّة كبيرة كسّرها، وما زال عليها جزءٌ من الغلاف الخارجيّ: رماديّ، بشع، أملس. ثمّ تفرّست في ميريام وأضافت: "أنا مثلُ تلك الهديّة، يا ميريام، ولكنْ بالمقلوب. فالحلاوة كلُّها هنا". ومسّت ضفيرتها ووجهها الخالي من أيّ عيب. "أمّا الداخل فقاتم وبشع. وپول رأى ذلك".

ترقرق الدّمع في عيني ميريام. "إذًا لم يُدقّقِ النظر كفاية".

"أنت طيّبة جدًّا، ولكنّكِ ساذجة جدًّا".

"أنا كِلا الأمرين معًا، ولستُ أيًّا منهما. لا أظنُّ أنّكِ تعرفينني نصفَ ما تعتقدين أنّكِ تعرفين".

"إنّنا نعرف بعضُنا بعضًا مثلما سنعرفُ بعد".

غدا النهار كثير الدفء والصفاء، حتّى بسطت ميريام بطّانيّة في الهواء الطّلق، قعدتا عليها. وشاهدت آنجل مايكل وپول يتحدّثان. فانقبضت معدتها إذ فكّرت بجميع الأمور المروّعة التي قد يحيكها پول لمايكل بمَرَح عن تصرُّفها الوحشيّ على الطريق. وشعرت بالغثيان حيال بشاعة ذلك. كيف ينظر پول إلى ما حدث بينهما؟ أباعتباره بغاءً فاضحًا من باب الشُّغل؟ أم على أنّه تصرُّف فاسق بلا حسّ؟ فلا عجب إن كان قد رأى داخلها مجرَّد قذارة سوداء لا يتعدّى دنس نفسها، فهي لم تره شيئًا آخر.

وراقبت مايكل خفيةً، متشوّقةً أن يُلقيَ نظرةً باتّجاهها، لعلّها تطمئنُّ إلى أنَّ الأُمور بخير، غير أنّه كان منصرفًا بكليّته إلى سماع ما يقول پول.

حاولت تهدئة قلبها. لقد سبق أن رآها مايكل في مكان أسوأ بكثير ممّا قد يتصوّر پول، ومع ذلك أرجعها. حتّى بعدما هجرته وخانته، قاتل لأجلها. لن تفهمه البتّة. وكانت قد ظنّت أن الرجال أمثاله ضعفاء. إلّا أنَّ مايكل ليس ضعيفًا. فهو هادئ وثابت وصُلب، كالصخر لا يلين. كيف يمكنه أن ينظر إليها بعدُ بأيّة نظرة سوى الاشمئزاز إثرَ كلّ ما فعلته؟ كيف يمكن أن يحبّها؟

لعلّ حقيقة آنجل لم تترسّخ لديه بعد. وعندما يحصل ذلك، فسينظر إليها بمثل نظرة پول. أمّا ما يراه الآن، فقد أفسده توهُّمه الخياليُّ بشأن امرأةٍ يمكن تحريرها.

ولكنَّ الأمر كلّه كذب بكذب. فأنا أُمثّل دورًا آخر فحسب. وذات يوم سوف يصحو هذا الحلّام، فتعود الحياة إلى نمطها القديم مرّةً أُخرى.

وبينما هي تتحدّث وتشتغل مع ميريام، تظاهرت بأنْ لا شيء يزعجها. إنّما الصمت الداخليُّ الأسود تفاقم، مألوفًا وثقيلًا، فحنى داخلَها تحت وطأته. ثمّ سدّت الشقوق في أسوارها، وتأهّبت للهجوم التالي. غير أنّها كلمّا نظرت إلى مايكل تضاعف ضعفُها.

ولكنَّ الماضي ظلّ يلاحقها، مهما هربت منه بعيدًا. وقد شعرت أحيانًا وكأنّها على طريق، حيث يمكن أن تسمع وقعَ حوافر الخيلِ القويّ آتيًا، وكأنَّ عربةً عموميّةً تتوجّه نحوها مباشرةً إلّا أنّها لا تستطيع أن تحيد من الطريق. ففي ذهنها، أمكنها أن ترى العربة مقبلةً نحوها، وفي داخلها دوك وسالي ولاكي والدوقة ومغوان. أمّا على مقعد السائق العالي، فكان أليكس ستافُورد وماما.

وقد كان الجميع على وشك أن يهرسوها.

ثمّ رجع جان وإليزابث. ولاحظت آنجل طريقة مَسّ جان لزوجته برقّة، ولحظت كيف

تورَّد خدًّا إليزابث. وكانت قد رأت تلك النظرة عينها على وجوه رجالٍ آخرين، غير أنَّهم لم يبتسموا في عينيها بتلك الطريقة تمامًا. فبالنسبة إليها، كان ذلك شغلًا بشغل.

غصَّ الكوخ بمن فيه، فخرجت إلى حقل زهور الخردل كي تقعد قليلًا. أرادت أن تُفرِغ ذهنها. أرادت أن يتلاشى غمُّها وهمُّها. ولحقت بها روثي. وقد كانت نبتات الخردل أطول من روثي، فاعتبرتها مغامرةً كبرى أن تشقَّ لها طريقًا وسط الحقل الذهبيّ. وراقبتها آنجل تُسقِط الأزهار وهي تطارد فراشةً بيضاء. فانعصر قلبها بشدَّة وتقلَّص داخلَ صدرها.

هذه الليلة، ستمضي هي ومايكل وحدهما، فيكون ذلك ختام الأمر كلِّه. ولن تعود ترى روثي، ولا ميريام، ولا إليزابث، ولا الباقين جميعًا. ضغطت بركبتَيها على صدرها، متمنِّيةً لو تعود روثي وهي راغبة في أن تضمَّها. وودَّت لو تُغطِّي وجهها الحلو بالقُبَل. إلَّا أنَّ الطفلة لن تفهم، وهي لن تشرح لها.

ثمَّ عادت روث فعلًا، وعيناها تشعَّان بحماسةٍ طفوليَّة. وتهالكت بقرب آنجل. "هل رأيتِ، يا ماندي؟ الفراشة الأولى!"

"نعم، يا حبيبتي". ومسَّت شعرها الحريريَّ الفاحم.

رمقتها روث بعينين بنيّتين واسعتين برّاقتين. "هل عرفتِ أنهنَّ يأتين من ديدان؟ هكذا قالت لي ميريام".

فابتسمت قائلة: "أهذا صحيح؟"

أجابت روثي: "بعضهنَّ ذوات زَغَب وجميلات، إلَّا أنَّ طعمهنَّ غير طيِّب. لقد أكلتُ واحدة وأنا صغيرة، فكان طعمها مُقرِفًا".

ضحكت آنجل ورفعت روث إلى حضنها، ودغدغت لها بطنها. "طيِّب! إذًا لا أعتقد أنّكِ ستأكلين واحدةً أُخرى. أليس كذلك يا فأرةً صغيرة؟"

قهقهت روث، وقفزت من جديد لتلتقط مزيدًا من زهر الخردل. وقد اقتلعت إحدى النَّبتات من جذورها. "الآن، وقد صار عندنا بيت، هل تنوين أنت ومايكل أن تأتيا وتسكنا معنا؟"

"لا، يا حبيبتي".

رمقتها روث بنظرةٍ مفاجأة. لماذا لا؟ ألا تُريدان؟"

"لأنّنا الآن، أنتم ونحن، نملكُ كلُّ عائلةٍ بيتها".

إذ ذاك رجعت روث ووقفت أمام آنجل. "ما الأمر، يا ماندي؟ ألا تشعرين بالراحة؟"

فمسَّت آنجل شعر الطفلة الناعم، وقالت: "أنا بخير".

"طيِّب، إذًا هل تُغنِّين لي أُغنية؟ ما سمعتُكِ مرَّةً تُغنِّين".

"لا أقدر. لا أعرف كيف".

"يقول بابا إنَّ أيَّ شخص يقدر أن يغنِّي".

"يجب أن يطلع الغناء من الداخل. ولم يبقَ عندي شيءٌ في داخلي".

قالت روثي مدهوشةً: "صحيح؟ كيف جرى ذلك؟"

"لقد جفَّ كلُّ شيء تمامًا".

عبست روث، وتفحصَّت آنجل جيِّدًا من رأسها حتَّى قدمَيها. "تظهرين لي في خير".

"المظاهر قد تخدع".

ثمَّ قعدت روث في حضنها وهي ما تزال مدهوشة. "إذًا، سأُغنِّي أنا لكِ". وجاءت الكلمات مشوَّشة واللحن مضطربًا، إلَّا أنَّ آنجل لم يهمَّها ذلك. كفاها أن تكون روثي في حضنها ورائحة زهر الخردل الطيِّبة تفوح منها قويَّةً. ثمَّ أسندت رأسها على رأس روثي وضمَّتها بشدَّة، ولم تلاحظ ميريام حتَّى تكلَّمت.

"ماما تريدكِ، يا شقيَّة".

أنزلت آنجل روث عن حضنها وربَّتت ظهرها برفق، مُطلِقةً إيَّاها إلى أُمِّها.

ثمَّ قعدت ميريام قربها، سائلةً: "لماذا تنفرين منِّي؟"

"ماذا جعلكِ تظنِّين ذلك؟"

"أنتِ دائمًا تفعلين هذا. تسألين سؤالًا بدل أن تُجاوِبي عن سؤال. إنَّ هذا مُزعِجٌ جدًّا، يا أماندا".

وقفت آنجل ونفضت الغبار عن تنُّورتها.

ووقفت ميريام معها. "أنتِ لا تجاوبين، ولا تنظرين إليَّ مباشرةً، وها أنتِ الآن هاربة".

نظرت إليها آنجل نظرةً حادَّة. "هُراء!"

"ماذا سيجري، في رأيك؟ هل تحسبين أنَّ صداقتنا قد انتهت إذ صار لدينا كوخُنا الخاصُّ الآن؟"

"سنكون جميعًا منشغلين جدًّا بحياتنا الخاصَّة".

"لن نكون منشغلين كثيرًا". ومدَّت يدها للإمساك بيد آنجل، إلَّا أنَّها مشت مبتعدةً عنها، متظاهرةً بأنَّها لم تُلاحظ ذلك.

ونادت ميريام قائلةً من ورائها: "هل تعرفين أنَّكِ أحيانًا تؤذين نفسك أكثر

بمحاولتكِ تجنُّب الأذى؟"

فضحكت آنجل مُتملِّصةً: "كلامُ حكمة!"

"أنتِ غير معقولة، أماندا هوشع!"

فردَّت هامسةً: "آنجل. اسمي آنجل".

احتشد الجميع على البطّانيّات، فيما أحضرتِ إليزابث وميريام وآنجل الطعامَ. وقد مرّرت آنجل طعامها حواليها حتّى يحسب الآخرون أنّها تستمتع بالوجبة، ولكنَّ الغصّة اعترضت في حلقها كلّما قضمت قضمةً صغيرة.

رمقها پول بنظراتٍ باردة. وحاولت ألّا تدع ذلك يزعجها. وقد كان ضعفه هو ما دفعه إلى كرهها بذلك المقدار.

وتذكّرت عددًا قليلًا من الشبّان الذين كانوا يدفعون لها نظير خدماتها، ثمَّ يواجهون نفاقهم الذاتيَّ وهم يرتدون بنطلوناتهم وأحذيتهم ويستعدّون للخروج من بابها. فقد كانوا يعُون فجأةً ما فعلوه: ليس بها- فذلك لا يهمُّ، بطريقةٍ أو بأُخرى- بل بأنفسهم. وكانت تقول: "ألم تنسَ شيئًا؟" راغبةً في طعن قلوبهم رأسًا بالسكّين بأيّة طريقة استطاعتها. ينبغي أن يعرفوا. أوّلًا الآثار الحُمر في خدودهم الشاحبة، ثمَّ الاشمئزاز القاتم في عيونهم.

حسنًا، لقد طعنت پول بالنَّصل طعنةً مباشرةً وأكيدة. ولكنّها الآن علمت أنّها هي المُعذَّبة. كان خيرًا لها لو مشت طول الطريق إلى پيرأدايس ذلك اليوم. فربّما كان مايكل آنذاك قد أدركها قبل فوات الأوان. وربّما لم يكن پول يكرهها ذلك الكُره. وربّما لم يكن لديها كثيرٌ تندم عليه.

لقد كانت حياتُها كلُّها ندامةً ضخمة، منذ البداية تمامًا. "ما كان يجب أن تولد، يا ميّ".

أمسك مايكل بيدها، فأجفلت. وسألها بهدوء: "فيمَ تفكّرين؟"

"لا شيء". انتشر فيها الدفء حين مسَّها مايكل. فتضايقت، وسحبت يدها من يده. فعبس قليلًا. "هنالك أمرٌ يزعجكِ".

وهزَّت كتفيها بلامبالاة، بغير أن تلتقي عيناها عينيه. فتأمّلها مفكّرًا. "لن يقولَ پول أو يفعلَ أيَّ شيءٍ لإيذائكِ".

"لا يهمُّني إذا فعل ذلك".

"إن آذاكِ، آذاني".

اجتذبت نبرُته كامل انتباهها. كانت قد قصدت إيذاء پول، فآذت مايكل بدلًا من ذلك. ولم تكن قد فكَّرت مرَّةً يومذاك في ما قد يفعله ذلك بمايكل. فقد فكَّرت فقط في نفسها، وفي غضبها ويأسها. لعلَّها تستطيع أن تُجريَ بعض الإصلاح. ثمَّ قالت له مُطَمْئنة: "لا دخل لپول في الأمر. إنَّما الحقيقة ما تزالُ عالقةً بذهني".

"هذا رجائي".

راقب مايكل أماندا طيلة النهار. كانت تنطوي على نفسها أكثر فأكثر. اشتغلت مع إليزابث وميريام، إلَّا أنَّها لم تتكلَّم إلَّا قليلًا جدًّا. وكان فكرها منشغلًا، وهي منكفئة تمامًا، ببناء أسوارها من جديد. ولمَّا أمسكت روثي بيدها، رأى الألم في عينيها وعلم بما توقَّعته. ولم يستطع أن يَعِد بعدم حدوث ذلك. فأحيانًا يعلق الناس في مشاكل العيشة اليوميَّة بحيث لا يلاحظون الألم لدى شخصٍ سواهم.

إلَّا أنَّ ميريام الصبيَّة لاحظت. "هي هُنا، ولكنَّها ليست هنا، إنَّها لا تسمح لي بالاقتراب منها، يا مايكل. ما خطبُها اليوم؟ إنَّها تتصرَّف بالطريقة التي تصرَّفت بها أوَّل ما جئنا إلى دياركم".

"إنَّها تخاف أن تؤذى".

"إنَّها تؤذي نفسها الآن".

"أعرف ذلك". ولم يكن ينوي كشف ماضي زوجته أو البحث في مشاكلها.

" پول لا يودُّها. وذلك جزءٌ من القضيَّة. إنَّها لم تعُد مومسًا، ولكنَّها تتوقَّع من الجميع أن ينظروا إليها ويعاملوها كواحدةٍ من تلك الفئة".

اضطرم مايكل غيظًا. "هل قال لكِ پول ذلك؟"

فهزت رأسها نفيًا، ثمَّ قالت وعيناها مغرورقتان: "هيَ قالت لي أوَّلَ ليلةٍ، وبصوتٍ عالٍ كفايةً بحيث سمعَته ماما. ماذا ينبغي أن نفعل لها، يا مايكل؟ إنَّ طريقة إمساكها بروثي تخلع قلبي".

كان مايكل يعلم أنَّ ميريام ستُضطرُّ إلى القيام بالكثير في مساعدة جان وإليزابث على تدبير شؤون البيت الجديد. ولم يكن في وسعه أن يطلب منها القيام بزياراتٍ متكرِّرة لبيته حتَّى تتيقَّن أماندا بأنَّ العاطفة كانت حقيقيَّة وليست مجرَّد مناسبة عابرة. وكانت تلك الفتاة قد بدأت تنظر إلى پول كما لو كان إلهًا إغريقيًّا هبط من جبل

الأولمب، رغم نقائصه. وعلم أنَّ پول وجد تلك الفتاة جذَّابة أيضًا. وقد اتَّضح ذلك من الطريقة المدروسة التي بها تجنَّبها. فكيفما سارت الأمور، فإنَّ ولاءات ميريام لا بدَّ أن تتعرَّض لامتحانٍ صعب.

أحضر جان كمنجته. ولم يعزف هذه المرَّة تراتيل كئيبة، بل لحن ڤيرجينيا ريلز[١٨]. فأمسك مايكل بآنجل، وأخذ يبرمها. وكان وجودها بين ذراعيه أمرًا آسِرًا.

تسارعت دقَّات قلبها. واستطاعت أن تحسَّ الحرارة متدفِّقةً إلى وجهها، ولم تجرؤ أن ترفع نظرها إليه. وقد رقص جاكوب مع أُمِّه، فيما رقصت ميريام حول الفُسحة مع رُوث. ورفع جان قدمه المنعولة، دافعًا بها أندرو نحو أُخته لِيَه. أمَّا پول فراقب ذلك وهو مسندٌ ظهره بِتَراخٍ إلى حائط الكوخ. وقد بدا وحيدًا جدًّا، حتَّى أشفقت آنجل عليه.

قال مايكل: "هذه أوَّل مرَّة أرقص معكِ".

فقالت لاهثةً: "نعم. وأنت بارعٌ جدًّا".

فضحك قائلًا: "وهذا يُفاجئُكِ! إنِّي أُحسِن كثيرًا من الأمور". ثمَّ أحكم ذراعه حولها، مُسارِعًا نبضها على نحوٍ مضاعف.

واقبل جاكوب منحنيًا لآنجل، فتخلَّى عنها مايكل متبسِّمًا. فأجالت نظرها في الساحة، وراقصت جاكوب. وكانت مجرَّد نظرة واحدة إلى ميريام كفيلةً بمعرفةِ أنَّها تُريد أن ترقص مع شخصٍ غير أُختها الطفلة أو أخويها الأصغرين. ولكنَّ مايكل كان قد راقص إليزابث ولِيَه وروث، وترك ميريام وحدها. وجاش في أحشاء آنجل إحساسٌ غير مُبهِج. لماذا تجنَّب مايكل ميريام؟ أكان يخشى أن يقترب منها كثيرًا؟ فلمَّا جاء ليطلب منها مراقصة جاكوب، سحبت يدها بعيدًا. "لم ترقص مع ميريام. لماذا لا ترقص معها؟"

عبس عبسةً خفيفة، وأمسك بيدها بشدَّة، جاذبًا إيَّاها إلى ما بين ذراعيه. "سيتولَّى پول ذلك".

"لم يرقص مع أحدٍ بعد".

"ولن يشعر بضرورة ذلك إذا لم أُخلِ له الساحة. يخطر في بالي أنَّه يُفكِّر في تَسَّي.

---

١٨) ڤيرجينيا ريلز: رقصة أمريكية ريفية يواجه فيها الرجل الفتاة في صفين متقابلين. تشبه الدبكة.

فقدِ التقاها في حفلة رقص. وسيتنبَّه سريعًا إلى أنَّ ميريام الصبيَّة تحتاج إلى شريك".

وقد رقص پول مع ميريام فعلًا، إلَّا أنَّه كان متصلِّبًا ومتجهِّمًا، ولم يكَد يقول كلمةً واحدة. وما إنِ انتهت الرقصة، حتَّى تمنَّى للجميع ليلةً سعيدة وتوجَّه نحو حصانه.

إذ ذاك قال مايكل: "خيرٌ لنا نحن أيضًا أن نمضي إلى البيت".

وعانقت ميريام آنجل هامسةً: "سأذهب لزيارتكِ بعد بضعة أيَّام. ولعلَّكِ تُخبرينني بما يلتهم ذلك الرجل".

وحملت آنجل روث الصغيرة، وضمَّتها بشدَّة، مقبِّلةً خدَّها الطفوليَّ الناعم وماسَّةً عُنقَها بأنفها. "إلى اللقاء، يا عزيزتي. أحسني التصرُّف".

ثمَّ رفع مايكل آنجل إلى السَّرج، وقفز ليقعد وراءها. وقد أمسكت ذراعُه بها بشدَّة وهما متوجِّهان إلى البيت في ضوء القمر. إلَّا أنَّ أيًّا منهما لم يتكلَّم طول الطريق. وقد أحسَّت آنجل إحساسًا غامرًا بجسده الملاصق لجسدها، وأربكتها الأحاسيس المنبعثة فيها، حتَّى تمنَّت لو أنَّها كانت تمشي مشيًا.

ولمَّا لاح لها الكوخ من بين الأشجار، شعرت بالارتياح. ثمَّ ترجَّل مايكل، ومدَّ يديه لإنزالها. فمالت نحوه، وألقت يديها على كتفيه القويَّتين. ولامس جسدها جسده فيما كان يُنزلها، فأحسَّتِ الحياة تجري في أوصالها جامحةً، مُبهِجةً، غيرَ مألوفة.

وقالت بجمود: "شكرًا لك".

"أهلًا بكِ". ثمَّ تبسَّم، فجفَّ حلقُها. ولمَّا لم ينزع يديه عن خصرها، راح قلبها يخبط أسرعَ فأسرع. ثمَّ قال: "لقد كنتِ صامتةً جدًّا طوال النهار"، مستغرقًا في التفكير من جديد.

"ليس لديَّ ما أقوله".

سألها: "ماذا يزعجكِ؟" مُزيحًا الضفيرة الثخينة عن كتفها إلى الوراء.

"لا شيء".

"ها نحن وحدنا من جديد. أيمكن أن يكون ذلك هو السبب؟" ثمَّ أمال ذقنها وقبَّلها. فأحسَّت أحشاءها تذوب، وركبتيها تضعفان. ولمَّا رفع رأسه، مسَّ وجهها برقَّة. "سأرجع حالًا".

ضغطت بيدها على معدتها المرتجفة، فيما راقبته يقتاد الحصان مبتعدًا. ماذا يجري لها؟ دخلت الكوخ وباشرت إشعال النار. وما إن تأجَّجت، حتَّى أجالت نظرها بحثًا عن أمرٍ تفعله لتصرف فكرها عن مايكل، ولكنَّ كلَّ شيء كان مرتَّبًا. حتَّى إنَّ إليزابث

كانت قد أعادت حشو الفراش بقشٍّ جديد. وكانت أعشابٌ عطريَّة متدلِّيةً من إحدى عوارض السقف، مالئةً الكوخ برائحتها الزكيَّة المنعشة. كما كانت على الطاولة جرَّةٌ ملأى بزهر الخردل، ولا شكَّ أنَّ روث قد وضعتها هناك.

حمل مايكل أشياءَهما من الحظيرة على كتفه. "يسود هنا كثير من الهدوء بعد ذهاب آل ألْطمان؛ أليس كذلك".

"بلى".

"ستفتقدين ميريام وروث أكثرَ الجميع". ثمَّ حطَّ الصندوقَ في الزاوية من جديد، فيما هي منحنيةً فوق الموقد. ووضع يديه على وَرِكَيها، فاعتدلت. "إنَّهم يحبُّونكِ!"

فترجرجت عيناها وقالت: "لنتحدَّثْ عن شيءٍ آخر، إذا سمحتَ!" ثمَّ ابتعدت عنه. فأمسك بكتفيها قائلًا: "لا، بل لنتحدَّثْ عمّا يشغل بالكِ".

"لا يشغل بالي شيء". لكنَّه ظلَّ منتظرًا، وقد كان واضحًا أنَّ الجواب لم يكن وافيًا، حتَّى سحبت نَفَسًا متقطِّعًا. "كان عليَّ ألّا أتقرب منهم كثيرًا". ثمَّ أزاحت عنها يدَيه وتلفَّفت بشالها.

أتحسبين أنَّهم يحبّونكِ الآن أقلَّ ما داموا يُقيمون في منزلهم الخاصّ؟"

حدَّقت إليه بطريقة دفاعيَّة. "أحيانًا أتمنَّى لو تتركُني وحدي فحسْب، يا مايكل؛ لو تُعيدُني إلى المكان الذي جئتُ منه. فإنَّ الأمور إذ ذاك ستكون أسهل، من كل وجه".

"ألأنَّكِ تشعرين الآن؟"

"لقد شعرتُ من قبل، وتغلَّبتُ على مشاعري".

"إنَّكِ مشغوفةٌ بميريام وتلك الصغيرة".

"ما همّ!" ستتغلَّب على هذا أيضًا.

فسألها بجفاف: "وماذا ستفعلين حين تأتي روث إلى هنا حاملةً قبضةً أُخرى من زهر الخردل؟ هل تطلبين منها المغادرة؟ إنَّ لديها هي أيضًا مشاعر. وميريام مثلها". وشعر من ملامح وجهها بأنَّها لا تعتقد أنَّهما ستأتيان أبدًا. فاحتضنها بين ذراعيه، وأبقاها هناك رغم شعوره بمقاومتها. "لقد صلَّيتُ بلا انقطاع طالبًا أن تتعلَّمي المحبَّة، وها أنتِ الآن أحببتِ. غير أنَّكِ وقعتِ في حبِّهما بدلًا من حُبّي". ثمَّ ضحك ضحكةً رقيقة ساخرًا بذاته. "تمنَّيتُ مرَّاتٍ لو أنَّني لم آتِ بهما قطُّ إلى هنا. فأنا غيور".

التهب خدّاها، ولم تستطع تهدئة قلبها المتسارعةِ دقّاتُه رغم كلِّ محاولاتها الشاقَّة. إذا علم بسطوته عليها، فماذا يفعل بذلك؟ وفجأةً قالت بصدود: "لا أُريد أن أقع في حبِّك!"

"ولمَ لا؟"

"لأنّك سوف تستخدم ذلك ضدّي في نهاية المطاف". وتبيَّن لها أنّها أغضبته.

"كيف؟"

"لستُ أدري. فالحقُّ هو أنّك ربّما لا تعرف مجرّد معرفة أنّك تفعل ذلك".

"عن حقٍّ مَن تتكلّمين؟ حقّ دُوك؟ إنَّ الحقَّ يُحرِّرك. أكُنتِ يومًا حُرَّةً معه؟ ولو دقيقةً واحدة؟ لقد شحن رأسك بالأكاذيب".

"وما قولك في أبي؟"

"لقد كان أبوكِ أنانيًّا وقاسيًا. وهذا لا يعني أنَّ كلَّ رجُلٍ في الدُّنيا هو على شاكلته".

"كلُّ رجُلٍ عرفتُه هو كذلك".

"هل يشملني ذلك؟ ما قولكِ في جان ألطمان؟ وما قولك في جوزف هُكشايلد، وفي ألفٍ آخرين؟"

ارتجَّ وجهُها ألمًا.

وإذ رأى عذابها، قال بلطف: "أنتِ عصفورة كانت في قفصٍ طوال حياتها، وفجأةً زالت جميع الجدران، وها أنتِ في الهواء الطّلق. وأنتِ خائفةٌ جدًّا حتّى إنّكِ تلتمسين أيّة طريقة للعودة إلى القفص من جديد". إذ ذاك لاحت مشاعرها تخفق عبر وجهها الشاحب. "مهما شئتِ أن تفتكري الآن، فليس ذلك المكان أكثر أمانًا، يا أماندا. حتّى لو حاولتِ الرجوع إلى هناك الآن، فلا أظنُّ أنّك تستطيعين البقاء على تلك الحال بعد".

لقد كان على حقّ. وهي علمت أنّه مُصيب. فإنّها كانت قد بلغت أقصى حدود الاحتمال حتّى قبلَ حيازة مايكل لها. ومع ذلك، فإنَّ وجودها هنا لم يكُن مدعاة ثقةٍ وأمان.

وماذا لو لم تستطعِ الفرار؟

الفصل

الحادي والعشرون

كما يشتاق الإيّل إلى جداول المياه،
هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله.

(المزمور ٤٢: ١)

استيقظت الأرض بمجيء الربيع. وتماوجت السفوح بنبات الترمس الأُرجوانيّ والخشخاش الذهبيّ، والفَراشي الحُمر، وبياض الفجل البرّيّ. ووجدت آنجل شيئًا غريبًا يتحرّك في داخلها أيضًا. شعرت به أوّلًا وهي تشاهد مايكل ينقب الأرض في بستان الخُضَر، فبعثت حركة عضلاته تحت القميص دفقًا من الدفء في بدنها. وما كان عليه إلّا أن ينظر إليها حتّى يجفّ حلقها.

وفي الليل، تمدّدا جنبًا إلى جنب وهما لا يكادان يتلامسان، مشدودَين صامتين. فقد أحسَّتِ المسافة التي أقامها بينه وبينها، واحترمتها. وقال لها بغموض: "صار أصعبَ فعلُ هذا"، إلّا أنّها لم تسأله عمّا قصد.

تفاقمت وحدتها ووحشتها. ولا بدَّ أنّ لمايكل دخلًا في الأمر. وقد بات الوجع أسوأ، لا أحسن، على مرّ الوقت. وعندما كان ينتهي من القراءة في السَّهرة أحيانًا، كانت تعجز عن التنفُّس من جرّاء نظرة عينيه، فتتزايد دقّات قلبها بسرعة فائقة وتُشيح بوجهها، خاشيةً أن يلحظ الاشتياق الشديد الذي تشعر به. فإنّ جسدها كلّه نطق بذلك. وقد صدحت أنغامُه كجوقةٍ عالية، مائلةً رأسها بأفكارٍ عنه. وبالكادّ كانت تقوى على التكلُّم حين يسألها سؤالًا بسيطًا.

كيف كان من شأن دُوك أن يضحك. "الحبُّ فخٌّ، يا آنجل. اطلبي اللذّة وحدها فهي لا تتطلّب التزامًا زائدًا".

ها هي الآن تتساءل عن مايكل: أليس هو الحلَّ لكلّ شيءٍ عندها؟ وإذ تفكّرت في ذلك، استبدَّ بها الخوف. وفي الليل، حين كان ينقلب نحوَها وهو نائم، فيلامس جسمُه القويُّ جسمها، تتذكر طريقة مواقعته لها: برتوبٍ بهيج، مستكشفًا جسدها كما الأرضَ

التي يمتلكها. آنذاك لم تشعر بشيء. أمَّا الآن، فأدنى لمسةٍ منه تُثير أحاسيسها. فإنَّ أحلامه بدأت تصير أحلامَها.

كان مايكل يزيد فتح يده كلَّ يوم، إلَّا أنَّ آنجل كان يجمِّدها الخوف. لماذا لا يمكنهما أن يتركا الأمور على ما هي عليه؟ لتبقَ على هذه الحال. لتبقَ داخل نفسها. لتكُن الأمور كما كانت دائمًا. غير أنَّ مايكل ظلَّ يندفع إلى الأمام، بلا كلل ولا ملل، إنَّما برفق، وظلَّت هي منكمشةً خوفًا لأنَّ كلَّ ما استطاعت أن تراه في انتظارها كان المستقبل المجهول جدًّا.

لا أستطيع أن أُحبَّه. آه، رجاءً، لا أستطيع.

لم يكُن في وسعها أن تكون أكثر من أمِّها. ومِيُّ لم تستطع أن تبقى متمسِّكةً بأليكس ستافُورد. فإنَّ كلَّ حبِّها لم يكن كافيًا للحيلولة دون الرحيل عن حياتها بسرعة الريح. وما زال في وسع آنجل أن ترى شكله القائم، ورداءه المتطاير، وهو يعدو بحصانه على الطريق، خارجًا من حياة أُمِّها. أجاء بشخصه فعلًا كي يقول لماما أن تحزم أمتعتها وترحل؟ أم عهد بهذا الأمر إلى ذلك الخادم الشابِّ ذي البزَّة الرسميَّة؟ لم تدرِ الحقيقة. فماما لم تقُل قطُّ، وهي لم تسألها. لقد كان أليكس ستافُورد كأرضٍ حرام لم تجرؤ آنجل أن تطأها قطعًا. ولكن ماما كانت فقط تتلفَّظ باسمه، وعندما تكون سكرانة ومكتئبة فقط، وكان ذلك دائمًا يؤلمها كالملح إذ يُذَرُّ على جرح جديد. وكم قالت ماما باكيةً: "لماذا تركتني أليكس؟ لماذا؟ لا أدري! لماذا؟"

ما انفكَّ حزن ماما كبيرًا جدًّا، ولكنَّ شعورها بالذنب كان أكبرَ بعدُ. ولم تتغلَّب قطُّ على ما تخلَّت عنه ليكون لها الحبُّ، كما أنَّها لم تتغلَّب على أليكس قطّ.

ولكنْ، يا ماما، جازيتُه أسوأ جزاء. أيمكنكِ أن تسمعي حيثما كنتِ؟ لقد سحقتُه سحقًا وأحلتُه حطامًا كما أحالكِ. آه، كم كانت ملامح وجهه مهولة!

وغطَّت آنجل وجهها هي.

آه، يا ماما، كم كنتِ بالغة الجمال والكمال! كم كنتِ ورعة! هل ساعدتك حبَّاتُ مسبحتكِ، يا ماما؟ هل ساعدك الأمل؟ الحبُّ لم يجلب عليكِ سوى الألم. وهو سيفعلُ بي الشيءَ عينه.

كانت آنجل قد حلفت ألَّا تحبَّ أحدًا البتَّة. وها ذلك يحدث الآن رغمًا عنها. لقد انبعث وكبر بعكس إرادتها، شاقًّا طريقه وسط ظلمة ذهنها ليبرز على السطح. إنَّه أقبل كنبتة صغيرة تطلب ضوء شمس الربيع. ميريام، روث الصغيرة، إليزابث. والآن

مايكل. وكلّما نظرت إليه، اخترق قلبها. فأرادت أن تسحق المشاعر الجديدة، غير أنّها ظلّت تنبعث، شاقّةً طريقها ببطء.

كان دُوك على حقّ. فإنَّ ذلك كان غادرًا. كان فخًا. لقد نما كما ينمو اللبلاب المعترش، شاقًّا طريقه إلى قلب أصغر الصُّدوع في دفاعاتها، ولسوف يمزّقها في نهاية المطاف. هذا إذا سمحت له بذلك... إذا لم تخنقه في مهده الآن.

وجاءها الصوتُ الأسود مُشيرًا عليها. **ما زال طريق الخروج ممكنًا. أخبريه أسوأَ ما فعلتِ. أخبريه عن أبيكِ. فإنَّ ذلك سوف يُسمِّمه. ذلك سيوقِف الألم المتفاقم في داخلك.**

من ثَمّ عقدت عزمها على الاعتراف بكلِّ شيء. ما إن يعرف مايكل كلَّ شيء، حتّى ينتهي الأمر تمامًا. فالحقيقة ستدقُّ إسفينًا عميقًا جدًّا بينهما، بحيث تغدو في مأمن إلى الأبد.

كان مايكل يشقّق حطبًا لمَّا وجدَته. وكان قد خلع قميصه، فوقفت صامتةً تراقبه وهو يشتغل. كان ظهره العريض قد اكتسب سُمرةً، وعضلاتُه الصُّلبة تتحرَّك تحت بشرته الذهبيَّة. وقد كان مزيجًا من القوّة والجمال والجلال فيما هو يهوي بفأسه في قوسٍ واسعة، ضاربًا زند الخشب[١٩] بشدّة ليشقّه شقًّا كاملًا، فيسقط الشقّان من على العارضة ويرتطمان بالأرض. وإذِ انحنى ليضع زندًا آخر، رآها.

قال: "صباح الخير"، مبتسمًا، فاختلجت معدتها. وقد بدا مسرورًا ومدهوشًا إذ رآها تراقبه.

لماذا أنا فاعلةٌ هذا.

لأنّكِ تعيشين كذبة. إذا عرف كلَّ شيء، يكرهكِ ويطردكِ.

لا داعيَ لأنْ يعرف.

أتُفضِّلين أن يُخبِره أحدُ سواكِ؟ عندئذٍ سيكون الأمر أسوأ.

قالت بفتور: "أُريد أن أُكلّمك". وكان كلُّ ما استطاعت سماعه هو خبْط قلبها في أُذنَيها وذلك الصوت الأسود يدفعها في منحدر اليأس.

عبس مايكل قليلًا. كانت متوتّرة، تفتلُ قبضةً من قماش تنُّورتها.

"كُلّي آذان صاغية!"

---

١٩) زند الخشب: جزء من الشجرة.

شعرت آنجل بالحرارة والبرودة في جميع أوصالها. ينبغي أن تفعل ذلك.

نعم. افعلي ذلك، يا آنجل!

عليها أن تفعل ذلك. كانت كفّاها رطبتين. وسحب مايكل محرمته من جيبه، ثمّ مسح العرق عن جبينه. ولمّا نظر إليها، غاص قلبُها.

لا يمكنني أن أفعل ذلك.

بلى، يمكنكِ.

لا أريد ذلك.

غبيّة! أتُريدين أن تكون نهايتكِ كنهاية أُمّك؟

تأمّلها مايكل. بدَت شاحبةً ونقاطٌ صغيرة من العرق تتصبّب على جبينها.

"ما المشكلة؟ أأنتِ مريضة؟"

أخبِريه واستريحي، يا آنجل! هذا هو ما ينبغي أن تفعليه الآن كي تجعليه يدعكِ تمضين الآن فيما لا تزالين قادرةً على الاحتمال. فإنِ انتظرتِ، آذاكِ ذلك إيذاءً أسوأ فحسْب. سينتزع قلبَكِ من صدركِ، ويُشرِّحه للغداء.

"لم أقُل لك قطُّ أسوأ ما فعلتُه".

تصلّبت كتفاه. "ليس من الضروريّ لكِ أن تعترفي بأيِّ شيء. ليس لي".

"ينبغي لك أن تعرف، لكونكَ زوجي ووليَّ أمري".

"إنَّ ماضيَكِ هو شأنُكِ الخاصّ".

"ألا تريد أن تعرف أيَّ نوعٍ من النساء تلك التي تعيش معك".

"لماذا الهجوم، يا أماندا؟"

"لا أشنُّ هجومًا، بل أُصارِحكَ بصدق".

"ها أنتِ تعودين إلى عنادكِ، إلى عنادكِ الشديد".

"ينبغي أن تعرف أنّني..."

"لا أُريد أن أسمع ذلك".

"...لقد ضاجعتُ والدي نفسه!"

أطلق مايكل زفرةً حادّةً كما لو كانت قد لكمته لكمةً شديدة. ثمّ حدّق إليها طويلًا، وعضلةٌ ترتعش في خدّه. "يُخيَّل إليَّ أنّكِ قلتِ إنّه خرج من حياتك لمّا كنتِ في نحو الثالثة من عمرك".

"لقد خرج فعلًا. ولكنّه رجع إليها في ما بعد، وأنا في السادسة عشرة".

اعترى مايكل غثيان. يا الله، يا الله! هل من خطيئة لم ترتكبها هذه المرأة؟
لا!
وتطلبُ منّي أن أُحبَّها.
كما أحببتُكَ أنا.
لماذا فعلَتْ هذا؟ لماذا لم تستطع إبقاء بعض الأثقال على كاهلها؟ "هل شعرتِ بشيءٍ من الراحة إذ رميتِ هذا في وجهي؟"
قالت ببلادة: "ليس بكثير". ثمَّ التفتت وتوجَّهت نحو الكوخ، مشمئزَّةً من نفسها. حسنًا، لقد قامت بذلك. انتهى الأمر. أرادت أن تختبئ. اتَّسعت خُطاها. ستحزم بعض الأمتعة وتتأهَّب للرحيل.
وأخذ مايكل يرتجف غيظًا. لقد انتهى الحلم الجميل، وها العاصفة هبَّت.
كما أحببتُكَ أنا، يا مايكل. سبعين مرَّةً سبعَ مرَّات!
صرخ مايكل صرخةً عالية وضرب الفأس عميقةً في عارضة التشقيق. ووقف يتنفَّس بتثاقُل وقتًا غير قصير، ثمَّ اختطف قميصه ولبسه متلوِّيًا وهو متوجِّهٌ نحو الكوخ بخطىً واسعة، حيث فتح الباب بقوَّة فرأى أنجل تسحب بعض الأشياء من منضدة الجوارير التي صنعها لها بعد رحيل آل ألطمان.
"لا تتوقَّفي عند هذا الحدّ، يا أماندا. أخبريني بباقي ما فعلتِهِ. أطلقي ذلك خارج صدرك. أفرغيه عليَّ. أطلعيني على جميع التفاصيل التي تجمِّد الدم في العروق".
مايكل، يا محبوب.
لا! أنا غير مُصغٍ إليك الآن! سأُسوِّي معها الحساب مرَّةً وإلى الأبد!
ولمَّا لم تتوقَّف أنجل عمَّا كانت تفعله، أمسك بذراعها وأدار جسمها نحوه. "هنالك المزيد، أليس كذلك يا أنجل؟"
كان ذلك الاسم صفعةً على وجهها. فقالت بصوتٍ خفيض: "ألم يكن ذلك كافيًا؟ أم تريد المزيد فعلًا؟"
تبيَّنت له المشاعر التي سعت يائسةً إلى سترها، ولكنَّ ذلك أيضًا لم يُهدِّئه. "لنُطلِعْ جميع الغسيل الوسخ إلى الخارج حالًا!"
سحبت ذراعها من قبضته المزعجة، وردَّت عليه التحدِّي. "حسنًا، إن كان ذلك ما تريده! مرَّت مدَّة قصيرة وأنا أحسب أنَّني مُغرَمة بذُوك. مُذهِل؛ أليس كذلك؟ بدَت حياتي كلُّها معتمدةً عليه. أطلعتُه على كلِّ شيء: كلِّ ما يؤذي، كلِّ ما يهمّ. وتصوَّرت

أنّه سيُصلح لي ما فسد".

"وقد استخدم كلَّ ما عرفه ضدَّكِ بدلًا من ذلك".

"حزرتَ! لم أُفكّر مرَّةً واحدة في حياة دُوك خارج قصره ذي الحجارة السمراء، ولا في أيِّ نوع من الأشخاص كان أصدقاؤه. حتّى جاء مرّة بصحبةِ واحدٍ أراد منّي الانفراد به. قال: «كوني لطيفةً معه، يا آنجل؛ إنّه واحدٌ من أقدم أصدقائي وأعزِّهم». وإذا بأليكس ستافُورد يدخل. ولمَّا نظرت إلى دُوك، رأيتُه يضحك على كِلَينا. عظيم؛ أليس كذلك؟ لقد عرف دُوك كم كنتُ أكره ستافُورد لِما فعله بأُمّي، فأراد تمامًا أن يرى كيف أتصرَّف حيال ذلك".

"هل عرف والدُكِ مَن أنتِ؟"

ضحكت آنجل ضحكةً فاترةً متقطّعة: "وقف أبي هناك يُحدِّق إليَّ كما لو كنتُ شبحًا. وهل تعرف ماذا قال؟ لقد ذكَّرتُه بامرأةٍ كان يعرفها".

"ثمَّ ماذا؟"

"بقيَ عندي. قضى الليلَ كلَّه".

"وهل تريَّثتِ قليلًا كي تُفكِّري..."

"كنتُ أعرف ما أفعله، وقد فعلتُه على كلِّ حال! ألم تفهم بعد؟ فعلتُ ذلك بتلذُّذ، منتظرةً فقط اللحظة التي فيها أُطلِعه على هويَّتي". لم تستطع أن تحتمل حملقة مايكل، بل كانت ترتجف بشدَّة ولم تتمكَّن من التوقف. "ولمَّا عرَّفتُه بنفسي، أخبرته أيضًا بما جرى لماما".

تبخَّر غضب مايكل. وظلَّت هي صامتةً طويلًا، حتَّى لمسها قائلًا: "وماذا قال؟"

ارتدَّت على الوراء أيضًا مبتلعةً ريقها بتشنُّج، وقد بدا العذاب في عينيها الهائلتين. "لا شيء. لم يقُل أيَّ شيء. آنذاكَ على الأقلّ. إلَّا أنّه نظر إليَّ فقط وقتًا طويلًا. ثمَّ قعد على حافة السرير وأخذ يبكي. نعم، لقد بكى، وبدا كرجُلٍ عجوز مفطور القلب، ثمَّ قال لي: «لماذا؟ لماذا؟»" إذ ذاك أحسَّتِ الحرارة والحرقة في عينيها، فتابعَتْ: "وقلتُ له إنَّ ماما كانت تسألُني السؤال نفسه. وطلب منّي أن أُسامحه، فقلت له إنَّ في وسعه أن يبلى في جهنَّم". ثمَّ توقَّف الارتجاف، وشعرَت في داخلها بالبرودة، بالمَوات. ولمّا رفعت نظرها نحو مايكل، ألفَته واقفًا هناك، هادئًا ساكنًا، يراقبها وينتظر الباقي.

قالت بفتور: "أتعرف ما جرى أيضًا؟ لقد أطلق النار على نفسه بعد ثلاثة أيَّام.

وقال دُوك إنَّه فعل ذلك لأنَّه كان مديونًا للجميع، بَن فيهم ذلك الشيطان عينُه، ولكنَّني أنا أعرف لماذا فعل ذلك". ثمَّ أغمضت عينيها خجلًا وكرَّرت: "أنا أعرف".

قال مايكل: "أنا متأسِّف!" تُرى، كم من الكوابيس الأُخرى قد خبّأت داخل قلبها؟

ونظرت إليه قائلة: "هذه ثاني مرَّة تعتذر عن شيءٍ لا علاقة لك به. كيف يمكنك أن تنظر إليَّ مجرَّد نظر؟"

"بالطريقة التي يمكنني أن أنظر إلى نفسي بها".

ثمَّ هزَّت رأسها ولفَّت نفسها بشالها بإحكام، وقالت: "أمرٌ واحد بعد، سوف يُحدِث فرقًا". فوقف مايكل كجنديٍّ ماضٍ إلى معركة، فيما قالت: "لا يمكنني أن أُنجِب أطفالًا. لقد حبلتُ مرَّتين. وفي كلتيهما أحضر دوك طبيبًا لإجهاضي. وثانيَ مرَّة قال للطبيب أن يتيقَّن بأنَّني لن أحبل مرَّةً أُخرى أبدًا. أبدًا، يا مايكل. هل فهمت؟" وتبيَّن لها أنَّه فهم.

جمد في مكانه مصعوقًا، تنتابه الحرارة والبرودة بالتبادل. لقد اخترقت كلماتُها صدرَه اختراقًا.

ووضعت يدها على وجهها لأنَّها لم تستطع أن تحتمل النظر إلى وجهه.

فسألها بهدوء: "هل من شيءٍ آخر بعد؟"

قالت، وفمُها يرتعش: "لا، وأعتقد أنَّ في هذا الكفاية!"

لم يتحرَّك مايكل وقتًا طويلًا. ثمَّ تناول البلوزات التي كانت قد أخرجتهنّ، ودسَّهن من جديد في الجارور، وأغلقه خبطًا. ثمَّ خرج خارج الباب.

وطال غيابه، فذهبت تبحث عنه لتسأله ماذا يريد منها أن تفعل. ولم تجده في الحقول، ولا في الحظيرة، ولا عند الجدول في الأسفل. وتساءلت عن احتمال ذهابه إلى آل ألطمان. لعلَّه ركب الحصان وقصد إلى پول ليقول له إنَّه كان مُصيبًا في ما قاله عنها، بل أكثرَ من مُصيب. إلَّا أنَّ الأحصنة كانت في المربط.

وإذ فكَّرت مليًّا، تذكَّرت مكانًا آخر ربَّما ذهب إليه. فارتدت معطفًا وتناولت حِرامًا سميكًا عن السرير، ثمَّ توجَّهت إلى التلَّة التي صحبها إليها مرَّةً لمشاهدة شروق الشمس. فإذا بمايكل جالسٌ هناك ورأسُه بين يديه. ولم يرفع رأسه لمَّا وصلت إليه، فوضعت الحِرام على كتفَيه. "هل تريد منِّي أن أرحل؟ إنَّني أعرف الطريق الآن". فأحيانًا كانت بعض العربات العامَّة تمرُّ من هناك. "أستطيع أن أعثر على طريق العودة وحدي".

قال بصوتٍ أجشّ: " لا!"

ووقفت تشاهد غروب الشمس. "هل يُخالجكَ حينًا الشعور بأنّ الله يُمازِحك بمزحةٍ مروّعة؟"

"لا".

"إذًا لماذا، وأنتَ تحبُّه هكذا يفعل بك أمرًا رهيبًا كهذا؟"

"كنتُ أسألهُ".

"هل أجاب؟"

"أنا أعرف أصلًا". ثمّ أمسك بيدها وجذبها نحوه لتجلس بقربه. "كي يقوّيَني".

"أنتَ قويٌّ قوّةً كافية بالفعل، يا مايكل. إنّك لا تحتاج إلى هذا. لا تحتاج إليَّ".

"لستُ قويًّا كفايةً لمواجهة ما سيأتي بعد".

خافت أن تسأله عمّا يعنيه. ولمّا أخذتها قُشَعريرة، طوّقها بذراعه، وقال: "إنّه لم يُعطِنا قلبَ خوف. سوف يُريني الطريق عندما يحين الوقت".

"كيف يمكنك أن تكون متيقنًا هكذا؟"

"لأنّه فعل ذلك دائمًا من قبل".

"ليتني أستطيع أن أُومن". كانت الصرّارات والضفادع تُصدِر أنغامًا متنافرة حولهما. كيف أمكنها أن تظنّ مجرّد ظنّ أنّ السُّكون يسود هُنا في العراء؟ "ما زلتُ استطيع أن أسمع ماما تبكي أحيانًا. ففي الليل، حين تخربش أغصان الشجر زجاج النافذة، يمكنني أن أسمع قرع قنّينتها بكأس، وأكاد أراها جالسةً على السرير المغضّن، تُحدّق إلى الفراغ. وكنتُ أُحبُّ الأيام الماطرة أكثر الكلّ".

"لماذا؟"

"لم يكن الرجال يأتون كثيرًا حين يكون الطقس رديئًا. حينذاك يظلُّون بعيدًا في مكان دافئ وجافّ ويشربون بكلِّ مالهم، مثلهم مثل راب". وأخبرته كيف جمعت علب القصدير من الزقاق ولمّعتها ووضعتها تحت السقف الواكف لجمع الماء، مُعلّقةً: "تلك كانت سمفونيّتي السّريّة الخاصّة".

وهبّت نسمة هواء. فأزال مايكل عن وجهها خصلة شعر متطايرة ودسّها خلف أُذنها. كانت صامتةً مُتعَبة، وكان هو مستغرقًا في التفكير بكآبة. ثمّ قال: "هيّا بنا"، ووقف. وأقامها ممسكًا بيدها، ثمّ توجّها هكذا إلى البيت. ولمّا دخلا الكوخ، فتّش في جارور الأواني. "سأرجع بعد قليل. ثمّة شيء يجب أن أعمله في الحظيرة".

باشرت إعداد العشاء، راغبةً في إبقاء نفسها منشغلةً بحيث لا تُضطرُّ إلى التفكير. وكان مايكل يدقُّ مسامير في أفاريز الكوخ. ألعلَّه يهدم المكان حواليها؟ تقدَّمت إلى الباب وهي تُنشِّف يديها، وألقت نظرةً إلى الخارج، فإذا مايكل يُعلِّق خُردَوات معدنيَّة وأوانيَ ومسامير وحَدوةً عتيقة.

وإذ هبط درجةً من درجات السلَّم، مرَّر يده على تلك الأدوات المعلَّقة، وقال مبتسمًا لها: "هذه سمفونيَّتك السريَّة الخاصَّة". فانعقل لسانُها، وراقبَته يحمل السُّلَّم ليُعيدها إلى الحظيرة.

ثمَّ عادت إلى الداخل وقعدت، لأنَّها كانت أكثر تعبًا من أن تقوى على الوقوف. لقد بدَّدت أحلامه، وهو صنع لها أجراسَ هواء.

ولمَّا دخل، قدَّمت له العشاء. أنا أُحبُّك، يا مايكل هوشع. أنا أُحبُّك كثيرًا حتَّى أكاد أموت حبًّا. ثمَّ حرَّكت النسمة أجراس الهواء، فامتلأ الكوخ بالجَلجَلة المُبهجة. فتكلَّفت شُكره بكلمة ضعيفة. ولم يبدُ أنَّه توقَّع أكثر من ذلك. ولمَّا فرغ من تناول الطعام، غرفت ماءً ساخنًا من القِدر المعدنيَّة الكبيرة فوق النار كي تغسل الصحون.

أمسك مايكل بمعصمها، وأدارها نحوه. "دعي الصحونَ" ولمَّا بدأ يحلُّ شعرها، لم تكد تقوى على التنفُّس.

كانت مرتجفة ومرتبكة. أين هدوؤها وسيطرتُها؟ لقد كان يُزعزِعُهما برقَّته.

مشَّط شعرها بأصابعه، وأمال رأسها إلى الوراء، فرأى الخوف في عينيها. "أتعهَّد بأن أُحبَّكِ وأُعزَّكِ، بأن أُكرمكِ وأُساندكِ، في المرض والصحَّة، في الفقر والغنى، في الضرّاء التي قد تجعل أيّامنا مظلمة والسرّاء التي قد تُضيء لنا السبيل. تِرصة، حبيبتي، وعدًا بأن أظلَّ وفيًّا لكِ في كلِّ شيء حتَّى يُوافيَني الأجل، بل في ما وراء ذلك، بإذن الله".

وقفت مُحدِّقةً إليه، مُزلزَلةً حتَّى الصميم: "بماذا عليَّ أنا أن أعِدَك؟"

برقت عيناه بمَرَح لطيف: "بأن تُطيعي!" ثُمَّ أدنى فمه من فمها.

ولمّا قبَّلها، هامَت في قفرٍ من الأحاسيس الجديدة. لم تشعر قطُّ بمثل هذا الشعور، دفئًا وروعةً، إثارةً وصوابًا. ولم تنطبق أيّة قاعدة من القواعد القديمة. نسِيَت كلَّ ما تعلَّمته يومًا من السادة الآخرين. وكانت أرضًا ناشفة يغمرها مطر الربيع، بُرعُمَ زهرةٍ يتفتَّح للشمس. وقد علم مايكل ذلك فتملَّقها في لطفٍ بكلماتٍ رقيقة فاضت عليها مثل بَلَسانِ جلعاد الزكيِّ، شافيةً جراحها.

ثمَّ طارت، ومعها مايكل، إلى داخل السماوات.

وإذ عاد مايكل إلى ربوع الأرض، تبسَّم قائلًا: "أنتِ تبكين".

"أأبكي؟" ولمست خدَّها فوجدت دمعةً واحدة.

وقال مُقبِّلًا إيّاها: "لا تنظري إليَّ هكذا. هذه علامةُ خير".

ولكن لمَّا استيقظ مايكل في الصباح، كانت آنجل قد رحلت.

الاتِّضاع

الفصل
الثاني والعشرون

لأنّ أمرًا ما يبدو صعبًا عليك،
لا تحسبنه مستحيلًا.

(ماركوس أوريليوس)

ذكَّرت جَلجَلة القدور وصلصلة المقالي على جانب عربة سام تيل آنجل بأجراس الهواء التي علَّقها مايكل لها. وإذ أغمضت عينيها، استطاعت أن ترى وجه مايكل. حبيبي، واحبيبي! لا يمكن أن تسمح لنفسها بالتفكير فيه. عليها أن تنسى. خيرٌ لها أن تُفكِّر في ما جلبه الحبُّ على ماما، وتُبقيَ رأسها عاليًا.

لم يتوقَّف البائع الجوَّال الكبير السنِّ الجالس بقربها عن الكلام منذ أنِ التقطها عن الطريق عند الفجر. فكانت شاكرة من أجل السدِّ الذي أقامه كلامُه بينهما. ولم يكن هو قد باع أيَّ شيء من بضاعته في جولته بين الجبال. وقد بات زاده ضئيلًا، وداء المفاصل يؤلمه ألمًا مُبرِّحًا. فكان أحسن شيء حصل لسام تيل على مدى الشهر الماضي أنّه رأى هذه الحسناء الصغيرة قاعدة على أرومة شجرة مقطوعة بقرب الطريق. وقد كان سام نظيفًا وأنيقًا، لكنّه كان منهوكًا ومُحدودبًا، وقد سقط معظم شعره، كسقوط مشاريعه. ولكنْ كانت له عينان لطيفتان تحت حاجبيه الشائبين البارزين. فما دامت تُصغي إليه، كانت غير مُضطرَّة إلى التفكير.

"مِمَّن أنتِ هاربة، يا آنسة؟"

ردَّت عن وجهها خصلةً متدلِّية من شعرها الأشقر، وتكلَّفت ابتسامةً غامضة. "ما الذي يجعلك تظنُّ أنّي هاربة من شخص ما؟"

"إنّها طريقة تلفُّتكِ الدائم إلى الوراء من فوق كتفك. لقد بدوتِ مضطربةً جدًّا عندما وجدتُكِ هناك. وتصوَّرت أنّكِ ربَّما كنتِ هاربةً من زوجك".

"كيف عرفتَ أنّي متزوِّجة؟"

"في إصبعك خاتم".

غطَّت يدها بسرعة، وتورَّد خدَّاها. لقد نسيت أن تنزع الخاتم. ثمّ برمته حول

إصبعها، متسائلةً كيف يمكنها أن تردَّه إلى مايكل.

"هل أساء معاملتكِ؟"

ما كان مايكل ليفكِّر في عمل ذلك. فأجابت بفتور: "لا!"

ورمقها بنظرةٍ فاحصة: "لا بدَّ أنّه عمل شيئًا ما حتَّى دفعكِ إلى الهروب".

أشاحت بوجهها. ماذا عساها تقول؟ "لقد جعلني أُغرَم به"؟ لو قالت لهذا العجوز إنَّ مايكل لم يفعل لها شيئًا سوى معاملتها بمنتهى اللطف والاعتبار، لبدأ يطرح الأسئلة. فقالت: "لا أُريد أن أتكلَّم عن الأمر، يا سيِّد تيل". ثمَّ أخذت تبرم الخاتم حول إصبعها مرارًا وتكرارًا، وأرادت أن تبكي.

"سام. ناديني سام، يا سيدتي".

"اسمي آنجِل".

قال: "ما عليك إلَّا أن تنزعي الخاتم وترميه بعيدًا، إن كان ذلك يريحكِ.

لن تفعل ذلك أبدًا. فالخاتم كان لوالدة مايكل. وكذبت قائلةً: "لا يمكنني نزعه من إصبعي". عليها أن تدبِّر طريقه لإرساله إلى مايكل.

"هل كنتِ متوجِّهةً إلى سَاكرامنتو؟"

كانت سكرامنتو مكانًا من الأمكنة الصالحة للبدء من جديد. "نعم".

"جيِّد. أنا في طريقي إلى هناك. سأتوقَّف في بضعة مُخيَّمات تعدين أُخرى لعلِّي أبيع شيئًا من بضاعتي". وحثَّ الحصان المُجهَد على المُضيِّ قُدمًا. "تبدين مُرهقةً، يا سيدتي. لماذا لا تصعدين إلى مؤخَّر عربتي وتنامين؟ هنالك سرير معلَّق في جانب العربة يمكن سحبُه. ما عليكِ إلَّا أن تشدِّي لسان السقَّاطة".

كانت مُنهَكة، فشكرته على ذلك العرض. ثمَّ سحبت السرير، ورقدت عليه، إلَّا أنَّ النوم طار من عينَيها. فكانت العربة تجري وتترجرج على الطريق، وفكرها يُحوِّم ويُهوِّم. ظلَّت تُفكِّر في مايكل. لن يفهم سبب مغادرتها له، وسيغضب. وقد غمرها كثيرٌ من الارتباك والاضطراب وشدَّها شيءٌ ما في داخلها كي تعود وتُكلِّم مايكل، مُطلِعةً إيَّاه على مشاعرها. لكنَّها علمت أنَّ في ذلك جنونًا. ألم تسكب ماما عواطفها على أليكس ستافُورد؟ ألم تعترف له بحبِّها مرارًا وتكرارًا؟ وكلُّ ما فعله لها الحبُّ كان أنَّه بدَّد عزَّتها وجلب عليها الخزي.

لم تستطع الكفَّ عن التفكير في الليلة الماضية. فوجودها قرب مايكل جعلها تشعر بالشبع والارتواء، لا بالجوع والخواء. لقد أحسَّت صوابًا وهي بين ذراعي مايكل،

إحساسًا بأنَّ ذلك هو المكان الذي إليه تنتمي تمامًا.

لقد شعرت أُمُّكِ بمثل ذلك الشعور حيال أليكس ستافُورد، وانظري كيف انتهى أمرها.

أنَّت أنينًا خفيفًا، وتكوَّمت على نفسها أكثر.

لو لم يأتِ سام تيل لَمَّا أتى، لربَّما ضعفت ورجعت. وكان من شأنها أن تلتصق بمايكل مثلما التصقت ماما بأبيها. وعاجلًا أو آجلًا، سيملُّ مايكل منها كما ملَّ أليكس ستافُورد من ماما.

فكَّرت أنَّ البُعد يُسكِّن الألم، غير أنَّه فاقمه على نحوٍ أسوأ. فإنَّ ذهنها وجسمها تشوَّقا إليه، بل إنَّ كِيانَها كُلَّه حنَّ إليه.

لماذا التقيتُه أصلًا؟ لماذا جاء إلى پيرأدايس أساسًا؟ لماذا كان ينبغي أن يقف إلى جانب الشارع وأنا أتنزَّه ذلك النهار؟ لماذا رجع إلى الماخور بعدما طردتُه؟

استطاعت أن تلمح عينيه، وملؤهما العطف والحنان والرقَّة، إذ قال: "أنا أُحبُّكِ. متى تفهمين أنَّني وفيٌّ لك وملتزم نحوكِ؟"

وقديمًا قالت ماما: "قال إنَّه يحبُّني. قال إنَّه سيحبُّني إلى الأبد".

كان في وسعها أن تحسَّ الدموع تتجمَّع، وقاومتها حتى لا تسيل. صحيح! لقد وقعت في غرام مايكل وذرفت دمعةً، إلَّا أنَّها كانت من الذكاء بحيث تهرب قبل أن تتفاقم الأمور. وقد حملت هذه المرَّة أكثر من الثياب التي على بدنها. ستضع كلَّ شيء وراء ظهرها. ستذهب إلى الشرق، أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب... حيثما شاءت.

وهمست: "سأفعل ذلك. سأعيش وحدي".

سألها صوتٌ بسخرية: **ماذا ستشتغلين؟**

"شيئًا ما. سأعثر على شيءٍ ما".

طبعًا، يا آنجل. ستشتغلين ما تُتقِنينَه أكثر الكلّ.

"سأُدبِّر طريقة أُخرى لأعيش. لن أعود إلى ذلك".

بلى، ستعودين. ماذا تُحسِنين سوى ذلك؟ أكان رديئًا جدًّا بالحقيقة؟ كان عندكِ طعام ومأوى، ثيابٌ جميلة، اعتبار وإعجاب...

حافظَ الصوت الأسود على الإيقاع المتناغم مع وقع حوافر الحصانين المُنهكَين على الطريق المغبَّر. ولمَّا نامت حلمت بدُوك مرةً أخرى، فاعلًا جميع الأمور التي اعتاد فعلها. ولم يكن مايكل حاضرًا ليمنعه.

أيقظها سام تيل. وأشركها في طعامه، قائلًا لها إنَّه سيدخل مُخيِّمًا بعد قليل. "سأُجرِّب مرَّةً أخرى. إن لم أبع بعضًا من هذه الأواني، فسوف أكون مفلسًا عندما أصل إلى سَكرامنتو. هذه البضاعة كلُّها بالأمانة، ولن أقبض قرشًا واحدًا إن لم أبع شيئًا. عسى أن يكون الربُّ الصالح معي هذه المرَّة".

أخذ منها صحنها المعدني الفارغ، وراقبَته فيما مضى به إلى الجدول كي يغسله. إنَّ الربَّ الصالح لم يفعل شيئًا لهذا العجوز الفقير، كما لم يفعل لها شيئًا. وقد جمع سام تيل أشياءه معًا وكدَّسها في العربة من جديد. وانتظرها بقرب أشيائه، ثمَّ مدَّ يده لمعاونتها كما لو كانت سيِّدةً محترمة.

ونصحها قائلًا: "خيرٌ لكِ أن تظلِّي مختبئةً في الداخل. فإنَّ بعضًا من هؤلاء الشبّان قد يُسيئُون التصرُّف كثيرًا إذا شاهدوا سيِّدة". ثمَّ ابتسم لها ابتسامةَ اعتذارٍ ملتويةً، وأضاف: "وأنا أكبر سنًّا من أن أقوى على الدفاع عنكِ".

فمسَّت يده وصعدت إلى صندوق العربة.

ولمَّا وصلا المخيَّم، سمعت سام يُنادي على بضاعته. فرشقه الرجال بالشتائم، وسخروا من حصانَيه ومن عربته. وأبدوا تعليقاتٍ مُهينة على بضائعه. كما أنَّهم علَّقوا عليه هو تعليقاتٍ أسوأ. ولكنَّ سام كان عنيدًا. فقد انهالوا عليه بمزيدٍ من الإهانات، فيما ظلَّ هو مُصِرًّا على موقفه، مُقسِمًا على جودة بضاعته. لقد تمتَّع الرجال بسخريتهم من هذا العجوز الفقير واستمتعوا بتعذيبه. واستطاعت آنجل أن تسمع في صوت سام تيل نبرةً تنمُّ عن تضاؤل آخِر أمل لديه، فعرفت حقيقة شعوره، وعرفت كيف يمكن أن تتأذَّى النفس.

نادى أحدهم: "كلُّ ما ينقصنا هنا مقلاة من مقالي سام". ودعاً أحدهم سام أحمق. فعبست آنجل. لعلَّه كان أحمق، ولكنَّه لا يستحقُّ هذه المعاملة. فكلُّ ما أرداه هو أن يكسب رزقه بالحلال.

ردَّت آنجل الستارة وخرجت. فأخرس بروزها الرجال المحتشدين في الحال. وهمس سام: "ماذا تفعلين؟" وقد بدا عليه الخوف الشديد. "عودي إلى الداخل، يا بُنيَّتي. هؤلاء الرجال أنذال".

قالت: "أعرف. أعطِني تلك المقلاة، يا سام".

"لا يمكنك أن تهزميهم جميعًا".

"أعطِني المقلاة".

"ماذا ستفعلين بها؟"

قالت: "سأبيعها". وأخذت المقلاة من يده، قائلةً: "اقعد، يا سام". ففعل ما طلبت وهو مرتبك. ثمّ دارت من حوله، ورفعت المقلاة، مُمرِّرةً يدها عليها كما لو كانت قطعةً ثمينة: "أيهًا السادة، إنَّ سام يعرف بضاعته، ولكنّه لا يعرف أيَّ شيء عن الطبخ". وابتسمت ابتسامةً خفيفة، فرأت وجوهًا بين ضاحكٍ ومُكشِّر.

ضحك بعضهم كما لو كانت تحكي نكتة بذيئة. وقد تحدَّثت عن الفراريج والزلابية، واللحم المقدَّد المقليّ والمَرَق، والبيض المخفوق والشرائح. وإذ سال لعابهم قليلًا، تطرَّقت بهدوء إلى ضرورة حيازة مقلاة جيِّدة النوعيَّة لطهو وجبة طيِّبة. وتكلَّمت عن المعدن المطرَّق الأصليّ، وعن توزيع الحرارة، والمسكة العمليَّة. ولئن كان سام قد قال ذلك كلّه من قبل، فقد أصغى الرجال بطَرَبٍ هذه المرَّة.

"وفضلًا عن جميع الوجبات الشهيَّة التي يمكنكم إعدادها فِي هذه المقلاة، فإنَّ لها استعمالاتٍ أُخرى. عندما ينفذ من عندكم الرصاص، وتحتاجون إلى حماية أنفسكم، يكون في أيديكم سلاح". ولوَّحت بالمقلاة تمثيلًا على رجل كان قد اقترب أكثر ممَّا ينبغي. فضحك الرجال، وضحكت هي أيضًا مُمازِحةً لهم. "إذًا ما قولكم، يا سادة؟ هَل مَن يشتري؟"

"نعم!" وبدأ الرجال يتدافعون للاقتراب إليها أكثر. وقد كان من شأنهم أن يشتروا منها حتَّى علبة تنك مبعوجة. ونشب شجارٌ في وسط الحشد، بينما كان جاريًا مالت آنجل نحو سام وسألته عن ثمن المقلاة، فطلب مبلغًا معقولًا، فقالت: "أُوه! أعتقد أنَّ في وسعنا تحصيل أكثر من ذلك بكثير". وانتظرت ريثما فُصِل المتشاجران حتَّى تُحدِّد السعر المطلوب. فتذمَّر أحدُهم بصوتٍ عال، ممَّا حمل الآخرين على التريُّث.

تبسَّمت آنجل وهزَّت كتفيها بلامبالاة، مبيِّنةً بذلك أنّه لا يهمُّها أشتروا أم لم يشتروا. وعلَّقت المقلاة على جانب العربة ثمَّ قعدت. "هيَّا بنا، يا سام. لقد أخطأتَ في ما قلتَه عن هؤلاء الرجال. فهم لا يعرفون النوعيَّة الجيِّدة وهي أمام أنظارهم".

انفغر فم سام، إذِ اعترض بعض الرجال، فالتفتَت إليهم قائلةً: "قلتُم إنَّنا نطلب ثمنًا غاليًا. بصراحة، لا أرى صوابًا في محاولة التكلُّم إليكم لإقناعكم بشيءٍ ينبغي لعقولكم أن تقول لكم إنّه ضروري. سام؟" وناولَته الزِّمام. فأمسَك أحد المُعدِّنين بلجام الحصان وطلب منها التمهُّل حتَّى يشتري مقلاةٍ قبل أن تنطلق.

فأذعنت آنجل بتأدُّب، ثمَّ باعت كلَّ مقلاةٍ في العربة!

ولم يبدأ الحشد بالتفرُّق، حتَّى أمسك سام بالزمام وانطلق بالعربة على الطريق المنحدر ليخرج من تلك البلدة. وقد كان يضحك ويقهقه. "لديكِ موهبة في هذا، يا سيِّدة!"

قالت بجفاف: "حسنًا، لديَّ شيءٌ ما". ولم يكن ذلك مثل ما تقوله بصورة طبيعيَّة وعيناك تُسعفانِك على الإيضاح في أثناء الكلام. فإنَّ بيع مقلاة لم يكن مختلفًا في شيء عن بَيع جسدها. وقد كانت تعرف جيِّدًا كيف تفعل ذلك.

أعدَّت طعام العشاء مطهوًّا فيما عدَّ سام ذهبه. وسكبت له ثمَّ قعدت لتأكل. ولمَّا دفعت صحنها جانبًا، رمى إليها شيئًا. فالتطقتْه مذهولةً، وسألت: "ما هذا؟" إذ رأت في يدها كيسًا جلديًّا صغيرًا.

"حصَّتُكِ ممَّا كسبناه اليوم".

فتطلَّعت إليه مدهوشةً: "ولكنَّ المقالي لك".

"ولولا مبادرتكِ إلى الكلام بجرأة، لكانت ما تزال معلَّقةً في عربتي. إنَّكِ في حاجة إلى مبلغٍ ضئيل تُباشِرين به. وهذا حقُّكِ الآن". ثمَّ أخذ بطَّانيَّة إضافيَّة ونام تحت العربة.

عند شقِّ الفجر، توجَّها نحو سكرامنتو. ثمَّ وصلاها ظهرًا في اليوم الثاني. وكان يجري سباق، فتمكَّن سام من إزاحة عربته في الوقت المناسب، فيما مرَّ ثلاثةُ فرسان كالبرق الراعد. وما لبث الشارع أن غصَّ بعدهم بالعربات والرجال. وقد رأت آنجل بناياتٍ ترتفع في كلِّ ناحية، حيث تردَّدت أصداءُ المطارق وعجلات عربات الخشب ذات الصريف.

قال سام وهو يُعيد العربة إلى خطِّ السَّير: "وقع الحريق أوَّلًا. ثمَّ الطُّوفان. وقد دُمِّرت معظم البنايات على ضفاف النهر". ثمَّ جذب الزِّمام: "أعندكِ أقرباء هنا؟"

أجابت مُراوِغةً: "أصدقاء"، متظاهرةً بأنَّ نشاط الزحام جذب اهتمامها.

فسألها سام: "أفي وسعي أن آخذكِ إلى أيِّ مكان محدَّد؟" مبديًا قلقه عليها بوضوح.

"لا. أيُّ مكان يصلح. سأهتدي إلى طريقي بنفسي. لا تقلق عليَّ، يا سام. ففي وسعي أن أعتني بنفسي".

توقَّف سام أمام متجر خُردوات كبير. "هذا آخِر الخطِّ. بالنسبة إليَّ". ثمَّ ساعدها على النزول وصافحها باليد مودِّعًا. "أنا شكور على رفقتك، يا ستّ، وعلى مساعدتك في المخيَّم الأخير. أعتقد أنَّ أيَّام تجوالي انتهت. حان وقتُ وقوفي وراء نُضد. ربَّما أفتح لي دكَّانًا، وأُوظِّف بعض البائعات الشابَّات اللطيفات".

تمنَّت آنجل له التوفيق، ومضت في سبيلها بسرعة. مشت على الرصيف، مُجاوِزةً

رجالًا رفعوا لها قبّعاتهم. إلّا أنّها لم تنظر إلى أحد، إذ كان ذهنها منشغلًا بالتفكير في ما ينبغي أن تفعله الآن ما دامت في سكرامنتو. ثمّ جاوزت إحدى الحانات، فأعادت الموسيقى الصاخبة فكرها حالًا إلى حانة الدولار الفضّيّ وإلى القصر. بدا ذلك منذ دَهر، ولكنّ رؤية تلك الحانة استحضرته حالًا، ولم تجد في تلك الذكرى سلوانًا.

وصلت أخيرًا إلى ضفّة النهر. فإذا بسخرية الأمر تجعلها تبتسم ابتسامة مرّة. ألم ينتهِ المطاف بماما على أرصفة الميناء؟ وها هي تنجذب نحو الرصيف فيما السُّفن داخلةٌ. وشاهدت الناس ينزلون على اللوح الخشبيّ الثخين وصناديق الحمولة تُفرَغ.

واصلت سيرها، فرأت مباني قائمةً على طول الشارع حالَّةً محلَّ تلك التي جرفها الفَيَضان. وكان مبنيان ما يزالان قيد الإنشاء، أحدهما حانةٌ كبيرة. وقد عرفت آنجل أنّها إذا عبرت مصراعي ذلك الباب المترجِّحَين، فستكون بعد أقلّ من ساعة مشتغلةً في إحدى تلك الغُرَف القائمة في الطابق الثاني.

من ثَمّ تابعت سيرها بلا هدف في الشارع. ماذا ستفعل؟ إنّ الذهب الذي أعطاها إيّاه سام تيل كان يكفيها أُسبوعًا أو اثنين. ولكنْ ماذا بعد ذلك؟ يعوزها أن تدبّر طريقة لكسب معيشتها بنفسها، ولم تكد تحتمل فكرة العودة إلى البغاء.

لا يمكنني القيام بذلك بعدُ. ليس بعدَ مايكل.

إنّ مايكل ليس إلّا رجُلًا كباقي الرجال.

لا، ليس مثل الباقين في شيء.

خرج رجل طويل القامة، أسود الشعر، من أحد المتاجر، فترنّح قلبها. لم يكن هو مايكل، بل كان رجلًا آخر يُشبِهه بلون بشرته وقامته. وقد كان يتضاحك مع بضعة رجال آخرين وهم يعبرون الشارع.

عليها أن تكفّ عن التفكير في مايكل. أوّل شيء ينبغي لها أن تفعله هو العثور على مكان تُقيم فيه، ولكنّ كلّ مكانٍ مرّت أمامه كان إمّا زريًا جدًّا وإمّا غاليًا كثيرًا. وظلّ فكرها يخونها ويرتدّ إلى مايكل. تُرى، ماذا يفعل الآن؟ أهو يبحث عنها، أم تخلّى عن ذلك ورجع يشتغل في حقله؟ إذ ذاك جاوزت ماخورًا آخر.

ادخلي حالًا، يا آنجل. سوف يُعنَون بك. ستكون لك غرفة خاصّة بكِ، وطعام.

تعرّق كفّاها. كان عصر النهار قد فات، والبردُ يشتدّ. منذ متى هي هائمة على وجهها؟ وإذ خرج رجلٌ من هناك، تراجعت حالًا. فنظر إليها مدهوشًا، ومسّ قبّعته قائلًا: "عفوًا سيّدتي. لا ينبغي لك أن تقفي خارج مكانٍ كهذا". وقد كان يتمايل في مشيته.

قالت: "زوجي في الداخل"، مُمسِكةً بأوّل شيءٍ استطاعت التفكير فيه كي تُبعِد الرجُل.

فنظر إليها، وهزَّ رأسه قائلًا: "زوجكِ؟ ماذا يفعل في الداخل وفي بيته إنسانةٌ مثلكِ؟ ما اسمه؟"

"اسمه؟ أُوه، إنّه شارل!"

وحالما رجع الرجل ليدخل عبر الباب المترجّح، مناديًا شارل غير الموجود عبر الدرج، أسرعت مبتعدةً، فعبرت الشارع وتوجَّهت إلى آخر. وكان الرجال يحدّقون إليها وهي تُجاوِزهم. حتّى لمحت لافتةً حديثة الطلاء، مكتوبًا عليها: مخزن هكشايلد للتجارة العامّة، فتوجَّهت صوب تلك اللافتة كما لو كانت بصيص نور في غمرة الظلام.

خرجت امرأةٌ كبيرة السنّ ممتلئة القوام، تحمل بيدها مكنسةً، وراحت تكنس الدرج والرصيف الخشبيّ. كانت تشتغل باجتهاد وبغير ابتسام، قاذفةً التراب إلى الشارع ونافضةً المكنسة على الألواح. فلمّا خَطَت آنجل على الرصيف، رفعت نظرها نحوها، وتمتمت بابتسامةٍ واهية: "يا للرجال! إنّهم لا يكشطون الوحل عن نعالهم قبل دخول المخزن مع أنّ حديدة الكشط ظاهرةٌ أمامهم". ثمّ خفضت حملقتها إلى الصرّة المربوطة في يد آنجل. فحيَّتها آنجل بحياء، ودخلت المخزن. وفتَّشت عن جوزف، إلّا أنها لم ترَه في أيِّ مكان.

سألتها المرأة: "أيمكنني ان أُساعدكِ في شيء؟" وقد وقفت داخل الباب تمامًا، مدلّيةً المكنسة بيدها كبندقيّة مُراحة.

قالت آنجل: " أُريد كيس سفر من الحجم الصغير".

أجابت المرأة: "ها هنا"، ودلّتها إلى رفٍّ على حائط. "هذا الكيس جيّد". وأخذت كيسًا ناولتها إيّاه. ثمّ برزت من وراء الستارة الخلفيّة امرأةٌ أُخرى سوداء الشعر، وافرة النشاط، وحطَّت صندوقًا على نُضُد. وبعدما مسحت العرق عن جبينها، التفتت ونادت: "جوزف، هلّا تُخرِج لي ذلك القفص، من فضلك! لا أقدر أن أحمله".

تمنّت آنجل لو أنّها لم تدخُل إلى هنا. لماذا لم تفكِّر في الأمر قبل القيام به حالًا؟ إنَّ جوزف كان صديقًا وثيقًا لمايكل. فما عسى أن يقول عن هروبها بتلك الطريقة؟ ليس في وسعها أن تتوقَّع أيّة مساعدة منه. ثُمّ مَن هاتان المرأتان معه؟ ألم يقُل شيئًا عن مجيء أُمّه وإتيانها بعروسٍ له؟

سألتها المرأة: "هل أُعجبكِ؟"

فقالت متلعثمةً: "ماذا؟" عليها أن تخرج من هنا.

قالتِ المرأة: "كيسُ السفر"، وقد ثار فضولها الآن.

"غيَّرتُ فكري". وردَّته إليها. إذ ذاك برز جوزف من وراء الستارة حاملًا القفص، فرآها حالًا، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. وتنبَّهت آنجل إلى تلفُّته السريع في أنحاء المخزن بحثًا عن مايكل. فدارت بسرعة وتوجَّهت نحو الباب، مصطدمةً بالمرأة المسنَّة. فقالت متلعثمةً: "عفوًا، عذرًا!" محاولةً أن تثبِّتها وهي تُجاوِزها محتكَّةً بها.

"آنجل! اين تذهبين؟ مهلًا!"

لكنَّها مضت في سبيلها. فحطَّ جوزف القفص بخبطة، وقفز من فوق النُّضُد، ولحق بها، وأمسك بكتفها قائلًا: "قفي! ماذا يجري؟"

قالت، وقد احمرَّ وجهها: "لا شيء. إنَّما دخلتُ بحثًا عن كيس سَفَر".

"إذًا ابحثي كما طاب لكِ. أين مايكل؟"

فغصَّت بريقها وقالت: "في البيت".

عبس جوزف. "ماذا جرى؟"

أمالت ذقنها. "لا شيء".

ثمَّ اقبلت أُمُّه فوقفت معهما، والمكنسةُ ما تزال بيدها. "مَن هذه الشابَّة، يا جوزف؟" وقد أخذت تتفحَّص آنجل باهتمام جديدٍ مُستغرِب.

فأجاب بغير أن يُشيح وجهه عن آنجل: "زوجةُ صديقٍ لي". ووَدَّت لو يكفُّ عن تفحُّصها بعينيه الحادَّتين. ثمَّ أمسك بمرفقها. "هيا إلى هُنا واقعدي، وأخبِريني عمَّا يجري". ولم يلجأ إلى أيَّة مقدِّمات، بل قال حالًا: "هذه زوجتي، ماريبا؛ وهذه أُمِّي، رابيكا".

وسألت ماريبا: "هل تريدين فنجان قهوة؟" فأجاب جوزف: "نعم، تُريد". ولوَّح لأُمِّه بيده، فمضت واستأنفت كناستها، وظلَّت تراقبهما خلسةً.

قالت آنجل بصراحة: "ما كان ينبغي أن آتي إلى هنا".

"هل يعرف مايكل أين أنتِ؟"

فأجابت كذبًا: "طبعًا، يعرف".

قال: "إذًا"، وفي هذه الكلمة البسيطة حشدٌ من العبارات. ثمَّ جلس على برميل، ولمَّا يُفلِتْ ذراعها. "لقد هربتِ منه؛ أليس كذلك؟"

جذبت ذراعها من قبضته، واستجمعت شجاعتها للدفاع عن نفسها. "لم تجرِ الأمور على ما يُرام".

"لا؟" ولم يقُل أيّة كلمةٍ وقتًا طويلًا. ثمَّ أضاف: "ليس الأمر غير متوقّع كثيرًا، على ما أعتقد، إلّا أنّه عيب".

فتر تحدّيها. "ألديك أيّة أفكار عمّا يمكن أن تشتغل فيه حمامةٌ مُعفَّرة لتكسب معيشتها في هذه المدينة؟" طرحت عليه هذا السؤال بلا حياء، وابتسمت ابتسامتها المهينة القديمة. ولمَّا عبس، تصوَّرت أنّه ربّما أقلقه أن تطلب منه بعض المال. وما لبثت أن قالت: "لا بأس. إنّها نكتة رديئة". ثمَّ وقفت قائلةً: "يحسن بي أن أمضي".

وضع يده على ذراعها مجدَّدًا. "اقعُدي. ها هي ماريبا آتيةٌ بالصينيّة". ثمَّ قدَّمت لها زوجتُه فنجان قهوة، فتناولته بيدين مرتجفتين. وحاولت أن تُهدّئ روعها، شاعرةً بتمعُّن جوزف. وقدَّمت ماريبا لها شيئًا من الكعك، فاعتذرت. وإذ كانت أُمُّ جوزف قد فرغت من الكناسة، انضمَّت إليهم. وتمنَّت أنجل لو أنّها لم تخطُ إلى داخل ذلك المكان. فتحتَ رقابة ستِّ أعيُن، شعرت بالذبول يعتري أحشاءها. وقد تحدَّثوا عن الفيضان والترميم وتموين المخزن. ومع أنّهم لم يطرحوا أسئلةً شخصيّة، فقدِ استطاعت أن تحسَّ نظراتهم الفاحصة.

ثمَّ دخل زبون، فذهبت ماريبا تُلبّي طلبه. ودخل آخر، فرأت رابيكا أنَّ جوزف لا ينوي خدمته، فاستأذنت.

سألها جوزف: "أعندكِ غُرفة؟"

أجابت رافعةً ذقنها: "ليس بعد. ولكنْ لا ينبغي أن يكون العثور على واحدة صعبًا جدًّا".

قال: "ستمكثين هنا". وقد بدت أنجل مُجهَدةً جدًّا.

سألت متهكّمةً: "وماذا سيكون رأي زوجتك وأُمّك في هذا؟" وهي غير شاعرة بأنّها عكست في عينيها صورة فتاة صغيرة ضائعة.

"ستكونان أكثر تساؤلًا إذا تركتُكِ تمضين ولا مكانَ تُقيمين فيه. لا يمكننا أن نوفّر لك وسائل راحة فاخرة. ولكنّنا نستطيع أن نعطيكِ سريرًا خفيفًا نظيفًا وحِرامات وطعامًا حلالًا. ماذا تقولين؟"

فعضعضت شفتها ونظرت إلى المرأتين الأُخرَيين.

صفق يديه على فخذيه ونهض، قائلًا: "لن تُمانِعا". حتّى لو لم يكن ذلك رأيهما، فقد نوى التحقُّق من أن تُبقيا تحفُّظاتهما لأنفسهما. وكان الوقت قد تأخَّر بحيث أمكنه إقفال المخزن أبكر قليلًا من المعتاد.

جلست آنجل معهم إلى طاولة السُّفرة في الطابق الأعلى. وأخذت تُقلِّب طعامها في صحنها متظاهرةً بأنَّها تأكل، إلَّا أنَّها كانت فاقدة الشهيَّة. لم تطرح عليها ماريبا ورابيكا أيَّة أسئلة فاحصة، غير أنَّها استطاعت أن تشعر بفضولهما الشديد. حتَّى إذا شرعت ماريبا في تنظيف الطاولة، نهضت آنجل وساعدتها. وما إن خرجت من الباب، حتَّى بدأ جوزف وأمُّه يتحدَّثان بلهجة خفيفة منفعلة. وتوقَّفا لمَّا رجعت لأخذ ما بقي من الصحون. وإذ كدَّستها، تمهَّلت، ثمَّ قالت:

"لا داعيَ لأن أمكثَ أكثر من هذه الليلة. إذا كان وجودي سيُثير مشكلةً بينكما، فسأرحل في الصباح الباكر".

أجابت رابيكا بلهجة لا تستدعي جدلًا: "ستمكثين طوال المدَّة التي يرتئيها جوزف. سيضع سريرك بقرب مدفأة الحطب في الطابق السفليّ، حيث تدفَئين".

ثبَّت جوزف سريرها هناك. ثمَّ صعد إلى الطابق العلويّ وقال لماريبا إنَّه سيغيب حينًا، وسيرجع في غضون بضع ساعات. ففوجئت ماريبا، ولم تسأله شيئًا. وإذ أغلق الباب وراءه، قالت: "إنَّه لا يخرج خارجًا في الليل أبدًا". ثمَّ أحضرت قطعةً تُطرِّزها.

أمَّا رابيكا فقعدت تحبك صوفًا بسرعة، بعدما قالت: "شغل!"

جلست آنجل مع المرأتين في البهو. وكان الصوت الوحيد المسموع في الغرفة تكتكة الساعة فوق رفِّ الموقد، وطقطقة صنّارتي رابيكا.

أخيرًا قالت آنجل: "من بعد إذنكما، ينبغي أن آوي إلى السرير". فأومأت رابيكا برأسها موافقةً. وأغلقت آنجل الباب وراءها ثمَّ لبثت هناك قليلًا، فإذا المرأتان تباشران الحديث بتشوُّق، عنها على وجه الاحتمال. وهبطت الدرج، ثمَّ تمدَّدت على السرير في الظلام، حيث نامت نومًا متقطِّعًا، حالمةً بدُوك.

نزلت رابيكا عند الفجر. فاستيقظت آنجل ولبست ثيابها بسرعة. وإذ شاهدتها رابيكا تجمع أشياءها، قالت: "لم تنامي جيِّدًا، أليس كذلك؟"

"كنتُ بخير. شكرًا لكم على السماح لي بالمبيت هنا البارحة". ثمَّ طَوَت الحِرامات ووضعتها جانبًا، وأطبقت السرير النقَّال، ودسَّته في مكانٍ ضيِّق بين صفَّي رفوف. وكان في وسعها أن ترى عيني رابيكا السوداوين تراقبان كلَّ حركةٍ تأتي بها.

قالت رابيكا: "قال جوزف إنَّكِ تبحثين عن شغل. لدينا هنا عملٌ كثير يمكنكِ أن تقومي به".

انتصبت آنجل مدهوشةً وتطلَّعت إليها قائلةً: "أتطلبين منِّي أن أشتغل عندكم؟"

فاعتدلت رابيكا قائلة: "إلَّا إذا كان في فكركِ شيءٌ أفضل؟" أجابت آنجل حالًا: "أُوه، لا. لم يكن في فكري أيُّ شيء. ماذا تريدين منّي أن أفعل؟" وعلى الفور أعطتها رابيكا لائحة أشغال.

نظَّفت آنجل النوافذ، وكنست المخزن ومسَّحت أرضه. ورصفت المعلّبات، وطوت قمصان القطن الحمراء. ودقَّت مسامير في الجدران. وحين كان الرجال يقتربون منها، كانت ماريبا ورابيكا تُقاطِعانهم، وتُجيبان عن أسئلتهم وتعرضان عليهم البضائع. ثمَّ طلبت منها رابيكا أن تحمل بعض الصناديق من غرفة التخزين وتملأ الرفوف خلف المناضد. وقد اشتغلت آنجل باجتهاد، متوقِّفةً لتناول طعام الغداء، ثمَّ عائدةً إلى عملها، حتَّى أغلق جوزف المخزن وأقفل الباب بعد هبوط الظلام.

عند العشاء، ناولتها رابيكا ظرفًا، قائلةً ببساطة: "هذه أُجرتكِ. فطرفت عيناها وأحسَّت غصَّةً في حلقها. ونظرت إلى جوزف وماريبا، ثمَّ إلى رابيكا ثانيةً. فأومأت رابيكا برأسها لابنها: "إنَّها عاملة نشيطة". وحنت آنجل رأسها، غير قادرةٍ على التكلُّم. ثمَّ وضعت رابيكا صحن بطاطا على مقربةٍ منها، قائلةً: "كُلي. تحتاجين إلى شيءٍ من اللحم على عظامِك!"

في وقتٍ متأخِّر من تلك الليلة، جلست آنجل على سريرها النقّال وعدَّت ما كسبته، في ضوء مصباحٍ مُضاء. كانت في القصر تكسب في نصف ساعة أكثر ممَّا كسبته طول النهار. ولكنَّها لَم تشعر قطُّ بمثل هذا الطُّهر والفخر.

في اليوم التالي، طلبت إليها رابيكا أن تكيل فاصوليا وتملأ أكياسًا كُلًّا بمقدار كيلوغرامين ونصف، ثمَّ تربطها وتكدِّسها. ولمَّا فرغت من ذلك، أوقفت أثواب القماش الملفوفة بدلًا من تكديسها. ثمَّ أقبلت رابيكا، وقالت إنَّ العرض بدا جميلًا جدًّا، وسيكون التصرُّف بالأثواب أسهل هكذا. "لقد أحضر جوزف توًّا شحنةً من أحواض الغسيل. هلَّا تُساعِدينني في إدخالها! يمكننا رصفُها في الزاوية الخلفيَّة".

كانت رابيكا تُعيِّن لآنجل كلَّ يوم الواجبات التي ينبغي إنجازها. وفي كلِّ مساء، حين يُقفَل الباب وتُدلَّى لافتة "مُقفَل"، كانت رابيكا تدفع لها أُجرتها.

قال جوزف، مربِّتًا قفصًا خشبيًّا: "انظري ما وصل توًّا".

وضعت آنجل المكنسة جانبًا، ودسَّت بضع خُصَل من الشعر تحت الوشاح الذي يُغطِّي رأسها. "ما هو؟"

"مدفأة مايكل!"

قفز قلبُها إلى حلقها لدى ذِكر اسمه. وقالت: "يحسن بي أن أُنهي الكناسة". وراقبها جوزف طويلًا، ثمَّ عاد إلى عمله.

كانت آنجل ساهيةً عند العشاء. وما إن رُفِعت الصحون وغُسِلت، حتَّى استأذنت آنجل. وبعد قليلٍ، نزلت ماريبا إلى الطابق الأسفل، وقالت: "جوزف ورابيكا يراجعان الحسابات". ثمَّ أضافت بعد تردُّد: "لم تكادي تأكلين شيئًا عند العشاء. أَأنتِ بخير؟"

"أنا بخير". لم تتمكَّن من التوقُّف عن التفكير في مايكل. فما دامت تتحرَّك وتشتغل، تستطيع كبت اشتياقها. وألقت نظرة على القفص الكبير بلصق الحائط. سيُبعَث إلى مايكل بخبر، فيأتي ويأخذ مدفأته.

سيكون عليَّ أن أرحل قبل مجيئه.

جلست ماريبا على صندوق، ودفَّأت يديها على المدفأة الضخمة. "أنتِ تفكِّرين في الرحيل، أليس كذلك؟"

فرفعت آنجل نظرها قائلة: "نعم!"

"ألستِ مسرورةً بالعمل؟"

"لا دخلَ للعمل في الأمر. إنَّه..." ماذا عساها تقول؟ تنهَّدت وأومأت برأسها نحو المدفأة الضخمة. "مدفأة مايكل. سيأتي قريبًا ليأخذها".

"وأنت لا تريدين أن تَريه؟"

"لا أستطيع".

"أَكانت حالكِ معه رهيبةً جدًّا؟"

لقد كانت رائعة. أروع من أن تدوم. "خيرٌ لي فحسْبُ ألَّا أراه".

"إلى أين ستذهبين؟"

هزَّت كتفَيها. "سان فرنسيسكو. لا أدري. لا فرق".

شبكت ماريبا يديها في حضنها. "جوزف يفكِّر كثيرًا في زوجكِ".

أومأت آنجل برأسها ونظرت بعيدًا. "أعرف". إنَّ مجرَّد اسمه أثار فيها مشاعر كثيرة جدًّا. حسبَت أنَّ الشوق قد يتضاءل. حسبت أنَّ البُعد سيُلاشي شعورها تجاهه. ها قد مضت ثلاثة أسابيع على ابتعادها عنه، وهي تحنُّ إليه الآن أكثر منها ليلةَ رحلت عنه.

قالت ماريبا: "تزوَّجتُ مرَّة من قبلٍ، من رجُلٍ صعب المراس. وماتت أُمِّي وأنا صغيرة، وأراد أبي أن أستقرَّ قبل دنوِّ أَجَله. فانتقى لي رجُلًا ناجحًا ولطيفًا حسب

الظاهر. ولكنَّ زوجي لم يكن هذا ولا ذاك. وقد صلَّيتُ كثيرًا حتَّى يخلِّصني الله منه، فخلَّصني". ثمَّ توقَّفت قليلًا وأضافت: "عندئذٍ تعلَّمت كيف يمكن أن تقسو الحياة على امرأةٍ وحدها".

فقالت آنجل ببساطة: "لقد كنتُ وحدي طوال عمري".

"إذا كان زوجكِ نصف ما يعتبره جوزف فحسب، ينبغي أن ترجعي وتُسوِّي الأُمور معه".

انكفأت آنجل، وقالت مدافعةً: "لا تقولي لي ماذا ينبغي أن أفعل. أنتِ لا تعرفين شيئًا عن حياتي، ولا عن المكان الذي كنتُ فيه قبلًا". فلبثت ماريبا صامتةً وقتًا طويلًا، وندمت آنجل على فظاظتها.

أخيرًا قالت ماريبا: "أنتِ على حقّ. لستُ أعرف جميع ظروفك، ولكنَّني أعرف القليل الذي أخبرني جوزف به".

سألت آنجل: "بماذا أُخبركِ؟" سامعةً النبرة المتكسِّرة في صوتها، لكنْ عاجزةً عن تسكينها.

اضطربت ماريبا ونظرت إليها بأسف. "بأنَّ زوجكِ أخرجكِ من ماخور. لقد وقع في حبِّك أوَّل مرَّةٍ رآكِ فيها، والأرجح أنَّه ما زال يحبُّكِ".

بعثت كلماتُها موجة وجع في أوصال آنجل. "الحبُّ لا يدوم". ولم تدرِ كم بدا على وجهها الشاحب.

وانبسط وجه ماريبا. "أحيانًا يدوم. إذا كان حبًّا صحيحًا".

استلقت آنجل في الظلام بعد ذهاب ماريبا، وتمعَّنت في ما قالته. لقد اجتهدت ماما لإبقاء حبِّ أليكس ستافُورد حيًّا، وجرَّبت كلَّ شيء لإرضائه وإبقاء هواه نابضًا. فتساءلت آنجل آنذاك عن تلك الجهود عينها هل عملت على إبعاده عنها. لطالما كانت ماما جائعة جدًّا إلى حُبِّه. فإنَّ حياتها بكاملها كانت تدور حول قدوم أليكس ستافُورد إلى البيت الريفيِّ الصغير. وتوقَّفت سعادتُها عليه وحده فقط. لقد كان ذلك هاجسًا استحوذها.

ترى، بأيِّ شيءٍ يختلف شعورها تجاه مايكل؟ لم تستطع أن تكفَّ عن التفكير فيه. وقد تاق قلبُها إلى الوجود بقربه، إلى سماع صوته، إلى رؤية عينيه تبرقان إذ ينظر إليها. لقد اشتاق إليه جسدُها، إلى دفئه وإلى لمسته، وباتت عواطفُها جيَّاشة.

وفي الصباح، قالت لجوزف إنَّها راحلة. فقال لها: "لا يمكنك الرحيل"، مبديًا

استياءه الواضح منها. وتابع: "لقد آذت ماريبا ظهرها البارحة. أليس كذلك، يا ماريبا؟" وبدا الاضطراب على ماريبا، فقال لها: "يمكنكِ الإقرارُ بذلك". فمدَّت يديها، وقال جوزف: "أرأيتِ؟ وعندي خلف الستارة هناك شحنةٌ فُرِّغت حديثًا. فلا أستطيع إخراجها وترتيبها على المناضد وحدي".

فأذعنت آنجل قائلة: "لا بأس، يا جوزف. ولكنْ حالما ينتهي هذا العمل، ينبغي لي أن أرحل".

وباشرتِ العمل حالًا، مستعجلةً إنجاز المهمَّة كي ترحل حالًا. وظلَّ جوزف يطلب منها أن تتمهَّل، إذ لم يُرِد امرأةً أُخرى متأذِّية الظهر. وعند استراحة الغداء، تأنَّى طويلًا في تناول طعامه، حتَّى ثار سخطها. ثمَّ لمَّا نهضت لتستأنف العمل، طلب إليها أن تقعد وتشرب قهوتها كلَّها. إن كان مضطربًا حقًّا لإخراج بضائعه على وجه السرعة، فلماذا يُضيِّع هذا الوقت الكثير؟ ثُمَّ إنَّ ظهر ماريبا بدا سليمًا تمامًا حين نهضت وحملتِ الطبق الكبير ورفعته عن الطاولة.

ولمَّا استأنف العمل، قال إنَّه غيَّر رأيَه بشأن المكان الذي وضع فيه بعض المصابيح ويريد نقلها إلى الطرف الآخر من المخزن. وكان يجب أيضًا نقل البضائع عن نُضُدٍ كان قد اختاره. فقامت بما طلب وهي تشعر بمزيدٍ من التوتُّر كلَّما طال النهار.

اخرجي من هنا، يا آنجل. اخرجي. الآن.

غير أنَّها بقيت، مشتغلةً مع جوزف، عازمةً على إنجاز ما باشراه، مع أنَّه كان يغيِّر رأيه كلَّ نصف ساعة. فأيُّ خطبٍ دهاه اليوم؟

ألقى جوزف يده على كتفها قائلًا: "كفى ما عملتِ اليوم. هلَّا تُقفِلين المخزن!"

"ما زال الوقت باكرًا؛ أليس كذلك؟"

فقال مبتسمًا: "يكاد النهار يمضي". ثمَّ أومأ لماريبا وأُمِّه بأن تأتيا، ودخلوا جميعًا عبر الستارة الخلفيَّة. والتفتت آنجل متجهِّمة، فإذا مايكل واقفٌ على عتبة الباب المفتوح!

الفصل

الثالث والعشرون

كُلُّكِ جميل، يا حبيبتي،
ليس فيكِ عيبة.

(نشيد الأنشاد ٤: ٧)

جمدت أنجل في مكانها من هول الصدمة إذ مشى مايكل نحوها. كان مُغطًى بغبار الطريق، ووجهُه مُغضَّنًا ومتجهِّمًا. "بعثَ إليَّ جوزف بخبرِ وجودكِ هنا".

أخذ قلبُها يعدو عدوًا سريعًا. "لماذا جئت؟"

"لآخُذكِ إلى البيت".

فتراجعت مبتعدةً عنه، وقالت: "لا أُريد الرجوع"، مبتغيةً أن تُبديَ ثباتًا ولامبالاة، ولكنَّ صوتها المرتجف لم يُسعِفها في ذلك.

وظلَّ مقبلًا نحوها، فاصطدمت بنُضُد أحذية، وأوقعت عددًا منها خبط الأرض خبطًا. وقال لها: "علمتُ أنَّكِ لن ترجعي إلى پيرأدايس".

تشبَّثت بالنُّضد الذي خلفها طلبًا للدعم، ووقفت في مكانها. ثمَّ قالت هازئةً: "مَا الذي جعلك متيقِّنًا هكذا؟" فلم يُجِبها. ولم تستطع قراءة نظرة عينيه. وإذ مدَّ يده نحوها، حبست نَفَسها. ثمَّ مسَّ خدَّها متردِّدًا، فضمَّت شفتيها معًا لتحول دون ارتجافهما.

"علمتُ ذلك فحسبُ، يا أماندا".

وإذ عجزَت عن تحمُّل دفق العواطف، اندفعت مسعورةً للإفلات منه. "إنَّك لا تدري حتَّى سببَ تَركي لك".

أمسك بها مايكل جيِّدًا، وأدارها صوبه. "بلى، أدري!" ثمَّ جذبها إلى ما بين ذراعيه وأضاف: "تركتِني بسبب هذا". وغشَّى فمها بفمه. ولمَّا حاولت دفعه للإفلات منه، أمسك براحَتيه قفا رأسها. فضاعفت مقاومتها إذِ انساب في أوصالها الدفء الغامر الماكر.

حتَّى إذا هدأت آخِرَ الأمر، زلَّق مايكل المنديل المُزهَّر عن شعرها، ثمَّ حلَّ الشريط، ومشَّط شعرها بأصابعه، مُميلًا رأسها إلى الوراء. واستطاعت أن تحسَّ خبط قلبه العنيف تحت كفَّيها.

وقال بصوتٍ أجشّ: "هذا كان السبب؛ أليس كذلك؟" فحاولت أن تُدير رأسها بعيدًا، من خَجَل، إلَّا أنَّه لم يدَعها. "أليس كذلك؟"

فهمست بصوت متهدِّج: "لا أُريد أن أشعر هذا الشعور".

وتنحنح أحدهم قائلًا: "أما زال المحل مفتوحًا؟"

فدار مايكل، مزلِّقًا يديه عن ذراعيها. وضغط على يديها برفق قبل إفلاتها. "لا، ليس مفتوحًا، مع الأسف!" ثمَّ عبر الغرفة وشيَّع الزبون الخائب إلى الباب، وأغلق وراءه بإحكام، وأدار القفل، ثمَّ قلب اللافتة في الواجهة.

لمَّا رجع مايكل، رأى أماندا في آخِر المخزن. كانت منحنيةً على شيءٍ ما قرب المدفأة الكبيرة. فتبعها ورأى في يدها كيس سَفَر وهي تجمع أشياءها القليلة معًا، فمال فمه. "سنذهب إلى البيت صباح غد".

أبت أن تنظر إليه. "أنت ستذهب إلى البيت. أمَّا أنا فذاهبة إلى سان فرنسيسكو".

فأطبق أسنانه متصبِّرًا بكلِّ جَلَد. وكان وجهها شديد الشحوب والتوتُّر. وإذ حاول لمسها ثانيةً، نفرت حالًا، ووضعت برميلًا بينهما، ومضت تدسُّ ثيابها في الكيس مسعورةً. فقال لها: "أنتِ مغرمة بي. هل تظنِّين انَّكِ تقدرين أن تهربي من هذا؟"

جمدت آنجل عند سماعها هذه الكلمات، ورأسُها مُدَلًّى، ويداها متشبِّثتان بالكيس. كانت ترتجف بشدَّة. لقد كان تأثيره فيها مُزلزِلًا. وأخذت تكدِّس ثيابها داخل الكيس من جديد. كلَّما عجَّلت في الفرار منه، كان أفضل. وقد كانت تحاول أن تدسَّ مشاعرها مع ثيابها. "قلتُ لك إنِّي لن أدع نفسي أُحبُّ أيَّ شخص، وكنتُ أعني ذلك!"

أجابها بعزمه وتصميمه المعهودين: "ولكنْ عجيبة العجائب أنَّكِ أحببتِ، أليس كذلك؟"

"ارحل من هنا، يا مايكل".

"كلَّا!"

"دعني وشأني!" ثمَّ لفَّت آخر قميص وحشرته داخل الكيس مع باقي أشيائها. وبعد إقفال سحَّابة الكيس بسرعة، حملقت إليه. "أتُريد أن تعرف حقيقة شعور الحبِّ عندي؟ إنَّه يُشبِه نزعك لقلبي من صدري!"

برقت عيناه. "بدأتُ أشعر بمثل هذا الشعور عندما رحلتِ، وليس عندما كنتِ معي". وحاولت أن تتجاوزه، إلَّا أنَّه سدَّ عليها الطريق. "لقد رأيتُ الطريقة التي بها بدأتِ تنظرين إليَّ، يا أماندا. شعرتُ بطريقة استجابتك تلك الليلة الأخيرة. شعرت

بها طوال الوقت في كل كياني".

"وقد آتاك ذلك شعورًا بالقوّة؛ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟"

"نعم!" هكذا اعترف صراحةً، وأمسك بذراعها حين بدا لها أنّها تقدر أن تبلغ الباب الخلفيّ. "ولكنّها ليست قوّةً سوف أستخدمها ضدَّكِ".

قالت وهي تحاول الإفلات منه بنخعةٍ سريعة: "أنتَ على حقّ. لن أُتيحَ لك الفرصة!"

فاختطف الكيس من يدها وطوّح به فارتطم بالحائط الخلفيّ وقال: "لستُ أنا أباكِ! لستُ أنا دُوك! لستُ أنا أيَّ رجُل يدفع ثمن قضاء نصف ساعة في سريرك!" ثمَّ أحكم قبضة يديه على ذراعيها وأضاف: "أنا زوجكِ! إنَّني لا أستخفُّ بما تشعرين به. أنا أُحبُّكِ. أنتِ زوجتي!"

عضَّت آنجل شفتها، ودافعت دموعها.

ورقَّ قلب مايكل، فأمسك وجهها براحتيه حتّى لا يمكنها تحويل نظرها عنه، ورأى كفاحها الذي يفطر القلب في مقاومة عواطفها. لطالما كانت العواطف عدوَّتها. فلن تتمكّن من أن تدع نفسها تشعر، إن شاءت أن تعيش. وهو قد فهم ذلك، إلّا أنّه مُضطرٌّ لأن يجعلها تدرك أنَّ العاطفة لم تعُد عدوَّة لها.

"أماندا، لقد علمتُ يوم رأيتُكِ أنّك تنتمين إليَّ. أنتِ تخصينني".

قالت متوخّيةً إبعاده: "هل تعرف كم مرَّةً قال لي الرجالُ هذا؟"

وأكمل طريقه بعناد، كما لو أنَّ كلماتها لم تطعنه في الصميم. "لقد راقني أن أُراقبك تَنمين وتتغيَّرين. فأنتِ لستِ كما كنتِ مطلقًا. وتروقُني طريقة تقبُّلكِ للأشياء الجديدة، وأحبُّ اندفاعك إلى التعلُّم. وتروقني طريقة تأديتك للعمل، وكيف ترتسم ملامح تلك البنت الصغيرة على وجهكِ حين تُنجِزين شيئًا لم تجرِّبيه قطُّ من قبل. يروقُني أن أُراقبكِ تقفزين عبر المرجة مع روث. يروقني أن أراكِ تُضاحِكين ميريام وتستندين إلى حكمة إليزابث. تروقُني تمامًا فكرةُ أن نشيخ معًا وأن أفتح عينيَّ كلَّ صباحٍ فأرى وجهكِ ما دمتُ على قيد الحياة".

همست بتهدُّج: "كفى!"

فهزَّها برقَّة، قائلًا: "لم أكد أبدأ. أماندا، أحببتُ إعطاءك اللذَّة والتمتُّع. أحببت أن أشعر بذوبانك. أحببتُ سماع اسمي من بين شفتيكِ". واحمرَّ وجهها، فقبَّلها. "الحبُّ يُطهِّر، يا حبيبتي. إنّه لا يصرعكِ ويقهرك. إنّه لا يُلقي عليكِ لومًا". ثمَّ قبَّلها

أيضًا، متمنّيًا لو يعثر على الكلمات المناسبة للتعبير عن حقيقة شعوره. إنّما الكلمات لن تكفي أبدًا لإطلاعها على ما يعنيه. "إنَّ حُبّي لكِ ليس سلاحًا. إنّه حبلُ سلامة ونجاة. فمدّي يدك وأمسكي به، ولا تُرخيه أبدًا".

حين جذبها بين ذراعيه هذه المرّة، لم تقاوم. وحين طوّقته بذراعيها، تنهّد، وزال في الحال ضغط الأسابيع المنصرمة. "يا له من شعور طيّب- أليس كذلك؟- وصحيح أيضًا!"

فقالت ببؤس: "لم أستطع أن أكفّ عن التفكير فيك"، ملتصقةً به ومتنشّقةً رائحة جسمه الزكيّة. وكانت قد افتقدت هذا الإحساس بالأمان الذي يغمرها حين تكون معه فقط. وهو كان عاقدًا عزمه على أن يحوزها. حسنًا، لماذا لا تدعه؟ أليس ذلك هو ما يريده؟ أن تنتمي إليه. أن تبقى معه إلى الأبد. أليس هذا ما تاقت إليه كلَّ لحظة منذُ أن غادرَته؟

"إنّك تجعلني أرجو وآمل، يا مايكل. ولستُ أدري أصوابٌ هذا أم لا".

قال: "هو صواب"، ضامًّا إيّاها إلى صدره بشدّة، ومبتهجًا بمؤاتاتها له. وقد كانت تلك مجرّد بداية.

عند شقِّ الفجر، غادر مايكل وآنجل راكبةٌ وراءه، وقد دسّت يديها بأمانٍ تحت حزامه. وقلّما تكلّم، غير سؤاله لها كيف دبَّرت أمر السفر إلى سكرامنتو. فأخبرَته بالتفصيل عن سام تيل العجوز وحظّه السيّئ. وضحك لمّا أخبرته كيف باعت له المقالي في مخيّم التعدين، كما ضحكت هي أيضًا. "لم أكن أعتقد أنّني أُحسِن أيَّ شيء".

"سأدعُكِ تتولّين المحاسبة مع جوزف تاليَ مرّة نوصِل إليه شحنةً من نتاجنا".

"إنَّ جوزف أمرٌ مختلفٌ تمامًا. فلن يسهل إعماؤه بكلّ يُسر".

"إنّه يودُّكِ، كما تعلمين".

سرَّها ذلك على نحوٍ غريب. "صحيح؟ أعتقد أنّه سمح لي بالبقاء إكرامًا لك".

"جزئيًّا. فقد قال إنّه علم أنَّ يد الله كانت عليكِ حينما دخلتِ بابه ذلكَ اليوم".

لم تُجِب آنجل. فهي لم تكن تظنُّ أنَّ يد الله كانت على أيّ شيءٍ ذي علاقةٍ بها، إذ كان قد غسل يديه منها منذ زمنٍ طويل. ثمَّ أرخت ذراعَيها حول خصر مايكل وأتكأت رأسها على ظهره العريض القويّ. وهمّت بالبكاء فعلًا، فيما أخذت ترتجف، مُدافِعةً

خوفًا غامضًا ينهشها. وقد أحسَّ مايكل ذلك، غير أنَّه انتظر استراحةً كي يتكلَّم عنه.

ترجَّل، وأنزلها عن الحصان حاملًا إيَّاها. ثمَّ رفع ذقنها وتفحَّص عينيها. "ما الأمر، يا أماندا؟"

"كان عثوري على جوزف في الوقت المناسب مجرَّد ضربة حظٍّ، يا مايكل".

عرف مايكل أنَّ في الأمر أكثر من ذلك بكثير، ولكنَّ إطْلاعها على ذلك ما كان ليجعلها تصدِّق.

لم تشأ آنجل أن تُفكِّر في ما كان يمكن أن يحدث لو لم تعثر على صاحب المخزن. فقد كانت ضعيفةً جدًّا؛ وكانت تلك حقيقةً مقيتةً تواجهها بشأن ذاتها. فإذا مضى يومٌ واحد وهي تعيش وحدها، كان من شأنها أن تدخل ماخورًا من جديد. يومٌ واحد! أو ربَّما أقلّ. فقالت طالبةً الفَرَج: "لقد خلَّصتَني من جديد". وإذ ارتبكت من صراحتها الزائدة، أشاحت بوجهها.

أمال مايكل وجهها إلى الوراء. آه، يا لعَينيه! إنَّهما مُفعمتان بالرجاء الوافر، مفعمتان بالمحبَّة الصادقة. "لستُ إلَّا وسيلةً، يا حبيبتي. أنا لست مخلِّصَكِ!"

ولمَّا طوَّقها بذراعه، أتتهُ مُذعِنةً. ثمَّ لبثا هناك حتَّى حلول الظلام، واستأنفا ما بقي من سَفرتهما إلى البيت تحت ضوء القمر.

عكف مايكل على العمل في الحقول، مُنجِزًا الإعدادات الأخيرة قبل الزَّرع. وساعدته آنجل بنقل الحجارة وتفتيت كُتَل التراب في حقول الحنطة. حتَّى إذا حلَّ يوم الزَّرع، حمَّل مايكل حَبَّ البذار وآنجل في صندوق العربة. وعلَّمها كيف تزرع القمح، ثمَّ أخذ يقود عربته ذهابًا وإيابًا فوق التُّربة، فيما انصرفت هي إلى رمي البذار شاكَّةً في أنَّ أيًّا منها ستطلع.

أمَّا غرس الذُّرَة فكان عملًا أشقّ. فإنَّ مايكل اصطاد سمكًا بالشَّرَك وقطَّعه قطعًا كبيرة كي يطمرها مع حبوب الذُّرَة. وقد استغرق زرع الحقل النهار بطوله، من الفَجر حتَّى الغسق، ولكنْ لمَّا نظرت آنجل إلى التربة الغنيَّة، شعرت بالرضى. وفي الصباح التالي، شاهدت سربًا من الطيور في حقل القمح، فأسقطت دلو الماء من يدها، وراحت تركض في الحقل كيْ تطردها.

ضحك مايكل وألقى ذراعيه على سياج الزريبة الذي كان ينصبه، وسألها مراقبًا: "ماذا تفعلين؟"

"مايكل، هذه الطيور البغيضة! ماذا سنفعل؟ إنَّها تأكل الحبوب التي بذرناها" ثمَّ رمت عصفورًا آخر بكتلة تراب، ففرَّ وطار وحطَّ على غصن شجرة قريبة.

"اتركيهنَّ فحسْب. لن يأكلن أكثر من حصَّتهنّ".

فتراجعت مسرعةً. "حصتهنّ؟ لماذا تكون لهنَّ حصَّة؟"

فشرح قائلًا: "جزاءَ المعروف. فهنَّ حُرّاس الحقل. فالسنونو والخُطُّف والصقور تحرس الهواء مُقتاتةً بالحشرات التي لولا ذلك لامتلأ منها. أمّا طيور نقَّار الخشب والمُتسلّقات والقُرقُف فتغتذي بالديدان والخنافس التي قد تُفسِد الشجر. وأمَّا عصافير الدُّخل وصائدات الذباب فتقتات الحشرات التي تهاجم الأوراق؛ في حين أنَّ الطِّيهوج ودجاج الأرض تأكل الجنادب التي قد تلتهم محاصيلنا".

"وما تلك الطيور التي تُنقِّر هناك؟"

قال ضاحكًا: "شحارير".

"حسنًا، إنهنَّ لا ينفعن شيئًا؛ أليس كذلك؟"

"يحرس الشحرور سطح التربة، بمساعدة الغربان والسُّمانى والقُبَّر. أمّا الدجاج البرِّيُّ والشُّكُب فتأكل الحشرات التي تختبئ تحت سطح الأرض".

ثمَّ جذب ضفيرتها برقَّة، وقال: "دعكِ من الطيور، يا أماندا، وإلَّا نخسَر محاصيلنا. ثمَّ إنَّ لديَّ أشياءَ أُخرى تعملينها". وقفز من فوق السياج ليطوِّقها بذراعيه ويطرحها أرضًا.

"مايكل، ماذا يحدث إن لم تُمطِر؟"

"سوف تُمطِر!"

"كيف تعرف ذلك؟"

أوقفها على قدميها ثانيةً. أنتِ تقلقين من جهة أُمورٍ لا يمكنكِ أن تسيطري عليها. إنَّما عيشي كلَّ يوم بيومه".

وقد أمطرت فعلًا في الأسابيع التالية، مُرطِّبةً الأرض بنعومة. "مايكل، تعال وانظر!" كانت أعشابٌ خضراء قد طلعت، فأخذت آنجل تتمشَّى بين أتلام الذُرَة جيئةً وذهوبًا بابتهاجٍ عارم. وقد كانت النبتات صغيرة جدًّا وهشَّة، بحيث إنَّ نهارًا حارًّا واحدًا قد يُيبِّسها، ولكن مايكل لم يقلق. فأصلح سياج الزريبة، وأنجز بناء المبنى الصغير فوق النَّهر. وذهب يتصيَّد، فأصاب غزالًا وعلَّم آنجل ذبحه وسلخه وتقطيعه. ثمَّ علَّقا اللحم في غرفة تدخينه.

وأحيانًا، حين تكون آنجل منصرفةً إلى أشغالها، يوافيها مايكل في وقتٍ قلَّما تنتظره،

فيهمس مطوّقًا إيّاها بذراعيه: "لنذهبْ إلى مكانٍ جميل تحت الشمس. هلُمي معي وكوني حبيبتي!"

وقد كانا ذات يوم مُضطجِعَين في مخزن التِّبن فسمعتِ آنجل مناداة ميريام. فقالت مرعوبةً: "أُوه!" فضحك مايكل، وأمسكها بخصرها، ورماها على التبن بمَرَح. "إلى أين؟"

"ماذا يمكن أن تظنّ ميريام في وجودنا أنا وأنت هنا في نصف النهار؟"

"ربّما تظنُّ أنّنا نرمي التبن".

"ميريام فتاة ذكيّة جدًّا".

فتبسَّم قائلًا: "حسنًا، لعلها ترحل إذًا!"

فهبَّت واقفةً ونفَّضتِ التبن عن شعرها، قائلةً: "لا، لن ترحل".

قال: "قولي لها إنّني أتصيَّد، وإنَّكِ تأخذين قيلولة"، فيما نهض وقبَّل قفا عنقها. فدفعته عنها وقد تورَّد خدّاها.

ثمَّ دخلت ميريام الحظيرة وشاهدت آنجل تهبط السلَّم، فقالت: "أُه، أنتِ هُنا!"

فقالت آنجل: "كنتُ آخذ قيلولة"، وقد بدا عليها الارتباك وهي تردُّ خُصَل شعرها.

ولمعت عينا ميريام فرحًا. "لقد زرعتما حقولكما كما أرى!"

فتنحنحت آنجل قائلةً: "نعم".

"وهي تنمو جيِّدًا".

"هلّا نذهب إلى الكوخ! سأُعِدُّ شيئًا من القهوة".

فقالت ميريام وقد انفجرت ضحكًا: "لا بأس في ذلك! مايكل، يريد بابا منكما أنت وآنجل أن تتعشّيا عندنا. سوف نحتفل بأوّل زرع أنجزناه".

تردَّدت ضحكة مايكل وهو يُجيب من العِلية. "قولي له إنَّ ذلك من دواعي سرورنا".

أمسكت ميريام بيد آنجل وهما تُغادران الحظيرة، وقالت: "طالما تورَّد خدّا ماما لدى عودتها من نزهة طويلة مع بابا، كحالكِ تمامًا الآن".

احمرَّ وجه آنجل. "لا ينبغي أن تتحدَّثي عن ذلك بمثل هذه الحريَّة".

فأوقفت ميريام آنجل، وعانقتها بشدَّة، قائلةً: "لقدِ اشتقتُ إليكِ كثيرًا!"

وضمَّتها آنجل تجاوبًا، قائلةً بغصَّة: "وأنا اشتقتُ إليك أيضًا".

تراجعت ميريام وعيناها مغرورقتان. "حسنًا! ما كان صعبًا الاعترافُ بهذا؛ أليس كذلك؟" وقد بدا عليها السرور الكثير.

كان الزرع عند آل ألْطمان قد اكتمل، وقالت ميريام إنَّ وقتًا فائضًا توافر لديها

للاهتمام بشؤونها الخاصّة. والأولاد بخير. وقد رأوا پول بضع مرّات. فهو ساعدهم على حفر بئرهم الجديدة.

قالت ميريام: "لنأخذ قهوتنا إلى الخارج، ونقعد تحت شجرة التفّاح تلك". وكان مايكل يُشقّق حطبًا. فنادته آنجل تسأله هل يريد فنجان قهوة، إلّا أنّه ردَّ بالنّفي.

ولّما استراحتا في الظلّ، قالت ميريام: "ماما حُبلى. وهي دائمًا تتورّد حين تنتظر طفلًا".

فسألتها آنجل: "كيف يتقبّل أبوك الوضع؟" مُفكّرةً بأبيها هي.

أجابت ميريام: "أوه، إنّه مُعتدٌّ بنفسه كثيرًا". ثمّ ابتسمت بدهاء وسألتها: "هل تفكّران أنتِ ومايكل في إنشاء عائلة؟"

أرسل السؤال موجةً من الوجع المُفاجئ في أوصال آنجل. فهزّت كتفيها وأشاحت وجهها.

وأمسكت ميريام بيد آنجل: "لماذا رحلت؟ لقد قلِقنا جميعًا عليكِ".

أجابت آنجل: "لا يمكنني شرحُ ذلك".

"لا يمكنكِ أم لا تُريدين؟ بل هل تعرفين السبب؟"

"جزئيًّا". ولم تُرِد أن تزيد أيَّ شرح. تُرى، كيف يمكنها أن تجعل هذه الفتاة الساذجة تفهم؟ لقد كانت صريحة جدًّا وحُرّةً تمامًا. يا ليتها تكون مثلها!

وقالت ميريام: "لم نُخبِر روثي قطّ، بل قلنا لها فقط إنّكما أنت ومايكل مشغولان جدًّا، ولا يمكننا نحن أن نأتي لزيارتكما حينًا".

قالت آنجل: "شُكرًا لكم". وراقبت مايكل يكدّس الحطب، وكانت موجَعةَ القلب.

وابتسمت ميريام. "أنتِ مُغرمةٌ به على نحوٍ رهيب، أليس كذلك؟"

"بلى، لقدِ التهمني حبّه! يكفي أحيانًا أن أُنظر إليه فقط..." ثمّ توقّفت، إذ تنبّهت إلى أنّها تحكي أفكارها الأكثر خصوصيةً بصوتٍ عالٍ.

فرمقتها ميريام سائلةً: "أليس ذلك كما ينبغي أن يكون؟"

"لا أعرف. أهو كذلك؟"

أجابت ميريام حالمةً: "أرجو ذلك. أُوه، أرجو ذلك فعلًا".

تاليَ مرّة، أحضرت ميريام روث. فتركت آنجل عملها في الحديقة حالما رأتِ البنت الصغيرة هابطةً المنحدر المنثور عليه الزّهر. ثمّ نفّضت التراب عن يديها، وعبرت الباب راكضةً قليلًا لملاقاة الصغيرة.

هتفت روثي بفرح: "ماندي! ماندي!" فاحتضنتها آنجل وحملتها معانقةً إيّاها بشدّة.

وقالت مستبشرةً: "أهلًا بكِ يا حبيبتي!" مُقبّلةً الصغيرة على كِلا خدَّيها وعلى أنفها، ثمَّ أضافت: "هل كنتِ فتاة طائعة منذ رأيتُكِ آخِر مرَّة؟"

أجابت روث: "نعم!" متشبّثةً بعنق آنجلٍ من جديد كما لو كانت لا تنوي إفلاتها إطلاقًا: "لماذا هربتِ؟ طال غيابُكِ. قال پول: إنَّكِ دائمًا تهربين، ومايكل يظلُّ يذهب ويفتّش عنكِ ويعود بكِ. وقال إنَّ مايكل غبيّ لأنَّكِ تحبِّين حياتك القديمة أكثر من كونكِ زوجةَ فلّاح. ما هي حياتك القديمة، يا ماندي؟ لا أُريد لكِ أن ترجعي إليها. أُريد أن تبقَي هنا!"

أنزلتها آنجل ببطء. لقد غاصت أحشاؤها حالما بدأت روث تكرِّر كالببغاء ما سمعَته خلسةً على الأرجح. لم تخبر روثي قطّ. لم تستطع أن تنظر إلى ميريام عندما صعدت إليهما.

سألت ميريام: "ما الأمر؟" ولمَّا لم تتكلَّم آنجل، نظرت إلى أُختها الصغرى. "ماذا كنتِ تقولين؟"

مسَّت آنجل برقَّة شعر روثي الفاحم، وقالت بهدوء: "يروقني أن أكون زوجة فلَّاح. ولا أُريد العودة إلى حياتي القديمة".

انفغر فم ميريام، واحمرَّ وجهها جِدًّا.

وأومأت روثي برأسها، معانقةً رجلَي آنجل. أمّا آنجل فنظرت إلى ميريام ببرودة.

وسألت ميريام: "ماذا كانت تقول لك؟"

"ما قد سمعَته تمامًا".

"روثي، ماذا سمعتِ؟"

فقالت متشبّثةً بتنُّورة آنجل: "أنتِ وپول".

وقالت آنجل بفتور: "لا بأس. دعيها وشأنَها، يا ميريام".

لكنَّ ميريام وضعت يديها على خاصرتيها وحدَّقت إلى أُختها الصغيرة، قائلةً: "لن أدعها! لقد كنت تَسترِقين السَّمع؛ أليس كذلك؟"

حدَّقت روثي إليها قالبةً شفتها السُّفلى. "ماما أرسلتني. أرادت أن أُحضِرَكِ".

"متى كان ذلك؟"

"لمَّا كان پول عندنا. قالت ماما إنَّكِ تأخَّرتِ، وأرادت أن ترجعي إلى الكوخ".

احمرَّ خدّا ميريام سخطًا. "ثُمَّ ماذا؟"

"كان هو يتكلَّم، وكنتِ أنت مستاءة جدًّا. وقد عرفت لأنَّ وجهك كلَّه كان محمرًّا

كما هو الآن. قلتِ له أن يأخذ معه قصصه إلى بيته، وهو قال..."

رفعت آنجل يدًا مرتجفة إلى حاجبها، شاحبةَ الوجه جدًّا.

وقالت ميريام بسرعة مُسكِتةً أُختها: "لا بأس!" ثمَّ رفعت نظرها والدموع في عينيها. "أماندا..."

فهزَّت آنجل كتفيها مرتجفةً.

جذبت ميريام روثي بعيدًا وصفعت قفاها صفعةً خفيفة، قائلةً: "اذهبي سلِّمي على مايكل، يا روثي".

عضعضت روثي شفتها السُّفلى والدمع يتجمَّع في عينيها: "ألستِ غاضبةً عليَّ؟"

فانحنت ميريام نحوها وقالت: "أنا أُسامحكِ. اذهبي الآن". ثمَّ قبَّلتها وأضافت: "سنتحدَّث عن هذا في ما بعد، يا فارة. اذهبي سلِّمي على مايكل".

ولمَّا وصلت روثي إلى مايكل، حملها مُرجِّحًا وأقعدها على السياج.

وبدا الضيق على ميريام إذ قالت: "أنا آسفة. قولي شيئًا، يا أماندا. لا تنظري هذه النظرة".

ماذا كان ممكنًا أن يُقال؟ "هل تريدين شيئًا من القهوة؟"

"لا، لا أُريد قهوةً بعد. وإذ شرعت آنجل تمشي صوب الكوخ، مشت ميريام إلى جنبها. "لم أكن أغتابُكِ، صدِّقيني!"

فقالت آنجل: "ولا كان پول يغتابُني. فهو إنَّما أطلعك على رؤيته إلى الأُمور".

"كيف يُعقَل أن تُدافعي عنه؟"

"لقد آذيتُ مايكل أكثر من مرَّة، وپول يعرف ذلك".

"لا يعني هذا أنَّكِ ستؤذينه بعد".

"لا يعني أنَّني لن أُؤذيه".

لبثت ميريام ورُوث مُعظَم العصر، ولم تستطع آنجل طوال تلك المدَّة أن تصرف ذهنها عن الأمر. أفي وسعها أن تتغيَّر؟ أكانت مختلفةً فقط لأنَّ مايكل أحبَّها؟ أم كان ذلك مجرَّد الهدوء الذي يسبق العاصفة الحقيقيَّة؟

عرف مايكل أنَّ ثمَّة خطبًا ما. فقد مرَّ شهرٌ من السعادة الغامرة، ثمَّ بات في وسعه أن يشعر بها مبتعدةً عنه من جديد. واستولى عليه الخوف. ربِّ، لا تدعها تُفلِت منِّي مرَّةً

أُخرى. ساعِدني على التمسُّك بها.

قال لها: "تعالَي إلى هنا"، واضعًا بطّانيّةً قُبالة الموقد. فوافته طائعةً إلى حدٍّ بعيد، ولكنْ كان في عينيها شيءٌ غامض وكئيب. تُرى، ماذا كان يعذّبها؟

اتّكأت آنجل على صدر مايكل العريض المُريح المفتولِ العضل. وراقها وضعُه يدَيه عليها.

ومسَّ عنقها بأنفه سائلًا: "ما خطبُكِ؟ ما برح شيءٌ ما ينهشكِ طيلة السهرة. هل قالت ميريام أو روث ما أزعجكِ؟"

"بغير تعمُّد". لم تُرِد أن تُخبِره عن پول. ولم تُرِد أن تقول له كم تؤذي الكلمات. كانت قد أنكرت قوّتهنَّ طول عمرها، ولكنَّ كلَّ اسمٍ جرحها. فقالت وصوتُها متهدِّج: "كلُّ ما في الأمر أنّي سعيدة للغاية. ولا أستطيع أن أدحر الشعور بأنّني لا أستحقُّ هذا".

"وهل تظنّين أنّني أنا أستحقّ؟"

"ماذا فعلتَ في حياتك من أُمور تخجل بها، يا مايكل؟ أيَّ أمر غير مبارَك؟"

"لقدِ ارتكبتُ القتل!" وأحسَّ بالصدمة تجتاح كيانها لدى اعترافه بهذا. ثمَّ انكفأتْ عنه وانقلبت بعينين اتّسعتا دهشةً.

" أنت؟"

"مئةَ مرّة. لّما رجعت أوّلَ مرّة لأخذكِ ورأيتُ ما قد فعل مغوان بكِ. ودُوك أيضًا، قتلتُه مئة مرّة بمئة طريقة، كلٌّ منها أسوأ من سابقتها.

فانفرجت أساريرُها إذ فهمت مقصده. "إنَّ التفكير في القيام بأمرٍ خاطئ لا يعني القيام به".

"أهذا صحيح؟ أين الفرق الحقيقيّ؟ إنَّ الرغبة عينها ما تزال قائمةً، تغتذي من ذاتها ومنّي". وجذب ضفيرتها برقّة. "ألا ترين؟ لا أحد منّا نحن الاثنين يستحقُّ هذا. ليس للأمر دخلٌ في ما نفعله أو لا نفعله. فكلُّ بركة تنزل من عند الآب، ليس جزاءَ خيرٍ فعلناه، بل عطيّةً مجّانيّة".

لاحظ مايكل أنَّ عينيها طرفتا حالما ذكر الله أوّل مرّة. وأحسَّ مقاومتها المتعاظمة. الله... يا لها من كلمة ثقيلة! الله، ذلك الكائن الذي لم يكن له في حياتها معنىً سوى المعاقبة على الخطايا المرتكبَة، ومنها ما لم يكن لها هي دخلٌ فيه. لقدِ اعتقدت أنَّ الله كان الغضب، وأنّه سيعاقبها دائمًا على عيشها حياةً أُرغِمت عليها من جرّاء تصرُّفِ سكّيرٍ قذر كبير السنّ لم يكن يدري ما يفعله. فإنَّ الله كان عديم الرحمة ويتمتَّع بإنزال الألم.

تُرى، كيف يمكنه أن يجعلها تفهم أنَّ الله الآب هو سبيل الخلاص الوحيد من العيش في الجحيم فيما الأبُ الوحيد الذي عرفَته أراد لها أن تُسلَخ من رَحِم أُمِّها وتُطرح بعيدًا؟

قالت: "أرِني أباكَ هذا، يا مايكل"، غيرَ قادرةٍ أن تحافظ على استواء صوتها.

فقال مايكل بهدوء: "إنَّني أفعل ذلك".

"أين؟ إنَّني لا أراه. لو وقف أمامي، لربَّما صدَّقتُ أنَّه موجود". وقد كان في وسعها أن تُعبِّر له عن سخطها عليه من أجل كلِّ ما جرى لها ولأُمِّها.

"إنَّه فيَّ. وأنا أُريكِ إيَّاه كلَّ ساعة من كلِّ يوم، بالطريقة الوحيدة التي أُحسِنها". ومن الواضح أنَّه لم يكن يقوم بهذا العمل على الوجه الأكمل.

تبيَّن لها أنَّها آذته، فلانت. وهو يحبُّها كثيرًا، كما أنَّه مُخلِص. كذلك أحبَّته هي أيضًا، رُغم كونها قد قاومت ذلك بضراوة. فإنَّه قد جعلها تحبُّه بكونه مايكل فحسب. ولكنْ لم يكن لذلك أيَّ دخلٍ بالله. أم كان له؟

قالت وهي تمسُّ وجهه المحبوب: "الحبُّ لا يكفي. وإلَّا كنتُ كافيةً لأُمِّي، غير أنَّني لم أكفِها. ولن أكفيَكَ أنت أيضًا".

"لا، لن تكفيني. وأنا لن أكفيَكِ، يا أماندا. لا أُريد أن أكون مركز حياتك. أُريد أن أكون جزءًا منها. أُريد أن أكون زوجكِ، لا إلهَكِ. لن يكون البشر متوافرين دائمًا لخيركِ، مهما رغبوا في ذلك. وهذا الأمر يشملني أنا أيضًا".

قالت ساخرةً: "وهلِ الله متوافر لي؟ لم يكن الله قطُّ موجودًا ليساعدني". ثمَّ أفلتت من عناقه ووقفت، آويةً إلى السرير. وراقبها تحلُّ شعرها. فنظرت إليه وهدأت تمامًا، ثمَّ قالت برقَّة: "يسرُّني أن تروقك النساءُ الشُّقر".

لن تصدَّه بهذه السهولة... وقف وأقرّ: "ربَّما كانت ملامحكِ ذات علاقة واهية بالسبب الذي دفعني أوَّل الأمر إلى ملاحظتك". ثمَّ ألقى البطَّانيَّة على ظهر الكرسيّ.

قالت بلا مواربة: "علاقة واهية فقط؟" فحتَّى التقائها مايكل، كانت تنظر إلى نفسها دائمًا باعتبارها أداة إشباع لشهوة الرجل.

فكرَّر حازمًا: "واهية!" ولمَّا رفعت عينيها، رمقها بنظرةٍ رزينة نمَّت عن مزاجه. "في الواقع، أعتقد أنَّ الفضل يعود إلى طبعكِ السويّ، إلى استعدادكِ للتكيُّف حسب نمط حياتي، إلى رغبتكِ الثابتة في إرضائي..." وبينما هو يتكلَّم، عبر الغرفة وجلس على السرير بقربها فيما هي تضحك.

سقطت دفاعاتها حيال ابتسامته الطاغية. وقالت: "إذًا، ما أنت إلَّا فتىً آخر ينهض لمواجهة التحدّي". إلَّا أنَّ بسمتها تلاشت فيما الكلمات تخرج من شفتيها. لماذا ينبغي أن يَسِمها كلُّ ما تقوله بماضيها؟ أشاحت نظرها مجدَّدًا وبقيت تحلُّ ضفائر شعرها. واستقرَّت يده مستريحةً على فخذها. حتَّى تلك اللمسةُ الخفيفة جعلت أحشاءها تذوب. "بِمَ تشعر الآن، يا مايكل، وقد غدوتُ طينًا ليِّنًا بين يديك؟"

قال: "بالفرح، الفرحِ الخالص". ورأى كيف تسارع النبْض في حنجرتها فطبع عليها قبلة. وسمع شهيقها الخافت، وشعر بالدفء التجاوبيِّ ينتشر بسرعة في أوصاله. لقد رغب فيها. ولسوف يرغب فيها دائمًا. وحمدًا لله على أنَّها هي أيضًا رغبت فيه. إنَّه شعر بذلك كلَّما لمسها.

همس في أُذنها: "حبيبتي"، شاعرًا برقَّةٍ طاغية حيال نظرة اللَّايقين في عينيها الزرقاوين. وأضاف: "لو عرف شخصٌ ما كيف أو لماذا يُغرَم الأحبّاء بعضُهم ببعض، لعلَّب الناسُ ذلك وباعوه لإحدى عربات الدواء الجوَّالة. لم يكن لمنظرك دخلٌ في الأمر. ولا دخل لكونكِ طيِّبة الرائحة والطعم عندي الآن. أنتِ تعرفين أنْ لا دخل لذلك كلِّه". ثمَّ قبَّلها.

قالت متنهِّدةً: "ذلكَ جزءٌ من الأمر".

"الله عليم بأنَّ هذا صحيح، ولكنَّه شيءٌ يتعدَّى ذلك كلَّه. شيءٌ غير مرئيّ. لقد ناديتِنِي اليومَ وأنت تتمشَّين، ولم أكن أستطيع أن أفعل أيَّ شيء سوى الإجابة".

"قلتَ هذا من قبل".

"وأنتِ ما زلت غير مصدِّقة لي".

"آه، يا مايكل. لقد عملت بي الحياة أعمالًا رهيبة. وأنا مليئةٌ بالـ..." وتمهَّلت مبتلعةً ريقها بصعوبة ومُلصِقةً شفتيها إحداهما بالأُخرى، متجاوزةً إيّاه بنظرها، غيرَ قادرةٍ على النظر إلى عينيه.

"بماذا؟" وردَّ برفقٍ خُصَل الشعر الناعمة عن صدغيها.

قالت بعد جهد: "بالعار". وشعرت بحرقة في عينيها، وجاهدت لإخماد عواطفها من جديد. لم يكن يمكنها أن تستسلم للدموع، ولو لدمعةٍ واحدة، إلَّا أنَّها أرادت له أن يعرف حقيقة شعورها. "لا أدري في ما أخطأتُ. لم أدرِ قطّ، ولكنِّي فهمتُ من أبكر وقتٍ أتذكَّره أنَّني لن أكون صالحةً كفايةً حتَّى أستحقَّ حياةً كريمة". ثمَّ إنَّ حضورها بالذات جرَّد الآخرين من كرامتهم. فهل يجرِّد مايكل أيضًا من كرامته في

نهاية المطاف؟ لم يسَعها أن تتحمَّل فكرة حدوث ذلك له.

"إذًا، كيف تفسِّرين هذا؟"

مدَّت يدها ومسَّت وجهه. "لا أفعل ذلك، ولا يمكنني فعله. إنَّما أعرف فقط أنَّه لن يدوم أبدًا".

اغرورقت عينا مايكل. لقد فطرت قلبه، كما فعلت دائمًا.

"لم أتحوَّل قطُّ مبتعدًا عنكِ. ولن أفعل ذلك أبدًا. فلطالما كان العكس هو ما يجري".

"أعرف. ولكنْ لو أعطيتُكَ كلَّ ما عندي، ما كان يكفي. ليس عندي ما يكفي رجلًا مثلك".

تناول يدها وضغط بها على قلبه بشدَّة. "إذًا خُذي منّي ما تفتقرين إليه. دعي ما عندي يُحدِث الفرق".

غمر قلبَها شعورٌ طيِّبٌ جدًّا إلى حدِّ آلمها. فهمست بصوتٍ مرتعش: "كم أنت جميل!" كيف يُعقَل أنَّها هي، من بين جميع النساء، تَلقى حبًّا عظيمًا بهذا المقدار من رجلٍ نظير هذا؟ يا الله، إن كنتَ هناك مصغيًا، فلماذا تفعل هذا به؟

لأجلك يا محبوبة.

سرت في بدنها قُشَعريرة، وشعرت بأنَّ شعر رأسها قد انتصبَ.

ليس لأجلي. ليس لأجلي أبدًا. أغلقت ذهنها بإحكام أمام الصوت الهادئ الرائق.

وإذ لاحظ مايكل امتقاعها المفاجئ، سألها: "ماذا دهاكِ؟"

لقد كان وسيمًا جدًّا، ولكنَّها انجذبت إليه لشيءٍ غير ذلك. ربَّما كان ذلك مثل ما قال، أمرًا غير مرئيّ. فقد كان في داخله شيءٌ جذبها إليه كما الفراشة إلى اللهب، غير أنَّه كان لهبًا لا يسفع ولا يُهلِك. وقد أضرم في قرارة نفسها شيئًا ما حتَّى شعرت بأنَّها أخذت تصير جزءًا منه. لقد أضفى على حياتها معنى. فلم تعُد المسألةُ صراعَ بقاء، بل غدت شيئًا آخر لم تستطع حتَّى تعريفَه أو فهمه بعد، إلَّا أنَّه ظلَّ يُغريها.

وماذا عن پول، يا آنجل؟

ارتسمت على جبينها عبسةٌ متجهِّمة. فتمدَّد مايكل بقربها، وأمال ذقنها نحوه قائلًا: "صارحيني".

أدهشها كيف يتنبَّه إلى كلِّ فكرة تراودها. ولكن هل يمكنها أن تصارحه بهذه دون أن تدقَّ الإسفين أعمق بينه وبين صديقه؟ لم يكن پول مخطئًا بشأنها. فقد رآها كما ينبغي أن يراها باقي العالم: امرأة باعت جسدها لأجل المال دون سواه.

هزَّت رأسها. وقبّلها مايكل كما لو أنَّه أراد أن يُعطيَها رجاءه. فقالت بحزنٍ إذ رفع رأسه ليتفحَّص عينيها: "أتمنّى لو كان في وسعي تغيير الأمور. ليتني وافيتُكَ طاهرةً وكاملة".

وسألها بابتسامةٍ رقيقة: "حتَّى أُحبَّكِ أكثر ممَّا أُحبُّكِ الآن؟"

حتى أكون جديرةً بك. وجذبت رأسه نحوها وقبّلته. "يمكنني أن أُوتيكَ السرور".

"أنا مسرورٌ بكِ كما أنتِ".

لقد أرادت أكثر من كلِّ شيء آخر أن تسرَّه في كل شيء.

وجاء صوت دُوك بلا طلب. **تذكَّري كلَّ ما علَّمتُكِ إيّاه، يا آنجل. استخدمي ذلك واستخدمي هذا الرجل.**

ولمَّا ابتسم مايكل، فقدَ الصوت الأسود صَوْلته. فقال مايكل: "لا حواجز. ليس بيننا أيُّ فاصل".

وهكذا تخلَّت آنجل عن نفسها. فلم يكن في ذهنها أيُّ فكرة في أيِّ شيء سوى مايكل. ولطالما سبق أنِ اعتبرت جسد الرجل قبيحًا. إنَّما مايكل كان جميلًا، وهي شُغِفت به.

ولقد ابتهج بها مايكل. "أنتِ مثل الأرض... مثل جبال سييرا، والوادي الخصيب، ومثل البحر". ثمَّ جذبها وأقامها حتَّى قعدا مُتربِّعين على السرير أحدُهما مقابل الآخر. ولم تدرِ ما كان في فكره حتَّى أمسك بيديها وحنى رأسها. إذ صلّى بصوتٍ عالٍ، شاكرًا الله على البهجة التي وجدها كلٌّ منهما في الآخر.

دقَّ قلب آنجل دقًّا عنيفًا. ماذا سيُفكِّر إلهه في هذا؟ ولمَّا أنهى مايكل صلاته، ابتسم لها، فسكَّن بريق عينيه خوفها.

وقال متفهِّمًا: "ليس من ضربة حظٍّ، يا حبيبتي. كلُّ شيءٍ صالح ينزل من عند الآب. حتَّى هذا". ثمَّ استلقى وجذبها إليه، ضامًّا إيّاها بشدَّة، حتَّى ناما كلاهما.

الفصل
الرابع والعشرون

فإنّي أقول لكم: إنّكم إن لم يزد
برّكم على الكتبة والفرّيسيّين، لن تدخلوا
ملكوت السماوات.

(المسيح، إنجيل متّى ٥: ٢٠)

جلس پول قبالة موقده مستغرقًا في التفكير، في حضنه إبريق وبيده صورة زفافه. لقد رحلت تَسّي منذ سنتين، وهو يريد أن يُبقي ذكراها حيّة. لم يُرِد أن ينسى هيئتها. ولكنْ مؤخّرًا، قبل أن يحمل الصورة، كان كلُّ ما أمكنه تذكُّره أنّها كانت سمراء ولها ابتسامة مايكل. وحاول أن يتذكّر ملمس بشرتها ووقْع صوتها، إلّا أنّ كلّ شيء كان آخذًا في التلاشي، كلّ شيء ما عدا الذكرى الطيّبة لِما تشاركا فيه مدّة قصيرة جدًّا. فإنّ الوحدة المُوجِعة الخاوية التي خلّفتها إذ رحلت كانت كلّ ما بقي ثابتًا.

ألقى پول الصورة جانبًا، وتجرّع من الوسكي جرعاتٍ طويلة. ثمّ أمال رأسه إلى الوراء، وأغمض عينيه بوهن. لم يكن قد رأى مايكل منذ جاء يطلب إليه أن يساعده في العثور على آنجل. ولم يستطع أن ينسى ذلك اليوم، ولا نَدَمه هو.

"هل هربَت مرّةً جديدة؟"

"نعم. ينبغي أن أعثر عليها".

"دعكَ منها. إنّك لا بدّ أن تكون أسعد حالًا بمعزلٍ عن امرأةٍ كهذه".

تأجّجت عينا مايكل. "متى ستفتح عينيك؟"

فردّ پول حالًا: "متى ستفتح أنت عينيك؟ لو كانت تحبّك، أفلا تعتقد أنّها كانت ستبقى؟ لن تتمكّن من طردها. مايكل؟ متى تدرك حقيقة حالها؟" ولمّا عطف مايكل حصانه ليمضي، انفجر غاضبًا عليه. "فتّش عنها في ماخورٍ ما. أليس في مثل ذلك المكان وجدتَها أوّل مرّة؟" ثمّ عاد يقلب التربة بمجرفته شاتمًا. ومنذئذٍ لم يتمكّن أن يتخلّص من الشعور بالفراغ في قلبه، ولا حتّى عند رجوع مايكل.

كان واضحًا أنّ مايكل لم يعثر على أيّ أثر لآنجل. أنذاك أشفق پول عليه. لم

يتأسَّف لأنَّ مايكل لم يجد آنجل، بل تأسَّف لأنَّ مايكل كان مفطور القلب لفقدانها. فهي لم تكن تستحقُّ أن يحزن المرءُ بسببها.

"إنَّها تحبُّني فعلًا، يا پول. فعلًا تحبُّني. إنَّما أنت لا تفهمها".

صرف پول ذهنه عن الموضوع، إذ لم يرد أن يعرف عن آنجل أكثر ممَّا عرف. فإنَّ يومًا واحدًا في رفقتها كان كافيًا لتسميم نفسه عمرًا بطوله.

بقي مايكل عنده، وتحدَّثا عن المحاصيل والأراضي. ولكنْ لم تكن حالهما آنذاك كما كانت قبل دخول آنجل حياتهما. ولم يهمَّ رحيلُها أو عدمه، إذ كانت ما تزال تفصل بينهما. وقبلما غادره مايكل، قال له: "أنت تُحرِز تقدُّمًا ملموسًا، يا پول. إنَّ ذلك الحقل يبدو جيِّدًا".

"من شأن الشغل أن يكون أسرع بوجود حصان. من سوء حظِّي الشديد أنَّني فقدتُ حصاني في أثناء السَّفر".

"خُذ هذا الحصان". ونزع السَّرج فيما وقف پول مشدوهًا. "حالما تجمع محاصيلك، يكون لديك ما يكفي لشراء حصان آخر".

استحى پول، ولم يستطع أن يتكلَّم إذ اعترضت غصَّةٌ في حلقه. ثمَّ وضع مايكل السَّرج على كتفه، وتوجَّه إلى بيته بعدما قال: "من شأنك أن تفعل لي الأمرَ عينه لو كنتُ مكانك، أليس كذلك يا پول؟"

بعد بضعة أيَّام، أخذ پول شقَّة من لحم غزالٍ اصطاده إلى آل ألْطمان، حيث علم أنَّ مايكل انطلق إلى سكرامنتو لإرجاع آنجل إلى البيت. فقد بعث جوزف بخبرٍ يفيد أنَّها كانت تشتغل في مخزن تجارة عامَّة. قصَّة معروفة. إنَّه يراهن على أنَّها كانت تبيع نفسها للمُعدِّنين الذين يقضون الشتاء هناك. ستَّة أونصات من الذهب لقاء خمس عشرة دقيقة. وربَّما أكثر من ذلك، للتعويض عن الوقت الذي أضاعته برفقة مايكل.

قالت ميريام مُراقِبةً إيَّاه عن كثب: "إنَّك لا تبدو مسرورًا جدًّا بهذا الخبر".

فقال وهو يتوجَّه نحو حصانه: "أنا متيقِّن بأنَّ مايكل مسرور". ثمَّ تمتم هامسًا: "إنَّه مُغفَّل".

ولحقت به ميريام. "إنَّه يحبُّها حبًّا جمًّا".

"أذلك هو ما تدعينه؟"

"وماذا تدعوه أنت؟"

فرمق ميريام شزرًا وهو يُدلِّي الزمام على رأس الحصان، ولكنَّه لم يجاوب.

وسألته ميريام: "لماذا لا تحبُّ أماندا؟"

كاد پول يبوح بأنَّ اسمها ليس أماندا، بل آنجل (ملاك)، وقد كانت أيَّ شيء ما عدا هذا، غير أنَّه أمسك لسانه. إنَّما قال: "لديَّ أسبابي". وإذِ امتطى الحصان، طقطق السَّرج.

وقالت ميريام بصوتٍ منخفض: "كنتَ واقعًا في غرامها، أليس كذلك؟"

فضحك پول ضحكةً خشنة وشدَّ قبضته على الزمام، قائلًا: "هل قالت هي لكِ هذا؟"

"لا، حزرتُ حزرًا".

"طيِّب! لقد حزرتِ خطأً، يا ميريام الصغيرة". وعطف حصانه قبل أن تتمكَّن من طرح مزيدٍ من الأسئلة.

ثمَّ خطَت خطوة، ونادت من ورائه: "لا تدعُني ميريام الصغيرة! عمري ستَّ عشرة سنة".

لم يكن بحاجة إلى هذا التذكير. ومسَّ قبَّعته محيِّيًا تحيَّةً ساخرة. ثمَّ تشدَّق: "نهاركِ سعيد، يا سيِّدتي!" وانطلق بحصانه مبتعدًا.

صباح اليوم التالي، جاءت ميريام تدعوه إلى العشاء. قالت: "شرائح لحم الغزال، وستصنع ماما فطيرة تُفّاح". وقد كانت لابسةً فستانًا أصفر جميلًا جعله يلاحظ انحناءات جسمها الغضِّ الصغير. ولاحظت محطَّ حملقته، فتورَّد خدّاها. وبدا في عينيها ألَقٌ مخمليّ، إذ قالت: "إذًا؟"

فقال مضطربًا: "إذًا ماذا؟"

والتوى فمها. "أأَنت آتٍ هذا العصر؟"

كانت بسمتها مغرية. فأحجم مذعورًا. ثمَّ قال: "لا"، مُومِئًا برأسه نحو الجزء غير المحروث من الحقل. وأضاف: "سأشتغل حتَّى حلول الظلام". وصاح بالحصان ثمَّ أرخى ثقله على المحراث وراح يشق تلمًا، آملًا أن تفهم الإشارة وترحل. ولو علم أنَّها آتية، لارتدى قميصًا. فقد كان عاريَ الجذع حتَّى الخصر، رابطًا حول جبهته لفاع رقبة مُغبَّرًا لإبعاد العَرَق عن عينيه. ومن ثَمَّ كان منظرًا رائعًا لشابَّةٍ بريئة.

لم يستطع پول أن يطرد من ذهنه أنَّه لو جاءت ميريام ألْطمان قبل بضعة أشهر لَمَا كان مايكل يخوض المعاناة التي هو فيها. فقد كانت ميريام مناسِبة له تمامًا. وإذا هربت تلك العاهرة ثانيةً، الأمرُ الذي لا بدَّ أن تفعله، فربّما يدرك مايكل ذلك أيضًا. فمن شأن هذه الفتاة أن تصل إلى سريره الزوجيِّ عذراء وتبقى وفيَّةً له حتَّى الموت. إذ لم تكن

من نوع النساء الذي يُسبِّب للرجل حزنًا ووجعًا. ومن شأنها أن تهبه الأولاد الذين يريدهم وتجعله سعيدًا.

مشت ميريام إلى جانبه قائلةً: "عليك أن تقبل ضيافتنا مرَّةً".

فلم ينظر إليها. إذ كلَّما أقلَّ من النظر إليها كان أفضل.

"بابا وماما يودّان أن يشكراك".

"لقد بلَّغاني شكرهما أمس. قولي لهما: على الرحب والسَّعة".

"ألا تحبُّ الأولاد؟"

أجاب ساهمًا: "الأولاد؟ بلى، أُحبُّهم بما فيه الكفاية. فما دخل هذا بأيِّ موضوع؟"

"حسبتُ أنَّك لم تشأ أن تتعشَّى عندنا لأنَّنا، نحن الأولاد، كثيرون".

كانت تمشي شابكة يديها خلفها بتراخٍ. فاجتاحت حملقتُه جسدها، وجفَّ ريقه.

"كيف كانت زوجتك، يا پول؟"

أخذه سؤالُها على حين غِرَّة. "رائعة. كانت رائعة جدًّا!"

"أكانت طويلة القامة؟"

"بطولكِ تقريبًا". إنَّ تَسِّي كانت أقصر منها، وكان شعرها كستنائيًّا وخفيفًا، لا أسود غزيرًا. وعيناها... لم يستطع أن يتذكَّر لون عينيها حين نظر في عيني ميريام البُنِّيَّتين الواسعتين الحنونَين.

"أكانت جميلة؟"

نظر إلى ميريام فتسارعت دقَّات قلبه.

فقالت: "زوجتك، هل كانت جميلة؟"

وحاول أن يتذكَّر وجه تسِّي فلم يستطع، ولا سيَّما فيما ميريام تحدِّق إليه بتلك الطريقة. فإنَّ إعجابها الخَجِل بجسمه بثَّ فيه ذعرًا مُتناميًا. وإذا به يجذب الحصان ليتوقَّف، ثمَّ يقول: "كانت جميلةً جدًّا. أعتقد أنَّه خيرٌ لكِ أن تمضي إلى بيتكِ. يقيني أنَّ أمَّكِ تتساءل عن سبب تأخُّرك".

احمرَّ وجه ميريام وقالت متلعثمةً: "أنا آسفة. لم أُرِد أن أُعيقك. عسى أن توافينا للعشاء مرَّةً أُخرى!" وإذ دارت لتنطلقَ مبتعدةً، لمح دموعها السريعة. وكاد يمدُّ يده ليمسك بها، إلَّا أنَّه كفَّ عن ذلك في اللحظة المناسِبة. فضمَّ قبضته وراقبها تنصرف، وفي قعر معدته وجع مفاجئ. لم يقصد أن يقسوَ عليها، ولكنْ لو اعتذر لربَّما بقيت، وقد كانت بجملتها أكثر إغراءً من أن يحتمل منها ذلك.

ولم يتوقَّع پول منها قطُّ أن تعود.

ولكنْ بينما كان يغتسل عند البئر رآها مُقبِلةً وسط حقلٍ مُعشوشِب. فقفز قلبه. وقد كانت معها أُختُها الصغرى لِيَه هذه المرَّة. فتستَّر بقميصه وزرَّره حالًا، منتظرًا وصولهما إليه لتُخبِراه بما تريدان.

قالت ميريام بلهجة المُعتذِر: "لقد أرسلتني ماما". ولم تكد عيناها تلتقيان عينيه. ثمَّ ناولته السلَّة التي كانت تحملها.

فتناول السلَّة منها شاكرًا باقتضاب. ولامست يدُه يدها قليلًا، فاتَّسعت عيناها. وقال: "ما كان ينبغي أن تُتعِب نفسها".

فقالت لِيَه: "أُوه، كانت الفكرة فكرة ميريام!" ممّا زاد أُختها الكبرى إحراجًا وارتباكًا.

قالت ميريام متورِّدةَ الخدَّين: "سكوتًا، يا لِيَه!" ثمَّ أمسكت بيد أُختها قائلةً: "يحسن بنا أن نذهب. غداءً مُمتِعًا، يا پول".

راقب پول انحناءة شفتيها اللطيفة. ليس من حقِّي أن أشعر مثل هذا الشعور تجاه فتاةٍ كهذه. "قولي لماما إنَّني سآتي وأردُّ السلَّة بنفسي".

فردَّت ميريام بصوتٍ عالٍ: "لا داعيَ للعجلة. سآتي غدًا وآخذها".

كان ذلك تمامًا ما لم يُرِد منها أن تفعله. سيمتطي الحصان عند شقِّ الفجر ويترك السلَّة أمام بابهم. وحطَّ السلَّة أرضًا، ثمَّ جلب دلوًا آخر من الماء البارد، فنضح وجهه وابترد. لقد كانت حاله سيِّئة، لأنَّ مجرَّد النظر إلى فتاةٍ جميلة في السادسة عشرة من العمر جعله يشعر هذا الشعور. ينبغي له أن يمتطيَ الحصان ويتوجَّه إلى أقرب مخيَّم ويُعرِّج على الماخور المحلِّيّ. أمرضته هذه الفكرة وجعلته يشعر بالغثيان.

ثمَّ أدخل سلَّة ميريام إلى الكوخ. وكان الموقد باردًا. فأشعل نارًا وقعد يأكل. ها قد عاوده ذلك الشعور بالفراغ الذي استبدَّ به عندما تُوفِّيت تَسّي. لقد كانت تلك الأشهر الأولى بعد غيابها مُوحِشةً، ولكنَّه شغل فكره بالكفاح للبقاء على قيد الحياة في جبال سييرا. ولمّا وصل مع مايكل إلى هذه الأرض، صرف كلَّ جهده في بناء الكوخ. بعدئذٍ انتابه الحزن شديدًا. وقد ثقل عليه جدًّا وجع الخسارة المُضني. ولم يكن يستطيع أن يُسرِّح نظره في مروج الزهر البرِّيّ بغير أن يُفكِّر كم كان من شأن تسّي أن يروقها ذلك المنظر. فإنَّ أرضهما الخاصَّة في كاليفورنيا طالما كانت حلمًا مشتركًا بينهما. وقد باتت خاوية وتافهةً في غياب تَسّي.

عندما اشتدَّ الاندفاع في طلب الذهب، كان مستعدًّا للرحيل. في بادئ الأمر،

استغرقته بهجةُ العمل في الجداول، وخلبته فرصة الاغتناء التي لاحت له. غير أنَّ البهجة لم تلبث أن فترت. فقد باتت الحياة مجرَّد عمل شاق من الفجر حتَّى الغَسَق. وكان كل ما يكسبه يكفي لشراء الطعام وقضاء يومٍ في المدينة، حيث يسكر ويغشى ماخورًا. حتَّى وهو يقتنص متعته، لم يقوَ أن يصرف فكره عن تفاهة حياته، وعن الخزي المرتبط بها. لقد عرف أنَّ ما اشتراه كان مزيَّفًا. عرف ذلك لأنَّ الشيءَ الأصليَّ كان له برفقة تَسّي.

وعاودته كلماتُ آنجل تتهادى بقسوةٍ وبرودة. "أنا أعرف مَن أنا، يا سيِّد، ولكنَّك أنت تدعو نفسك أخاه!"

عندما تخلَّى عن التنقيب عن الذهب وعاد إلى أرضه هنا، خُيِّل إليه أنَّه بلغ الحضيض. لكنَّه كان مخطئًا. فقد أخذ الآن على نفسه أن يعوِّض عمَّا أساء به إلى مايكل. سيدع ميريام وشأنها، حتَّى إذا آن الأوان وتركت آنجل مايكل من جديد، تكون بانتظاره فتاةٌ شريفة.

وحاول أن ينام فلم يستطع. إذ لم يقدر أن يطرد ميريام من فِكره. فإذا أغمض عينيه، رأى عينيها السوداوين الباسمتين. ومن ثَمَّ نهض مستسلمًا ودبَّ في النار حطبة أُخرى، وأنزل صورة زواجه من على الرفِّ فوق الموقد، وراح يحدِّق في وجه تَسّي من جديد. ولئن كانت تلك الصورة ما تزال عزيزةً عنده، فإنَّها لم تُثِر لديه مشاعر عميقة... ليس كما كانت تُثير قبل سنة.

قبل سنةٍ مضت، لم يكن يحسب قطُّ أنَّ حزنه ووجعه سيفارقانه. إلَّا أنَّه، قبل سنةٍ مضت، حسب أنَّه لن يقع في الغرام مُجدَّدًا.

نادت ميريام وهي تهبط التلَّ مسرعةً: "أماندا! هيَّا بسرعة! روثي في ورطة!"

فركضت آنجل نحوها. "ماذا جرى؟"

"لقد تسلَّقت شجرة، ولا يمكنني أن أُنزلها. ساعديني!"

رفعت آنجل أذيال تنُّورتها وصعدت التلَّ راكضةً وراء ميريام. ولمَّا وصلتا السنديانة القديمة الكثيرة العُقَد، كان نَفَسها قد انقطع. فرفعت نظرها مذعورةً نحو الطفلة الجاثمة على علوٍّ يزيد عن ستَّة أمتار فوق غصن كثيف. "آه! كيف وصلتِ إلى فوقُ، يا فأرةً صغيرة؟"

فلوَّحت لها روثي بيدها. وصرخت آنجل مُحذِّرةً: "روثي! تمسَّكي جيِّدًا! لا

تتحرَّكي أبدًا! سوف نُنزلكِ".

وقالت ميريام: "حاولتُ أن أتسلَّق، فلم أستطع. هلَّا تجرِّبين أنتِ!"

" أنا؟ لم أتسلَّق شجرةً قطُّ في حياتي!"

ونادت روثي: "ماندي، هل تُساعدينني كي أنزل؟"

فدفعتها ميريام قائلةً: "أفضلُ أن تُسرعي. لا وقتَ نُضيِّعه". ثمَّ انحنت وقعَّرت راحتَيها. اعترضت تنُّورة آنجل في الطريق. "تمهَّلي عليَّ دقيقةً واحدة. لا يمكنني القيام بذلك هكذا". ثمَّ انحنت وأمسكت الحاشية الخلفيَّة، وجذبتها بين ساقيها، ودسَّتها تحت حزامها. وتسلَّقت أوَّل غصن بمساعدة ميريام. "لا تخافي، يا روثي! إنَّما لا تتحرَّكي".

رجَّحت روثي قدميها جيئةً وذهوبًا، قائلةً: "لن أتحرَّك"، وقد بدا أنَّها تُمضي وقتًا طيِّبًا.

وبينما آنجل تتسلَّق مسرعةً، قالت همسًا: "ماذا أنا فاعلة؟" وخُيِّل إليها أنَّها سمعت ضحكًا.

فنادتها ميريام من تحت: "لا تنظري إلى الأسفل! إنَّك تُحسِنين صنعًا".

وفيما آنجل تشقُّ طريقها صعودًا بين الأغصان، لم تدرِ أكانت ميريام تخاطبها هي أم تخاطب روثي. وإذ اقتربت نحو مترين، تبيَّن لها أنَّ روثي كانت مربوطةً بحبلٍ حول خصرها يُثبِّتها على جذع الغصُن بأمان. ولم يكن ممكنًا أن تسقط لو أرادت ذلك. والأسوأ من ذلك أنَّ العفريتة الصغيرة كانت تبتسم ابتسامةً عريضة جدًّا. "أليس في هذا مَرَحٌ عظيم، يا ماندي؟"

ثمَّ قالت ميريام، من تحت آنجل تمامًا: "هل رأيتِ كوخكِ قبلًا من نقطة مُشرِفة كهذه؟"

التهب وجه آنجل غيظًا. "لقد خوَّفتِني حتَّى كدتُ أموت! ماذا تحسبين أنَّكِ فاعلة؟"

وجاوزتها ميريام في تسلُّقها ثمَّ قعدت مُفرشِخةً على غصن كبير. "أنت بنفسك قلتِ إنَّك لم تتسلَّقي قطُّ شجرة في حياتك. ثمَّ ابتسمت مُناكِدةً وقالت: "حان وقتُ قيامك بذلك".

"أأَنتِ دفعتِها إلى فوق؟ كان يمكن أن تتأذَّى".

"نحنُ ساعدناها". هكذا قال جاكوب وهو ينحدر من على غصُنٍ أعلى. وكان أندرو فوقه تمامًا، فيما وصوصت لِيَه من خلف الجذع. وقد بدَوا جميعًا مسرورين، بحيث نسيت آنجل غضبها وضحكت. شجرة ملآنة بالعقاعِق[٢٠] المُثرثِرة! ثمَّ اندفعت

٢٠) مُفرَدها عقعق، وهو طيرٌ من جنس الغراب.

إلى فوق، وقعدت مُفرشِخةً على غصن غليظ.

وقال أندرو، ماشيًا على غصن مديد: "أبليتِ حسنًا في أوّلِ مرّة تتسلّقين فيها".

فعبست له آنجل ساخرةً: "كان ينبغي أن تكون منصرفًا إلى الشُّغل مع أبيك".

"أعطاني فرصةً اليوم. أراد أن يصطحب ماما في نزهة".

وضحكت ميريام. "قلتُ لهما إنّنا نحن نذهب في نزهة". ثمّ خفضت صوتها بحيث تسمعها آنجل وحدها. "من مساوئ وجود كوخ بحُجرة واحدة الافتقارُ إلى الخصوصيّة". وأسندت رأسها إلى الجذع، مضيفةً: "عندما أتزوّج، سنبني أنا وزوجي علّيّة للأولاد، وسيكون لنا غرفةُ نوم دافئة مريحة بلزق المطبخ".

وأشارت روثي بيدها قائلة: "ذلك مايكل!" فصاح الأولاد وصفّروا حتّى التفت ونظر إلى أعلى التلّ. ثمّ أقبل نحوهم بخطىً عريضة. ولمّا وصل إلى الشجرة، رفع نظره إلى فوق وقبضتاه مُسنَدتان على وَرِكَيه. "ما هذا؟" وإذ رأى آنجل في الأعلى ضحك وقال: "وأنتِ أيضًا؟"

أجابت بكلّ وقار: "لقدِ احتالوا عليّ!"

فغمزتها ميريام ونادته: "عليك أن تصعد وتُنزِلها. إنّها عالقةٌ هنا!"

ضحكت آنجل لمّا رأت مايكل ينزع حذاءه ويبدأ بالتسلّق. وما إن وصل تحتها تمامًا حتّى مرّر يده على بطّة ساقها صعودًا وسألها: "هل أربط حبل روثي حولكِ وأُدلّيكِ؟" عالمًا كلّ العلم أنّها تقدر على النزول وحدها.

وهبطت لِيَه حتّى صارت بلزقه، وقالت: "هذه الشجرة صالحة تمامًا لنصب أُرجوحة. هل ترى ذلك الغصن الكبير الثخين؟ يمكنك ربط الحبل حوله تمامًا".

قال مايكل: "هَمْم! فكرة جيّدة". ثمّ أنزل روثي وبعث أندرو لإحضار حبلٍ من غرفة العُدّة في الحظيرة. وتسلّق ثانيةً، ثمّ ربط طرفي الحبل حول غُصنٍ غليظ ودلّى الأُنشوطة لتكون أُرجوحة. وقال وهو ينزل: "سأُثبّت فيها مقعدًا في ما بعد".

تشاجر الأولاد بحماسة حول من يكون له الدّور الأوّل، ولكنّ مايكل حمل آنجل وأقعدها على الحبل، قائلًا: "تمسّكي جيّدًا"، قبل أن تتمكّن من إيقافه، ثمّ دفعها فطارت. وقد أضحكتها السرعةُ المُبهِجة. ودفعها مايكل ثانيةً ثمّ عاد إلى الحقل وإلى عمله.

ولمّا نال الجميع، بمن فيهم ميريام، كلٌّ واحد دورًا على الأرجوحة، اصطحبت آنجل الأولاد وهبطت بهم التلّ إلى الكوخ، حيث أعدّت لهم طعامًا فأكلوا. وخرج الصبيّان لمراقبة مايكل، فيما مضت لِيَه وروثي تجمعان الزهور من على التلّ.

استندت ميريام إلى عضادة الباب وألقت نظرها على أخوَيها الجاثمين على سياج الزريبة يراقبان مايكل وهو يسوس الحصان. "يعرف مايكل كيف يستمتع بالحياة. فهو لا يجلس مستغرقًا في التفكير طوال الوقت".

وأقبلت آنجل فوقفت قربها، فأزعجتها طريقة مراقبة ميريام لمايكل، وتمعّج في أحشائها شعورٌ قَلِق.

تبسّمت ميريام. "كنت أُفكّر كم هو رائع أن تحبّي أحدًا ويُحبّكِ في المقابل. يقيني أنّه عندما يريدكِ مايكل يفعل شيئًا ما في سبيل ذلك". ثمّ تورّد خدّاها واستقامت عنِ العضادة، وأضافت: "لا بدّ أن يُغمى على ماما حالًا إذا سمعتني أتكلّم هكذا".

نظرت آنجل إلى مايكل خارجًا، فتلاشى ألَم الغَيرة المفاجئ، وأفعمها حنانٌ رقيق. ونظرت إلى ميريام بنظرةٍ متروّية، وقد كانت تحبُّها كأُختٍ لها. "إنّكِ تريدين أن تتزوّجي؛ ألا تريدين ذلك؟"

أجابت ميريام: "بلى، ولكنّني لا أُريد أن أتزوّج أيًّا كان. أُريد فتىً رائعًا. أُريد رجلًا يحبّني كما يحبّكِ مايكل. أُريد رجلًا راغبًا في القتال لأجلي. أُريد رجلًا لن يسمح لي بالرحيل عنه".

وإذ رأت آنجل دموعًا في عيني ميريام، أمسكت بيدها. "هل تحبّين مايكل؟"

"طبعًا أُحِبّه. وكيف يمكن ألّا أُحبَّ شخصًا مثله؟ إنّه فريد؛ أليس كذلك؟" ثمّ ألقت رأسها على العضادة وأغمضت عينيها. "يجب أن يكون الآخرون أكثر شبهًا به، ولكنّهم ليسوا هكذا". وابتسمت. "لن أنسى أبدًا ليلةَ رنّمتُ أنا وأُمّي ‹النعمة المدهشة› وتحدّثنا عن دايفد. لقد شاهدتُ الدموع في عيني مايكل، ولم يُحرِجه ذلك. فلم يهمّه أن يلحظ أحدٌ مدى عطفه". ثمّ مسحت الدموع عن خدّيها. "مايكل هو الرجل الوحيد الذي قابلتُه والذي لا يخشى أن يشعر بالأشياء حقَّ الشعور. فهو لا يدفن نفسه حيًّا".

ونظرت إليه آنجل قائلةً: "من سوء حظّكِ الشديد أنّني التقيتُه قبلكِ".

فضحكت ميريام. "طيّب. إذا وجدتِ القالب، فاصنعي لي واحدًا آخر مثله!" وعانقت آنجل. "أُحبّكما كليكما كثيرًا". ثمّ تراجعت. "والآن قد أحرجتُكِ". وعضّت على شفتها وقد بدا عليها الاضطراب. "في رأي ماما أنّ عليَّ أن أحتفظ بالأمور لنفسي بدلًا من البَوح بها بلا تَروٍّ كلَّ حين. ولكنّني لا أستطيع. فهكذا أنا". وقبّلت خدَّ آنجل. "أفضلُ لي أن أجمع هُنودي المتوحّشين وأمضي". ثمّ خرجت إلى

ضوء الشمس ونادت أخَويها وأُختيها.

استندت آنجل مكتوفة اليدين إلى العَضادة مكانَ ميريام، وراقبتهم يمضون. وقد أقلقها الأمر طوال عصر النهار، فحاولت تلك الليلة أن تُكلّم مايكل في الموضوع. "هل تعتقد أنَّ في وسعنا العثورَ على رجُلٍ لميريام؟"

"ميريام؟ إنَّها صغيرة السنِّ قليلًا؛ أليس كذلك؟"

"لها من العمر ما يكفي للوقوع في الحبّ. أفي وسعنا العودة إلى سكرامنتو حتَّى نعثر لها على شخصٍ ما؟"

فقال مداعبًا شعرها: "على مَن؟"

"على شخصٍ مناسب لميريام".

"ما قولكِ في پول؟"

صُعِقت آنجل وانكفأت: "پول؟ إنَّ ميريام لا يوافقها شخصٌ مثله، بل يوافقها شخص مثلك".

فشدَّها إليه قائلًا: "أنا محجوز. هل تذكرين؟ لنتركِ الأمر في يد الربّ".

تمتمت: "نتركه في يد الربّ؟ إنَّك دائمًا تريد ترك الأمور في يد الربّ".

وتأكَّد له أنَّها لن تنصرف عن الموضوع، فقال: "لدى الربِّ شخصٌ ما لميريام. أنا على يقين بهذا. فالآن، أخرجي الأمر من فكركِ".

وكادت تقول له إنَّ ميريام مُتيَّمة به، إلَّا أنَّها تروَّت في ذلك. فليس من شيء يُعذّب الرجل أكثر من وقوع فتاةٍ شابَّة في غرامه. "إنَّما أودُّ أن أراها سعيدة ومستقرَّة".

وطمأنها مايكل. "سيكون لها ذلك، يا تِرصة. فإنَّ فتاةً مثل ميريام لن تبقى طويلًا بلا عريس".

فتاة مثل ميريام. "لو لم تجدني، فهل كنتَ..."

"ولكنَّني وجدتكِ؛ أما وجدتُكِ؟"

"بلى، وجدتَني". ثمَّ مدَّت يدها ومسَّت وجهه. "هل ندمت على ذلك مرَّةً؟"

أجاب بوقار: "بضع مرَّات"، عالمًا أنَّها تتوقَّع سماع الحقيقة. ثمَّ أمسك بيدها وبرم خاتم الزواج، ناظرًا إليها من علٍ. "لقد أجزتِني في بضعة أوقات قاتمة". وكانت ابتسامتُه رقيقة. "إلَّا أنَّ ذلك من الماضي". ثمَّ قبَّل يدها ووضعها على خدِّه. "تِرصة، إنَّني على علمٍ بما أنا في صدده، وعلى علمٍ بمن يسيطر على حياتي. فأنا وأنت لسنا حصيلة صِدفة".

جذبت آنجل رأسَه نحوها، وقبَّلته، وقد راقتها استجابتُه، كما راقتها حقيقة شعورها

حين يتولّى الأُمور. "لا أعتقد أنّني سأكتفي أبدًا بما سأحصل عليه منك، يا مايكل هوشع. لن أكتفي أبدًا".

"ولا أنا سأكتفي".

أقام آل ألْطمان اجتماعًا للاحتفال بزراعة الربيع. ولمّا وصل مايكل وآنجل، هُرِع الأولاد لملاقاتهما، ولوّحت لهما إليزابث من الباب المفتوح.

ثمّ شدَّت لِيَه يد مايكل قائلةً: "تعاليا انظرا بئرنا الجديدة".

وكانت ميريام تُحضِر دلو ماء، فحطَّته، وقالت بفخر: "عظيمة، أليس كذلك؟ ساعدَنا پول على حفرها. وكنتُ قدِ افتقدتُ بئرًا أُرنِّم في داخلها. إِسمع!" ثمّ انحنت تُرنِّم في قلب البئر، فإذا بالصوت الشجيّ يثخن ويقوى فيما أنشدت: "يا صخرة الدُّهور..."

أسندت آنجل ساعدَيها على حافَة البئر الحجريَّة مُصغيةً. وابتسم لها مايكل فيما انحنى من فوق الحافَة واشترك مع ميريام في الترنيم، موفِّرًا التناغُم بصوته الجَهْوريّ. ولم تكن آنجل قد سمعت قطُّ ما هو أعذب من تمازُج صوتي ميريام ومايكل.

وقالت ميريام ضاحكةً: "أُوه، أليس هذا رائعًا؟ لنُعِدِ الكرَّة. إذا أنزلتِ رأسَكِ مسافةً كافية، ينتشر الصوت حواليكِ. رنّمي معنا هذه المرَّة، يا أماندا، وسيكون الأمر أروعَ". وما كانت لتقبل أن تُجيب آنجل بالنَّفي. "لا تقولي لي إنَّكِ لا تقدرين. فأنتِ تقدرين. وإن كنتِ لا تعرفين الكلمات، فما عليكِ إلَّا أن تفتحي فمكِ وتقولي آااه. لنُرنِّم ‹صخرة الدهور› ثانيةً. لقد سمعتِها مِرارًا تكفي لحفظ بعض كلماتها".

انضمَّت إليهما آنجل بعد تردُّد. وقبل أن يفرغوا، كان باقي الأولاد قد دلَّوا رؤوسهم من فوق حافة البئر وراحوا يُنشِدون في داخلها. ولو لم يُمسِك مايكل بفستان روثي، لوقعت في البئر ورأسُها إلى الأسفل. وقال أندرو: "لنُغنِّ ‹أُو سوزانّا› هذه المرَّة". وبعدها انتقلوا إلى أغانٍ شعبيَّة ذات كلماتٍ مُضحكة. ثمّ نهضوا بعدما شبعوا ضحكًا.

تغيَّرت ملامح وجه ميريام على نحوٍ واضح، وشدَّت بيدها على يد آنجل. ثمّ قالت: "ها هو پول آتٍ!" فغاص قلب آنجل ورفعت رأسها فرأته مقبلًا نحوهم عبر الحقل المكشوف. قالت ميريام: "لقد كان جامدًا جدًّا حين دعوتُه حتَّى خُيِّل إليّ أنَّه لن يأتي". ولم تكن آنجل قد رأت قطُّ رجلًا أكثر منه عبوسًا. ثمّ أردفت ميريام: "خيرٌ لي أن أذهب لاستقباله، وإلَّا غادر قبل أن يصل".

شاهد پول ميريام مُقبِلةً صوبه، فشدَّد نفسه. كانت مرتديةً الفستان الأصفر أيضًا. ولمّا ابتسمت له، ارتعشت في خدّه عضلةٌ. ثمّ قالت ملوّحةً بيدها بحرارة: "سُرِرتُ بمجيئكَ، يا پول. الطقس حارّ؛ أليس كذلك؟ هيّا اشربْ شيئًا من عصير التفّاح".

انزعج پول جدًّا ممّا شعر به لمّا نظر إلى ميريام، وتلفّت حواليه. فإذا بآنجل ناظرة إليه. فابتسم لها ابتسامةً ساحرة، متوقّعًا منها أن تبادله بابتسامةٍ مماثلة. إلّا أنّها لم تفعل ذلك. لقد كان بغضُه لها شديدًا حتّى أمكنه أن يتذوّقه!

وسألته ميريام: "متى أنهيت زراعتك؟" مرغمةً إيّاه على الانتباه إليها من جديد.

"عصرَ أمس". ثمّ وصلا إلى الباقين، فسلّم عليه مايكل مصافحًا، وكانت قبضته متينة، دلالةً على استمرار المودّة. وطوّق آنجل بذراعه، مقرّبًا إيّاها حتّى التصقت بجنبه، ولبث ينتظر.

طرفت عينا آنجل الزرقاوان إذ نظرت إليه قائلة: "مرحبًا پول".

وودّ پول لو يتجاهلها، إلّا أنّه علم أنّ من شأن ذلك أن يُغيظ مايكل حتمًا. فردّ: "مرحبًا أماندا"، وحيّاها بإيماءة من رأسه. ولكنّ وجه آنجل لم يبدُ عليه أيُّ أثرٍ للعاطفة. ولم يفاجئ ذلك پول. فماذا عساها تعرف عن المشاعر؟

كانت ميريام قد عادت حاملةً فنجانًا معدنيًّا، وراقبت تبادل التحيّات عن كثب. فناولته عصير التفّاح وأمسكت بيد آنجل. "ماندي، هلّا تساعدينني في إخفاء الإشارات المفضية إلى اكتشاف الكنز!" وراقبهما پول تمضيان معًا، يدًا بيد.

ثمّ قال مايكل مبتسمًا قليلًا: "ميريام جميلة؛ أليس كذلك؟ يا لَعينيها السوداوين!"

ارتشف پول عصير التفّاح صامتًا تمامًا. لم يكن قد توقّع أن يلاحظ مايكل بهذه السرعة.

حين انطلق الأولاد للعثور على إشارات ميريام إلى الكنز (سلّةٌ من تورتة التوت) مدّت إليزابث وميريام وآنجل المائدة الخشبيّة في الفناء. وكانت آنجل قد أحضرت فُرنًا هولنديًّا مليئًا بلحم الغزال وطبيخ الفاصوليا والجزر المُغطّى بالسُكّر. أمّا إليزابث فكانت قد شوَت طيرَي تَدرُج[٢١] سمينين حُشِيا بفُتات الخبز المُطيّب بالتوابل.

وأتت ميريام بفطيرتَي تُفّاح شتويّ كبيرتين.

أحسّت آنجل إحساسًا شديدًا بتيّار البغضاء الخفيّ الذي صوّبه پول إليها، حتّى عسر عليها أن تُشارك في الاحتفال بفرح ومرح. وتأتّى لها أن تتجنّبه طيلة عصر النهار،

٢١) التدرُج: طائر ذو ذيل شبيه بالحجل.

إلّا أنّها أُجلِست الآن مقابله إلى الطاولة. وبعدما قدّم جان الشُّكرَ لله على الطعام، رفعت رأسها فرأت پول يحدّق إليها. وفهمت بكلّ وضوح الرسالة التي بعثت بها عيناه: أنتِ؟ تُصلّين؟ يا للسُّخرية!

لقد كانت مُنافِقة. فهي حنت رأسها كما حنى الآخرون كلُّهم رؤوسهم، متظاهرةً بأنّها تُصلّي فيما لم تكن مُشاركةً في الصلاة فعلًا. ولا هي أرادت ذلك. غير أنّها فعلت ذلك لأنّها تجرح شعور مايكل إذا جلست بقربه متصلّبةً ورأسُها مرفوع عاليًا في أثناء رفع صلاة الشُّكر. ومن شأن هذا أيضًا أن يُسيء إلى آل ألْطمان. وقد تطرح روثي أسئلة. ولهذا تلقّت حملقة پول الباردة.

ألا يمكنكَ أن تفهم؟

غير أنّه لم يزدَد إلّا احتقارًا لها. وإذ تأكّد لها أنّه لن يفهمها أبدًا- ويُحتَمل ألّا يحاول ذلك البتّة- أخذت شريحة من التّدرُّج ومرّرتِ الطبق.

ولاحقًا، بينما جان يعزف الكمنجة، ومايكل يُراقِص آنجل، سألها مايكل: "هل تريدين منّي أن أُكلّم پول؟"

فقالت: "لا"، خشيةَ أن تتسبّب في اتّساع الشرخ بين الرجُلَين، بعدما أحدثت ضررًا كافيًا بالفعل.

"إنّه رجُل شريف، يا أماندا. لقد وقف بجانبي في أوقاتٍ صعبة. غير أنّه مرتبكٌ ومشوَّش الآن".

لقد علمَت أنّ پول لم يكن مرتبكًا، بل كان مفعمًا بالسَّخط والعداء المسوَّغين. وذلك بسببها هي. وقد كان متألّمًا. وذلك بسببها هي. لماذا لم تعُد بفكرها إلى انتقامها منه شخصيًّا يومذاك؟ ألم يكن يمكنها أن تتجاهل إهاناته؟ لقد علمت أنّه غيور. لقد علمت أنّه طالما حسبها غير صالحة تمامًا لأنْ تكون زوجة مايكل. لقد علمت كثيرًا من الأمور المتعلّقة بپول من أوّل نظرة.

ثمّ قال لها مايكل: "اصبري عليه".

مثلما صبر مايكل عليها. ستعضُّ على جرح كبريائها إذا اقتضى الأمر. فلأجل مايكل، ستتقبّل كلَّ ما يرميها پول به.

وبينما مايكل يُراقِص ميريام، ذهبت آنجل لتسكب لنفسها كأس عصير. فتقدَّم پول ووقف قربها، وعيناه القاتمتان تبرقان. ثمّ أومأ برأسه نحو مايكل وهو يراقص ميريام، وقد كانا كلاهما يتضاحكان. "إنّهما يبدوان مُتناسِبَين معًا؛ أليس كذلك؟"

وراقبت آنجل ميريام، شاعرةً بنوبة ألم مُفاجئ في أحشائها. نعم، إنَّهما متناسبان. فقالت: "إنَّهما مُعجَبان أحدُهما بالآخر كثيرًا"، ثمَّ سكبت كوب عصير ثانيًا، وناولته إيّاه.

فابتسم لها ساخرًا، وتناول الكوب. ثمَّ عاد يراقب مايكل وميريام. "كان ينبغي أن تأتي قبل بضعة أشهر. ولو جاءت، لكانتِ الأمور الآن مختلفة كثيرًا".

"قال مايكل إنَّ الأمور ما كانت لتختلف".

"لا بدَّ أن يقول ذلك طبعًا".

لقدِ اخترقت طعنة السيف شغاف قلبها، فلم تنبس ببنتِ شفة ولوى پول شفتيه ساخرًا. "سمعتُ أنَّكِ اشتغلتِ في مخزن تجارة عامَّة. فماذا كنتِ تبيعين".

"قليلًا من كلِّ شيء".

"كالعادة تمامًا، إه؟"

فكتمت آنجل وجعها وتكلَّمت بهدوء. "لستُ أنوي أن أجرح مايكل ثانيةً يا پول. إنِّي أُقسِم لك على ذلك".

"ولكنَّكِ سوف تجرحينه؛ ألن تجرحيه؟ تلك طبيعتكِ. ستمتصِّينه حتَّى يجفّ، ثمَّ تطرحين القشرة الفارغة بعيدًا. أجل، ستمكثين ها هنا مدَّةً، إنقاذًا للمظاهر فحسب. وعندما تتعسَّر الأُمور، تحزمين حقائبكِ وتنطلقين في طريقك اللاهية من جديد".

طرفت عينا آنجل وسرَّحت نظرها بعيدًا. ولم تقدر أن تتنفَّس جيِّدًا إذِ انقبض صدرها. "لن أفعل ذلك!"

"صحيح؟ إذًا لماذا عجَّلتِ كثيرًا في العودة إلى پيرأدايس؟ لماذا لم تهربي إلى سكرامنتو؟"

"هذه المرَّة سأبقى".

"سنةً أو سنتين، إلى أن تسأمي كونكِ زوجة فلّاح". وشرب عصير التفّاح ثمَّ وضع الكوب جانبًا، وراح يراقب مايكل وميريام عابسًا. "أتعرفين، يا آنجل، أنَّني لم أرَ مايكل مبتسمًا هكذا منذ مدَّة طويلة جدًّا؟" ومضى مبتعدًا ليقف مع جان.

أمسكت آنجل بكأس عصيرها بكلتا يديها. ثمَّ رفعت رأسها، وأخذت تراقب الشخصين اللذين أحبَّتهما أكثر جدًّا من جميع مَن في الدنيا يرقصان معًا، وساءلت نفسها عن كون پول على حقٍّ في كلِّ ما قاله.

الفصل

الخامس والعشرون

وبعد الزَّلزلة نار، ولم يكن الربُّ في النار
وبعد النار، صوتٌ مُنخفِض خفيف.

(سِفر الملوك الأوّل ١٩ : ١٢)

سعى پول جاهدًا لتبديد ثقة آنجل كلَّما التقيا، فيما عقدت آنجل عزمها على تحمُّل كلِّ ما يرميها به. وكلَّما أبدى ملاحظةً جارحة أو تكهُّنًا مهينًا بشأن المكان الذي سوف تكون فيه في غضون عشر سنين، قالت لنفسها إنَّها لن تلجأ إلى الانتقام. فأن تردَّ الضربة بمثلها أمرٌ يؤذي مايكل فحسب، ولن يُغيِّر شعور پول تجاهها. ومهما أتى به الغد، فلديها مايكل اليوم.

رفضت آنجل أن تدافع عن نفسها في مواجهة پول. فماذا كانت الغاية؟ لقد كانت آنجل مهذَّبة. كانت صامتة. وقفت صامدةً حتَّى حين أرادت أن تهرب وتختبئ في مكان مظلم، حيث يتسنَّى لها أن تتكوَّر كُرةً صُلبة.

لم أعُد بائعة هوى... لم أعُد!

ولكنَّ طريقة نظر پول إليها جعلها تتذكَّر وتشعر بأنَّها ما زالت كذلك، بصرف النظر عمَّا تفعله. فإنَّ سنةً واحدة لم تمحُ عَشرًا، وقد استحضر پول السنين السُّود مع دُوك، سني الخوف والوحدة وصراع البقاء. ومن جرّاء ذلك، دفعها تعسُّف پول إلى المزيد من الارتماء بين ذراعي مايكل. فكلَّما ضاعف پول جهده لطردها، ازداد تمسُّكها بما لديها بشدَّة. وقد قال لها مايكل ألَّا تقلق بشأن الغد، فركَّزت على اعتصار الحياة من كلِّ لحظةٍ تقضيها معه. كما قال لها ألَّا تخاف، فلم تكن خائفةً ما دام معها.

إنَّ مايكل يحبُّها الآن، وذلك كلُّ ما يهمُّها. لقد جعل حياتها ذات معنى غنيّ وملأها بأشياءَ جديدة ومجيدة. ولئن كانت حياتها عملًا شاقًّا من الفجر إلى الغَسَق، فقد أضفى عليها مايكل نوعًا من التشويق. إذ فتح ذهنها لأُمور لم يسبق أن لاحظتها. وقال صوتٌ هادئٌ في رأسها مرارًا وتكرارًا: **هلمِّي خارجًا يا محبوبة!**

خارجًا من أيِّ شيء؟

لم تستطع أن تتملّى من مايكل. فقد أفعم عقلها وقلبها. وقد كان حياتها. وكان يوقظها قبل الفجر بقبلاته، فيستلقيان في الظُّلمة الهادئة، يستمعان إلى سمفونيّة صراصير اللّيل والضفادع وأجراس الهواء. وكان جسمها يرتعش إذا لمسها، ويُغنّي إذا حازها. فكلُّ لحظة من كلِّ يومٍ معه كانت ثمينةً في نظرها.

ثمَّ أتى الربيع بِبَرارٍ زاخرة بالألوان: رُقَع زاهية من الخشخاش الذهبيّ ونبات الترمس الأرجوانيّ مشرورة على السُّفوح الخُضر والمروج غير المحروثة. وتحدَّث مايكل عن الملك سُلَيمان وكيف أنَّه، رغم غناه الفائق، لم يستطع أن يُلبِس نفسه كما ألبس الله السُّفوح والمروج الزهورَ البرِّيّة البسيطة. وقد قال لها مايكل: "لن أحرث تلك القطعة، بل سأتركُها كما هي". لقد رأى مايكلُ الله في كلِّ شيء. رآه في الريح وفي المطر وفي الأرض. رآه في الغِلال التي كانت تنمو. رآه في طبيعة الحيوانات التي أقامت في أرضهما. رآه في لهيب نارهما المسائيّة.

أمّا آنجل فقد رأت مايكل وحده وبجّلته.

وحين كان يقرأ بصوتٍ عالٍ كلَّ مساء قبالة النار، كانت تهيم في تموُّجات صوته الجَهْوريّ. وكانت تتكسَّر الكلمات عليها كموجةٍ قويَّة دافئة ثمّ ترتدُّ إلى أعماق بحرٍ بعيد. يوناثان يتسلَّق صخرةً ليشقَّ طريقًا إلى أرض الأعداء. داود، الفتى الراعي، يقتل عملاقًا طوله تسعة أقدام اسمُه جُليات. المسيح يُحيي الموتى. لعازر، هلمَّ خارجًا! هلمَّ خارجًا!

كان مايكل يجعل حتّى الأمر البسيط يبدو كأنَّه شِعر.

تناولتِ الكتاب المقدَّس من يده وردَّته إلى الرفِّ فوق الموقد. ثمَّ أمسكت بيده قائلةً: "أحبِبني!" ولم يستطع مايكل أن يفعل شيئًا سوى ذلك.

حضرت إليزابث مع الأولاد. "أخبرَنا پول عن مدينة تبعد أقلَّ من ستّة كيلومترات من هنا. ليست مدينةً كبيرة جدًّا، وليس فيها بضائع كثيرة. وقد سافر جان إليها في العربة بصحبة پول لإحضار المؤَن".

لاحظت آنجل انتفاخ بطن إليزابث قليلًا. وبعدما قدَّمت القهوة والبسكويت، قعدت مع ضيوفها. وقد أرادت روثي أن تقعد في حضن آنجل، فرفعتها وأقعدتها. وسألت روثي آنجل: "متى سيكون عندكِ طفل؟" فاحمرَّ خدًّا آنجل احمرارًا شديدًا في الحال، وصدرت من إليزابث شهقةُ استحياء خفيفة. ثمَّ أنزلت روثي من حضن

آنجل وأوقفتها على قدميها بثبات، قائلةً: "يا روث آن ألْطمان، يجب ألَّا تسألي أبدًا أسئلةً كهذه".

"لماذا لا؟" لم يبدُ على رُوث أيُّ انزعاج، وكان واضحًا أنَّها لم تفهم سبب انزعاج أُمِّها وآنجل.

"لأنَّ هذا شأنٌ خاصٌّ جدًّا، يا آنسة".

فرفعت روث نظرها إلى آنجل بعينين واسعتين مدهوشتين. "تعنين أنَّكِ لا تريدين أن يكون عندكِ طفل؟"

كظمت ميريام ضحكةً، وأمسكت بيد أُختها الصغيرة، ثمَّ قالت للمرأتين: "أعتقد أنَّنا سنخرج ونترجَّح قليلًا".

وقعدت إليزابث من جديد تُهوِّي وجهها الساخن، وقالت معتذرة: "هذه الطفلة تتفوَّه حالًا بأيِّ شيءٍ تُفكِّر فيه".

وتساءلت آنجل هل تُخبِرها بعدم قدرتها على الإنجاب، إلَّا أنَّها قرَّرت ألا تفعل ذلك.

ثمَّ قالت إليزابث: "جئتُ أطلب منكِ المساعدة. فالطفل سيولد في كانون الثاني (ديسمبر)، وأُريد منكِ أن تقومي بدور القابلة".

فوجئت آنجل وصُعِقت كلِّيًّا. " أنا؟ ولكنَّني يا إليزابث لا أعرف أيَّ شيء عن مساعدة الأُمّ على وضع مولودها".

"أنا أعرف ما ينبغي فعله. وميريام تودُّ أن تساعدني، غير أنَّني أعتقد أنَّ شابَّة حسَّاسة مثلها يجب ألَّا تحضر ولادة طفل. فقد يُخيفها ذلك خوفًا لا داعيَ له".

صمتت آنجل هُنيهةً. "لا أعرف كيف يمكنني أن أُساعدكِ في ذلك على الإطلاق".

"لقد سبق لي أن مررتُ في هذا. وسأتمكَّن من إطْلاعكِ على ما تفعلينه. في دياري، ساعدتني قابلة. ولكن ها هُنا ليس لي سوى جان، وهو لن ينفعني طبعًا". ثمَّ تبسَّمت قليلًا. "يمكنه توليد عِجل أو مهر، ولكنَّه عديم النفع كليًّا في ما يتعلَّق بالإتيان بأولاده إلى العالم. فهو ينهار لحظةَ أُبدي أيَّ ألم. ولا يمكنني أن أُنجِز العمل كلَّه بغير شيءٍ من الانزعاج؛ أيمكنني ذلك؟ لقد أُغمي عليه عندما وُلِدت ميريام".

"صحيح؟" لم تستطع أن تتصوَّر بطريقةٍ ما أنَّ جان الرزين يمكن أن يُغمى عليه من جرّاء أيِّ شيء.

"لقد سقط أرضًا قرب السرير تمامًا، فيما كنتُ هناك عاجزةً كسُلَحفاة على ظهرها، وكان عليَّ أن أتولَّى الأمر جيِّدًا". ثمَّ ضحكت ضحكةً رقيقة، وأضافت: "عاد إليه

الوعيُ عندما تمّت الولادة".

فساور آنجل القلق وسألت: "هل يكون الأمر صعبًا جدًّا؟" وقد تذكرّت مومسًا استطاعت إخفاء حَبَلها حتّى فات أوان إجراء إجهاضٍ لها. "أليس في البلدة طبيب؟"

"أعتقد أنَّ فيها طبيبًا. ولكن قبل أن يصل إلى هُنا، يكون الأمر قد انتهى. فقد استغرقت ولادة روث أربع ساعات. وهذا الطفل قد يولد في مدّةٍ أقصرَ".

ووافقت آنجل بتحفُّظ على المساعدة حينما يحلُّ الوقت، قائلةً: "إذا كنتِ على يقينٍ تامّ بأنَّكِ تريدين أن أكونَ قابلتَكِ".

فقالت إليزابث: "على أتمّ يقين"، وعانقتها. وقد بدا عليها الفَرَح إلى أبعد حدّ.

ولمَّا غادر آل ألطمان، خرجت آنجل إلى حيث كان مايكل. اتّكأت على السياج، وراقبته يُنعِل حصانًا. "تُريد إليزابث منّي أن أُساعدها عند ولادة طفلها". ولاحظت خطوط خدَّيه المُسْمرّين تتعمَّق وهو يبتسم.

"قالت لي ميريام إنّها ستطلب ذلك منكِ. وقد كانت مستاءةً قليلًا لأنَّها لن تكون من ستُساعِد على الإتيان بأخيها الصغير أو أُختها الصغيرة إلى العالم".

أجابت: "ساور إليزابث القلق إزاء احتمالِ أن تُصاب ميريام بصدمة. أمّا أنا، فلا ينبغي أن يصدمني شيء!"

سمع مايكل النبرة اللاذعة في كلامها، تلك النبرة التي كانت قد زالت منذ أسابيع. فنظر إليها. أكان السبب ذِكرُه لميريام، أم هالتها هذه المسؤوليّة الجديدة؟

"إن كان في ذلك مشكلة، فقد ولّدتُ بضعة أمهار في حياتي".

"لقد قالت إليزابث إنَّ جان أُغمي عليه".

وضحك مايكل إذ دقَّ آخر مسمار وشذَّب أطراف الحافر.

"ليس في الأمر ما يُضحِك، يا مايكل. ماذا لو حصل سوء؟ فقد كان بالماخور في نيويورك قديمًا مومسٌ أخفت حَبَلها مدّةً طويلة حتّى لا يَضطرّها دُوك إلى الإجهاض. وأقنعته سالي بأن يسمح لها بالبقاء. ولكن لمَّا آن أوانُها، أخذت تصرخ، وقد أمكنني أن أسمعها عبْر الجدران. كان ذلك عصر يوم أحد والمكان يعجّ..." وإذِ اعتدل مايكل نظرت إلى وجهه وكفّت عن الكلام. آه، لماذا أتت على ذكر تلك الحادثة من جديد؟

"ثمّ ماذا؟"

فقالت: "لا يهمّ"، وأشاحت بوجهها.

وتقدَّم حتّى السياج: "إنَّ ماضيكِ جزءٌ منكِ. وأنا أُحبُّكِ. أتذكُرين هذا؟ فالآن

ماذا جرى للمرأة والطفل؟"

اعترضت في حلقها غصّةٌ سدَّته، ولم تكد تقوى على الكلام.

"كمّت سالي فمها حتّى لا تُزعج أحدًا. وقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا: طوال الليل وقسمًا من النهار التالي. وظلّت مريضةً عدّة أيّام بعد ذلك. أمّا الطفل..."

كانت سالي قد أبقتِ الأُخريات بعيدًا، فيما سمحت لآنجل بدخول الغرفة معها للاهتمام بالوالدة والمولود. وقد شحبت المومس الشابّة شحوب الموت وبقيت صامتة، فيما الطفل بقربها يئنُّ بلا انقطاع، وقد لُفَّ بثوب قرنفليّ. وهمّت آنجل بأن تحمل الطفل، إلّا أنّ سالي دفعتها بعيدًا في الحال، هامسةً: "لا تلمسيه!" ولم تدرِ آنجل السبب حتّى فكّت سالي قماطه بحذر.

وسألها مايكل: "ماذا جرى للطفل؟" مُزيحًا خصلة شعر ذهبيّة تدلّت على وجهها الباهت.

أجابت بوهن: "كان بنتًا صغيرة، لم تعش إلّا أُسبوعًا واحدًا". ولم تقُل له إنّ تلك الطفلة كانت تُغشّيها القروح وإنّها ماتت بلا اسم. وبعد مدّةٍ قصيرة اختفت والدتُها. ولمّا سألت آنجل سالي عمّا جرى لها، قالت سالي: "ليس لكِ أن تسألي عمّا يفعله دُوك!" وقد علمت آنجل أنّ الأمَّ تُوفّيت، طعامًا للفئران في أحد الأزقّة المظلمة القذرة. مثل راب تمامًا. ومثلها تمامًا إن كانت لا تطيع. فأخذتها الرّعدة.

ثمّ ذكّرها مايكل قائلًا: "عند إليزابث خمسة أولاد، يا أماندا".

قالت: "نعم، وكلُّهم أصحّاء".

ولاحظ مايكل عودة اللون ببطء إلى خدّيها. فتساءل عمّا كانت تفكّر فيه، إلّا أنّه لم يسألها. إذا أرادت أن تتكلّم عن الأمر، فلا بدّ أن تتكلّم. وإلّا، فهو يحترم سكوتها. غير أنّها كانت بحاجة إلى تطمين، وهو أحسَّ ذلك، فقال: "عندما يحين وقت ولادة الطفل، لا يستطيع أيُّ شيء منع ذلك".

وابتسمت له. "يُخيّل إليّ أنّك تعرف كلَّ ما يتعلّق بهذا الأمر أيضًا؟"

فقال: "ليس عنِ اختبارٍ شخصيّ. لقد ساعدت تَسّي امرأةً على ولادة طفل في قافلة العربات. وقالت إنّها لم تُضطرَّ إلّا إلى التحقّق من عدم سقوطه على أرضيّة العربة. فالأطفال يكونون زَلِقين قليلًا عندما يُولَدون. وحين يحلُّ وقت وضع إليزابث لطفلها، أُرافقكِ وأُشدّد جان".

وضحكت آنجل فيما تبدّد توتُّرها. فما دام مايكل معها، فكلُّ شيء سيكون في خير.

ثمَّ قال مايكل وهو يُخرِج ظرفًا صغيرًا من جيبه: "أُوه، على فكرة، طلبت ميريام منّي أن أُعطيَكِ هذه".

كانت قد شاهدت ميريام مُتَّكِئةً على السياج وقتًا طويلًا وهي تُحادِث مايكل. فسألت: "ما هذا؟" ناظرةً إلى الكتابة الأنيقة بخطِّ اليد دون أن تتمكَّن من قراءتها، إذ إنَّ دُوك لم يرَ داعيًا لتعليمها القراءة.

"بزرٌ لحديقة زهور صيفيَّة".

جاء الربيع دافئًا فأعقبه الصيف حارًّا. وتأكَّد لآنجل أنَّ لها موهبةَ أُمِّها في تعهُّد النبات. فإنَّ خميلة الزُّهور التي بسطتها حول البيت صارت سيلًا من الألوان الزاهية. وباتت تملأ الزهريَّة كلَّ يوم بزهور القَبَس القرنفليَّة، والألفيَّة الصفراء، وآذان الحَمَل الحمراء، والعايق الأُرجوانيَّة، والخِطميّ البيضاء. وزيَّنت الرفَّ فوق الموقد بزهر الكتَّان الأزرق والمرغريت اللؤلؤيّ. ولكنَّ الفخرَ الذي شعرت به عند تسريح نظرها في حقل الذُّرَة كان أكبرَ من البهجة التي وجدتها في الأزهار.

لم تكد تُصدِّق أن حَبَّ الذُّرة اليابس الصغير الذي كان مايكل قد أعطاها إيَّاه كي تزرعه صار نباتاتٍ سُوقُها أطول من مايكل. وقد تمشَّت بين أتلام الذُّرَة، تتلمَّس النباتات المرتفعة وتتأمَّل أكواز الذُّرَة النامية. هل ساعدَت هي حقًّا في حدوث هذا؟

نادى مايكل: "أماندا! أين أنت؟"

وقفت على رؤوس أصابع قدمَيها ضاحكةً، وردَّت: "ههنا!"

ثمَّ ركضت بمحاذاة التَّلم كي تختبئ.

فقال ضاحكًا: "حسنًا! أينَ اختفيتِ؟"

صفَّرت له من مخبإها. وكانت قد لعبت الغُمَّيضة مع روثي بين الأتلام يوم أمس، فكان مزاجُها فَرِحًا اليوم وكانت مستعدَّةً لإغاظة مايكل تودُّدًا.

"ماذا يكون لي إذا عثرتُ عليكِ؟"

"ماذا في فكرك؟"

"أُوه، شيءٌ قليل من هذا وذاك!" ومدَّ يدَه وسط صفٍّ من الذُّرَة حتَّى كاد يمسك بتنُّورتها. إلَّا أنَّها فرَّت أيضًا ضاحكةً. ثمَّ أدركها في طرف الصفّ، لكنَّها راوغته من جديد وتوارت في خضمِّ الخُضرة. ولبدت وسط صفٍّ آخر مادَّةً قدمها قدَّامه وهو مارّ،

فأوقعته. ثمَّ راحت تعدو متضاحكةً في الاتِّجاه الآخر.

ولحق بها مايكل قائلًا: "لَن أفرغ من إصلاح ذلك السياج". وما إن أمسك بها، حتَّى سمع صوتًا يناديهما. فضحك مايكل ضحكةً خافتة، قائلًا: "ها هي ميريام قد حضرت من جديد لتسأل هل تستطيع ماندي أن تخرج خارجًا وتلعب!"

بدا الاضطراب على ميريام حين وصلت إليهما، وكانت أجفانها حمراء من البكاء.

فسألت آنجلُ متوجِّسة: "ماذا جرى؟ هل أُمُّكِ...؟"

أجابت ميريام مبتسمةً لها ابتسامة واهية: "ماما بخير. الجميع بخير. مايكل، ينبغي أن أتكلَّم معك في موضوع. رجاءً، إنَّه مهمّ".

"طبعًا!"

أمسكت ميريام بيد آنجل وضغطت عليها قائلةً: "شكرًا، لن أُعوِّقه كثيرًا".

فعلمت آنجل أنَّها قد صُرِفت. "عودا إلى الداخل عندما تنتهيان. سأصنع شيئًا من القهوة".

راقبت آنجلُ من وراء النافذة فيما ميريام ومايكل يتحدَّثان في الفِناء. كانت ميريام تبكي. ومسَّ مايكل كتفها، فارتمت بين ذراعيه. وإذ رأته آنجل يعانقها، غاص قلبُها وجاشت أحشاؤها. واجتاح صدرها وجع ضاغط إذ شاهدته يُربِّت ظهر الفتاة ويقول لها شيئًا ما. ثمَّ انكفأت ميريام قليلًا وهزَّت رأسها. فأمال ذقنها إليه وأردف يقول لها شيئًا بعد. وتحدَّثت طويلًا فيما مايكل واقفٌ يُصغي إليها. ولمَّا فرغت، قال لها شيئًا ما باقتضاب. ثمَّ طوَّقت عنقه بذراعيها وقبَّلت خدَّه. ومن ثَمَّ توجَّهت إلى بيتها. وظلَّ مايكل واقفًا يراقبها وقتًا طويلًا، وهو يفرك قفا رقبته ويهزُّ رأسه. ثمَّ توجَّه إلى السياج، حيث كان يشتغل قبلًا.

انتظرت آنجل أن يتطرَّق مايكل إلى ما قالته ميريام عندما دخل كي يتغدَّى، إلَّا أنَّه لم يفعل ذلك. ولكنَّه تكلَّم بالأحرى عن تقدُّم العمل في الزريبة وعمَّا سيفعله بعدَ الظُّهر. فإذا كانت ميريام استأمنته على شيء، فإنَّ آنجل كانت تعلم أنَّه لن يُفشيَه.

ولمَّا دخل البيت آخِرَ النهار، كان مستغرقًا في التفكير. وراقبها ترفع الصحون. ثمَّ أقبل نحوها من وراء وهي تصبُّ ماءً ساخنًا على الصحون، فوضع يديه على خصرها قائلًا: "أنت هادئةٌ جدًّا". وقبَّل عنقها بعدما أزاح ضفيرتها. "ماذا يُقلِقكِ؟ أمرُ إليزابث".

"أمرُ ميريام". وأحسَّت يديه ترتخيان. ثمَّ دارت ورفعت نظرها إليه وأضافت: "وإيَّاك". ولمَّا طرفت عيناه ولم يقل شيئًا، جاوزته ماسَّةً إيَّاه برفق. فأمسك بها ، وأدارها

بثبات حتَّى تواجها.

"لا داعيَ لأن تثور غيرتُكِ، مع أنِّي أعتقد أنَّني سأطحن أسناني طحنًا إذا أقبل بول وطلب أن يُحدِّثكِ على انفراد".

"من غير المُرجَّح أن يحدث هذا؛ أيُعقل أن يحدث؟"

"لا، لستُ أظنّ". وتمنَّى لو أنَّه أبقى بول خارج الموضوع.

"بيتُ القصيد أنَّني أُحبُّكِ أنتِ".

"ولن تُغريَكَ في شيءٍ فتاةٌ تعبد الأرض التي تمشي عليها؟"

قال غيرَ مُنكِرٍ عاطفة ميريام نحوه: "ولكنَّني أشبه بأخٍ كبير لها منِّي بأيِّ شيء آخر".

شعرت آنجل بالصغارة. كانت تحبُّ ميريام، ولكنَّ رؤيتها إيَّاهما معًا آذتها. ونظرت مجدَّدًا في عيني مايكل فلم تشكَّ في كونه يحبُّها. وقد جعلها ذلك ضعيفةً أمامه. فاسترخت وابتسمت له ابتسامةً ساخرة.

"أهي في خير؟ ما خطبُها؟"

"إنَّها غير سعيدة. فهي تعرف ما تريده، زوجًا وأولادًا لها، ولكنَّها غير متيقِّنة كيف تحصل على ذلك. لذلك أرادت رأيَ رجُل".

قالت: "حسنًا، يسرُّني أنَّها لم تقصد إلى بول"، قبل أن تُولي ذلك مزيدًا من التفكير. ثمَّ عادت إلى غسل الأطباق. فمن شأن بول أن يمزِّق بسخريته فتاةً بريئةً عذبة نظير ميريام.

ظلَّ مايكل صامتًا.

ونظرت ثانيةً إليه، فعلمت أنَّه كان ينبغي ألَّا تقول أيَّ شيء بحقِّ صديقه. وهزَّت كتفيها قائلة: "آسفة! كلُّ ما في الأمر..."

"إنَّها بحاجةٍ إلى عريس".

فقالت مُوافِقةً: "نعم، ولكنْ ينبغي أن يكون شخصًا مُميَّزًا جدًّا جدًّا".

وارتسمت على شفتيه انحناءةُ ابتسامة. "أنتِ تحبِّينها؟ ألا تُحبِّينها؟"

"بلى، إنَّها تكاد تكون أُختًا لي بكلِّ معنى الكلمة. ولربَّما من أجل هذا أزعجني أن أراكما مُتعانِقَين".

"إنَّني لا أُعانقها كما أُعانقكِ أنتِ. أترغبين في لمس الفرق؟"

تحرَّرت منه مبهورة النَّفَس وضاحكةً. "إنَّك بالِغُ التسرُّع الآن. امضِ واقرأ ريثما أُنجِز عملي".

أنزل الكتاب المقدَّس، وقعد قبالة النار، واضعًا الكتاب في حضنه. وحنى رأسه، فعرفت آنجل أنَّه يُصلِّي. كانت هذه عادةً من عاداته، ولم تعُد تسخرُ منه بسببها. فإنَّ ذلك الكتاب الكبير كاد يبلى، إلَّا أنَّه كان ينظر إليه كما لو كان مُجلَّدًا بالذهب ومُتضمِّنًا جواهر لا تُقدَّر بثمن. وهو لم يقرأه قطُّ قبل أن يُصلِّيَ أوَّلًا. وقد قال لها مرَّةً إنَّه لا يبدأ بالقراءة حتَّى ينفتح ذهنُه لتقبُّل الكلام. فلم تدرِ عمَّا كان يتحدَّث. ذلك أنَّ كلماته، مع كونها مألوفة، لم تكن تعني لها أيَّ شيء أحيانًا. ومن ثَمَّ كان يقول شيئًا عجيبًا يُشيع فيها الدفء ويُلقي عليها فجرًا من النور العارم. فقد كانت هي أحلك ليل، وهو ضوء النجوم الذي يخترقه، مُوجِدًا في حياتها نموذج شروقٍ فريدًا.

أنجزت أشغالها ثمَّ قعدت بقربه، وكان صامتًا. فألقت رأسها إلى الوراء، مصغيةً إلى فرقعة النار، ولبثت تنتظر. ولمَّا قرأ أخيرًا، نعست وكانت راضية. وقد كان صوته الدافئ الجَهوريُّ خشنًا ورتيبًا، غير أنَّ ما قرأه أدهشها. فإنَّه كان قصَّة عروسٍ وعريس بينهما شغف شديد متبادل. وظلَّ يقرأ وقتًا طويلًا.

أعاد مايكل الكتاب المقدَّس الأسود إلى الرفّ، وألقي في النار حطبةً أُخرى ثخينة، من شأنها أن تشتعل الليل بطوله وتُبقي الكوخ دافئًا.

وسألت آنجل متحيِّرةً: "لماذا تؤدِّي عروسٌ عذراء دور مومسٍ أمام زوجها؟"

نظر إليها مايكل نظرةَ تجاوُب، وكان قد حسبها نائمةً. "لم تفعل ذلك".

"بلى، فعلته. لقد رقصت له وهو كان يتأمَّل جسدها. من قدميها فصاعدًا. وفي البداية، كان ينظر في عينيها".

أدهشه أن تكون قد أصغت بمنتهى الانتباه. "لقد سُرَّ بجسدها، مثلما أرادت له هي، وقد رقصت كي تُثيرَه وتُمتِعه".

"وهل يقول إلهُك إنَّ إغراء رجُل أمرٌ لا بأس به؟"

"لا بأس بأن تُغري زوجكِ".

تجهَّمت ملامحها. لم تكن قد عنت أيَّ رجُل على الإطلاق، ولكنَّه هو كان عليمًا تمامًا بمدى تمرُّسها الجيِّد بالإغراء. "ماذا يكون لو حسب الرجال أنَّ مجرَّد منظر المرأة هو فِعل إغراء؟"

لكز مايكل طرف الحطبة بنعل حذائه دافعًا إيَّاها إلى قلب النار أكثر. "سوف يُحدِّق الرِّجال إليكِ دائمًا، يا أماندا. أنتِ جميلة. ولا حيلة لكِ في ذلك". حتَّى جان ألْطمان حدَّق إليها في البداية. وبول أيضًا. وأحيانًا كان مايكل يتساءل عمَّا يجري

في ذهن پول حين يراها. هل تعود به الذاكرة حالًا إلى ما كان بينهما في الطريق إلى پيرأدايس؟ ثمَّ دفع الأفكار المزعجة بعيدًا. فإنَّ إطالة التفكير في تلك الأفكار أثار لديه شكوكًا عذّبته.

وسألته: "أيُزعجكَ الأمر؟"

"أيُّ أمر؟"

"أن يُحدّق إليَّ الرجال؟"

قال معترفًا: "بعض الأحيان. عندما ينظرون إليكِ كما لو كنتِ غرضًا، لا كائنًا بشريًّا ذا مشاعر". ثمَّ لوى فمه بابتسامةٍ ساخرة، وأضاف: "أو زوجةً واقعةً في غرام زوجها".

وبرمت خاتم الزواج حول إصبعها. "إنَّهم لا ينظرون إلى يديَّ أبدًا، يا مايكل!"

"لعلَّ علينا أن نضع الخاتم في أنفكِ".

ورفعت نظرها، فرأت ابتسامته المُناكِدة وضحكت. "نعم، أو خاتمًا كبيرًا جدًّا حول رقبتي. لعلَّ ذلك يُبعِدهم عنّي!"

بعد ذلك بوقتٍ طويل، فيما مايكل نائمٌ بقرب آنجل، أصغت إلى نسمة الليل محرّكةً أجراس الهواء خارج النافذة. وكانت الأنغام دائمة التغيُّر مُهدِّئة.

كان الحشيش الجديد، الذي سيغدو علفًا، طيّب الرائحة حول قَدَمي آنجل. وقد بدا أكثر طيبةً بعدُ لأنَّ وجوده هناك كان بمشاركةٍ منها في التعب. ذلك أنَّها ساعدت مايكل في حصد العشب. وكم كان العمل شاقًّا! لقد فتنها تمامًا أن تراقب مايكل يهوي بمنجله الكبير في ضرباتٍ رشيقة واسعة، مُسقِطًا الحشيش الذهبيَّ على الأرض. ثمَّ كوَّمته هي بالمِدمَّة[٢٢] أكوامًا، وقذفاه معًا إلى مؤخَّر العربة ليؤخذ ويُخزن في الحظيرة، حيث يكون للحيوانات قشٌّ تأكله طوال أشهر الشتاء الباردة.

لقد كان وراء كلِّ ما عمله مايكل قصدٌ محدَّد. وفكَّرت هي في حياتها، وكم كانت تافهةً وتعسة قبل مايكل. حتَّى مجرَّدُ السبب الذي يدفعها لأنْ تبقى حيَّةً الآن بات معتمدًا عليه. وقد توكَّل مايكل على الأرض، وعلى المطر، وعلى دفء الشمس... وعلى إلهه.

ولا سيَّما على إلهه.

لو لم يرجع مايكل لأخذي، لكنتُ ميْتةً الآن... لكنتُ بَلِيتُ في قبرٍ ضحل لا شاهدةَ فوقه!

٢٢) المِدمَّة: أداة ذات أسنان، تُستخدم لجمع العشب وتقليب التربة.

لقد التهمها العِرفان بالجميل وغمر كيانَها اتِّضاعٌ مُوجع لكون هذا الرجل يحبُّها هي. لماذا اختارها هي وحدها من بين نساء العالم كلِّهنَّ؟ إنَّها غير مستحقَّة أبدًا. إنَّه أمرٌ لا يمكن تصوُّره.

غير أنَّني مسرورة، مسرورة جدًّا لأنَّه فعل ذلك. ولن أفعل بعدُ أيَّ شيء يجعله يندم. آه، يا الله، إنِّي أُقسِم على...

عبقت في أرجاء الكوخ المظلم رائحةٌ ذكيَّة طيِّبة، عبيرٌ عصيٌّ على التعريف. فتنشَّقت آنجل من ذلك ملءَ رئتيها، عطرًا شذيًّا وعجيبًا جدًّا. تُرى، ماذا كان ذلك؟ ومن أين جاء؟ تموَّجت في ذهنها كلماتٌ وعباراتٌ سبق أن قرأها مايكل لها في غضون الأسابيع المنصرمة، بل قبل ذلك أيضًا، كلماتٌ حسبت أنَّها لم تسمعها قطّ ولكنَّها شقَّت طريقها على نحوٍ ما إلى أعمق أعماق كيانها، إلى مكانٍ ما في داخلها لم تكن تستطيع أن تُبقيَه مُغلقًا.

ثمَّ ملأ الغرفة صوتٌ هادئٌ خفيف.

أنا هو.

جلست آنجل فجأةً وعيناها مفتوحتان على وسعهما، وتطلَّعت في أرجاء الكوخ. ولكن لم يكن هنالك أحدٌ سوى مايكل، نائمًا بقربها نومًا عميقًا. مَن تكلَّم؟ شعرت بالخوف يجتاح كيانها، وأخذت ترتعش. ثمَّ تبدَّد كلُّ شيء وتلاشى، فعاد إليها الهدوء، وشعرت بوخز غريب في بشرتها.

همست: "ليس من شيء. لا شيء". وانتظرت جوابًا، بغير أن تتحرَّك.

ولكنْ لم يأتِ جواب. ولم يخترقِ السكونَ أيُّ صوت.

ثمَّ تمدَّدت آنجل ببطء والتفَّت على مايكل مُلتصقةً به على أشدِّ ما تستطيع.

الفصل

السادس والعشرون

أعطِ الحزنَ كلامًا،
ذلكَ الغَمُّ الذي لا يتكلَّم.

(شكسبير)

حلَّ أيلول سريعًا، وغدتِ الذُرَة جاهزةً للحصاد. فساق مايكل العربة ما بين الأتلام، وتركها هناك. وأخذ هو وآنجل يقصفان الأكواز عن سوقها ويرميانها على اللَّوح الكبير في صندوق العربة فتسقط في قعره. وسرعان ما امتلأ مخزن الذُرَة.

ثمَّ جاء آل ألطمان بسرور للمساعدة في تنقية أكواز الذُرَة. فكان ذلك عذرًا جيِّدًا للاجتماع معًا والتمتُّع ببعض المَرَح. وقد غنَّوا جميعًا ورنَّموا، وحكَوا قصصًا، وتضاحكوا في أثناء العمل. وتجرَّحت يدا آنجل وتقرَّحتا من ورق الذُرة القاسي، ولكنَّها لم تكن في حياتها يومًا أسعد منها الآن. فقد تعاظم تلُّ الأكواز الذهبيَّة حواليها، وشعرت بشيء من الفخر من أجل مشاركتها في ذلك. وتوافر مقدارٌ يفوق الحاجة لبذار السنة المقبلة، كما أنَّ مؤونتهما لطحين الذُرَة تجمَّعت من جديد، في حين فاض مقدارٌ وافٍ للبيع في السوق.

وعند الانتهاء من تنقية الأكواز، قعدت إليزابث في الظلِّ ترتشف مَغليَّ الأعشاب الذي أحضرته آنجل لها. وكان بطنُها يتكوَّر على نحو حسن، وخدَّاها يشعّان بلون العافية. ولم تكن آنجل قد رأتها قطُّ تبدو بمثل تلك الصحَّة وذلك النشاط.

سألت إليزابث: "هل تريدين جسَّ ارتكاض الطفل؟" ثمَّ أمسكت بيد آنجل، ووضعتها على بطنها المنتفخ. "ها هنا. هل جَسَستِه، يا أماندا؟" فضحكت آنجل ذاهلةً، فيما قالت إليزابث: "يريد جان طفلًا آخر!"

بدا الاكتئاب على آنجل وهما تتحدثان. فربَّتت إليزابث يدها.

"سيأتي دورُكِ. أنتِ صبيَّة".

لم تجب آنجل.

وصعد مايكل وميريام التلَّة معًا للاهتمام بأمر روث، إذ كانت تترجَّح. وراقبتهما إليزابث بعبسةٍ واهية. "إنَّها تقتبس أقوال مايكل كآياتِ الإنجيل. ولطالما تمنَّيتُ أن تقع

في حبّ پول".

" پول؟" رمقتها آنجل بنظرةٍ استغرابٍ مفاجئة.

"إنّه شابٌ وقويٌّ ووسيمٌ جدًّا. وهو يشتغل باجتهاد في أرباض[٢٣] أرضه، وسوف يجعل من نفسه شيئًا مهمًّا. وسألتُ ميريام عن رأيها فيه، فقالت إنّ كلّ ما يقوله لها هو أنّ زوجته كانت جميلةً جدًّا وأنّه يفتقدها. وهو لا يكاد ينظر إلى ميريام عندما يأتي لمساعدة جان".

ثمّ تنهّدت وأضافت: "يُخيَّل إليّ أنّه ما يزال حزينًا. وقد بلغ من الحزن ما جعله لا يلاحظ فتاةً حسناء في عمرٍ مناسب له تمامًا. ثمّ إنّ ميريام..." وتوقّفت إذ أدركت ما ستقوله.

فقالت آنجل: "واقعةٌ في حبّ مايكل".

وتورّد خدّا إليزابث. "إنّها لم تقُل ذلك قطّ".

"ليس عليها أن تقول؛ أم ينبغي لها ذلك؟"

تساءلت إليزابث عن مقدار الأذى الذي أحدثته بأفكارها الهائمة ولسانها غير المنضبط. فهي أحيانًا تتكلّم بقليلٍ من الحكمة والحنكة، مثلها مثل أولادها. لماذا لم تلزم الصمت بشأن همومها؟ لقد كانت أماندا شخصًا يسهل التحدُّث إليه كثيرًا. ومن ثَمّ لم ترَ سبيلًا إلى تغير الموضوع الآن، فاعترفت: "لطالما تساءلتُ". وقد تساءلتْ خصوصًا اليوم، إذ شاهدت ميريام تمشي مبتعدةً مع مايكل ورأت كيف تعلّقتِ ابنتها بكلّ كلمة من كلماته. أكان مايكل على علم بمشاعرها؟ كيف يُعقَل ألّا يكون كذلك؟ إنّ ميريام لم تستطع قطُّ إخفاءَ أيّ شيء!

مسّت إليزابث يد آنجل. "إنّ ميريام لن تفعل أيّ شيء بشأن هذه المشاعر، حتّى لو كانت تكنُّها نحو مايكل. إنّها مفتونةٌ بكِ، وهي فتاةٌ طيّبة. ليست حمقاء، يا أماندا".

"بالطبع ليست هكذا". وراقبت آنجل مايكل يهبط التلّة برفقة صديقتها، ففكرّت بأنّهما يبدوان مُتناسبَين تمامًا. فإنّ لكليهما شعرًا أسود، وكلاهما حَسَنا الصورة. وبينهما كثيرٌ من العناصر المشتركة. وكلاهما يؤمنان بالإله عينه. وهما يحبّان الأرض. وكلاهما مُقبِلان على الحياة بحماسةٍ وفرح، ويبذلان حبّهما بلا قيدٍ ولا شرط.

وشاهدت آنجل مريمَ مطوّقة بذراعها ذراع مايكل وهي تضاحكه بمودّةٍ حميمة دون

٢٣) الأرباض: أي الساحات وما يحيط بالبيت ويتبعه.

كلفة. فانقبض قلبها بطعنةِ غيرةٍ حادَّة، إلَّا أنَّها زالت بسرعة إذ غلبها حزنٌ ساحق. وراقبت وجه ميريام عن كثب إذ اقتربا أكثر.

اغتمَّت إليزابث حين رأت كيف راقبت آنجل ابنتها. وإذ أيقنت أنَّها دمَّرت صداقة ابنتها، قالت ببؤس: "ما كان أغباني! لم يكن ينبغي أن أقول أيَّ شيء".

"أنا مسرورة لأنَّكِ تكلَّمتِ".

وأمسكت إليزابث بيدها قائلة: "أماندا، إنَّ مايكل يحبُّكِ كثيرًا جدًّا".

أجابت آنجل: "أعرف هذا"، مبتسمةً بوَهن. أيّ نفع على الإطلاق سينفعه ذلك؟

"وميريام تحبُّكِ كثيرًا أيضًا".

لاحظت آنجل مدى تضايُق إليزابث، ووضعت يدها على يد إليزابث. "أعرفُ ذلك أيضًا، يا إليزابث. لا داعيَ لأنْ تقلقي". فبعد مايكل وروثي، أحبَّت آنجل ميريام أكثر من أيِّ شخصٍ في الدنيا. ليس أنَّها لم تكن تحبُّ إليزابث. وقد كان ما شعرت به أكثر التهامًا من أنْ تُطلِع الآخرين عليه.

اغرورقت عينا إليزابث. "والآنَ قد زعزعتُ ثقتكِ بها".

"كلَّا البتَّة". والغريبُ أنَّ آنجل تيقَّنت بأنَّ طمأنتها كانت صادقة. فقد شعرت بالأمان في حبّ مايكل. ولكنْ ماذا بشأنِ ميريام؟ بل ما هو أكثر إقلاقًا: ماذا بشأنِ أحلام مايكل؟

حاولت آنجل دَفع الأفكار المزعجة بعيدًا. إنَّ مايكل يعرف ما يحصل عليه. هكذا قال هو نفسُه. وعليه، فليست الغلطة غلطتي إن كان لا ينال كلَّ ما يريده. كالأولاد مثلًا.

ونظرت آنجل إلى بطن إليزابث ثمَّ أشاحت بوجهها، متظاهرةً بأنَّ الحزن في داخلها غيرُ موجود.

ذهب مايكل في زيارة لپول، وغاب معظم النهار. وتساءلت آنجل عمَّا ذهب كي يتحدَّث به، وعمَّا قد يقوله پول له. وكانت تشتغل في الحديقة لمَّا رجع مايكل. فلم تُبدِ أيَّ حراك كي تنطلق لملاقاته وترجَّل عن حصانه مسرعًا، ثمَّ تقدَّم صوبها عامدًا. وإذ وضع يده على عمود الدَّعم، قفز من فوق الباب وتشبَّث بها. ثمَّ جذبها إلى ما بين ذراعيه وقبَّلها كثيرًا. ولمَّا انبهرت أنفاسها، أرخى تشبُّثه بها، وابتسم لها ابتسامة عريضة.

"هل يُريح هذا فكركِ؟"

فضحكت وعانقته، وقد بدّد الفَرَج والفرح قلق النهار الطويل في غيابه. كم يمكن أن يُعذِّب الفكر!

ثمّ دخلت الكوخ كي تهتمّ بأمر العشاء، فيما مضى هو ليعتني بأمر الحصان. ولمّا دخل، تبسّمت. "أكلُّ شيء على ما يُرام مع پول؟"

قال بكآبة: "لا"، ويداه مدسوستان في جيبه وهو متّكئٌ على حافة الرفّ يراقبها. "ثمّة شيءٌ يلتهمه، ولا يريد أنْ يتحدّث عنه. سنمضي بالعربة إلى المدينة غدًا ونبيع شيئًا من محصولنا".

وغاص قلبها إذ فكّرت في غيابه نهارًا آخر، غير أنّها لم تقُل شيئًا.

وقال لها: "سأعنى بأمر الماشية في الصباح، ويمكنكِ أن تقضي النهار عند ألْطمان. إنّ إليزابث تعدُّ مُربّى التُفّاح".

التفتت آنجل لتنظر إليه. "هل رأيت ميريام؟"

"نعم". وكان تعبيره غامضًا. ثمّ قال كمن يخاطب نفسه: "يا لها من لخبطة!"

ولم تسأله أيَّ شيء آخر.

جاء پول باكرًا. وكان مايكل قد فرغ من تناول قهوته تقريبًا. فوقف وألقى يدًا ثابتة على كتف پول، مُعيدًا إيّاه إلى المقعد. "ابقَ هنا. اشرب شيئًا من القهوة ريثما أُعنى بالماشية. العربة مُحمّلة فعلًا. وسأناديك حين أغدو مستعدًّا لشدّها. سنعرّج على أرضك لأخذ أقفاصك، ثمّ نمضي في سبيلنا".

كان وجه پول جامدًا، وومضت حملقته ببرودة إلى آنجل حالما خرج مايكل من الباب. "أكانت فكرتكِ أن نقضي هذا الوقت منفرِدين؟"

"لا. أعتقد أنّ مايكل يأمل أن نُسوّي خلافاتنا".

شرب پول قهوته صامتًا وكتفاه متصلّبتان.

ونظرت آنجل إليه سائلةً: "هل أكلت شيئًا هذا الصباح؟ ها هنا بعض العصيدة..."

فقال بجفاف وجفاء: "لا، شكرًا". ثمّ نظر إليها نِظرةَ سُخرية. "حسبتُ أنّكِ ستكونين الآن قد رحلتِ من زمان".

وقد بدا واضحًا أنّ تلك كانت إحدى أمانيه. "أتُريد قليلًا من القهوة بعد؟"

"يا للتهذيب! يا لَحُسن الأدب! من شأن أيِّ امرئ أن يحسب أنّكِ تربّيتِ لتكوني زوجة فلّاح".

فقالت بهدوء: "أنا زوجة فلّاح، يا پول".

"لا، بل أنتِ ممثِّلةٌ بارعة. إنَّكِ تؤدِّين جميع الحركات جيِّدًا. ولكنَّكِ في الداخل لستِ قريبةً أبدًا إلى ما ينبغي أن تكونه زوجة الفلّاح". وابيضَّت يده حول مسكة الكوز. "ألا تعتقدين أنَّ مايكل يلمس الفرق كلَّما تحدَّث إلى ميريام ألْطمان؟"

لم تُبدِ أيَّ إشارة إلى أنَّ كلماته جرحتها في الصميم. "إنَّه يحبُّني".

قال: "إنَّه يحبُّكِ حقًّا"، ونظر إلى جسدها صعودًا ونزولًا بطريقةٍ معبِّرة. "أنت تعرفين كيف يكون ذلك".

كيف يمكن أن يحبَّ مايكل هذا الرجل كأخٍ له؟ حاولت أن تجد فيه شيئًا، أثرًا ما من آثار اللطف والإنسانيَّة، ولكنَّ كلَّ ما وجدته كان كرهه البارد. "هل تنوي، يا پول، أن تظلَّ تكرهني دائمًا من أجلِ ما فعلتَ؟ ألن تنسى البتَّة؟"

دفع پول الكوز بعيدًا وجرَّ الكرسيَّ إلى الوراء. كان وجهه أحمر، وعيناه تتوهجَّان. "أتلومينني أنا بسبب ما جرى؟ هل جررتُكِ بعيدًا من تلك العربة؟ هلِ اغْتَصبتُكِ؟ إنَّك تودِّين أن تعتبري الغلطة غلطتي؛ أليس كذلك؟" ثمَّ خرج من الباب خارجًا.

لم تتحرَّك آنجل من مكان وقوفها. كان ينبغي لها أن تلوذ بالصمت. لقد علمت أنْ لا دفاعَ لديها.

عرَّج مايكل هُنيهةً كي يقبِّلها مودِّعًا. "سأمرُّ بآل ألْطمان عندما أعود. ظلِّي هناك، وسيمكننا أن نرجع إلى البيت معًا بالعربة".

ركضت روثي لملاقاة آنجل وهي مُقبِلة عبر المرجة. وما إنِ التقطتها آنجل وأقعدتها على وَرِكها، حتَّى قالت: "قال پول إنَّه يمكننا أن نقطف كلَّ ما لديه من التفّاح. ستصنع ماما مربَّى تُفّاح. أنا أُحِبُّ مربَّى التفّاح. ألا تحبِّينه أنتِ؟"

كانت ميريام واقفةً في الباب، وقد بَدَت جميلةً في فستان أزرق من قماش الجنهام[٢٤] ووزرةٍ بيضاء، وكانت تبتسم. وإذ عانقت آنجل، قالت لها: "علينا أن نقوم بعملٍ مطلوبٍ منّا".

ثمَّ أخذتا عربة يد وسارتا مسافة الميل إلى شجرة التُفّاح. وبينما هما تقطفان الثمار، أشارت ميريام إلى جميع العمل الذي أنجزه پول في أرضه. "لديه محصول جيِّد من

٢٤) الجنهام: نسيج قطني مُخطَّط.

اليقطين سيطلع قريبًا، وقد أصاب محصولًا جيِّدًا من الذُرة، ساعدناه في تنقِيَته منذ بضعة أيَّام".

ولمَّا عادتا إلى كوخ آل ألطمان، أمضتا قبل ظُهر النهار وهما تقشِّران التفّاح وتُقوِّرانه وتُقطِّعانه إعدادًا لطبخه. وفيما كانت إليزابث تُحرِّك القِدر الكبيرة، أضافتِ التوابل، فعبقت في الكوخ الرائحة الطيِّبة. وبينما القِدر تغلي ببطء، أعدَّت إليزابث سلَّة نُزهة، وأطلقتهما. ولمَّا سألتها ميريام إن كانت ستكون بخير، قالت: "الصبيَّان مع أبيكِ، وسيخلو لي الكوخ حتَّى آخذ قيلولة قصيرة".

ذهبت روث ولِيَه مع ميريام وآنجل. وخوَّضت البنتان الصُّغرِيان في مياه الجدول الباردة، فيما قعدت آنجل على الضفَّة تعبث بالرَّمل بأصابع قدميها. أمَّا ميريام فاستلقت على ظهرها مُفرِدةً ذراعَيها، تستمتع بدفء الشمس. وقالت: "أحيانًا أحنُّ إلى الديار". ثمَّ تحدَّثت عن المزرعة والجيران الذين كانوا لهم والاجتماعات التي كانوا يقيمونها. وتحدَّثت عن الرحلات إلى الغرب. وتذكَّرت حادثة طريفة أُخرى، فضحكت آنجل معها. فإنَّ ميريام كانت تجعل سَفرة ألفي ميل مُجهِدة تبدو كأنَّها رحلة استجمام.

ثمَّ انقلبت على بطنها ورفعت رأسها قائلةً لآنجل: "خبِّريني عن السفينة. هل كان على متنها نساءٌ كثيرات؟"

"اثنتان أُخريان غيري. لم تكن حُجرتي أكبر من غرفة سجن صغيرة، وكانت باردة جدًّا. وقد لبستُ أكبر قدْر من الثياب عندي، فلم أدفأ. وكان الدَّوران حول القَرن أشبه شيء بالجحيم. وقد خُيِّل إليَّ أنَّني سأموت من دُوار البحر".

"ماذا فعلتِ عندما وصلتِ إلى سان فرنسيسكو؟"

"تجمَّدتُ وكدتُ أموت جوعًا". ثمَّ ألصقت ركبتيها إحداهما بالأُخرى ونظرت إلى البنتين الصغيرتين في الجدول. "بعدئذٍ استأنفتُ شُغلي".

وتنهَّدت. "ميريام، ليس عندي قصص مُضحِكة أحكيها. وما عندي لا يليق بأن تسمعيه".

جلست ميريام القرفصاء وقالت: "لستُ طفلة، كما تعلمين. يمكنكِ أن تخبريني شيئًا عمّا كانت عليه الحال".

"قذارة!"

"إذًا، لماذا لم تهربي؟"

أكان في هذا السؤال اتِّهامٌ واهٍ؟ هل ينبغي أن تُخبِر ميريام عن حالها وهي في

الثامنة من العمر، محبوسة في غُرفة، علمًا بأنَّ الشخصين الوحيدين اللذين كان لديهما مفتاح هما امرأة كانت تأتي إليها بالطعام وتُغيِّر نونيَّتها المهجعيَّة، ودُوك؟ وهل ينبغي أن تخبرها بالعاقبة المأساوية التي حصلت بعد هروبها مع جوني؟ فقالت ببساطة: "حاولتُ الهرب، يا ميريام"، ولم تزِد كلمةً واحدة.

"ولكنَّ الرجال أرادوكِ. الرجال وقعوا في غرامك. أودُّ مرَّةً واحدة فقط لو أسير في شارع فتلتفت إليَّ الرؤوس وأنا مارَّة".

"لا، لَن تودِّي ذلك!"

فدمعت عينا ميريام: "مرَّةً واحدة فحسب، أودُّ أن يرغب فيَّ رجُل".

"أتعتقدين هذا حقًّا؟ ماذا لو كان غريبًا، وقد دفع إلى أحدهم كي يحوزكِ، وكان عليكِ أن تفعلي كلَّ ما أراده، مهما كان شائنًا؟ ماذا لو كان قبيح المنظر؟ ماذا لو كان لم يستحمَّ منذ شهر؟ ماذا لو أراد أن يُعامِلكِ بالعَسف والخَسف؟ أكُنتِ تظنِّين أنَّ ذلك رومنسيّ؟" ولم تكن قد تقصَّدت أن تتكلَّم بهذه الفظاظة، فراحت ترتجف.

علا وجهَ ميريام شحوبٌ شديد. "أكانت حالُكِ هكذا؟"

فقالت آنجل: "بل أردأ. يا ليتني لم أعرف أيَّ رجُلٍ آخر قبل مايكل!"

فأمسكت ميريام بيدها، ولم تطرح مزيدًا من الأسئلة.

وصل مايكل عند الغسَق، وكانت ميريام أوَّل مَن خرج من الباب لملاقاته. "حسبتُ أنَّ پول سيعود معك".

ترجَّل مايكل مسرعًا. "لقد قرَّر أن يبقى في المدينة يومًا أو يومين".

قالت ميريام: "كشأن الرجال تمامًا". إلَّا أنَّ مَرَحها كان قد فارقها.

ألحَّت إليزابث أن يبقى مايكل وآنجل للعشاء. وقعدت ميريام إلى جانب مايكل الآخر، وقلَّما تفوَّهت بكلمة في أثناء تناول الطعام. حتَّى إنَّها لم تكد تمسُّ طعامها. وشاهدت آنجل مايكل يضع يده على يد ميريام هُنيهةً ويهمس لها بشيء. فاغرورقت عينا ميريام، واستأذنت بسرعة مُغادِرةً المائدة.

وسأل جان متحيِّرًا: "تُرى، ماذا حلَّ بها مؤخَّرًا؟"

"دعها وشأنَها، يا جان". وأجالت إليزابث نظرها بين آنجل ومايكل، ثمَّ مرَّرت زبديَّةً من الهَريس.

كان مايكل مُطرِقًا في أثناء العودة بالعربة إلى البيت. وقد تناول يد آنجل وأمسك بها بشدَّة، وقال: "سؤال ما كان ينبغي أن أطرحه الآن لو كان لي قليلٌ من الحكمة:

ماذا قال لكِ پول هذا الصباح؟"
قالت: "عبَّر عن دهشته من كوني ما زلتُ في هذه الديار"، مبتسمةً كي تجعله يحسب أنَّ ذلك لم يؤذِها.

إلّا أنَّ مايكل لم ينخدع. "لقد جلبتُ لكِ غرضًا من المدينة". ولمَّا بلغا البيت، أنزل شيئًا من صندوق العربة وناولها إيَّاه. فلم تدرِ ما كان ذلك أوَّلًا، إذ بدا مجرَّد عيدان شائكة ملفوفة جزئيًا بقطعة خيش. "شتلات ورد. لقد حلف الرجل إنَّها حمراء. ولكنَّنا سنتحقَّق من ذلك بأنفسنا عند مجيء الربيع. سأغرسُها لكِ باكرًا في الصباح. إنَّما قولي لي أين تريدينها".

تذكَّرت آنجِل رائحة الورد عابقةً في بهوٍ تُنيره الشمس، فقالت: "واحدة تحت النافذة تمامًا، وأُخرى قرب البابِ الأماميّ".

وإذ ومضت في ذهنها صورةُ أُمِّها في قميص نوم، راكعةً في الحديقة تحت ضوء القمر، أزاحتها بعيدًا بسرعة.

أقبل عيد الشكر سريعًا، وكان بطن إليزابث قد كبر كثيرًا، حتَّى خُيِّل إلى آنجِل أنَّها قد تنفجر. وتولَّت مع ميريام الإعداد لاحتفال العيد، فيما إليزابث تراقب وتُوجِّه. ولمَّا حلَّ العيد، كانت السُّفرة مُثقلةً بطيور التَّدرُّج المحشوَّة المشويَّة، والجزر والبازلّا المطهوَّين بالزبدة، والبطاطا والجوز المُغطَّى بالسكَّر. وكان جان قدِ اشترى بقرة، فاستقرَّت أوانٍ ملأى حليبًا على طَرَفي الطاولة. ولم تكنِ آنجِل قد شربت كأس حليب منذ أشهر، فاجتذبتها هذه المادَّةِ المُترفة أكثر من جميع الأصناف التي ساعدت في طهوها.

قالت ميريام، وفي صوتها شيءٌ من تغيير المقام: "لقد مضى پول إلى المدينة للاحتفال بالعيد. وقبل بضعة أيَّام قال إنَّه يفكِّر في العودة إلى الأنهار عند مجيء الربيع".

فقالت لِيَه: "هنالك نهرٌ بقرب بيته تمامًا".

ورمق جاكوب أُخته بنظرةِ ازدراء، قائلًا: "ولكنْ ليس فيه ذهب، يا ذكيَّة!"

فانتهرته إليزابث قائلةً: "هذا يكفي، يا جاكوب!" فيما حطَّت على الطاولة فطيرة راوند. ووضعت ميريام يقطينًا عند الطرف الآخر. حتَّى إذا فرغ الجميع، تفرَّق الأولاد بسرعة قبل أن يُكلَّفوا المساعدة في شؤون المطبخ. وخرج جان ومايكل خارجًا كي يُتاح لجان أن يدخِّن غليونه. فإنَّ رائحة التبغ كانت تُصيب إليزابث بالغثيان في حالتها.

ومضت ميريام إلى البئر لإحضار الماء.

تهالكت إليزابث مرهقةً على كُرسيّ، وألقت يدها على بطنها الناتئ. "أُقسم إنَّ هذا الطفل بدأ يحفر أوَّل حرفين من اسمه الثنائيِّ على الجدران".

وسألت آنجل: "كم يدوم ذلك؟" جارفةً بقايا الطعام من الصحون، ثمَّ واضعةً إيَّاها في طست الغَسل على الطاولة.

فابتسمت إليزابث قائلةً: "طويلًا جدًّا. إنَّني أحتاج إلى مساعدة جان وميريام لإنهاضي من السرير صباحًا".

صبَّت آنجل إبريقًا من الماء الساخن على الصحون الوسخة. وإذ التفتت إلى إليزابث، رأت تلك المسكينة مُنهَكةً ونصف نائمة. فجفَّفت يديها، وتوجَّهت إليها، وأمسكت بيدها. "إليزابث، ينبغي أن تتمدَّدي وتستريحي". ثمَّ عاونتها، وغطَّتها بلحافٍ بعدما استلقت على السرير في الغرفة الثانية. وفي الحال تقريبًا نامت.

وقفت آنجل بقرب السرير طويلًا. كانت إليزابث متكوِّمة على جنبها وركبتاها مطويَّتان، ويدها مستقرَّة على طفلها غير المولود لحمايته من الأذى. عناقٌ حانٍ. وألقت آنجل نظرة على بطنها المسطَّح، ومسَّدته بيدها. فشعرت بحرقة في عينيها، وعضَّت شفتها ثمَّ أسبلت يديها إلى جنبيها، والتفتت فرأت ميريام واقفةً في الباب.

ابتسمت ميريام ابتسامةً كئيبة. "طالما تساءلتُ عمَّا يكون عليه الأمر. إنَّه سببُ المرأة للوجود؛ أليس كذلك؟ الامتياز الذي وهبنا إيَّاه الله: أن نأتي إلى العالم بحياة جديدة ونتعهَّدها". ثمَّ أضافت مبتسمةً لآنجل: "أحيانًا لا أكاد أُطيق الاصطبار".

لمحت آنجل الدموع التي حاولت ميريام إخفاءها. وبعد، أيُّ خيرٍ في الامتياز الإلهيِّ لفتاةٍ عذراء؟

أو لامرأةٍ عاقر!

الفصل

السابع والعشرون

في قلب الإنسان أفكار كثيرة،
لكن مشورة الربّ هي تثبت.

(سِفر الأمثال ١٩: ٢١)

قبل أن يذهب مايكل إلى الصّيد، أتى إلى الكوخ ببضعة أكياس ثقيلة من أكواز الذُرَة اليابسة كي تنزع آنجل الحَبَّ منها. فقعدت قبالة النار المفرقعة وأخذت تفرك الأكواز معًا حتّى تسقط بضعة صفوف من الحَبّ فيسهل نزع الباقي. وسقط بعضٌ في حضنها. فألقت قَوْلحة[٢٥] الكوز الفارغة جانبًا، والتقطت حبّة ذُرَة. ثمّ أدارت شكلها القاسيَ بين أصابعها، وهي تبتسم.

ينبغي أن تموتي كي تولدي من جديد.

رفعت رأسها مُصغيةً بانتباه، وقد أخذ قلبها يخبط خبطًا شديدًا. لكنّ الأصوات الوحيدة حوالَيها كانت جَلجلة أجراس الهواء إذ تُحرِّكها الريح. وألقت نظرةً على حبّة الذُرَة اليابسة المنكمِشة قليلًا في كفِّها. لقد كانت مثل الحبّات الكثيرة التي سبق أن زرعَتها في الربيع الماضي والتي منها طلعت غابة الخُضرة. ثمّ رمتِ الحبّة في السلّة مع الأُخريات ونفَّضت الباقي عن تنوُّرتها.

لعلّها كانت مجنونةً قليلًا في نهاية المطاف. فالأصوات القديمة نادرًا ما عادت تأتي. إلّا أنَّ هذا الصوت الجديد سُمع الآن هادئًا رائقًا، غيرَ مُعطٍ أيَّ معنىً على الإطلاق. من الموت تطلع الحياة؟ مستحيل! ولكنْ تحتُ عند قدميها كانت سلّة حَبّ الذُرَة. فعبست قليلًا، ثمّ انحنت ومرَّرت أصابعها فيها، وقبضت حفنتين منها. إذًا، ماذا يعني ذلك؟

قالت ميريام لاهثةً وهي تندفع داخل الكوخ: "أماندا! حان وقتُ ماما".

فطرحت آنجل شالها على كتفيها وانطلقت خارجةً من الباب. إلّا أنَّ ميريام أوقفتها ضاحكةً. "إنّكِ لا تريدين أن ترجعي إلى بيتٍ محروقٍ مُنهار؛ أليس كذلك؟"

٢٥) القولحة: الجزء الخشبي القاسي من كوز الذرة.

فأمسكت آنجل بكيسٍ من أكواز الذُّرَة اليابسة، وجرَّته بعيدًا عن الموقد. ورفعت ميريام بسرعة حَبَّ الذُّرَة إلى الطاولة، وطوَّحت الكيس الآخر على مقربة من السرير. ثمَّ قطعتا معظم الطريق ركضًا. وقالت ميريام: "أُوه! لم يخطر في بالي أن أُخبِر مايكل..."

فقالت آنجل: "سيعرف"، ماشيةً بسرعة كي تلتقط أنفاسَها، قبل أن ترفع أذيال تنُّورتها لتعدو من جديد.

اندفعت آنجل لاهثةً إلى داخل كوخ ألْطمان، وميريام في أعقابها. كانت إليزابث قاعدةً قبالة النار بهدوء، تُقطِّب قميصًا. ورفع الأولاد أنظارهم عن وظائفهم. فقد كانوا قاعدين بهدوء حول الطاولة يُنجِزون دروسهم.

وكان جان وحده مضطربًا، فقفز عن كرسيِّه كطلقةِ نار، قائلًا: "حمدًا لله!" متناولًا شال آنجل بسرعة وراميًا إيّاه باتِّجاه المشجب المثبَّت في الجدار. ثمَّ قال بصوتٍ خفيض: "لقد تقاربت نوبات طَلقِها. ولكنَّني لم أستطع أن أجعلها تمضي وتستلقي. فهي تقول إنَّ لديها ثيابًا تُصلِحُها!"

قالت إليزابث: "كدتُ أنتهي، يا جان". وألقت من يدها قميصًا، ثمَّ التقطت آخر. وقد كانت ساكنةً جدًّا، ووجهُها مشدودٌ في تركيزٍ صامت. فحدَّقت آنجل إليها، مترقِّبةً علامات مُعاناة، ومتوقِّعةً صراخًا يقطع نياط القلب. إلّا أنَّ إليزابث أغمضت عينيها طويلًا ثمَّ أطلقت تنهُّدةً رقيقة، وعادت تشتغل. ولم يكد الأولاد يُلاحِظون شيئًا، حتَّى تنهَّد أبوهم قائلًا: "ليزي، امضي إلى السرير!"

"عندما أنتهي، يا جان".

فجأر جان فجأةً: " الآن!" حتَّى أجفلت آنجل. ولم تكن قد سمعت جان ألْطمان قطُّ يتكلَّم بتلك النبرة إلى أيِّ فردٍ من عائلته.

ورفعت إليزابث رأسها بوقار، قائلةً: " اتركني في حالي، يا جان. اذهب أطعِمِ الأحصنة، أو شقِّق حطبًا. امضِ ونظِّف إسطبلًا. اذهبِ اصْطَد شيئًا للغداء. إنَّما لا تزعجني الآن". قالت ذلك كلَّه بصوتٍ هادئ للغاية حتَّى كادت آنجل تضحك. فرفع جان يديه وخرج من الباب. بسرعة، مُبَربِرًا عن النساء. "أغلِق الباب بالمزلاج، يا أندرو".

"ماما؟"

فقالت إليزابث بابتسامةٍ ظريفة: "سيرجع في الحال إن لم تُغلِق الباب". وضحك الأولاد ثمَّ عادوا يُكمِلون ما يَعملون. وقد كانت ميريام متوتِّرةً وقلقةً على نحوٍ واضح. جاءت بِضعُ نوبات طَلق أُخرى، وظلَّت إليزابث تُقطِّب مسعورةً. ثمَّ عقدت الخيْط

وقَصَّته. وجاءت انقباضةٌ أُخرى فيما كانت تطوي القميص، وازدادت ميريام شحوبًا. ونظرت مذعورةً إلى آنجل، إلَّا أنَّ آنجل تعمَّدت الانتظار نزولًا عند رغبة إليزابث. فإن شاءت أن تبقى جالسةً هناك وتضع مولودها على الكرسيّ، فذلك شأنها الخاصّ.

ولمَّا طالت مدَّة الانقباض، انحنت آنجل ووضعت يدها بثبات على ركبة إليزابث، سائلةً: "بِمَ يمكنني أن أُساعدكِ؟" قالت هذا بإصرارٍ زائدٍ عمَّا شعرت به.

لم تقل إليزابث شيئًا، وقد ابيضَّت يدُها المُمسِكة بذراع الكرسيّ. أخيرًا، أطلقت تنهُّدةً قويَّة وتشبَّثت بيد آنجل، قائلةً بلطف: "ساعديني في الذهاب إلى غرفة النوم. ميريام، اهتمِّي بالأولاد وبأبيكِ".

"نعم، ماما".

"سنحتاج إلى كثيرٍ من الماء الساخن. يمكن لجاكوب أن يُحضِره. وإلى خِرَقٍ أيضًا. لِيَه، إنَّها في الصندوق. وسنحتاج إلى كُرَة خيطان القِنَّب في الكوخ. روثي، أحضِريها لي. هلا تُحضِرينها، يا حبيبتي!"

"نعم، ماما". وتفرَّق الأولاد ليقوم كلٌّ منهم بدوره.

أغلقت آنجل الباب خلفها بهدوء. وجلست إليزابث بحذر على حافة السرير، وأخذت تفكُّ أزرار فستانها. وقد احتاجت إلى مساعدة في خلعه، وكان تحته فقط قميص تحتانيٌّ رقيق.

قالت: "الطفل آتٍ الآن. لقد اندفق مائي عندما دخلتُ المُستراح هذا الصباح". وضحكت ضحكةً خفيفة. "خشيتُ لحظةً أن يسقط الطفل في ذلك الثقب رأسًا". وأمسكت بيد آنجل. "لا يبدُ عليك القلقُ الشديد. فكلُّ شيء على ما يُرام". ثمَّ سحبت نَفَسها بحدَّة، واشتدَّت يدها، وتندَّى جبينها بالعرق. وأخيرًا قالت: "لقد كانت هذه نوبةَ طَلق جيِّدة".

ثمَّ دخلت ميريام غرفة النوم حاملةً إبريق ماء وطستًا مليئًا بالخِرَق. "بابا آتٍ بمزيد من الماء، دَلْوين غير دلوَي جاكوب. ولقد وضعْنا القِدر الكبيرة على النار".

وطرفت عينا إليزابث. "اعتقد أنَّ أباكِ يعتبر أنَّ حمّامًا ساخنًا جيِّدًا يحلُّ كل شيء". ثمَّ قبَّلت خدَّ ميريام. "شكرًا لك، يا حبيبتي. أنا أتَّكل عليكِ لتعتني بالشؤون. إنَّ لِيَه ما برحت تَلقى صعوبة في الحساب، وجاكوب يحتاج إلى إتقان القراءة".

ثمَّ جاءتِ النوبات أسرع، ودامت وقتًا أطول. ولم تُصدِر إليزابث أيَّ صوت، إلَّا أنَّ آنجل لاحظت الإجهاد الذي كانت تُعانيه. فقد كانت شاحبةً وعرقُها يتصبَّب غزيرًا. فعصرت آنجل خرقةً باردة، وغسلت لها وجهها.

ظهرت ميريام في الداخل بعد ساعة، قائلةً: "مايكل هنا".

فأطلقت آنجل زفرة ارتياح، وابتسمت إليزابث قائلةً: "إنَّكِ تُبلين حسنًا، يا أماندا". وضحكت آنجل، متورِّدة الخدَّين.

لم يكن لدى إليزابث كلامٌ كثير طيلة الساعة التالية، واحترمت آنجل سكوتها. وقد ربَّتتها برفق وأمسكت بيدها عند مجيء الطَّلق. حتَّى إذا استرخت إليزابث، عصرت آنجل الخرقة ورطَّبت جبينها.

وفي أعقاب نوبة طلق تلت سابقتها حالًا، قالت إليزابث: "لن يطول الوقت بعد". وأنَّت هذه المرَّة، متشبِّثة بمقدَّم السرير بيدها المُبيضَّة. "أُوه، لم أحسب أنَّ الأمر سيستغرق هذه المدَّة".

وقالت آنجل: "قولي لي ما ينبغي أن أعمل!" إلَّا أنَّ نَفَس إليزابث لم يُسعِفها في قول أيِّ شيء. فقد لهثت، إلَّا أنَّها شهقت نَفَسها بحدَّة من جديد، ورفعت ساقَيها. وأنَّت أنينًا أعلى وقدِ الْتوت قسمات وجهها وغشيها الاحمرار المتوهِّج.

لم تتريَّث آنجل كي تفكِّر في الاحتشام، ورفعت اللحاف إلى الوراء.

"أوه، إليزابث! إنَّه آتٍ، يا عزيزتي! أستطيع رؤية رأسه".

وأسندت آنجل الطفل فيما دفعت إليزابث دفعة أخيرة. ثمَّ جثت آنجل على ركبتيها، والطفل المولود حديثًا يزعق بين ذراعيها.

"صبيٌّ، يا إليزابث، صبيٌّ! وهو كاملُ الخِلقة. عشر أصابع في يديه وعشرٌ في رجليه..." ثمَّ نهضت وهي ترتعش ابتهاجًا وتعجُّبًا.

بكت إليزابث فرحًا إذ وضعت آنجل ابنها على صدرها. وبعد بضع لحظات، ومع آخر الانقباضات، استرخت كليًّا وهي مُنهَكة. ثمَّ قالت بوَهن مبتسمةً. "اربطي حبل السُرَّة بخيط القنَّب قبل أن تقطعيه. يبدو أنَّ للطفل رئتين قويَّتين".

"نعم، إنَّهما قويَّتان حقًّا". وغسَّلت آنجل الطفل باعتناء قبل أن تلفَّه بحِرام ناعم وتُعطيه لأمِّه. وقدِ ارتضع حالًا، فتبسَّمت إليزابث راضيةً. ثمَّ سكبت آنجل ماء ساخنًا في طست وغسلتِ إليزابث بانتباه، باذلةً كلَّ جهدٍ حتَّى لا تؤلمها، غير أنَّها آلمتها، مع أنَّ إليزابث لم تتذمَّر. وانحنت آنجل فقبَّلت خدَّ إليزابث، هامسةً: "شكرًا لكِ!" وكانت تلك قد نامت فعلًا.

خرجت آنجل بهدوء. وكان الجميع واقفين في الغرفة الأُخرى ينتظرون. "رُزقت ابنًا جديدًا جميلًا، يا جان. تهانيَّ!"

"حمدًا للربِّ!" وهوى على كرسيّه. "ماذا قُلتِ إنَّكِ سمَّيتِه؟"

ضحكت آنجل، وقد تلاشى كلُّ توتُّرها المكبوت: "حسنًا، لا أعرف، يا جان. أعتقد أنَّه يُفترَض أن تُسمِّيه أنت!"

فضحك الجميع، بمن فيهم جان، وقد احمرّ وجهه كثيرًا. ثمَّ هزَّ رأسه ودخل الغرفة. واصطفَّت ميريام والأولاد وراءه داخلين بهدوء.

ابتسم مايكل لآنجل بطريقةٍ جعلت نبضات قلبها تتسارع، وقال: "عيناك تبرقان!"

وحالت عاطفتها الشديدة دون تمكُّنها من الكلام. لقد كان منظره محبَّبًا، مُفعَمًا بكثير من الأمل الواعد. وأحبَّته حبًّا جارفًا حتَّى شعرت بأنَّ حبَّه يلتهمها. وإذ أقبل نحوها، رفعت وجهها ليتسنَّى له أن يلامس فمها بفمه. وقالت: "أُوه، مايكل!" مطوِّقةً إيّاه بذراعيها.

فقال: "يومًا ما..." ثمَّ جمد حيال تسرُّعه الفظّ، إلَّا أنَّه ضمَّها بشدَّةٍ أكثر.

عرفت آنجل في أيِّ شيء كان يفكِّر. لن يُرزَق ولدًا البتَّة. وانكفأ عنها قليلًا إلَّا أنَّها لم تستطع أن ترفع نظرها إليه، ولا حتَّى حين أمسك وجهها براحتَيه قائلًا برقَّة: "أماندا، أنا آسِف. لم أقصِد أن..."

"لا تعتذر، يا مايكل".

لماذا لم يُفكِّر أوَّلًا قبل أن يتفوَّه بأيِّ كلام؟ "سأقول لهم إنَّنا ذاهبان إلى البيت؟" وتركها وحدها قليلًا ريثما يهنِّئ آل ألْطمان. وقد كان الطفل جميلًا حقًّا.

أمسكت إليزابث بيد مايكل. "لقد كانت أماندا رائعة. قُل لها إنَّه يُشرِّفني أن أُعنى بها عندما يحين دورها".

فقال بفتور: "سأقول لها"، عالمًا أنَّه لا يستطيع ذلك.

ثمَّ سارا إلى البيت صامتين، حيث راقبها تُمهِّد الموقد.

"قالت إليزابث إنَّكِ كنتِ رائعة".

"لقد كانت هي عظيمة. كان في وسعها أن تدبِّر أمرها بغير أن يساعدها أحد". ثمَّ نظرت إليه بنظرة تشوبها ابتسامةٌ حزينة. "ذلك هو كلُّ ما وُجِدت المرأة لأجله؛ أليس كذلك؟ لقد دعت ميريام الإنجاب امتيازًا من عند الله". وأشاحت بوجهها. "إنَّ زرْع جان أُلقي في تربة خصبة".

قال: "أماندا!" واضعًا يده تحت ذراعها لإيقافها.

"لا تقُل أيَّ شيء، يا مايكل، رجاءً..."

إلَّا أنَّها لم تصدَّه حين شدَّها نحو صدره، وتشبَّث بها بإحكام، ويدُه مبسوطةٌ على قفا

رأسها. أراد أن ينزع غمَّها ووجعها، ولم يدرِ كيف. "عيد الميلاد بعد بضعة أيَّام فقط".

"لم أتذكَّر قبل الليلة في منزل آل ألْطمان". فإنَّ إليزابث وميريام كانتا قد زيّنتا كوخهما بأقواس الصنوبر والأشرطة الحمراء. وقد صنعت لِيَه وروثي منظرًا ميلاديًّا بدُميً من عرانيس الذُرَة. ولم تكن آنجل قد فكَّرت في صنع أيِّ شيء. ولطالما قال دُوك إنَّ الميلاد يومٌ كباقي الأيَّام وإنَّ المرء ينام فيه أيضًا ثماني ساعات.

كانت ماما تُعنى بالميلاد عنايةً خاصَّة في تلك الأيَّام القديمة. فرُغم كونهما تعيشان على أرصفة الميناء، بقليل من الطعام وبلا مالٍ، كانت ماما تعامل الميلاد بوصفه يومًا مقدَّسًا. ولم يكن يُسمَح بدخول أيِّ رجل إلى الكوخ يوم الميلاد. وقد اعتادت ماما أن تخبرها كيف كان الميلاد لمَّا كانت بنتًا صغيرة. ولم تكن آنجل تُريد أن تتحدَّث ماما عن ذلك لأنَّه كان يدفعها إلى البكاء دائمًا.

قالت آنجل: "الميلاد"، وانكفأت عن مايكل.

فرأى كربها وأحسَّ أنَّه كان السبب. "أماندا..."

رفعت نظرها إليه، غير قادرةٍ على رؤية ملامح وجهه في الظلام. "ماذا أُعطيك في الميلاد، يا مايكل؟ ماذا أُعطيك والشيءُ الوحيد الذي تريده هو ولد؟" وأخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة إذ جاهدت لمقاومة العاطفة الجائشة في داخلها. "أتمنَّى... أتمنَّى..."

فقال بصوتٍ متهدِّج: "حذارِ".

وكوَّرت قبضتها. "يا ليت دُوك لم يدمِّرني! يا ليتَ أيَّ شخصٍ آخر لم يلمسني قطّ! يا ليتني كنتُ مثل ميريام!"

"إنَّني أحبُّكِ أنتِ". ولمَّا التفتت بعيدًا، نترها نحوه من جديد، وشدَّها إلى صدره، قائلًا: "أحبُّكِ أنتِ!" ثمَّ قبَّلها فأحسَّ كيف ذابت فيه مُتشبِّثةً به تشبُّث اليائس.

"مايكل، أتمنَّى لو كنتُ كاملة. أتمنَّى لو كنتُ سليمةً صحيحة لأجلك".

إلهي، لماذا؟ عند جان وإليزابث ستَّة أولاد. ألَن أُنجِبَ ولو واحدًا من زوجتي؟ لماذا سمحتَ بأن تجري الأمور هذا المجرى؟

فقال مرَّةً بعد مرَّة: "لا يهمّ، لا يهمّ!"

ولكنَّ كليهما كانا يعرفان أنَّه يهمّ.

الفصل

الثامن والعشرون

لا شيئًا بتحزُّب أو بعُجب،
بل بتواضع، حاسبين بعضكم البعض
أفضل من أنفسهم.

(رسالة فيلبّي ٢: ٣)

حضر پول احتفال آل ألْطمان بعيد الميلاد. وغاص قلب آنجل عند رؤيته، متسائلةً أيّ سهام سيُصوِّب إليها هذه المرّة. وبقيت بعيدةً عنه، عازمةً على ألّا تدع شيئًا يُفسد هذا الميلاد. لم يسبق لها قطُّ أن شهدت عيد ميلاد حقيقيًا، وقد أرادت هذه العائلة أن يشملها العيد. فلو دعاها پول عاهرة وجهًا لوجه، لتقبّلت الأمر ولم تقل شيئًا. ثمّ إنّها علمت أنّه لن يفعل ذلك علنًا بحيث يسمعه الآخرون.

ولَشدَّ ما أدهشها أنّه تركها في حالها. وقد بدا أنّه عازمٌ هو أيضًا على البقاء بعيدًا عنها. وأحضر إلى الأولاد هدايا، أكياسًا بنّيّة صغيرة اشتراها من المخزن العامّ الجديد. فابتهجوا كلُّهم، ما عدا ميريام، إذ بدت مغتاظةً حين ناولها كيسها، وقالت بلهجةٍ لاذعة: "شكرًا أيّها العمّ پول"، ثمّ قبّلت خدَّه. وانتفضت عضلة في حنكه إذ أشاح بوجهه.

انتظرت آنجل إلى ما بعد العشاء الضخم الذي أعدَّته هي وميريام حتّى توزّع هداياها وهدايا مايكل. كانت قد اشتغلت يومين في إعداد دُميَتي الخِرَق لروثي ولِيَه، فحبست أنفاسها وهما تنزعان لفافتَيهما. ثمّ أصدرتا زعقاتٍ أضحكتها. كذلك فرح الولدان كثيرًا بالمقلاعين اللذين صنعهما مايكل لهما. وفي الحال نُصِب مرمىً في الخارج للتمرُّن على الرمي بالمقلاع.

فتحت ميريام هديّتها بحذر، ثمّ رفعت إكليل الزهور الجافّة الذي ضفرته لها آنجل. وتلمّست أشرطة الساتان المتدلّية من الخلف، قائلةً وعيناها مغرورقتان: "إنّه جميل، يا أماندا!"

فابتسمت آنجل. "لم أكفَّ عن التفكير فيكِ هابطةً التلَّ ركضًا بين تلك الزهور البرّيّة كلّها، فبدا الإكليل مناسبًا لكِ".

أسبلت ميريام شعرها بسرعة وهزّته حتّى ارتخى كثيفًا ومجعّدًا حول وجهها وكتفيها، نزولًا على ظهرها. ثمّ وضعت الإكليل على رأسها، قائلةً: "كيف يبدو؟"

فقال مايكل: "بريًّا وجميلًا".

وهبّ پول واقفًا ثمّ خرج خارجًا.

فبهتت ابتسامة ميريام قليلًا، وقالت همسًا: "يا له من أبله!"

فقالت إليزابث مدهوشةً والطفل مُسنَد إلى كتفها: "ميريام! إنّه كلامٌ بطّال!"

إلّا أنّ أيّ شيء من الندم لم يبدُ على ميريام وهي تُحدّق إلى پول خارجًا عبر الباب. ثمّ نزعت إكليل الزّهر وألقته في حضنها قائلةً: "أعجبني جدًّا، وسألبسه بدل الطرحة يوم زفافي".

عند هبوط الظلام، تجمّعت الأُسرة حول النار تُنشِد ترانيم الميلاد. وناول جان مايكل الكتاب المقدّس بغير أن يقول له أين يريد منه أن يقرأ. فتوجّه مايكل حالًا إلى قصّة الميلاد. وأصغت آنجل شابكةً ذراعيها حول ركبتيها المرفوعتين. ولكزتها روث ناعسةً. فابتسمت آنجل مرحّبةً بها في حضنها. وظلّت روث تتلوّى حتّى استراحت، وقد أسندت رأسها إلى صدر آنجل. وربّتت آنجل شعرها. إذا كنتُ أُحبُّ ولدًا ليس لي بهذا المقدار، فكم بالحريّ أُحبُّ ولدًا لي؟

كان صوت مايكل عميقًا وغنيًّا. وراح الجميع يراقبونه صامتين. وتذكّرت آنجل إخبار أُمّها لها بقصّة الطفل يسوع مولودًا في مذود والرعاة والملوك الثلاثة آتين كي يتعبّدوا له. إلّا أنّ القصّة عينها بفم مايكل كانت زاخرةً بالجمال والسّحر. ومع ذلك كلّه، لم تستطع أن تبتهج بها. ليس كما ابتهج الآخرون. فأيّ أبٍ هو ذاك الذي يسمح بأن يولد ابنُه الحبيب وغرضه الوحيد هو أن يُسمَّر على صليب؟

وجاءها الصوت الأسود على غير توقُّعٍ منها: **أنتِ تعرفين أيَّ أبٍ ذاك، يا آنجل. فقد كان لك أبٌ كهذا تمامًا.**

فأخذتها الرّعدة. وإذ حوّلت نظرها عن مايكل، رأت جان واقفًا في الظلّ بقرب إليزابث. كانت يده على كتفها. ليس جميع الآباء مثل أليكس ستافورد. فبعضهم مثل جان ألْطمان. ثمّ نظرت إلى مايكل من جديد. إنّه سيكون أبًا رائعًا هو أيضًا. فهو قويٌّ ومُحِبٌّ، وغفور إذا لزم الأمر. وقد قرأ لها قصّة الابن الضالّ مرّةً بُعيدَ إرجاعها من پيرأدايس. فإنّ ضلّ ابنُه، يكون أبًا يرحّب بعودته إلى البيت من جديد. ولن يكون مثل ذاك الذي طرد أُمّها.

أنهى مايكل القراءة، وأطبق الكتاب المقدَّس. ولمّا رفع رأسه، نظر في عينيها مباشرةً. فتبسَّمت. وتبسَّم هو لها، إنَّما كان في عينيه سؤال.

نادى جان بصوتٍ خافت: "ميريام!" فذهبت إلى أبيها، وقال لها شيئًا، وناولتها إليزابث الطفل، فحملته عائدةً به ووضعته على ذراعَي مايكل. ورفع الطفل رأسه، فمسَّ مايكل بإصبعه كفَّه الناعمه، مبتسمًا إذ أطبق الطفلُ يده بإحكام. ثُمَّ قال: "إذًا، يا جان، هلِ اتفقتُما أنت وإليزابث على اسم الطفل؟"

"نعم. سمَّيناه بنجامين مايكل، تيمُّنًا بك".

بدا مايكل مشدوهًا، ثمَّ متأثِّرًا تأثُّرًا شديدًا. وبرقت عيناه بدموع محبوسة. ثمَّ وضعت ميريام يديها على كتفيه، وانحنت فقبَّلت خدَّه قائلةً: "نرجو أن يكبر بحيث يكون جديرًا بهذا الاسم".

انعصر قلب آنجل إذ نظرت إلى مايكل حاملًا الطفل، وميريام ما تزال مُلقيةً يدها على كتفه، فبدا كأنَّهما ينتميان أحدهما إلى الآخر.

ومن الظلام في الخارج، كان پول يفكِّر في الشيءِ ذاته.

تفتَّحت الورود التي أتى بها مايكل إلى البيت لأجل آنجل وأزهرت باكرًا. فمسَّت البراعم القرمزيَّة وفكَّرت في أُمِّها. لقد كانت تُشبِه ميّ كثيرًا. فهي بارعة في تعهُّد الأزهار، جميلة المنظر، تؤتي الرجُل متعته. وما عدا ذلك، أيُّ نفعٍ كان لها؟

ينبغي أن يكون لمايكل أولاد. إنَّه يريد أولادًا.

علمت ليلة الميلاد ما ينبغي لها أن تفعله، ولكنْ مجرَّد التفكير في الرحيل عنه وفي العيش من دونه كان أمرًا لا يُطاق. أرادت أن تبقى هنا وتنسى نظرة عينيه لمَّا حمل بنجامين. أرادت أن تلتصق به وتنعم بالسعادة التي غمرها بها.

تلك الأنانيَّة بعينها كانت ما جعلها تدرك أنَّها لا تستحقُّه.

كان مايكل قد أعطاها كلَّ شيء. كانت خاوية فأشبعها بحبِّه حتَّى الفيض. وقد خانته، فاستعادها وسامحها. لقد ضحَّى بالكبرياء حتَّى يحبَّها. فكيف يمكنها أن تضرب صفحًا عن حاجاته بعد ذلك؟ كيف يمكنها أن تعيش مع ذاتها عالمةً بأنَّها تجاهلت أماني قلبه؟ ماذا عن مايكل؟ ماذا كان الأفضلَ له؟

وغالبًا ما تكلَّم الصوت الأسود: **ابقَي هنا! ألا تستحقِّين شيئًا من السعادة بعد**

كلٍّ سني العيش في الشقاء؟ يقول إنّه يحبُّكِ؛ أليس كذلك؟ إذًا فليبرهن ذلك!

لم تعد تستطيع أن تُصغي. فأغلقت ذهنها وفكّرت بالحريّ في مايكل، كما فكّرت في ميريام، الأُختِ الحبيبة إلى قلبها. وفكّرت في الأولاد الذين يمكن أن يكونا لميريام ومايكل، سُمرًا وُسَماء، أقوياء مُحبّين، على مدى أجيالٍ آتية. وذكّرت نفسها بأنْ لا شيء يمكن أن يطلع منها. فإذا بقيت، يظلُّ مايكل وفيًّا لها إلى أن يموت، فتكون تلك نهايته.

لا يمكنها أن تجعل ذلك يحدث.

ولّما أخبرها مايكل بأنّه ذاهب إلى المدينة مع پول، قرّرت قرارها. وكان جان قد ذكر أمسِ بالذات أنّ المدينة قد صارت كبيرة جدًّا حتّى إنّ مركبة عموميّة كانت تقصد إليها مرّتين في اليوم. وكانت المركبة تمرُّ على الطريق العالي، غير بعيدة عن الكوخ أكثر من ثلاثة كيلومترات، وراء خطِّ التلال تمامًا. وكانت آنجل ما تزال تحوز الذهب الذي كسبته من سام تيل وجوزف هُكشايلد، إذ أصرّ مايكل على أن تحتفظ به لنفسها. وكان ذلك المال كافيًا لإيصالها إلى سان فرنسيسكو وإعالتها مدّةً من الزمن. إلّا أنّها لم تدع أفكارها تأخذها إلى أبعد من ذلك.

عليّ أن أُفكّر بما هو الأفضل بالنسبة إلى مايكل؟

لّما عاد مايكل من الحقول، كانت قد أعدّت له عشاءً فاخرًا من لحم الغزلان. وكان الكوخ مزيّنًا بالزهور، على الرفّ والطاولة والسرير. فأجال مايكل نظره مشدوهًا. "بماذا نحن محتفلان؟"

قالت: "بالحياة"، وقبّلته. ثمّ تأمّلت منظره مليًّا، مُرسّخةً في ذاكرتها كلَّ زاوية من وجهه وجسمه. لقد رغبَت فيه بكلِّ جوارحها، وأحبّته حبًّا جمًّا. هل يعرف يومًا كم تحبُّه؟ لم تستطع أن تقول له. فإذا فعلَت، يَمضي باحثًا عنها. ومن شأنه أن يُرجِعها. خيرٌ لها أن يحسبها شهوانيّة ومنحطّة. إنّما ستكون لديها هذه الليلة الأخيرة كي تتذكّرها. سيكون جُزءًا منها أينما كانت، حتّى لو لم يعرف ذلك قطعًا. وستحمل الذكريات الحلوة إلى قبرها.

"خُذني إلى التّلة مرّةً أخرى، يا مايكل. خُذني إلى حيثُ أريتَني شروق الشمس".

لمح الجوع في عينيها. "الطقس بارد الليلة".

"ليس باردًا جدًّا".

لم يستطع أن يردَّ لها طلبًا، ولكنْ كان في قاع معدته انزعاجٌ غريب. ثمّة خطبٌ ما. ولكنّه تناول اللُّحف عن السرير، وسار قدّامها. لعلّها تتحدّث إليه وتُخبره بما ينهش فكرها. لعلّها تنوي أن تفتح له قلبها كليًّا في نهاية المطاف.

غير أنَّ مزاجها تغيَّر، منقلبًا من الاكتئاب إلى اللامبالاة. إذ سبقته راكضةً إلى أعلى التلَّة وأخذت تغزل وذراعاها ممدودتان. وحواليها، غنَّت صراصير الليل، كما عبثتِ النسمات الناعمة برؤوس الأعشاب. "ما أروع هذا! أليس رائعًا؟ كم هو واسعٌ شاسع! إنَّني عديمة الأهميَّة تمامًا".

"ليس في نظري".

فقالت مُلتفتةً إليه: "بلى، حتَّى في نظرك". فتجهَّم وجهُه، والتفتت ثانيةً، صارخةً نحو السماوات: "لا يكُن لك آلهةٌ أُخرى أمامي. لا أحدَ سواك أنت، يا سيِّدي". ثمَّ دارت ونظرت إليه. لا أحدَ سواك، يا مايكل هوشع.

وعبَّس. "هل تهزإين بي، يا محبوبة؟"

قالت: "أبدًا"، وهي تعني ما تقول.

ثمَّ أرخت شعرها، فتدلَّى على كتفيها وظهرها، أبيضَ في ضوء القمر. "هل تذكر قراءتك لي عن العروس شولَّميث راقصةً لزوجها؟"

لم يستطع أن يتنفَّس إذ شاهدها تحت ضوء القمر. فكلُّ حركةٍ منها اجتذبت حملقته إليها وأيقظت أحاسيسه. ولمَّا حاول أن يضمَّها، فرَّت مبتعدةً عنه وذراعاها ممدوتان ترحيبًا. وقد تماوج شعرها حواليها وانطلق صوتها أجشَّ ومُغريًا في مهبِّ الريح.

"سأفعل لك أيَّ شيء، يا مايكل. أيَّ شيء".

وفجأةً عرف ماذا كانت تفعل. فإنَّها كانت تودِّعه، تمامًا مثلما فعلت آخِرَ مرَّة. كانت تُخدِّر ذهنه بالمتعة الجسديَّة.

ولمَّا اقتربت منه ثانيةً، أمسك بها قائلًا: "لماذا تفعلين هذا؟"

قالت: "لأجلك"، ثمَّ جذبت رأسه إلى تحت، وقبَّلته.

فغرز أصابعه في شعرها، ولوى فمه على فمها. لقد أراد أن يلتهمها. وكانت يداها على جسمه كاللهيب.

إلهي، لا يمكنني أن أدعها ترحل مرَّةً أُخرى. لا يمكنني!

وتحرَّكت صوبه ملتصقةً به، فلم يُفكِّر إلَّا فيها، ولم يكن ذلك كافيًا.

إلهي، لماذا تفعلُ بي هذا مرَّةً أُخرى؟ هل تُعطي لكي تأخذَ فقط؟

وتنفَّست قائلةً: "مايكل، مايكل"، فذاق ملوحة دموعه على خدَّيها.

"إنَّكِ تحتاجين إليَّ". وقد استطاع رؤية وجهها الذي ترامى عليه ضوء القمر. "أنت تحتاجين إليَّ. قولي هذا، يا تِرصة. قوليه!"

دعها تذهب، يا محبوب.

إلهي، لا! لا تطلب هذا منّي!

أعطِني إيّاها.

لا!

تشبَّث أحدهما بالآخر، ملتمِسَين السُّلوان في عذوبة النسيان. ولكنَّ عذوبة النسيان لا تدوم.

وضمَّها مايكل بشدَّة لدى زوالها. لقد حاول أن يتمسَّك بذلك كلِّه، غير أنَّهما باتا كائنَين منفصلين من جديد. ولم تكن لديه القوَّة لإبقائهما متماسِكَين معًا إلى الأبد.

كانت ترتجف بشدَّة، أمِن جرَّاء البرد أم نفاد العاطفة: لم يدرِ مايكل. ولم يسأل. فجذب اللحاف حولهما كليهما، وما زال مع ذلك يشعر بنزيفها العاطفيِّ كجرحٍ جديد طري.

أخذت البرودة تزداد، وكان ينبغي أن يعودا. فارتديا ثيابهما بصمت، وكلاهما معذَّبان ومتظاهران بأنَّهما ليسا كذلك. وتقدَّمت إليه من جديد ووضعت ذراعيها حول خصره، مُلصِقةً نفسها به كما يفعل الطفل، طالبةً العزاء.

أطبق عينيه في مواجهة الخوف المنسدل في قعر معدته. إنَّني أُحبُّها، يا ربّ. لا يمكنني التخلّي عنها.

مايكل، يا محبوب؛ هل تودُّ لها أن تظلَّ معلَّقةً على صليبها إلى الأبد؟

أطلق مايكل زفرةً مرتعدة. ولمَّا رفعت وجهها، رأى فيه شيئًا جعله يرغب في النحيب. لقد أحبَّته، أحبَّته حقًّا. ومع ذلك كان في وجهها الذي ترامى عليه ضوء القمر شيءٌ آخر. كآبة مُنتابة لم يستطع نزعها، فراغٌ لن يستطيع أن يسدَّه أبدًا. وتذكَّر كلماتها الناضحة بالألم ليلة وُلد بنجامين: "أتمنَّى لو كنتُ كاملةً سليمة!" إنَّه لا يستطيع أن يجعلها كذلك.

ثمَّ رفعها وحملها على ذراعيه كالطفل. فطوَّقت عنقه بذراعها، وقبَّلته، فأغمض عينيه. ربّ، إن سلَّمتُها لك الآن، فهل تردُّها إليَّ يومًا؟

فلم يكن جواب.

ربّ، رجاءً!

وتحرَّكت الريح بهدوء، إنَّما لم يكن سوى الصمت.

خرجت آنجل مع مايكل إلى الحظيرة صباحَ اليوم التالي وراقبته يُسرِج حصانه. "متى تتوقَّع أن تعود؟"

ردَّ عليها نظرةً غامضة، وقال: "بأسرع ما يمكنني". ثمَّ اقتاد الحصان إلى خارج الحظيرة وطوَّق كتفيها بإحدى ذراعيه. فابتسمت له رافعةً رأسها نحوه. فتوقَّف وجذبها نحوه وقبَّلها معانقًا. وقبَّلته هي أيضًا، مستغلَّةً إلى التمام آخر فُرصة ستُتاح لها على الإطلاق. وحين انغرزت أصابعه في كتفيها على نحوٍ مؤلم، فوجئت. فقال ببساطة: "أنا أُحبُّكِ. ولسوف أُحبُّكِ دائمًا!"

تعجَّبت من حماسته المتَّقدة، ومسَّت وجهه برفق. "اعتنِ بنفسك جيِّدًا".

غير أنَّه لم يبتسم. "كذلك أنتِ أيضًا". ثمَّ امتطى الحصان ومضى. ولم ترجع إلى داخل البيت حتَّى توراى خلف التلَّة.

لم تشأ أن ترحل حتَّى تُرتِّب كلَّ شيء كما ينبغي. فسوَّت السرير، وغسلت الأواني ووضعتها في مكانها، ونفَّضت خرقة الموقد. وكانت الزهور ما تزال جديدة، فطمرت الجمر بالرماد حتَّى تبقى النار مشتعلة ريثما يرجع مايكل إلى البيت.

وإذ سمعت قرعًا على الباب، أجفلت. وفتحت، فإذا ميريام خارجًا فسألتها مرعوبةً: "ماذا تفعلين هنا؟"

أُخِذت ميريام على حين غِرّة. "ألم تكوني تتوقَّعين حضوري؟"

"لا".

"حسنًا، الأمر غريب. لقد عرَّج علينا مايكل في طريقه إلى بيت پول وقال إنَّ هذا اليوم مناسب لزيارتك".

دارت آنجل وعادت إلى كيس سفرها المفتوح على السرير. وبسرعةٍ أقحمت فيه واحدًا من أقمصة مايكل، ثمَّ طوت فستانًا فوقه، وميريام تراقبها. "لم يقل لي مايكل إنَّكِ مُسافِرة إلى أيِّ مكان".

"إنَّه لا يعرف". ثمَّ صرَّت الكيس وأقفلته، وأضافت: "إنَّني راحلةٌ عنه، يا ميريام".

فقالت ميريام: "ماذا؟" ناظرةً إليها كما لو أنَّ قرونًا طلعت في رأسها، وأردفت: "مرَّةً أُخرى؟"

"أنا راحلةٌ عنه إلى الأبد هذه المرَّة".

"ولكن لماذا؟"

"لأنَّه ينبغي لي ذلك". وأجالت نظرها في أنحاء الكوخ مرَّةً أخيرة. لقد كانت

سعيدةً هنا، ولكنَّ ذلك لا يعني أنَّ عليها البقاء. ثمَّ خرجت من الباب بهدوء.

وخرجت ميريام وراءها. "مهلًا!" ثمَّ مشت معها نحو التلال. "أماندا، لستُ أفهم..."

"لا ضرورة. فقط عودي إلى البيت، يا ميريام. وقولي للجميع «وداعًا» عن لساني".

"ولكن إلى أين تمضين؟"

"غربًا، شرقًا، لا فرق. لم أُقرِّر بعد".

"إذًا لماذا أنتِ مستعجلة هكذا؟ ابقي هنا وتحدَّثي في الموضوع مع مايكل. تُرى، أيَّ شيء قد فعل حتَّى حملكِ على الرحيل؟"

لم تُطِق آنجل أن تحسب صديقتُها مايكل مُسيئًا. "ميريام، إنَّ مايكل لم يفعل في حياته قطُّ أيَّ خطأ".

"إذًا لماذا تفعلين هذا؟"

"لا أُريد أن أتكلَّم في الموضوع". وظلَّت آنجل ماشيةً، متمنّيةً أن تستسلم ميريام وتدعها وشأنها.

"أنتِ تحبّينه. إنّني أعرف أنَّكِ تحبّينه. فإن غادرتِ بلا سبب، فماذا سيفتكر؟"

كانت آنجل تعلم بما سيفتكر. إنَّه سيعتقد انَّها عادت إلى حياتها القديمة. ربَّما يكون أفضل لو افتكر ذلك. فمن شأن ذلك أن يحول دون تفتيشه عنها. إنَّما ينبغي أن تعلم أنَّها لن تعود إلى البُغاء. حتَّى لو عنى ذلك موتها جوعًا.

ظلَّت ميريام تُجادِل وتترجَّى طيلة سيرهما إلى الطريق العامّ، ولم تتوقَّف إلَّا لأنَّ نَفَسها انقطع أخيرًا. وسارعت آنجل خطاها، متطلِّعةً قدوم المركبة العموميَّة. كان الوقت بُعَيد الظهر، فينبغي أن تُقبِل المركبة حالًا. إنَّها لن تُطيق الانتظار. لماذا طلب مايكل من ميريام أن تأتي لزيارتها هذا اليوم دون باقي الأيّام؟

وقالت ميريام مبتئسةً: "كنتُ أحسب أنَّ مايكل كامل، ولكن لا يُعقَل أن يكون كذلك ما دمتِ تهربين منه هكذا".

"إنَّه كلُّ ما يبدو عليه، يا ميريام، وأكثر. أُقسِم بحياتي إنَّه لم يفعل بي أيَّ شيء يؤذيني. لم يفعل شيئًا سوى أنَّه أحبَّني من البداية، حتَّى حين كنتُ أكره مجرَّد رؤيته".

فهامت عينا ميريام. "إذًا، كيف يمكنكِ أن تتركيه الآن؟"

"لأنَّني لا أنتمي إليه، ولم أنتمِ قطّ". وإذ تبيَّن لها أنَّ ميريام توشك أن تقول المزيد، وضعت يدها على ذارع الفتاة كي تكفَّها. "رجاءً، يا ميريام. لا أقدر أن أُنجِب أطفالًا. هل تعرفين ما يعنيه هذا لرجُلٍ مثله؟ إنَّه يريد أولادًا. إنَّه يستحقُّهم. وأنا قد أُفسِدتُ

منذ زمن بعيد بحيث يستحيل أن أحبل وألد". ثمَّ كافحت وجعها وأضافت: "أتوسَّل إليكِ، يا ميريام. لا تُصعِّبي الأمر أكثر ممّا هو فعلًا. إنّني راحلة لأنَّ هذا هو الأفضل بالنسبة إلى مايكل. حاولي أن تفهمي". ثمَّ تهدَّج صوتها وأردفت: "ميريام، ينبغي لي أن أُفكِّر في ما هو الأفضل بالنسبة إليه".

أخيرًا أقبلت المركبة. فتقدَّمت آنجل إلى الطريق ولوَّحت للسائق كي يتوقَّف. وإذ جذب الزِّمام لإيقاف الأحصنة الستَّة، نزعت خاتم الزواج من إصبعها، وأعطته لميريام. "رُدِّي إليه هذا عنِّي. إنَّه كان لأُمِّه".

انهمرت الدموع على خدَّي ميريام، وهزَّت رأسها رافضةً أن تأخذ الخاتم. فمدَّت آنجل يدها، وأمسكت بيد ميريام، ووضعت الخاتم في كفِّها، ثمَّ أطبقت أصابعها عليه. وإذ دارت مُسرِعةً، ناولت السائق كيس سفرها، فأخذ يضعه حشرًا بين الأمتعة الأُخرى.

نظرت آنجل إلى وجه صديقتها الذاهل الشاحب. "أنتِ تُحبِّينه، أليس كذلك يا ميريام؟"

فاقتربت منها قائلةً: "نعم، أُحِبُّه. وأنتِ تعرفين ذلك. إنَّكِ مُخطئة في قيامكِ بهذا. مُخطئة، يا أماندا".

عانقتها آنجل بشدَّة. "ساعديني حتَّى أكون قويَّة". ثمَّ بقيت مُعانِقةً إيَّاها حينًا. "أنتِ عزيزةٌ عندي جدًّا". وأفلتتها ثمَّ صعدت إلى المركبة بسرعة.

وصاحت ميريام: "لا تذهبي!" واضعةً يديها على فتحة النافذة. ثمَّ بدأت المركبة تتحرَّك.

ونظرت إليها آنجل من فوق، مكافحةً وجعها. "قلتِ إنَّكِ تحبِّينه، يا ميريام. إذًا أحبِّيه. وأعطيه الأولاد الذين لا أقدر أن أعطيه إيَّاهم".

أخذَت ميريامَ الصَّدمةُ، واحمرَّ وجهها بمثل لون النار، ثمَّ شحب. "لا، لا. آه، لا!" وبدأت تركض وراء المركبة، إلَّا أنَّ المركبة كانت تتسارع ولم تكن تتباطأ. "مهلًا! أماندا، أماندا!"

إنَّما كان الأوان قد فات فعلًا. فقد ثار الغبار، وكاد يخنقها. وعندما باتت تستطيع أن تركض من جديد، كانتِ العربة العموميَّة قد قطعت شوطًا كبيرًا من الطريق بحيث يتعذَّر عليها أن تلحق بها. فوقفت في قارعة الطريق، ونظرت إلى خاتم الزواج في يدها، ثمَّ انفجرت باكيةً.

كان آخِر شيء توقَّع پول أن يراه لَمَّا توجَّه إلى كوخه مع مايكل في عصر ذلك النهار، على حصانيهما، هو أن تكون ميريام خارجةً من بابه. فوثب قلبه لدى رؤيتها ثمَّ انتفض داخل صدره كأرنب عندما ركضت صوبه. ماذا سيفتكر مايكل بشأن وجودها هناك؟

ولكنَّها ركضت نحو مايكل، لا نحوه هو. فهَوت معدة پول كأنَّها حجر. وترجَّل مايكل حالًا.

قالت ميريام: "أماندا رحلت!" وقد شحب وجهها وطفر دمعها، وكانت مشعَّثة ومغبَّرة. "ما برحتُ أنتظرها هنا طول النهار، يا مايكل. فقد علمتُ أنَّك ستعرِّج على بيت پول أوَّلًا. عليك أن تلحق بها. لقد استقلَّت مركبة الصباح. عليك أن تُرجِعها!"

لبث پول على حصانه. إذًا قد رحلت آنجل مرَّةً أُخرى. رغم كلِّ نذورها، غادرت مايكل. تمامًا كما توقَّع. ينبغي له أن يشعر بالسرور حيال ذلك. ولَمَّا وضع مايكل يده على كتف ميريام، ومضت داخل كيانه موجةُ غيرة لاهبة وغير متوقَّعة تمامًا.

بدا على مايكل الشحوب والإجهاد. "لَن ألحق بها، يا ميريام".

"أأنت وأماندا كلاكما جُنِنتما؟" صرخت ميريام والدموع تترقرق في عينيها السوداوين. "إنَّك لا تفهم..." ترى، كيف تقول له وتخبِره؟ آه، يا الله، ماذا ينبغي أن تفعل؟ لقد شعرت بمراقبة پول لهما، ولم تستطع أن تُخبِر مايكل بكلِّ ما قالته أماندا لها سرًّا. "عليكَ أن تلحق بها. الآن! فإن لم تذهب، فربَّما لا تعثر عليها ثانيةً البتَّة".

"لن أبحث عنها. ليس هذه المرَّة!"

"ليس هذه المرَّة؟"

فقال پول: "يعني أنَّه قد لحق بها من قبل، ولم يُجدِه ذلك أيَّ نفع. فهي لم تتغيَّر منذ يومَ التقاها".

والتفتت ميريام إليه بوجه مُمتقِع. "ابقَ خارج هذه القضيَّة! اذهب اختبئ في كوخك! امضِ واطمر رأسك في الرمال كما تفعل دائمًا".

فتراجع پول، وقد صدمه سخطُها.

ثمَّ التفتت ميريام إلى مايكل مجدَّدًا، وتشبَّثت بمقدَّم قميصه. "مايكل، رجاءً، الحقْ بها قبل فوات الأوان".

فنزع عنه يديها. "لا أستطيع، يا ميريام. إذا أرادت أن ترجع، فإنَّها سترجع. وإن لم تُرِد، فعندئذٍ... لن ترجع".

ووضعت ميريام يديها على وجهها، وأخذت تبكي.

رفع مايكل نظره نحو پول، فرأى أنَّه لم ينوِ أن يُعزِّيَ الفتاة. فطوَّق ميريام بذراعيه، متنهِّدًا من الأعماق. وقد كان جسمُها كلُّه يرتجف مع نشيجها.

حدَّق پول من علُ إليهما، وشعر بطعنةِ ألم تخترق وسطه. لقد كان هذا هو ما أراده؛ ألَم يكُن؟ كان هذا ما خطَّط له. أما كان ينتظر رحيل تلك الساحرة حتَّى يتحوَّل مايكل نحو ميريام ويحوز الزوجة التي يستحقُّها؟ إذًا لماذا شعر بوحدةٍ ووحشةٍ لم يسبق أن شعر بهما يومًا؟

كائنًا ما كان الأمرُ الذي اعتقد أنَّه أراده، لم يستطع أن يتحمَّل رؤيتهما متشبِّثين أحدهما بالآخر الآن. فقد آذاه ذلك كثيرًا جدًّا. وهكذا عطف حصانه، وتركهما وحدهما.

كان آخِر شيء توقَّع پول أن يراه لمَّا توجَّه إلى كوخه مع مايكل في عصر ذلك النهار، على حصانيهما، هو أن تكون ميريام خارجةً من بابه. فوثب قلبه لدى رؤيتها ثمَّ انتفض داخل صدره كأرنب عندما ركضت صوبه. ماذا سيفتكر مايكل بشأن وجودها هناك؟

ولكنَّها ركضت نحو مايكل، لا نحوه هو. فهَوت معدة پول كأنَّها حجر. وترجَّل مايكل حالًا.

قالت ميريام: "أماندا رحلت!" وقد شحب وجهها وطفر دمعها، وكانت مشعَّثة ومغبَّرة. "ما برحتُ أنتظرها هنا طول النهار، يا مايكل. فقد علمتُ أنَّك ستعرِّج على بيت پول أوَّلًا. عليك أن تلحق بها. لقد استقلَّت مركبة الصباح. عليك أن تُرجِعها!"

لبث پول على حصانه. إذًا قد رحلت آنجل مرَّةً أُخرى. رغم كلِّ نذورها، غادرت مايكل. تمامًا كما توقَّع. ينبغي له أن يشعر بالسرور حيال ذلك. ولمَّا وضع مايكل يده على كتف ميريام، ومضت داخل كيانه موجةُ غيرة لاهبة وغير متوقَّعة تمامًا.

بدا على مايكل الشحوب والإجهاد. "لَن ألحق بها، يا ميريام".

"أأنت وأماندا كلاكما جُنِنتما؟" صرخت ميريام والدموع تترقرق في عينيها السوداوين. "إنَّك لا تفهم..." تُرى، كيف تقول له وتخبِره؟ آه، يا الله، ماذا ينبغي أن تفعل؟ لقد شعرت بمراقبة پول لهما، ولم تستطع أن تُخبِر مايكل بكلِّ ما قالته أماندا لها سرًّا. "عليكَ أن تلحق بها. الآن! فإن لم تذهب، فربَّما لا تعثر عليها ثانيةً البتَّة".

"لن أبحث عنها. ليس هذه المرَّة!"

"ليس هذه المرَّة؟"

فقال پول: "يعني أنَّه قد لحق بها من قبل، ولم يُجدِه ذلك أيَّ نفع. فهي لم تتغيَّر منذ يومَ التقاها".

والتفتت ميريام إليه بوجه مُمتقع. "ابقَ خارج هذه القضيَّة! اذهب اختبئ في كوخك! امضِ واطمر رأسك في الرمال كما تفعل دائمًا".

فتراجع پول، وقد صدمه سخطُها.

ثمَّ التفتت ميريام إلى مايكل مجدَّدًا، وتشبَّثت بمقدَّم قميصه. "مايكل، رجاءً، الحقْ بها قبل فوات الأوان".

فنزع عنه يديها. "لا أستطيع، يا ميريام. إذا أرادت أن ترجع، فإنَّها سترجع. وإن لم تُرِد، فعندئذٍ... لن ترجع".

ووضعت ميريام يديها على وجهها، وأخذت تبكي.

رفع مايكل نظره نحو پول، فرأى أنَّه لم ينوِ أن يُعزِّيَ الفتاة. فطوَّق ميريام بذراعيه، متنهِّدًا من الأعماق. وقد كان جسمُها كلُّه يرتجف مع نشيجها.

حدَّق پول من علٍ إليهما، وشعر بطعنةِ ألم تخترق وسطه. لقد كان هذا هو ما أراده؛ ألَم يكُن؟ كان هذا ما خطَّط له. أما كان ينتظر رحيل تلك الساحرة حتَّى يتحوَّل مايكل نحو ميريام ويحوز الزوجة التي يستحقُّها؟ إذًا لماذا شعر بوحدةٍ ووحشةٍ لم يسبق أن شعر بهما يومًا؟

كائنًا ما كان الأمرُ الذي اعتقد أنَّه أراده، لم يستطع أن يتحمَّل رؤيتهما متشبِّثين أحدهما بالآخر الآن. فقد آذاه ذلك كثيرًا جدًّا. وهكذا عطف حصانه، وتركهما وحدهما.

الفصل

التاسع والعشرون

فنظرتُ وإذا فرسٌ أخضر،
والجالس عليه اسمُه الموت،
والهاوية تتبعه.

(سفر الرؤيا ٦: ٨)

لم تعُد سان فرنسيسكو بلدةً صغيرة حقيرة بقرب خليج، بل أصبحت مدينةً منتشرة فوق التلال التي تذروها الريح. ولم يعد "الوادي السعيد" مُخيَّمًا بسيطًا، بل صار ضاحيةً عامرةً بالمنازل. وكانت النيران قد التهمت كثيرًا من السفن التي جُرَّت إلى الشاطئ وحُوِّلت مخازنَ وحاناتٍ وخاناتٍ ومطاعم، فحلَّ محلَّها مبانٍ خشبيَّة الهياكل لبعضها سطوحٌ من القرميد. كما حفَّت بالشوارع الموحلة أرصفة جانبيَّة ذات ألواح من خشب.

وقف سائق المُعدِّية ووجهُه مقابل الريح. وقال لها فيما المُعدِّية تعبر الخليج: "كُلَّما احترقت المدينة، يبنونها من جديد أجمل من الأوَّل". وقد حذَّرها من المياه الكريهة المُستقاة من الآبار الضَّحلة، وقال لها إنَّها ستعثر على غُرَف استئجار أفضل فوق التلَّة بعيدًا عن أرصفة الميناء. إلَّا أنَّ آنجل كانت مُنهَكة جدًّا، فلم تُجازِف بالابتعاد، وانتهى بها المطاف في فندق صغير على الشاطئ.

ذكَّرتها رائحة البحر والنفايات بالكوخ الصغير الذي عاشت فيه جانبًا من طفولتها فوق أرصفة الميناء. وقد بدا ذلك قبل مئة سنة. وتناولت العشاء في غرفة السُّفرة الصغيرة، حيث تحمَّلت النظرات الوقحة من قِبَل نحو عشرة شبَّان. وقد أكلت اليخنة كي تسدَّ فراغ معدتها، أمَّا فراغ قلبها فقد ظلَّ قائمًا.

لقد فعلتُ الصواب بمغادرة مايكل. أنا أعلم أنِّي فعلتُه.

وإذ رجعت إلى غرفتها الصغيرة، حاولت أن تنام على السرير الضيِّق. كانت الغرفة باردة، ولم تستطع أن تدفأ. فتكوَّمت كرةً صُلبةً تحت الحِرام، وفكَّرت باشتياقٍ في دفء مايكل الثابت قربها. ولم تقدر أن تكفَّ عن التفكير فيه. أكان قبل ثلاثة أيَّام فقط أنَّها

رقصت له في ضوء القمر؟ ماذا يفتكر فيها الآن؟ هل أبغضها؟ هل شتمها؟

لو استطاعت أن تبكي، لشعرت بتحسُّن. ولكنْ لم يكن لديها دموع. فانطوت على نفسها بشدَّة، متألِّمة. ثمَّ أغمضت عينيها محاولةً أن ترى وجه مايكل، إلَّا أنَّ الصورة لم تكن كافية. فهي لا تستطيع أن تلمسه، ولا تستطيع أن تشعر بذراعيه تُطوِّقانها.

ثمَّ نهضت وفتَّشت في كيس سَفَرها حتَّى عثرت على قميصه. وتمدَّدت على السرير من جديد، ودسَّت وجهها في النسيج الصوفيِّ الذي كان مايكل قد لبسه، متنشِّقةً عطر جسده.

وهمست في قلب الظلام: "آهِ ماما، إنَّ الألم يجعلكِ فعلًا تتمنَّين الموت!"

إلَّا أنَّ صوتًا خفيفًا هادئًا في داخلها ظلَّ يقول لها مرارًا وتكرارًا: **عيشي! واصلي مسيرتك. لا تستسلمي.**

ما عساها تفعل؟ لقد بقي لديها قليلٌ من الذهب، إلَّا أنَّه لن يدوم طويلًا. فإنَّ السَّفر في المركبة العموميَّة ثمَّ في المُعدِّية كلَّفها أكثر ممَّا توقَّعت. كذلك كانت الأُجرة الجارية لهذا الفندق الصغير الحقير عزيزة جدًّا. فما بقي لها من الذهب يكفيها يومين أو ثلاثة على الأكثر. بعد ذلك سيتعيَّن عليها تدبير طريقة لكسب معيشتها.

أخيرًا نامت. وحفلت ليلتُها بأحلام غريبة مزعجة جدًّا. وقد استيقظت بضع مرَّات وهي ترتجف بشدَّة. فكأنَّما قوَّةٌ خبيثة كانت على مقربة منها، تتربَّص بها.

وفي الصباح حزمت أمتعتها القليلة، وغادرت الفندق. وهامت على وجهها ساعاتٍ في شوارع سان فرنسيسكو. إنَّ ميدان پورتسماوث قد تغيَّر جذريًّا. فالكوخ الذي أقامت فيه قد زال، ومثله الأكواخ الأُخرى، وأيضًا الخِيَم التي كانت قد انتشرت كالوباء حوالَي الساحة العامَّة. وكانت أكشاكٌ قد أُنشئت في أرجاء الميدان جعلته يبدو كسوقٍ كبيرة. وقد تمشَّت آنجل تستعرض بضائع من جميع أنحاء العالم.

كان هنالك بضعة مواخير، تبدو على أحدها أناقة طراز نيو أورليَنز. وفي الطرف الخارجيِّ من الميدان فنادق وحانات ونوادٍ عامرة. ففي موضع السخام والنفايات الذي تذكَّرته آنجل قام الآن نُزل پاركر، ومصرف دَنيصُن، ومبنى مدينة الهلال، والإمپاير. وفي الركن الجنوبيِّ الغربيِّ من شارع كلاي انتصب فندق براون المدينيّ.

جاوزت آنجل عيادات أطبَّاء صحَّة وأطبَّاء أسنان، ومكاتب مُحامين ومُقاوِلين ومراقبين ومهندسين. وشاهدت بضعة بنوك جديدة، ومؤسَّسة سمسرة كبيرة. حتَّى إنَّها رأت أيضًا مبنى مدرسة رسميَّة في ساحته أولادٌ يلعبون. فتوقَّفت تراقبهم حينًا،

مفكِّرة في روثي الصغيرة ولِيَه والصبيَّين. لقد اشتاقت إليهم كثيرًا.

وفي شارع كلاي، كان عدَّة رجال مُصطفِّين أمام مكتب البريد، منتظرين وصول رسائل أو صُحُف. وعند زاوية شارعَي واشنطن وغرانت ظهرت مصبغة صينيَّة. وكان بعض العمَّال يعركون ويفكرون الأثواب في أحواض غسيل كبيرة، فيما عكف آخرون على تكديس البياضات النظيفة في السِّلال. وبعدما علَّقوا هذه على أعمدة قصب، انطلقوا في جولة سريعة لتسليم البضائع.

عندما انتصف النهار، كان التعب والجوع قد أنهكا آنجل. ولم تكن بعد تدري ما تفعل لكسْب معيشتها. وكان الخاطر الوحيد الذي خطر في بالها أن تعود إلى القيام بما تتقنه. فكلَّما مرَّت أمام ماخور، تأكَّد لها أنَّ في وسعها أن تعبر بابه فتجد طعامًا ومأوى. وفي وسعها أن تحظى بالراحة الجسديَّة. كلُّ ما يعوزها هو أن تبيع جسدها من جديد... وتخون مايكل.

لن يعرف أبدًا، يا آنجل.

"أنا سوف أعرف". ورمقها رجلٌ بنظرة استغراب وهو عابر. تُرى، هل تصير امرأةً مجنونةً تُحدِّث نفسها؟

ثمَّ استوقفها مُعدِّن وطلب منها أن تتزوَّجه. فسحبت ذراعها من يده وطلبت منه أن يدعها وشأنها. وقال إنَّه يملك كوخًا في جبال سييرا وإنَّه يحتاج إلى زوجة. فقالت له أن يبحث في مكان آخر وسارعتِ الخطو.

زادها ازدحام الناس توتُّرًا. إلى أين يذهبون؟ وبماذا يشتغلون ليسترزقوا؟ وأخذ رأسها ينبض ألمًا. لعلَّه الجوع. لعلَّه القلق بشأن ما تفعله عندما ينفد ذهَبُها. لعلَّه علمُها بكونها ضعيفة وباحتمال رجوعها إلى البُغاء للبقاء على قيد الحياة.

ماذا ينبغي لي أن أفعل؟ اللهمَّ إنِّي لا أدري ما أفعل!

ادخلي ذلك المقهى واستريحي.

نظرت آنجل عبر الشارع فرأت مقهىً صغيرًا. فتنهَّدت ومشت صوبه ودخلت. واختارت طاولة في الزاوية الخلفيَّة، ودفعت كيس سَفَرها خلف قدميها. وإذ فركت صدغَيها، تساءلت أين ستبيت الليلة.

خبَّط أحدهم على طاولةٍ تبعد عنها نحو مترين، فقفزت مذعورة. وزعق رجلٌ نحيل ذو لحية متشكِّيًا: "لماذا هذا التأخير؟ أنا أنتظر منذ نحو ساعة. أين شريحة اللحم التي طلبتُها؟"

فاندفع رجلٌ أصهب قصير من الغرفة الخلفيَّة وحاول أن يُهدِّئ الزبون الغاضب هامسًا له بتفسير لسبب التأخُّر، إلَّا أنَّ ذلك لم يَزِد الرجُل إلَّا سخطًا، حتَّى كاد الدم يطفر من وجهه. فأمسك بالرجل القصير ورفعه إلى مستوى وجهه وقال: "متوعِّكٌ قليلًا، هاه! سكرانٌ هو ما تقصده!" ثمَّ دفع الرجل القصير إلى الوراء حتَّى اصطدم بطاولة أُخرى. وتوجَّه الزبون نحو الباب، ثمَّ خرج وسفقه بشدَّة حتَّى اهتزَّت النوافذ.

دلف الرجل القصير إلى الغرفة الخلفيَّة من جديد ربَّما فرارًا من حملقة الزُّبُن العشرة الذين ما زالوا ينتظرون الخدمة والطعام. ثمَّ نهض بضعة زُبُن آخرين وخرجوا. ولم تدرِ آنجل أتحذو حذوهم أم لا. فقد كانت مُرهَقة ولا مشاريع عندها، حتَّى كان الجلوس ها هنا جيِّدًا مثله في أيِّ مكان آخر. وعلى كلِّ حال، لم تشأ أن تخرج إلى الزحام حينًا. ولن يقتلها تفويتُ وجبة.

وتخلَّى ثلاثة رجال آخرين عن الانتظار للتحقُّق من مجيء الطعام أو عدمه. لكنَّ آنجل وأربعةً آخرين ظلُّوا قاعدين. ثمَّ ظهر الرجل القصير ثانية وعلى وجهه ابتسامةٌ مشدودة مُتكلِّفة. "لدينا بسكويت وفاصوليا". فأخلى الرجال الأربعة الساحة، مُبدين ملاحظاتٍ ساخطة بأنَّهم نالوا من ذلك الطعام حصصًا تكفيهم العمر كلَّه.

تهدَّلت كتفا الرجل القصير انهزامًا. وبغير أن يلاحظ وجود آنجل في الرُّكن، تكلَّم في الهواء. "حسنًا، يا ربّ. هذا يكفي. لم يعُد عندي شُغل". ثمَّ مضى إلى الباب الأماميّ، وقلب اللافتة على قفاها، وألصق جبهته بالجدار.

وأشفقت آنجل عليه. فهي تعرف طعم الفشل جيِّدًا. وقالت بهدوء: "أَينبغي أن أُغادِر؟" فالتفت نحوها وقد احمَّر وجهه كثيرًا.

"لم أدرِ أنَّكِ هنا. هل تُريدين بسكويتة وشيئًا من الفاصوليا؟"

"من فضلك".

واختفى لحظة، ليعود ويضع أمامها صحنًا، ثمَّ تراجع. وقد كانت البسكويتة قاسية كالحجر، والفاصوليا محروقة. فنظرت إليه عابسةً. فسأل: "قهوة؟" وسكب لها قليلًا في كوز. وكانت القهوة قويَّة جدًّا، فكشَّرت آنجل.

ثم حطَّت الكوز ودفعت الصحن جانبًا، وقالت بابتسامة جافَّة: "يا سيِّد، إنَّك بحاجة إلى طبَّاخة جديدة".

"أتطلبين وظيفةً عندي؟"

فاتّسعت عيناها حالًا، وقالت: " أنا؟"

فانتبه إلى مفاجأتها، ونظر إليها ثانيةً، قائلًا: "لا أعتقد".

أحسّت الحرارة صاعدةً إلى وجهها. هلِ انكشف ماضيها بهذا الوضوح؟ أكان ذلك محفورًا على جبهتها بأحرفٍ بارزة يراها العالم كلّه؟ ألم يُحدِث تعرُّفها بمايكل سنةً كاملة أيَّ تغيير فيها على الإطلاق؟

تصلّب ظهرها. "بالحقيقة، كنتُ أبحث عن عمل". وضحكت ضحكةً قصيرة. "ومع أنّي أبعدُ من أن أكون أمهر طبّاخة في العالم، أعتقد أنّني أستطيع أن أصنع أفضل من هذا". وأشارت بعينها إلى كتلة الفاصوليا الجامدة المخبوصة في صحنها.

"في هذه الحالة، الوظيفةُ لكِ!" ثمّ خبط إبريق القهوة ومدَّ يده حالًا قبل أن تتمكّن من التفوُّه بكلمة واحدة: "اسمي ڤرجيل هارپر، سيّدتي".

حاولت أن تتقبّل حقيقة حصولها على عمل، وهبوط ذلك في حضنها تمامًا من السماء كثمرة خوخٍ ناضجة. وكيف حصل ذلك؟ منذ دقيقة كانت مسعورة ومذعورة بشأن ما يمكن أن تعمله كي تكسب معيشتها. وها هي الآن موظّفة عند رجُلٍ بدينٍ قصير لا تعرفه.

فرفعت يدها قائلةً: "مهلًا! ينبغي لي أوّلًا أن أعثر على مكانٍ أسكن فيه. حتّى إنّني ربّما لا أبقى في سان فرنسيسكو".

"لا ينبغي أن تبحثي عن أيِّ مكان، يا سيّدتي. يمكنكِ أن تُقيمي في غرفة الطبّاخ حالما ينقل أغراضه منها، وهو الآن يحزم أمتعته. إنَّ غرفتكِ ملاصقة لغرفتي فوق المطبخ. وهي مريحة فعلًا. وفيها سرير جيّد، ومنضدة ذات جوارير".

إذ ذاك ضاقت عيناها. كان ينبغي أن تعرف أنَّ صيدةً جيّدة تنتظرها.

وأضاف الرجل: "بابُها مزوَّد بقفل مُحكَم. يمكنكِ أن تُجرِّبيه أوّلًا إذا أردتِ. هل تُحسِنين صنع الفطائر؟ إنّنا نتلقّى كثيرًا من الطلب على الفطائر".

لم تكد تستطيع التقاط أنفاسها لأنّه كان يُسرِع كثيرًا في كلامه.

"كم ستكلّفني هذه الغرفة؟"

أجاب، متعجّبًا بالفعل: "لا شيء. إنّها من ضمن الوظيفة. والآن، ماذا بشأن الفطائر؟ أيمكنكِ صنعُها أم لا؟"

"نعم، أستطيع أن أصنع خبزًا وفطائر؟" لقد علّمتها إليزابث وميريام كلَّ ما تعرفانه.

"إذا أحضرتَ لي طحينًا و تُفّاحًا وتوتًا..."

فأرجع هاربر رأسه إلى الوراء، ورفع يديه في الهواء. "ربِّي يسوع، إنِّي أُحبُّك!" وراح يغزل ويخبط الأرض بقدميه. "إنِّي أحبُّك! إنِّي أحبُّك!"

حدَّقت إليه آنجل وهو يدور ويقفز كالجندب، وتساءلت: هلِ انفلت زنبرك هذا المسكين تمامًا؟ ورآها تحدِّق إليه، فضحك وقال: "كنتُ جاثيًا على ركبتيَّ طوال الأُسبوع متسائلًا عمَّا يمكن أن أفعله. هل تعرفين ما فعله ذلك السكِّير؟ لقد أراح نفسه في الحساء وقدَّمه للزُّبُن نهار الاثنين بطوله. وهو قال لي ذلك تلك الليلة. وخُيِّل أنَّني سأُشنَق في الصباح، فما كان منه إلَّا أن ضحك وقال إنَّه كان يتبَّل المرَق. ولن أقولَ لكِ ما فعله هذا الصباح أيضًا".

فنظرت إلى الصحن المقعَّر أمامها، وسألت: "هل فعل شيئًا بالفاصوليا؟"

"لا شيء أعرفه".

"لماذا لا أشعر بالاطمئنان؟"

"هيا إلى المطبخ، فأُريكِ ما لديَّ من المؤونة، ويتسنَّى لكِ أن تري ما يمكنكِ أن تصنعي بها. بماذا أناديكِ، يا سيِّدتي؟ لم يخطر في بالي حتَّى سؤالك!"

فقالت: "هوشع، السيِّدة هوشع".

أنزل مايكل الفأس عميقةً في زَند الحطب. فاخترقت الزَّند واستقرَّت في العارضة. فنترها نترةً قويَّة، فحرَّر نصلها. ثمَّ ركَّز زَندًا آخر وشقَّه بضربةٍ واحدة. وفعل الشيءَ عينه مرارًا وتكرارًا حتَّى تكوَّم الحطب حول العارضة. فرفس الحطب جانبًا، وركَّز زندًا آخر. وأهوى بفأسه من جديد، بضربةٍ أشدَّ من ذي قبل، فشقَّ الزَّند حالًا، واصطدمت الفأس بالعارضة وارتدَّت عنها هذه المرَّة، وكادت تصيب ساقه.

أسقط مايكل الفأس من يده وهو يرتجف، ثمَّ خرَّ على ركبتيه. وكان العَرَق يتدفَّق إلى عينيه، فمسحه بقفا ذراعه. وإذا به يسمع حسًّا، فأغمض عينيه نصف إغماضة في ضوء الشمس، ورأى جان ممتطيًا حصانه ومراقبًا إيَّاه. ولم يكن قد سمع وقع حوافر الحصان لدى صعوده. فسأله وصدرُه يختلج: "منذ متى أنت هنا؟"

"منذ دقيقتين".

حاول مايكل أن ينهض، فلم يستطع. فما إن كفَّ عن بذل الجهد المحموم، حتَّى فارقته قوَّته. وتهالك على الأرض من جديد، متَّكئًا على العارضة. ثمَّ رفع نظره وابتسم

لجان ابتسامةً ملتوية. "لم أسمع وصولك. لماذا أتيت؟"
ألقى جان ساعديه على قَرَبوس السَّرج[٢٧] قائلًا: "عندك ها هنا حطبٌ يكفيك شتاءَين!"
"أحضِر عربة وخُذ قدْر ما تشاء".
وإذ ترجَّل جان، صرَّ السَّرج. ثمَّ أقبل وقرفص قبالة مايكل. "لماذا لا تذهب للتفتيش عنها؟"
مرَّر مايكل يدًا مرتجفة في شعره رجوعًا. "دعكَ من هذا الحديث، يا جان". فلم يرغب في بحث الموضوع.
"ما عليك إلَّا أن تزدرد كبرياءك وتمتطي حصانك وتمضي باحثًا عنها. سأعتني بشؤونك في غيابك".
"لا دخل للكبرياء في الأمر".
"فماذا يُعيقك إذًا؟"
أرجع مايكل رأسه إلى الوراء وشهق نَفَسًا عميقًا. "سلامةُ التفكير".
فقطَّب جان. "الأمرُ إذًا كما قال پول".
فنظر إليه مايكل سائلًا: "ماذا قال پول؟" وتجنَّب جان أن يجيب مباشرة، فقال: "لم يقُلِ الكثير. مايكل، إنَّ النساء عاطفيَّات. فإنَّهنَّ أحيانًا يتصرَّفن تصرُّفات خرقاء..."
"لقد فكَّرَتْ في هذا جيِّدًا، ولم يكن تصرُّفًا طارئًا".
"كيف عرفتَ هذا؟"
مشَّط مايكل شعره بأصابعه. كم مرَّةٍ راجع ما فعلته وقالته تلك الليلة الأخيرة. ما زال يستطيع أن يرى جسدها النحيف في ضوء القمر وشعرها الباهت يتماوج حواليها. فأطبق عينيه. "لقد عرفتُ فحسبْ".
"ميريام تلوم نفسها على هذا كلِّه. لم تشأ أن تقول لنا لماذا تعتقد ذلك، لكنَّها مقتنعةٌ به كلَّ الاقتناع".
"لا علاقةَ لها بالأمر. بلِّغها ذلك عن لساني".
"لقد قلتُ لها. وهي حاولَت حمْل پول على إيجاد أماندا لك وإرجاعها إلى البيت".
تمكَّن مايكل من أن يحزر حصيلة ذلك الحديث. فعلى الأقلّ، كان لپول ما يكفي من الإحساس في غضون الأسابيع الماضية حتَّى لا يعرِّج عليه ويشمت به. "إنَّ پول

٢٧) قربوس السرج: الجزء المقوَّس من السرج، الذي يرتفع من أمام ومن خلف.

لم يحبَّ آنجل قطّ؟"

قال جان مشدوهًا: "آنجل؟"

"ماره، أماندا، تِرصة..." وتهدَّج صوت مايكل، ثمَّ أسند رأسه بيده، وقال بصوتٍ أجشّ: "يا يسوع، يا يسوع!" آنجل! إنَّها لم تثق به ثقةً كافية حتى تقول له اسمها الحقيقيّ. أم كان دائمًا يفكِّر فيها باعتبارها آنجل بغير أن يدري ذلك مجرَّد دراية؟ أكان ذلك سبب رحيلها عنه من جديد؟ آه، يا الله، أكان ذلك هو السبب في كونك أردتَ لي أن أدعها تذهب؟

شعر جان ألْطمان بالعجز حيال حزن الرجُل الأصغر منه سنًّا. إنَّه لم يكن يستطيع أن يتصوَّر مجرَّد تصوُّر حياته دون إليزابث. وكان قد رأى كم يحبُّ مايكل أماندا، وميريام أكَّدت أنَّ أماندا تحبُّه. فوضع يده على كتف مايكل. "لعلَّها ترجع من تلقاء ذاتها". وبدت كلماته عديمة المعنى، حتَّى إنَّ مايكل لم يرفع نظره. فأضاف: "ماذا يمكنني أن أفعل لمساعدتك على اجتياز هذا الظرف؟"

أجاب مايكل: " لا شيء". كم مرَّةٍ كانت آنجل قد قالت هذا القول عينه. لا شيء! هل شعرت كما لو أنَّ أحشاءها انتُزِعت؟ هل كان الألم هائلًا جدًّا حتَّى إنَّ مجرَّد ذكره يجعله أسوأ؟ كم مرَّة أثار جراحها، كما كان جان يفعل الآن تمامًا؟ أن يمدَّ المرء يده للمساعدة فلا يؤول ذلك إلَّا إلى إراقة مزيدٍ من الدم!

وقال جان: "سأعود غدًا".

ولكنْ جاءت ميريام بدلًا منه.

قعدَت مع مايكل تحت شجرة الصفصاف، ولم تقل شيئًا. وكان في وسعه أن يسمع فكرها مشتغلًا، وقد ارتسم في الهواء سؤال: لماذا لا تفعل شيئًا؟ غير أنَّها لم تطرحه. ثمَّ دسَّت يدها في جيبها وناولته شيئًا. فغاص قلبه إذ رأى في راحتها خاتم زواج أُمِّه.

وقالت: "خُذه!"

فأخذه، وسأل بصوتٍ متهدِّج: "أين وجدتِه؟"

اغرورقت عينا ميريام. "أعطتني إيَّاه قبل صعودها إلى المركبة. وقد نسيتُ أن أُعطيك إيَّاه أوَّل يوم. ثمَّ إنَّني كنتُ... مرتبكة ومُحرَجة".

أطبق يده على الخاتم قائلًا: "شُكرًا!" ولم يسألها شيئًا.

"هل غيَّرتَ فكرك، يا مايكل؟ هل تنوي أن تحاول العثور عليها؟"

رمقها بنظرةٍ ثابتة. "لا، يا ميريام. ولا تطلبي منِّي هذا بعد".

لم تلبث ميريام طويلًا بعد ذلك. لقد قالت كلَّ ما استطاعت يوم تركَته أماندا، ولم تقدر أن تقنعه.

عرف مايكل جميع الدوافع الممكنة لفرار أماندا. ولكنْ ما وراء ذلك، ما وراء الإدراك، عرف أنَّ مشيئة الله كانت جارية. فسأل مُوجَعًا: "لماذا بهذه الطريقة؟ لماذا طلبتَ منّي أن أُحِبَّها إذا كنتَ عازمًا فقط على انتزاعها منّي؟"

اغتاظ من الله، واكتأب على زوجته. وكفَّ عن قراءة كتابه المقدَّس. وانقطع عن الصلاة. ونقَّب داخل نفسه للعثور على أجوبة، فلم يجد أيَّ جواب. ثمَّ إنَّه حلم أحلامًا قاتمةً مُربِكة فيها قوىً تُطبِق عليه.

ولم يعُد الصوت الهادئ الرائق يتكلَّم إليه، على مدى أسابيع وأشهر. لقد كان الله صامتًا ومختبئًا، ومقصده لغزًا. وغدت الحياة أرضًا خرابًا قاحلة جدًّا حتَّى لم يعد يقدر أن يتحمَّلها، فصاح:

"لماذا تركتَني؟"

يا محبوب، أنا دائمًا معك، إلى انقضاء الدهر.

ثمَّ خفَّف مايكل وتيرة عمله المحمومة والتمس العزاء في كلمة الله المقدَّسة. ما عدتُ أفهم شيئًا، يا ربّ. إنَّ فقداني لها يُشبه فقدان نصف ذاتي. لقد أحبَّتني. أعرف أنَّها أحبَّتني. لماذا دفعتها بعيدًا عنّي؟

وجاءه الجواب على مهل، مع تغيُّر المواسم.

لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي!

لا يُعقَل أن يكون ذلك صحيحًا.

وتفاقم سخط مايكل. "متى عبدتُ أحدًا سواك أنت؟" واغتاظ أيضًا. "لقد تبعتُك طوال حياتي. لم أضع قطُّ أحدًا أمامك". ثمَّ كوَّر يديه قبضتين وبكى. "إنَّني أُحبُّها، ولكنَّني لم أجعلها قطُّ إلهًا لي".

وفي السكون الذي أعقب سيل كلماته الغاضب، سمع... وأخيرًا فهم.

لقد صرتَ لها.

وقفت آنجل وسط الشارع الذي يكتنفه الظلام وراقبت مقهى هارپر يحترق. وكان كلُّ

ما عملت لأجله طيلة الأشهر الستّة الماضية يحترق معه. وكلُّ ما بقي لديها كان فستان الجِنهام البالي الذي كانت تلبسه، والوزرة الملطّخة التي على وسطها.

لم يحصل إنذارٌ يُذكر. فقد اندفع ڤرجيل إلى المطبخ زاعقًا بأنَّ ثمّة نارًا. ولم يُتَح لها أيُّ وقتٍ لطرح أيِّ سؤال إذ سحبها خارجًا. وكان مبنيان يحترقان على بُعد بضعة أبواب. ثمَّ هبّت ريحٌ فنشرت النار إلى المباني المتبقّية في الصفّ كلّه.

كان الناس يتراكضون هائجين مائجين، وبعضُهم في ذُعر شديد، وآخرون يُصدِرون التوجيهات صياحًا، وغيرهم يتجمعون ويتناقلون دلاء الماء مسعورين، محاولين أن يسيطروا على النار، إنّما دون جدوى. وعبق الهواء بالرماد والدخان، وارتفعت ألسنة اللهيب في لونٍ برتقاليٍّ متوهّج على صفحة سماء الليل.

راقبت آنجل عاجزةً المقهى ينهار في انفجار من الشرار واللهب. وبكى ڤرجيل. لقد كان شغله يجري حسنًا. فرغم محدوديّة أصناف طعامه، كان ما يقدّمه فاخرًا، وذاع صيته بسرعة.

قعدت آنجل على برميل دحرجه أحدهم من مبنىً. وكان الرجال قد سحبوا كلَّ ما استطاعوا جرّه أو حمله من مبانيهم. فغدا الشارع مرصوفًا بالبضائع والأثاث والأكياس. لماذا لم يخطر في بالها أن تحذو حذوهم؟ إنّها لم تفكّر ولو في صعود الدرج بسرعة وإحضار أمتعتها. فقد كان في وسعها إن تدسَّ كلَّ شيءٍ في كيس سفرها وتخرج خارجًا في الوقت المناسب.

لمّا وصلت النار إلى آخر الشارع، توقّفت. فقد سكنت الريح، وانقطع الهرج والمرج. وبدا في الشارع، صعودًا ونزولًا، أُناسٌ واقفون يائسين يراقبون ألسنة اللهيب تلتهم ما بقي من أحلامهم. وقعد ڤرجيل على الأرض، واضعًا رأسه في يديه. واستولى الاكتئاب على آنجل كحِرامٍ رطبٍ بارد. ماذا ستفعل الآن؟ تطلّعت حواليها فرأت غيرها في وضع كوضعها. ماذا يفعل مايكل لو كان هُنا؟ علمَت أنّه ما كان ليستسلم لليأس على الإطلاق، بل كان يفعل شيئًا ما لهؤلاء الناس. ولكنْ ماذا يمكنها هي أن تفعل؟ إنّها مجرَّد امرأة، مُعدِمة بائسة. إنّما الأمر الوحيد الذي علمت أنّها لا تستطيع أن تفعله هو أن تقف جانبًا وتراقب ڤرجيل ينتحب في الشارع.

قعدت قربه على التراب. "حالما تخمد النار، سننقّب عمّا بقي ونرى هل يوجد ما يمكن أن نستنقذه".

"أيُّ نفعٍ في ذلك؟ ليس عندي مالٌ يكفي لإعادة البناء". وكان ينشج.

فوضعت ذراعها حول كتفيه. "الأرض لها ثمن. ربّما تأخذ قرضًا برهنها، وتبدأ بذلك من جديد".

ثمّ ناما بين أكداسٍ من الرّزَم، مستخدِمَين حِراماتٍ مستعارة. وعند الفجر، نقّبا بين الرماد والركام. وعثرت آنجل على قُدورٍ ومقالٍ معدنيّة يعلوها السخام. وكان الفرن صالحًا للاستعمال بعد. وبينما ذابت بعض الأدوات، بقيت صحونٌ كثيرةٌ سليمةً يمكن أن تعود صالحة للاستعمال بعد غسلها وفركها جيّدًا.

استراحت آنجل ووجهها مُغشّىً بالرماد، وحنجرتُها موجَعةٌ من تنشُّقه. وقد كانت جائعة ومُجهَدة، كلُّ عضلة في جسمها تؤلمها. ولكن ڤرجيل على الأقلّ بات يشعر بمزيد من الأمل، مع أنّه لم يعثر بعد على مكانٍ يُقيمان فيه. فالفنادق في تلك المحلّة كانت تغصّ بالنزلاء المستأجِرين، ولم يكن واردًا أن تُفسِح في المجال للذين لا مال لديهم ليبيتوا في أروقتها. وقد روّعت آنجل فكرة النوم في العراء على مقربة من سديم الخليج البارد. إلّا أنّها افترضت أنّ الأمور كان يمكن أن تكون أسوأ. وقد أعطاهما أحدهم حِرامَين إضافيَّين.

ثمّ تعاونا على إزالة الخشب المحروق. وجمعت آنجل كِسَر الزجاج من النوافذ المحطّمة في دلوٍ كانت تُفرِغه في كومة حتّى يُنقل بعربة اليد ويُرمى لاحقًا. وقد شحب ڤرجيل من فرط الإجهاد. "أعتقد أنّنا سنُضطر إلى التخييم ها هنا ريثما يتسنّى لي اقتراض المال لبناء المقهى من جديد. لدى القسّيس مكانٌ في الكنيسة إن شئتِ أن تمكثي هناك. سيذهب بعضٌ من الآخرين".

قالت: "لا، شكرًا". فقد كان أهون عليها أن تنام في الوحل ولا تذهب إلى كنيسة طلبًا للمعونة.

وأومأ ڤرجيل برأسه نحو بضعة رجال مصطفّين أمام مبنى عبر الشارع. "لقد أقام الأب پاتريك مطعمًا مجّانيًّا هناك. فاذهبي وأحضري ما تأكلينه".

فقالت كاذبةً: "لستُ جائعة". لن تطلب من قسّيسٍ أيَّ شيء.

غير أنّها كانت بحاجة ماسّة إلى شربة ماء. وكانت بضعة براميل قد وضِعت خارجًا للشرب. وأرادت أن تغسل وجهها، إلّا أنّ المياه الأُخرى المتوفرة كانت في حوض. فتنهّدت وأقنعت نفسها بأنّ تلك المياه ربّما كانت أنظف منها هي. ثمّ انحنت فوقها واغترفت الماء براحتَيها، وغسلت وجهها، فجعلها الماء تشعر بالانتعاش.

"مرحبًا آنجل! لقد مرّ زمان طويل، طويلٌ جدًّا".

توقَّف قلبُها. لا بدَّ أنَّها تتخيَّل ذلك الصوت العميق. ثمَّ رفعت رأسها ببطء، وقلبُها يخبط خبطًا، ووجهُها مبلولٌ يتقطَّر منه الماء.

فإذا دُوك واقفٌ أمامها، وفمُه مُلتوٍ بابتسامةٍ جهنميَّة.

الفصل
الثلاثون

أيضًا إذا سرتُ في وادي ظلّ الموت
لا أخاف شرًا،
لأنك أنت معي.

(المزمور ٢٣: ٤)

اجتاحت حملقة دوك الهازئة فستان الجنهام الملطّخ الذي كانت آنجل ترتديه، والتوى فمه بابتسامةٍ ساخرة. "سبق أن رأيتُكِ ظاهرةً بمظهر أفضل، يا عزيزتي".

فجمدت عند رؤيته. حتّى إذا اقترب منها ولمسها، كاد يُغمى عليها.

ونظر إليها من فوق إلى تحت، قائلًا: "يبدو أنّكِ مهما هربتِ بعيدًا عنّي لن تستطيعي الإفلات منّي؛ أليس كذلك؟ لقد كبرتِ فصرتِ امرأةً جميلةً جدًّا تحت هذا السخام كلّه". ونظر حواليه إلى المباني المحروقة والمنهارة. "أكنتِ تشتغلين في واحدٍ من هذه الدكاكين الصغيرة الحقيرة؟"

ولمّا نظر إليها من جديد، عاودها صوتُها، فقالت وأحشاؤها ترتعش: "كنتُ طبّاخة في مقهى هارپر".

قال ضاحكًا: "طبّاخة؟ أنتِ؟ يا لَلفخامة، أيّتها العزيزة! ماذا كان اختصاصكِ؟" وبينما هو يتكلّم، أجال نظره على الرجال المشتغلين في المباني المحروقة. "لقد قلقتُ عليكِ. خشيتُ أن ينتهي بكِ المطاف إلى صحبة صعلوك مثل جوني". واستقرّت عيناه على ڤرجيل منقبًّا بين الركام. "إنّما انتهى بك المطاف إلى رِفقة سنجابٍ صغير".

ميّزت تلك النظرة السوداء، وعلمت أنّها لا تضمر خيرًا تجاه ڤرجيل الذي لم يُبدِ لها سوى اللُّطف والمودّة. وقد كانت كفّاها تتعرّقان، إلّا أنّه كان عليها أن تصرف نظره عن الرجل الضئيل الذي سبق أن ساعدها. "يقينًا أنّك لم تقطع طول الطريق إلى كاليفورنيا كي تعثر عليّ، وأنتَ صاحبُ الأُمور المهمّة الكثيرة التي ينبغي إنجازها!"

ابتسم لها ابتسامة تهكُّم: "تطلّعي حواليكِ، يا عزيزتي. ها هنا ثروة تنتظر مَن يجنيها. لقد جئتُ لاستيفاء حصّتي!"

ورآهما ڤرجيل فأقبل إليهما. فلم تنجح نظرتُها إليه في إبقائه بعيدًا. بل على العكس، إذ أقبل مسرعًا. ونظر إلى دوك صعودًا ونزولًا، ثمَّ التفت إليها قلِقًا: "أأَنتِ بخير، يا سيِّدتي؟ هل يزعجكِ هذا الرجل؟"

ماذا حسب الغبيُّ الصغير أنَّه يقدر أن يفعل حيال ذلك؟ "أنا بخير يا ڤرجيل".

وابتسم له دوك ابتسامةً باردة. "ألَن تُعرِّفينا بعضنا ببعض، يا عزيزتي؟"

وفعلت ذلك. وبدا واضحًا أنَّ ڤرجيل كان قد سمع باسم دوك قبلًا، إذ ظهر عليه الذهول. " أَتعرفين هذا الرجل؟"

"أنا وآنجل صديقان قديمان وعزيزان جدًّا".

ونظر إليها ڤرجيل، فشعرت بضرورة قول شيءٍ بعد في محاولةِ تفسير. إلَّا أنَّ ما تستطيع قوله كان قليلًا. "لقد تعارفنا في نيويورك، منذ زمنٍ بعيد جدًّا".

فقال دوك بلهجةٍ تملُّكيَّة: "ليس من زمانٍ بعيدٍ جدًّا".

وسأل ڤرجيل: "ألستَ صاحب ذلك المكان الفخم الكبير عبر الميدان؟"

فقال دوك مُتشدِّقًا عابثًا: "صحيح. هل تردَّدت إلى طاولاتي؟"

أجاب ڤرجيل بجفاف: "لم يكن ذلك في متناوَل يدي".

ثمَّ قال دوك، شادًّا يده على مرفق آنجل. "هلَّا غضي، يا آنجل!"

فنظر ڤرجيل إليها قائلًا: "تمضيان؟ إلى أين؟"

أجاب دوك محذِّرًا: "لا أعتقد أنَّ هذا شأنٌ من شؤونك!"

فانتصب ڤرجيل بقامته الكاملة التي لا تتعدَّى مترًا ونصف. "يكون من شؤوني إذا كانت لا ترغب في الذهاب معك".

وضحك دوك.

فوجئت آنجل وتأثَّرت من استعداد ڤرجيل للدفاع عنها، ولو في مواجهة رجل مثل دوك الذي يستطيع القضاء عليه بلا جهد يُذكَر، كما هو ظاهر. "أنا..." وشعرت بأصابع دوك تُطبِق بشدَّة على ذراعها، وخافت ممَّا قد يفعله بـڤرجيل إذا تردَّدت مجرَّد تردُّد في الذهاب معه.

"أنا آسفة، يا ڤرجيل". فبدا على المسكين الضئيل الارتباك والأذى. ونظر إليها، فشعرت أنَّها قد خانته هو أيضًا، بعدم كونها صادقة من أوَّل الطريق. هل فكَّرت حقًّا في احتمالِ أن تعيش حياة مختلفة؟ أيُّ حقٍّ كان لها في ذلك؟

وقال دوك: "سيكون عليك أن تعثر على طبَّاخة جديدة. فهي سترجع إلى حيث تنتمي".

"أواثقةٌ أنتِ، يا سيِّدتي؟"

التهبت عينا دوك القاتمتان انزعاجًا من كون صاحب هذا المقهى الصغير قد اعتقد أنَّ في وسعه أن يعرقله إذا أراد. فقال ناظرًا شزرًا إلى أنجل وقد أعمى نفادُ الصبر عينيه: "ربَّما كان عليَّ أن أتعامل معه كما تعاملت مع جوني!"

وسأل ڤرجيل: "جُوني، مَن؟" مُبديًا كلَّ هدوء واستعدادٍ للتحدِّي. فعلى الرغم من قِصَر قامته البالغ، لم تكن تعوزه الشجاعة. إنَّما الأمر الوحيد الذي أعوَزه كان الفطرة السليمة.

وقالت أنجل متوسِّلةً: "رجاءً، لا تفعل ذلك يا دوك. سأمضي معك".

فأبدى دوك اللطف من جديد، وابتسم لڤرجيل، قائلًا لأنجل: "لقد أصبحتِ بالغة التهذيب، يا عزيزتي"، ثمَّ لڤرجيل: "أَتملكُ قطعة الأرض هذه؟"

وأجاب ڤرجيل بحذر: "نعم".

"هل تُريد أن تبيعها؟"

"ليس لقاءَ حياتك!"

فضحك دوك وقال: "لا؟ حسنًا، إذا احتجت إلى نقود كي تُرمِّم المقهى، فاذهب إليَّ حتَّى نتَّفق. وإن صعب عليك أن تعثر على طبَّاخة أُخرى، فقد أُساعِدك في ذلك أيضًا". وبدا عليه الانشراح.

وقال ڤرجيل: "شكرًا". إلَّا أنَّ أنجل لاحظت أنَّه لن يستأمن دوك على شيء.

"سيِّدة هوشع، أواثقةٌ أنتِ من هذا؟"

"سيِّدة هوشع؟" قالها دوك بصوتٍ خافت، رافعًا أحد حاجبيه الأسودين إذ نظر إليها من علٍ، فكاد قلبُها يطفر من فمها.

وأجابت: "نعم، يا ڤرجيل، أنا واثقة".

ثمَّ اقتادها دوك مُبتعِدًا بها، ضاحكًا بصوتٍ منخفِض كمن يضحك لنكتةٍ رائعة. وحاولت أنجل أن تُفكِّر في ما تفعله، إلَّا أنَّ اليد الشديدة على ذراعها شلَّت عقلها. مايكل، آه يا مايكل! فهو قد شقَّ طريقه إلى خارج الحانة في ﭙيرأدايس مقاتلًا لأجلها، ولكنَّه لن يكون هنا هذه المرَّة كي يقاتل في سبيلها. فها هي وحيدة، ودُوك مُمسِكٌ بها بشدَّة بالغة أكَّدت لها أنَّه لا ينوي أن يدعها تُفلِت منه مرَّةً أخرى.

"إذًا تزوَّجتِ، يا عزيزتي؟ أَكان ذلك مسلِّيًا ما دام قائمًا، أم كان مجرَّد تظاهُر؟"

ثمَّ أدخلها إلى نادي مقامرة كبير. ولم تكد تُلاحِظ ما يحيط بها وهو سائرٌ بها بين

الطاولات. كان كلُّ شيء فاخرًا، ولكنَّ دوك آنذاك أيضًا كان يفعل كلَّ شيء على أفخم ما يكون.

كان الرجال يُلقون عليه التحيّات ويحدِّقون إليها متحرِّزين، فيما مشت هي رافعةَ الرأس وعيناها ناظرتان قدّامها. ثمَّ صعدا الدرج وسارا في رواقٍ مغشّىً بطلاءٍ كثيف فاخر. وثار الذُّعر داخل آنجل إذ تذكَّرت رواقًا آخر يبعد نحو خمسة آلاف كيلومتر وما كان ينتظرها عند نهايته. ثمَّ فتح دوك بابًا ودفعها إلى الداخل أمامه.

كانت صبيّة سمراء جميلة نائمة في سرير نحاسيٍّ مُغضَّن. فتقدَّم إليها دوك وصفعها صفعةً قويّة. فاستيقظت صارخةً من الألم. "اخرجي من هنا". فنزلت المومس الشابَّة عن السرير بصعوبة، واختطفت روبها، وهربت. وابتسم دوك لآنجل. "ستكون هذه غرفتكِ".

لم تستطع أن تستسلم بسهولة: "أليس لي خِيار؟"

فتشدَّق: "ما زلتِ عنيدة"، وأقبل نحوها ببطء. ثمَّ أمسك بوجهها بإحكام، وراح يحدِّق في عينيها. وحاولت إخفاء خوفها بردِّ الحملقة إليه، إلَّا أنَّها لم تستطع أن تخدعه. فقد علم تمامًا أنَّها كانت تتظاهر، فابتسم. "أنتِ في بيتكِ، يا عزيزتي. تمامًا في المكان الذي تنتمين إليه. ينبغي لكِ أن تكوني سعيدة". ثمَّ زلَّق يده وأمسك بخناقها بقبضةٍ مرتخية قليلًا. "يظهر أنَّكِ مسيطرة على الأمور، ولكنَّ قلبك يخبط كقلب أرنب مرتعب".

ثمَّ أشعل سيكار شيروت، والتفت إليها عبر الدخان. "أنتِ شاحبة جدًّا، يا عزيزتي. هل تظنِّين أنَّني سأُلحِق بكِ الأذى؟" وقبَّل جبينها بعطفٍ أبويّ، هازئًا بها كما كان يفعل دائمًا عندما تتجرَّأ على تحدِّيه. "لنتحدّث في ما بعد؛ أليس كذلك؟" ثمَّ ربَّت خدَّها كأنَّها طفلة، وغادر الغرفة.

استيقظ مايكل وقد غسَّله عَرَق بارد. كان قد رآها واقفةً وسط نار، مناديةً إيّاه باسمه مرارًا وتكرارًا. ولم يستطع الوصول إليها مهما حاول جاهدًا، إلَّا أنَّه شاهد شخصًا قاتمًا ماشيًا بين ألسنة اللهيب صوبها.

مرَّر في شعره المبلول يدين مرتعشتين. وكان العرق يجري على صدره العاري، ولم يقدر أن يتوقَّف عن الارتعاش. "لقد كان مجرَّد حلم!"

كان نذير الشؤم الذي شعر به ثقيلًا جدًّا حتَّى اعتراه الغثيان. وصلَّى. ثمَّ نهض من السرير وخرج خارجًا. سيطلع الفجر قريبًا، وستبدو الأمور أفضل في نور النهار.

ولمَّا بزغ الفجر، لم يفارقه الشعور بأنَّ ثمَّة خطبًا ما، فصلَّى ثانيةً بحرارة. لقد غمر قلبَه الخوف على زوجته.

أين كانت؟ وكيف تعيش؟ أكانت جائعة؟ ألديها مأوى؟ وكيف تشقُّ طريقها في الحياة؟ لماذا لم ترجع إليه؟

تدلَّى في الهواء شيءٌ مشؤوم طول النهار، استطاع أن يشعر به كغمامة سوداء تكتنف نفسه، وعلم دون ريبٍ أنَّ الأمر يتعلَّق بأماندا. فأخذ يصلِّي لأجلها بلا انقطاع.

لقد علم أنَّه عاجز. فليس من شيء يستطيع فعله، إذا كانت في ورطة. ولم يكن يدري أين هي، ولا أيَّ نوع من المعونة تحتاج إليه، غير أنَّ صرف ذهنه عنها كان أمرًا صعبًا جدًّا. فهو ما زال يحبُّها حبًّا جمًّا. ولقد توكَّل على الله كي يحميه ويهديه. فلماذا لا يمكنه أن يثق بأنَّ الربَّ سيفعل لها الشيء عينه؟

لأنَّه علم أنَّها لم تكن مؤمنة.

جرَّبت آنجل مسكة الباب، إلَّا أنَّه كان مُقفلًا. فتوجَّهت إلى النافذة وأزاحت الستائر المخرَّمة الأنيقة لتنظر خارجًا. لا سبيلَ إلى الخروج من هناك أيضًا. فإنَّ دوك أحبَّ أن يحرس أملاكه جيِّدًا.

ذرعت أنحاء الغرفة وكفّاها متعرِّقتان، وهي تفكِّر في ما عسى أن يفعله بها. لم تنخدع به. لقد كان يشتعل غضبًا وراء تصرُّفه الودود. وقد عمل تركُه إيَّاها وحدها لأجل مصلحته هو. ذلك أنَّه كان يعلم أنَّها ستلتهم نفسها بجميع الأفكار التي ستجيش في رأسها من جهة ما قد يفعله. ثمَّ همست لنفسها: "ليس هذه المرَّة. ليس مرَّةً أُخرى!"

وتطلَّعت حواليها، فقرَّرت أنَّها تستطيع أن تُسوِّي السرير وتُرتِّب الغرفة. يمكنها أن تفعل شيئًا ما لإبعاد ذهنها عمَّا هو محتوم. وإذ فرغت من هذه الشؤون اليسيرة، جلست إلى النافذة تراقب الناس يروحون ويجيئون في الشارع. ثمَّ انتابها الخوف من جديد. فأغمضت عينيها بإحكام، وصارعت خوفها. "مايكل، مايكل، أرِني ماذا أفعل". وتصوَّرته يشتغل في الحقول. واستطاعت أن تراه يعتدل، والمِعوَلُ في يده والابتسامةُ تعلو وجهه. كما استطاعت أن تراه قاعدًا قبالة النار والكتابُ المقدَّس في حضنه. وقال لها: "توكَّلي على الربّ. توكَّلي على الربّ!"

ثمَّ انفتح الباب، فأرغمت نفسها على البقاء هادئةً في مكانها لدى دخول دوك.

وقد تبعه رجلٌ فظّ. فتظاهرت باللامبالاة إذ جمع الخادم أمتعة المرأة الأُخرى من الخزانة وأخرجهنّ من الغرفة. ووقف دوك يتأمَّلها بخمول. فرفعت نظرها إليه وابتسمت ابتسامةً واهيةً. لن تجعلني أزحف، أيُّها الشيطان. لَن تقلب ذهني داخلًا إلى خارج هذه المرّة. سأُفكّر في مايكل. سأظلُّ أُفكّر في مايكل فحسْب.

ودخل خادمٌ صينيٌّ ليُجرِّد السرير ويضع عليه بياضات جديدة.

كانت آنجل جالسة بهدوء على الكرسيّ العالي الظَّهر، مُسنِدةً يديها قليلًا على ذراعيه، وقلبها يخفق بشدَّة. لم يكن دوك قد تحرَّك أو قال أيّة كلمة، ولكنَّها عرفت تلك النظرة، واشتبك الخوف كعقدة في أحشائها. تُرى، أيُّ عقابٍ يفكّر فيه؟

وقال دوك آمرًا: "أحضِر حوض الاغتسال إلى هنا". فانحنى الصينيّ. "وتحقَّق من إحضار ما يكفيها من الماء الساخن". فانحنى الصينيُّ ثانيةً وخرج متراجعًا من الباب. وضاقت عينا دوك إذ تفحَّص وجهها طويلًا.

"سأُرسِل مَن يعتني بك". ثمَّ دار وخرج.

تنفَّست آنجل الصُعَداء مندهشةً. لقد أزعجه سلوكُها. ولم تكن قطُّ قد تمكَّنت من خداعه قبلًا. ولكنْ كان قد مضى آنذاك نحو ثلاث سنين على آخر مرَّة شاهدها فيها. فلعلَّه نسي مخادعتها.

ولعلَّ ذلك لن يزيد الأُمور إلّا سوءًا.

أقبلت فتاةٌ صغيرة تُساعِدها على خلع ثيابها. لم تكن تتعدَّى الثالثة عشرة. فعلمت آنجل أنَّها ليست معشوقة دوك، وإن كان ممكنًا جدًّا أنَّها كانت كذلك في ما مضى. وقد كانت جميلة إلى حدٍّ بعيد. غير أنَّ آنجل علمت أنَّه ما دامت فتاةٌ ما لدوك حصرًا يكون وجهُها نظيفًا، ويُطلى بالمساحيق الملوَّنة، ويُضفَر شعرُها ويُربَط بالشرائط. أمَّا خدّا هذه الفتاة وشفتاها فكانت محمَّرة، وشعرها مُسبَلًا في كتلة معقَّصة[٢٩] على كتفيها. وقد بدا عليها منظر شخصٍ خرج من الجحيم لتوّه.

فتحرَّكت شفقة آنجل، وابتسمت للفتاة. "ما اسمُكِ؟"

أجابت الفتاة: "شَرِي"، مكوِّمةً فستان آنجل المصنوع من الجنهام وملابسها الداخليّة بجانب الباب.

"أودُّ أن تُردَّ هذه الثياب إليَّ بعد غسلها".

٢٩) مُعقَّصة: متشابِكة.

"طلب دوك أن أرميها".

"وعلى الجميع إطاعة دوك دائمًا". لكنّها لم تُرِد أن تُوقِع الفتاة في ورطة. "هل أتى بكِ إلى كاليفورنيا معه؟"

فقالت الفتاة وهي تجسُّ الماء: "بي وبثلاث فتيات أُخريات. ليس الماء ساخنًا كثيرًا. يمكنكِ أن تستحمّي الآن".

خلعت آنجل قميصها الداخلي المهلهل. وإذ نزلت في المياه الدافئة، تنهّدت. مهما حصل، فستكون نظيفة عند حصوله. من الخارج على الأقلّ. "منذ متى أنتِ هنا؟"

أجابت الفتاة: "منذ ثمانية شهور".

تجهّمت آنجل. لقد كانت تُقيم على بُعد بضعة مبانٍ من دوك طوال تلك المدّة ولم تدرِ ذلك. لعلّ القَدَر شاء أن تكون معه!

قالت شَرِي: "أنتِ جميلة جدًّا".

فنظرت آنجل إلى الفتاة بفتور، قائلةً: "وأنتِ كذلك!" فتاةٌ باهته جميلة ذات عينين زرقاوين مذعورتين. وامتلأ قلبها عطفًا عليها.

وسألت شَرِي: "هل تودّين أن أغسل لكِ شعركِ؟"

"ما أودّه هو أن أجد سبيلًا للخروج من هنا". وجمّدتِ المفاجأة شري، فابتسمت آنجل في هزءٍ ذاتيّ. "ولكنّ ذلك مستحيل؛ أليس كذلك؟" ثمّ أخذت الإسفنجة والصابونة المعطّرة بالخُزامى[٣٠] من يد الفتاة، ولم تقل كلمةً أُخرى.

ودخل دوك بغير أن يقرع الباب. فقفزت شَرِي، شاحبةَ الوجه. ووضعت آنجل يدها على يد الفتاة فأحسّت كم كانت باردة. كانت بضعة أرواب من الساتان على ذراع دوك، فوضعهنّ على طرف السرير بمنتهى الكياسة. "شَرِي، اتركينا وحدنا". فخرجت الفتاة من الغرفة عَدْوًا.

حصّنت آنجل كلّ دفاعاتها غاضبةً، وتابعتِ الاستحمام وكأنّ دوك ليس هناك. وقد كان يحدّق إليها. وقد شعرت بالانزعاج من ذلك التفحُّص الخبيث، نهضت ولفّت حولها منشفة كبيرة. فناولها واحدةً أُخرى صُغرى لشعرها. ولفّتها حول رأسها كالعمامة. ثمّ نشر لها عباءة ساتان زرقاء، فارتدتها وربّطتها بإحكام. ووضع يده على كتفها، مُديرًا وجهها نحوه.

٣٠) الخزامى: نبات عطري تُستخرَج منه زيوت تُستخدَم في صناعة العطور.

"لم تعودي آنجلي الصغيرةَ بعدُ، أفأنتِ كذلك؟"

فقالت وقد سرت فيها القُشَعريرة لدى لمسه إيَّاها: "لم يكن ممكنًا أن أبقى طفلةً إلى الأبد".

"أمرٌ يُرثَى له!" ومدَّ لها يديه بكرسيٍّ. فأرغمت نفْسها على أن تبقى هادئة وهي تقعد، متنفِّسةً ببطء.

"لا بدَّ أنَّكِ جائعة جدًّا". ثمَّ جذب حبل الجرس، فدخل الخادم الصينيُّ حاملًا طبقًا كبيرًا. وما إن وضع الطبق أمامها على الطاولة، حتَّى صرفه دوك بإشارةٍ من يده. ثمَّ أزال بيده الأغطية الفضّيَّة، وقال باسمًا: "كلُّ ما تشتهيه نفسُكِ، يا عزيزتي".

كان الطعام وليمة: شريحة ثخينة رَخْصة من لحم العجل، بطاطا بالقشدة، خُضَر مخلوطة تقطر منها الزبدة. بل كانت هناك أيضًا قطعةٌ كبيرة من كعكة الشوكولا. ولم تكن قد تناولت وجبةً كتلك منذ غادرت ماخور نيويورك. فتحلَّب فمُها، وتوتَّرت معدتها.

ثمَّ رفع دوك بيده إبريقًا فضيًّا، وملأ كأسًا بلوريَّة بالحليب، وناولها إيَّاها قائلًا: "لطالما كنتِ تفضِّلين هذا على الشمبانيا؛ أليس كذلك؟"

تناولت الكأس من يده. "أتُسمِّن العجل قبل ذبحه، يا دوك؟"

"العجل الذهبيّ؟ ألا أكون غبيًّا الآن إذا فعلتُ هذا؟"

لم تكن قد أكَلت منذ ما قبل الحريق، إذ رفضت بعنادٍ الإحسانَ الذي قدَّمه القسِّيس. فإذا أكلَت من حسابه، يتوقَّع منها أن تعترف له بمعاناة نفسها، ثمَّ يقول لها إنَّ ما فعلَته يستحيل التكفير عنه. لذلك كانت الآن جائعة جوعًا شديدًا.

وقال دوك: "سأعود إليكِ لاحقًا"، ففاجأها ثانيةً، إذ كانت قد توقَّعت منه أن يبقى. وما إن خرج من الباب، حتَّى أقبلت على الوجبة الشهيَّة بنهم. ولم تكن قد ذاقت طعامًا بهذه الجودة منذ ثلاث سنين. فقد كان من شأن دوك دائمًا أن يبسط مائدةً فاخرة. وسكبت لنفسها كأس حليبٍ ثانية.

ولم تدرك ما فعلته إلَّا بعدما امتلأ بطنها، فملأ الخزي نفسها.

آه يا مايكل، إنَّني ضعيفة. إنَّني ضعيفة جدًّا! كنتُ على حقٍّ بتركي إيَّاك. انظر إليَّ! أحشو بطني بطعام دوك. أبيع نفسي بشريحة لحم وقطعة من الكعك بالشوكولا، مع أنَّني آليتُ على نفسي أن أموت جوعًا قبل الرجوع إلى طُرقي القديمة. لستُ أدري كيف أكون صالحة! لقد استطعتُ تدبير الحال فقط حين كنتُ معك.

"إنكِ تبدين شديدة الاضطراب، يا عزيزتي. ما بكِ؟ أأزعجكِ شيءٌ أكلتِه؟"

أجفلها صوت دوك، إذ لم تكن قد سمعت حسّه راجعًا إلى الغرفة: "أم يُقلِقُكِ أيّ عقابٍ سأُنزِل بكِ؟"

دفعتِ الصحن الفارغ بعيدًا، ووجهُها ملتهبٌ من المهانة، وقد اعتراها الغثيانُ من جرَّاء ما فعلَت. وقالت بصوتٍ مُفلطَح: "لا يهمُّني ما تفعله". ثمَّ نهضت وأدارت له ظهرها. وإذ أزاحت الستائر المخرّمة عن النافذة، سرَّحت نظرها في شارع المدينة المزدحم. ماذا جرى لتلك القوّة الخلقيَّة المتينة التي كانت حين كنتُ معك، يا مايكل؟ ها قد فارقَتني من جديد. وأنا أكاد أعود أَنجِل مرَّةً أُخرى. وذلك كلُّه في غضون سُوَيعات، ولقاءَ طبق عشاءٍ واحد!

ثمَّ أغمضَت عينيها. أللهمَّ، إذا كنتَ موجودًا، فاصرعني حالًا. اقتلني حتّى لا استسلم كليًّا. لا قوّة عندي لأُقاتل هذا الشيطان. لا قوّة لديَّ البتَّة!

قال دوك بلهجةٍ مُداهَنة: "لقد قلقتُ عليكِ". وأحسَّت يديه على كتفيها، وإبهامَيه تمسِّدان عضلاتها المشدودة. "ليس في قلبي سوى مصلحتكِ الفُضلى".

فقالت بجفاف: "كما هي الحال دائمًا".

"أكان عليكِ يومًا أن تتعاملي مع الطبقات الدُّنيا، يا عزيزتي؟ لم تحوزي إلَّا الأفضل. كم فتاةً في السادسة عشرة زارها بانتظام شيخٌ أو قاضي قُضاة؟ أو قُطبُ تجارة؟ لقدِ انهار شارلز تمامًا عند رحيلك. وقد كلَّف مصادر معلوماته الخاصَّة البحثَ عنكِ. وهو مَن قال لي إنَّكِ كنتِ على ظهر سفينة مُبحِرة إلى كاليفورنيا".

قالت: "شارلز، العزيز القديم الطيِّب!" متذكِّرةً ذلك الشابَّ المدلَّل. ونفضت عن كتفيها يدي دوك، ثمَّ واجهته. "ماذا لو قلتُ لكِ إنَّني أردتُ الرحيل؟"

فبوَّز قليلًا، وقال: "خبِّريني عن هذا الرجل هوشع!"

فاشتدّ توتُّر عضلها. "لماذا تودُّ أن تعرف عنه؟"

"من باب الفضول فقط، يا عزيزتي".

عسى أن يؤتَيها الكلام عن مايكل القوَّةَ لمقاومة أيِّ أمرٍ قد يحصل.

"إنَّه فلّاح!"

قال دوك: "فلّاح؟" وقد فوجئ وعاوده المَرَح. "هل تعلَّمتِ أن تحرثي، يا أَنجِل؟ هل تستطيعين أن تحلبي بقرة وترقعي خرقًا كبيرًا؟ هل تمتَّعتِ بوجود التراب تحت أظافرك؟" ثمَّ تناول يدها وقلبَها حتّى صار كفُّها إلى فوق، إلَّا أنَّها ظلَّت غير مكترثة. فقال مشمئزًّا: "كَلاكِل!" وأفلت يدها.

قالت بفخر: "نعم، كَلاكِل! حتَّى ويداي مُغطَّاتان بالتراب والعرق، كنتُ معه أنظف ممَّا كنتُ معك يومًا".

فصفعها، فانقلبت إلى الوراء. وإذ نهضت، رأت في وجهها شيئًا جعلها أقلَّ خوفًا. لم تكن متيقِّنة بماهيَّة ما رأته، غير أنَّه لم يبدُ كاملَ السيطرة على نفسه أو على الوضع.

"قولي لي كلَّ شيء، يا عزيزتي".

وقالت له.

"هل أحببتِه؟"

"ما زلت أُحبُّه. ولَسوف أُحبُّه دومًا. إنَّه الشيء الوحيد الجيِّد الذي حصل لي في حياتي، وسأبقى ملتصقةً به إلى أن أموت".

فاسودَّ وجهه. "أأنتِ مستعجلةٌ حصولَ ذلك؟"

"افعل ما تشاء، يا دوك. افعل ما يرضيك. ألم تفعل دائمًا؟" وأشاحت وجهها عنه ثانيةً، منتظرةً تقريبًا أن يرمها ويضربها، إلَّا أنَّه لم يفعل ذلك. فقعدت على حافة السرير ونظرت إليه من تحت نظرةَ استغراب.

وسألها دوك: "إذًا أين مثال الفضيلة والرجولة هذا الآن؟"

"في مزرعته". وربَّما كان قد تحوَّل إلى ميريام الآن.

"وأنتِ تركتِه".

"نعم، تركتُه".

فابتسم راضيًا. "من الضجر؟"

"كلَّا. كان أحد أحلام مايكل أن ينجب أولادًا. وكما نعرف كلانا، لا يمكنني أنا إنجابُهم". ولم تستطع إبعاد المرارة عن صوتها، ولا حاولت ذلك.

"إذًا لم تُسامحيني بعدُ بذلك؟"

"قلتُ لمايكل إنَّني لا أستطيع الإنجاب، وأطلعتُه على السبب. فقال إنَّ ذلك لا يُحدِث فرقًا عنده".

"صحيح؟"

"صحيح! ولكنَّه أحدث فرقًا عندي. فقد أردتُ له أن يحظى بكلِّ ما يستحقُّه ويريده".

تقسَّى وجه دوك لدى كلِّ كلمةٍ قالتها. وتجاهلَت النذير. كانت تُفكِّر فقط في مايكل.

"ليست هذه أوَّل مرَّة أتركه فيها. لقد تزوَّجتُ منه يومَ لم أكن أستطيع أن أفعل أيَّ شيءٍ آخر، ثمَّ غادرته في أوَّل فرصة سنحت لي. لقد أردتُ أن أفترق عنه. أردت أن

أمضي وأُحصّل مالًا كان دينًا لي. فلمّا وصلت إلى هناك، كان الماخور غير موجود. فقد احترق وانهار، ولم أجدِ المَدام. وهكذا انتهى بي الأمر إلى العمل عند صاحب حانة. وهناك تذوَّقتُ جيّدًا جميع الطبقات الدنيا التي تحدَّثتَ عنها باستخفافٍ كثير. هل تعرف ما فعله مايكل لمّا تبيَّن له أين كنتُ؟ لقد جاء وأخرجني. إنّه شقَّ طريقنا إلى الخارج مُقاتلًا لأجلي. وأخذني إلى البيت من جديد. لقد سامحني!"

ثمّ ضحكت بفتور. "إلّا أنّني بقيتُ أهرب. لقد جعلني أشعر بأحاسيس، أحاسيس مذهلة. لكأنّه كان يقلب حياتي كلّها رأسًا على عقب. فقد ظلَّ يحبّني، ظلَّ يحبّني دائمًا مهما عرفه عن ماضيّ. ومهما عملتُ. إنّه ما كان ليستسلم بشأني".

تشبّث دوك بذقنها، قائلًا: "كما لم أفعل أنا تمامًا". وكانت عيناه تتأجّجان كجمرتين. "أم نسيتِ أنّكِ هربتِ منّي أيضًا بضع مرّات، وأنّني دائمًا أرجعتُكِ إلى البيت وسامحتُكِ؟"

أبعدت ذقنها عنه نترًا، ورفعت نظرها محدِّقةً إليه: "سامحتني؟ لقد امتلكتني. فأنت تراني كمتاعٍ من أمتعتك، كشيءٍ جاهز للبيع إلى المُزايد الأعلى، شيءٍ معدٍّ للاستعمال والاستغلال. وأمّا مايكل فقد أحبّني. كنتَ دائمًا تعتقد أنّك تمتلك نفسي. وقد بيّن لي مايكل أنْ لا أحدَ يمتلكني".

ومسَّ برفقٍ الخدَّ الذي سبق أن صفعه. "لا! ألا تشعرين أنّكِ في بيتك تمامًا ها هنا، يا آنجل؟ ألم تفتقدي الطعام الطيّب، والثياب الجميلة، والمحيط الباذخ الفاخر، والاعتبار؟"

أزاحت وجهها بامتعاض، ورأتِ ابتسامته إذ قال: "أنا أعرفكِ. رغم كلّ اعتراضاتك، أنتِ تحبّين ملمس الحرير على جسمكِ. وأنت تستمتعين بوجود خادمة شخصيّة تعتني بأمورك". ثمّ التقط الإبريق الفارغ عن الطاولة، وقال لها ضاحكًا: "أنتِ تحبّين الحليب!"

احمرَّ وجه آنجل محرورًا. وقد نمّت ملامح دوك عن بهجة خبيثة إذ شدَّد عليها الخناق. "تعوّدتُ أن أُشاهِد طريقة عبثك بالرجال الذين كانوا يأتون إليكِ. لقد كانوا كالطين بين يديكِ. لقد فتنتِ عقولهم".

"وذلك آتاك سلطةً عليهم".

فاعترف حالًا: "نعم، وسلطةً عظيمة". ثمّ رفع وجهها بخشونة وأضاف: "لقد افتقدتُكِ. افتقدتُ السلطة التي أعطيتني، لأنَّ الرجال الذين جلبتُهم إليكِ وقعوا

أسرى سحرك. ومتى حصل لهم ذلك، صاروا مِلكًا لي".

"إنَّكَ تنسب إليَّ فضلًا زائدًا".

"لم يكن أحدٌ يستطيع أن يمسَّكِ".

"لقد مسَّني مايكل!" ورأت في عينيه القاتمتين وميض الغيظ. إنَّما الغريب أنَّها لم تخَف. فقد كان في داخلها سكون هادئ. إنَّ مجرَّد التفكير في مايكل آتاها الشجاعة، ولكنَّها عرفت أنَّها لم تكن شجاعةً من شأنها أن تدوم. ليس حالما يبدأ دوك عمله. فهو لم يكن مثل مغوان. إنَّه لن يفقد رباطة جأشه، ولن يقتلها البتَّة.

ثمَّ هبَّ دوك واقفًا، وقال: "سأتركِكِ وحدكِ الآن، يا عزيزتي فاستريحي. سأرجع كي أتكلَّم معك من جديد. فلدينا شغلٌ نبحث فيه. وبعد، أفَلا يجب أن تكسبي أجرة مأواكِ؟"

ولَّما انحنى كي يقبِّلها، أشاحت بوجهها. فأطبقت أصابعه القاسية على خدَّيها كمِلزَمة، مُرغمًا إيَّاها على رفع رأسها. وقبَّلها بشدَّة، فلم تحسَّ أيَّة عاطفة لديه، ولم ترَ أيَّ أثر لها لَّما انكفأ عنها. وكان قد سئمها بتلك الطريقة لَّما غدت أكبر من شَرِي بقليل.

توقَّف دوك عند الباب. "على فكرة، يا آنجل، إذا جاء مايكلُكِ ليأخذكِ، فسأقتله كما قتلتُ جوني". وابتسم ابتسامةً خفيفة. "وسأدعُكِ تشاهِدين ذلك". فتلاشت شجاعتُها. ورأى هو ذلك فابتسم مجدَّدًا.

سمعت آنجل المفتاح يدور داخل القفل، وتهاوت على السرير.

لم يأتِ دوك في اليوم التالي، ولا في اليوم الثالث. وكانت شَرِي تأتيها بالطعام، وأحد الحرَّاس يتحقَّق من أنَّ الباب مُقفَل بعد مغادرة الفتاة.

علمت آنجل ما كان دوك فاعلَه. ولكنَّ عِلمها لم يؤتِها نفعًا. وعاودتها كوابيسُها.

رأت نفسها راكضةً والليلُ يُطبِق عليها. وتردَّد في الزقاق خلفها صدى خطوات ثقيلة. وكانت أرصفة الميناء أمامها، وأشرعة السفن وصواريها تسدُّ الأُفق. وأخذت تركض من سفينة إلى أُخرى مترجِّيةً أن يقبلها الملَّاحون على متنها. ولكنَّ هؤلاء قالوا، واحدًا إثر واحد: "أسفًا، يا سيِّدتي. لا مكان!"

ثمَّ ركضت على آخر رصيف، فرأت تحتها قارب نُفايات كانت حباله تُحَلّ. ونظرت خلفها، فرأت دوك. وقد كان يناديها، وصوتُه الأسود يشدُّها إليه.

كانت الفئران تدبُّ فوق النفايات في القارب تحتها، تقتات باللحم الفاسد والخُضَر المهترئة. ونفَّرت الرائحة الكريهة حواسَّها، غير أنَّها قفزت على كلِّ حال وهبطت خبطًا.

فغرقت يداها في كومة راشحة، فيما زعقت الفئران وفرَّت مذعورة في كلِّ اتجاه. وكاد يُغمى عليها من الرائحة النتنة، غير أنَّها تشبَّثت بشدَّة فيما بدأ قارب النفايات يتحرَّك. وقد ابتعد عن طرف الرصيف حال وصول دوك إليه.

"لا يمكنكِ أن تهربي. لا يمكنكِ أن تهربي، يا آنجل".

ثمَّ اختفى دوك، فألفت نفسها في خضمٍّ بحرٍ يخبطه النَّوء. وقد تلاطمت الأمواج حواليها، مطرطشةً من فوق جوانب القارب. وحاولت أن تصعد إلى ملاذٍ آمَن، إلَّا أنَّها لم تعثر على أيِّ ملاذ. وجرَّت نفسها إلى أعلى لكي تتفادى من الرشاش البارد. حتَّى إذا بلغتِ القمَّة، رأت راب مُلقىً على ظهره. وكانت المَرَسة السوداء ما تزال حول رقبته، والفئران تنهش جثَّته. فزعقت مذعورةً، وانزلقت من على الكومة ثانيةً، ثمَّ ربضت في زاوية القارب القُصوى بعيدةً عنه.

وغطَّت رأسها مرتجفةً من البرد. "يا ليتني متُّ؛ يا ليتني متُّ..."

"حبيبتي، أين هي؟"

فرفعت نظرها، ورأت أُمَّها واقفةً قدَّامها في ثوبٍ أبيض برَّاق. "أين هي، يا حبيبتي؟ أين مسبحتي؟"

وتسلَّقت آنجل الكومة، تفتِّش مسعورة. "سأعثر عليها، يا ماما! سأعثر عليها!" ورأت شيئًا يتألَّق لمَّاعًا، فمدَّت يدها لأخذه. "ها هي هنا! أُوه، إنَّها هنا، يا ماما". ثمَّ تمايل القارب بشدَّة، وارتفع من جهة واحدة، كابًّا النفاية في البحر. وصرخت آنجل، محاولةً أن تمسك مسبحة أُمِّها بيدها إذ تعثَّرت. ومسَّت رؤوس أصابعها صليب المسبحة وحبَّاتها قبل أن تُفلِت منها وتزلَّ عن جانب القارب في البحر المائج الهائج. وأحسَّت آنجل أنَّها هي أيضًا تزلّ. فدفعتها غريزتها إلى التشبُّث بشيءٍ ما، ولكنَّ أيَّ شيء لم يكن صُلبًا بحيث يُبقيها آمنة. كان كلُّ شيء ينزلق. فسقطت في المياه الباردة بين الرشاش، حيث تحرَّكت حواليها بسرعةٍ النفاياتُ المتعفِّنة. وراحت ترفس وتجاهد لترتفع إلى سطح المياه، حتَّى إذا بلغته كان السكون قد ساده. وشاهدت شاطئًا فسبحت نحوه. ولمَّا وصلته، لم تكد تستطيع أن تقف تحت ثقل القذارة العالقة بها. فترنَّحت على الشاطئ، وتهاوت عليه خائرةً. وقد كانت بشرتُها مُلطَّخة بالقروح البشعة والدمامل المُقرِفة، مثلها مثل الطفل الذي ولدته تلك المومسُ الشابَّة.

ولمَّا رفعت نظرها، رأت مايكل واقفًا في حقل. وقد هبَّت نسمات رقيقة جعلت سنابل القمح تبدو كبحرٍ من الذهب حواليه. وكان الهواء عليلًا ونقيًّا. وكانت ميريام

ماشيةً صوبه وعلى ذراعها طفل، إلَّا أنَّه لم يكترث لها، بل نادى "أماندا!" راكضًا نحوها هي.

"كلّا، يا مايكل، ابتعد عنّي! لا تقترب منّي!" لقد علمت أنّه لو لمسها لغطّاه أيضًا القذر الذي يُغطِّيها. "ابقَ بعيدًا! تراجعْ!"

إلَّا أنَّه لم يُصغِ، بل ظلَّ مقبلًا نحوها.

كانت أضعف من أن تقوى على الهرب. فألقت نظرةً على نفسها، ورأت لحمها يتفسَّخ ويتساقط. ومشى مايكل نحوها بلا تردُّد، حتَّى غدا قريبًا جدًّا بحيث استطاعت رؤية عينيه. آه... "يا الله، دعني أمُت. دعني أمُت لأجله".

لا! قالها صوتٌ هادئ

ورفعت نظرها فرأت مايكل واقفًا أمامها. وكان لهيبٌ ضئيل يضطرم حيث كان قلبُه. **لا، يا محبوبة!** لم يتحرَّك فمُه، ولا كان الصوت صوته. ثمَّ غدا اللهيب أكبر وأكثر توهُّجًا، منتشرًا حتَّى أخذ جسمُه كلُّه يشعُّ به. ثمَّ انفصل النور عن مايكل وعَبَرَ الأقدام القليلة الأخيرة نحوها. وقد كان رجلًا، مجيدًا وجليلًا، يتدفَّق منه النور في كلِّ اتِّجاه. فهمست مرتعبةً: "مَن أنت؟ من أنت؟"

الكائن السرمديّ، الإله القدير، الربُّ القدُّوس المُقدَّس، اللهُ العليّ، الإله الأزليّ، الله...

وظلَّت الأسماء تتوالى، متماوجة معًا كالموسيقى، متدفِّقةً داخل عروقها، مالئةً إيَّاها. فارتجفت خوفًا ولم تستطع أن تتحرَّك. ثمَّ مدَّ يده ومسَّها فشعرت بالدفء يكتنفها وبالخوف يتلاشى. وألقت نظرة على نفسها، فإذا هي نظيفة ومتسربلة بالبياض.

"إذًا قد متُّ".

حتَّى يُتاحَ لكِ أن تحيَي.

ونظرت ثانيةً بعينين طارفتين فرأت رجُل النور مُغطًّى بقذرها. فبكت قائلةً: "لا! آه، يا الله، أنا آسفة. أنا آسفة جدًّا. سأستعيد قذري. سأفعل أيَّ شيء..." ومع ذلك فحين مدَّت يدها، تبدَّد الدَّنس، وعاد يقف أمامها كاملًا من جديد.

أنا هو الطريق، يا سارة. اتبعيني!

وإذ تقدَّمت نحوه، ومدَّت يدها إليه، دوَّى قصيفُ رعد، فاستيقظت وسط الظلمة. استلقت ساكنةً، تحدِّق إلى فوق، ودقَّات قلبها تتسارع. ثمَّ أغمضت عينيها بإحكام، راغبةً في العودة إلى الحلم، راغبةً في رؤية نهايته، ولكنَّها لم تقدر أن تُحيط به.

ولم تكد تتذكَّره الآن. لقد راغ منها.

ثمَّ سمعت الصوت الذي كان قد أقضَّ مضجعها. وقد صدر من الغرفة التالية، وكان مألوفًا لديها جدًّا بحيث قطع نياط قلبها.

كان دوك يتكلَّم بنبراتٍ خفيضة مغرية.

وكانت بنتٌ صغيرة تبكي.

الفصل
الحادي والثلاثون

والآن، هكذا يقول الربّ،
خالقكَ يا يعقوب، وجابلك...
"لا تخف، لأنّي فديتكَ؛
دعوتكَ باسمكَ؛ أنت لي!"

(سِفر أشعياء ٤٣: ١)

تأكَّد لبول أنَّ عليه أن يرجع إلى الجبال. فلم يعُد في وسعه أن يبقى في هذه الديار أُسبوعًا آخر. لم يكن يستطيع أن يبقى قريبًا هكذا من ميريام بغير أن يُجنَّ جنونه. فوهْم الذهب وكدح التنقيب عنه خيرٌ له من أن يراها ماشيةً عبر الحقول إلى كوخ مايكل.

غير أنَّه كان يحتاج إلى مال ليشتري مؤونة.

فعضَّ على كبريائه وقصد إلى مايكل يعرض عليه ابتياع أرضه. "لا أطلب فيها الكثير، بل ما يكفي لإيقافي على قدميَّ. إنَّها أرض طيِّبة. وينبغي أن تكون لك على كلِّ حال، يا مايكل. فقد حافظتَ لي عليها في أثناء غيابي آخِر مرَّة".

رفض مايكل العرض قائلًا: "لا مال عندي سوى أرضي. انتظرْ حتَّى تصبح مزروعات الربيع جاهزة للجني. ثمَّ خُذ ما كسبتَه، وامضِ إذا شئت. وستكون الأرض بانتظارك حين تعود".

"لن أعود، يا مايكل. ليس هذه المرَّة".

ألقى مايكل يده على ذراع پول. لماذا تعذِّب نفسك؟ لماذا تضع نفسك في مهبِّ أيِّ ريحٍ قد تأتي؟"

فسحب پول ذراعه غاضبًا. "لماذا تنتظر أنت عاهرةً لن ترجع؟" ثمَّ غادر قبل أن يزيد كلامًا يندم عليه.

لم يعُد لديه الآن أيُّ خيار سوى التوجُّه إلى جان ألْطمان.

ودعاه جان إلى الكوخ. كانت إليزابث تُرجِّح الطفل، وميريام منحنية على الموقد، تحرِّك يخنة مُبقبِقة. وقد جعل مرآها نبضه يتسارع بشدَّة. فاعتدلت وابتسمت له، وإذا

بركبتيه تصطكّان.

قال له جان مربّتًا أعلى ظهره: "اقعد يا پول. لم نَرَك منذ مدّة".

ألفى پول تحديقه يتحوّل إلى ميريام ثانيةً. وقد سها عمّا كان جان يقوله فيما راقب ميريام ترق عجينة بسكويت وتُقطّعها وتضع الأقراص في مقلاة معدنيّة. ثمّ لفت انتباهه من جديد سكوتُ جان. وكانت إليزابث تبتسم له، وكذلك جان. فاستطاع أن يحسّ الحرارة تصعد إلى وجهه.

"جئتُ أعرض عليك شراء أرضي، يا جان". ومن زاوية عينيه رأى ميريام تعتدل وتنظر إليه، فانتفضت عضلةٌ في حنكه. ثمّ قال حازمًا: "لقد قرّرتُ أن أرجع إلى الجبال".

تقوّس حاجبا جان.

وعبست إليزابث. "هذا قرارٌ مفاجئ؛ أليس كذلك، يا پول؟"

"لا" واستطاع الآن أن يشعر بتحديق ميريام إليه ويداها على وَرِكَيها. وسأله جان: "هل فكّرتَ في ما تنوي القيامَ به؟ لقد بذلتَ كثيرًا من الجهد في أرضك".

"فكّرتُ في الأمر. أعتقد أنّني لم أُخلَق لأكون فلّاحًا". وأدارت ميريام ظهرها ثمّ خبطت غطاءً على المقلاة. فقفز جان وإليزابث ونظرا إليها مدهوشَين. ثمّ قال پول: "لا أطلب فيها كثيرًا"، محاولًا تجاهُل ميريام. وذكر الثمن الذي يطلبه، فازدادت دهشتُهما.

وقال جان: "إنّها تساوي أكثر من ذلك بكثير". ومسّد ذقنه، مُتحيّرًا من العرض. "لماذا تفعل هذا؟"

والتفتت ميريام قائلةً: "لأنّه مُغفَّل!"

فقالت إليزابث مشدوهةً: "ميريام!"

"عفوًا يا ماما. إنّه مُخبَّل، غبيّ، أبله!"

وقال جان: "هذا يكفي!" ثمّ نهض عن الكرسيّ وقد أسودّ وجهه سخطًا. "پول ضيفٌ في بيتنا!"

فما كان من ميريام إلّا أن نظرت إلى پول وعيناها ملتهبتان فيما الدمع ينحدر على خدّيها الشاحبين: "أنا آسفة، يا بابا. أظنُّ أنّني نسيتُ مكاني. سامحني". ثمّ عبرت الغرفة مسرعةً، وأنزلت شالها عن المشجب خطفًا، وفتحت الباب. والتفتت إلى پول "امضِ في سبيلك. اهرب إلى جبالك وإلى تنقيبك عن الذهب". ثمّ سفقتِ البابَ خلفها.

جلس پول بلا حراك، مصعوقًا. أراد أن يلحق بمريام ويشرح لها، ولكن ما عساه يقول؟ أإنّه مغرمٌ بها وإنّ ذلك يُثير جنونه؟ أم إنّ مايكل سيستظهر على آنجل وإنّ

الحكمة تُملي عليها هي الانتظار؟

وقعد جان مجدَّدًا، وقال: "إنّي أعتذر. لستُ أدري ما داخَلها!"

أمّا إليزابث فقالت: "أنا على ثقة بأنّها لم تعنِ ما قالته، يا پول".

كان أفضل لو عَنَت. "ماذا قلتَ، يا جان؟ هل تريد أرضي؟ أم هل أمضي إلى المدينة لأرى إذا كان أحدٌ يهمُّه هذا الأمر؟" فكلّما أسرع في مغادرة هذا الوادي، كان أفضل.

نظر جان إلى زوجته متجهّمًا. "دعني أُفكِّر في الأمر. سأردُّ عليك الخبر قبل نهاية الأسبوع".

ثلاثة أيّام بعد. هل يمكنه أن يتحمّل ثلاثة أيّام أُخرى؟ فقال: "شكرًا!" ونهض.

وقال جان، واضعًا يده على كتف پول وهما يمشيان معًا: "لا تُطوِّل عنّا غيابك. ومهما حدث، فأنت هنا على الرحب والسَّعة". ثمّ شيَّعه خارجًا. "مهما كان يزعج ميريام، فلا بدَّ أن تتغلَّب عليه".

ثمّ شاهدها پول تعبر الحقل متوجِّهةً إلى ديار مايكل. فقال مبتسمًا ابتسامةً فاترة. "يُخيَّل إليَّ أنّها ستتغلّب. سأُكلِّمكَ في غضون بضعة أيّام، يا جان". ثمّ اعتمر قبّعته وتوجّه إلى بيته.

سأل جان إليزابث عند رجوعه إلى الداخل: "ماذا تستنتجين من هذا؟"

"جان، لم أعُد أستطيع أن أستوعب شيئًا منذ رحلَت أماندا".

وانتظرا حتّى رجعت ميريام إلى البيت، آمِلَينِ أن تثق بهما أخيرًا كما اعتادت أن تفعل. وما إن دخلت الباب بعد حلول الظلام، حتّى بادرتها إليزابث مؤنِّبةً: "لقد قلِقنا عليكِ!" إذ لم يتوقَّعا أن تتأخَّر هكذا.

وسألها جان: "أين كنتِ؟"

"ذهبتُ إلى بيت مايكل. ثمّ تمشَّيت. ثمّ قعدت. ثمّ صلَّيت". ومن ثَمّ خفضت رأسها وشرعت تبكي بكاءً متقطِّعًا. فنظر جان وإليزابث بعضُهما إلى بعض مندهشين. فلئن كانتِ ابنتهُما رقيقة القلب، فهي لم تكن متعوِّدة مثلَ هذه التفجُّرات العاطفيّة.

وسألتها إليزابث: "ما بكِ، يا حبيبتي؟" ثمّ طوّقتها بذراعها وأضافت: "ماذا دهاكِ؟"

"آه، يا ماما. إنّي أُحِبُّه حبًّا جمًّا بحيث يؤلمني".

ونظرت إليزابث إلى زوجها. "ولكنّه متزوّج. وأنتِ تعرفين هذا".

فاعتدلت ميريام وقد تورَّد خدَّاها. "پول، ماما! لا مايكل".
فقالت إليزابث متنفِّسةً الصُّعَداء: " پول! ولكنَّنا حسبنا..."
"إنَّه پول دائمًا. وأنا أعرف أنَّه يحبُّني هو أيضًا. لكنَّه عنيدٌ بحيث لا يعترف بالواقع، ولو لنفسه". ثمَّ نظرت إلى أبيها. "لا أستطيع أن أدعه يرحل، يا بابا. فإذا اشتريتَ أرضه، فلن أُسامِحك أبدًا".
حاول جان استيعاب ما يجري، وقال: "إن لم أشترِها أنا، يشتريها شخصٌ غيري. وإذا كان يحبُّكِ، فلماذا يعرض أرضه للبيع كي يستطيع الرحيل؟"
"أظنُّ أنَّه ربَّما ينوي الرحيل للسبب عينِه الذي من أجله تركت أماندا مايكل".
وذكَّرتها إليزابث: "لم تُخبِرينا قطُّ بما قاله لكِ".
فاحمَّرت وجنتا ميريام أيضًا. "لا أستطيع!" ثمَّ تهالكت على الكرسيّ، وغطَّت وجهها: "لا أستطيع البتَّة".
وجثت إليزابث بقربها، ثمَّ حاولت أن تُعزِّيها.
ثمَّ سألها أبوها: "ماذا تقترحين للحيلولة دون مغادرة پول؟ لقد عقد عزمه، يا ميريام، وهذا هو واقع الحال".
فرفعت ميريام رأسها قائلةً: "يمكنني أن أجعله يُغيِّر فكره".
تفحَّص جان وجه ابنته الذي بدا عليه التصميم، وقال متجهِّمًا: "ماذا في فكركِ تمامًا؟"
فعضَّت ميريام شفتها وأجالت نظرها بين أمِّها وأبيها. "شيءٌ ما من الكتاب المقدَّس". ثمَّ مسحت دموعها وجلست جلسةً أكثر أعتدالًا.
وسألها أبوها حازمًا: "أيُّ جزءٍ من الكتاب المقدَّس؟"
"أنا أعرف ما يلزم يا بابا. إنَّما سيكون عليك أن تثق بي".

"كم عمرُها، يا دوك؟"
لوى فمه استهزاءً. "هل تغارين منها، يا آنجل؟"
أرادت أن تقتله. "ثمانٍ؟ تِسع؟ لا يمكن أن تكون أكبر من ذلك، وإلَّا فما كانت لتُثير رغبتك!"
أنذرَت ملامحه بالخطر. "يحسن بكِ أن تعقلي لسانك الحقير الصغير، يا عزيزتي". وجرَّ كرسيًّا لها. "اقعدي. عندنا أمور نبحثها".

كانت آنجل لابسةً ثوبًا من الساتان القرنفليّ المخرَّم. ومع أنَّ هذا الرداء لاءم جسمها النحيل تمامًا، فقد كرهته. كرهت أن تكون كلُّ انحناءة لديها مكشوفةً لعيني دوك المتفحّصتين. فقد كان يفحص البضاعة، ليقرِّر كيف يعرضها ليجني أفضل فائدة. وقال: "لم يعُد القرنفليُّ يناسبكِ". فروَّعها أن يكون فكراهما متطابقين كثيرًا. "الأحمر، كما أعتقد. أو الأزرق الصفيريُّ الغامق. بل أيضًا الأخضر الزُمرُّديّ. فإنَّكِ ستبدين كإلاهةٍ في هذه الألوان". ومسَّ كتفها العارية قبل أن يقعد على كرسيّه.

واجهته عبر الطاولة الصغيرة، مُجمِّدةً وجهها حتَّى لا تُبدي شيئًا. وتفحَّصها بابتسامةٍ ضيِّقة. "لقد تغيَّرتِ، يا آنجل. كنتِ دائمًا عنيدة ومتعالية. وكان ذلك جزءًا من فتنتكِ. ولكنَّكِ الآن لامبالية أيضًا. فليس من الحكمة أن تكوني في هذا الموقع".

"ربَّما لم يعُد يهمُّني ما يحدث لي".

"هل تودِّين أن أبيِّن لكِ أنَّكِ على خطأ؟ أستطيع ذلك، كما تعرفين. بمنتهى السهولة". وربَّت رؤوس أصابعه بعضها ببعض. فحدَّقت إلى تَينكَ اليدين الأرستقراطيَّتين، اليدين الخاليتين من الجواسئ أو الكلاكل، الباهتتين المقلَّمتي الأظفار. يدان جميلتا الشكل، قادرتان على إحداث أذىً لا يوصف!

وتذكَّرت يدَي مايكل، الكبيرتين القويَّتين، المعتادتَين العملَ الشاقَّ بوضوح. كانتا خشنتين وفيهما جواسئ. يدانِ بدتا قاسيتين جدًّا، إلَّا أنَّهما كانتا بالغتَي الرقَّة. فإنَّ لمسته كانت قد شفت جسمها ونوَّرت قلبها.

ضاقت عينا دوك ببرودة. "لماذا تبتسمين هكذا؟"

"لأنْ لا شيءَ تفعله بي يهمُّ حقًّا".

"هل قال مايكلُكِ لكِ ذلك؟ لقد طال غيابُكِ عنِّي كثيرًا".

آه من تلك الكوابيس المروِّعة، تلك الأسرار ومشاعر الذنْب التي حملتها! لقد قال لها مايكل مرَّةً إنَّ عليها أن تتخلَّى عن جميع أمتعتها القديمة. وذلك ما كانه دوك: متاعٌ قديم! "كلَّا، يا دوك. لقد حملتك معي أينما ذهبْت". ثمَّ لمحتِ ابتسامته المزهوَّة، فأضافت: "يا لَهُ من هدرٍ للوقتِ الثمين!"

فاستوت شفتاه في خطٍّ صُلب، وقال: "سأعرض عليك خِيارًا، يا عزيزتي: إمَّا أن تتولَّي إدارة البنات، وإمَّا أن تصيري واحدةً منهنّ".

"أتعَني أن أحلَّ محلَّ سالي؟ ماذا حدث لها، يا دوك؟ لم أرَها ثانيةً منذُ نقلتَني إلى المدينة".

"ما زالت في نيويورك، تكسب جيّدًا في بيت الحجر الأسمر. إنّها ما تزال جميلةً إلى حدٍّ ما؛ أكثر شهوانيةً من أن تروق ذوقي بالطبع".

"مسكينة سالي. لطالما أحبَّتك على مدى سنين كثيرة. أم لم تدرِ قطّ؟ أظنُّ أنَّك كنت تدري. غير أنَّك لم تكترث بطريقة أو بأخرى. أليست أكبر من أن تُلائمكَ، يا دوك؟ المرأة الناضجة جدًا لا ترضيك".

وقف دوك عن كُرسيِّه. وأمسك بشعرها، ناترًا رأسها إلى الوراء، مقرِّبًا وجهه من وجهها حتّى كادا يتلامسان. وقال بصوت ناعمٍ مُخادع: "ماذا جرى لكِ، يا عزيزتي؟ ماذا يعوزني لاستعادة آنجِلي الصغيرة؟"

اضطرمت فروة رأسها، وارتاع قلبها أيَّ ارتياع. كان يستطيع أن يكسر عنقها في لحظةٍ لو شاء. وتمنَّت لو أنّه فعل ذلك فوضع حدًّا لمعاناتها. وقد تغيَّرت نظرة عينيه القاتمتين إذ حملق في عينيها.

ثمّ عبس قليلًا، وأرخى قبضته. "إنَّكِ لا تُجدينني نفعًا وأنتِ ميْتة!" هلِ استطاع قراءة فكرها بهذه السهولة؟ ومن ثَمَّ أفلتها بنخعةٍ قويَّة وابتعد عنها قليلًا. وعبر الغرفة، ثمّ التفت إليها باحتراس: "لا تدفعيني إلى ذلك، يا آنجل. مهما تكوني عزيزةً عندي، فمن الممكن الاستغناءُ عنكِ!"

فكَّرت آنجل في البنت الصغيرة. "مَنِ المسؤول عن المفاتيح الآن؟" ومسَّدت تنُّورتها حتّى لا يُلاحِظ شدَّة ذُعرها ولا سبب سؤالها. فارتبك. وكان ذلك أفضل بكثير لساديٍّ مثله.

"أنا المسؤول". ثمّ دسَّ يده في جيب بنطلونه وأخرج حلقة مفاتيح.

"يُخيَّل إليَّ أنّني أُفضِّل وظيفة سالي". لو أُتيح لها أن تعرف أيَّ مفتاحٍ يخصُّ غرفة البنت، لربّما تسنَّى لها أن تُخرِجها من وكر الجحيم ذاك.

أخذ دوك يبتسم، وعيناه تضحكان عليها. ثمّ رمى المفاتيح على الطاولة أمامها. "مخزن المشروبات، حجرة المؤَن والأواني، خزائن البياضات، غرفة الألبسة". ثمّ فتح ياقته وسحب سلسلة ذهبيّة، فيها مفتاح، قائلًا: "وهذا هو المفتاح الذي تريدينه".

وبينما هو ما يزال يبتسم، رجع إليها، وألقى يديه ثقيلتين على كتفها، وقال بنعومةٍ مصطنعة: "أعتقد أنّكِ في حاجةٍ إلى درسٍ بالفعل في نهاية المطاف. سأعرِّف الزُّبُن بكِ هذا المساء. ستلبسين رداءً أزرق، وتُرخين شعركِ الرائع. ستكونين حدثًا مُثيرًا. كلُّ بنتٍ عندي حسناء، ولكنّكِ أنتِ نادرةٌ ومُميَّزة جدًّا. سيرغب فيكِ كلُّ رجُلٍ في القاعة".

أخذت البرودة تنتشر في بشرة آنجل فيما دوك يتكلَّم. وأرادت أن تقفز عن الكرسيّ. ولكنَّها علمت أنَّها لو فعلت ذلك لما كانت لتنجح في أيِّ شيء. فكان أحكم أن تجلس هادئة وتنتظر.

"سوف تكونين حافظة المفاتيح في الأُسبوع المقبل، يا عزيزتي. أمَّا هذا الأُسبوع فقط، فستخدمين الزُبُن بنفسكِ. في فكري بضعةُ أشخاصٍ سيثبت أنَّهم نافعون لي". وابتسم. "ثمَّ إنَّني أبقيتُكِ منعزلةً أكثر من اللازم. فأنتِ بحاجة إلى قليلٍ من الإيقاظ بعد طولِ انقطاع، عسى أن تستأنفي نشاطكِ على أحسن وجه".

ولَمَّا همَّ بالانصراف، نظرت إلى وجهه، فتبيَّن لها أنَّه كان يعني كلَّ كلمة قالها.

استيقظ يول فوجد ميريام تُحرِّك الجمر وتُلقي حطبًا في ناره. وانزلق الحِرام عن صدره العاري إذ جلس فجأةً وأخذ يحدِّق إليها. لقد كان يحلم. لا بدَّ أنَّه يحلم. ففرك عينيه وأجال بصره في الغرفة فرأى شالها مُلقىً على ظهر كرسيِّه وحقيبةً على الطاولة.

والتفتت نحوه مبتسمة. "صباح الخير. قد طلع الفجر!"

لقد كانت حقيقيَّة فعلًا، فثار في داخله الذُّعر. "ماذا تفعلين هنا؟"

"سأنتقل للإقامة معك".

"ماذا؟"

"قلتُ إنَّني سأنتقل للإقامة معك". فحدَّق إليها كما لو كانت قد فقدت صوابها. وأقبلت فقعدت على حافة سريره. فشدَّ الحِرام إلى فوق ليُغطِّي صدرَه العاري.

راقبت ميريام يول، ولم تقدر إلَّا أن تضحك من عبثيَّة الموقف. لقد كانت الغلطة غلطته. لو لم يكن كثير العناد...

وقال من بين أسنانه: "ليس في هذا ما يُضحِكُ أبدًا".

فردَّت بطريقة أكثر رزانةً: "صحيح. إلَّا أنَّني أُحبُّكَ ولن أدعك تمضي إلى الجبال وتُدمِّر حياتك". وبدا عليها الارتباك بصورة محبَّبة. وقد كان شعره منفوشًا في كلِّ اتِّجاه، كشعر ولدٍ صغير. فمدَّت يدها كي تُمسِّده، إلَّا أنَّه تراجع والذُّعر ملءُ عينيه.

وقال يائسًا: "عودي إلى البيت، يا ميريام". عليه أن يُخرِجها من هناك! هل علمت ما أحدثت لديه إذ سمعها تقول إنَّها تحبُّه؟ إن كانت لا تغادر الآن، فهو لا يظنُّ أنَّه سيقوى على مقاومتها. غير أنَّها لم تتحرَّك، بل ظلَّت قاعدةً تنظر إليه بابتسامةٍ صابرة.

وسمع هديرًا في أُذنيه فزعق: "قلتُ لكِ: عودي إلى البيت!"

فقالت ببساطة: "لا! ولن أُعطيك ثيابك أيضًا".

وانفرجت شفتاه.

ثمَّ شبكت يديها، وألقتهما باحتشام في حضنها، ومن ثَمَّ ابتسمت له. فجعلته نظرة عينيها محمومًا تمامًا، ولم يكد يقوى على التنفُّس. يا له من جنون! "أيَّة لعبةٍ تلعبين، يا ميريام ألْطمان؟ ماذا سيقول والدكِ بشأن هذا؟"

"إنَّه يعلم بالأمر".

فجأر بالدُّعاء: "آه، يا الله!" متسائلًا متى يندفع جان إلى داخل الغرفة وبيده بندقيَّتُه.

"قضى بابا مُعظم الليلة البارحة محاولًا إقناعي بعدم القيام بهذا، ثمَّ استسلم أخيرًا. ولولا ذلك، لكنتُ هنا قبل الآن". وقد نمَّت ابتسامتها عن شعور بالنَّكَد. "هل تذكر سفر راعوث، يا پول؟ في الكتاب المقدَّس؟ هل تذكر ما فعلَت؟ حسنًا، يا بوعز، ها أنا هنا، عند قدميكَ بالذات. والآن، ماذا أنت فاعلٌ بشأن هذا الأمر؟" ووضعت يدها على فخذه، فنفر وانكمش.

ثمَّ قال ونقاط العرق ترشح على جبينه: "لا تلمسيني! أقول لكِ إنِّي أُريد منكِ أن تخرجي من هنا الآنَ الآن".

"لا، لستَ تُريد ذلك".

"كيف تعلمين ما أُريده". وقد حاول أن يظهر غاضبًا.

أعلم ذلك كلَّما نظرتَ إليَّ. أنت تريدني أنا".

فتوسَّل: "لا تفعلي هذا!"

وقالت بمنتهى اللطف: "پول، إنَّني أُحبُّ مايكل كثيرًا. إنَّه كأخٍ كبير لي. ولكنَّني لستُ مغرمةً به، ولن أكون أبدًا. إنَّني مغرمةٌ بك".

فقال مغمومًا: "إنَّكِ لا تنتمين إليَّ".

أجابت وكأنَّها تُكلِّم ولدًا متمرِّدًا: "لا تكن سخيفًا... بالطَّبع أنتمي إليك".

"ميريام..."

وضعت يدها على كتفه العاري، فشهق نَفَسه لدى لمسها له. وقالت بصوتٍ ناعمٍ مبحوح: "لطالما أردتُ أن ألمسك. ذلك النهار في الحقل حين كنت تحرث..."

فابتلع ريقه بصعوبة، وأمسك بيدها.

ثمَّ التقت عيناها عينيه. "ولطالما أردتُ منكَ أن تلمسني".

فقال بصوتٍ أجشّ: "ميريام، أنا لستُ قدّيسًا".

"أعرف ذلك. وهل تحسبني أنا قدّيسة؟" وقد تألّقت عيناها بالدُّموع. "ليس هذا هيّنًا، كما تعلم. ولكنّني شابّة، يا پول، ولستُ طفلة. وأنا أعرف ما أُريده. إنّني أُريدك، زوجًا لي، وأريد أن نعيش معًا طوال حياتنا".

أخذ يرتعش. "لا تفعلي هذا بي". ولاحظ دمعة تنحدر على خدّها، فلم يتمالك نفسه، ومدَّ يده ليمسحها. فوضعت يدها على يده، متشبّثةً بها على صفحة خدّها، إنّما هُنيهةً واحدة. لقد كانت بشرتها ناعمة جدًّا، وشعرُها كالحرير. ثمّ انزلقت إبهامُه إلى تحت، متحسّسةً النبْض الشديد في حنجرتها. "ميريام، آه يا ميريام، ماذا تحاولين أن تفعلي بي؟"

"لا شيئًا لم تكُن تريده منذ مدّة طويلة. اعترف بهذا". ثمّ طوّقت عنقه بذراعيها فجأةً وقبّلته. ولمّا رفعت شفتيها عن شفتيه، لم يكن يستطيع أن يتوقّف، ولو اجتمع عليه العالم كلُّه. فأمسك وجهها براحتيه وقبّلها، برقّةً أوّلًا، ثمّ بكلّ ما كان يشعر به من حبٍّ مكبوت على مدى أشهر.

لقد قبّلها تقبيل الرجُل المحروم الذي كانه. وإذا باستسلامها له يُضرِم أحاسيسه. كانت قويّةً وناعمة ودافئة، فأحسَّ طعم النعيم فيها. وهمس وهو يكاد يخشى التلفُّظ بالكلمات عاليًا. "إنّني أُحبُّكِ. لطالما كنتُ مجنونًا. لم أستطع الاحتمال. كان عليَّ أن أهرب منكِ بعيدًا".

قالت مرتجفةً ويداها في شعره: "أعرف ذلك". ثمّ بدأت تبكي. "إنّني أُحبُّك كثيرًا جدًّا. آه، يا پول، إنّني..."

فانكفأ عنها ناظرًا إلى وجهها من علٍ، فلاحظ كيف كان خدّاها متورّدين وعيناها مملوءتين بحبّها له، وخُيِّل إليه أنّ قلبه سينفجر. لقد كانت له. إنّها تنتمي إليه! ولم يكد يقوى على استيعاب ذلك.

رأت النظرة المتوهّجة في عينيه، ومدّت يدها إلى فوقُ كي تلمس خدّه، وقد لان وجهُها رقّةً. "أريد لنا أن نبدأ بداءةً صحيحة. تزوّجني أوّلًا يا پول. كُن زوجي. أُريد أن نتشارك في كلّ شيءٍ بغير أن يُخيّم علينا أيُّ ظلّ. بغير ما نندم عليه لاحقًا. إن أقمتَ معي علاقة الحبّ الآن، فسوف تشعر بالخجل غدًا. أنت تعرف هذه الحقيقة. لن تقوى على مواجهة أبي وأمّي. ستعتقد أنّك استغللتني". ثمّ ابتسمت ابتسامةً مرتعشة، وأضافت: "حتى لو كان العكس هو الصحيح".

قال: "تصوَّرت أنّني أقدر أنْ أتركَكِ"، عالمًا أنَّ من شأنه إذ ذاك أن يحملها باقيَ عمره عذابًا لن ينجو منه البتّة.

وأضاف: "أعتقد أنَّ علينا السفر إلى سكرامنتو لنرى هل يمكننا العثور على قِسِّيس".

ابتسمت عندها بحياء متورِّدةَ الخدَّين، فبدت أشبه بميريام التي عهدها منها بالصبيَّة التي تسلَّلت إلى كوخه تحت جنح الظلام.

ثمَّ قبّلها ثانيةً، وهو لا يطيق اصطبارًا. وقال ضاحكًا ضحكةً خفيفة: "لم تُتَح لي فرصةٌ قطّ؛ هل أُتيحت؟"

فابتسمت راضيةً وقالت: "لم تُتَح. كان مايكل يقول دائمًا إنَّك لا بدَّ أن تزورنا خاطبًا. غير أنّني تعبتُ من الانتظار".

من حيثُ وقفت آنجل خلف الستارة إلى يسار المسرح، استطاعت سماع جلبة الرجال الذين ازدحموا في الكازينو. كان المكان أشبه بالسيرك، ودوك ينوي أن يوقفها في الحلقة الوسطى تمامًا.

كان قد عرض أمام الحضور مشاهد فتيات راقصات وبهلوانيِّين ومشعوذين. لم تدرِ آنجل من أين أتى بجميع أولئك، ولكنْ كانت له دائمًا طرقه ووسائله الخاصَّة. لعلَّه حرَّك يده فطلع بهم من النار والدُخان.

كانت تتحرَّك بلا هوادة، واليدُ التي تحت ذراعيها تشتدُّ إحكامًا. ولم يكن الحارس يفارقها منذ أنزلها دوك في الغرفة العليا. فلم يكن من مهرب، وقد أمرضها الخوف والذُّعر.

أغمضت عينيها تدفع الغثيان إلى تحت. ربّما كان عليها ألّا تفعل هذا. ربّما كان عليها أن تخرج إلى وسط المسرح وتتقيأ. فمن شأن ذلك أن يُبرِّد الحماسة التي كان دوك يبثُّها في الجمهور. وكادت تضحك، إلّا أنَّها علمت أنَّ من شأن استرسالها في الضحك أن يُصيبها بالهستيريا.

استطاعت أن تسمعه يُلهِب سامعيه. وقد كان له صوتُ خطيب، سبق أن نفعه

جيّدًا في السياسة، وفي ما بعدُ حين قرّر أنَّ العمل في الكواليس أكثرُ إرباحًا. فكان يُضرِمِ نارًا تحت الرجال المنتظرين، مثيرًا إيّاهم. وكادت آنجل تشتمُّ شهوتهم. دقائق قليلة، ويكون عليها مواجهة الموقف: مئات الأزواج من العيون تُحدِّق إليها وهي تخلع ملابسها، وأصحابُها يتصوَّرون مهما شاؤوا أن يفعلوا بها. وسوف يمكّنهم دوك من جعل تصوُّراتهم حقيقة واقعة. مهما أرادوا لقاء سعرٍ غالٍ تمامًا.

"على مدى أُسبوع ستخدمين الزُبُن بنفسك!"

أغمضت آنجل عينيها. يا الله، إذا كنت موجودًا، فاقتلني! رجاءً! أرسل صاعقةً وأزلني عن وجه الأرض. اِبعث بي إلى عالم النسيان. أرسل من عندك نارًا. وحوّلني عمود ملح. بأيّة طريقةٍ شئتَ. إنّما افعل ذلك! رجاءً، يا الله، ساعدني. ساعدني!

وقال الرجل: "مهلًا، سيّدتي الشابّة!" مبتسمًا لها ببرودة وناظرًا إليها من علُ.

يا الله! يا يسوع، رجاءً ساعدني!

"لقد حضَّرهم لكِ تقريبًا".

حينئذٍ، تمامًا حين خُيِّل إليها أنَّ قلبها سيتوقَّف من الرُّعب، سمعت الصوت العجيب.

سارة، يا محبوبة.

لقد كان ذلك الصوت الهادئ الذي سبق أن سمعته في كوخ مايكل. الصوت الذي سمعته في حلمها...

اهدإي، فأنا هنا.

نظرت حواليها، فلم تجد سوى حارسها والمؤدِّين. وقد أخذ خفقان قلبها يتسارع بشدّةٍ فائقة، واقشعرَّ بدنها، كما حصل لها تلك الليلة الغريبة في الكوخ.

وهمست مذعورةً: "أين؟ أين؟"

فرمقها الحارس بنظرةٍ فاحصة وقال: "ما بكِ؟"

"هل سمعتَ أحدًا يتكلَّم؟"

فقال ضاحكًا: "مع تلك العربدة كلّها في الخارج؟"

كانت ترتجف بشدّة. "أأَنت متيقّن؟"

فاشتدَّت قبضته إحكامًا، ونخعها نخعةً قويّة. "من الأفضل لكِ أن تشدّي حيلكِ. إنَّ تظاهركِ بالجنون لن يجديَكِ نفعًا. ها هو دوك مستعدٌّ تقريبًا لخروجك. أصغي إلى هؤلاء الرجال. إنَّهم يبدون كأسود جائعة؛ أليس كذلك؟"

كادت آنجل تُسمَّر قدميها في الأرض، ولكن أيُّ نفع كان في ذلك؟ فأغمضت

عينيها ثانيةً بإحكام، محاولةً أن تحجب عنها ذلك الجمهور المسعور قدَّام المسرح، ومحاولةً أن تركِّز على ذلك الصوت الهادئ المروِّع الذي تردَّد في رأسها والذي دعاها باسْمٍ لم تسمعه إلَّا مرَّةً واحدةً في حلم منذ ماتت أُمُّها.

ماذا تريد منِّي أن أفعل؟ قُل لي، يا الله، قُل لي.

إرادتي.

استولى عليها اليأس. فهي لم تكن تدري ما تلك.

وقال الحارس: "هذه إشارتكِ. هل تمشينَ من تلقاء ذاتك؟"

حتَّى لو كانت قادرة على الهرب، فإلى أين تهرب؟ وفتحت عينيها، فتوقَّف الارتعاش في داخلها فجأةً. لم تستطع تفسير الأمر، إلَّا أنَّها شعرت بالهدوء. وذلك على نحوٍ غير طبيعيّ. فرمقتِ الحارس بنظرة استعلاء، وقالت: "على أن تُفلِتَ ذراعي!" وطرفت عيناه مدهوشًا، ثمَّ أفلتها. فتقدَّمت إلى الأمام، وأزاحت الستارة جانبًا كي تتمكَّن من الخروج.

ما إن ظهرت، حتى سرى الجنون في المكان، إذ شرع الرجال يصفرون ويهتفون. وأبقت رأسها مرفوعًا، وعينيها ناظرتين أمامها مباشرةً، وسارت إلى وسط المسرح، حيث وقف دوك مبتسمًا لها بسرورٍ خبيث. ومال نحوها مقرِّبًا فمه من أُذنها لتسمعه وسط الضجيج. "أتشعرين بالسُّلطة، يا آنجل؟ يمكنكِ أن تُشاركيني فيها. يمكننا أن نجعلهم يخرُّون على رُكَبهم!" ثمَّ تركها واقفةً وسط المسرح وحدها.

كان الضجيج يصمُّ الآذان. لماذا اعتراهم ذلك الجنون؟ أرادت أن تهرب وتختبئ. أرادت أن تموت.

انظري إليهم!

أرغمت نفسها على إبداء الاعتداد القديم والازدراء المعتاد، فيما اكتسحت حملقتُها القاعة المزدحمة.

انظُري داخلَ عيونهم، يا سارة.

وفعلت ذلك. نظرت أوَّلًا في أعين الأقربين إلى المسرح، ثمَّ وسَّعت الدائرة. كانوا شبَّانًا، وفي أعيُنهم نظرةٌ خاوية مُنتابة. فعرفت تلك النظرة. تبدُّدُ الأوهام وانهيار الأحلام، والتحدِّي. أَلم يسبق أن شعرت بالوحدة والوحشة واليأس التي تراها الآن منعكسةً حواليها؟ نظرت إلى الرجال الواقفين بقرب طاولات لعبة الورق الفرعونيَّة يُحدِّقون إليها. ونظرت إلى الرجال المصطفِّين على المشرب الخشبيِّ الفاخر وكؤوسُ الوسكي في أيديهم. أَكان ذلك هو تصوُّرها، أم كانت الجلبة تهدأ فعلًا؟

ونادى رجلٌ من الخلف: "غنِّي لنا شيئًا!" وصاح آخرون مُبدين استحسانهم. ولم يخطر في بالها سوى أُغنيةٍ واحدة، غيرِ مناسبة تمامًا، ولا موافقة للمقام. ثمَّ ارتفع الصوت ثانيةً كموجة هادرة: "غنِّي، يا آنجل!" ونقر عازف البيانو لحنًا بذيئًا عرفه الرجال حالًا. فجارى بعضُهم النغمات وأخذوا يغنُّون بخشونة ضاحكين بتهتُّك.

أنشِدي، يا محبوبة.

فأغمضت عينيها كيلا ترى الرجال، وشرعت تُنشِد، لا الأُغنية المعزوفة، بل ترنيمةً أُخرى: ترنيمة منذ عهد بعيدٍ جدًّا. وبينما هي تُنشِد، وقفت ثانيةً عند البئر مع مايكل وميريام، مُنحنين جميعًا فوق الحافة يُنشِدون في قلب البئر، والتناغُم والتساوق يرتفعان ليغلِّفاها. وقد تخيَّلت مايكل وميريام إلى كِلا جانبيها. حتَّى إنَّها استطاعت أن تسمع ضحك ميريام الحميم. "بصوتٍ أعلى، يا بلهاء! مِمَّ أنتِ خائفة؟ إنَّكِ تُحسِنين الإنشاد. بلى، بالطبع تُحسِنين الإنشاد".

ثمَّ تردَّدت أصداء صوت مايكل: "أعلي، يا تِرصة. أنشدي كما لو أنَّكِ تؤمنين بهذا".

ولكنَّني لا أُومن به. إنِّي أخاف أن أُومن. ثمَّ توقَّفت فجأةً وفتحت عينيها، وقد امَّحى كلُّ شيء من ذهنها حالًا. لقد تبدَّدت كلماتُ الترنيمة... تلاشت.

ساد الصمت في المكان، وراح كلُّ رجُلٍ يحدِّق إليها حيث هي واقفة، وحدها على المسرح الخالي. وقد استطاعت أن تحسَّ حرقة الدموع وراء عينيها. آه، يا الله، اجعلني أُومن!

ثمَّ أخذ أحدهم يُنشِد عوضًا عنها، منطلقًا بالكلمات من حيث توقَّفت هي. وقد كان صوته جَهْوريًّا وعميقًا، شبيهًا جدًّا بصوت مايكل بحيث قفز قلبها داخل صدرها. وفتَّشت عنه، فرأته قرب المشرب، رجلًا طويل القامة شائب الشعر لابسًا بزَّة عمل سوداء.

وبمثل السرعة التي بها تلاشت الكلمات، عادت إلى فكرها، فأنشدت مع الرجل وهو يكمل الترنيمة. ثمَّ مشى ببطء بين الجمهور الذي أفسح له. ووقف تحت المسرح، ثمَّ ابتسم لها. فردَّت له الابتسامة بمثلها. ثمَّ أجالت نظرها في الرجال ثانيةً، وكانوا قد صمتوا جميعًا مذهولين. ولم يستطع بعضهم مواجهة عينيها، فأشاحوا خجلًا.

وإذ كادت دموعها تطفر بحيثُ تخنقها العبرات، صاحت: "لماذا أنتم جميعًا هنا؟ لماذا لستم في بيوتكم مع زوجاتكم وأولادكم، أو مع أُمَّهاتكم وأخواتكم؟ ألا تعرفون أيَّ مكانٍ هذا؟ ألاَ تعرفون أين أنتم؟"

ثمَّ سُمِع هفيف الستائر تنتفخ خلفها، وخرجت الفتيات الراقصات متسارعات.

واستأنف عازف البيانو عزفه، وبدأت الصبايا يُغنّين حولها بصوتٍ عالٍ رافساتٍ الهواء بسيقانهنّ العارية. وأخذ بعض الرجال يُصفّقون ويهتفون، فيما ظلّ آخرون واقفين صامتين خجلًا.

غادرت آنجل المسرح ببطء، ورأت دوك ينتظرها وفي عينيه نظرةٌ لم تشهدها قطُّ من قبل. كانت نقاط العرق تلمع على جبينه، وقد شحب وجهه غيظًا. فأمسك بذراعها بوحشيّة وجذبها إلى الظلال. "ما الذي جعلك تفعلين أمرًا غبيًّا كهذا؟"

قالت ذاهلةً: "الله، على ما أعتقد!" وشعرت بالابتهاج، وبحضور قوّة هائلة جدًّا جعلتها ترتعش ارتعاشًا. ثمّ رفعت نظرها إلى دوك، وهي غير خائفةٍ منه بعد.

"الله؟" قالها حالًا بلا تفكير. ثمّ أضاف وعيناه تقدحان شررًا: "سوف أقتلُكِ. كان ينبغي أن أقتلكِ منذ مدّة طويلة".

"أنت خائف؛ ألست خائفًا؟ يمكنني أن أشمّ هذا. أنت خائف من شيء لا تستطيع أن تراه مجرّد رؤية. وهل تدري لماذا؟ لأنّ ما عند مايكل هو أقوى بكثير ممّا كنتَ عليه يومًا أو قد تكون على الإطلاق".

ورفع يده ليضربها، فتكلّم رجلٌ من ورائه بهدوء. "مُدَّ يدك إلى هذه الشابّة، فأسوقك إلى حبل المشنقة".

فدار دوك بسرعة، وإذا بالرجل الذي رنّم مع آنجل واقفٌ تلقاءه تمامًا. كان أقصر قليلًا من دوك، وأنحف بكثير، ولكنْ أحاط به شيءٌ أضفى عليه هالةً من القوّة والسُّلطة. ورفعت نظرها إلى دوك لترى هل شعر هو أيضًا بذلك، فتبيّن لها أنّه شعر به حقًّا. فأخذ قلبها يخبط بضراوة.

وسألها الغريب: "أتودّين مغادرة هذا المكان، يا آنسة؟"

قالت: "نعم، أودُّ ذلك". ولم تسأله عن مقصِده ولا عن نيّاته. كفاها أن تجد سبيلًا للهرب، فتشبّثت به. وتوقّعت من دوك أن يهدّد الرجل من أجل تدخُّله، إلّا أنّه ظلّ فقط واقفًا في مكانه، صامتًا وشاحبًا، يصرُّ بأسنانه. تُرى مَن كان ذلك الرجل؟

سيتبيّن لها ذلك لاحقًا. وتقدّمت نحوه، ثمّ توقّفت. إنّها لا تقدر أن تغادر بعد. ثمّ التفتت إلى دوك. "اعطِني المفتاح، يا دوك". وإذا برجُلين ينظران إليها: واحد متسائلًا، والآخر شاحبًا من سخطه، ومن شيءٍ آخر بعد. إنّه الخوف! وقالت ثانيةً: "المفتاح!" مادّةً يدها.

ولمّا لم يُعطِها دوك المفتاح، شقّت مُقدَّم قميصه وأمسكت بالسلسلة، وكسرتها.

وكان هو يُحدِّق إليها مصدومًا والعرقُ ينهمر على صدغَيه. فنظرت في عينيه مباشرةً، وقالت: "لا يمكنكَ أن تحوزها". وأمسكت بالمفاتيح في قبضتها تحت أنفه تمامًا، قائلةً: "احترق في الجحيم، يا دوك". ثمَّ نظرت إلى الرجل الأنيق الواقف صامتًا يراقبهما. "انتظرني، من فضلك".

فقال بهدوء: "لن أذهب إلى أيِّ مكانٍ من دونك، يا سيِّدتي".

هُرِعت إلى الغرفة الملاصقة لغرفتها في الطابق الأعلى، وفتحتها. وإذا بالبنت الصغيرة المستلقية على السرير تستيقظ فجأةً وتجلس، وعيناها الزرقاوان مُتَّسعتان خوفًا. وتراجعت فتكوَّم فستانُها القرنفليُّ على ركبتيها. وقد كان شعرها الأشقر الباهت مربوطًا بشرائط من الساتان القرنفليّ.

عضَّت آنجل شفتها. لكأنَّها تنظر في مرآة فترى نفسها قبل عشر سنين. ولكنْ لا يمكنها أن تكتفي بالوقوف هناك غارقةً في لُجَّة الألم. ينبغي أن تُخرِج هذه الصغيرة من هنا. الآن. فتقدَّمت نحوها بسرعة. "كلُّ شيءٍ بخير، يا حبيبتي. أنا آنجل، وأنت ذاهبةٌ معي". ثمَّ مدَّت إليها يدها. "هيَّا الآن". وانحنت فأمسكت بيد الفتاة. "ليس لدينا كثيرٌ من الوقت".

ولَمَّا خرجتا إلى الرواق، رأت آنجل شَرِي واقفةً على بعد بضع أقدام، وفمها مفتوحٌ على وسعه دهشةً ورجاءً غريبًا، فقالت لها: "تعالي معنا. لا داعيَ لأنْ تبقَي هنا. إنَّما يجب أن تأتي الآن!"

"دوك..."

"تعالي الآن، وإلَّا قضيتِ عمركِ كلَّه في مكانٍ كهذا؛ أو كان لك ما هو أسوأ".

"فلأُحضِر أشيائي..."

"اِنسَي كلَّ شيء. اتركيه هنا. ولا تنظري إلى الوراء مجرَّد نظر". وأسرعت تعبر الرواق. فوقفت شري متردِّدةً هنيهةً، ثمَّ أسرعت وراءها. وهبطن الدرج معًا، فكان الغريب ما زال هناك ليُلاقيهنَّ. ولم يُرَ دوك في أيِّ مكان. وإذ نظر الرجل الماجد إلى الصغيرتين معها ملأ الغضب وجهه.

قالت آنجل: "لن أذهب من دونهما".

"طبعًا، طبعًا!"

وأومأت برأسها نحو باب المسرح. "يمكننا الخروج من هناك".

فقال وعيناه جامدتان: "لا! سنخرج على المسرح رأسًا وعبر الأبواب الأماميَّة".

وقالت آنجل: "ماذا؟" أَهو مجنون؟ "لا نستطيع ذلك!"

فقال مُتقع الوجه: "سنفعل ذلك. هيًا بنا! سنفضح هذا الرجل ليظهر شيطانًا، على حقيقته". وقد كانت الفتاة الصغيرة تبكي متشبّثةً بتنُورة آنجل الساتانيّه الزرقاء، فيما التصقت بها شري أيضًا. فقال الرجُل: "هيّا، سأحمل الصغيرة"، ولكنْ لمّا تقدّم، حاولت الفتاة أن تختبئ حول آنجل يائسةً.

فركعت آنجل وعانقت الصغيرة قائلةً: "لن تدعك تمسَّها. هدِّئي روعكِ، يا حبيبتي. أنا سأحملكِ". ثمّ نظرت إلى الغريب وقالت لها حازمةً: "لن نسمح لأحد بأن يؤذيكِ. إنّ دوك لن يوقفنا". وأطبقت رجلا الفتاة على خصر آنجل إذ نهضت، وتشبّثت ذراعاها النحيلتان برقبة آنجل إذ ناشدت الرجل قائلةً: "من شأن طريقٍ آخر أن يكون أسلم".

"هذا الطريق هو الأفضل". وأمسك بالستارة مزيحًا إيّاها.

"هنالك عشرة رجال سيُوقِفوننا".

"ليس في تلك القاعة رجلٌ واحد يمكن أن يمسَّني".

"مَن تحسب نفسك؟ إلهًا؟"

"لا، سيّدتي. ما أنا إلّا جوناثان آكسِل. ولكنّي أملك واحدًا من أكبر البنوك في سان فرنسيسكو. والآن، هلّا تمضي!"

لم يُتح لها أيّ خيار. فضمَّتِ البنت المرتعدة ضمًّا أشدّ، قائلةً: "أغمضي عينيكِ، يا حبيبتي. سوف نُخرجكِ من هنا". أو نموتَ في المحاولة.

ظلّت شَرِي ملاصقةً لآنجل فيما أخرجهنّ جوناثان آكسِل إلى وسط المسرح. وإذا بالموسيقى تنتهي نهايةً ناشزة، والبنات الراقصات يتوقّفن مرتبكات. وأجالت آنجل بصرها فرأت تعابير الاندهاش على وجوه الرجال. ولم يكن دوك في أيِّ مكان من القاعة. كذلك الرجُل المكلَّفُ حراستها. فقال آكسِل بهدوء: "لنذهب!" داعمًا ذراعها بيد ثابتة لكنْ حانية. ونزلت على الدرج إلى وسط القاعة فيما تفرّق الرجال إفساحًا لها.

أخذ كثيرون من الزُّبُن يُحدّقون إلى شَرِي وهي مُلبَسة ومُزيَّنة كامرأةٍ خليعة مع أنّها كانت ما تزال فتاةً يافعة كما هو واضح. وقد تراجع الرجال ليُفسِحوا لها، فيما بدا أنّ نشيج الصغيرة قد ملأ القاعة.

بدأ الرجال يتحدّثون بأصوات خافتة مذهولة. وسمعت آنجل بعض التعليقات وهي عابرة. "لماذا يحتفظ ببنتٍ صغيرة كهذه في مكانٍ كهذا؟"

فتوقَّفت آنجل ونظرت إلى المتكلِّم، قائلةً بهدوء وأسىً بالغ: "لماذا تحسبه يفعل هذا؟" ورأت فم الرجل ينفغر بإدراكٍ مروِّع.

وارتفعت أصواتٌ خلفها كتيارٍ مُشتدّ، سمعت فيها نبرة العنف. لقد أراد الرجال دمًا، إنَّما ليس دمها. ثمَّ خرجت إلى قلب هواء الليل وأطلقت نفَسها، غيرَ منتبهةٍ قطعًا إلى أنَّها كانت تحبسه.

قال آكسِل: "من هنا. آسف، ولكنْ لا عربة لديَّ. المكان يبعد قليلًا. هل تستطيعان التحمُّل؟"

هزَّت آنجل رأسها إيجابًا، وبدَّلت ثقل الصغيرة. ولحقت بالرجل مسافةً وهي صامتة قبل أن تسأل: "إلى أين تأخذنا؟"

"إلى بيتي".

وضاقت عيناها. "لأيِّ غرض؟"

"كي تُعنى زوجتي وابنتي بكُنَّ ريثما أُفكِّر في ما يمكن فعلُه بذلك المكان. ينبغي أن يُحرَق، وذلك الشيطان معه!"

فأحرجتها قلَّةُ ثقتها. غير أنَّها لم تكن تعرف شيئًا عن هذا الرجل رغم كلِّ عطفه البادي. فحقيقة كونه مصرفيًّا لم تعنِ أنَّه كان حسن النيَّة. وقد سبق لها أن عرفت مصرفيِّين قبله.

بدا أنَّ ثقل الصغيرة يزداد مع كلِّ خطوة. وآلم آنجلَ عضلُها، إلَّا أنَّها واصلتِ السير. وظلَّت شَرِي تتلفَّت إلى الوراء متوجِّسةً. "هل تعتقدين أنَّه سيلحق بنا؟"

أجابت آنجل مُطَمئنةً إيَّاها: "لا!" ثمَّ وجَّهت إلى آكسِل سؤالًا: "لماذا ساعدتَني هكذا؟ أنا غريبةٌ بالنسبة إليك".

"بسبب ما رنَّمتِه. لم يكن ممكنًا أن يُوضِح الربُّ الأمر لي أكثر ممَّا فعل، فتيقَّنتُ بأنَّ عليَّ أن أُخرجكِ من هناك".

رمقته مدهوشةً، ولم تقُل شيئًا بعض الوقت. غير أنَّها لم تستطع أن تكفَّ عن التفكير في الأمر. ثمَّ قالت: "سيِّدُ آكسِل، عليَّ أن أكون صادقةً معك".

"بشأنِ أيِّ شيء؟"

"أنا لا أومن بالله". وشعرت بألمٍ طاعن إذ قالت هذا.

ألستِ تؤمنين؟

طلع السؤال من أعماقها، فتجهَّمت. لقد استغاثت بالله في خوفها، وها هي هنا. ثُمَّ

كان ذلك الصوت... هل تخيَّلَته تخيُّلًا؟ وجاءت كلمات آكسِل تُردِّد صدى ارتباكها:

"صحيح؟ لقد بَدَوتِ مُقنِعةً تمامًا في ذلك المكان".

"كنتُ خائفةً خوفًا رهيبًا، وكانت تلك هي الترنيمة الوحيدة التي استطعتُ تذكُّرها".

فابتسم وقال: "في ذلك شيءٌ ما".

"أنا لا أومن بعجوزٍ طاعنٍ في السنِّ، ضئيل الحجم، ذي لحية بيضاء طويلة، جالسٍ على عرش يُوَصوِص إليَّ".

فقهقه وقال: "ولا أنا. إنَّما أومن بكائنٍ أكبر من ذلك بكثير. وسأقول لك شيئًا آخر". وقد كانتِ ابتسامته رقيقة. "إنَّ مجرَّد كونك لا تؤمنين بالربّ لا يعني أنَّ قوَّته ليست عاملة من أجلك".

طرفت عيناها، وشعرت بغصَّة مزعجة في حلقها، واعتراها الخجل. لقد جرَّبت كلَّ طريقة للإفلات من قبضة دوك، فأخفقت. أمَّا الليلة، فإنَّ ترنيمةً واحدة علَّمها إيَّاها مايكل أجرتِ المعجزة. كيف؟ لم تفهم شيئًا. فقد قال ذلك الصوت: "إرادتي،" ولكنَّ كلَّ ما فعلته كان الأمر الوحيد الذي خطر في بالها. ثمَّ أقبل هذا الرجل من لامكان.

وعاودتها كلماتٌ كان مايكل قد قرأها. "أيضًا إذا سرتُ في وادي ظلِّ الموت، لا أخاف شرًّا، لأنَّك أنت معي".

لقد خاف دوك منها. وهي لم تشكَّ في ذلك قطّ.

ليس منكِ، يا سارة، بل منِّي أنا.

فارتعشت واقشعرَّ بدنها، وانتصبَ جلدها من جديد إذِ انفتح قلبُها على مصراعيه. يا الله، لقد أنكرتُك مرارًا كثيرة، فكيف يُعقل إن تنقذني الآن؟

لئن أنكرتِني، فإنَّني أُحبُّكِ محبَّةً أبديَّة!

ماذا حدث هناك؟ لستُ أدري! كيف خرجنا خارجًا؟ يا يسوع، إنَّني لا أفهم. لا أفهم أبدًا كيف فعلتَ ذلك.

ثمَّ بدأتِ السماء تُمطِر رذاذًا، وأطبق عليهم ضباب الخليج الكثيف. ولبثت شَرِي ملتصقةً بأنجل وهما ماشيتان. وقد همسَت: "أشعر بالبرد الشديد".

وقالت أنجل بصوتٍ مرتعش، إنَّما ليس من البرد: "هل يبعد المكان كثيرًا بعد، يا سيِّدُ آكسِل؟"

"إنَّه في أعلى التلَّة تمامًا".

شاهدَت أنجل بيتًا كبيرًا يلوح فوقهم. وقد كان فخمًا فاخرًا. وكان المطر قد أخذ ينهمر بغزارة، فحفزتها فكرةُ استظلال مأوىً على مسارعة الخطو. وبدت في النوافذ مصابيح مُضاءة. وخُيِّل إليها أنَّها رأت أمرأةً تُوصوِص من وراء ستارة. ثمَّ فتح جوناثان آكسِل الباب الكبير. وانفتح البابُ الداخليُّ قبل دخول جوناثان، فإذا بامرأةٍ نحيفة طويلة شعرُها مربوط إلى الوراء بشدَّة تقف أمامها. لم تستطع أنجل أن ترى وجه المرأة، ولكنَّ قلبها غاص. تُرى، ماذا ستقول هذه السيِّدة عن إتيان زوجها إلى البيت بثلاث مومسات، بصرف النظر عن صغر سنِّ اثنتَين منهنّ؟

قالت المرأة بلهجة الآمِر: "هيَّا إلى الداخل قبل التعرُّض للموت المحتوم!" وقد بدا عليها التأثُّر واضحًا. ولم تدرِ أنجل أكانت تُكلِّم جوناثان آكسِل أمِ الجميع، فتوقَّفت بلا حراك غيرَ عالمةٍ ما تفعل. إذ ذاك أومأت المرأة لها قائلةً: "ادخلوا، ادخلوا!"

وضع جوناثان يده تحت ذراع أنجل، وقال ممازحًا: "لا داعي لأنْ تخفن منها، فهي لا تكاد تُرى". وتصلَّبت أنجل إذ تقدَّمت عبر الممرّ، عسى أن تدعهنَّ السيِّدة يُجفِّفن أنفسهنَّ قبل أن تطردهنَّ من جديد.

دخلت أنجل، ووراءها شَرِي حالًا، وأجالت نظرها قبل أن تواجه المرأة التي تبيَّن على نحوٍ مدهش أنَّها شابَّة وجذَّابة، رغمَ شعرها المشدود كعكةً وراء رأسها ورغم لباسها المحتشم. وقالت الشابَّة: "في الداخل نارٌ تتأجَّج". ثمَّ أدخلتهنَّ غرفة كبيرة مفروشة بأثاث بسيط لكن مُريح، قائلةً: "رجاءً، اجلسن!"

فجلست أنجل. ورفعت نظرها إلى الشابة، فرأتها تُبادِلها النظر بفُضول بادٍ. إذ نظرت إليهنَّ جميعًا من الرأس إلى القدمين. وهمست أنجل في أُذن الصغيرة المرتجفة: "كلُّ شيءٍ بخيرٍ"، مربِّتةً ظهرها بلطف. ولكنْ هل كان ذلك هو الواقع؟

استراحت الصغيرة بين ذراعي أنجل وتطلَّعت إلى الوراء قليلًا لترى ما حولها. كانت شري جالسة على الأريكة بقربها، مقوَّمة الظَّهر، شاحبةَ الوجه جدًّا، خائفةً مرتعبة. ونظرتِ الشابَّة إلى جوناثان آكسِل مُستفسِرة. ولئن صدمها واقعُ حالهنَّ الظاهرة بوضوح، فهي لم تُبدِ ذلك. "أبي، ماذا جرى؟"

قال جوناثان: "ابنتي سوزانًا". وانحنتِ الشابَّةُ انحناءةَ ترحيب، مبتسمةً ابتسامةً متردِّدة فيها قليلٌ من الارتباك. ثمَّ قال جوناثان معتذرًا: "عفوًا، لا أعرف أسماءكنَّ".

"اسمي أنجل. وهذه شَرِي. و..." ثمَّ توقَّفت فجأةً إذ تنبهَّت إلى أنَّها لا تعرف حتَّى اسمَ الصغيرة. وقالت بصوتٍ رقيق، رافعةً ذقن الفتاة: "ما اسمكِ؟" فارتعشت شفتا

الصغيرة، وهمست بشيءٍ قبل أن تدسّ رأسها ثانيةً على كتف آنجل". وقالت آنجل: "فايِث، اسمها فايِث".

"من الواجب إحضار بعض الحِرامات، يا سوزانّا. هلّا تفعلين ذلك ريثما أعثر على والدتك!"

قالت مبتسمةً: "ماما فوقُ في المطبخ تُسخِّن عشاءك". وخرجت مسرعةً من الباب.

وقال جوناثان: "عذرًا، بعضَ الوقت". ثمَّ تركهنَّ وجدهنّ.

تهدّلت كتفا شَرِي، وشرعت تبكي حالَ خروجه. "أنا خائفة جدًّا. سوف يقتلني دوك".

فأمسكت آنجل بيدها، وقالت لها برقّة: "لن يضع دوك يده عليكِ مرَّةً أُخرى أبدًا. نحن جميعًا خائفات، ولكن أعتقد أنَّه يجب أن نثق بهؤلاء القوم". صحيح، كان يجب ذلك. فأيُّ خيارٍ لديهنّ؟

رجع جوناثان ومعه امرأة قصيرة ذات عينينِ زرقاوين برّاقتين. وقد كان اسمها بريسكلّا. واستطاعت آنجل أن ترى الشبه بين الأمّ وابنتها. وفي الحال تولّت بريسكلّا الأمور، فاصطحبتهنَّ إلى الطابق الأعلى قائلةً: "علينا أوّلًا أن نخرجكنَّ من هذه الثياب المبلولة، يا بنات. ثمَّ تنزلن إلى المطبخ لأجل لقمة طيّبة تأكلنها مع جوناثان ومعي".

وفتحت إلى يمين الرواق بابًا يُفضي إلى غرفة واسعة، قائلةً: "أنتُما الفتاتين ستتشاركان في غرفة النوم هذه. ولآنجل أن تُشارك سوزانّا في غرفتها. إنَّها في الطرف الآخر من الرواق".

وتساءلت آنجل عمّا قد تقوله سوزّانا بشأن ذلك.

أتت بريسكلّا بثياب ناشفة لجميعهنّ، ممّا أدهش آنجل بعدُ. ألَديها خزائن ثياب من كلّ القياسات، أم لديها بناتٌ أُخريات لم يظهرن بعد؟ وقد كانت الألبسة من الصوف العمليّ، بسيطةً ومريحة. ثمّ لفَّت آنجل الثياب التي كانت تلبسها شري وفايِث ووضعتها في الدلو قرب الموقد.

وكانت سوزّانا تنتظر كي تصطحبهنَّ إلى المطبخ تحتُ، حيث قدّمت بريسكلّا لهنَّ شرائح ثخينة من لحم العجل وحساء خُضر وبسكويتًا. وقد تناول جوناثان الطعام معهنّ. وآثرت آنجل شرب كأسٍ من الحليب الطازج بدل القهوة الساخنة. وبدأت فايِث تنعس بقربها. وسال الكحل خطوطًا من عيني شَرِي، فبدا عليها الشحوب، إنَّما ظهرت أقلَّ خوفًا.

وضعت پريسكلّا يديها برفق على كتفي شري، وضغطت بخدِّها على خدِّ الصغيرة الناعم. "هيّا، يا بُنيَّتي، حان وقتُ نومكِ". ومدَّت يدها إلى فايث، فأمسكت بها الصغيرة على نحوٍ مدهش. وشعرت آنجل بحملٍ كبير يُطرح عن كتفيها.

ثمَّ رفعت سوزانّا الصحون. "لماذا لا تذهبان أنتما الاثنين إلى البهو وتستريحان، يا أبي؟ إنَّما لا تبحثا في أيِّ أمرٍ مهمٍّ قبل انضمامي إليكما".

فقال جوناثان بإذعانٍ مصطنع: "نعم، يا عزيزتي". ثمَّ غمز آنجل إذ نهض. "خيرٌ لنا أن نفعل ما طُلب منّا".

قعدت آنجل قبالة الموقد، متوتِّرةً قلِقة. ماذا سيحدث لهنَّ جميعًا غدًا؟ ومضى جوناثان إلى طاولة صغيرة في الزاوية. وراقبته آنجل يسكب شيئًا من الشراب. ثمَّ التفت إليها قائلًا: "هل لكِ في قليلٍ من عصير التفّاح؟"

"لا، شكرًا".

فابتسم قليلًا وحطَّ إناء الشراب، ثمَّ قعد على كرسيٍّ مريح مقابلها. "أنتنَّ في أمان هنا".

قالت: "أعرف ذلك. ولكن حتَّى متى؟" وقد فوجئت بوقاحتها.

"لن يطردكنَّ أحدٌ، يا آنجل. يمكنكنَّ أن تبقين هنا ما شئتُنَّ".

انفرجت شفتاها، والتهبت عيناها، فعضَّت شفتها، إلَّا أنَّها لم تستطع أن تتكلَّم. فابتسم قائلًا: "أهلًا وسهلًا بكنَّ!" وألقت رأسها على ظهر المقعد محاولةً أن تستعيد السيطرة على عواطفها.

ثمَّ قالت كمن يحدِّث نفسه: "أتساءل عمَّا قد يفعله".

لم يُضطرَّ جوناثان إلى السؤال عمَّن تقصده. "إن كان ما يزال في أيِّ مكانٍ داخل ذلك المبنى بعد خروجنا، فلا بدَّ أن يكون مُتدلِّيًا من عمودِ الآن. ولكن من المؤسف أنَّني لا أحسبه بهذا الغباء".

فتنهَّدت بشدَّة، قائلة: "لا، قد يكون دوك أيَّ شيء سوى غبيّ. إنَّك تعاملنا بمنتهى اللطف. شكرًا لك".

فقال مقتبسًا: "لأنِّي جعتُ فأطعمتموني؛ عطشتُ فسقيتموني؛ كنتُ غريبًا فآويتموني؛ عريانًا فكسوتموني؛ مريضًا فزرتموني؛ محبوسًا فأتيتم إليَّ". وأضاف: "هل تعرفين هذا؟"

كان مايكل قد قرأ لها هذه العبارات مرَّة، بُعيدَ إيوائه آل ألْطمان وسؤالها إيَّاه عن

سبب ذلك. وعصفت بها ذكريات مايكل بشدَّة حتَّى لم تستطع أن تتكلَّم.

وتيسَّر لجوناثان آكسِل أن يلمح معاناةً هائلة في عيني الشابَّة، فحاول تخفيفها. وقد بدت غيرَ واعيةٍ تمامًا لعِظَم أفعالها، وللجرأة التي اقتضتها. "نرحِّب بكنَّ لمشاركتنا في ما لدينا". وبعد، فلا شيء من ذلك يخصُّه شخصيًّا، بل إنَّه كان مجرَّد وكيل عليه.

ثمَّ تحدَّثا حتَّى ساعة متأخِّرة من تلك الليلة. وأخبرته أكثر ممَّا سبق أن أخبرت أيَّ مخلوق بشريّ، حتَّى مايكل. وربَّما كان ذلك لأنَّ جوناثان أكسِل كان غريبًا مُحسِنًا بحيث شعرت بحرِّيَّة كاملة في محادثته. ومع ذلك، فهو لم يبدُ غريبًا قطّ.

وأسندت آنجل رأسها إلى الوراء مُجهَدةً. "إلى أينَ أمضي من هنا، يا سيِّدُ آكسِل؟"

فابتسم جوناثان وقال: "الأمرُ بيدكِ... وبيد الربّ".

استيقظت پريسكلّا حالما دخل جوناثان غرفة نومهما. ثمَّ تخفَّف من ثيابه واندسَّ تحت أغطية السرير، ضامًّا إيَّاها إليه. وكان جسمها دافئًا وناعمًا إذ أراحت يدها على صدره.

"ينبغي لي حقًّا أن أسألك، يا جوناثان: ماذا كنت تفعل في مكان كذاك؟"

فضحك ضحكةً رقيقة وقبَّل جبينها، قائلًا: "لستُ أدري بالحقيقة، يا حبيبتي".

قالت: "ولكنَّك لا تشرب ولا تقامر. فما الذي استحوذ عليك؟"

كان يومًا غريبًا يا اپرِس. لقد نهشني شيءٌ ما من الظُّهر فصاعدًا، لا أستطيع وضع إصبعي عليه".

"أكلُّ شيء في البنك على ما يُرام؟"

"على خير ما يرام. لقد شعرت فقط بحاجةٍ إلى التمشِّي. لذا بعثت بخبرِ اضطراري إلى التأخُّر. وكنتُ مارًّا أمام ذلك المكان فسمعت ذاك الشيطان يُلقي خطبة، وقد ساد الهرج والمرج، فدخلتُ لأسمع ما كان يقوله".

"ولكنْ لماذا؟ إنَّك تمقته!"

"لستُ أدري لماذا. لقد شعرت فقط بأنَّني مضطرٌّ إلى ذلك. وقد كان يُعرِّف بآنجل. وكان ذلك فاسقًا. ليس كلامه بالذات، بل موقفه وتصرُّفه وتلميحاته الماكرة. يتعذَّر عليَّ التفسير. شعرتُ بأنَّني كنت في معبد وثنيّ، وبأنَّه كان القسّيسَ الذي يُعرِّف ببغيٍّ جديدة من بغايا المعبد".

"لماذا لم تُغادِر؟"

"فكَّرتُ في ذلك، ولكنْ كلَّ مرَّة كان شيءٌ ما يطلب منّي التريُّث. ثمَّ ظهرت آنجل".

فقالت پريسكلّا بهدوء: "إنَّها بارعة الجمال".

"ليس جمالها هو الذي أبقاني، يا حبيبتي. كانت في ريعان الشباب، ومشت إلى وسط المسرح بكلِّ جلالٍ وسكون. إنَّكِ لا تستطيعين حتَّى تصوُّر ذلك، يا اپرِس. كان أولئك الرجال أشبه بجميع أنذال الجحيم ينبحون عليها كالكلاب الشرسة. ثمَّ شرعت تُنشِد. وقد كانت منخفضة الصوت كثيرًا في بادئ الأمر بحيث لم يستطع أحدٌ سماعها. ثمَّ خمد كلُّ صوتٍ تمامًا حتَّى ساد المكان كلَّه صمتٌ مُطبِق لم يُسمع فيه سوى صوتها".

وأحسَّ بغصَّةٍ في حلقه وحرقة دموع في عينيه، ثمَّ قال: "لقد كانت تُرنِّم «يا صخرة الدُّهور»!"

الفصل

الثاني والثلاثون

يتحرّك الله بطرقٍ غامضة
كي يتمّم مشيئته.

(وليم كاوبر)

لاحظت ميريام كآبة پول عند العشاء. لم يكن قد أكل لقمة من يخنته، وكان كوز قهوته قد برد. فلم تكن في حاجة لسؤاله عن السبب. "لقد ذهبتَ لزيارة مايكل!"

فقال بوَهن: "نعم". ثمَّ دفع صحنه بعيدًا وعبس عبسةً سوَّدت وجهه وأضاف: "لم أعُد أفهمُه. أنا لا أفهمه أبدًا".

وانتظرت ميريام، آملةً أن يزيد شيئًا، أن يفسّر مقصده هذه المرَّة. فقد كان غاضبًا وخائبًا، ولكنْ كان ينهشه شيءٌ آخر، شيءٌ عميق وغير منظور، شيءٌ مُشِلّ. سرطانٌ يلتهم النفس.

ثمَّ تكلَّم پول من بين أسنانه الصارَّة، فقال: "متى يستسلم؟ تتمزَّق أحشائي إذ أرآه جاثيًا على ركبتيه لأجل تلك المرأة". وإذ أطلق نَفَسًا حادًّا، أضاف: "ميريام، لقد هممتُ بضربه!" وكوَّر قبضته. "أردتُ أن أهزَّه هزًّا. فقد كان يُصلّي عندما وصلتُ إلى أرضه. كان راكعًا على ركبتيه في الحظيرة، يُصلّي لأجلها!"

لم تستطع أن تفهم عداءه. "ولكنْ لماذا لا ينبغي له ذلك، يا پول؟ إنَّها زوجته، وهو ما زال يحبُّها".

فارتسمت على وجهه خطوطٌ قاسية. "زوجة؟ ألا يمكنكِ أن ترَي ما فعلت به؟"

"قالت لي إنَّها راحلة لأنَّها اعتقدت أنَّ ذلك هو الأفضل له".

فدفع كرسيَّه فجأة إلى الوراء. "هل تصدِّقين ذلك؟ أنتِ لم تعرفيها قطّ. ليس معرفةً حقيقيَّة. لقد كانت باردة كالفولاذ، يا ميريام. كانت مومسًا في پـيرأدايس. لم تكُن تكنُّ لمايكل أيَّة مشاعر سوى مشاعر الاستنساب. لا في البداية ولا في النهاية. كانت بلا قلب. لا تكوني بلهاء هكذا!"

اغرورقت عينا ميريام لدى هجومه. كانت قد رأت أباها يغضب عدَّة مرّات، غير أنَّه

لم يهاجم قطُّ بعنفٍ أولئك الذين يحبُّونه. فلم تستطع أن تبقى صامتة. "أنتَ مَن لم تعرفها قطُّ، يا پول. حتَّى إنَّك لم تحاول ذلك قطّ..."

وردَّ بفظاظة: "لا تُدافِعي عنها أمامي! لقد عرفتُها. عرفتها أكثر ممَّا عرفتِها أنتِ أو عرفها مايكل. فكلاكما رأيتما ما أرادت لكما أن ترياه. أمَّا أنا فقد رأيتُ ما كانته حقًّا".

فرفعت ميريام رأسها. ولم تشأ أن تبقى صامتةً فيما يهين صديقتها. "لقد رأيتُ أماندا كمخلوقة منبوذة لا تستحقُّ منك حتَّى إبداءَ أقلِّ قدر من اللياقة".

علا الشحوب وجهَه. "هل تؤنِّبينني لعدم وقوعي تحت سحرها مثلكم أجمعين؟ وفي بيتي بالذات؟"

انفرجت شفتا ميريام. فكأنَّه طعنها بضربة سيف اخترقت قلبها. وقالت بصوتٍ منقبض. "إذًا هو بيتك وحدك الآن، حتَّى لو كنَّا متزوِّجين؟ فما أنا إلَّا ضيفةٌ تُقرِّر طردي. ليُسامِحْني الله إذا أخطأتُ في شيء، إذا تبيَّن أنَّني معصومة".

إلَّا أنَّ پول ندم على كلماته حتَّى قبل التفوُّه بها. "ميريام، إنَّني لم..."

وكان غضبها يتفاقم بسرعة. "أعتقد أنَّه لا يحقُّ لي أن أتمسَّك بآرائي أو أفكاري إذا كانت معاكسة لِما لديك. أليس هكذا، يا پول؟" ثمَّ وقفت وأشارت إلى الباب. "إذا أردتُ التعبير عن رأيي، فعليَّ أن أخرج خارجًا لأفعل ذلك. أو أفضل من هذا بعدُ: أن أتحقَّق من كوني على الجانب الآخر من حدود أرضك؟"

وبدَّد شعورُه بالذنب تأنيب الضمير لديه. لقد ضربت كلماتها على ضميره، فانفجر ثانيةً مدافعًا. "أنتِ تعرفين أنْ ليس هذا ما قصدتُه!" ولمَّا شرعت تبكي ذوى، فأنَّ قائلًا: "لا تبكي، يا ميريام!"

"لم أعُد أدري ما تقصده، يا پول. المرارة تلتهمك. أنت تحمل حقدك كرايةٍ تلوِّح بها كلَّ حين. لم تقُل ما فعلته أماندا لك لتجعلك تكرهها، حتَّى إنِّي أتساءل عن كونك طرفًا في ذلك؟" واستطاع پول أن يشعر بالحرارة تصعد إلى وجهه وبطبعه يحتدُّ معها. وهمَّ بالدفاع عن نفسه، إلَّا أنَّ ميريام لم تكن قدِ انتهت. "ما كنتُ لآتيَ إليك كما أتيتُ لولا أماندا!"

"عمَّ تتكلَّمين؟"

وخفت صوتُها. "ما كنتُ لأتشجَّع!" واستطاعت أن ترى أنَّه لم يفهم مقصدها، إلَّا أنَّها لم تستطع أن تشرح. فقد سدَّ الألم حنجرتها بشدَّة، وأرادت فقط أن تقعد وتضع رأسها في يديها. حتَّى لو استطاعت أن تقول له، ما كان ليُصغي أبدًا. فقد صمَّ أذنيه

عن سماع أيِّ شيء يتعلَّق بأي صلاحٍ لدى أماندا.

تغضَّن وجهُها كوجه ولدٍ مضروبٍ متألِّم، فأحسَّ أحشاءه تتلوّى ألمًا وقال بصوت أجشّ: "إنَّني أُحبُّكِ. ميريام، أنا أُحبُّكِ".

"إنَّك لا تتصرَّف تصرُّفًا يُبيِّن ذلك".

"لقد فصلَت آنجل بيني وبين مايكل. فلا تدعيها تفصل بيني وبينكِ أيضًا".

"أنتَ أوقفتها ذلك الموقف!"

فقال بضراوة: "لا، لم أفعل ذلك. ألا يمكنكِ أن تري ما تفعله؟" وودَّ لو يتوسَّل إليها كي تُصغي، إذ لم يستطع احتمال هيئة وجهها. ثمَّ قال بصوتٍ متهدِّج: "لقد حطَّمَت مايكل".

"مايكل الآن أقوى منه في أيِّ وقت مضى".

"ألهذا هو جاثٍ على ركبتيه؟"

"إنَّه يُقاتِل من أجلها بالطريقة الوحيدة التي يقدر عليها".

"ميريام، لقد أنشبت فيه خطاطيفها ومزَّقته إرْبًا إرْبًا".

"أأنت أعمَى هكذا حقًّا؟ إنَّ مايكل هو الوحيد الذي حطَّم جميع دفاعاتها. إنَّها تحبُّه!"

"لو كان هذا صحيحًا، أفما كانت بقيت؟ ما كان من شيء يحملها على الرحيل. غير أنَّها لم تبقَ؛ أليس كذلك؟ لقد غادرَته بكلِّ بساطة". وفرقع أصابعه. "وها أنتِ هنا تحاولين أن تقولي إنَّ لها قلبًا".

تهالكت ميريام على الكرسيِّ بتثاقُل، ورفعت نظرها إلى وجه زوجها المكتئب. هل تصوَّرت حقًّا أن تُخلِّصه بنفسها؟ يا للاعتداد بالذات! لقد بات الآن أبعد عنها ممَّا لو كان قد ذهب إلى الجبال بحثًا عن الذهب. وكان كلُّ ما تعرفه هو ما شعرت به. "أنا أيضًا أُحبُّها، يا پول، كواحدةٍ من أُختيَّ اللتين من أبويَّ. فمهما ظننتَ فيها، فأنا أعرفها، وسأُصلِّي كلَّ يومٍ من عمري طالبةً أن ترجع".

إذ ذاك اندفع پول إلى الخارج وسفق الباب.

استلقت آنجل في السرير محدِّقةً إلى السقف. لقد علمت أنَّها تصرَّفتِ التصرُّف الصحيح، ولكنَّ اشتياقها إلى مايكل كان يشتدُّ أحيانًا بحيث يتحوَّل إلى ألمٍ جسديّ. أكان بخير؟ أكان سعيدًا؟ لا شكَّ أنَّه يكون الآن قد تخلَّى عن طلبها. لا بدَّ أنَّه يستطيع

أن يواصل حياته. ستكون له ميريام، وسيُرزَق منها أولادًا.

لم تستطع أن تسمح لنفسها بالاسترسال في ذلك. فإذا فعلت ذلك، تغرق في رثاء الذات. لقد انتهى الأمر وانقضى، وصار خلفها. عليها أن تمضي قدمًا. فأغمضت عينيها، تدفع الألم إلى تحت. ثمَّ نهضت وارتدت ثيابها، مُستعيدةً في ذهنها الأمور الرائعة التي حدثت.

استقرَّت شَرِي لدى زوجين يملكان مخبزًا. وكانت سعيدةً ومتكيِّفةً لحياتها الجديدة. أمّا فايث الصغيرة فقد تبنَّتها عائلةٌ مؤمنة، وانتقلت إلى مونتيري لتعيش مع إخوتها وأخواتها الجُدد. وكانت تتعلَّم القراءة والكتابة، إذ بدأت الرسائل ترد من عندها.

وبمقدار ما أحبَّت آنجل الإقامة عند آل آكسِل، علمت أنَّه لا يمكنها أن تبقى عندهم إلى الأبد. وكانوا قد جاوزوا الحدَّ في معاملتها بكلِّ سخاءٍ ولطف، موفِّرين لها المأوى والحماية والصداقة. حتَّى إنَّهم اهتمُّوا بحصولها على ملابس جديدة. وإذ خُيِّرت في ما تريده، طلبت أثوابًا رماديَّة فاتحة وصوفًا بنِّيًا في أزياء بسيطة.

وكانت سوزانّا هي التي أصرَّت على تعليمها تعليمًا خصوصيًّا. وقد يئست آنجل من تعلُّم ما لقَّنتها إيّاه سوزانّا، ولكن صديقتها الجديدة ألحَّت عليها. "أنتِ ذكيَّة، وستستوعبين الأمور في حينها. فلا تتوقَّعي من نفسك إنجاز الكثير بسرعةٍ فائقة". وكانت الدروس صعبة، حتَّى تساءلت آنجل عن جدوى بذل الجهد في سبيلها.

وفكَّرت في العودة إلى العمل عند ڤرجيل، ثمَّ طردت الفكرة من رأسها. فبطريقةٍ ما، علمت أنْ ليس ذلك ما قُصِد لها أن تعمله. ولكنْ ماذا قُصِد؟

كانت سوزانّا تصطحبها عند التسوُّق للعائلة، حيث تجولان في الأسواق لشراء اللحم والخُضَر والخبز والأدوات المتفرِّقة. فتعلَّمت آنجل المساومة. ولم تكن هذه تختلف كثيرًا عن بيع المقالي للمُعدِّنين. وقد تعلَّمت المخاتلة، كما تعلمت التظاهر باللامبالاة. وغالبًا ما كانت تشتري ما تريده سوزانّا بأرخص الأثمان.

وقد قالت لها سوزانّا ضاحكةً: "نظرة واحدة إلى عينيك الزرقاوين البريئتين، ثمَّ يعطونك بضائعهم مجّانًا بالفعل. فهم يبذلون كلَّ جهدٍ لخدمتك وإرضائك. ثمَّ تصوَّري أن تحصلي على عرضٍ في السوق".

"لم يكن مجرَّد عرض، يا سوزانّا، بل كان طلب يد. والفرق بينهما كبير".

"حسنًا، لا يبدُ عليكِ فرطُ الاكتئاب. لقد قلتِ لا، وبمنتهى التهذيب أيضًا كما لا بدَّ أن أُضيف".

لعلَّها إذا لبست مِسحًا لا يلاحظها الرجال. فحتَّى وهي لابسةٌ الرماديَّ الفاتح، كانت رؤوس الرجال تدور لدى عبورها. ولم يزعجها إلَّا قليلون، فرجَّحت أن يكون السبب وجود سوزانَّا آكسِل بجانبها أكثر من كونه أيَّ فضلٍ لطهارتها الجديدة. فقد كان آل آكسِل معروفين جيِّدًا ومحترمين جدًّا في المجتمع. وتساءلت آنجل عمَّا قد يحدث لو لم تكن تحت أجنحتهم الواقية. فعندما تلوح أوَّل علامة من علامات المصاعب، هل تضعف من جديد؟ فكرةٌ جعلتها تعضُّ على كبريائها وتقبل استمرارَ إحسانِ آل آكسِل ومودَّتهم.

وقد شرعت أيضًا تذهب إلى الكنيسة معهم، حيث تشعر بأنَّها معزولة ومحميَّة بوجود جوناثان وپريسكلّا إلى أحد جانبيَها وسوزانّا إلى الآخر. وكانت تتشرَّب كلام الخلاص والفداء، مع أنَّها شعرت بأنْ ليس من حقِّها التمتُّع بهما. فكانت جوعانة وعطشانة جدًّا، تتلهَّف إلى ماء الحياة تلهُّف الإيَّل إلى الجداول... متذكِّرةً، وهي تُصغي، ذلك الحلم الذي رأته في ماخور دوك بميدان پورتسماوث.

يا الله، كان ذلك أنت متكلِّمًا إليَّ، أليس كذلك؟ كان ذلك أنت. وتلك الليلة في الكوخ من زمان بعيد حين شَممتُ ذلك العبير الزكيَّ العجيب، وخُيِّل إليَّ أنِّي سمعت شخصًا يتكلَّم إليَّ، كان ذلك أنت.

وإذا بكلِّ شيء سبق أن قاله مايكل لها، وكلِّ شيء قد فعله، يعني لها الآن معنىً جليًّا. فإنَّه قد عاش المسيحَ بحيث أمكنها أن تفهم.

يا ربّ، لماذا كنتُ عمياء تمامًا؟ لماذا لم أسمع؟ لماذا تكبَّدتُ كثيرًا من الألم لأرى أنَّك طالما كنتَ هناك مادًّا يدك لي كلَّ حين؟

وكلَّ يومِ أحد، بعد العظة، كان الواعظ يوجِّه الدعوة إلى أيِّ مَن يريد أن يقبل المسيح مخلِّصًا له وربًّا. وكلَّما أتاح الفرصة للتقدُّم إلى الأمام، كانت آنجل تحسُّ أعصابها تشتدُّ وتتوتَّر.

ودعاها الصوتُ الهادئ الساكن برقَّةٍ ورِفق.

تعالَي إليَّ، يا محبوبة. قفي وتعالَي إليَّ.

فغمرها الدفءُ، إذ كان هذا هو الحبَّ الذي طالما انتظرته طوال حياتها. غير أنَّها لم تستطع أن تتحرَّك. آه، يا مايكل، ليتك كنتَ معي اليوم. ليتك كنتَ هنا لتتقدَّم معي، فربَّما تكون لديَّ الشجاعةُ عندئذٍ.

وكلَّ يوم أحد، كانت تغمض عينيها، محاولةً استجماع شجاعتها لتلبية الدعوة...

إلّا أنّها كلّ أحد أخفقت في القيام بذلك. فكانت تبقى قاعدةً وهي ترتجف، عالمةً بأنّها غير مستحقّة، عالمةً أنّها بعد كلّ ما قالته بحقّ الله لا تستحقّ أن تكون له ابنةً.

ويومَ الأحد الرابع، مالت سوزانّا نحو أذنها وهمست: "إنّكِ تريدين أن تتقدّمي إلى الأمام؛ أليس كذلك؟ ولطالما أردتِ ذلك أسبوعًا بعد أسبوع".

فشعرت آنجل بوخزٍ في عينيها وغصّةٍ في حلقها، وهزّت رأسها مرّةً واحدة ثمّ دلّته وشفتاها مضمومتان. لقد كانت خائفة، خائفةً جدًّا حتّى أخذت ترتجف. أيُّ حقٍّ لها في أن تُقدّم نفسها لله وتتقبّل رحمته؟ أيُّ حقّ؟

وقالت لها سوزانّا: "سأتقدّم معكِ"، ثمّ أمسكت بيدها بإحكام.

كانت تلك أكبر مسيرة قطعتها آنجل في حياتها وهي تجتاز الممرّ حتّى تُواجِه الواعظ المنتظِر عند نهايته. وقد كان يبتسم وعيناه تتألّقان. وفكّرت في مايكل فأحسّت دفقًا من الضيق النفسيّ. آه، يا مايكل، ليتك كنت هنا معي الآن! ليتك كنت هنا لترى هذا. هل تعرف يومًا أنّك أشعلت عود الكبريت وأتيتَ بالنور إلى ظلمتي؟ وغمر الشكرانُ قلبها. آه، يا إلهي، إنّه يحبُّك كثيرًا.

لم تبكِ. فقد مرّت عليها سنون وهي تمارس ضبط عواطفها، ولن تستسلم لها الآن أمام هؤلاء القوم جميعًا، حتّى لو كانت سوزانّا آكسِل إلى جانبها. وكان في وسعها أن ترى جميع مَن في الكنيسة يرمقونها بعيونهم ويراقبون كلّ حركة من حركاتها، ويُصغون إلى أيّ ارتباكٍ في صوتها. فينبغي ألّا تجعل نفسها أُضحوكة.

سألها الواعظ: "هل تؤمنين بأنّ يسوع هو المسيح، ابنُ الله الحيّ؟"

أجابت بتأدُّبٍ رزين: "نعم أُومن"، ثمّ أغمضت عينيها هُنيهةً. آه، يا الله، اغفر لي عدم إيماني. اجعل إيماني، ربّي يسوع، أكبر من حبّة الخردل. اجعله ينمو. رجاءً!

"وهل تُسلّمين المسيح حياتك الآن أمام هؤلاء الشهود؟ إن كان كذلك، فهلّا تشيرين إلى ذلك بقولك «نعم»!"

تلك كلماتٌ تُستخدم في حفل الزفاف. فمسّت شفتيها ابتسامة حزينة. إنّها مع مايكل قالت "لمَ لا" بدلًا من "نعم". وكانت قد بلغت أقصى قدرتها على الاحتمال، وشعرت بأنْ لا خِيار لها. وها هي الآن تشعر بمثل ذلك. لقد وصلت إلى نهاية كفاحها، إلى نهاية صراعها لأجل البقاء والعيش بمفردها. إنّها في حاجة إلى الله. إنّها تريده حقًّا. فهو قد أخرجها من حياتها العتيقة حين لم يكن لها إيمان. أمّا الآن، وقد علمت أنّه موجودٌ حقًّا، فهو يمدُّ لها يده ويعرض عليها عرضًا سخيًّا.

آه يا مايكل، هذا هو ما أردتَه لي؛ أَليس هو إيّاه؟ هذا هو ما عنيتَه لمّا قلتَ يومًا إنّه سيكون عليَّ أن أختار خيارًا.

وقال الواعظ متحيِّرًا: "آنجل؟" فيما لم يتنفَّس أحدٌ أو يتحرَّك. فأجابت: "نعم، بكلِّ يقين"، مبتسمةً ابتسامة مشرقة.

وضحك، ثمَّ أدارها نحو الجمهور وقال: "هذه آنجل. أُختٌ جديدة في المسيح. لنرحِّب بها!"

فرحَّبوا بها.

ولكنَّ الأمور لا يمكن أن تبقى على حالها. وقد شعرت بذلك في قرارة نفسها. فلم يكن مقصودًا لها أن تبقى داخل تلك الفُقاعة الآمنة، حيث يحميها آل آكسِل. إذ إنَّها ستُضطرُّ، عاجلًا أو آجلًا، إلى مغادرتهم وإلى التحقُّق من قدرتها على الوقوف وحدها.

فعليها قبلَ كلِّ شيء أن تفكِّر بما تنوي أن تفعله بحياتها.

بعد وضع المُشتَريات في المطبخ، صعدت آنجل الدرج إلى غرفتها، حيث خلعت كابها[31] القاتم وعلَّقته قرب الباب. وكانت پريسكلّا قد أعطتها غرفة النوم التي سبق أن تشاركت فيها شَرِي وفايث. وهي غرفة واسعة مفروشة بأثاث مريح، وفي رُكنٍ منها موقد حطبيّ. وكان أحدهم قد أشعل النار. فأزاحت آنجل ستائر المُخرَّم وتطلعت من النافذة.

كان الضباب ينتشر بسرعة، باعثًا نفثاتٍ من السديم أمام النافذة. واستطاعت آنجل رؤية رصيف الميناء وغابة من السُّفن مهجورةً في المرفأ. وكانت ألواح السفن تُجرَّد واحدةً فواحدة، ثم يتم إغراق ما يتبقى منها.

تذكَّرت آنجل يومًا آخر فيه وقفت وراء النافذة في الطابق الأعلى مُراقِبةً مايكل يسوق عربته في الشارع خارجًا من پيرأدايس. وتذكَّرت سماع صوته وهي في خضمِّ الآلام المُبرِّحة التي جلبتها على نفسها بواسطة مغوان. وتذكَّرت مايكل ضاحكًا ومُطارِدًا لها في حقل الذُّرَة. كما تذكَّرت شفقته، وغضبه العادل، وتفهُّمه العطوف، وقوَّته. وتذكَّرت حبَّه الذي يستولي على الكيان كلّه. وعلمت ما من شأنه أن يطلب منها القيام به للاهتداء إلى الأجوبة التي تحتاج إليها: صلّي! وكادت تسمع صوته إذ

(٣١) الكاب: رداء خارجي بلا كمين يُطرَح على الكتفين.

قال لها: صلّي!

تنهّدت مُوهَنةً وعيناها مُغمَضتان. "أنا أعلم، يا ربّ، أنّه ليس من حقّي أن أطلب منك شيئًا. ولكنّ مايكل قال إنّه يجب عليّ ذلك. لذا أقوم به. فيا ربُّ يسوع، إذا كنتَ مُصغيًا، هلّا تقول لي أين أمضي من هنا! لا أدري ما أفعله. فلا يمكنني أن أبقى هنا إلى الأبد، حيث أعيش عالةً على هؤلاء القوم الطيّبين. إنَّ هذا ليس صائبًا. ينبغي لي أن أُنفِق على نفسي فيما أشقُّ طريقي في هذه الحياة. فماذا تُريد لي أن أفعل بما بقي من عمري، يا يسوع؟ لا بدَّ أن أفعل شيئًا، وإلّا جُنِنتُ. إنّني أطلب إليك. يا يسوع، إنّني أتوسّل إليك. ماذا تريد منّي أن أفعل؟ آمين!"

ثمّ قعدت تنتظر، مدّةً تجاوزت ساعةً واحدة.

فلم يأتِ نورٌ من السماء، ولا صوت، ولا شيءٌ آخر.

وبعد بضعة أيّام جاءت سوزانّا إلى غرفة آنجل بعد الغداء.

"لقد كنتِ كثيرة الصمت طوال الأسبوع، يا آنجل. ما الذي يزعجكِ؟ أأنتِ قلِقة من جهة مستقبلك؟"

لم تندهش آنجل من تنبُّه سوزانّا إلى الخطأ. فقد بدا أنّها تستبق أفكار الناس ومشاعرهم. ومن ثمّ قالت آنجل بصدق وصراحة: "ينبغي لي أن أفعل شيئًا ما. لا يمكنني أن أبقى هنا وأعيش على حساب عائلتكِ طيلة عمري".

"لن يكون ذلك".

"ها قد مضى ستّة أشهر، يا سوزانّا، ولستُ بعدُ أقربَ إلى أن أعرف ما ينبغي أن أفعل ممّا كنتُ ليلةَ جئتُ إلى هنا".

"هل صلّيتِ بشأن هذا الأمر؟"

تورّد خدّا آنجل على نحوٍ ظاهر جدًّا.

فتألّقت عينا سوزانّا وضحكت: "حسنًا، لا داعي لأنْ تظهري بمظهر من قُبِض عليه يقوم بعملٍ متهوّر!"

أجابت آنجل بجفاف: "لا يبدُ عليكِ السرور. إنَّ الله لم يُجاوِب".

فهزّت سوزانّا كتفيها، قائلةً: "ربّما حتّى الآن. فالله دائمًا يستجيب، في حينه هو، لا في حينكِ أنتِ. ستعرفين ما ينبغي أن تفعليه متى حان الوقت".

"يا ليتَ لي مثلَ إيمانك!"

قالت سوزانّا مبتسمةً: "في وسعكِ أن تطلبي إيمانًا كهذا".

شعرت آنجل بطعنة ألم. "إنَّكِ تُذكِّرينني بميريام".

فانفرجت أسارير سوزانّا وقالت: "سأتقبَّل هذا كإطراء. فأنا أيضًا لم يأتِني الإيمان بسهولة، مهما ظننتِ". ثمَّ نهضت وأردفت: "تعالي معي. أريد أن أُريَكِ شيئًا". ومدَّت لها يدها.

ذهبتا إلى غرفة نوم سوزانّا، حيث كانتا قد تحادثتا مرارًا كثيرة من قبل. ثمَّ أفلتت سوزانّا يد آنجل وجثت على الأرض بقرب السرير، وانحنت تحت غطائه المزركش. وأخرجت علبةً وضعتها على السرير. "عليَّ أن أجثو على ركبتيَّ للحصول عليها". ونفَّضت الغبار عن يديها وهي تنهض، قائلةً: "ينبغي لي أن أزيل الغبار من تحت السرير يومًا من هذه الأيَّام". ثمَّ دسَّت عقصة شعر سوداء منفلتة في كعكة شعرها، وجلست، وقالت وهي تمهِّد السرير: "اقعدي!" فقعدت آنجل، ناظرةً بفضول إلى العلبة الموضوعة بينهما.

وضعت سوزانّا العلبة في حضنها. "هذه علبتي الخاصَّة بالله. عندما تنهش المشاكل فكري، أكتبهنَّ على ورقة وأطويهنَّ وأُدخِلُهنَّ عبر الشقّ. وما إن يصرن داخل العلبة، حتَّى يُصبِحن مشاكل الله، لا مشاكلي".

فضحكت آنجل، فيما جلست سوزانّا بوقار تنظر إليها. وإذ تلاشى مَرَح آنجل، قالت: "أَنتِ تمزحين؛ أَلستِ تمزحين؟"

"لا، بل أنا جادَّةٌ تمامًا". وألقت يديها على العلبة. "أعرف أنَّ الأمر يبدو سخيفًا، ولكنَّه نافع. أنا مُقاوِمة، يا آنجل، مُحارِبة. لم أتمكَّن يومًا من أن أدع الأمور تجري على عواهنها. أُريد أن أقوم بدور الله، إذا شئتِ". ثمَّ تبسَّمت هازئةً بذاتها. "وكلَّما فعلت ذلك، تنحرف الأمور عن خطِّ سيرها". وربَّتتِ العُلبة. "لذلك عندي هذه".

فقالت آنجل بجفاف: "مُجرَّد صندوق قُبَّعة بنِّيّ اللون!"

"نعم، علبة عاديَّة بسيطة، ولكنَّها تذكِّرني بأن أضع إيماني في الله، لا في نفسي. ثمَّ تأتي المكافأة حين أرى صلواتي تُستجاب". وارتعش فمها. "يُخيَّل إليَّ أنَّكِ تحسبينني فاقدةً صوابي. هلَّا أُريكِ!" ثمَّ نزعت غطاء العلبة، فإذا في داخلها عشرات من الأوراق الصغيرة، مطويَّةً بترتيب. ومرَّرت سوزانّا أصابعها بين الأوراق، ملتقطةً إحداها كيفما اتَّفق، ثمَّ فتحتها.

وقرأت: "شَرِي تحتاج إلى بيت". وقد كانتِ الورقة مؤرَّخة. "أودُّ أن أعرف كم تستغرق استجابة الله". وضحكت على نفسها، ثمَّ قالت: "بما أنَّ هذه الصلاة قدِ

استجيبت، فلن أُعيد هذه الورقة إلى العلبة". وطوتها ثمّ وضعتها على شرشف السرير بقربها وأخذت غيرها.

"يا ربّ، أعطني الصبر على بابا. فإذا أتى إلى المنزل بعريسٍ محتمَل آخر، فإنّني سألتحق بدَير. وأنت تعلم أنّني سأكون راهبة رهيبة جدًّا". وضحكت آنجل معها. "خيرٌ لي أن أُعيد هذه الورقة إلى العلبة". ثمّ تناولت غيرها. وصمتت هُنيهةً قبل أن تقرأ: "رجاءً، دع كوابيس فايِث تزول. واحمِها من الشرّير". ثمّ طوت الورقة وردّتها إلى داخل العلبة، قائلةً: "هل فهمتِ ما أعنيه؟"

قالت آنجل: "نعم، كما أظنّ. وماذا لو قال الله «لا»؟"

لم يُحرِج هذا الاحتمال سوزانّا، إذ قالت: "عندئذٍ يكون في فكره شيء آخر، شيءٌ ما أفضل ممّا قد تفكّرين فيه لنفسكِ". ثمّ عبست ونظرت من علٍ إلى العلبة الملأى. "آنجل، ليس الأمر دائمًا هيّن القبول". وأغمضت عينيها وزفرت نَفَسها ببطء. "كنتُ ذاتَ مرّة قد خطّطتُ كلّ شيء لنفسي. فحالما التقيتُ استيفن، عرفتُ تمامًا ما أنوي أن أفعله. كان وسيمًا ونشيطًا. وكان يدرس كي يصير خادمًا للإنجيل، وقد كان مفعمًا بكثيرٍ من الحماسة والتوقُّد". ثمّ تبسّمت، وتابعت: "كنّا ننوي أن نمضي إلى الغرب ونبشّر بالإنجيل بين الهنود الحُمر". وهزّت رأسها وعيناها تنضحان ألمًا.

"هل تركك؟"

"بمعنىً ما. لقد قُتل. كان الأمر تهوُّرًا. فإنّه اعتاد أن ينزل إلى أسوا أقسام المدينة ويتكلّم إلى الرجال في الحانات. وقد قال إنّهم يحتاجون إلى الله أكثر من الآخرين الأيسر حالًا. ولم يكن ينوي أن يكون قِسّيسَ أثرياء. فيبدو أنّه ذات ليلة كان رجلٌ يتعرّض لضرب مُبرِّح في زقاق، فحاول استيفن وقف الاعتداء. إلّا أنّه طُعِن حتّى مات". ثمّ انتفض وجهها، وعضّت شفتها.

إذ ذاك قالت آنجل: "أنا متأسّفة، يا سوزانّا". وقد شعرت بحزن صديقتها كما لو كان حزنها هي.

فتشبثّت سوزانّا بيد آنجل، وقد ملأت الدموع عينيها وراحت تنحدر ببطء على خدّيها الشاحبَين. "عتبتُ على الله، كنتُ بالغة الغضب. لماذا استيفن؟ لماذا شخصٌ بهذا الصلاح، شخصٌ لديه كثيرٌ يقدّمه؟ حتّى إنّني غضبتُ على استيفن. لماذا ساقه تهوُّره البالغ إلى تلك الأماكن الرهيبة؟ لماذا يُكلّف نفسه المشقّة لأجل أولئك القوم؟ لقد حدّدوا خِياراتهم؛ ألم يُحدّدوها؟" ثمّ تنهّدت. "ولم يُعزّني قطُّ أن يكون استيفن

مع الربّ. فقد أردتُ أن يكون معي أنا". وبعدما صمتت طويلًا، أضافت: "وما زلتُ أريد ذلك".

أمسكت آنجل بيد سوزّانا وضغطت عليها. فهي تعرف شعور الاشتياق إلى شخصٍ بملء الجوارح، مع العلم أنّه سيبقى إلى الأبد بعيدًا عن المُتناوَل.

ونظرت إليها سوزانّا قائلةً: "إنّكِ لم تتيقّني بشأن ما ينبغي أن تفعليه بعد الآن. حسنًا، كلتانا في الموقف عينِه". ثمّ ابتسمت من جديد. "ولكنّ ذلك سيأتي في حينه، يا آنجل. أنا على ثقة بأنّه سيأتي".

وانزلق غطاء العلبة عن السرير، فأرخت يدَ آنجل لاستعادته. وإذِ انحنَت، تبعثرتِ الأوراق من العلبة على الأرضيّة كلّها. فجثت آنجل معها على ركبتيها، لمساعدتها على جمع الأوراق وإعادتها إلى العلبة. قصاصاتُ ورقٍ كثيرة، وصلوات كثيرة جدًّا.

التقطت سوزانّا إحداها وألقت نظرةً عليها. ثمّ اعتدلت جالسةً على عقبيها، وتبسّمت، وقد فارق الامتقاع خدّيها وعاد البريق إلى عينيها. وأبقت الورقة في يدها، مبتسمةً، فيما أعادت آنجل جميع الأوراق الباقية إلى العلبة وركّزت الغطاء عليها. وزلّقت سوزانا العلبة، مُعيدةً إيّاها إلى تحت السرير.

"وأحيانًا يستجيب بسرعة!" ثمّ ناولت آنجل الورقة وهي ما تزال مبتسمةً، قائلةً: "اقرإي هذه".

فتناولت آنجل الورقة وبذلت جهدًا ملموسًا لقراءة الكلمات المخطوطة فيها بترتيب: "إلهي، رجاءً، رجاءً، أحتاج إلى صديقةٍ أستطيع محادثتها!"

وكانت الورقة مؤرَّخة باليوم السابق لمجيء آنجل مع جوناثان إلى البيت.

حمّل مايكل عربتَه أكياسَ حنطة وتوجّه إلى سكرامنتو. وكان على الطريق طاحونة، حيث تسنّى له أن يطحن الحبوب ويوضّبها في أكياسٍ نظيفة ومرتّبة لبيعها في السوق. وقد كان الحصاد وفيرًا، سيدرُّ عليه ما يكفي لشراء بضعة رؤوس من البقر وخِنّوصين.[٣٢] ففي السنة المقبلة، يكون عنده لحمٌ مُقدَّد يدخّنه ويبيع شيئًا منه. بات ليلته بقرب جدولٍ سبق أن توقّف عنده هو وآنجل. وإذ جلس في ضوء القمر، ناظرًا إلى الغدير،

٣٢) الخِنّوص: هو صغير الخنزير.

خطرت في باله أفكارٌ كثيرة عنها. حتَّى إنَّه كاد يشتمّ رائحة بشرتها الطيِّبة لدى هبوب نسمة الليل. فأحسَّ وخزًا خفيفًا في جسمه وسرى فيه الدفء. وتذكَّر بسمتها الخَجِلة ونظراتها المُجفَلة كلَّما اخترق حصونها العالية. أحيانًا كانت مجرَّد كلمة أو نظرة تفعل ذلك على غير توقُّع، وكم شعر بالعُجب والفخر في تلك اللحظات، كأنَّه هو- لا الله- مَن أنجز المستحيل. ومن ثمَّ حنى رأسه وبكى.

أجل لقد علم أنَّه عاجز. وعلم أنَّ الرجل يمكن أن يعيش بعد أن تفطر امرأةٌ قلبه. وعلم أنَّه يستطيع أن يعيش من دون آنجل.

ولكنْ، يا الله، سأفتقدها وأشتاق إليها حتَّى ساعة موتي. ولا بدَّ أن يشعر بهذا الوجع في قرارة نفسه، كلَّما تساءل عنها أهي بخير، وهل تُحسِن تدبير أمورها بنفسها، وهل هي بمأمنٍ من الأذى. ولم يُجدِه أن يُذكِّر نفسه بأنَّ الله يرعاها هي أيضًا. ولطالما عاودته كلمات آنجل نفسِها لتُقِضَّ مضجعه.

"آه، أنا أعرف الله. إذا فعلتَ شيئًا بطريقة خاطئة، سحقك كحشرة!"

أمَا زالت تعتقد ذلك؟ أَوكان إيمانه وقناعته الخاصَّان من الضعف بحيث فاتها إدراك الحقيقة؟ أَما علَّمَتها أيّ شيءٍ المعاناةُ الصعبة التي اجتازتها وعدمُ قدرتها حيالها؟ أمَا زالت تتصوَّر أنَّها تملك زمام السيطرة على حياتها؟

وإذ تفاقمت في ذهنه الأفكارُ المعذِّبة، رجع بفكره إلى الوراء وتشبَّث بآيةٍ بسيطة من الكتاب المقدَّس. "توكَّل على الربِّ بكلِّ قلبك، وعلى فهمك لا تعتمد!" فتصبَّبت نقاط العرق على جبينه وضمَّ يديه قبضتين. وراح يكرِّر لنفسه العبارة عينها مرارًا: توكَّل على الربّ، توكَّل على الربّ! حتَّى استراح ذهنه واسترخى جسمه.

ثمَّ صلَّى مايكل لأجل آنجل، غيرَ طالبٍ أن ترجع إليه يومًا، بل طالبًا لها أن تهتدي إلى الله بنفسها.

وعندما استأنف سفره في الصباح، أخذ على نفسه أنَّه لن يُفتِّش عن زوجته عندما يصل إلى سكرامنتو، مهما كان إغراؤه بذلك شديدًا.

ثُمَّ إنَّه لن يطأ بقدمه أرباض سان فرنسيسكو.

"آنجل! آنجل!"

انتفض بَدَن آنجل إذ ناداها صوتٌ باسمها. لماذا شعرت بحافزٍ مُلِحٍّ للنزول إلى هذا

الميدان؟ كان ينبغي لها أن تمضي إلى البيت حال انتهاء زيارتها لـڤرجيل. وكان قد طرد طبَّاخًا آخر، فحاول إقناعها بالرجوع إلى العمل عنده. وكادت تودُّ لو أنَّها لم تأتِ إليه وترفع آماله.

ألفت نفسها هائمةً على وجهها في الشوارع من جديد، عابرةً أمام مسرحٍ وحانة... في الأماكن التي انتابتها كالكوابيس. ولم تدرِ لماذا كانت هناك. كانت قد خرجت لتوِّها في نزهة كي تُفكِّر في تدبير أُمورها، كي تحاول أن تُخطِّط بعض الخُطط، وشعرت باندفاعٍ إلى الرجوع إلى هناك. فقدِ اعتراها ما يتعدَّى تثبيط الهمَّة.

وها هو الآن شخصٌ ما من ماضيها يشقُّ طريقه وسط الزِّحام ويلحق بها. فانبعث فيها حافزٌ على الركض وعدم الالتفات إلى الوراء.

"آنجل، مهلًا!"

فصرَّت بأسنانها، والتفتت. وعرفَت في الحال الشابَّة المُقبِلة صوبها. وإذ رأتْها من جديد، استطاعت أن تحسَّ ذاتها وهي تقوِّم ظهرها ومرتديةً قناع الترفُّع والهدوء. ثمَّ قالت للشابَّة، مربِّتةً ذقنها قليلًا: "مرحبًا، طوري!"

ونظرت إليها طوري صعودًا ونزولًا. "لم أُصدِّق أنَّ هذه أنتِ. إنَّك تبدين مختلفةً تمامًا". وقد بدا عليها الارتياب. "أما زلت متزوِّجةً من ذلك الفلَّاح؟"

فأحسَّت آنجل الألم قبل أن يتاح لها كبتُه، وقالت: "لا، ليسَ بعدُ".

"وا أسفاه! لقد كان مميَّزًا بالفعل. كان يُحيط به شيءٌ ما..." ثمَّ هزَّت كتفيها بلامبالاة . "لا بأس، تلك هي الحياة، على ما أظنّ".

ونظرت إلى فستان آنجل البُنِّيّ الأغبر وكابها القاتم، ولَوَت شفتها السُّفلى قائلةً: "ألَم تعودي تشتغلين في المهنة؟"

"هل سمعتِ بما أصاب لاكي؟"

حنت آنجل رأسها إيجابًا. يا للمسكينة العزيزة لاكي!

"لقد أتى الحريق على ماي لِنغ أيضًا".

"أعرف ذلك". أرادت أن تحسم هذا الحديث وترجع إلى البيت الكبير على قمَّة التلَّة. لم تُرِد أن تفكِّر في الماضي. لم تُرِد أن تنظر إلى طوري وترى كيف صارت بعدما كبرت قليلًا. لم تُرد أن تتبيَّن انقطاع الرجاء في عينيها.

وقالت طوري: "حسنًا، على الأقلّ نال مغوان ما يستحقُّه". ثمَّ حدَّقت إلى ياقة آنجل العتيقة الطراز. وتابعت قائلةً:

"ماغي تموت من جرّاء السّفلس. وقد طردتها الدوقة حين اكتشفت إصابتها به. وكنت أرى ماغي بين حين وآخر في مدخل مبنى وبيدها قنّينة من المشروب". ثمّ رفعت إحدى كتفيها. "إنّما ليس مؤخّرًا".

"أما زلتِ لدى الدوقة؟"

فأطلقت طوري ضحكة، وردّت: "لا شيء يتغيّر البتّة، بالنسبة إلى بعضٍ منّا على الأقلّ". وأعقبت ذلك ابتسامة ساخرة. "ليس الأمر رديئًا جدًّا. لقد بَنَت مكانًا جديدًا منذ عهدٍ قريب، ولديها طبّاخة ماهرة. وأحوالي أنا جيّدة. حتّى إنّني وضعت جانبًا مبلغًا قليلًا من المال لأجل مستقبلي".

شعرت آنجل بثقلٍ في صدرها. أكانت طوري تتظاهر بأنّها على ما يرام، في حين أنّها تنزف حتّى الموت في الداخل؟ وواصلت طوري حديثها، إلّا أنّ آنجل لم تكد تسمع كلمةً واحدة ممّا قالته، بل ظلّت تنظر في عينَي طوري وترى أشياء لم يسبق أن تنبّهت إليها قطُّ من قبل. وخطر في بالها من جديد كلُّ ما سبق أن اختبَرته من حينَ كانت في الثامنة من العمر، مع ما رافق ذلك من ألمٍ ووحشة... وقد كانا ماثِلَين هناك أيضًا، في عينَي طُوري.

ثمّ قالت طوري مبتسمةً بفتور: "حسنًا، لقد أخّرتُكِ وقتًا لا بأس به وأنا أتحدّث عن الأوقات الطيّبة القديمة. خيرٌ لي أن أعود إلى الشُّغل. زبونٌ واحدٌ آخرُ اليوم، ثمّ يمكنني أن أستريح".

وإذ كادت تدور لتمضي، شعرت آنجل بأغرب فورةِ تأثُّر في داخلها. فقد غمرها الدفء، ثمّ تحرّك فيها دفقٌ من الطاقة والثقة لم تشهد له مثيلًا من قبل. فمدّت يدها بسرعةٍ واستوقفت طوري قائلةً: "تغدّي معي اليوم!" وقد بلغ منها التأثُّر أنّها شرعت ترتعش.

"أنا؟" لقد فوجئت طوري مثلما فوجئت آنجل.

فقالت آنجل مبتسمةً: "نعم، أنتِ!" وقد شعرت كما لو كانت ستنفجر من الأفكار الآخذة في الانتشار داخل رأسها. لقد علمَتْ! علمَتْ ما أراد الله لها أن تفعل. علمت تمامًا ما أراد. "أعرف مقهى صغيرًا وراء الزاوية تمامًا". ثمّ عقدت ذراعها على ذراع طوري وسارت بها.

"اسمُ صاحب المقهى ڤرجيل. وسيُعجبُكِ. وأنا أعرف أنّه سيُسَرُّ بالتقائك".

وقد حال ذهول طوري دون اعتراضها.

سأل جوناثان ابنته المضطربة: "هل قالت إلى أين هي ذاهبة؟"

"لا، يا أبي. أنت تعرف كم كانت غير مستقرّة في الأسابيع القليلة الماضية. وقد قالت هذا الصباح إنّها ستذهب كي تتنزّه. أرادت أن تمضيَ وحدها كي تُفكّر. ومنذئذٍ لم تعُد. أعتقد أنَّ مكروهًا قد حصل لها".

وقالت بريسكلّا: "لا يمكنكِ الجزم بذلك قطعًا. إنَّك تدعين عواطفكِ تُسيطر عليكِ. آنجل تعرف كيف تهتمُّ بنفسها".

فوافق جوناثان قائلًا: "أمُّكِ على حقّ". ولكنَّه لم يتمالك عن التفكير. إن لم ترجع آنجل في غضون ساعة، فسيخرج بالعربة للبحث عنها.

توقّفت سوزانّا عن ذرع الغرفة وقتًا كافيًا للوصوصة خارج الستارة. "الظلام يقترب. آه! إنّها هناك، صاعدةً التلّة". ثمّ دارت دورةً كاملة وعيناها تتوقّدان. "لقد ابتسمت ولوّحت بيدها!" وجذبت الستارة المخرّمة بسرعة جعلها تُصدِر خشخشةً خفيفة. "سأقول لها رأيي في إقلاقنا إلى حدٍّ كاد يُمرِضنا!"

اندفعت آنجل إلى داخل البيت وعانقت سوزانّا قبل أن تُتيح لها التفوّه بكلمة تأنيبٍ واحدة. وقالت ضاحكة: "أُوه، يا سوزانّا، لن تُصدِّقي! حسنًا، أسحب هذا. ستُصدِّقين!" ثمَّ نفَّضت عنها كابـها وعلَّقته، ورمت قلنسوتها فوقه بلامبالاة.

ولاحظ جوناثان تبدُّلها في الحال. فقد كان وجهها مشرقًا، وكانت ابتسامتها ابتسامة فرح. وإذ جلست على حافة المقعد، قالت: "إنّني أعرف ما يُريد الله لي أن أفعل بحياتي". ثمَّ ألصقت يديها بركبتيها، وبدت كما لو كانت ستنفجر من فرط التأثُّر. وراقب جوناثان ابنته تقعد على مهل في مكانٍ قريب، فبدت كما لو أنّها توشك أن تفقد أعزَّ صديقة لديها. حسنًا، ربّما كان ذلك سيحصل فعلًا.

وقالت آنجل لجوناثان: "سأحتاج إلى مساعدةٍ منك. لن أتمكّن أبدًا من مجازاتك نظير ما سبق أن فعلتَه، ولكنّني سأطلبُ منك المزيد". ثمَّ هزّت رأسها قائلةً: "إنّني أُسرِع أكثر من اللازم. ينبغي أوّلًا أن أُطلِعكم على ما جرى اليوم". وأخبرتهم عن التقائها طوري وتناولها الغداءَ معها. كما أخبرتهم عن اغتمام المومس الشابّة وانقطاع رجائها، وكيف خبرت هي الشعور نفسه سنين عديدة.

"كان ممكنًا أن يوظّفها ڤرجيل عنده، لو كانت تُتقِن الطبخ. لكنّه والحالةُ هذه كان بالغ اللطف بحيث يسمح لها بالبقاء إن كنتُ أنا أنزل وأشتغل معها على مدى الأسابيع القليلة الآتية حتّى تتعلّم ما ينبغي أن تفعله. إنّها ذكيّة، وستتعلّم تدبير الأمور

بنفسها في مدَّة قصيرة جدًّا".

وقال جوناثان: "إنَّكِ تُضيِّعيننا". فقد بلغ من تأثُّر آنجل الشديد أنَّها لم تستطع إفهامهم ما تعنيه تمامًا.

"قالت طوري إنَّه لو أُتيحت لها فرصة للإقلاع عن شُغلها لانتهزتها. وسألها ڤرجيل هل تُتقِن الطبخ، فأجابت بالنفي. وخطرت في بالي الفكرة، هناك في مقهى ڤرجيل تمامًا. لماذا لا؟"

فقالت سوزانّا مُسخَطةً: "لماذا لا ماذا؟ لا يبدو أنَّ لكلامكِ أيَّ معنى!"

وقالت آنجل: "لماذا لا نُتيح لها الفرصة؟ نُعلِّمها الطبخ. نُعلِّمها الخياطة. نعلِّمها صُنع القُبَّعات. نُعلِّمها أيَّ شيء يزوِّدها بطريقة أُخرى لكسب معيشتها. جوناثان، أودُّ شراء دارٍ فيها تستطيع أيَّة واحدة مثل طوري أن تُقيم وتكون في مأمن وتتعلَّم كسب رزقها بغير أن تُضطرَّ إلى بيع جسدها كي تعيش".

استغرق جوناثان في التفكير قليلًا، ثمَّ قال: "لديَّ أصدقاءُ قد يُساعِدون. ما المبلغ الذي تعتقدين أنَّكِ تحتاجين إليه للبدء؟"

"هنالك دارٌ لا تبعد كثيرًا عن أرصفة الميناء". وذكرَتْ له السعر المطلوب فيها.

فتقوَّس حاجباه. لقد كان المبلغ كبيرًا. وتطلَّع إلى پريسكلّا، إلَّا أنَّها لم تمدَّه بأيِّ عون. ثمَّ نظر إلى آنجل نظرةً أُخرى فتأكَّد له أنَّه لا يستطيع ردَّ طلبها ومحو نظرات الرجاء والعزم من عينيها.

"سننظر في الأمر صباحَ غد".

فأشرقت عيناها، وانحنت فقبَّلت خدَّه. "شكرًا لك، يا صديقًا عزيزًا بحقّ".

وقالت سوزانّا: "عند أبي أصدقاءُ آخرون سيُساعِدون في دعم شراء الدار".

ألقى جوناثان نظرةً على ابنته فلمح التغيير في ملامحها. ولم يكن قد رأى التلألؤ منذُ موت استيڤن. فضاق صدره، إذ آلمه التبصُّر المُفاجئ. آه، يا إلهي، سأخسر سوزانّا في نهاية المطاف، ليس لمصلحة شابٍّ متحمِّس غيور ينوي أن يذهب بها بعيدًا إلى البراري لهداية الهنود الوثنيِّين، بل لمصلحة آنجل وأُخرياتٍ مثلها.

لقد أراد لابنته أن تتزوَّج وتستقرَّ مع أولادٍ من لحمها ودمها. أراد لها أن تُقيم في بيتٍ قريب جدًّا بحيث يتسنَّى له أن يذهب لزيارتها غالبًا. أراد لها أن تكون أكثر شبهًا ببريسكلّا وأقلَّ شبهًا به.

وراقب سوزانّا تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، والمشاريع تنبثق كنبعٍ غزير. أمَّا آنجل فكانت

تضحك وتطرح أفكارها الخاصَّة، واحدًا في إثر واحد. لقد كانتا كلتاهما جميلتين، حتَّى صعُب النظر إليهما. نورٌ مُشرِقٌ في قلب الظُّلمة! ثمَّ أغمض جوناثان عينيه. آه، يا إلهي، إنَّ الأُمور تجري على خلاف ما خطَّطتُ لها!

أمَّا بعدُ، فأيُّ شيء هو ذو قيمة حقيقية دائمة؟

الفصل
الثالث والثلاثون

لمّا كنتُ طفلًا، كطفل كنت أتكلّم،
وكطفل كنت أفطن، وكطفلٍ كنت أفتكر.
ولكن لمّا صرتُ رجلًا، أبطلتُ ما للطفل.

(رسالة كورنثوس الأولى ١٣: ١١)

توجّه پول إلى سَكرامنتو للبحث عن آنجل. فإنْ كان ينبغي له أن يُنقِذ زواجه، فعليه أن يعثر على تلك الساحرة ويُعيدها. إذ كان واضحًا أنّ مايكل لن يمضيَ للبحث عنها، وميريام لن تستريح حتّى ترجع آنجل إلى البيت. ولم يقوَ پول على احتمال رؤية ميريام تحزن على فراق آنجل بعدُ. على أنّه لم يستطع أن يتصوَّر كيف يمكن أن ترى ميريام بعدُ أيَّ خير في آنجل إثرَ تلك المدّة الطويلة، في حين استطاعت ميريام ذلك. وربّما من أجل ذلك أحبَّها كثيرًا جدًّا. أَفلَم ترَ فيه خيرًا؟

فالآن تمامًا هو مستعدٌّ أن يفعل أيَّ شيء لأجلها، ولو غادر بيتهما في سبيل البحث عن آنجل، إن كان من شأن ذلك أن يجعلها تسترخي وتعتني بصحّتها.

وتصوَّر أنّ آنجل لا بدَّ أن تكون دائبةً في شغلها وسط أقرب حيٍّ مزدحم. ففتَّش في المواخير أوّلًا، حاسبًا أنّ اقتفاء أثرها سيكون سهلًا بسبب جمالها النادر. غير أنّه تبيَّن له أنّ "آنجل" اسمٌ شائع بين بنات الهوى. فقد عثر على كثيرات، ولكنْ لم يعثر عليها.

وبعد مرور أُسبوع، غادر پول سكرامنتو وتوجّه إلى سان فرنسيسكو. لعلَّ سكرامنتو لم تكن كبيرة كفايةً بحيث تملأ عين آنجل. وعلى فرْض أن يكون مخطئًا في ذلك، توقَّف في كلِّ مدينة على الطريق يسأل عنها. إنّما لم يعثر على أيِّ أثرٍ لها.

حتّى إذا بلغ پول سان فرنسيسكو، كان قد اقتنع بأنّه عبثًا يبحث. فقد مضى زمن طويل جدًّا على مغادرتها الوادي، ثلاثُ سنين تقريبًا. لربّما ركبت سفينةً ومضت إلى نيويورك، أو إلى الصين. ولم يدر أيشعر بالشُّكران من جرّاء إخفاقه أم يواصل البحث حتّى يحصل على شيءٍ من المعلومات. ولطالما كانت ميريام واثقةً تمامًا ومُصِرَّةً للغاية. "إنّها ما تزال في كاليفورنيا. أنا أعلم هذا".

لا بدَّ أنَّ أحدًا قد سمع بها. فكيف يمكن أن تختفيَ امرأةٌ مثل آنجل؟

أزعجه الوضع كلُّه كثيرًا. ماذا لو وجدها فعلًا؟ ماذا يقول لها؟ نُريد منكِ أن ترجعي إلى الوادي؟ ستعرف أنَّه يكذب. فهو لا يريد لها أن ترجع. ولم يُرِد قطُّ أن يقع عليها نظرُه ثانيةً. كذلك لا يمكنه أن يتصوَّر رغبة مايكل فيها بعد هذه المدَّة كلِّها. ثلاث سنين. الله أعلم بما كانت تفعله طيلة هذه المدَّة، ومع مَن.

غير أنَّ مايكل أراد لها فعلًا أن ترجع. وتلك كانت المشكلة. فإنَّ مايكل ما يزال يحبُّها. ولَسوف يحبُّها دائمًا أبدًا. ولم يكن العناد أو الكبرياء هو ما حال دون لحاقه بها هذه المرَّة. فقد قال إنَّ عليها هي أن تقرِّر. ينبغي لها أن ترجع من تلقاء ذاتها. حسنًا، إنَّها لن ترجع. وكان من شأن سنة واحدة أن تقول ذلك لمايكل. وبالتأكيد أنَّه كان ينبغي لسنتين أن تحسما الأمر. فلمَّا مرَّت سنةٌ أُخرى، تخلَّت حتَّى ميريامُ عن الأمل برجوع آنجل من تلقاء ذاتها، وقالت إنَّ أحدًا ما يجب أن يعثر عليها.

لقد قالت ميريام: "أريد منك أن تذهب أنت، يا پول. ينبغي أن تذهب أنت".

وإذ أصغى إلى ذلك، شعر بكرهه لآنجل أكثر منه في أيِّ وقتٍ مضى.

أخيرًا وصل پول إلى سان فرنسيسكو. وكان الضباب يُغشِّي المدينة، ففتَّش بفتور. فإنَّ عثوره على آنجل سيُوجِد من المشاكل أكثر ممَّا سيوجده عدم العثور عليها. أيُفترَض أن يجرَّها إلى الوادي جرًّا كما أرجعها مايكل أوَّلَ مرَّة رحلت فيها؟ وأيُّ نفعٍ في ذلك؟ فهي إنَّما سترحل من جديد. سترحل مرارًا وتكرارًا. أَلم تستطع ميريام أن تفهم؟ مَن كانت مومسًا مرَّة، تبقى مومسًا كلَّ حين. الظاهر أنَّ بعض الحقائق كانت ذات وقعٍ صعب على شابَّة بمثل عذوبة زوجته وسذاجتها، أو على رجلٍ طاهرٍ مثل مايكل. وقد أحبَّهما پول كليهما حبًّا جمًّا، ولم يستطع أن يفهم كيف يُساعد عثورُه على آنجل أيًّا منهما.

لماذا أصرَّت ميريام كلَّ الإصرار على أن يكون هو مَن يعثر عليها ويُعيدها؟ لم تشرح له ذلك، بل قالت إنَّه سيعرف ذلك بنفسه. وقد رفض أوَّلَ الأمر، فسخطت عليه. وأذهله أن تتمكَّن زوجته العاقلة عادةً من إبداء تلك الشراسة. فقد كانت كلماتها كسيف يحزُّه حزًّا. ثمَّ بكت وقالت إنَّها لا تقوى على الاستمرار في تلك الحالة. فلمَّا توسَّلت إليه أن يمضي باحثًا عن آنجل، لم يحتمل الوضع، واستسلم لها.

وها هو الآن، بعيدًا عن دياره مئات الأميال، مشتاقًا إلى ميريام جدًّا حتَّى آلم الشوق جسده. وتساءل باسْم السماء عن سبب إذعانه أصلًا. فخيرٌ أن تبقى آنجل ضائعة ولا يُعثَر عليها.

وفيما جعله حقده الأسود ساهيًا، هام على وجهه بلا هُدى، مُتطلِّعًا حواليه بغير أن يُلقيَ بالًا في الواقع إلى ما كان يراه. وجذبت عينيه امرأةٌ شابّة في ثوبٍ رماديّ. كانت عبر الشارع تتأمل واجهة أحد المتاجر، وقد ذكَّرته بِتَسّي. ولم يكن قد فكّر فيها منذ شهور، فعاوده الحزن القديم حالًا متموّجًا مع الألم. كانتِ المرأة مُنحنيةً إلى الأمام قليلًا، فارتفعت حاشية فستانها الخلفيّة قليلًا بحيث ظهر تحتها حذاء أسود بالٍ عالي الساق ذو أزرار، كالذي كانت تَسّي تنتعله.

ميريام، ماذا أنا فاعلٌ هنا؟ أُريد أن أكون في البيت معكِ. إنّني أحتاج إليكِ. لماذا بعثتِني في هذا المسعى المسعور؟

ثمّ اعتدلت الشابّة وربطت كاپـها القصير مجدّدًا. وأدارت وجهها لتنتظر مرور إحدى العربات قبل أن تعبر الشارع. فلمحها پول لمحةً عاجلة، وجمد قلبه.

آنجل!

في بادئ الأمر، لم يستطع أن يصدّق أنّها هي فعلًا. لا بدَّ أن يكون تصوُّره قد أوحى له وضع وجهها فوق وجهٍ آخر بعد أسابيع التفتيش تلك. وقد أسرعت عبر الشارع وابتعدت عنه ماشيةً بسرعة. فدفع قبّعته إلى الوراء، ولاحقها بتحديقه، متسائلًا هل صدقت عيناه النظر. لا بدَّ أنّه قد أخطأ. فلا يُعقل أن تكون تلك هي إيّاها، ليس بذلك اللباس... إلّا أنّه تبعها على كلِّ حال، فقط كي يُلقيَ نظرةً أُخرى.

كانت تلك الشابّة تمشي بنشاط، مرفوعة الرأس. وقد لاحظها الرجال على طول الطريق، ومسَّ بعضُهم قبّعاتهم لدى مرورها، فيما صفَّر آخرون ولمَّحوا تلميحات وقحة. إلّا أنّها لم تتوقّف، ولا كلَّمت أحدًا. يقينًا أنّها متوجِّهة إلى مكانٍ ما. ولمّا بلغت وسط المدينة، دخلت بنكًا كبيرًا عند منعطفٍ رئيسيّ.

انتظر پول خارجًا وسط الضباب البارد نصف ساعة قبل خروجها إلى الشارع. لقد كانت هي آنجل. وتيقَّن هو بذلك. وقد كانت بصحبة رجل أنيق اللباس، رجُلٍ أكبر بكثير من مايكل، وأكثر ثراءً منه. فصرَّ پول بأسنانه، وراقب الاثنين يتحدَّثان بضع دقائق، ثمّ قبّل الرجل خدَّها.

زبونٌ من الطبقة العليا، هكذا فكّر پول بسخرية. وعلى الرغم من ثياب آنجل المحتشمة والأنيقة، كانت صفيقةً[٣٣] كحالها دائمًا. فما من امرأةٍ شريفة تسمح لرجل

٣٣) صفيقة: أي وقِحة.

بأن يُقبّلها في شارعٍ عامّ، ولو على خدِّها.

وعاودته كلماتُ ميريام: "لقد حكمتَ عليها دائمًا، وكان حكمك خاطئًا".

أطبق بول فمه بشدَّة. ليست ميريام هنا لترى هذا المشهد. فهي لم تعرف أيَّ شيء عن النساء الشبيهات بأنجل. ولم يتمكَّن قطُّ من إقناعها. إذ لم تصدِّق قطُّ تمامًا وجود بنتٍ اسمُها أنجل وما فعلته في ماخورٍ بپيرأدايس. وقالت له: "لستَ تتكلَّم عن المرأة نفسها حقًّا". غير أنَّه هو عرف ماذا كانت أنجل، حتَّى لو لم يتقبَّل مايكل وميريام تلك الحقيقة.

ماذا رأيا في تلك المرأة، على أرض الله الخضراء، حتَّى أحبَّاها بذلك الوفاء الثابت غير المتزعزع؟ أمرٌ لن يفهمه البتَّة.

ثمَّ تبع أنجل إلى مبنى خشبيٍّ بسيط ذي طبقتين، لا يبعد كثيرًا عن ميدان پورتسماوث. وشاهد لافتةً فوق الباب الأماميّ، كان عليه أن يعبر الشارع ليقرأها. دار المجدليَّة. وقد كانت هناك مكتوبة بأحرف بارزة حتَّى يراها كلُّ رجُل. لطالما علم كلَّ حين. فماذا عساه يفعل الآن؟ حتَّى لو أخبر ميريام، فهي لن تصدِّقه أبدًا. ومن شأن إقناعها ألَّا يزيدها إلَّا تأذّيًا!

تمشَّى بول طويلًا، مُوهَن العزم ومُغضَبًا. الغلطة غلطة أنجل لوجوده في هذا الوضع! فلطالما كانت مُكدِّرة ومُبدِّدةً منذ وقعت عيناه عليها أوَّل مرَّة. فأوَّلًا اعترضت بينه وبين ماله، إذ بدَّد ذهبه في محاولةٍ عبثيَّة لقضاء نصف ساعة معها في القصر. ثمَّ اعترضت بينه وبين مايكل. وها هي الآن تعترض بينه وبين زوجته!

ثمَّ بات ليلته في فندق رخيص. وقد طلب عشاءً في غرفة السُّفرة، ثمَّ لم يستطع أن يتناوله. ولمَّا أوى إلى السرير، طار النوم من عينيه. فقد ظلَّ يتصوَّر وجه ميريام جاريًا عليه الدَّمع. "إنَّك لم تحاول قطُّ حتَّى فهمها، يا بول. والآن أنت لا تفهم. وأحيانًا أتساءل هل ستفهم يومًا!"

إنَّني أفهم حقّ الفهم، وأنا أُريد إخراج تلك الساحرة من حياتي إلى الأبد! يا ليتها ماتت ودُفنت ونُسِيت.

ونام نومًا متقطّعًا، ثمَّ استيقظ قبل طلوع الفجر بكثير، عاقدًا عزمه تمامًا على الرجوع إلى الوادي. وسيكذب على ميريام. فليس من طريقة أُخرى لتوفير المشقَّة عنها. سيقول لها إنَّه فتَّش في كلِّ مكان ولم يعثر على أنجل. أو قد يقول لها إنَّه علم بأنَّ أنجل ماتت بالحُمَّى، أو بالسَّفلس. لا، ليس بالسفلس، بل بالخانوق، أو بذات الرئة... بأيِّ شيء غير السفلس. أو قد يقول إنَّها أبحرت إلى الساحل الشرقيّ وإنَّ السفينة غرقت

عند دورانها حول القرن. فذلك أمرٌ يمكن تصديقه. إلّا أنّه لن يتمكّن أبدًا من أن يقول لها إنّه شاهدها تدخل ماخورًا يبعد قليلًا عن أرصفة الميناء.

وإذْ سئم أن يُضطرَّ إلى الكذب أساسًا، حزم أمتعته. وقد أضنته تلك الأسابيع التي ابتعد فيها عن زوجته وحلاوة عشرتها بسبب أنجل. سيكون عليه أن يفكّر في طريقةٍ ما لإقناع ميريام بأنَّ تلك كانت قضيَّةً خاسرة، وذلك قبل رجوعه إلى الديار... عليه ذلك حتمًا.

وفي طريقه إلى المُعدِّية التي ستقلُّه عبر الخليج، بدأت تُساوره الشكوك. سترغب ميريام في معرفة اسم السفينة. ستبتغي معرفة الأشخاص الذين كلَّمهم. ستُريد معرفة عشرات التفاصيل التي سيُضطرُّ إلى اختلاقها. يستطيع أن يُدبِّر أمر كذبة واحدة كبيرة، إنَّما ليس شبكة من الكذبات الصُّغرى.

وبينما هو واقفٌ وسط الضباب البارد، سرت قُشَعريرةٌ من أعماقه. لن يُفلح في ذلك. فمهما كانت القصص التي يُلفِّقها، فإنَّ ميريام ستعرف. ولطالما عرفت كلَّ حين. تمامًا كما علم مايكل بما حدث بين پول وأنجل على الطريق بغير أن يسمع كلمةً واحدة على الإطلاق تُقال عن ذلك بصوتٍ عالٍ.

وإذ ثار سخطه، رجع إلى المبنى الخشبيّ. ولمَّا لم يرَ سببًا يدعوه للقرع، دخل بلا استئذان. فإذا أمامه بهوٌ صغير لا أثاث فيه سوى مقعدين خشبيَّين ومنصب قبَّعات خالٍ من أيَّةِ قبَّعة. وبالحقيقة، لم يكن هناك من يسأله عمَّا يريد، ولا مَن يريد.

وسمع نساءً يتكلَّمن. فنزع قبَّعته، ودخل غرفة جلوس كبيرة، فجمد في مكانه. كانت الغرفة تعجُّ بنساءٍ معظمُهنَّ شابّات، أخذن جميعًا يُحدِّقن إليه. فعصفت الحرارة في وجهه.

وقد التقطت عيناه بضعة أشياء معًا. كانت النساء جميعهنَّ جالساتٍ على كراسيَّ خشبية مستقيمة الظَّهر. ولم يكن في الغرفة أيُّ رجُل سواه، وظهر المكان أشبه بغرفة صفٍّ في مدرسة منه ببهوٍ في مَبغى. وقد كُنَّ جميعًا لابساتٍ تمامًا مثل الفستان الرماديِّ المحتشم الذي كانت أنجل ترتديه أمس. غير أنَّ أنجل لم تكن بينهنَّ.

ابتسمت له امرأة طويلة القامة واقفة قدَّام الأُخريات. وكانت عيناها العسليَّتان تفيضان مَرَحًا. ثمَّ سألته: "أأنت ضائع، يا سيِّد؟ هل جئتَ كي تُصلح طُرقك؟" وضحكت الأُخريات الأصغر سنًّا.

"أ... أ... أستميحُكِ عذرًا، يا سيِّدتي". قالها متلعثمًا، مرتبكًا، مُحرَجًا. أيُّ مكانٍ هذا، يا تُرى؟

قالت إحدى الفتيات ناظرةً إلى كيس السفر المُلقى على كتفه: "إنَّه يحسب هذا المكان فندقًا". وضحكت الأُخريات.

ونظرت إليه صعودًا ونزولًا، قائلةً: "أُوه، أنا على يقين بأنَّه يحسب هذا المكان شيئًا آخر تمامًا؛ أليس كذلك يا عزيزي؟"

وضحكت إحداهنَّ. "إنَّ خدَّيه متورِّدان! لم أرَ رجلًا تورَّد خدَّاه منذُ العام تسعةٍ وأربعين".

فقالتِ المرأة الطويلة، مهدِّئةً إيَّاهنَّ: "رجاءً، يا صبايا". وألقت الطبشورة جانبًا، ثمَّ مسحت الغبار الأبيض عن أصابعها النحيلة وتقدَّمت نحوه. "أنا سوزانّا". ومدَّت يدها، فأمسك بها دون تفكير، وإذا بأصابعها باردة وقبضتها جامدة. "بِمَ أُساعدك؟"

"إنَّني أبحث عن سيِّدة. آنجل. اسمها آنجل. على الأقلِّ عُرفت بهذا الاسم قديمًا. ظننتُ أنَّني رأيتها داخلةً إلى هنا عصرَ أمس".

"يول؟"

والتفت حالًا، فرآها واقفةً في المدخل. وقد بدت عليها المفاجأة والارتباك، إذ قالت: "تعال معي، رجاءً". فتبعها في رواقٍ إلى مكتب صغير. وجلست وراء منضدة سنديان كبيرة، رُصفت عليها أوراقٌ وعدد من الكتب، وعلى رُكنٍ منها صندوقُ قبَّعات بُنِّيٌّ بسيط في أعلاه شِقّ. ثمَّ قالت: "رجاءً، اجلس".

فجلس وأجال نظره في المحيط البسيط العتيق الطراز. ولم يستطع أن يستوعب شيئًا. لماذا يكون لمديرة ماخور مكتبٌ أكثر مناسَبةً لراهبة؟ وأيُّ نوعٍ من الدروس تُعطى في الغرفة الأُخرى؟ كان على اللوح مسائل حسابيَّة مكتوبة. أما الآن، وقد واجه آنجل من جديد، فلم يخطر في باله أن يسأل. وإذا بالعداء القديم يعصف به مجدَّدًا عصفًا شديدًا. لولاها، لكان في البيت مع ميريام.

وقد كانت آنجل تنظر إليه بطريقتها المباشرة المعهودة، غير أنَّها هي كانت مختلفة نوعًا ما. وبادلها نظراتٍ باردة، محاولًا أن يتصوَّر حقيقة الوضع. كانت ما تزال جميلة، جميلةً جدًّا على نحوٍ لا يُصدَّق... ولكنَّها طالما كانت كذلك دائمًا: جميلة وباردة، وقاسية كالحجر.

ثمَّ تجهَّم وجهه. تلك كانت الحقيقة. القساوة... لقد ذهبت. والآن أحاطت بها نُعومة ورقَّة، كانتا في عينيها الزرقاوين، وبسمتها الفاترة، وتصرُّفاتها الهادئة.

إنَّها صافية رائعة.

أذهلته الفكرة، فطردها من باله. لا، ليست رائعة، بل إنَّما لا تشعر بأيِّ شيء البتَّة. وهي لم تشعر قطُّ بشيء في ما مضى. وتذكَّر ذلك اليوم على الطريق، ولم يقدر أن يطرد الذكرى أيضًا. وقد أراد أن يقول شيئًا، إلَّا أنَّه لم يتمكَّن في التفكير بكلمةٍ واحدة. كما أنَّه كان غاضبًا وحاقدًا ومكتئبًا، ولكنَّه ظلَّ يُذكِّر نفسه بأنَّه ليس هنا لأجل نفسه، بل لأجل ميريام. فكلَّما أسرع في الإيضاح والاستيضاح، أسرعت آنجل في رفض العودة، وتسنَّى له أن يرحل بضمير مستريح.

وتكلَّمت آنجل أوَّلًا.

"تبدو بحالٍ جيِّدة، يا بول".

فساوره أغربُ شعور بأنَّها تُحاوِل تهدئته وطمأنته. ولماذا ترغب في القيام بذلك؟ ثمَّ قال بتأدُّب مُصطنع: "نعم، وأنتِ كذلك". وقد كان على حقّ. فحتَّى في لباسها الرماديّ، كانت تبدو بحال جيِّدة، أفضل منها في أيِّ وقتٍ مضى. إنَّها واحدة من أولئك النساء اللواتي من شأنهنَّ أن يبقين جميلاتٍ ولو في ستِّينيّاتهنّ. شيطانةٌ مُتنكِّرة!

وقالت: "فاجأني لقاؤك".

"أجل، أنا متيقِّن بذلك".

وتفحَّصت وجهَه بعينيها. "ماذا أتى بك إلى «دار المجدليَّة»؟"

فلتتعرَّقْ. "دارُ مَن هذه؟"

"داري". ولم تُفصِّل، بل انتظرته كي يقول شيئًا ما.

"رأيتُكِ في الشارع أمس، وتبعتُكِ إلى هنا".

"لماذا لم تدخُل؟"

قال: "لم أُرِد أن أُقاطعَكِ في شيء. أما زلتِ تُعرَفين باسم «آنجل»؟" ولم يستطع إبعاد الحِدَّة من صوته، كما لم يستطع فهم نظرة عينيها، وكأنَّ كلَّ كلمةٍ قالها أحزنتها إحزانًا شديدًا. ولماذا ينبغي ذلك؟ فما من شيء أحزنها في ما مضى على الإطلاق. ليس هذا إلَّا مشهدًا آخر من المسرحيَّة!

أجابت: "ما زلتُ أُعرَف باسم «آنجل». لقد بدا مناسبًا".

ها هي تلك المباشرة، والصراحة، وطَرْق الموضوع رأسًا، تظهر مرَّةً أُخرى، إنَّما بصورةٍ ألطف ممَّا استطاع تذكُّره منها في ما مضى. وقال متلفِّتًا حوالَيه: "أنتِ تبدين مختلفةً. توقَّعتُ أن تكوني عائشةً على مستوى أعلى من هذا".

"تقصد: أدنى". وبدت مُتسلِّيةً، لا مُدافعة.

فرسم على وجهه ملامحَ سخرية، وقال: "لا شيء يتغيَّر، أَليس كذلك؟"

وتأمَّلته آنجل. لقد كان على حقّ، بمعنىً ما. على الأقلّ في ما يتعلَّق بكرهه لها. ليس أنَّه لم يكن لديه سببٌ وجيه كافٍ. ومع ذلك، فما زال ذلك مؤلمًا. فقالت بهدوء: "صحيح! هذا أمرٌ مفهوم". وكان عليها أن تُجيب عن أُمور كثيرة. فأشاحت نظرها. لم تستطع أن تكفَّ عن التفكير في مايكل. وقد خَشِيَت أن تسأل عنه، ولا سيَّما هذا الرجلَ الذي يحبُّه كثيرًا ويُبغِضها بحدَّةٍ مماثلة. تُرى، ماذا يفعل هنا؟

لم يدرِ پول ما يقول. أحسَّ أنَّه آذاها. فتنهَّدت ونظرت إليه مُجدَّدًا، وتساءل عن كونها هادئةً كما تبدو، إذا كان قد مسَّها شيءٌ بالفعل. وقد كان هذا واحدًا من الأُمور التي احتقرها فيها. فما من سهمٍ أطلقه أسال منها نقطة دم.

وسألَته: "هل تعود إلى الوادي أحيانًا؟"

فاجأه السؤال. "أنا أُقيم هناك".

فقالت مدهوشة: "أُوه!"

"لم أُغادر قطّ".

ولم تؤثِّر فيها لهجتُه الاتِّهاميَّة. "قالت لي ميريام إنَّك كنت تنوي العودة إلى حقول الذهب كي تُجرِّب حظَّك من جديد".

قال: "بدافع اليأس. وقد أقنعَتني ميريام بعدم الذهاب".

فانفرجت أسارير وجهها. "نعم، أعتقد أنَّ ذلك دأبُها. فلطالما كانت ميريام دائمًا تُعنى بخلاصِ نفس. كيف حالها؟"

"ستُنجِب طفلًا هذا الصيف". ولاحظَ اللون ينحسر عن وجه آنجل ثمَّ يرجع ببطء. "شُكرًا لله!"

شكرًا لله؟

وابتسمت، إنَّما ابتسامةً حزينة وكئيبة. ولم يكن قد رآها قطُّ تبتسم كذلك من قبل. فودَّ لو يعرف في ما كانت تُفكِّر.

"خبر رائع، يا پول. لا بدَّ أنَّ مايكل سعيدٌ جدًّا".

"مايكل؟" ضحك ضحكةً خفيفة، مرتبكًا. "حسنًا، أعتقد أنَّه كذلك".

وشعر بأنَّه مدفوع لأنْ يقول: "طالما كانت أحواله جيِّدة على مدى هذه السنين الأخيرة القليلة. لقد اشترى بعض الأراضي الإضافيَّة وقطيعَ ماشيةٍ صغيرًا في الربيع الماضي. وقد عمَّر حظيرةً أكبر هذا الخريف". ليس عليها أن تعرف أنَّها أخذت نصف

قلبه معها حين رحلت. ما زال لدى مايكل إيمانٌ بالله، وسيُدبِّر له الله زوجة صالحة.

لم يتوقَّع أن تبتسم أنجل عند سماعها أخباره، ولكنَّها ابتسمت. ولم تبدُ مدهوشةً ولو قليلًا، بل بدت مستريحة وسعيدة. "من شأن مايكل أن يُفلح دائمًا".

يا لها من ساحرة متحجِّرة القلب! أكان ذلك كلَّ ما استطاعت قوله؟ ألم تعلم كم يحبُّها مايكل، وكم فطرت قلبه عند رحيلها؟

"وأنت، يا پول؟ هل سوَّيتَ الأُمور معه من جديد؟"

تحرَّك حقده عليها لدى تذكيره بما حدث. وقد بلغ من كرهه لها أنَّه أحسَّ مثلَ طعمِ الحديد في فمه. ثمَّ قال، عالمًا أنَّه يكذب: "حالما غادرتِ، عادت الأُمور إلى مجاريها". فمايكل لم يُضمِر ضغينةً قطّ. وكان هو مَن عسَّر الأحوال. فلا شيء عاد إلى حاله. وكانت هي ما تزال سورًا بينهما.

قالت: "أنا مسرورة". وقد بدا عليها السرور فعلًا. وأضافت: "لقد أحبَّك كلَّ حين، كما تعلم. لم يكفَّ عن ذلك قطّ". ثم لاحظت تعابير وجهه، فغيَّرت الموضوع. "يمكنك أن تُساعِده على بناء تَوسِعة للكوخ. فسيحتاج إلى تلك الآن".

"تَوسِعة؟ لماذا؟"

قالت: "ما دام الطفل سيأتي، فسيحتاج هو وميريام إلى مساحة أوسع. وسيأتي أولادٌ آخرون بعد حين. فقد قال لي مايكل مرارًا إنَّه يرغب في عددٍ كبير من الأولاد. وسيكونون له الآن".

انقطع نَفَس پول، وشعر بالبرد والغثيان.

وتجهَّمت أنجل. "ما خَطبُك؟"

لقدِ انكشفت له الحقيقة، وكان الإحساس في قاع معدته لاشيئًا بالنسبة إلى حُرقة الألم المُبرِّح في صدره. آه، يا الله! آه، يا الله! ألهذا السبب تركَته؟

واستطاع أن يحسَّ حضور ميريام ويسمع كلامها. "أنت لم تفهم قطُّ يا پول. حتَّى إنَّك لم تحاول ذلك قطّ". ميريام بعينيها المليئتين دموعًا. "لو أنَّك حاولتَ مرَّةً واحدة، لربَّما كانت الأُمور مختلفة. ما كانت أماندا لتسمح لي أبدًا بالاطِّلاع على دخيلة نفسها. ليس إلى التمام. ولا أظنُّ أنَّها جعلت أحدًا ذات يوم يعرف مقدار الألم البالغ الذي يحزُّ في نفسها، حتَّى لو كان ذلك مايكل. لعلَّك كنتَ تستطيع أن تحاول مساعدتها!"هذا ما قالته ميريام واقفةً بثبات في مواجهة سخريته. "أنا ما عرفتُ أنجل قطّ. إنَّني أعرف أماندا فقط. ولولاها، لم تكن لي الشجاعة للإتيان إليك". ميريام يوم

جاءت إلى كوخه. "عليَّ أن أقوم بما هو الأفضلُ بالنسبة إليك".

أخذت آنجل تتفحَّص وجهه. "ما المشكلة، يا پول؟ ما الأمر؟ أبميريام خَطبٌ ما؟"

"ميريام زوجتي أنا، لا زوجة مايكل".

فتراجعت مذهولةً. "زوجتك؟"

"نعم، زوجتي".

وقالت بصوتٍ مرتعش: "لستُ أفهم. كيف يُعقَل أن تكون زوجتك؟"

لم يستطع الإجابة. لقد عرف قصدها. كم مرَّةً فكَّر أنَّه غير صالح لها كفايةً. فقد كانت مناسِبة لمايكل تمامًا. وهو ظلَّ يفكِّر في ذلك طوال مُدَّة وقوعه في حبِّها. وقد كانت تلك قناعته حتَّى يومَ جاءت إليه في الكوخ. "آنجل، إنَّ مايكل ما يزال ينتظر عودتك إلى البيت".

وعلا وجهَها مثلُ شحوب الموتى: "ها قد مضى أكثر من ثلاث سنين. لا يُعقَل أن يكون منتظرًا بعد".

"إنَّه مُنتظِر!"

نفذ كلام پول منها إلى الصميم. آه، يا إلهي! وأغمضت عينيها لحظةً. ثمَّ وقفت ودارت. وأزاحت الستارة المخرَّمة جانبًا لتحدِّق إلى خارج النافذة. وقد كانت السماء تُمطِر. وحال الألم في صدرها دون تمكُّنها من التنفُّس. كما أنَّ عينيها كانتا مُتَّقدتَين.

ولاحظ پول طريقة تشبُّث يدها بالستارة حتَّى ابيضَّت براجم أصابعها، فقال بوَهن: "يُخيَّل إليَّ أنِّي فهمت. لقد تصوَّرتِ أنَّه إذا رحلتِ يتحوَّل إلى ميريام. وفي الأخير يُغرَم بها وينسى أمركِ. أليس كذلك؟" ألم يتوقَّع هو أيضًا أن يحدث ذلك؟ أَولم تُمزِّق تلك الإمكانيَّة أحشاءه؟

"بلى، كان ذلك متوقَّعًا منه..."

ولم تُضطَرَّ قطُّ إلى إكمال العبارة بالقول: " لو لم تتدخَّل أنت". وكان پول ذات مرَّة قد قال لميريام إنَّه لا يعتقد أنَّ آنجل قادرة على التألُّم أو الحُبّ. فعاودته هذه الكلمات الآن لتُعذِّبه. كيف أمكنه أن يكون مخطئًا هكذا بشأنها؟ وعندما التفتَت ونظرت إليه، شعر بالخجل.

وقالت آنجل: "ميريام مثاليَّة له. إنَّها من نوع الزوجة الذي يحتاج إليه. فهي طاهرة وذكيَّة ورقيقة، ولها قدرة هائلة على الحُبّ".

وسمع هذه المرَّة أكثر من مجرَّد الكلام بكثير، فقالت: "هذا كلُّه صحيح تمامًا،

ولكنَّ مايكل يُحِبُّكِ أنتِ!"

"إنَّه يُريد أولادًا، وكان في وسع ميريام أن تنجبهم له. وهما يفهمان بعضهما بعضًا".

"لأنَّهما صديقان!"

وبرقت عيناها. "كان يمكن أن يكونا أكثر".

فأبدى موافقته، وقال مواجهًا أنانيَّته: "ربَّما. لو كانت لي الشجاعةُ التي لكِ، ولو رحلتُ. غير أنَّني ما رحلت، ولا قدرت". وكان حتَّى هذه اللحظة قد حسب أنَّ سبب ذلك كان حبّه الشديد لميريام، إلَّا أنَّه أدرك تمامًا الآن أنَّه كان يحبُّ نفسه أكثر. فإنَّ آنجل قد فهمت نوعيَّةً من الحُبِّ أسمى، ألا وهي التضحية.

ثمَّ انحنى إلى الأمام، ثمَّ وضع رأسه في يديه. الآن علم لماذا أصرَّت ميريام كثيرًا أن يكون هو مَن يعثر على آنجل. فأنَّ وقال: "لقد كنتُ مُخطئًا. لقد كنتُ مُخطئًا بشأنكِ طوال الوقت". واضطربت رؤيته، ثمَّ رفع نظره من جديد، وقال: "لقد كرهتُكِ، كرهتُكِ، كثيرًا حتَّى..." وتوقَّف فجأةً غير قادرٍ أن يزيد كلمةً واحدة.

ثمَّ جلست آنجل وراء المنضدة مجدَّدًا وهي حزينة: "كنتَ على حقٍّ بشأني في عدَّة أمور".

فما كان من كلماتها إلَّا أنَّ ثبَّتت ما بات يعمله الآن، فأطلق ضحكةً واهية. "لم أقترب من ذلك قطُّ مجرَّد اقتراب. وأنا أعرف السبب. فذلك اليوم على الطريق، علمتُ أنَّكِ كنتِ على حقّ. أجل، كنتِ على حقّ. لقد خُنتُه".

واغرورقت عيناها. "كان في وسعي أن أقول «لا»".

"هل علمتِ ذلك آنذاك؟"

فلم تتكلَّم حينًا، ثمَّ قالت: "لا بدَّ أن جزءًا منِّي علم. لعلِّي لم أُرِد أن أعلم فحسب. لعلَّ تلك كانت طريقتي لإسالة دمك. لست أعرف بعدُ. كان ذلك من زمن بعيد. ولم أُرد قطُّ أن أُفكِّر فيه ثانيةً، ثمَّ كلَّما رأيتُك وجدتُ الأمر ماثلًا أمامي. لم أستطع أن أهربَ منه".

وتذكَّرتِ الظلام الذي كانت تعيش فيه. تذكَّرت كلَّ تلك الأشهر التي غاب فيها پول وكيف آذى غيابُه مايكل. وكان في وسعها أيضًا أن تتصوَّر تألُّم پول نفسه من جرَّاء الفراق، وشعورَه بالخزي. وما صحب ذلك من شعور بالذنب رهيب. أولم تصاحبها هي هذه المشاعر؟

كان ذلك كلُّه فوق رأسها. وهي قد سمحت له بالحدوث. مهما كان السبب. فماذا

يهمُّ الآن؟ لم تستطع أن تُلقي اللوم على أحدٍ سوى نفسها. فقد كان الخيار بيدها. حتَّى إنَّها لم تكن قد فكَّرت قطُّ بالعواقب. وكانت التداعيات أشبه بحجرٍ أُلقي به في المياه الساكنة، فأحدث أوَّلًا رَشاشًا ثمَّ دوائرَ آخِذة في الاتِّساع، ومرَّ وقتٌ طويل قبل عودة المياه إلى سكونها. وقد كان الحجر ما يزال هناك، مُلقىً في البِركة الساكنة باردًا جامدًا. مايكل، پول، هي نفسها: نفوسٌ مُمزَّقة توّاقة لأن تتلاقى من جديدٍ في وئام وسلام.

وكان العناء والجفاء بين پول ومايكل قد استفحلا، ليس لأنَّ مايكل لم يقدر أن يغفر، بل لأنَّ پول لم يقدر أن يغفر لنفسه. أَلم يكُن ذلك تمامًا ما استمرت شاعرةً به مُعظمَ حياتها؟ أنَّ كلَّ ما قد حدث لها دائمًا كان بطريقةٍ من الطرق غلطتها هي، وأنَّها مُذنبةٌ حتَّى بمجيئها إلى هذه الحياة؟ وكانت قد أدركت في غضون السنين القليلة الماضية أنَّها لا تُعاني تلك المشاعر وحدها. فقد سمعت تعبيرًا عنها كلَّ يومٍ من نساء أُخَر قاسَين المظالم التي قاستها هي. وقد تيسَّرت لها مسامحة الآخرين بما فعلوه بها على نحوٍ أيسر بكثير من مسامحتها لنفسها. وكانت ما تزال لحظاتُ صراع تخطر أحيانًا.

ثمَّ قالت بفمٍ مرتعش: "پول، أنا آسفة جدًّا للألم الذي سبَّبتُه لك. أنا آسفةٌ حقًّا!"

ولبث جالسًا وقتًا طويلًا، عاجزًا عن الكلام، مفكِّرًا في طول المدَّة التي عانت فيها وفي جميع الاضطهاد الذي تكبَّدته... على يده هو. وها هي الآن تعتذر! لقد خطَّط لتدميرها فدمَّر نفسه في سياق ذلك. فمنذ ذلك الحين والحقدُ يلتهمه ويُعمي بصره. لطالما كنتُ شخصًا لا يُطاق، مُبرِّرًا لذاته، متحجِّر الفؤاد. وقد كان هذا الاكتشاف مُرًّا ومؤلِمًا، غير أنَّه كان مُفرِجًا أيضًا. إذ رافق نوعٌ من الحرِّيَّة غريبٌ وقوفَه أمام مرآة ورؤيتَه لنفسه بجلاء. وذلك أوَّلَ مرَّة في حياته.

لولا ميريام، ماذا كان سيحصل؟ إنَّ حبَّه لها رقَّقه وليَّنه. لقد رأت فيه شيئًا لم يتصوَّر قطُّ أنَّ في وسع أحدٍ سوى تَسّي أن يراه. وقد رأت في آنجل شيئًا لم يكن في وسعه هو أن يراه. وكان قد تساءل حيال ذلك، غير أنَّه تشبَّث بقناعته في عناد. فلطالما كانت زوجة مايكل في نظره هي آنجل، تلك الحمامة المُعفَّرة الغالية السِّعر في پيرأدايس، وهو عاملها دائمًا على هذا الأساس.

أمَّا الآن، وقد عاد بأفكاره إلى الماضي، فلم يستطع أن يتذكَّر مرَّةً واحدة فيها دافعت آنجِل عن نفسها. لماذا لم تفعل ذلك؟ لقد عرف الجواب عن ذلك أيضًا. وكانت قد قدَّمته له توًّا لمَّا قالت إنَّه كان على حقّ بشأنها. فالذي أبقاها صامتة لم يكن التعالي أو الاعتداد بالذات، بل كان خزيها وخجلها. وقد صادَقتْ على كلِّ ما قاله عنها.

صادَقتْ على أنّها كانت مُدنَّسة وغير جديرة، مُناسِبةً فقط للاستعمال والاستغلال.

وأنا قد ساعدتُ على إقناعها. لقد أدَّيتُ الدور الذي أبى مايكل أن يؤدِّيه.

اجتاحه عذاب الضمير. وآلمه أن ينظر إليها. بل آلمه أكثرَ بعدُ أنّه أدرك الحقيقة في كون القسط الأكبر من اللّوم بسبب ألم مايكل أيضًا يقع على عاتقه هو. ولو أنّه مدَّ يده مرّةً واحدة فقط كما قالت ميريام، لربّما كانت الأمور مختلفة. غير أنّه طالما كان كثير الكبرياء وبالغ التيقُّن بأنّه على حقّ.

ثُمَّ قال: "إنَّني آسف! آسِفٌ غايةَ الأسف. هل يمكنكِ أن تُسامحيني؟"

وتساءلَت هل يعرف أنّ الدموع تجري على خدَّيه، ثمّ شعرت بدفءٍ مُفاجئ لا يُفسَّر تجاه هذا الرجل: تُجاه أخي مايكل، وأخيها هي. "لقد سامحتُكَ منذ زمن بعيد، يا پول. إنَّني غادرت الوادي ومايكل بملء حريّتي. فلا تُلقِ اللوم على نفسك في ذلك".

وانحنت إلى الأمام، شابكةً يديها بإحكام فوق دفتر يوميات المكتب، ثمّ قالت: "لنَدعْ ذلك كلَّه وراءنا. رجاءً، أخبرني بكلِّ ما جرى منذ مغادرتي". وابتسمت ابتسامةً خفيفة، محاوِلةً إغاظتَه مُلاطَفةً. "ولا سيَّما كيف استطاع رجلٌ مثلك أن يظفر بفتاةٍ نظير ميريام؟"

وضحك أوّلَ مرّة منذ أشهر، قائلًا: "الله أعلم!" ثمّ هزَّ رأسه وتنفَّس الصُعداء واسترخى، مُردِفًا: "إنّها تحبُّني. وقد قالت لي إنّها عرفت أوّل ما رأتني أنّها ستتزوَّج منّي". وقد جعل حديثُه عن ميريام الدفءَ يسري فيه من جديد. "كنتُ أُراقِبها وأرغب فيها كثيرًا، فأتلمَّس كلَّ سبب لشعوري بعدم الاستحقاق لتقبيل ذيل تنُّورتها. ثمّ جاءت إليَّ ذات فَجرٍ في كوخي. وقالت إنّها ستنتقل للإقامة معي، وشرعت تُقنِعني بمقدار احتياجي إليها. ولم تكن لديَّ القوّة لصرفها إلى بيتها".

فضحكت آنجل برقّة. "لا يمكنني أن أتصوَّر ميريام بهذه الجرأة".

"قالت لي إنّها تعلَّمت الجرأة منكِ". ولم يكن قد عرف مقصدها آنذاك. أمّا الآن فعرف. فإنَّ آنجل قد أحبَّت مايكل كثيرًا حتّى غادرته حين حسبت أنَّ ذلك لمصلحته الفُضلى. وميريام جاءت إليه هو من أجل السبب نفسه. ولو لم تأتِ، لرجع إلى حقول الذهب ومضى يشرب ويقضي الوقت في المواخير، ولربّما قضى نحبه هناك ووجهُه في الوحل.

قال: "ميريام أرسلتني كي أعثر عليكِ، يا أماندا. وأنا أُريد أن أعود بكِ إلى الديار".

وقد عنى ما قاله.

أماندا! اعترضت الغصَّة في حلقها، وتبسَّمت. هوذا حِملٌ آخر يُرفَع عن كاهلها، وكانت شَكورًا، غير أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة أو البساطة. فليس في وسعها أن تسمح بحصول ذلك. "لا يمكنني أن أرجع، يا پول. لا، أبدًا".

"ولِمَ لا؟"

كم ينبغي أن يعرف حتَّى يفهم ويغدو لها حليفًا؟ "هنالك أُمور كثيرة متعلِّقة بي ما زلتَ لا تعرفها".

"خبِّريني إذًا".

فعضعضت شفتها. أيُّ مقدار يكفي؟ ثمَّ قالت ببطء، مُحدِّقةً إلى لاشيءٍ على الأرض: "لقد باعوني للبُغاء في الثامنة من عمري. ولم أعرف قطُّ أية طريقة أُخرى للحياة حتَّى تزوَّج مايكل بي". ونظرت إليه من جديد. "ولم أفهم مايكل قطّ، ليس بالطريقة التي أَمِل أن أفهمه بها. فلا أقدر أن أُغيِّر ما كنتُه. لا يمكنني إبطالُ الأُمور التي حدثت".

وانحنى پول إلى الأمام. "أنتِ هو الشخص الذي ما زال لا يفهم، يا أماندا. هنالك شيءٌ لم أستوعبه أنا قبل الآن، لأنَّني كنت مُفرِط العناد والغَيرة والكبرياء... لقد اختارَكِ مايكل أنتِ. رُغم ماضيك كُلِّه، ورُغم ضعفاتكِ كلِّها، ورغمَ كلِّ شيء. كان يعرف، من أوَّل الطريق، المكان الذي جئتِ منه، ولم يُحدِث ذلك أيَّ فرقٍ عنده. كان في ديارنا كثيرٌ من الصبايا اللواتي من شأنهنَّ انتهاز فرصة التزوُّج منه حالًا: فتيات دَمِثات الأخلاق، متعقِّلات، عذارى، من عائلاتٍ تقيَّة. ولكنَّه لم يقع في حُبِّ أيَّةِ واحدةٍ منهنَّ على الإطلاق. ثمَّ ألقى عليكِ نظرة واحدة، وتيقَّن. تمامًا من أوَّل الطريق. لقد اختاركِ أنتِ، لا واحدةً أُخرى سواكِ. وقد أخبرني بذلك كلِّه، ولكنَّني حسبتُ أنَّ العلَّة كانتِ الجنس. وأنا أعلم الآن أنَّها لم تكن ذلك. لقد كانت شيئًا آخر".

"مصادفة غريبة..."

"أعتقد أنَّها كانت كذلك، لأنَّه علم كم كنتِ بحاجةٍ إليه".

هزَّت رأسها، غير راغبةٍ في سماع ذلك. ولكنَّ پول كان عاقدًا عزمه تمامًا. "أماندا، لقدِ اشتراكِ من العبوديَّة بعَرَقه ودمه، وأنت تعرفين. فلا تقولي لي الآن إنَّكِ لا تقدرين أن ترجعي إليه".

آلمها الأمر كثيرًا، لأنَّها كانت ما تزال تحبُّه وتحتاج إليه. وقد خُيِّل إليها أحيانًا أنَّها ستموت بغير أن تسمع حِسَّ صوت مايكل. وكانت تُغمِض عينيها فترى وجهه وكيف

كان يمشي وكيف كان يبتسم لها. لقد علّمها كيف تلعب وتُغنّي وتبتهج، أُمورًا لم تكن تعرفها قطعًا. وكانت عذوبة تلك الذكريات مُضنية مُمِضّة؛ في حين كان الفراق لا يُطاق.

حاولَت أحيانًا ألّا تُفكّر فيه على الإطلاق لأنّ الألم كان شديدًا. غير أنّ جوعها إليه كان ماثلًا هناك دائمًا، جوعًا لا ينتهي ولا يخفّ وجعُه. وهو إنّما شرّع[٣٤] نفسه كي يستخدمه المسيح في حياتها. فمن خلاله، تسنّى للمسيح أن يملأ نفسها حتّى الفيض. ولطالما قال مايكل دائمًا إنّ الله كان وراء كلّ ذلك؛ وها هي الآن قد علمت أنّه كان على حقّ.

ثمّ إنّ معرفتها أنّ مايكل كان الجسرَ بينها وبين مخلّصها ما زادتها إلّا شوقًا وحنينًا إليه.

لم تستطع أن تسمح لنفسها بأن تُفكّر في ذلك كلّه. كان عليها أن تُفكّر في ما كان لمصلحته، لا في ما أرادته لنفسها. وقد بات لديها الآن قصدٌ واكتفاء في حياتها. ولم تَعُدِ الكوابيس والشكوك الذاتيّة تُقِضّ مضجعها. على الأقلّ، حتّى هذا الحين. وكان عليها أن تعترف لپول بالحقيقة كاملةً، لعلّه يفهم.

"لا يُمكِنني أن أُنجِب له أطفالَه، يا پول. أبدًا! لقد أُجريَ لي شيءٌ ما عندما كنتُ مُراهِقةً صغيرة. وهذه هي الحقيقة". وكان عليها أن تتوقّف وتلتفت بعيدًا قبل أن تتمكّن من متابعة كلامها. "إنّ مايكل يرغب في أن يكون له أولاد. وأنت تعرف ذلك. فهذا حلمُ حياته". ثمّ واجهته من جديد. "أيَمكنكَ أن تفهم الآن لماذا لا أستطيع أن أرجع؟ أعرف أنّه سيُرحّب بي مجدّدًا. أعرف أنّ بإمكاني أن أظلّ زوجته. ولكنّ ذلك لن يكون مُنصِفًا. أليس كذلك؟ ليس لرجُلٍ نظيره".

جاهدت للسيطرة على الدموع التي غالبًا ما كانت تطفو حتّى تكاد تطفر مؤخّرًا. لن تستسلم. لا يمكنها ذلك. فلو فعلَت، لبكت حتّى تذوب وتتلاشى.

ولم يدرِ پول ما يقول.

ثمّ قالت آنجل: "رجاءً، حين ترجع إلى الديار، لا تقُل لميريام إنّكَ رأيتني. قُل لها أيَّ شيء آخر. قُل لها إنّني رحلتُ من البلد. قُل لها إنّني تُوفّيت". فانقبضت أحشاؤه إذ سمع أفكاره ترتدّ كي تنتابه.

"رجاءً، يا پول. فإن قُلتَ لها، فإنّها ستُخبِر مايكل، فيشعر بأنّ عليه أن يأتيَ ويردّني مرّة أُخرى. لا تدعْه يعرف أين أنا".

"لا ضرورة لأنْ تخشَي هذا. لقد قال لميريام إنّه لن يجرّكِ إلى البيت هذه المرّة. قال

(٣٤) شرّع: فتح وقدّم ووفّر.

إنَّ القرار لكِ، وإنَّ عليكِ أن ترجعي من تلقاء ذاتكِ، وإلَّا فلن تفهمي أبدًا حقَّ الفهم أنَّكِ حُرَّة". وقد أراد أكثر من أيِّ شيء آخر أن يُقنِعها بوجوب الرجوع إلى البيت من جديد. "هل قلتِ له يومًا إنَّكِ لا تستطيعين الإنجاب؟"

قالت بهدوء: "نعم".

"وماذا قال؟"

فهزَّت رأسها، مُبعِدةً الأمر. "أنت تعرف مايكل!"

حقًّا إنَّه يعرفه. ومن ثمَّ وقف، ووضع يديه على المكتب. "لقد تزوَّجكِ أنتِ، يا أماندا. في السَّراء وفي الضّراء، وما دُمتما كلاكما حيَّين. ولسوف ينتظركِ طوال حياته، وأكثر من ذلك، إن كنتُ أعرفه حقَّ المعرفة. يا ليتكِ فقط تعلمين كم يُعاني ويُقاسي..."

"كفى!"

"أنتِ تعرفينه. هل استسلم من قبل مرَّةً في ما يتعلَّق بكِ؟ فما كان ليتخلَّى عن انتظاركِ الآن. ولَن يستسلم البتَّة!"

فهزَّت رأسها، شاحبة الوجه، ذاهلةً. "لا أستطيع أن أرجع".

واعتدل پول، بغير أن يدري أأعطاها شيئًا لتُفكِّر فيه أم سبَّب لها مزيدًا من الألم فحسب. "لقد قلتُ كلَّ ما قدرتُ عليه. والأمرُ بيدكِ، يا أماندا. إنَّما لا تستغرقي وقتًا طويلًا جدًّا في تقرير قراركِ. لقدِ اشتقتُ إلى زوجتي". ثمَّ دوَّن اسم الفندق الذي بات فيه البارحة، وكتب عنوانه، وأضاف: "أرغب في المغادرة قبل التاسعة صباحَ غد. رُدِّي عليَّ خبرًا بشأن ما تُقرِّرينه".

ثمَّ التقط كيس سفره، وطرحه على كتفه. "ما هذا المكان على كلِّ حال؟ مأوى؟"

فرفعت نظرها إليه، مبتعدةً قليلًا عن مأزقها. "بطريقةٍ ما. إنَّه دارٌ للسَّاقطات التائبات، لأولئك اللواتي يُردن تغيير حياتهنَّ. لقد أسعفَنا السَّعدُ كثيرًا. فإنَّ بضعة مواطنين ميسورين قدَّموا لنا معونةً ماديَّة".

وفكَّر پول: ذلك الرجل في البنك. يا إلهي، سامحِني. كم كنتُ غبيًّا!

"أنتِ باشرتِ المشروع؛ أليس كذلك؟"

"ليس وحدي كلِّيًّا. فقد تلقَّيتُ كثيرًا من المساعدة على طول الطريق".

"ماذا تُعلِّمينهنَّ هناك؟" وأومأ برأسه نحو الغرفة الكبيرة عبر الباب في الرِّواق.

"القراءة، الحساب، الكتابة، الطبخ، الخياطة، إدارة مصلحة صغيرة. وحالما يصبحن مستعدَّات، نُدبِّر لهنَّ وظائف. وقدِ اعتمدنا طريقة للقيام بذلك بالتعاون مع بضع كنائس".

وكان الأب پاتريك يقصد إلى مقابلتها كثيرًا. فإنَّ بعض الكهنة كانوا مثل مايكل إلى حدٍّ بعيد: مُكرَّسين لله، مُتَّضعين، صبورين، مُحِبِّين.

ثمَّ قالت بعد تردُّد: "پول، إنَّ دار المجدليَّة أحدُ الأمور التي ينبغي أن أفكِّر في شأنها. فإنهنَّ يحتجن إليَّ هنا".

"مهما كانت القضيَّة سامية، فهي مُجرَّد ذريعة الآن. سلِّمي شخصًا آخر المِشعَل. إنَّ تلك السيِّدة الطويلة ذات العينين الضاحكتين بدت لي قادرةً على تولِّي الأُمور حسنًا". ومضى إلى الباب. "إنَّ التزامكِ الأوَّل هو تجاه مايكل". لقد قال كلَّ ما استطاعه. "سأنتظرك حتَّى الظُّهر غدًا على الأكثر. ومن ثَمَّ أمضي إلى الديار".

بعد مغادرته، جلست آنجل تُفكِّر وقتًا طويلًا. وقد غابت الشمس، ولم تُضِئِ المصباح، فتذكَّرتِ الجلوسَ على التلَّة بعيدًا عنِ الكوخ والحقول بنحو كيلومتر ونصف، ومايكلَ قائلًا: "هذه هي الحياة التي أُريد أن أُعطيكِ إيَّاها". ولقد أعطاها.

كيف يمكنه أن يعرف ما قد فعل لأجلها؟ كيف يمكنه أن يحزر مجرَّد حزر أنَّ حياتها باتت جديدة لأنَّه هو بيَّن لها الطريق إلى الحياة؟

لقد حسب پول أنَّها عادت إلى البُغاء. فماذا لو أنَّ مايكل اعتقد الأمر عينه؟ لم تقدر أن تُطيق اعتقاده ذلك. فمن شأن هذا أن يجعل كلَّ شيء عمله لأجلها عديمَ المعنى... والحقيقة أنَّه قد عنى الكثير الكثير.

يا الله، هل كنتُ مخطئة؟ أينبغي لي أن أرجع؟ كيف يُمكنني أن أُواجهه من جديد بعد هذه المدَّة كلِّها؟ كيف يمكنني أن أراه ثمَّ أبتعد عنه ثانيةً؟ ماذا تُريد منِّي أن أفعل؟ إنَّني أعرف ما أُريده. آه، يا الله، إنَّني أعرف. ولكن ماذا تُريد أنت أن أفعل؟

تمالكت نفسها وترجَّحت، عاضَّةً على شفتيها ومُقاوِمةً الغَمّ. كيف يمكنني ألَّا أقول له "شكرًا!"؟ هل فسَّرتُ مرَّةً ما قد فعله لي؟ ماذا رددتُ له يومًا غيرَ الغمِّ والهمّ؟ ولكنَّ لديها الآن هدايا تُقدِّمها إليه. لقد صمدت في وجه دوك بكلِّ ثبات. لقد سلكت الطريق الذي علَّمها مايكل إيَّاه. وبسبب ذلك، وثق بها الناس وساندوها في بناء دار المجدليَّة. لقد كانت تُبلي حسنًا في حياتها، وكان ذلك كلُّه بسبب مايكل، وبسبب ما قد رأته فيه. لقد قرأ لها: "اطلبوا تجدوا"، وهي فعلت ذلك.

فربَّما إذا وجدت سبيلًا لإخباره بذلك كلِّه آتاه ذلك سلامًا.

ساره، يا محبوبة!

يا ربّ، لن أطلب أكثر من ذلك. وأغمضت عينيها بإحكام. لن أطلب أكثر!

كانت الدروس قد انتهت منذ وقتٍ طويل عندما غادرت آنجل المكتب. وقد فرغتِ الفتيات من العشاء وأوَين إلى غُرَفهنّ. فصعدت آنجل الدرج. ورأتِ النور من تحت باب سوزانّا، فقرعت.

"تفضَّلي!"

ودخلت آنجل.

فسألتها سوزانّا: "ماذا جرى؟" ناهضةً من السرير ومُقبِلةً نحوها. وأمسكت بيدها. "تبدين شاحبةً جدًّا. لقد افتقدناكِ عند العشاء. مَن كان ذلك الرجل".

"إنّه صديق. سوزانّا، أُريد منكِ أن تتولّي إدارة دار المجدليّة عنّي".

فقالت سوزانّا مذهولةً: "أنا ؟" وقد بدت أقلّ يقينًا واطمئنانًا ممّا أمكن أن تتذكّرها آنجل على الإطلاق. ثمّ أفلتت يدي آنجل، وتراجعت إلى الوراء. "لا يُعقل أن تعني هذا. إنّني لا أستطيع!"

"إنّني أعنيه. ثُمّ إنّكِ تستطيعين ذلك".

لقد كانت سوزانّا ذات قدرة بالغة على تولّي الأُمور. غير أنّها لم تكن متيقّنةً بذلك فحسْب. فمن شأنها أن تمشي وسط النار وتخرج من الناحية الأُخرى أقوى ممّا هي الآن. وقد باتت آنجل فجأةً شديدة الثقة بذلك.

"ولكنْ لماذا؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟"

فقالت آنجل: "إلى البيت. أنا ذاهبة إلى البيت".

الفصل
الرابع والثلاثون

هلمّ نرجع إلى الربّ،
لأنّه هو افترس، فيشفيَنا؛
ضرب فيجبِرنا.

(سفر هوشع ٦: ١)

"يول!" ركضت ميريام خارج الكوخ لتُلقي ذراعيها حول عنقه، وهي تبكي فرحًا. "آه، لقدِ اشتقتُ إليك كثيرًا!" ثمّ قبّلت كلَّ جزءٍ من وجهه استطاعت بلوغه. فضحك وقبّل فمها، شاعرًا بالقِطَع المتباعدة داخل نَفْسِه تتقارب وتتضامُّ من جديد. ها قد عاد إلى البيت! وإذا بكلِّ توتُّر الأسابيع الماضية يتبدَّد، وبذنْب الأشهر السابقة يتبخَّر. ثمّ التصقت به أكثر، فسرت في جسمه حالًا مشاعرُ أُخرى. إنَّ وجود ميريام بين ذراعيه من جديد أمرٌ مُسكِرٌ حقًّا.

ولمَّا أفلتها، كانت متورِّدة الخدَّين مبهورة الأنفاس. ولم تكُن قطُّ قد بدت له بهذا الجمال. وشامها بنظراته، فرأى أنَّ حَبَلها بدأ يظهر، فقال ممسِّدًا بطنها البارز: "عجبًا، كم كبر بطنكِ!"

فضحكت ووضعت يدها على يده. "هل عثرتَ عليها؟"

"في سان فرنسيسكو". ثمّ طرب قلبه بعدُ إذ رأى النظرة المحبَّبة في عينيها.

وابتسمت له برقَّة. "أرى أنَّ الأمور سارت على ما يرام". وقد بدا عليها الانفراج والابتهاج، كما أنَّ غضبها عليه تلاشى تمامًا. وسألت: "أين هي؟" مُجاوِزةً إيّاه بنظرها.

"أرادت أن تجلس بضع دقائق على الطريق فوقُ. أعتقد أنَّها تهيِّئ نفسها لمواجهة صعبة. لم تكَد تقولُ كلمةً آخِرَ يومَين من السَّفر. لقد تغيَّرت، يا ميريام".

وتفحَّصت عينيه ثمّ ابتسمت: "وهكذا أنت أيضًا، يا حبيبي. لقد تصالحتَ مع نفسك؛ أليس كذلك؟"

"حصلت على معونةٍ طوال الطريق".

عندئذٍ شاهدت ميريام أماندا، فتركته واقفًا فيما ركضت صاعدةً الطريق، فاتحةً

ذراعيها، لملاقاتها. وتعانقت المرأتان بحرارة، فيما تبسَّم پول. حتَّى إذا أفلتتها ميريام، أخذت تثرثر بمرح والدموع تجري على خدَّيها. وقد بدت آنجل شاحبةً ومُجهَدة، غيرَ مرتاحةٍ البتَّة. وألقت نظرةً على أراضي مايكل، ففهم پول السبب. إنَّ أماندا خائفة أن تواجه مايكل بعد هذه المدَّة الطويلة.

ربّ، يَسِّر الأمر لها ولمايكل. رجاءً. سأعتبر هذا معروفًا شخصيًا.

"سأُحضِر ماءً، لتتمكَّني من الاستحمام". شرعت ميريام تتكلَّم وهي تعقد ذراعها على ذراع أماندا وهما ماشيتان صوب پول. "لقد خبزتُ هذا الصباح، وعلى النار حساءٌ ساخن. لا بدَّ أنَّكِ جوعانة بعد هذه السَّفرة الطويلة".

"لا يمكنني البقاء، يا ميريام".

فتوقَّفت ميريام: "لا يمكنكِ؟ ولكنْ لماذا؟"

"عليَّ أن أذهب إلى مايكل".

"ستذهبين بالطبع. ولكن يمكنكِ أن تستريحي بضع دقائق، وتغتسلي. وفي وسعنا أن نتحدَّث في الأمر".

قالت آنجل: "لا أستطيع. إن تمهَّلتُ قليلًا بعد، فربَّما لا أتمكَّن من الذهاب أبدًا". وكانتِ ابتسامتها فاترة.

تأمَّلت ميريام وجهها. ثمَّ رمقت پول بنظرةٍ عاجلة، وعادت إلى آنجل فعانقتها بشدَّة، قائلةً: "سنمشي معكِ!" وناشدت پول بنظرتها.

فوافق پول حالًا: "طبعًا، سنمشي معكِ". وأومأت آنجل برأسها موافِقةً. أمّا، وقد باتت لحظة اللقاء وشيكة، خافوا جميعًا ممَّا قد يحدث. كم يكون مقدار صبر مايكل؟ وأسوأُ بعدُ، هل يغضب عليهما لتدخُّلهما وتولِّيهما الأُمور بأيديهما؟ أم كانا يعملان بمشيئة الله طول الطريق؟

ولمَّا لاح منظر بيت مايكل وأرضه، توقَّفت آنجل، وقالت لهما: "عليَّ أن أقطع باقيَ الطريق وحدي. شكرًا لكما على مُرافقتي إلى هنا".

بدت ميريام على أُهبة الجدال. ولمَّا نظرت إلى پول طلبًا للموافقة، هزَّ رأسه. لقد كانت أماندا على حقّ.

ثمَّ قبَّلت آنجل خدَّ ميريام، وعانقتها، هامسةً: "شكرًا لكِ على إرسالك پول". وراقباها تمضي ماشيةً وحدها.

فألقى پول ذراعه على كتفَي ميريام، وراقب أماندا. وتذكَّر كيف كانت آنجل تمشي

دائمًا، مرفوعةَ الرأس مُقوَّمة الكتفين. وقد حسب أنَّ ذلك كان الاستعلاء، ولكنْ كانت الكبرياء هي التي أبقَتها متماسكةً مدَّة طويلة، والكبرياء هي التي جعلتها منعزلةً. أمَّا الآن فتُحيط بها نعمةٌ ساكنة، واتّضاعٌ عَذْب.

وقال پول بهدوء: "إنَّها خائفة".

فقالت ميريام مُستندةً إليه: "لطالما كانت خائفةً كلَّ حين. هل تعتقد أنَّنا تصرَّفنا التصرُّف الصحيح، يا پول؟ ربَّما كان ينبغي لنا أن ندعها تعود من تلقاء ذاتها".

كانت تلك أوَّل مرَّة يسمع فيها صوت اللايقين من ميريام. "ما كانت لتعود. لقد سبق أن قرَّرت قرارها. وقد ظنَّت أنَّكِ تزوَّجتِ من مايكلٍ".

"لأنَّها طلبت منّي ذلك. قالت لي إنَّها تُريد منّي أن أُنجِب أطفاله". ثمَّ نظرت إليه وعيناها مغرورقتان. "ولكنَّني أردتُكَ أنتَ فقط".

فشدَّها إليه حتَّى التصقت به. "آه، يا حبيبتي. علينا أن نتذكَّر أيَّ رجُلٍ هو مايكل".

فطوَّقته بذراعيها قائلةً: "نعم! فالمسألة باتتِ الآن تخصُّهما وحدهما؛ أَليس كذلك؟"

وأدار پول وجهها صوبه ثمَّ قبَّلها بكامل الشوق الذي شعر به في أثناء أسابيع افتراقهما. "لستُ أدري ما كنت أفعله لولاكِ".

فتمطَّت وجذبت رأسه إلى تحتُ لتُقبِّله من جديد. وكانت القبلة هذه المرَّة قُبلَةَ عاشقة. "لنذهب إلى البيت!"

تيسَّر لأنجل أن ترى مايكل يشتغل في الحقل. وكانت مُفعَمةً بالمشاعر المتضاربة حتَّى لم تكد تُطيق ذلك: انعدام الثقة بالذات، كُره الذات، الكبرياء المُصارِعة، الخوف... جميعُ الأمور التي جعلتها تجري هاربةً مدَّةً طويلة، وبعض الأمور التي حالت دون رجوعها إليه قبل الآن. وما كان لها أن تدعهنَّ يُوقفنها الآن من جديد.

يا الله أعطني القوَّة. رجاءً! سِر معي. ساعدني. لا أدري هل أقوى على خوض هذه المعمعة!

أنا لم أُعطِكِ قلبًا يخاف.

ثمَّ عرفت لحظةَ رآها مايكل. فقد رفع بصره إذ كانت تجتاز المرجة. ووقف بلا حراك، يُحدِّق إليها مُقبلةً من بعيد.

يجب ألَّا ابكي. يجب ألَّا!

وظلَّت تمشي صوبَه. فلم يتحرَّك. وساورها الشكُّ مرَّةً جديدة، غير أنَّها دافعته ودفعته. أرادت أن تُحطِّم جميع الحواجز التي كانت قد أبعدتها عنه، وأن تضع حدًّا لجميع تلك الشهور الزاخرة بالتحدِّي والخوف والارتياب. أرادت أن تطرح جانبًا جميع ذكريات طفولتها المروِّعة والشعور بالذنْب الذي حمَّلته لنفسها من أجل أُمور كانت عاجزةً عن وقفها.

ليتَ الأُمور كانت غير ذلك. أرادت يائسةً لو تكون طاهرة لأجله، لو تكون جديدة. أرادت أن تسرَّه وتُسعِده. ستُكرِّس باقي عمرها لأجل هذه الغاية إن هو سمح لها. وأرادت أن تتجرَّد من ماضيها. يا ليتها تستطيع أن تكون حوَّاء مرَّةً أُخرى، مخلوقةً جديدة في الفردوس... قبل السقوط.

وبيدين مرتجفتين، أزالت عنها زخارف العالم. طرحت شالها وخلعت سترة الصوف. وعالجت الأزرار الصغيرة في البلوزة. ثمَّ نزعتها متلوِّيةً وهي تمشي. وحلَّت تنُّورتها، وتركتها تنزلق على وَرِكَيها، ثمَّ إلى الأرض، وتخطَّتها.

وبلا تردُّد أو تعثُّر، مضت تمشي إليه.

لم تكن قطُّ قد قالت كلَّ ما كان ينبغي. وهو لم يدرِ ما قد فعله لأجلها. ولطالما كان مثل البحر، أحيانًا يهبُّ عليه النَّوء فتتكسَّر أمواجه المُتلاطِمة على سُورٍ من صخر، وأحيانًا تترامى أمواجه ثابتةً وتُلاطِم الجُرف برِفقٍ ورقَّة. غير أنَّه كان دائمًا مثل المدّ، يغسل شاطئها ويُعيد تشكيل خطِّها الساحليّ.

يا ربّ، مهما يفعلْ أو يقُل، يَنبغي لي أن أشكره. لقد كان كلَّ حينٍ خادمك الصالح والأمين، وأنا لم أشكره قطّ. ليس شكرًا كافيًا وافيًا. آه، يا إلهي، لم أشكره قطُّ كما ينبغي!

وخلعت القميصول والقميصَ التحتيّ، وغطاء المُخصَّر[٣٥] والمِشدَّ، والسروال التحتيّ. ومع كلِّ قطعة ثيابٍ أزالتها وأسقطتها، طرحت عنها الغضب والخوف وعَمَهَها عن أفراح الحياة الكثيرة جدًّا، وكبرياءها الطائشة. فقد كان لديها قصدٌ واحدٌ ثابت: أن تُبيِّن لمايكل أنَّها تُحبُّه. وقشَّرت عنها طبقات الكبرياء واحدةً واحدة، حتَّى تذلَّلت بعُريها. وآخِر الكلّ، خلعت حذاءها الجلديَّ الرقيق، وطرحت الدبابيس التي ثبَّتت شعرها.

وإذِ اقتربت إليه، شاهدت الشيب على صدغَيه والأخاديد الجديدة في وجهه

٣٥) المُخصَّر: مِشد للخصر والردفين.

الحبيب. حتَّى إذا نظَرت إلى عُمق عينيه، أُريق كلُّ ما شعرت به. وكانت قد عرفت دائمًا ألمها ووحشتها وحاجتها. أمَّا الآن فها هي تواجه تلك كلَّها لديه.

آه، ماذا قد فعلَت له بإنكار حبِّها وإدارة ظهرها نحوه؟ لقد مثَّلت دور الله وفعلَت ما حسبت أنَّه الأفضل بالنسبة إليه، وكلُّ ما فعلته هو أنَّها سبَّبت له الألم. وقد كانت تحسبه أقوى من أن ينجرح، وأحكم من أن ينتظر. فلَكم قد كلَّفه عذابُها المُتطاوِل؟

طارت كلُّ كلماتها المدروسة جيِّدًا. كلماتٌ كثيرة جدًّا للتعبير عن شعورٍ بسيط يغمر القلب: إنَّني أُحبُّك، وأنا آسفة! بل إنَّها لم تستطع حتَّى النُّطقَ بكلمة. فقد انهمرت الدموع التي طالما جمَّدتها في داخلها طوال حياتها، وانهارت آخِر قلعة من قلاعها أمام سيلٍ جارف.

خرَّت آنجل على ركبتيها باكيةً، وتحدَّرت دموعٌ سخينة على حذاء مايكل. فمسحت الدموع بشعرها. وانحنت كسيرةَ القلب فوضعت يديها على قدميه. "آه، مايكل، يا مايكل، أنا آسفة...

آه، يا الله سامحني!

وأحسَّت يدَه على رأسها. ثمَّ قال: "حبيبتي". وأمسك بها وأنهضها. فلم تستطع أن تنظر وجهه، وودَّت لو تُخفي وجهها. فخلع مايكل قميصه، ولفَّه على كتفيها. ولمَّا أمسك ذقنها بأصابعه، لم تستطع إلَّا أن تنظر إلى عينيه مجدَّدًا. فإذا بهما مبلولتان كعينيها لكنْ ممتلئتان نورًا. وقال متبسِّمًا: "كنتُ أرجو أن تعودي إلى البيت ذات يوم".

"هنالك الكثير الكثير الذي أودُّ قوله: أُمور كثيرة جدًّا أُخبِرك بها".

فمرَّر أصابعه في شعرها المتماوج وربَّت قفا رقبتها. "لدينا ما بقي من عمرنا".

تأكَّد لها إذ ذاك أنَّها كانت قد شكَّت في كونه سيغفر لها من جديد. غير أنَّه قد غفر لها فعلًا. فيُمكِن أن تعيش معه إلى الأبد ولا تعرف أعماقه. آه، يا ربّ، شكرًا لك، شكرًا لك! وارتمت بين ذراعيه، مادَّةً ذراعيها على ظهره القويّ، ملتصقةً به على أشدِّ ما تستطيع، وعرفانُها بالجميل أقوى من أن تقدر على تحمُّله تقريبًا. فقد كان لها الدفءَ والنور والحياة. وأرادت أن تكون بحقٍّ لحمًا من لحمه، ودمًا من دمه. إلى الأبد! فأغمضت عينيها وتنشَّقت رائحته الطيِّبة، فشعرت بأنَّها عادت إلى بيتها أخيرًا.

وقد حسبت أنَّها خَلَصت بفضل حُبِّه لها. وذلك هو ما حصل فعلًا بصورة جزئيَّة. فإنَّ حبَّه طهَّرها، بغير أن يُلقي أيَّ لومٍ على الإطلاق. ولكنْ ذلك كان البداية فحسْب. فإنَّما حبُّها له في المقابل كان ما أخرجها من الظُّلمة. ماذا يمكنني أن أُعطيه أكثر من

ذلك؟ سأُعطيه أيَّ شيء.

وضمَّها مايكل إلى صدره برقَّة، قائلًا: "أماندا، تِرصَة..."

ساره! قالها الصوت الهادئ، وعَرَفتِ العطيَّة الوحيدة التي ينبغي لها أن تُقدِّمها: ذاتَها. فتراجعت عن مايكل قليلًا ورفعت نظرها إليه، قائلةً: "ساره، يا مايكل. لا أعرف تكملته. أعرِف هذا القَدْر فقط: ساره".

فطرفت عينا مايكل. وسرَت في أوصاله موجةُ بهجةٍ عارمة. إنَّ هذا الاسم مناسبٌ لها جيِّدًا. جوَّالةٌ في بلاد غريبة، امرأةٌ عاقر ساورتها الشكوك. غير أنَّ سارة القديمة باتت رمزًا للاتِّكال على الله، وأُمَّ أُمَّةٍ في نهاية المطاف. سارة: مسرَّة وبركة. سارة: امرأة عاقر أنجبتِ ابنًا. تلك زوجته الجميلة المُدلَّلة التي ستُنجِب له ولدًا ذات يوم.

هذا وعدٌ، يا ربّ؛ أليس كذلك؟ وشعر مايكل بدفءِ ذلك ويقينه يتخلَّلان كلَّ خليَّة من جسمه.

ثمَّ مدَّ يده قائلًا: "مرحبًا، سارة!" فبدا عليها الارتباك المُحبَّب إذ وضعت يدها في يده، فهزَّها وابتسم لها. "أنا سعيدٌ جدًّا بلقائكِ... أخيرًا".

فضحكت. "أنت رجل مجنون، مجنونٌ جدًّا يا مايكل".

وضحك مايكل معها وجذبها إلى ما بين ذراعيه وقبَّلها. وشعر بذراعيها تطوِّقانه إذ بادلته التقبيل. ها قد عادت إلى البيت لتبقى إلى الأبد هذه المرَّة. ولن يُفرِّق بينهما حتَّى الموتُ.

ولمَّا استعادا أنفاسهما، أدارها مايكل ثمَّ حملها وأقعدها على مِنكَبيه فرحًا. فرفعت رأسها إلى الوراء وفتحت ذراعيها على وسعهما لتُعانِق السماء، ودموع الاحتفال تنهمر على خدَّيها.

كان مايكل قد قرأ لها مرَّةً كيف طرد الله رجلًا وامرأةً من الفردوس. ومع ذلك، فعلى الرغم من جميع عيوبهما وسقطاتهما، بيَّن لهما الله سبيل الرجوع إلى الجنَّة.

أحِبّا الربَّ إلهكما، وأحِبّا بعضُكما بعضًا. أحِبّا أحدُكما الآخر كما يحبُّ الربّ. أحِبّا بقوَّة وعزم وشغف، مهما أتى عليكما. لا يَهِنْ عزمُكما ولا يفتر. قفا في وجه الظُّلمة، وأحِبّا. ذلك هو سبيل العودة إلى عدْن. ذلك سبيل الرجوع إلى الحياة.

خاتمة

عند المساء يبيتُ البكاء، وفي الصباح ترنُّم!

(المزمور ٣٠: ٥)

عاش مايكل وساره معًا سنين كثيرة سعيدة. وفي عيد زواجهما السابع، استُجيبت صلواتُهما بولادةِ ابنٍ أسمياه استيفن. ثمَّ جاء في أعقاب استيفن لُوك وليديا وأستير. كذلك نَعِم پول وميريام بعيشة سعيدة ورُزقا ثلاث بنين، مارك ودايفد وناثان.

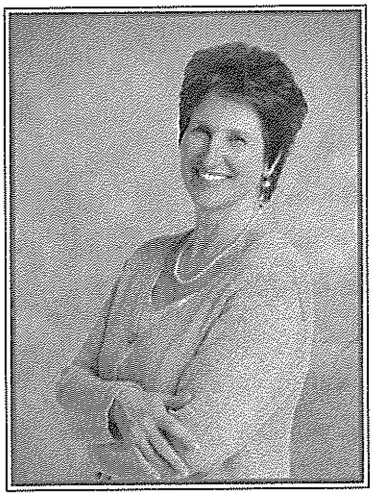
وقد ازدهرت كِلتا العائلتين وظلَّتا على صداقة متينة مدى الحياة. وتعاونتا معًا على بناء كنيسة ومدرسة محلِّيَّتين، واستقبلتا في الوادي كثيرًا من السكّان الوافدين الذين استوطَنوه.

وظلَّت سوزانًا في دار المجدليَّة حتَّى وفاتها سنة ١٨٩٢. وكانت عشرات الشابّات اللواتي علقن سابقًا في فخِّ البُغاء قد تمكَّنَّ بفضل سوزانًا من اجتياز العتبة إلى حياةٍ فُضلى. وتزوَّجت بعضُهنَّ زيجاتٍ صالحة وصرن في طليعة المواطنات الشريفات.

ولئن أصبحت عائلة ساره غنيَّة وشهيرة- وطلع منها في الأخير أطبّاء وسفراء ومبشِّرون وأيضًا ضابط كبير كثير الأوسمة- فقد ظلَّت تعود إلى دار المجدليَّة أسبوعًا كلَّ سنة. وما دامت صحَّتها تُسعِفها كانت تتمشَّى في الساحل الغربيّ وعلى أرصفة الميناء، تتحدَّث إلى البغايا الصبايا وتُشجِّعهنَّ على تغيير حياتهنّ. ولمَّا سُئلت عن السبب قالت: "لا أُريد أبدًا أن أنسى من أين طلعتُ وكلَّ ما قد صنعه الله لأجلي". وغالبًا ما رجعت من الأرصفة إلى دار المجدليَّة مُمسِكةً بيدها أنجِلًا ما.

وبعد ثمانٍ وستين سنةً من الزواج، وُورِيَ مايكل الثرى راقدًا في الربّ. ولحقت به سارة في غضون شهر. وامتثالًا لرغبتيه ما، لم يوضع على قبريهما أيَّة علامة سوى صليبين خشبيَّين بسيطين. ولكنْ بعد مرور بضعة أيَّام على وفاة ساره، شوهد النقش التالي مُخربَشًا على شاهدة قبرها:

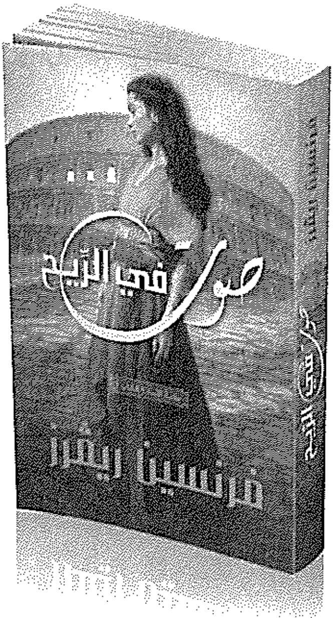
لئن سقطت سقوطًا ذريعًا
فقد أنهضها الله بالنعمة
وأحلَّها مكانًا رفيعًا
فكانت أنجِل ملاك رحمة!



فرنسين ريفرز

كتبَتْ أكثر من عشرين روايةً من أكثر الكتب مبيعًا، وقد نالَتْ عدَّة جوائز، بينها جائزة "الناقد لصفوة الآثار" *(Critic's Choice Award)* وجائزة "RITA" لكَتَبة قصص الحبّ في أميركا للأعوام ١٩٩٥، ١٩٩٦، ١٩٩٧م على التوالي عن أفضل الروايات الرومانسيَّة الملهِمة، ممَّا أدخَلَها قاعة مشاهير الروائيّين، كما أنَّها نالَتْ ميداليةً ذهبيَّةً تقديريَّة نظيرَ روايتها **"آكل الخطيئة الأخير"** *(The Last Sin Eater)*.

ومن مؤلَّفاتها الأخرى في العربيَّة ، روايتا **"صوت في الريح"** و**"صدى في الظَّلام"**، الكتابان الأوَّل والثاني من سلسلة علامة الأسد من منشورات أوفير للطباعة والنشر. وللمزيد عن هاتَين الروايتَين، انظُرِ الصفحة التالية:



صوت في الرّيح

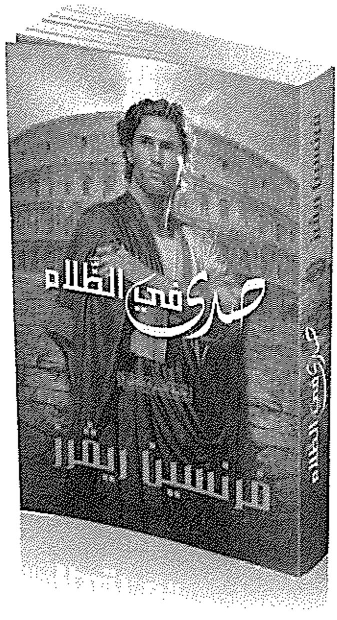
الكتاب الأوّل من سلسلة علامة الأسد

سترحلُ بك هذه الرواية عبر الزمن إلى القرن الأوّل الميلاديّ، وتحديدًا إلى مدينة القدس عندما كانت تحت الحُكْم الرومانيّ، حيث سنتعرّفُ إلى هَدسَّة، الفتاة التي نجَتْ من مجزرةٍ كان من بين ضحاياها أهلُها، ثُمَّ سُبِيَت وبيعَتْ عبدةً إلى عائلة أحَد التُّجّار.

ومع أنَّ قلبَها قد تمزّقَ بسبب حبّها لشابٍّ أرستقراطيٍّ اسمُه مَرقُس، فإنَّها تشبّثَتْ بإيمانها بإلهها الحيّ.

وفي الكتاب الثاني

صدى في الظّلام



سنُتابعُ التقلُّباتِ والتبدُّلات التي حدثَتْ لشخصيّاتِ الكتاب الأوّل، لا سيّما شخصيّةِ مَرقُس.

كما سنَعرفُ هنا معنى "علامة الأسد": أين رُسمَت؟ مَن صاحبُها؟ ما الأثرُ الذي تركَتْه في نفسِ صاحبِها وجسده؟ أهيَ رمزُ قُبحٍ وخزي أم أنَّها بوّابةُ انتصارٍ واسترداد؟

هل تقدر المحبَّة أن تخلِّص أيَّ إنسان؟

بلادُ الذهب الجبليَّة في كاليفورنيا عام ١٨٥٠م...

زمانٌ كان فيه رجالٌ يبيعون أنفسهم لأجل كيسٍ من الذهب، ونساءٌ يبعنَ أجسادهنَّ لأجل مكانٍ يَبِتنَ فيه. وها هي آنجِل لا تتوقَّعُ من الرجال سوى الخيانة والغدر. فبعدما بيعَتْ للبَغاء في صِغرها، صارتْ تستَمدُّ قوَّتها للحياة عبر إشعال حقدها وكرهها. وأكثر ما تكرهه هو الرجالُ الذين يستغلُّونها، تاركين إيَّاها خاويةً وجامدةً.

ثمَّ تلتقي مايكل هوشع... رجلٌ يتقدَّمُ إلى الزواج بها ويُبدي لها حبًّا، لا تُبادلُه إيَّاه. لكنْ يومًا بعد يوم، وعلى مهل، يتحدَّى مايكل كلَّ توقعاتٍ مُرَّةٍ لدى آنجِل عن الرِّجال، حتَّى يبدأَ قلبُها المتجمِّد ينصَهر، رُغمَ مُقاوَمَتها. إلَّا أنَّ آنجِل تظلُّ تصطدمُ بمشاعرَ ساحقةٍ من الخوف وعدم الاستحقاق. وهكذا، تهربُ عائدةً إلى الظَّلام مبتعدةً من حبِّ زَوجها الذي ظلَّ يطلبُها، مرتاعةً من الحقيقةِ التي لا تَعودُ تستطيعُ إنكارها: أنَّ شفاءَها الحاسمَ يجب أن يأتيَها من محبَّةٍ تفوقُ محبَّةَ مايكل هوشع... محبَّةٍ لن تدعَها تُفلِتُ أبدًا.



فرنسين ريڤرز

كتبت ما يزيدُ على عشرين رواية من أكثر الكُتُب مبيعًا، وقد نالَتْ عدَّة جوائز، بينها جائزة (RITA) لروائيِّي قصص الحبِّ في أميركا. في عام ١٩٩٧م، وبعد حصولها على هذه الجائزة للسنة الثالثة على التوالي، دخلت فرنسين قاعة مشاهير الروائيِّين في أميركا.

"قالوا عنها: إنَّها روايةٌ مغيِّرةٌ للحياة. لكنِّي وجدتُ أنَّها أعمقُ من ذلك... إنَّها اكتشافٌ للحياة!"

"روايةٌ تضعُ أمام القارئ حقائقَ بالغةَ الدقَّة عن الفرق ما بين المقاييس البشريَّة والمقاييس الإلهيَّة في التعامُل مع الأحداث التي يمرُّ بها البشر".

"تُعدُّ هذه الرواية من أجمل الروايات التي استغرقَني أقلَّ من يومٍ لأُكمِلَ صفحاتها الخمس مئة".

www.ophi
fb.com/op
@ophirpu

ISBN 978-90-5950-187-4
9789059501874